تفسير

عرائس البيان في حقائق القرآن

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد المزيدي

المجلد الثاني

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"





دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

عرائس البيان في حقائق القرآن

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد المزيدي

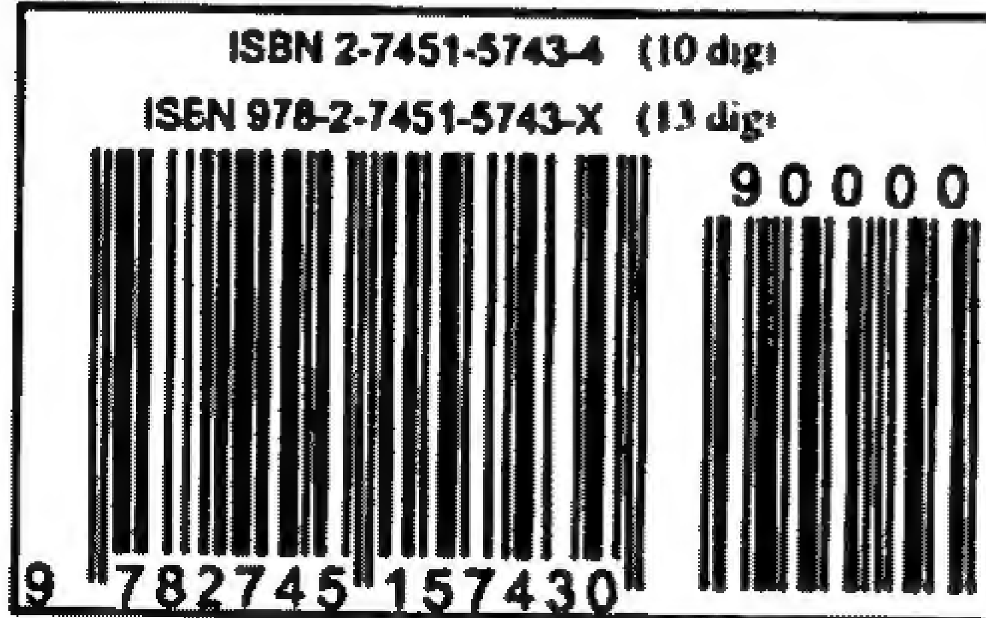
الجزء الثاني

المحتوى:
أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"

دار الكتب العلمية
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Title: ʻArāʼis al-Bayān fī Ḥaqāʼiq al-Qurʼān
classification: *Exegesis of the Qur'an*
Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Farid al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: عرائس البيان في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لونان)





دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان




الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة التوبة

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ
حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ
فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

افهم أن الوفاء بالعقود، وعهود المعرفة والمحبّة والعبودية، لا يأتي إلا ممن شاهد الربوبيّة حين خرج من العدم بنور القِدم، ومن خلا من المحبّة، وعشق القديم فليس له عهد، والوفاء بالعقد.

وكيف يكون منهم الوفاء وهم عن ساحة الكبرياء مطرودون إلى الأبد هم من وصال الحقّ غير مقبولين، قد بَرِء الحق من أهل الرعونات الذين يعبدون أنفسهم وهواها، والدنيا وزينتها وجاهها، وقبولها ألزمهم سمات الفراق؛ لخروجهم من عهد الأزل والميثاق، ياليتهم لو أعلموا أداء الفرقة لفنوا من آلام البعد، وأي داء أشدّ من داء الفراق، وأنشد في هذا المعنى:

وكلُّ مُصيبَاتِ الزمانِ رأيتُهَا سِوَىٰ فُرقةِ الأحبَابِ هينةَ الخَطْبِ

تقبَّل الله ورسوله كلّ عذرٍ سوى الشرك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم، حيث ساوى الحدث بالقِدم، ووقعت الفُرقة بالبداهة بعد العهود.

وما أشد ذلك لاسيّما إذا كانت بغتة على غير رقبة في أزمنة السليمة:

فتنبّأ بخير والدُّنا مطمئنّة ... وأصبحتُ يومًا والزمانُ تقلُّبَا

كانوا في زمان العهود على رجاء الوصول، فجازتهم طوارق الغيرة، وأسقطتهم عن نيْل المنية، وكأن سراج الوصل أزهر بيننا، فبهت به ريح من البين فانطفأ.

ثم أنّ الله سبحانه رأى نقض عهودهم بعد أن أمهلهم في زمان يمكن تدارك ما أفاقوا، وذلك ما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[1].

وأشفع عليهم بنقض العهد بين جمهور الخلائق، بقوله:﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾: عرف عباده يوم عيد الأكبر يعني: يوم كانت الأرض والسماء واحدًا، بل العرش والكرسي والأرض سواءً لكشوف جلاله لنبيّه وأوليائه.

قال ﷺ: «إذا كان يوم عرفة إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة...»[2].

بأنه تعالى بريءٌ من المشركين المحجوبين بهواهم عن الله ورسوله، بريء منهم؛ لأنّ الحبيب يوافق حبيبه في كل مراده، وهكذا يقتضي غيرة التوحيد.

قال ابن عطاء: كلّ من أشرك مع الله فيما لله غير الله فهو منه بريء، ثم من كرمه ورحمته ما أخرجهم عن مربع الرجاء بالكلّية، وما قطع حبال الوصال بالجملة حين استتابهم بقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إن رجعتم من حظوظ أنفسكم من الدنيا إلى حظوظ قلوبكم من مشاهدتي، فهو خير لكم، فإنّ الخير كلّ الخير في وصالي وقربتي.

و«التوبة» عند أهل الإشارة: ذهاب الحدثان على الجنان عند مشاهدة قِدم الرحمن.

قال أبو عثمان: التوبة مفتاح كلّ خير﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) إشارة إلى أن للنفوس في أرض البشرية سيرًا وسياحة لتكميل الأوصاف الأربعة من النباتية والحيوانية والشيطانية والإنسانية التي تتولد بازدواج الروح العلوى الروحاني المفرد والقالب السفلى المركب من العناصر الأربعة. فالنباتية تولد الماء. والحيوانية تولد الريح. والشيطانية تولد النار. والإنسانية تولد التراب فلتكتمل هذه الصفات أرخيت أزمة النفوس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة. تفسير حقي (٤/ ٤٨١).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٦٣).

ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ
فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا
نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ
أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ
يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: وصف الله سبحانه المخالفين بأنّ ليس لهم رعاية أهل الجنّة، ولا يحترمون أهل المعرفة؛ لقلّة معرفتهم بحرمات أهل الحضرة، وما مَنَّ الله عليهم من الكرامات السَنيّة.

قال محمد بن الفضل: حرمة المؤمن أفضل الحرمات، وتعظيمه أجلّ الطاعات، قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بيّن الله تعالى أن من يخشى غير الله، فلا وزن له في المعرفة، صغر الأعداء في عيون الأولياء؛ لئلا يفزعوا منهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملأ قلوبهم من أنوار هيبته وإجلاله، وحذّرهم من المداهنة في الدين، وعرّفهم عجز الخلق بعد تعريفهم عزّته وجلاله، أي: تخشونهم، وهُم هباءٌ في بطش قهر ربوبيّتي، فأنا أهل أن تخشوا مني، فإنّي بوصف الجبروت قهّار قهر كلّ من يبارزني في محاربة أوليائي، وأضاف خشيتهم إلى نفسه بلفظ الجمع على معنى الذات والصفات، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: اسم الله: اسم عين الجمع، وهو عين الذات والصفات.

قال بعضهم: الخشية للذات، والخوف للصفات.

قال الله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾.

وقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ ﴾ : خاطب المدّعين الذين يظنّون أن الحقيقة تحصل بمجرّد الدعوى دون التحقّق بالمعنى بالتفريع عند حسابهم وتخاييلهم، وعرّفهم أن من لم يكن باذلًا لوجوده لله، مخلصًا في معرفته بنعت زوال عوارض البشرية، والصدق في صحبته أهل الولاية، فهو على غلط من حسبانه، وفي سهو من حسابه، وذلك تمام الآية بقوله: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (١)، ثم حذّرهم عن دعوى المحال، وما في ضمائرهم من غبار الخيال، بقوله:﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ : جمع الله سبحانه جملًا من الخِصال الحميدة من الفرائض والسنن، والإيمان والمعرفة، والثقة بوجوده فيمن يجوز له عبارة مجالس أُنس العارفين والمحبّين والعابدين والمطمئنين والمراقبين.

وتلك العمارة تكون بخلوّ قلبه عمّا دون الله عند دخوله في مساجد الله، وطهارة سرّه عن شواغل الطبيعة، وغبار الوسوسة.

قال بعضهم: عمارة المسجد بعمارة القلب عند دخوله بصدق النيّة، وحسن الطوية وطهارة الباطن لله، كما طهرت ظاهرك بأمر الله، ودخول المسجد بالخروج عن جميع الأشغال والموانع، فذلك من عمارة المساجد.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا

---

(١) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (٢/ ٣٨٨).

ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: أنَّ الله سبحانه وصف المهاجرين في الآية المتقدّمة، بخروجهم مما دون الله لوجدان رضوانه، وبشارته بلقائه وغفرانه، وهو تعالى لمّا وجدهم أسارى سلب مشاهدته، ومقيَّدين بأسر محبَّته، ولم يرَ في قلوبهم من العرش إلى الثرى غير أنوار الإيقان والعرفان، بشّرهم بنفسه بلا واسطة، وإذا كان المُبشِّر واسطة بين الأحباب والحبيب، فهو عظيم كما قيل:

لَولاَ تمتّعُ مُقلتِي بلقائِهِ ... لوَهبتُهَا لمُبشّرِي بإيَابهِ

لاسيما والحبيب هو مُبشّرهم بنفسه، وبشارته خطاب مع كشف المشاهدة، ومَن يُطيق أن يسمع بشارته بوصاله مع كشف جماله أن يَبقى عند حُسن شهوده، ولذّة خطابه، وهذا كما أنشد:

تراءيتَ لِي بالغيبِ حتّى كأنّما ... تُبشّرنِي بالغيبِ أنّكَ بالكفِّ
أراكَ وبِي مِنْ هَيبَتِي لكَ وَحشةٌ ... فتؤنِسُني باللطفِ منكَ
وتُحيِي محبًّا أنتَ فِي الحبُّ حتفهُ ... وإذْ أعجبُ كونُ الحياةِ معَ الحتفِ

بشّرهم برحمته، ورحمته كشفت جماله بلا حجاب، وهو أول درجة العارفين، ثم بشّرهم بالرضوان، وهو الوصال بنعت المؤانسة بلا كدورة الهجران، ثم بشرهم بدخولهم في جنات قربات الصفات والذات، بنعت تحصيل علوم الأزال والآباد من رؤيتها، والبقاء في نعيمها بنعت الدواء، وأي نعيم، وأي جنّة أشرف من تجلّي جلاله، وجماله لعرفانه.

بشّر المؤمنين بالرحمة، وبشر المطيعين بالجنّة، وبشر العارفين بالرضوان والوصلة، وأيضًا بشر التائبين بالرحمة، وبشر الصادقين بالمشاهدة، وبشر المحبّين بالمجاورة.

قال أبو عثمان: هو الذي يستجلب رضوانه، ورضوانه يوجب مجاورته، ومجاورته توجب النعيم الدائم.

قال الله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

ويقال: إن القلوب مجبولة على حب من يُبشِّر بالخير، فأراد الحق سبحانه أن تكون محبّة العبد

له سبحانه على الخصوص، فتولّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾: أخبر سبحانه أن الأولياء والأصفياء لا تخلو قلوبهم من قوارع خطرات الامتحانية، مع شرفهم بالولاية، واصطفائيتهم بالكرامة؛ ليعلم الحقّ أن ولايتهم غير مكتسبة بالأعمال، وهذا تعريفه تعالى مواضع نعمه لهم، واختياره لهم المنازل الرفيعة في الأزل، ومعنى الآية أي: حيث تبرأتم من حولكم وقوّتكم، وافتقرتم إليّ، وفررتم مني إليّ، ونصرتكم على عدوّكم بحولي وقوّتي حين شاهدتم عزّة أزليتي، وجلال أبديتي، وحين نظرتم إلى حولكم وقوتكم، واحتجبتم بها عن مشاهدة قدرتي تركتكم مع أنفسكم.

قال جعفر: استجلاب النصر في شيءٍ واحد، وهو الذلّ والافتقار والعجز، لقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: لم تقوموا فيها بأنفسكم، ولم تشهدوا قوّتكم وكثرتكم، وعلمتم أن النصر لا يوجد بالقوة، وأن الله هو الناصر المُعين، ومتى علم العبد حقيقة ضعفه نصره الله، وحلول الخذلان بشيءٍ واحد، وهو العجب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، فلما عاينوا القدر من أنفسهم دون الله، رماهم الله بالهزيمة، وضيّق الأرض عليهم.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾: موكولين إلى حولكم وقوّتكم وكثرتكم، فلما رأى تقصيرهم بصرف عيونهم عن مشاهدة الله إلى أنفسهم طرفة عين، وندموا على ذلك، ورجعوا بعد الامتحان إلى ساحة الرحمن ألبسهم الله أنوار قربه، وكساهم سنا قدرته وهيبته، ولذّت قلوبهم بحُسن عنايته حتى قويت بها في احتمالها أثقال عبوديته[1]، وبيّن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: والإشارة فيه إلى أن قلب نبيّه ﷺ كان لم يخلُ أيضًا من شواهد امتحانه؛ لأنّ الحق حق، والخلق خلق؛ ولذلك قال: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

كان عليه الصلاة والسلام في مثل ذلك يقول: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2].

﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: زيادة أنوار كشف مشاهدة الله له حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفائيته الأزلية، وأمِنه من مكره لا أنه ينظر من الحقّ إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحار القِدم لم ير للحدث أثرًا، ورأى الحدثان متلاشية في قبض بطش العظمة، ففزع منه به، فآواه الله منه إليه حتى سكن به عنه سكينته بالدنو، حيث قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، وثباته بدنوّ الدنو، بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩]، فلمّا وصفه بالمرتبة الأعلى، والمشاهدة الأدنى، وسكينة قربه الأصفى، زاد في وصفه حين لم يرَ في مشاهدة القِدم ما خرج من العدم، بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] سكينته كانت من رؤية الذّات، وسكينة المؤمنين من رؤية الصفات.

قال بعضهم: السكينة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ هي التي أظهر عليها ليل المسرى عند سدرة المنتهى، فما زاغ، وما طغى، بل السكينة إقامة مقام الدنوّ، بحُسن الأدب ناظرًا إلى الحقّ، مستمعًا منه، مثنيًا به عليه، بقوله: «التحيات لله»[3].

والسكينة التي نزلت على المؤمنين، هي سكون قلوبهم إلى ما يأتيهم به المصطفى ﷺ من

---

(١) قال القشيري: يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهْر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابَها، ولم تُغنِ عنكم كَثرتُكم، فاستخلص اللهُ أسرارَكم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ على الأعداء، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار، وارتدّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٨٦)، ومسلم (١/ ٣٠١).

وعد ووعيد، وبشارة وحكم.

وقيل: السكينة المقام مع الله بفناء الحظوظ.

قال الأستاذ: السكينة استحكام القلب عند جريان حكم الرب بنعت الطمأنينة، وبخمود آثار البشريّة بالكلّية، والرضا بالبادي من الغيب من غير معارضةٍ واختيار.

ويقال: السكينة القرار على بسط الشهود بشواهد التأديب، بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقّة، ولا تحرك عرق بمعارضة حكم، وذكر تمام نعمه بإنزال الملائكة عليهم بقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وفي لطيف الإشارة «الجنود»: روادف آثار قوّة تجلّي الحقّ بغير الاحتجاب، ونعت الانقطاع.

قال الأستاذ: الجنود ههنا وفود اليقين، وزوائد الاستبصار، ثم إن الله سبحانه وصف من كان مجبولًا في الأزل بسِمة السعادة، وبقي في حجاب النكرة، يخرجه بأنوار سوابق حكمه من ظلمات قهره، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: كشف لهم ما غاب عنهم من أنوار معدن الغيب، وهداهم بها إلى محلّ شهود الحضرة، ومَنَّ عليهم بكشف المشاهدة، وأوصلهم إليه بالرحمة، وسترهم بوصله عن غير الفرقة، وذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ما أكرم مولانا تعالى سبقت رحمته ومغفرته لعباده في الأزل، مع علمه بما يبدو منهم من العصيان، ولم يكن عليهم غضبًا، ولم يسلب منهم غفرانًا، سبحانه ما ألطفه سبحانه.

قال الأستاذ: ردَّهم من الجهل إلى حقائق العلم، ثم نقلهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين.

ثم إن الله أعلمنا بفضله أن مَنْ لم يكن خاطره مطهرًا بمياه التوحيد من بحر التفريد من أدناس الوساوس، ورياء الناس لا يصلح لمقام القُرب والاستئناس، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾: بيَّن أن من بقي في قلبه في عبودية خالقه نظر إلى غيره، أو إلى نفسه لا يجوز أن يدنو من مجالس أوليائه، فإنّ صحبته تشوّش خواطرهم، وتنجّس بنَفَسه أنفاسهم، وحذّر العارفين أيضًا من صحبة المخالفين؛ لأنهم غرائس الله، ولا يجوز أن ينظر إليهم.

قال الجنيد: الصوفية أهل بيت لا يدخل فيهم غيرهم، والإشارة فيه أيضًا أن من عكس فيه آثار قهر القِدم، أوقعه في بحر رؤية النفس، وتلك الرؤية نجاسة بقيت في قلبه، ولا يقرب بها من مواقف القدسية من عالم الملكوت والجبروت.

قال أبو صلح حمدون: المُشرك في عمله، مَن يحسِّن ظاهره لملاقاة الناس، ومجاورتهم

ويُظهر للخلق أحسن ما عنده، ويَنظر إلى نفسه بعين الرضا عنها، بما أظهر عليها من زينة العبادات، وينجُس باطنه بمخالفة ما أظهره من الرياء والشهوات، وسائر المخالفات، فذاك المشرك في عبادته، النجس باطنه، ولا يصلح لبساط القدس إلا المقدَّس ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلنًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ومن كان نجسًا، فإن الأمكنة لا تطهّره، وستر الظاهر عليه لا ينظّفه.

وقال الأستاذ: فقدوا طهارة الإسرار بماء التوحيد، وبقوا في قذرات الظنون والأوهام، فمنعوا قربان المساجد التي هي مشاهد القُرب.

ثم إنَّ الله سبحانه وعد العارفين بأن يكسوهم كسوة غنى بقائه؛ حتى لا يحتاجوا للنظر إلى سواه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1]: إذا أخرجتم أهل الدنيا من بين سفير الأعلى من المقرّبين الذين نعوتهم الفقر، وسماتهم التصوُّف والعبادة، ويخطر على قلوبكم انقطاع مواساتهم لكم، فأنا أغنيكم عمّا سواي، وأرزقكم من غير وسيلة تحتجبون بها عني.

قال الأستاذ: توقُّع الإرفاق من الأسباب، من قضايا انغلاق باب التوحيد، ومَن لم يفرد معبوده بالقسمة يبقى في فقر سرمدي.

ويقال: من أفلح بعفو وكرم مولاه، واستمطر سحاب جوده غناه عن كلّ سببٍ، وكفاه كلّ تعب، وقضى له كلّ سؤلٍ وأربٍ، وأعطاه من غير طلب.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكّة، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. البحر المديد (٢ / ٣٩٤).

يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾: عبر مَن بقي في رؤية المقتدى عن رؤية الحقّ، وإن كان وسيلة منه، فكان في إفراد القِدم من الحدوث إلى النظر إلى الوسائط شرك، وتصديق ذلك تمام الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: غيرة الوحدانية ما أبقت في البيْن غير أمن الشواهد والآيات، وجميع الخلق.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، ولما رأى ﷺ غيرة القِدم على شأن استهلاك الغير، زجر من مدحه، وتجاوز في المدح، فقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»[1]، وتحرّك في تفريد سرّه من رفع الحدثان، حين تكلّم في الصحو بعد السكر، وأخبر عن فناء الكل في الكل، وقطع مسالك الصورة عن إفراد القِدم، بقوله ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[2]، بعد أن كان مأمورًا بمتابعة الخليل ﷺ، بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٣٢].

قال أبو يزيد في «مقالة التوحيد»: إيّاك أن تلاحظ الحبيب والكليم والخليل، وتجد عند الله سبيلًا.

وسُئل الشبْليّ عن وصف جبرائيل ﷺ، فقال: والله ما خطر على قلبي منذ شهر أنّ الله خلق جبرائيل، وأخبر عن فناء شهوده في شهود الله.

قال بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحقّ من غير مكانه، وطرق الحقّ واضحة لَمن كمل بنور التوفيق، وأبصر سبل التحقيق، ومن عمي عن ذلك كان مردودًا عن طريق الحقّ إلى طُرق الضالين من الخَلق.

وقد وقع أنهم معيّرون وموبّخون بقلّة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزرّاقين من أهل السالوس المتزيّنين بزيّ المشايخ والعارفين المتحقّقين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ، ونحن رؤساء الطريقة، يضحك الله الدهر ملجأهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن مَن لم يذق طعم وصال الله، وقلبه معلّق بغير الله يكون

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧١).

(٢) تقدم تخريجه.

من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمُريد خيرًا، هداه إلى صُحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء، ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم يكفيهم شقاوتهم، لاسيما ويطعنون الصدّيقين والعارفين، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: كيف يُطفئون نيّرات حسناتهم، وأنوار شموس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولآلىء خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية، وسماوات القيّوميّة، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية، ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: إنّ الله سبحانه سنّ سنّة أزليّة، ألّا يجد أحدٌ سبيله إلّا يفيض له أستاذًا عارفًا بالله وبعبوديته وربوبيته، فيدلّه إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، بغير علّة، ولا سبب جعله واسطة للتأديب، لا للتقريب، وصيره شفيعًا للجنايات، لا شريكًا في البدايات، هُداه نور القرآن، ودينه حقيقة البيان مع إظهار البرهان.

قيل: جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه، وبعثهم أعلامًا على الطرق، ونورًا يهتدون به، وعَمَّر بهم سبيل الحقّ، وحقيقة الدين، قال الله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وَبَّخ الله البخلاء بقلّة الإنفاق، وخروجهم عن سبيل الوِفاق، ولا يكون ذلك إلّا من مواريث النفاق، وتأثير الفراق.

قال بعضهم: من بخل بالقليل من ملكه، فقد سدّ على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا

يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾: جعل الله أيام الفراق ممدودة، وجعل أيام الوصال بلا حساب، ولا انقطاع، وجعلها على التأبيد.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٣٣]، وجعل لأيام العبادة منقطَعًا، وجزاؤها بمشاهدته لهم لم يجعل له منقطعًا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠]: حثّ بهذه الآية المشتاقين إلى الفرح بوصاله، وزيادة شوقهم إلى كشف جماله، حيث جعل أيام التفرقة القليل، وحُسن وصالهم الخليل:

دنَـــا وصــــالُ الحبيــبِ واقــتربَا   وطـــربًا للوصـــالِ وأطـــربَا

كان في الكتاب الأزلي لأيام العبودية حصر؛ لأنها زمان الامتحان، وهي مِن أوصاف الحدثان، فإذا خرجت من أماكن الكونين لا يبقى إلا أنوار جمال الرحمن المنزّهة عن تغاير الملوان، وعن الانقلاب والدوران، وحدود المكان، ومضيّ الزمان، لا يكون هناك إلا كشف جمال الأزل بجلال الأبد، وكشف جلال الأبد بجمال الأزل ليس عنده مساءُ غروبٍ بالفناء، ولا صباح علل البداء.

وقت العارف في كشف جمال وجهه ليس وقت الأزمنة، بل تسرمد استغراقه في بحار القدمية، وطيرانه بأجنحة البقاء في هواء الأبديّة، ولا يجري عليهم طوارق الزمان، ولا علّة الحدثان، ما أطيب أيام الوصال للمشاهدين كشف الجمال، وطوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن من نعمة من وجهك الحسن .

والإشارة في قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كشفَ أوقات السرمدية بنعت تجلّي الأزليّة لوقت مرور القضاء والقدَر، اليوم عبارة عن طلوع الشمس وغروبها، وليس في جلال القِدم مشرق الحدث، ومغربة المشارق هناك آزال، وآزال الآزال، والمغارب آباد وآباد الآباد، الدهر الدهار، والفلك الدوّار فانيان في قدم الرحمن، أوجد من العدم وقتاً بقدر يومٍ، فخلقَ الخَلق في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾[1] وجعل بكرمه ورحمته منها شهور القربات، وزيادةً للمدانات، ومناسكًا للعبادات، وشرّفها لكشف المشاهدات، ومنعهم فيها عن التمتُّع والتنعُّم، وأمرهم فيها بالتعطُّف؛ وأمهل فيها الخارجين من السنّة؛ لتأهُّبهم أهبّة الأولية والأبرار إلى جوار الرحمة، وما سواهما من الأيّام والشهور، رفاهيةً لأهل الأنس، ومطايبة لأهل البسط، وكذلك تلك الحرمات على أهل القُربات، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ إلى الطريق المستقيم إلى الله، وشهادة وصال الله، وكشف مشاهدة الله، وحذّرهم فيها عن مخالفة الله، بقوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، بمنعها عن المجاهدات، وطلب المشاهدات، وإعطائكم حظها من الشهوات.

قال بعضهم: ظلم نفسه من أطلق عنانها في طرق الأماني من اتِّباع الشهوات، وارتكاب السيئات، والتخطِّي إلى المحارم.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ ذمَّ الله قومًا عموا عن رؤية ما بدا لهم من نفوسهم من المخاييل الشيطانية التي هيجتهم إلى الاستبداد بآرائهم الفاسدة في استبداعهم طهي الباطل، وهم رأوها من أنفسهم مستحسنة، من قلة عرفانهم بطريق السنة الإلهية.

قال الواسطي: خيرهم على ما فيه هلاكهم، ولم يعذبهم، بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾.

وسُئل جعفر الصادق عن قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾.

قال: هو الرياء، ثم حث المؤمنين بترك الدنيا ولذّتها؛ لأجل مشاهدته، وحسن رضاه بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: اخترتم موضع الكرامات، وظهور الآيات عن كشف المشاهدات.

قال يحيى بن معاذ: الناس من مخافة النصيحة في الدنيا وقعوا في فضحية الآخرة.

قال الله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾،ثم وصف الدنيا بالقلة والدناءة، ووصف الآخرة بالشرف والمنزلة، بقوله:

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما وجد العارف الصادق في الدنيا من القربة والمعرفة، والوجه والحالة والفضل والكرامة في جنب ما تجده من الحضرة بعد

---

(١) لمّا عَلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرْبِ أَفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل، ليخُصُّوها باستكثار الطاعة فيها. فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِهِ فجميعُ الشهورِ لهم شعبانٌ ورمضانٌ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة، وجميع البقاع لهم مسجد، تفسير القشيري (٣/ ٩٥).

وصوله إليها، وما يرى من وصال الحق، وكشف جماله أقل من قطرة في البحار.

قال النهرجوريّ: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب واحد، وهو التقوى، والناس سفر.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾: مَنْ كان مصطفى بتأييد الأزل لا يحتاج إلى نصرة أحد غير الله، ومن أعزه الله بعزته، جعله ناصرًا له، وهو مستغن عن نصرته، وناصره تشرف نصرته، أو نصرة الخلق قائم بنصرة الحق، ومن انقطع إلى الله من الخلق، أعانه الله على كل هَمّه، ويصل إلى كل نعمة.

وصف تعالى نصرته لنبيه ﷺ حين أوى إليه في دخوله مع صاحبه في الغار، بكشف جماله، وإبراز نور منه لصاحبه، أي: من كان قادرًا بنصرة من كان مخفيًا وراء نسج العنكبوت على أعدائه بلا مددكم ولا عددكم، وأيضًا هو ينصره، ويجعله غالبًا على كافة الخلائق مما أعطاهم من راية نصرة الأزلية، وأعلام دولة الرسالة والنبوة.

قيل: نصره الله حيث أغناه عن نصرتكم، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧]، ومن كان في ميدان العصمة، كان مستغنيًا عن نصرة المخلوقين، ألا تراه لما اشتد الأمر كيف قال: بك أصول فإنك الناصر والمُعين.

ومعنى قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾[1] إشارة إلى خاصية الصدّيق لصحبته الحبيب، إذ كان مشرب من مشارب بحار نبوته، وسواقي أنهار رسالته التي جرت

---

(١) رُوي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله ﷺ حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر ﷺ على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهما» فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه. البحر المديد (٢/ ٤٠٤).

من قلزم القدم.

ولولا تلك الأهلية لما كان فردًا في الصحبة، وكان الصدّيق في منزل ما كان محمد، وكان الله ولم يكن معه شيء من شقائق قدسه، وبرق من بروق أنوار أنسه، خرجا من تلك الأنوار ودخلا بها في الغار، وعرّف الحبيب الصدّيق خصائص المعيّة معه حين ورد عليه طوارق الامتحان، وأخرجته من رؤية الحدثان، بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا يحزن بتغير الاصطفائية، وانكسار حصون العصمة، فهو معناه بمعنى القدرة والعلم الأزلي، وعناية الأبدية، وظهور مشاهدته من حيث القلب والروح والعقل، بوصف المناجاة والمداناة.

وقال ابن عطاء في قوله:﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾.

قال: في محل ا القرب في كهف الأنوار في الأزل.

وقال في قوله:﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾: ليس من حكم من كان الله معه أن يحزن.

وقال الشبليّ:﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾: تشخصه مع صاحبه، ووحّد الواحد بقلبه مع سيّده.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ معناه: إن الله معنا في الأزل حيث وصل بينًا، ووصل الصحبة، ولم يتفضل.

قيل في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: كان حزن أبي بكر ﷺ؛ إشفاقًا على النبي ﷺ.

وقيل: شفقة على الإسلام أن يقع فيه وهن.

وقال فارس: إنما نهى عن الحزن؛ لأن الحزن عنه، وإنما هو تعريف أن الحزن لا يحل بمثله؛ لأنه في محل القُربة.

وقيل: أخرجتهما الغيرة إلى الغار عليهما الحق، فسترهما عن أعين الخلق؛ لأنهم كانا في مشاهدته يشهدهم ويشهدونه، ألا ترى كيف يقول ﷺ لأبي بكر ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] مشاهدًا لهما، وعونًا وناصرًا.

ويقال في قوله: ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ من تلك النصرة أبقاه إياه فيها أبقاه به من كشوفاته في تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كشفه.

ويقال: صحيح ما قالوا للبقاع دون ما خطر ببال أحد، أنّ ذلك الغار يصير مثوى ذلك السيد ﷺ؛ ولكن يختص بقسميه ما يشاء، كما يختص برحمته من يشاء.

ويقال: عُلقت قلوب قوم بالعرش، فطلبوا الحق منه.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٣٧)، ومسلم (٤/ ١٨٤٥).

وهو تعالى يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أنه سبحانه تقدس عن كل مكان، ولكن هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وينشد:

يَـا طالـبَ اللهَ فِي العـرشِ الـرفيعِ بـهِ لا تَطلُـبِ العـرشَ إن الحـبُّ فـارهُ

لي نكتة عجيبة في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ في قوله ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا نفى الاتحاد بالوحدانية، كما نفى عن عيسى وأمه حين زعموا النصارى أن الله ثالث ثلاثة: فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣] نفى الإلوهية عن الروح والصدّيقية، كما نفى هاهنا عن سيد المرسلين، وسيد الصدّيقين حتى لا يظن ظان أن من العرش إلى الثرى لم يكن في ساحة الكبرياء والأزلية أثر؛ لأن الألوهية القديمة ممتنعة عن الانقسام والافتراق والاجتماع، وتحقيق ذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وتلويح ذلك نفي الاتحاد، وإظهار الانبساط، ودليل الإشارة بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أثبت الحزن في طلب أبي بكر ﷺ، وذلك الحزن حزن فوت الحال، والوقت في زمان البأس والابتلاء، وعرف ﷺ أن الوقت والحال لا يفوت عنا، فهو تعالى معنًا بالكشف والوقت والحال، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ثم زاد في حدث الكشف والوصال حيث حزن صاحبه لأجلها بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ إشارة أن سكينته نزلت من عند الله على قلب محمّد ﷺ، وتلك زيادة وضوح الكشف والمداناة، النبي ﷺ كان مستقيًا في الأحوال كلها، وما حزن لأجل الفوت، ولكن أنزلت السكينة عليه؛ لأجل زيادة استقامة قلب الصدّيق، وذهاب الحزن عنه؛ ليستضيء نورها من جمال النبي ﷺ، ولو أنزلت على الصدّيق بغير واسطة النبي ﷺ؛ لذاب تحت إشراق سلطان أنوار القِدم؛ لأن تلك البرهاء في تلك الأوقات لا يحتملها إلا المرسلون من أولي العزم، كما قال: أنزل سكينة أبي بكر على محمد، وإن كان البهاء راجعًا إلى الله سبحانه، ويحتمل أن السكينة نزلت على أبي بكر، فأما النبي ﷺ فكانت السكينة عليه، قيل ذلك.

قال بعضهم: السكينة لأبي بكر ما ظهر له على لسان المصطفى صلوات الله عليه من قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

قال بعضهم: السكينة سكون القلب إلى ما يبدو من مجاري الأقدار.

وقال ابن عطاء: يحتمل أن أبا بكر لم يكن محزونًا، ولكن النبي ﷺ لشفقته عليه، حذر ما

---

(١) تقدم تخريجه.

يجوز أن يكون في ذلك الحال، فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: دعا الرسول ﷺ بأخص أسمائه وأرفعها، وقدّم اسمه على صفتها.

وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء:٦٢]: فدعاه باسم التربية، وهو من عموم الأسماء، وقدّم اسمه على اسم ربه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾: فلذلك عصم أمة محمد ﷺ عن الشرك، وابتلى أمة موسى ﷺ بعبادة العجل.

وههنا أن موسى ﷺ كان غيورًا، فلم يرَ في البين أحدًا من غيره على لجّه، فكان النبي ﷺ خرج من حد الغيرة هاهنا؛ لأنه كان غنيًّا بالمشاهدة، وكان موسى في محل الافتقار إلى المشاهدة.

وقال الكليم: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾.

قال الحبيب ﷺ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، فوقع موسى في رؤية الصفات، حيث سمى بالرب، ووقع النبي ﷺ في رؤية الذات بها سماه باسم الجمع، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وزاد عليه نعمته بقوله:

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود جنود عساكر تجلّي جمال الأزل، أُنزلت على أسراره؛ لأنها تطيق حملها، فإن في الكون لم يكن لتلك الجنود محل قبولها.

وقال جعفر في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾ اليقين والثقة بالله، والتوكّل عليه.

ويقال: كان الرسول ﷺ ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ بظاهر شبحه، ولكن كان مستهلك الشاهد في الواحد بسره، ثم وصف منّته سبحانه على الكل، بإذهابه ظلمة الطبائع، وإخراجه أنوار الشرائع، بقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ جعل الدعاوى الباطلة فانية تحت أنوار التوحيد، والحقيقة كلمة انفراده بفردانيته، وعلوّه بنعت التنزيه والتقدير عن ظنون خلقه، بأنه عزيز بعز الكبرياء، وحكيم في اختصاص أوليائه بكشف البقاء، ثم إن الله سبحانه حث الجميع على التسارع ببذل القلوب والأرواح والأشباح إلى ميادين الوحدانية والفردانية؛ لرؤية جماله، وكشف جلاله، وإدراك وصاله، بقوله:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا إلى أبواب الأزل خفافًا بالعقول القدسية، وثقالًا بالقلوب الملكوتية، وأيضًا خفافًا بالأرواح الروحانية، وثقالًا بالقلوب السماوية، وأيضًا خفافًا بالإرادات الصادقة، وثقالًا بالمحبة المفرطة، وأيضًا خفافًا بالإيمان، وثقالًا بالإيقان، وأيضًا خفافًا بالأنس، وثقالًا بالقدس، وأيضًا خفافًا بأنوار المودة، وثقالًا بأمانات المعرفة،

وأيضًا خفافًا بالتجريد عن الحدثان، وثقالًا بأنوار التوحيد إلى جمال الرحمن.

وأيضًا خفافًا بنعوت الافتقار، وثقالًا بكسوة غنى العزيز الغفار، وأيضًا خفافًا بالقناعة، وثقالًا بالتوكّل، وأيضًا خفافًا بالبسط، وثقالًا بالقبض.

قال ابن عطاء: خفافًا بقلوبكم، وثقالًا بأبدانكم.

وقال أبو عثمان: خفافًا وثقالًا في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت. كما روي عن جرير بن عبد الله قال: بايعنا رسول الله ﷺ على المنشط والمكره.

وقال بعضهم: خفافًا إلى الطاعات، وثقالًا إلى المخالفات، وجاهدوا بأموالكم للفقراء ألا تمنعوهم حقوقهم، وجاهدوا بأنفسكم الشياطين؛ كيلا تستولي عليكم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إن من سنّة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه، ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسراره ، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطابًا سرمديًا يطير بأنوارها في الآزال والآباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القِدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلّاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عباده، جميع حركاته تقع حسنة؛ وأفعاله تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة معشوقه؛ لأن من كان حسنًا، فما يبدو منه أيضًا يكون حسنًا:

فإنْ نطقتْ جَاءتْ بكلِّ ملاحةٍ ... وإنْ سكتتْ جَاءتْ بكلِّ جميلِ

ملاحته، وحسن وجهه يعتذر لذنبه في وجه شافع يمحو إساءته عن القلوب بالمعاذير:

وإذَا الحبيبُ أتَى بذنبٍ واحدٍ ... جَاءتْ محاسنهُ بألفِ شفيعِ

مَا حطَّكَ الواشونَ عنْ رتبةٍ ... عندِي ومَا ضَرَّكَ مغتابُ

كأنهمْ أثنَوا ولمْ يعلمُوا ... عليكَ عندِي بالذِي عابُوا

ولما سبقت الاصطفائية له قبل وقوع المعاملات، سبق منه العفو له قبل الزلّات. كان ﷺ من عظمته في المعرفة إذا جرى عليه حكم له موقع العتاب، خاطبه الله قبله بعفو وتلطف حتى لا يفني وجوده في رؤية جلاله وهيبته من حدة الحياء والاحتشام، ولا يكون إلا لمن كان معرفته كاملة، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»[1].

قيل: إن الله إذا عاتب أنبياءه وأولياءه، عاتبهم ببر قبلها، أو بعدها ألا تراه يقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾.

وقال الحسين بن منصور- قدّس الله روحه-: الأنبياء مبسوطون على مقاديرهم واختلاف مقاماتهم، وكلّ يطيع حظه باستعمال الأدب بين يدي الحق، وكلّ أُدّب على ترك الاستعمال، فمنهم من أنس قبل التأديب، ومنهم من أنس بعد التأديب، على اختلاف مقاماتهم، فأما محمد ﷺ، فإنه أنس قبل التأديب، إذ لو أنس بعد التأديب لتفطّر لقربه من الحق، وذلك أن الحق تعالى أمره بقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور:٦٢]، ثم قال مؤدّبًا له على ذلك ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ لذاب، وهذا غاية القرب.

وقال تعالى حاكيًا عن نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:٤٥]، مؤدّبًا له، وأنسه بعد التأديب ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ولو لم يؤنسه بعد التأديب لتفطّر، وهذا مقام نوح ﷺ، وليس المفضول بمقصّر، إذ كل منهم له رتبة من الحق، ولي نكتة من عجيب الخطاب أن لفظ المسامحة والأنس، جرى على فعل الماضي لا على فعل المستقبل، وكلامه تعالى أزلي أي: عفا الله عنك في الأزل، قبل وجود العمل ففرح فؤاده بعفوه السابق له، ثم استعمل الانبساط معه بموضع الاستفهام من الأمر، بوصف الاستئناس والبسط، ولو قال: إن الله يعفو عنك، لكان مستوحشًا في موقع الخطاب؛ لأن المرجو ليس كالمدرك.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (ص٢٩٤).

فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾:وصف الله الولاية والنبوة أنها شقيقان، وما وقع الأمر من الغيب، إلا والولي والنبي يقبلانه بالإيقان والعرفان، وكيف يكون الولي مخالفًا للنبي، وهو مخاطب بسر الإلهام وبمتابعته.

قال الواسطي: كيف يستأذن من هو مأذون له الإذن، وإنْ قام بإذن، وإن قعد قعد بإذن، فجريان الحركات منه تظهر سوابق المأذون له فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً﴾: بيَّن الله سبحانه أن إرادة العباد لا تقع إلا بإرادته، حيث يقول: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: نفى عنهم صدق الإرادة، ولو كانوا صادقين في الإرادة؛ لاستجابوا لبذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بإرادتهم، كذلك لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

قال جعفر: لو عرفوا الله؛ لاستحوا منه؛ ولخرجوا له عن أنفسهم وأزواجهم وأموالهم؛ بذلًا لأمر واحد من أوامره.

وقال بعضهم: لو طلبوا التوكل؛ لسلكوا سبيل الثقة بالله؛ فإنها الطريق إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: وصف أهل النفاق الذين لدغتهم أفاعي القرب بنعت عدم الترياق من مفرح الوفاق، دعاهم بلسان الأمر إلى العبودية، وأجرى شقاوتهم في سابق أحكامه الأزلية، كانوا مخاطبين بالعبودية، غير مكاشفين بجمال الربوبية، امتحنهم بالأمر، وردّهم عن ساحة الكبرياء بالحكم، طالبهم بالأعمال، ومنعهم عن الأحوال.

قال جعفر: طالب عباده بالحق، ولم يجعلهم لذلك أهلًا، ثم لم يعذرهم ولامهم على ذلك ألا تراه يقول: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي ٱلْحَرِّ﴾(١).

قال ابن الفرحيّ: إنما هو نعت واحد، كالماء الواحد يسقى به ألوان الشجر، فيختلف ثمارها، ولو سُقي الورد بالبول ما وجد منه إلا ريح الورد، ولو سقي الحنظل بماء الورد لما خرج إلا الحنظل وريحه، إنما هي اللطيفة التي جرى بها الخذلان والتوفيق.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ

(١) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (٢ / ٤٣١).

وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا
مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ
تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾: وصف المنافقين بأن من غاية حسدهم، وقلة معرفتهم باصطفائية أهل الولاية يطلبون أن تمنعهم عن الله: وعن طريقه، فإذا رأوا ما كشف الله للأنبياء والأولياء يجمدون في ظلمات كفرهم وحسدهم.

قال السوسي: حملوك على طلب الدنيا والركون إليها، حتى أظهر الحق سرّك من الركون إلى شيء سواه، وظهر أمر الله.

قال: فتح لك من خزائن الأرض، وعرّفها عليك، وأبيت أن تسكن إليها، وتقبل منها، وهم كارهون ما أنت عليه من الإعراض، عما أقبلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ما كتب للأنبياء وللأولياء في الأزل إلا سعادة الولاية، وشرف النبوة، وحقيقة الوصلة، ولطائف علوم المشاهدة، وما كتب من البليّات لهم فتلك زيادة أحوالهم؛ لأن الله تعالى جعل قلوبهم بنور رضاه، فيقبلون كلًّا منه بسابق الرضا والاصطفائية، فيزيد في حالهم شرف القربة من كل مكروه ومحبوب، وهم في ذلك بنصره الله محفوظون، وعليه بفضله متوكلون، وعما يبدو منه بفضله عنه راضون، لقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال بعضهم: العارف بالله: مَنْ سكن إلى ما يبدو له في الوقت بعد الوقت من تصاريف القضاء، ومجاري القدرة، ولا يسخط وارد من ذلك.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ
وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا
تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وصف الله الجاهلين بجلاله، المحجوبين عن مشاهدة جماله، الذين لم يذوقوا من عبودية خالقهم طعم وصاله، ولو كانوا أهل الذوق من مناجاة الله في الصلاة، وإدراك قرة العيون منها، لكان حالهم كمال ما أخبر ﷺ عن المصلّي الصادق بقوله: «المصلي يناجي ربه»[1].

وما أخبر عن حال نفسه ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

ولكن خصّ الله هذه المراتب الشريفة بالخاشعين في جبروته، والمتواضعين في الملكوت بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، ووصفه إياهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

قال محمد بن الفضل: من لم يعرف الأمر، قام إلى الأمر على حد الكسل، ومن عرف الأمر قام إليه على حد الاستغناء والاسترواح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ إن الله سبحانه حذّر المؤمنين بما خاطب نبيه ﷺ عما مع أهل الدنيا من الأموال والزينة أن يستحسنوها، فيحتجبون بها عن عمل الآخرة ورؤيتها، فإن الناظر إلى الدنيا بنعت استحسانها من حيث الشهوة والنفس والهوى، يسقط في الساعة عن مشاهدة ملك الملكوت، وأنوار الجبروت.

وبيّن سبحانه أن أموال الدنيا سبب احتجابهم عن الله، وإيصال العذاب إليهم؛ لأن الدنيا إذا كثرت لم تخلُ من الحرام والشبهات، ومن باشر الحرام، وأكل الشبهات صار معذّبًا بحجاب الباطن، وعمي عن مكاشفة الآخرة، وعذاب الظاهر بالغرامة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال ﷺ: «حلالها حسنات، وحرامها عذاب»[3].

قال بعضهم: لا يعجبك ما يتزينون به من صنوف الأموال والعبيد والخدم، ويستكثرون به من أولاد.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٩٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٨).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٨٣)، وفيه (نجاسة) بدل (حسنات).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

قال: يعذبهم لجمعها، ويعذبهم بحفظها، ويعذبهم لحبها، ويعذبهم بالبخل بها، والحزن عليها، والخصومة فيها كل هذا عذاب لأن يوردهم عذاب النار.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (٥٩) ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: وصف الله قومًا ليسوا من أهل مقام الرضا، بأنهم كانوا محرومين عن معرفة الله ورسوله، ومعرفة حقائق الدين، ولو كانوا من أهل المعرفة، لرضوا فيما ابتلاهم الله، فإن الرضا مقرون بالمعرفة، ونعت الراضي المنشاط بما استقبله من الله، ويستلذ باشر قلبه من البلاء؛ لأنه يحتمل البلاء برؤية المبلي، ويسكن في جريان المقادير عليه مما يرد على قلبه من روح أنوار المقدر، والراضي موصوف بصفة الرضا من الله، والمتصف بصفاته يرضى برضا الله في امتحانه، ورضا الله مقدس عن التغيير بوارد الحدثان.

وبيّن الله سبحانه أن الراضي عن الله، فالله خلفه عن كل فوت، وحياته عن كل موت بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: من كان هو حسبه، فأجره مشاهدة حسيبه.

قال الله: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من قُربه ومشاهدته.

﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: يظهر لنا من فوائد الغيب المكشوفة له، ويؤدبنا بما استأثره الله من حقائق الأدب. ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾: بنعت الشوق إلى جماله لا إلى غيره من العرش إلى الثرى،

علم الله تعالى أدب الرضا، والسؤال في هذه الآية الصادقين والعارفين والمريدين.

قال إبراهيم بن أدهم: من رضي بالمقادير لم يغتم.

وقال فضيل الراضي: لا يتمنى فوق منزلته.

ثم إن الله تعالى لما دس رغام الحرمان في أفواه المدّعين بمقام الإيمان والمعرفة، الذين طلبوا من النبي ﷺ ما خص الله به الروحانيين والربانيين، مما ألزم على أعناق أهل الدنيا الذين يجمعونها من سهم الزكاة ذكر أنّه استأثره لأهل المراقبات والمشاهدات، وغيرهم من أهل المقامات بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ : إن الله سبحانه قسّم هذه الجوائز من فضله ولطفه على أهل معرفته، رحمة منه عليهم بعلمه أنهم غائبون في أودية فردانيته، المستغرقون في بحار وحدانيته، والهون من حبه هائمون، ومن شوقه لا يطيقون أن يشتغلوا بها لا بدّ لهم من كثيرات حريقات؛ ليأخذوا كلهم على قدر مراتبهم من سهام ما رزقهم الله حلالًا طيبًا مما أوجبه على طلاب الدنيا، وحذّر أهل الدنيا من عذابه الأليم، إذ يقصرون في إعطاء الزكاة إلى هؤلاء السادة يطيب نفوسهم، ونشاط قلوبهم وبين عدد أهلها.

وقسمهم ثمانية أقسام، وجعل أولهم الفقراء، وحسم أطماع غيرهم عن هذه السهام.

وقال:﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ : ومن بعدهم من أصناف الثمانية، ودليل الخطاب أن هذه لهم لا لغيرهم بدأ بالفقراء، وهم: المتجردون بقلوبهم وأبدانهم عن الكونين والعالمين، المنعوتون بنعت التنزيه حيث وقعوا في قدس القِدم، فاتصفوا بقدسيته ،وتنزهوا بتنزهيه، وانفردوا بفردانيته يفتقرون إلى وصال الأبد.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ : هم الذين سكنوا في حجاب الأنس بنور القدس، حاضرين في العبودية بنفوسهم، غائبين في أنوار الربوبية بقلوبهم؛ لذلك اختار المسكنة سيد فرسان العالمين محمد ﷺ بقوله: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين»، وأنشد:

مساكينُ أهلِ الأرضِ شاقتْ قلوبُهم فهُم أنفسٌ عاشُوا بغيرِ قلوبِ

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ﴾ : أهل التمكين من العارفين، وأهل الاستقامة من الموجدين الذين وقعوا في نور البقاء، فأورثتهم البسط والانبساط، فيأخذون منه ويعطون له، وهم خزائن خزائن جوده، المشفقون على أوليائه، قلوبهم معلقة بالله لا بغيره من العرش إلى الثرى.

﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ : هم المريدون الذين سلكوا طريق محبته برقة قلوبهم، وصفاء نيّاتهم، وبذلوا مهجتهم في عساكر ميادين شوقه ومحبته وعشقه، وهم عند الأقوياء ضعفاء الأحوال، يحفهم الله هذه التحفة في مواساة حظوظهم، واستجلاب نشاط نفوسهم في

طاعات مولاهم، وحاشا أنهم بذلوا أنفسهم لنيل ثواب، ولرؤية مقام أو تطلُّع حال، بل فناء لله عما سوى الله، كما أنشد بعضهم:

مَنْ لمْ يكنْ بكَ فانيًا عنْ حظِّه ... وعنْ الهوَى والأنسِ بالأحبابِ
أوْ تيَّمتهُ صبابةٌ جمعتْ لهُ ... ما كانَ مفترقًا منَ الأسبابِ
فلأنهُ بينَ المراتبِ واقفٌ ... لمنالِ حظٍّ أوْ لحسنِ مآبِ

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: هم الذين رهنت قلوبهم بلذة محبة الله وبقيت نفوسهم في المجاهدة في طريق الله لم يبلغوا بالكلية إلى شهود كشف مشاهدة الله فتارة يغريهم سلبات القهر، وتارة يفنيهم أنوار اللطف، فلحظة هم في الحج بحار الإرادات ،ولحظة هم في سواحل بحر القربة ما أشد جبرتهم في فقر الولاية، وما أعظم رغبتهم في فقر المحبة لا يصلون إلى الحقيقة ما دام عليهم بقية المجاهدة.

قال ﷺ: «الكاتب عبد ما بقي عليه درهم»[1].

وأُنشد في ذلك:

تمنَّى علَى الزمانِ محالًا ... أنْ ترَى مقلتَاي طلعتهُ حرًّ

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾: هم الذين ما قضوا حقوق معارفهم في العبودية، وما أدركوا في إيقانهم حقائق الربوبية، وهم بقوا أبدًا في تلك الغرامة؛ لأن الفقدان بلا نهاية والموحدان بلا نهاية، ومن نودي ما فات عنه في الفقدان من بذل الوجود بنعت الصبر، ومن يؤدي حقوق الوجدان بنعت الشكر هذا قبل المعرفة غريم لا يقضي دينه.

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم المحاربون مع نفوسهم بالمجاهدات والمرابطون قلوبهم في شهود الغيب لكشف المشاهدات.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هم المسافرون بقلوبهم في بوادي الأزل ومسافرون بأرواحهم في فقار الأبد وبعقولهم في طرق الآيات وبنفوسهم في طلب أهل الولايات.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: واجبة منه على أهل زمام الإيمان، يواسوا بهذه القسمة أهل الإيقان والعرفان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾: بأحوال هؤلاء المقرّبين في غيبتهم عن الدنيا، ﴿حَكِيمٌ﴾: حيث أوجب مواساتهم على أهل الآخرة والعقبى.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٠)، والترمذي (٣/ ٥٦٠).

قال بعضهم: الفقراء ثلاثة:

فقيرٌ لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي لا يقبل، فذاك كالروحانيين.

وفقيرٌ لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي قبل مقدار حاجته، فذلك لا حساب عليه.

وفقير يسأل مقدار قوته، وإن استغنى كفّ، فذلك في حظيرة القدس.

وقال إبراهيم الخوَّاص: نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار والبذل عند الوجود، والمسكين من يُرى عليه أثر العدم.

وقال الأستاذ: الفقير الصادق عندهم، مَن لا سماء تظله، ولا أرض تقله، ولا سمة في أوان العبودية تتناوله، ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله لله يرد إلى التمييز في غير هذا الوقت، مصطلم عن شواهد واقف بربه، متشعب عن حماسته.

وقال الأستاذ: ابن السبيل عند القوم، إذا تقرّب العبد من مألوفات أوطانه، فهو في قرى الحق، فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شرابه، والأنس سوره، والحق تعالى مشهوده.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] للقوم وعد في الجنة، والآخرين نقد في الوقت، وهو شراب المحاب وغذاء شراب الثواب، وأنشد:

ومقعدُ قومٍ مشَى منْ شرابنَا ... وأعمَى سقيناهُ ثلثًا فأبصرَا

أخرسُ لمْ ينطقْ ثلثينْ حجةٍ ... أدرنَا عليهِ الكأسَ يومًا فأخبرَا

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾».

قوله تعالى: «لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ» وصف الله نبيّه ﷺ بأخصّ صفة، وهو الخُلق العظيم الذي مَنّ الله سبحانه، بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم:٤]، وهكذا وصف الحساد، يرى الحسن من غيره قبيحًا، ويرى القبيح من نفسه حسنًا، وعين الرضا تري القبيح حسنًا من الجميع، كما قيل:

وعينُ الرضَا عنْ كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عين السوءِ تبدِي المساوئَ

وقيل:

عينُ العداوةِ بالمساوئِ موكلةٌ ... وعين الرضَا عنْ المعايبِ كليلةٌ

قال الأستاذ: بسطوا لسان الملامة في الرسول ﷺ، فعابوه بما هو أمارة كرمه، ودلالة فضله، قال ﷺ: «المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لئيم»[1].

وقيل: من العاقل، قالوا: الفطن المتعاقد.

ولولَا الكريمُ أتيتَه بخديعةٍ ... فرأيتَه فيمَا ترومُ يسارعُ

واعلمْ بأنكَ لمْ تخادعْ جاهلًا ... إنّ الكريمَ بفضلِهِ متخادعُ

قوله تعالى: «ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ»: أخبر سبحانه أن طينة النفاق في وقت مباشرة قهره فيها بعضها من بعض، وما يتولد من قطرة نفاقهم يستحسنه بعضهم من بعض، ويأمرون بعضهم مخالفة الله، ومخالفة رسوله في إيذاء أولياء الله.

قال أبو بكر الورّاق: المنافق ستر المنافق يستر عليه عوراتهن، والمؤمن مرآة المؤمن يبصر عيوبه، ويدله على سبيل نجاته.

قوله تعالى: «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»: وصف الله بخل المنافقين، وقلة نصرهم للمؤمنين، وإقباض أيديهم برفعها إلى الدعاء، وغيظهم للمؤمنين حين يقبضون أيديهم من الغضب في نفوسهم، وخلواتهم وراء الستور بالوكزات لأهل الحق.

وهذه صفة المبغضين إذا جلس واحد منهم يعض أنامله، ويقبض يده، ويهيج قلبه حسدًا وعداوة على أولياء الله.

قال الله: «وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ»

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٠)، والترمذي (٤/ ٣٤٤).

[آل عمران:١١٩] ثم بيّن أن هذا الغيظ من تولد نسيانهم قهر الله في بطش جبروته، وبروز عظائم أنوار ملكوته، لم يكونوا من أهل الذكر، فطرأ عليهم طرآن النسيان، لم يذوقوا حقائق الذكر، تركوا أمر الله لجهلهم بجلال الله، فتركهم الله في ظلمات قهره يعمهون، لا يرون سبيل الرشد أبدًا، وهكذا وصف من ادعى معرفة الله، ولم يذق طعم محبة الله، ولا يستقيم في دعواه، ونفر من الطريق إلى جمع الدنيا من قلة صبرهم مع أولياء الله، فيجمعون الدنيا: ويحتجبون بها عن ذكر الله، فتركهم الله في حبها وحب جاهها، ولا ينفقون منها في طريق الله.

قال الله:﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ .

قال بعضهم: يقبضون أيديهم عن رفعها إلى مولاها في الدعوة والحوائج، كما روي عن النبي ﷺ أنه رأى كأنه في الموقف، ويده على صدره كاستطعام المسكين.

هَا أنَا مَدَدتُ يَدِيَّ إلَيكَ فَرُدَّها بالوصلِ لاستِهانَةِ الحسادِ

وقيل: يقبضون أيديهم عن الصدقة.

وقيل: يقبضون أيديهم عن معونة المسكين.

وقال سهل: في قوله:﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ : نسوا أنعم الله عندهم، فأنساهم الله شكر النعم.

وصف المؤمنين والمؤمنات بالموافقات في جميع الخيرات بقوله:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ؛ لأن أرواحهم كانت مستغرقة في أنوار القدم، وهو تعالى ألَّف هناك بين الأرواح، بأنها من جواهر أنوار الملكوت ألفت بعضها بعضًا بألف الله سبحانه في مشاهدة جماله، حين إذا قربا طعم وصال، فأحبّ المؤمنون بعضهم بعضًا بمحبة الله في قلوبهم، ويتعاونون بعضهم بعضًا في عبادة الله، ونصرة أنبياء الله وأوليائه.

وقال أبو عثمان: المؤمنون أنصار يتعاونون على العبادة، ويتبادرون إليها، وكل واحد منهم يشد ظهر صاحب، ويعينه على سبيل نجاته، ألا ترى النبي ﷺ يقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[1]. وقال ﷺ: «المؤمنون كالجسد الواحد»[2].

قال الله:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ .

وقال أبو بكر الورّاق: المؤمن تولى المؤمن طبعًا وسجيةً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) رواه البخاري (١/ ١٨٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٤).

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟
يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ
لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ
وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟
لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: إن الله سبحانه وعد أعلى شهود الغيب من الموقنين الصادقين في رؤية الآخرة واللحوق بالله، وهذا الوصف منه تعالى وصول نقذ؛ لأن الخبر منه معاينة؛ حيث يهيب روائح قدسه لأهل الأنس، وتنشقها مع طيبها أرواحهم وقلوبهم؛ لأجل ذلك هاموا في شوقه، وغابوا في حبّه، وطاروا من الفرح بوصاله.

وما قرن هذا الوعد بشرطٍ من شروط العبودية، في نفس الآية يدل عنه فضلٌ بلا علّة، ووصول أهلها إلى معادنها؛ لأن تراب أهل العرفان من معدن الرضوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]: اصطفاهم الله في الأزل لحضرته، وسمّاهم المؤمنين أي: الصادقين فيما رأوا بقلوبهم أنوار الغيب، والمؤمن إذا كان صادقًا، فهو صالحٌ وشهيد؛ لأنه اتبع ببذل نفسه وروحه، بمن استنشق من الغيب من نسيم الوصال، وهو مقبول لحبّه بمشاهدة الجمال، ولا يبالي الله بما

جرى على صورته من الزلّات، فإن المؤمن إذا باشر معصية ندم، وغص بتلك المعصية له، وصار مرامًا منغَّصًا بندامته، ويذوب قلبه رجاء ربه، وكانت معصيته طاعة، وعدهم بالجنَّات، وقلوبهم في جنّات المشاهدة، فكيف يلتفتون إلى الجنّة؟

ووعدهم بالمساكن الطيبة، وهم ساكنون بأرواحهم في مشاهدة جماله وقربه ووصاله، ويجري عليهم واردات لذّة خطابه، ولذيذ لطائف نوره، وطابت نفوسهم في مساكن طاعاته، باسترواحهم بنسيم مروجه رجاءً وصاله، وطابت عقولهم بدورانها في أنوار آياته، وطابت قلوبهم بشهودها على مشارب صفاته، فتشرب منها شربات المحبَّة، وتسكر برؤيتها بنعت الحيرة.

وطابت أرواحهم بطيرانها في سبحات ذاته، بأجنحة رضوانه، فهي تُعلَّق أبدًا إلى مساكن كشف قِدمه، وجلال سرمدية رضوانه الأكبر، بتنسُّم صبح الصفات في وجوهِ الهائمين في محبّة مشاهدة الذات.

يا أخي هؤلاء في الدنيا في طيب مساكن الوصلة، وجنّات عدن القُربة، وما داموا هاهنا في هذه الغربة، وجدوا ما يعاين لأهل الوعد، فلا يُبالون بالغد، فإنّ قلب جميع المساكن لا يكون إلا برؤيته وجماله، ومن أدرك ذلك كيف يلتفت إلى حُسن النظر، وطيب المسكن؟، وإن كان في موضع وحشٍ، وأنشد:

تمنَّيْتُ من حبِّي بثينةَ أنَّنا ... علَى مدمّتٍ في البحرِ ليسَ لنَا
وفِي كلِّ موضعٍ لمْ يكنْ مما وصفْنا بِهِ أثرٌ ... فهوَ خرابٌ مستوحشٌ وإنْ كانَ الجنةَ
أجيرانُنا مَا أوحشَ الدارِ بعدكُم ... إذَا غبتُم عنهَا ونحنُ حضورَ
وإنِّي لأهوَى الدارِ ولَا يستقرُّنِي ... بهَا الردُّ إلَّا أنهَا منْ دياركَا

ويقال:

قومٌ يطيبُ مسكنَه بوجودِ عطائِه ... وقومٌ يطيبُ مسكنَه بشهودِ لقائِه

وقال الأستاذ: أمارة هذا الرضوان، وجدان طعمه نقدًا، فهو في روح الأنس، وروح الأنس لا تتقاصر عن راحة دار القدس، بل هو أتمُّ وأعظم، ثم حثّ نبيّه ﷺ، بجهادٍ من حاله يخالف حال هؤلاء، حتى يطهر وجه الأرض من الأغيار، وذلك من غيرة الجبار على أهل تلك الدار.

بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[1].

---

(١) قال التستري (١/ ٢٠٥): جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حولات الندم، وسيرها في مفاوز =

﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ : النفوس الأمّارة، وجهادها إماتة شهواتها، ﴿وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ﴾ : هم إبليس وجنوده، وجهادهم [مجاهدة] طريق الوسواس بالجوع الدائم، والحزن القائم، والزجر الغليظ عليهم يكون من القلب الروحاني المملوء من النور الربّانيّ، وفيه رخصة زجر المدَّعين، فيجوز الصادق أن يزجرهم، ويُعرض عنهم.

قال محمد بن على: جاهد الكفّار بالسيف، والمنافقين باللسان.

وقال سهل: النفس كافرةٌ، فجاهدها بسيف المخالفة، وأحمِلها جولات الندم، وسيِّرها في مفاوز الخوف، لعلّك تَردُّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا لمتحيّرٍ في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ .

ثُمّ وصف الله أهل النفاق بنقض العهود، وفسخ العقود، وشُحّ النفوس، بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ : هذا وصف المغرورين الذين ما ذاقوا لهم محبّة الله، ولو وجدوا للذّة منها بقدر رأسِ إبرةٍ، ليدلوا وجودهم لشوق جماله.

قال النصر آبادي: الفضلُ في رؤية الإحسان، رأوا من أنفسهم إحسانًا لم يعملوه بعد، وصدقة لم يتصدَّقوا بها، وصحَّحوا لأنفسهم أفعالًا، بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ، فنقضوا العهد لّما ظهر لهم ما سألوه، فتولَّد لهم من ذلك البُخل الذي قال عنه النبي ﷺ : «أي داء أدوى من البخل»[1].

والتولي عن سبيل الرشد، والإعراض عن مناهج الحق، وذلك أنهم أخلفوا وعدهم في السخاء، فلَزِم عليهم الخيانة والبُخل والكذب، بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ .

ثُمّ إنّ الله سبحانه وصفهم بتمام الحرمان عن السعادة والسخاوة، بقوله: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمۡ﴾ ، زاد نِفاقَهم جزاءً لبخلهم.

قيل: هو ميراث البُخل، وهو الكذب والخلف والخيانة.

=

الخوف، لعلك تردها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص١١١).

سُئل أبو حفص :ما البخل؟ قال: ترك الإيثار عند الحاجة إليهم، ثُمّ أنّ الله سبحانه أعلم أنه مُطَّلع على عقودهم الفاسدة، وعهودهم الكاذبة في قلوبهم، لمعرفته لسجيَّتهم المجبولة بالبخل والنفاق، بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾.

أعلمنا وصف علمه المحيط بالسرائر والضمائر، وخوفنا من عظيم مراقبته، وارتصاده بمراصد الملكوت والجبروت، وعرَّفنا مكان الحياء منه، وإجلاله والخوف من عظمته، حيث أنّه علّام على خطرات قلوبنا، وحركات أسرارنا، ذكر السرّ والنجوى، و«السرّ»: ما هو يُعلم من نفسك، ولا تعلم ذلك من نفسك، و«النجوى»: ما هو يُعلم من نفسك، ولا يتمّ ذلك من نفسك أيضًا، ولا يعلم منك أحد غير الله.

النجوى: سرٌّ، وسرُّ غير النجوى سرُّ السرِّ.

قيل: «السرّ»: ما لا يطَّلع عليه إلا أعلم الأسرار، و«النجوى»: ما يطَّلع عليه الحفظ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى:﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: فليضحكوا فيها ما شاء، وإذا أبغضوها وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا.

وقال أبو يزيد: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ : لئلا تغرَّهم الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ : شوقًا إلى مولاهم.

قال طاهر المقدسيّ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: فإنّهم في دار الخدمة، وليس من أوصاف الخَدَمِ الضحك الكثير.

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: فإنّهم في ميادين الحزن والغمّ، ولذلك اختار سبحانه وتعالى تقليل الضحك، والضحك إذا كان من غيبة الأُنس، ووضوح صبح نور الجمال، فالضحك والبكاء هناك واحدٌ.

و«البكاء الكثير»: ما يكون قبل المشاهدة في الشوق، وبعد كشف المشاهدة من الفرح، والأنس بالوصال، فهذا البكاء هو بكاء المريدين، وذلك من الأشجان والأحزان، والمحبِّين من الفوت والفراق.

وصف الله حال الأولين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]: وذلك بديهة الغيب عند ظهورها من الغيب، فيفرح لصورتها ويجهل بحقائقها، وهو معذورٌ ما دام مغلوبًا، لذلك نهى النبي ﷺ الضحك من غير عُجب،وما يجوز للمقتضين من ركوب التوحيد، وأحزان المحبَّة، أن يكون ضحكهم ترفيه فؤادهم من برحاء الحزن، لا يجوز أكثر من ذلك.

قال في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[1]: عينٌ فاضت دمعها بأخبارٍ، وعين فاضت دمعها على قلَّة الوقار، وعين فاضت دمعها على الإخلاص والصفاء.

قال الحريري: العيون الباكية على ضروبٍ: فعينٌ تبكي عبادةً ورسمًا، وعين تبكي خشيةً وحزنًا، وعين تبكي هيبةً ووجلًا، وعين تبكي خصوصيّةً وحقيقةً.

ثُمَّ مدح الله رسوله وأصحابه بعد ذَمِّهِ المنافقين، بقوله:﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

جاهدَ الرسول ﷺ باحتمال أثقال أمانة الرسالة، وأدائها بغير حظوظِ البشرية، وجاهد العارفون، بإفناء وجودهم لمشاهدة الله، ونَيْل وصاله، ثُمّ وصف المؤمنين بالمَعيَّة معه بالأرواح في مشارب بحار المشاهدة، وسواقي الرسالة، فالولاية حين أشهدها الله مشاهدته في أبد الأزل حين عَرَّف نفسه لهم، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

ولولا تلك المعيَّة والتعريف، لَمَا وافقوا في بذل مُهَجِهم معه في معارك مشهد العشَّاق

(١) أي: تملأ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، ومن الدمع متعلق بتفيض ومن لابتداء الغاية، والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول. تفسير حقي (٣/٣١٧).

المقتولين بشوق المحبّة من أهل الأشواق، ثُمّ عمَّهم الله مع نبيّه ﷺ بنيْل جزيل ألطافه، ولذائذ ألفاظه، واعتطافه من كشوف أنوار جماله، وسناء جلاله، بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾.

يعني المشاهدة والمكاشفات والوصلات والقُرْبات، ثُمّ زاد في وصفهم، بأنهم نجوا بهذه النعم، وسابقة سعادتهم، من نكايات قهره، ونكال بطشه، بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الفائزون من كل فرقة، والظافرون بكل بغية، وتصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

جناية قرباته، ومشاهدات صفاته التي تُجري أنهار علوم الأزليات في أنوارها من بحار الذات، ومن فاز بشريةٍ منها، يصير متَّصفًا بتلك الصفات، ويكون باقيًا في مشاهدة الذات، وذلك الفوز، النجاة من الحدثان، والبلوغ إلى مشاهدة الرحمن.

قال بعضهم: اجتهد الرسول في أداء الرسالة، أبلغ العناية، وجاهد المسلمون بأنفسهم في قبول ما جاء به من الشرع، ما كان منه حظّ النفس بالنفس، وما كان منه حظّ المال بالمال.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٩٣) يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٩٤) سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٩٥) يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٩٦) ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٩٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

﴿مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾: وصف الله زُمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأُنس، ورياض الإيقان.

وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يعني: الذين أضعفهم حِمل أوقار المحبّة.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: الذين أمرضهم مرارة الصبابات.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾: الذين يتجرَّدون عن الأكوان بتجريد التوحيد، وحقائق التفريد.

﴿حَرَجٌ﴾: عتابٌ من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنّهم مقتولون بسيف المحبّة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحبِّ، وفقرهم من حُسن الرضا، ثُمّ زاد في وصفهم بالشفقة على دين الله، وعلى سُنَّة رسوله، بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأُسْوة بسُنَّة رسول الله ﷺ، ثُمَّ وصفهم بترائي قلوبهم هلال جلاله بنعت بذل أرواحهم ونفوسهم لله في الخَلَوات، وبَيَّن أنهم فائزون من نكايات المكر والامتحان، وجميع البَلِيَّات والعقوبات، بقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ما على المشاهدين جلاله وجماله سبيل الحجاب، وقارعة العتاب؛ لأنّه كان في الأزل اختارهم برحمته السابقة، وغفر في القِدم تقصيرهم في المعرفة، بأنّه علم أن الخلق يعجزون عن حمل بوادي عظمته، وأوائل كشف سلطان كبريائه، قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: مَن لم يكن من القدرة، فقد رفع عنه الحَرَج.

قال ابن طاهر: لو لم يكن في الفقر والقلَّة إسقاطُ الحرج عن صاحبه، لكان ذلك عظيمًا. قال الله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وقال القاسم: في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: من يرى الإحسان كلَّه من الله، فلا يكون لأحدٍ عليه سبيل، وقد وقع لي في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ما على من أصفاه الله في سابق إحسانه عليه تغيير الاصطفائية قطّ، وإحسانه لله

إحسان الله فيه، وشهوده عليه، وشهود العبد مشاهدته بشرط ألَّا يرى لغير الله وزنًا من نفسه، وجميع الأكوان حتى لا يجد عليه أحدٌ سبيل المنَّة.

ثُمّ وصف هؤلاء المحسنين بالفقر والظرافة فيه، بنعت بَذْل الوجود، وصدق اللقاء المحمود، بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لترنعهم عن رؤية غير الله؛ حتى رؤية ما وجدوا من الله من حظوظ حلاوة مشاهدته إلى الفناء فيه؛ حتى لا يبقى فيهم غير حظّ الله منهم.

أيضًا أي: لتحمِلَهم بالله؛ حتى يكونوا معك في مشاهدة الله أبدًا، ولا ينقطعوا عنك طرفة عين، ثُمّ بيَّن الله سبحانه وصف القوم برغبتهم في بَذْل وجودهم لله، وسرعة مسارعتهم إلى الله، وشدَّة شوقهم إليه، وكثرة حزنهم بما فاتوا عنهم من حقوق الطريقة بتمام الآية، مما أجابهم رسول الله ﷺ: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد من العرش إلى الثرى شيئًا يحملكم غير الله، ثمّ قال الله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾: بيّن أن البكاء من الحزن، وهو بكاء المريدين؛ لأن بكاء العارفين والمحبّين من الفرح بالله.

قال النصرآبادي في قوله: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: يَحملهم على الإقبال علينا، والثقة بنا والرجوع .

وقال أيضا: يَحملهم أي: نتحمل عنهم أثقال المخالفات، ثُمّ بيَّن أن العتاب على من سكن إلى الدنيا، وفرح بها، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾: وصف المتقاعدين عن الحقّ، وعن السير إلى معارك شهداء العشق الذين قُتلوا بسيوف المحبّة، باشتغالهم بنفوسهم الأمّارة، وهواها القاطع سبيل طلعة الله سبيل العار والشنار عليهم؛ لأنهم تركوا حظ الأكبر بالحظ الأصغر.

قال النصر آبادي: ألزم الله الندم الأغنياء؛ لأنهم اعتمدوا أملاكهم وأموالهم، واستغنوا بها، ولو اعتمدوا على الله، واستغنوا به لَمَا ألزموا المَذمّة.

ثم وصف تكلُّف أهل الدنيا، في إنفاقهم بالنفاق والرياء والسمعة، ثم رأوا ذلك أيضًا غرامة؛ لأنهم لم يعرفوا ما يطلبون، ومن عَرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾: هكذا شأن مَن لم يذق ذوق السخاء في المعرفة.

قيل: مَن يري المُلك لنفسه، كان يُنفقه غرامة عنده، ومَن يري الأشياء لله عاريةً في يده، رأى ما يُنفقه عنها إلّا غرمًا.

ثم استثني من هؤلاء من تصديق الله ورسوله والدار الآخرة، بنورٍ قذفه الله في قلوبهم، وشرح به صدورهم، فيُنفقون على رجاء قُربة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: مشاهدات، وكشف حجابٍ، ورجاء وصالٍ.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: بأنْ يَدْعوا لهم، ويستزيد لهم مَزيد قُربة الله.

ثم قال تعالى على وجه استحسان ما أنفقوا له على أوليائه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: إنها وسيلةٌ إلى قُربة الله، بل من قربة الله منهم، وفّقهم ببذل وجودهم له[1].

ثم وصفهم بأنهم سيدخلون في حضرته وقربته، وحجاب مملكته، ويرونه بلا حجاب، ولا عتاب، بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: رحمة مشاهدته، أن يسترهم بكنفه عن غيره.

قال بعضهم: من طلب القُربة إلى الله هان عليه ما يبذله في جنب ذلك، وكيف ينال القُربة إلى الله مَن لا يزال يتقرَّب إلى ما يُبعده من الله، وهي الدنيا.

ثم وصف الله أهل سعادة الكبرى من سوابق زُمرة الأعلى، الذائقون طعم مجالس دناني،وكان قاب قوسين أو أدنى، بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي :السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبّة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحقّ من مكمن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس

---

(١) وقال ابن عجيبة: تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم. البحر المديد (٢/ ٤٣٩).

السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالمُنى.

فإذا تلبَّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُلْفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ وعناية.

وقال الواسطي: السبَّاق قولًا وفعلًا، وحذَّر النفس حسرة المسبوق، ثم وصف السابقين لهم، فقال:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: أدركوهم، وأدركوا ما هم فيه من لطائف الكرامات، وأنوار المشاهدات.

وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: بإحسان الله عليهم في الأزل، حيث أرشدهم طريق المعارف، فأحسنوا بإحسان الله، وإحسانهم شهودهم حضرة الله، بنعت استضاء نور الإيقان والإيمان والعرفان.

ثم بَيَّن تعالى أن هذه الكرامة لهم من حُسن الرضا عنهم في الأزل، بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: رِضَاه عنهم سابقة الاصطفائية منه لهم في الأزل، فجعلهم راضين عنه بعد كشف لقائهم، فقد اختاروا مشاهدة الله على ما سواها إلى الأبد .

قال جعفر ﷺ: بما كان سَبَق لهم من الله من عنايته وتوفيقه، ورضوا عنه بما مَنَّ عليهم، بمتابعتهم لرسوله ﷺ، وقبول ما جاء به، وإنفاقهم الأموال، وبَذْلهم المُهج.

وقال النصر آبادي: ما رضوا عنه، حتى رضي عنهم بفضل رضاه عنهم، رضوا عنه.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: وصف الله قومًا عرفوا معايب أنفسهم لمعرفة الله وتعريفه إياهم نفسه، فعرفوا نفوسهم بمعرفة الله، فندموا عمّا جرى عليهم من أعلام المخالفات من الخجل والحياء بين يد الله.

وهم قومٌ ألحقتهم أنوار العناية تارة إلى المباشرة، وسائر القُربة، ونشَّقهم نسائم

الوصلة، ثُمّ مسَّهم طوارق الفرقة، امتحانًا من اللطف والقهر؛ كي يعرفوا الحقّ بمعرفة قهره ولطفه، وذلك معني قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فإذا بلغوا إلى محلّ الاستقامة، رُفعت عنهم نوائب الامتحان، وسكنوا في مشاهدة الرحمن، وهذا قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: صفة النادمين والمعرضين عن الذنوب، والناوين للتوبة هي: الاعتراف بما سبق منهم، وكثرة الندم على ذلك، والاستغفار فيه، ونسيان الطاعات، وذكر المعاصي على الدوام، والابتهال إلى الله بصحّة الافتقار؛ لعل الله يفتح له باب التوبة، ويجعله من أهلها.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: بَيَّن سبحانه أن يده في أخذ الصدقة، يد الله بقوله ﷺ: «الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل».

قال تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: خُذ ما يتعلق بحظوظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظّ النفس.

وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حبّ ما سوى الله.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: تُقدّسهم من البخل، وسوء الخُلق.

﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: ادع لهم بقبول الله إيّاهم لوصاله، وقبوله منهم ما مَنَّ عليهم من نواله.

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾: سكينة قلوب المؤمنين، فإنَّ دُعاءك لهم، مقرونٌ بالإجابة، وهم موقنون بذلك.

قال رويم: تُطهّر سرائرهم، وتُزكّي نفوسهم.

قال الواسطي: تُطهِّر أبدانهم من دَنَس الانشغال بها والانقطاع إليها، وتُزكّيهم عن دنس الافتخار بها، والمكاثرة بجمعها، وليس على الأنبياء زكاة؛ لأنه ليس على سرائرهم خطر الأموال.

وقال أيضًا: تُطهِّر قلوبهم من أنجاس الذنوب، وتُزكّي بواطنهم وسرائرهم من أنجاس العيوب، فأنجاس ذنوب الظاهر المنع، وأنجاس عيوب الباطن الأذىّ.

وقيل في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾[1] أي: ادع لهم، فإنَّ دعاءك لهم يكون سكونًا إلى الآخرة، وانقطاعًا عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إنّ الله سبحانه عرَّف الخَلق كرمه القديم، وفضله العميم يُعطي الكثير، ويقبل القليل، ويرى من عبده كثير السيّئات، ويبدِّلها له بالحسنات.

أي: يقبل توبة الآسف على ما فاته من قُربةٍ في زمان الطاعة، ويأخذ صدقة الموقِن بجزائه بكشف المشاهدة.

قال النصرآبادي: فرقٌ بين القبول والأخذ؛ لأنّه قد يَقبل ثم يأخذ، ولا يأخذ إلا عن قبول، فالأخذ أتمّ وأعمّ.

وقال أيضًا: أخذ الصدقة أجلُّ من قبول التوبة؛ لذلك تقع فيه التربية، قال النبيﷺ: «إن الله يأخذها فيربها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة..»[2] الحديث.

وعند عبده وخادمه- والله أعلم- أن القبول أتمُّ من الأخذ؛ لأنه ربما يأخذ، ولا يليق بنفسه وتعطى إلى غيره، ولا يقبل بطيب نفسه منه، بل يأخذ بطيب قلب المُعطي، فإذا قبل لطيب نفسه يأخذ لنفسه، ولا يعطي إلى غيره.

وأيضًا: يرى أن قبول التوبة أعظم من قَبول الصدقة؛ لأنَّ الصدقة شيءٌ لا يتعلّق بوجود التائب، وما جرى على التائب من المعصية كراهية عند الله، لأجل منازعته ومخالفته وذلك يتعلّق بالجبروت، فإذا ندم وخضع وخجل بين يدي الله، يصير خارجًا من صورة المنازعة، وخاضعًا للربوبيّة، فما كان في نفسه من الإيمان واليقين والندم والخجل، أعظم من جميع الكون عند الله.

إن كان صدقة منه، فإنّه يُعظِّم الله ويَصْدُقه، وينزِّهه بفنائه في عظمته، وهذا عمل القلب والصدقة وما سواهما عمل الجوارح، وأين عمل الجوارح عند عمل القلب؟

وذِكر الله أعظم من جميع الصدقات وجميع المعاملات، فإنّه ذَكَر ذاته وصفاته، قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قال النبي ﷺ «حمد الحامد أعظم مما أعطي له من النعمة».

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ

(١) قال القشيري (٣/ ١٦٢): إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أَنْمنُ لهم من استقلالهم بأموالهم.
(٢) رواه البخاري (٢/ ٥١١)، ومسلم (٢/ ٧٠٢).

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بيّن سبحانه مراتب علوم الإلهية على ثلاثة أقسام: استأثر قسمًا لنفسه، وقسمًا لرسوله، وقسمًا لأوليائه، فما استأثر لنفسه، فهو العلم القديم، وإحاطة نظره القديم على كلّ محدثٍ، ولا تُخفى عليه الضمائر، وما يجري في السرائر علمًا ورؤية بغير علّة الاكتساب.

ثم استأثر الأنبياء بنورٍ منه يرون به، فترى قلوبهم به أعمال الخلائق عيانًا وبيانًا، وذلك نور الذات، واستأثر أولياءه بسنا منه، فيرى به أعمال الخلائق في الخَلَوات، وما في قلوبهم من المغيَّبات بالفراسات الصادقة، ذلك نور الصفات، وفيه تخويف المخلصين والصادقين الذين يتعرض لقلوبهم النعوس، والشياطين بالهواجس والوساوس في أوقات الفِترة؛ حتى يراقبوا أسرارهم، ويراعوا أوقاتهم بتقديس القلوب من الخطرات.

قال أبو حفص أو أبو عثمان: اعمل، وأصلح العمل، وأخلص النيّة، فإنَّ الله يرى سرّك وضميرك، والرسول يراه رؤية مشاهدة، والمؤمنون يرونه رؤية فِراسة وتوسم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥].

قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: بيَّن الله سبحانه أنّ تأسيس كلّ عبادةٍ لا يكون إلا بالتقوى، والتقوى بظهور الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وكلّ موضع يتضرَّر فيه، ونيران التقوى تُحرق جميع الأوصاف النفسانية والشيطانية من الشرك والشك والرياء والنفاق والسمعة، ولا يبقى هناك إلا صفاء السرّ وطهارة الضمير، وخلوص النيّة، وصفاء القلب، وتجريد ذِكْر الله عن ذكر مخلوق.

وإذا كان كذلك تكون العبادة والإرادة، تبلغ الإيمان والإيقان إلى درجة العرفان،

والعرفان يبلغ هذه المراتب إلى درجة التوحيد، والتوحيد يبلغ الجميع إلى مشاهدة المُوحَّد، حتى صارت كلّ غيبةٍ عيانًا، وكلّ نكرةٍ عرفانًا وكلّ إبهامٍ بيانًا، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وفي هذه الآية عرَّفنا الله سبحانه أنّ الشرَّ قديمٌ، وفي كلّ زمانٍ، لكلِّ صادقٍ قيَّض الله له بذاته ملعونًا سالوسًا يؤذيه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، ومن جملة من كان يؤذى نبيّنا ﷺ: أبو عامر الفاسق، وكان راهبًا أمرَ المنافقين ليبنوا مسجدًا ضد مسجد قِباء، أو مسجد النبيّ ﷺ رياء وسمعة ونفاقًا، وصدَّ الخَلْق عن الدخول في الإسلام.

كذلك في زماننا هذا لبسوا الصوف، وأظهروا الزهد، وبنوا بِقاع السوء، وجلسوا فيه بالأربعين، ويرسلون الشياطين إلى أبوابه، لا تراك العوانين حتى يقولوا أن فلانًا في الأربعين، ينبغي أن تزوروه، فإنّه من أولياء الله، ويريدون بذلك جرَّ المنفعة إليهم، وصَرْف وجوه الناس إليهم مع مضادات أولياء الله، فإذا دخل عليهم أحدٌ من العوام، يقعون في ذكر مساوئ أولياء الله، وعيبهم وقُبح المقال فيهم؛ ليصدوا الناس عن التبرُّك بهم، والاعتقاد فيهم يخونون الله، ويخونون أولياء الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، طهَّر الله وجه الأرض من مثْلَهم.

قال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ من صحَّح إرادته بدءًا، ولم يعارضه شكٌّ أو ريبةٌ، فإنَّ أحواله تجري على الاستقامة، وتصحيح الإرادة، هو الخلع عن مراده أجمع، والرجوع إلى مراد الله فيه.

قال الله:﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

قال أبو عثمان: أرض الفتنة لا يَنْبُتُ فيها إلا الفتنة، وأرض الرحمة تُصيب الإنسان رحمة، ولو بعد حين[1].

ثُمَّ إنّ الله سبحانه وصف أهل القباء بتقديس أسرارهم، وعلوّ مراتبهم، وقبولهم في أزل محبّته لهم، بقوله:﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: وصفهم بحبِّ الطهارة، ووصف نفسه تعالى بحبِّ المُطَّهِّرين.

و«الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهالات، وطهارة النفوس من الكفريّات،

(١) (أحقّ أن تقوم فيه) أي: أولى بأن تصلي فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مُقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الإثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. البحر المديد (٢/ ٤٤٧).

وطهارة الأبدان من الزلَّات، ومَن أحبَّه الله في الأزل، يُطهِّره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحبَّ لا يترك حبيبه في شيءٍ يُضرُّ به.

قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجهٍ: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذِكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

وقال بعضهم: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أي: يُطهِّروا أسرارهم عن دنس الأكوان، ثُمَّ وصف سبحانه لهؤلاء الرجال، وتأسيسهم بناء الطاعات على موافقة الله ورسوله، وطلب رضوانه، بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾: لله بُنيانٌ، وهو قلوب الصدِّيقين، وفيها مناظر القدس، ومحافل الأُنس، تحفوها أنوار تجلِّي الحقّ سبحانه، فمَن أسَّس بُنيانَ قلبه بعد تطهيره عن دنس الأخلاق، وتنويره بنور الخلَّاق؛ لذكر جلاله، وتعظيم عظمته، وحبِّ لقائه، وشوقه إلى جماله، ومعرفته وتوحيده، وإفراد قِدمه عن الحوادث بنعت فنائه في احتشام الله، وخوفه وإجلاله، وخشيته من كبريائه، ومراقبته خطابه وأسراره، وطلب رضوانه ووصاله، يصل بهذه الأوصاف إلى أن يكون قلبه موضع أسرار الله، ولطائف رضوان الله، وظرف محبّة الله، ومحلّ زيارة الله، كما حُكي للنبي ﷺ عن الله سبحانه، بأنّ له تعالى ظروف أسراره في الأرض، قال: «إن لله أواني ألا وهي القلوب»[1].

قال أبو تراب النخشبي: مَن كان إبقاء إرادته على الصحة والسلامة من هواجس نفسه إلى الرضوان الأكبر، والمقام الأرفع.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال الواسطي: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾: لا من نفسه يكون الله أصل تلك التقوى.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ

---

(١) رواه الحكيم الترمذي (٣/ ١٨٨).

ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ تقتضي همّة المعرفة أنه أغار على نفسه في الأزل بعد أن وصف نفسه بمحبّتهم، فمنّهم عن نفسه، وشغلهم بغيره مكرًا بهم واستدراجًا، اشترى نفسه منهم؛ لأنّه بذاته نفس الكلّ، حيث قام الوجود بنفسه، ولولا قيامه على شيءٍ تلاشت الأشياء، ما قلّ من لمحة عرض نفسه الحدثان، ولم يرها أهلًا لنفسه، فاشترى نفسه من نفسه؛ لعلمه بضعف الخَلْق عن حَمْل وارد تجلّي عظمة نفسه، وكيف يقوم الحدث جلال القِدم، وهو تعالى قيمة نفسه لا غير، اشترى شفقة عليهم؛ كيلا يتلاشوا في سبحات عزّته، ثُمّ اشترى أموالهم، وهي كشوف نعوته الأزلية، وتمتُّعهم بمشاهدتها؛ حتى لا يبقى سرّ العدم إلا في القِدم.

فلمّا قطعهم عن رؤية سبحات القِدم بالحقيقة، شَغَلهم بما يليق بهم، وهي الجنّة، وأيضًا لم يرَ للنفوس والأموال نفاسة حيث اشتراها بالجنّة، ولو كان لها موقع لاشتراها بنفسه لا بشيءٍ محدث، وأيضًا اشترى النفوس؛ لأنها حجاب القلب من الربّ، وكذلك المال؛ حتى لم يبق بينه وبين الربّ حجاب، وأيضًا اشترى منهم النفوس التي تحت سلطانهم بالمجاهدات، وما اشترى قلوبهم؛ لأن قلوبهم لم تدخل تحت أملاكهم، فإنه مستغرقٌ في رؤية الصفات.

وقال ابن عطاء: نفسك موضع كلّ شهوةٍ وبليّة، ومالك محلّ كلّ إثمٍ ومعصية، فأراد أن يزيل مُلكك عمّا نصرك، ويُعوّضك عليه ما ينفعك عاجلًا أو آجلًا.

قال سهل: لا نفس للمؤمن؛ لأنها دخلت في البيع مع الله، فمَن لم يبع من الله حياته الفانية، كيف يعيش مع الله، ويحيى حياةً طيبة.

قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.

قال جعفر: مكر بهم على لسان الحقيقة ولسان المعاملة، واشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبّة في قلوبهم، فأحياهم بالوصلة.

وقال الحسين: نفوسُ المؤمنين نفوسٌ أبيّة اشتراها الحقّ، فلا يملكها سواه.

وقال النصر آبادي: سُئل الجنيد: متى اشترى؟ قال: حين لا متى أُزال عنهم العلل، بزوال مُلكهم عن أنفسهم وأموالهم؛ ليَصلحوا لمجاورة الحقّ ومخاطبته.

وقال النصر آبادي: اشترى منك ما هو صفتك، والقلب تحت صفته لم يقع عليه

المبايعة، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»[1]

فقال: النفسُ محلُّ الغيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره، وما سنح لي بعد قولهم، وما ذكرتُ في مقدم قولهم: أنه تعالى ألبس النفوس حين أوجدها لباس قهر الربوبيّة، فأسخطت من مباشرته وصف الكبرياء، فلما اتّصف بقهره تعالى نازعته، فعلم الحقّ تعالى لو تركها مع المؤمنين أغوتهم، كما أغوت فرعون، بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكما قال إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:١٢]، فهلكها بقهره؛ حتى لا يبقى في المؤمن غير العبودية.

ثُمّ أن الله سبحانه فرّح فؤاد العارفين بوفائه معهم، وخطابه بأخباره عن صدقه بوفائه؛ ليكونوا في بذل وجودهم وقتل نفوسهم، والجهاد مع عدوّهم على حسن الظنّ في الله، وحُسن الرضا إلى وعد الله وفائه لعهده، بقوله:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كلُّ حادثٍ ناقصٍ في أمر المستقبل والقديم، منزَّه عن نقائص الحدثان، فيفعل بموجب الأخبار على موافقة الحكم، ويعطي للعبد ما وعد به وأكثر، إظهارًا لربوبيّته، ومَنًّا على عباده.

قال الحسين: عهد الحقّ في الأزل إلى خواصه باختصاص خاصية خصَّهم من بين تكوينه، فأظهر آثار أنوار ذلك عليهم عند استخراج الذرّ، فرأى آدم ﷺ الأنوار تتلألأ، فقال: مَن هؤلاء؟، ثم أظهر سمات ذلك حين أوجدهم، وهى آثار ذلك العهد الذي عهد إليهم فوفَّى لهم بعهودهم ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

ثمّ إنّ الله سبحانه بشَّر المؤمنين باشترائه نفوسهم منهم، وبما يجازيهم بها من لطفه وكرمه وفضله ومشاهدته، بقوله:

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، وأضاف اشتراء النفوس إلى نفسه، اشتراها في الأزل ،وأضاف بيعها إلى المؤمنين، وأين المؤمنون في الأزل؟

وأقام نفسه مقام المؤمنين؛ لإشارة مقام الاتّصاف والاتّحاد، كما أشار إلى النبي ﷺ، بقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧]، والآية من قبيل عين الجمع بشَّرهم نبيّهم،والغرض من ذلك المشتري أي: بشّروا بمتابعتكم معي حيث اصطفيتكم بخطابي وشرائي، الذي يُنَبِّئكم عن كريم نطفي بكم، بأنّي أعطيكم ما وعدتكم بلا

---

(١) تقدم تخريجه.

عذاب ولا حساب، وأكشف عن وجهي قناع الجبروت، وأريكم جمالي وجلالي، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قال النصر آبادي: البُشرى في هذا البيع، أنه يُوفي بما وعد، بأن لهم الجنّة، ويزيد لمن يشاء فضلًا منه وكرمًا بالرؤية والمشاهدة.

ثُمّ وصف أهل ذلك البيع والشراء، بأوصاف المقامات مفصّلًا ومقسّمًا، بعد أن جعل جميع الأوصاف في اسم العلم الذي هو المؤمن، وذلك الاسم اسم جامع لمعانٍ كثيرة، وهي ما وصفهم الله بهذا في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بيّن تسعة مقامات، وذكر في أوّلها ذكر الإيمان، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان أصل جميع المعاملات والحالات والدرجات والمنازلات، وهو أصل جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، وهو تعريف الله نفسه لعبده بعد أن جعله عاقلًا مستعدًّا لمعرفته، فاهمًا لخطابه.

ومن الإيمان تتشعب هذه الخصال، وهذه المقامات، فصارت قسمة المقامات عشرة مع الإيمان، والإيمان أوّله.

والمؤمن ممتَحنٌ ببلايا المعرفة من الله، فيذوق مرارة الفُرقة بعد ذوق الوصلة، فيقع بتوفيق الله السابق في الأزل، فيوقظه من نوم الغفلة، وينبّهه من قدرة الفرقة حتى يتنبه ويفتح عين قلبه، فيعرف ما أفسدت النفس والشيطان في مصارع قلبه بذئاب الشهوات، وسباع الشُبهات، ويرى خيول الهوى في محلّ الروح الناطقة، فيهيّج سرّه نور الإيمان إلى إخراجها من منظر نظر الله، فيقدّس أسراره من النظر إلى الأغيار، ويخُرج نفسه من منازل الاغترار، ويندم على ما فاته من أوقات الطاعات، ويرجع بالحياء والخجل إلى أبواب المداناة، ويستأنف عمل الإرادات، حتى تستحق له مرتبة التوبة، فيتوب الله عليه بعطف وصاله وكشف جماله.

فالتائبون: قومٌ رجعوا من غير الله إلى الله، واستقاموا بالله مع الله، ولا يرجعون من الله إلى غير الله أبدًا.

ثم يوجب هذه الأوصاف للتائب الصادق، العبادات والمجاهدات والرياضات، حتى يذوق طعم العبودية، وذلك بعد الحريّة عمّا سوى الله، حتى يكون عبدًا لله لا لغير الله، ويرى مشاهدة الله في عبادة الله بعين الإحسان ونور العرفان، كما قال سيد فرسان العالمين في ميادين

المعرفة محمّدٌ رسول الله ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1].

فالعابدون: هم القائمون بالله في الله عن غير الله، فإذا تمّت هذه النعم لهذا العابد يقتضي حاله حَمْد المُنعم القديم بإحسانه السابق للعبد في الأزل بإنعامه، فيحمده بوصل الخجل ، وخرس ألسنة أسراره عن البلوغ إلى ثنائه، فيحمده بلسان حمده بنعت نسيان غيره في حمده، فيحمد مُنعمه بنعمة تعريف نفسه له، فيستعف لسان الحمد من صفته، فيصفه بصفته لا بوصفه؛ لأن الحادث كيف يطيق أن يحمد القديم؟

ألا ترى كيف رأى النبي ﷺ نفسه عن حمده في رؤية جلاله مقصِّرة عن البلوغ إلى حقيقة حمده وثنائه، بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

فالحامدون: الذاكرون الله لجميع الوجود ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلانية، حتى لا تخلو شعرة منهم إلا ولها لسان من الله بحمد الله به في جميع الأنفاس، المستغرقون في بحار امتنان مشاهدته.

ثم يقتضي حمده للحامد حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين هلال جماله في سماء الإيقان، ألا ترى كيف قال ﷺ: «صوموا لرؤيته»، ولا يكون فطوره إلا حلاوة مشاهدته؛ لقوله ﷺ :« وأفطروا لرؤيته»[3].

فالسائحون: السيَّارون بقلوبهم في الملكوت، الطائرون بأجنحة المحبّة في هواء الجبروت، ثم السياحة في أقطار الغيب، يقتضي المشايخ الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة والكبرياء في مراكع الكشوف، فيركع بنعت السكر لجبروته في كلّ موطنٍ من العالم شوقًا إلى جود جماله، وحُسن وصاله.

فالراكعون: العاشقون المنحنيون من ثِقل أوقار المعرفة على باب العظمة من رؤية الهيبة، ثمّ يقتضي ركوع هذا الراكع شهود أسراره في منازل الأنوار؛ لطلب جمال المَلك الغفَّار جلّ جلاله وعزّ كبريائه، فيسجد عند كلّ كشف في كلّ موضع وحش، حتى يصير مدهوشًا في دهشة بديهة كشف جماله من كلّ قِبلة في العالم، فيسجد لجميع الجهات لغيبه في معاينات الصفات.

وهكذا كان هشام بن عبدان الشيرازيّ- رحمة الله عليه- في سكره؛ ومات بهذه الصفة بارك الله في حياته ومماته، وجعَلَنا مثله في عرصات المقبولين بسيف محبّته، وكشف مشاهدته

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦٧٤)، ومسلم (٢/ ٧٥٩).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

فالساجدون: الشاهدون مشاهدة الغيب بعد كشف الغيب حرقةً وهيجانًا وشوقًا وهيمانًا، أنشد:

لـوْ يـسمعونَ كـما سـمعتُ كلامَهـا ... خـرُّوا لعـزَّةَ رُكَّعًـا وسُـجودَا

وهذا السجود يقتضي التوبة، والقربة تقتضي المشاهدة ،والمشاهدة تَصير شاهدًا متّصفًا بصفاتها ،فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته، صار متّصفًا بوصف الربوبية، متمكّنًا في العبودية، فيحكم بحكم الله بهذه النعوت.

وقال: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الدّاعون الخلق إلى الحقّ بلسان الظرافة ، ومباشرة المعاملة، الباذلون أنفسهم في الله، دفعَ المضرَّة عنهم، وأخرجهم عن معصية الله بتأييد الله، وبما كساهم الله من أنوار هيبته، وكسوة سنا عظمته، فيكونون محتشمين باحتشامه بين الخلائق، فنهاهم عن متابعة الشهوات بعد أن منعتهم نفوسهم عن جميع المخالفات.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الناهون نفوسهم عن الهواجس، وشياطينهم عن الوساوس، وقلوبهم عن طلب الآخرة، وأرواحهم عن وقوفها في مقام المحبّة؛ لأن الأزلية بلا نهاية، والوقوف على منزلٍ واحدٍ حرام على كلّ عاشق، وهذا مجالٌ يقتضي رتبةً أعلى، وهي حفظ حدود الله ،وتابعوا سنَّة الله ورسوله في شريعته، وأمروا على أنفسهم وعلى خلقه أمر الله ورسوله، ولا يتجاوزون عن حدود الله التي أعلامها معروفة في خطابه، فالحافظون لحدود الله، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبيّة لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبيّة، وبعد أن اتَّصفوا بصفاته، وعاينوا جمال ذاته، لا يدَّعون الربوبيّة كفعل سكارى المحبّة؛ لأنهم في محلِّ التمكين على أُسوة مراتب النبي ﷺ مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله»[1].

ثُمّ جمع هذه الأوصاف الشريفة، والمراتب الرفيعة في ا سم واحد، وهو اسم المؤمن، وبشَّرهم بجزيل المقامات في الدنوّ والمداناة، بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: العارفين الذين هذه الأوصاف صفتهم، وهم في أعلى الدرجات من التوحيد أي: بَشِّرهم أنا لهم وهم لي، حجاب بيني وبينهم أبدًا، وإذا خرجوا من هذه المفاوز الوعرة لا يبقى بيني وبينهم امتحان بعد ذلك، فإنَّ هناك لهيب الوصال بلا علّة الفُرقة، وكشف الجمال بلا حجاب الوحشة، قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

ولي أيضًا لطيفة في حقِّ المؤمنين، أنَّ الله سبحانه ذكر أوصاف هؤلاء الكبراء من أهل المقامات والدرجات، وما ذكر البِشارة هناك، كأنّ ذلك يقتضي حزن المؤمنين الذين هم في أدنى الدرجات من درجاتهم، فبشّرهم بالبِشارة، وعاملهم بالبيع والشراء.

قال في الأول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: اشتريت منهم نفوسهم بثمنٍ كريمٍ.

قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: بأنَّ ذلك الثمن الكريم جنّة مشاهدتي، التي بسَّامة بنعت الرضا في وجوههم حين تطلع لعيونهم، وأن ليس لهم هذه المقامات، فأنا مشتري المفلسين، وأنا مُبشِّر المحزونين، أي: الدرجات لهؤلاء، وأنا للمؤمنين خاصة بلا علّة المعاملة، ولا شُبهة الجهد والجاهدة، وأيضًا: بشِّر المؤمنين بهذه المقامات، فإنّها أيضًا من أهل المقام بإيمانهم بهؤلاء الأصفياء.

ألّا ترى إلى قول رويم – قدَّس الله روحه – حيث قال: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا، فهو من أهله.

قال سهل في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: ليس في الدنيا شيءٌ من الحقوق، أوجب على الخَلق من التوبة، إلا بالحمد على ما وقفت به عليه من طلب طريق التوبة، ولا تَصحّ التوبة إلا بمداومة السياحة والرياضة، ولا تدرك هذه المقامات، إلا بمداومة الركوع والسجود، ولا يَصحّ هذا كلّه، إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصحّ مما تقدّم، إلا بحفظ الحدود ظاهرًا وباطنًا.

والمؤمن من تكون هذه صفته؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين هم بهذه الصفة .

قيل في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله بالكلّية عن جميع ما لهم من صفاتهم وأحوالهم، العابدون القائمون معه على حقيقة شرائط الخدمة، الحامدون العارفون نعم الله عليهم في كلّ خطرةٍ وطرفة عين.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن مرادها؛ طلبًا للرضا.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون له على الدوام.

﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ الطالبون قُربه.

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ الآمرون بسنَّة النبيّ ﷺ.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن ارتكاب مخالفات السنن.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ المراعون أوامر الله عليهم في خوارجهم، وقلوبهم، وأسرارهم، وأرواحهم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ القائمين بحفظ هذه الحرمات.

وقال أبو يزيد: السياحة راحة، من سَاح استراح.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾،قال: هم الذين أصغوا إلى الله بآذان فهومهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلَّفوا عن ندائه بحال.

وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر قال: لا تَصحّ العبادة إلا بالتوبة، فلذلك قدَّم التوبة على العبادة، ولا تتم التوبة إلا بملازمة العبادة، فجعلها تاليةً.

قال ابن عطاء:﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله من كلِّ ما سواه من الأغيار. و﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الواقفون على بابه يطلبون الإذن عليه شوقًا منهم إليه.

و﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ هم الذين يشكرونه على السرّاء والضرّاء، إذ كلٌّ منه، وما كان منه، فهو مقبولٌ بالسمع والطاعة.

و﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ التاركون شهواتهم، ومراداتهم لمراد الحقّ فيهم.

و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون لعظمة الله. و ﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾: المتقرّبون إلى الله بخدمته، و﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ القائمون بأوامر الله بحسب الطاقة: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ التاركون مخالفة الحقّ أجمع، وهم الذين يوالون أولياء الله، ويعادون أعداءه.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله، فمَن راجع، يرجع عن زلّته إلى طاعته، ومَن راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، ومَن راجع، يرجع من شهود نفسه إلى شهود لُطفه، ومَن راجع، يرجع عن الإحسان بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستقرار في حقائق حقّه.

وقال في قوله:﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ هم الخاضعون بكلِّ وجهٍ، الذين لا تسترقّهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدهم عظائم العُقبى، و﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ الشاكرون له على وجود أفضاله المُثنون عليه عند شهود جماله وجلاله، و﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الممتنعون عن خدمة غير الله، المُكتفون من الله بالله، و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ الخاضعون لله في جميع الأحوال تحت سلطان التجلِّي، و﴿ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبيّة.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هم الذين يَدعون الخلْق إلى الله،

ويحذِّرونهم عن غير الله، يتواصـون بالإقبـال على الله، وترك الانشغـال بغير الله. و﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ يحفظون الله مع الله أنفاسهم.

قيل في قوله: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلبًا للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها، بالتفكُّر في جوانبها ومساكنها، والاستدلال بتغيُّرها على مُنشئها، والتحقُّق بحكمة خالقها، كلما يرون من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقُّق بشهود الحقّ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ إنّ الله سبحانه إذا أذاق طعم وصاله، ولذائذ حلو خطابه أرواح الصدِّيقين والعارفين، وأراهم جماله وجلاله، فجعلهم عاشقين بوجهه، شائقين إلى جماله، وهم بهذه النعوت لا يَبْرحون عن بابه، ولا يفرحون إلا بوصاله، ولا يلتفُّون بقلوبهم ونيَّاتهم إلى غيره، فلمّا اصطفاهم بهذه الصفات في الأزل بنفسه، كيف يحجبهم عن نفسه، وهو بذاته كان مُحبًّا بحبِّهم، وعاشقًا بعشقهم، وشائقًا إلى شوقه،حاشا التغيير في أهل الصفات، ولا تبديل الكلمات التامات التي سبقت باصطفائيتهم في الآزال، وآزال الآزال، وهُم بحمد الله في كنف الله، محروسون بعين لطفه عن عين قهره إلى الآباد وآباد الآباد، ولا اعتبار بما يجري عليهم من أحكام الابتلاء والامتحان، فإنّ سيئاتهم تُوجب الحسنات، وحسناتهم تُوجب القُربات، وهم غير مأخوذين بالجنايات، لسبق العنايات.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ لا يمنع تغيير ما ذكرنا، فإنّ الضلال هاهنا ظهور النكرة في محلِّ الامتحان من القهر والغيرة، وخفاء الحال، والغرض في ذلك انفتاح عين المعرفة في النكرة، حتى يعرفوا الحقّ بطريق القهر واللطف، وتأويل الظاهر.

قال بعضهم: مَن جرى له في الأزل من السعادة والعناية نصيبٌ، فإنّ الجنايات لا تؤثِّر عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ في الأبد، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ في الأزل.

وقيل: لا يُضلُّهم بعد إذ هداهم إليه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لا سلب لعطائه، إلّا بترك الأدب منكم.

ويقال: من أهله لبساط الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفُرقة، إلّا لَمن سلب منه ترك الحرمة.

ثُمّ وصف نفسه بأنه مالك المُلك من العرش إلى الثرى؛ إعلامًا بأن الحكم له في الضلالة والهداية والحياة بالوصلة، والموت بالفرقة: بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

إشارة القهر أن مُلك الكون لا خطر في قلب العارف عند رؤية المُكوِّن؛ لأن من عاين المُكوِّن غاب عن الكون، والكون له؛ لأن العارف والمعروف بشرط الانبساط واحدٌ، له ملك الولاية في الأرض، ومُلك الملكية في السماء، مَن قصده لهاتين المنزلتين يكون مرهونًا للدرجات عن المشاهدات، التي تُحيي قلوب العشاق بجمالها، وتميت المشغولين بغيره، بفراقها، وتُحيي قلوب العارفين بالبسط والأُنس، وتميت نفوسهم بالقبض والهيبة.

قال ابن عطاء: من طلب من الملك غير المالك: فقد أخطأ الطريق.

وقال جعفر: الأكوان كلُّها له، فلا يشغلك ما له عنه.

قال الأستاذ: يُحيي من يشاء بعرفانه وتوحيده ،ويُميت من يشء بكفرانه وإلحاده. ويقال :يُحيي قلوب العارفين بأنوار المواصلة، ويُميت نفوس العابدين بآثار المنازلة.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[1] التوبة توبتان:
توبة العبد: وهى الرجوع من الزلّات إلى الطاعات.
وتوبة الله: رجوعه إلى الله بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب:

إذَا مرضـــتُم أتيـــنَاكُم نعـــودُكُم وتديـــنونَ فنأتـــيكُم فـــنعذرُ

انظر لطف الله بنبيّه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه؛ ليسهّل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيّه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القُربة، فتوبة النبيّ ﷺ من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة؛ فلمّا ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات، أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنّة الله مع الأنبياء والأولياء إذا دانوا في مقام الامتحان، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، يُمطر عليهم وابل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرق القِدم، فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى:٢٨]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، وأنشد في معناه:

كـــنَّا كَمَـــنْ أُلـــبسَ أكفَانَـــهُ وقـــربَ الـــنعشَ مـــنَ الملحـــدِ
فحـــالَ مـــاءُ الـــروحِ في جـــسمِهِ فـــردَّهُ أمـــلٌ إلىَ المـــولدِ
تـــبارَكَ اللهُ ســـبحانه مَـــا كـــلٌّ هـــوَ بالـــسرمَدِ

قال بعضهم: توبة النبيّ ﷺ، هي مقدمة توبة الأمة؛ لتصح بالمقدمة التوابع من توبة التائبين.

وقال بعضهم: توبة الأنبياء لمشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ، إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة؛ لأنهم في عين الجمع أبدًا، ثُمّ خصَّ الثلاثة الذين غرقوا في بحار الامتحان، برجوعه عليهم بقبول توبتهم، بقوله:

(١) أي نبي الروح بمنزلة النبي يأخذ بإلهام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء. فالمعنى: أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى المدينة الجسدانية والأنصار من القلب والنفس وصفاتها وهم ساكنوا مدينة الجسد فيوضات الرحمة. تفسير حقي (٥/ ١٨٧).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾: انبسطت عرصات قلوبهم لتراكم غيوم القبض، وتتابعت على أسرارهم أنوار العظمة، فأبرزت الأرض من عظائم برحاء مواجيدهم، وتراكم حقائق همومهم، فلا يبقى ذرة من الأرض إلا واستغرقت في بحار أنفاسهم الملكوتية، واحترقت بنيران أفئدتهم الجبروتية، وما رأوا على وجه الأرض ما يستأنسون به غير الله.

ثُمّ وصف نفوسهم بفنائها في آثار قلوبهم، بقوله: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ ضاقت نفوسهم من حمل وارد الغيب عليهم، وعن أثقال أرواحهم، التي هي مطايا أسرار الألوهية، ولطائف كنوز الربوبيّة، وفنوا تحت سلطان كبريائه، ودخلوا تحت أكناف لطفه من عزائم قهره.

بقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عرفوا موضع الفرار منه إليه، فقطعوا الوسائط، وخاضوا في بحار القهر بسفن اللطف، فلمّا رآهم منفردين من دونه، أقبل إليهم بنوادر لطفه؛ ليقلبهم من الكون إلى وجهه، بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ رفع حجاب الحشمة من البيْن؛ ليدخلوا الحضرة بوصف الأنس، اشتاق إليهم، فشوَّقهم إليه، ثم وصف نفسه بأنه قابِل التوبة في الأزل، رحيمٌ على من رجع إليه، بأن أمنه بعد خوفه، وقرَّبه بعد بُعده.

قال أبو عثمان: مَن رجع إلى الله، وإلى سبيله، فلتكن صفته هذه الآية، تَضيق عليه الأرض حتى لا يجد فيها لقَدَمه موضع قرار، إلّا وهو خائف أنّ الله ينتقم منه فيها، وتضيق عليه أحوال نفسه، فينتظر الهلاك مع كلِّ نَفَسٍ، هذه أوائل دلائل التوبة النصوح، ولا يكون له ملجأ ولا معاد ولا رجوع؛ إلّا إلى الله بانقطاع قلبه عن كلّ سببٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾.

وقيل في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ لن يعتمدوا حبيبًا، ولا خليلًا، ولا كليمًا، بل قلوبهم منقطعة عن الخَلْق أجمع، وعن الأكوان كلِّها.

لذلك قيل: المُعارف ألّا تلاحظ حبيبًا ولا خليلًا ولا كليمًا، وأنت تجد إلى ملاحظة الحقّ سبيلًا.

وقال أحمد بن خضرويه، لأبي يزيد: بماذا أصل إلى التوبة النصوح؟

قال: بالله وبتوفيقه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

قال بعضهم: عطف عليهم بنوال عطفه ونعمه وفضله، فألِفوا إحسانه، ورجعوا إليه،

فكأن هو الذي أخذهم إلى نفسه، لا هُم بأنفسهم رجعوا إليه.

قال الأستاذ: إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، وظنّوا نفوسهم على أن يذوقوا إليهم اليأس، أمطر عليهم سحاب الجود بالإجابة، فيعود عُود الحياة بعد يبسه طريًّا، ويَرد وِرد الأُنس عقب ذُبوله غضًّا جليًّا.

وقال في وصف الثلاثة لمّا صدق منهم الملجأ: سبق إليهم الشفاء، وسقط عنهم البلاء، وكذلك الحقّ يكون نهار اليسر على ليالي العُسر، ويطلع شموس المنَّة على فخوس الفتنة، ويله من تلك السعادة، فيمحق تأثير طوارق النكادة سنَّة منه سبحانه، لا يُبدِّلها عادة في الكرم يجريها، ولا يحولها، ثم حثَّ هؤلاء المخاطبين بالتوبة والمغفرة، ونظر أنهم من المؤمنين، بطلب زيادة المقامات والدرجات، وحذَّرهم من نفسه، وطالَبهم بالصدق في وفاء المعرفة، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جعل الطريق على ثلاثة أقسام: الإيمان، والتقوى، والصدق، وهي من أعمال القلوب؛ لأنها تُثبت حقائقها بكشف أنوار الغيوب، ومن خُصَّ بالإيمان والتقوى والصدق، يُدرِك بالإيمان مشاهدة أنوار حقائق الآيات، ويدرك بالتقوى مشاهدة أنوار الصفات ،ويدرك بنور الصدق مشاهدة أنوار الذات، سمَّاهم مؤمنين، ودعاهم من مقام الإيمان إلى مقام التقوى، وهو رؤية إجلاله، والتبرِّي من غيره ، ودعاهم من التقوى إلى مقام الصدق، وهو مقام الاستقامة مع الله، حيث لا يفر الصادق منه ببلائه، وبَيّن أن المؤمن مستعدٌ لإدراك نور التقوى ،وإدراك نور الصدق ،ولولا ذلك ما حثَّهم على طلبها، وخوَّف المؤمنين عن مخالفة الصادقين ،أي اقبلوا يا أهل الإيمان ما يصدر من الصادقين من أحكام علوم المجهول الغريبة، والبراهين العجيبة؛ حتى تكونوا بالإيمان به معهم في مقام المشاهدة؛ لذلك قالﷺ «من أحبَّ قومًا فهو معهم»[1].

وقال بعضهم: ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مع المقيمين على منهاج الحقّ

قال بعضهم ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الذين لم يُخلفوا الميثاق الأول، فأنها صدق الكلمة .

قال أبو بكر بن طاهر: مع مَن ضاقت نيّتهم عن طاعته، وخَلُصت سرائرهم لمودة ما يَرِد عليهم.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢).

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ اختار الله سبحانه قومًا خاصًا لمجالسة نبيّه ﷺ على الدوام، وخصَّهم لإلقاء الأسماع الخاصة، لتلقف خطاب الحقّ من فلق الغيب، وجعل الآخرين للأسفار والمجاهدات والرياضات؛ ليبلغهم إلى مقام المشاهدة والصحبة، فالأولون أهل الحضور وشهود الغيب، والمؤانسة بالصحبة، وفهم الخطاب.

قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليفهموا حقائق أحكام المعرفة،والطريقة والحقيقة، والشريعة، والآخرون إذا تمكّنوا في العبودية، وأدركوا مقام أهل المؤانسة، وفهموا مراد الله من خطابه، وإذا الكلّ على سعادةٍ من الأزل وحيث لحق بعضهم بعضًا؛ لأنّ شموس العناية إذا أشرقت يجاري الكلِّ أنوارها، إذا طلع الصباح لنجمٍ راح تساوى فيه سكران وصاحٍ.

قال سهل: أفضل الرحلة رحلةٌ من الهوى إلى العقل ،ومن الجهل إلى العلم ،ومن الدنيا إلى الآخرة ،ومن الاستطاعة إلى التبرّي من الحول والقوة ،ومن النفس إلى التقوى ،ومن الأرض إلى السماء ،ومن الخَلْق إلى الله .

قال المرتعش: السياحة والأسفار على ضربين: سياحةٌ؛ لتعلُّم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمَن رجع من سياحة الأحكام، قام بلسانه يدعو الخَلْق إلى ربه، ومَن رجع من سياحة الآداب والرياضة، قام في الخلق يؤدِّبهم بأخلاقه وشمائله، وسياحة هي سياحة الحقّ، وهي رؤية أهل الحقّ والتأدُّب بآدابهم، فهذا بركته تضم العباد والبلاد. قال الله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ .

قال سهل في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ليفهموا في الدين مراد خطابه، ويقوموا باستعمال ما أُمِروا به مخلصين له الدين، ثُمّ حثّهم بقتال نفوسهم، ومجاهدة هواهم، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الكفّار: النفوس الآبدة التي هي مجمع الهوى والبلاء والحجاب، مَنْ عرفها قاتلها وأماتها بفنون الرياضات، حتى لا يبقي في عرضات قلبه من عروق أشجار الشهوات أثر، فينبت فيها بعد ذلك أشجار المعارف، والكواشف ونور الحكمة، ورياحين المودّة ،وورود الشوق، وياسمين العشق، ويكون بهذه الأنوار مزار جنود الأسرار، ومنازل نزول الأنوار.

قال سهل: النفسُ كافرة، فقاتلها بمخالفة هواها، واحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، وأكل الحلال، وقول الصدق، وما أمرَت به من مخالفة الطبيعة.

وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر معناه: مجاهدة النفس وشرورها، فإنّه أقرب شيء يليك صدق الصادق، حيث وافق قول سيّد الصادقين ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وصف الله أهل الإيمان بفتح آذان قلوبهم بسماع خطابه، وفَهم بيانه، واستبشار قلوبهم بروح الخطاب، وزيادة إيقانهم في السماع.

قال ابن عطاء: أمّا الذين حكموا الربوبيّة، وتمسّكوا بعهد العبودية، زادتهم معرفةً في قلوبهم، ونظرًا أسقط عنهم النظر إلى ما سواه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ جهّلهم على جهلهم عند معاينة البرهان؛ لأنهم ليسوا من أهل العيان.

قال سهل: أي زاد أهل الأهواء والبدع المضلة جهلًا إلى جهلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أخبر الله سبحانه عن أهل الفتنة والعزّة، لا يعرفون طريق الحقّ بعد امتحانهم بالبلايا المتواترة، ولا يهتدون سبيل الرشاد بعد إظهار البرهان لهم، وكيف لا يكونون هكذا، وهم في الأزل محجوبون عن عناية السرمديّة.

قال أبو عثمان المغربي: ليس الرجوع في أيّام الفتنة، إلّا إلى الملجأ والاستغاثة، وطلب

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٧).

الأمان، وقصد التوبة، فمَن رجع إلى غير هذه الأسباب لم يَسلم من فتنة نفسه، وإن سَلم من فتنة العوام.

قال الله: ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون إلى الله بقلوبهم، والراجع إلى الله سالمٌ من الفتن والآفات والهَمّ.

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يشكرون نعمى السالفة عندهم، وهم يعلمون رِفقي بهم في الفتنة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أخبر سبحانه عن كريم ميلاده ﷺ، وعظيم ميعاده ومراده، وشرَّف بها أمّته، حيث اختاره منها باصطفائية رسالته، وعظَّم شأنه، والحمد لله الذي جعل طينته من طينتنا، وشرَّف طينتنا حيث جعلها من طينته، وخَصَّ جوهر روحه من أرواحنا، وشرَّف أرواحنا حيث كانت مع روحه في أول بديهة الأمر من الله سبحانه، وأي كرامةٍ أعظم كرامةً مِن أن الله سبحانه جعل نبيّنا من أنفسنا، وأرسل إلينا بالرأفة والرحمة، وأكرم خلقه حيث جعله رحمةً للعالمين، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

قال الخرَّاز: أثبت لنفسك خطرًا، حين قال: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

قال الحسين: مِن أجلِّكم نفسًا، وأعلاكم همّةً، جاد بالكونين عوضًا عن الحقّ، ما نظر إلى الملكوت، ولا إلى السدرة، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم:١٧] قلبه عن موافقته.

قال ابن عطاء: نفسه موافقةٌ لأنفس الخَلق، خلقه ومباينته لها حقيقة، فإنها نفس مقدَّسة بأنوار النبوّة، مؤيَّدة بمشاهدة الحقائق، ثابتة في المحلّ الأدنى، والمقام الأعلى ما زاغ، وما طغي، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ اشتدّت عليه مخالفتنا مع الحقّ، ومتابعتنا هوانا، واحتجابنا عن الحقّ.

قال بعضهم: شَقَّ عليه ركوبكم مراكب الخلاف.

قال سهل: شديدٌ عليه غفلتكم عن الله، ولو طرفة عين، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حريصٌ على محبّتكم بمشاهدة الله، ومعرفة صفاته وذاته، وعلى متابعتكم أمر الله، رءوفٌ برأفة الله بالمؤمنين، ورحيمٌ برحمة الله على الصادقين، رءوف بأهل الجنايات من المذنبين، ورحيم على أهل الطاعات من المقصِّرين، فيها تَشفع لأهل الجنايات، وتدعو لأهل الطاعات، وهذا من اتِّصافه بصفة الله، حيث ألبسه أنوار عنايته، وزيَّنه بلطفه وشفقته.

قال بعضهم في قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم لو كانت الهداية إليه، مُشْفق على من اتّبعه أن يأتيه نزغةَ من نزغات الشيطان، رحيمٌ يستجلب برحمته له رحمة الله إيّاه.

وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أن تبلغوا محل أهل المعرفة.

قال جعفر الصادق: علم الله عجزَ خَلْقه عن طاعته، فعرَّفهم ذلك؛ لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقًا من جنسهم في الصورة، فقال:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرًا صادقًا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ثم أفرده ﷺ لنفسه خاصة بعد أن كان من جنسهم بالصورة، فآواه إلى نفسه بشهوده عليه في جميع أنفاسه، وسلَّى قلبه بإعراضهم عن متابعته، بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في أمر النبوّة، وشرف الرسالة وجماله،حسبي عن الجملة، وقُرْبه ووصاله يكفيني عن جميع مراتب الثقلين؛ لأنه بوحدانيته منـزَّهٌ عن الأضداد، فنـزِّهني عن صُحبة الأغيار بمشاهدة الأنوار بوصفه لنفسه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا غير في البيْن من العرش إلى الثرى.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على نفسي وغيري، فإنه عماد المتوكِّلين، وبه ثَبتت قلوب الصادقين.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ حيث ألبسَ العرش أنوار عظمته بعظمته، ولولا ذلك لذاب العرش في سبحات وجهه بأقل لمحةٍ.

سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

﴿الٓر﴾: الألف عين الوحدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوحدانية، تجلَّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلَّى من عين الأزلية باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلَّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهين، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين.

وأيضًا: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين.

قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنها يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبَّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطَّلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة.

وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني ؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه ۝﴾، يا ﴿يس ۝﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بها في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات مَا ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته.

وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وقيل: الكتاب الحكيم العهد الناطق عليك بأحكام الظاهر والباطن.

قال الأستاذ: إن هذا الكتاب هو الموعود لكم يوم الميثاق، والإشارة فيه أن الصفر نسيج الشعر وغيره.

والعناج: الخيط الذي يشد من أسفل الدلو، حققنا لكم الميعاد وصفرنا لكم عناج الوداد، وانقضى زمان البعاد، فالعصاة ملقاة، والأيام بالسرور متلقاة، فبادروا إلى شرب كاسات المحاب، واستقيموا على نصيح الأحباب: خلقه لم يعرفوا موقع عناية الله وفضله واختياره لنبيه نبوته ورسالته بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وأخبر أن هذه الخاصية من الله سبحانه له؛ بأن ينبه النوامين عن مشاهدة عظمته بعظيم بطشه وجلال قدره بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، ويبشر الصادقين في إيمانهم؛ بأن وصاله لهم بنعت السرمدية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أخبر عن أوائل كرمه وسوابق نعمه الصادقين في إرادتهم، والمخلصين في مقاصدهم أن لهم وصالاً بغير حجاب، وكشف جمال بغير عتاب.

وأيضًا أي: بشِّر العارفين أن لأرواحهم في مقام قدس جلالي وأزلي قدم المحبة وصدق اليقين بمشاهدة، حين كشف جمال وجهي لها في ميثاق الأول، وصدق تلك الأقدام بوصف المحبة أنها لا تزول عن محل الاستقامة في العبودية، وعرفان الربوبية.

وأيضًا: ما وصفت قدم الربوبية في إيجاد الكونين إلا بصدق محبتي لهم في الأزل.

وأيضًا: معنى الآية أولها تخويف بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: خوف من نسيني طرفة عين بفوت حظ مشاهدتي وفراقي ووله وصالي، ثم بشر بلسان نبيه ﷺ من كان جميع قلبه مملوءًا من حبه وصفاء ذكره.

وأيضًا أي: بشر المريدين الذين أيقنوا قربتي لهم وعنايتي لهم أنهم وإن أخطأوا بمباشرة هوى نفوسهم في زمان فترتهم ألا يقنطوا من فضلي ولطفي القديم بهم في سابق حكمي، فإن لهم عندي قدم صدق الإرادة في البداية، ولا يحذر من كرمي أن أهدم صدق أقدامهم في الإرادات بل آويهم بعناياتي إلى قربي ووصالي، وأراعي عواقب أمورهم؛ حتى تكون أقدام الأواخر مستويات بأقدام الأوائل.

قال أبو سعيد الخراز: تفرق الطالبون عند قوله: «من طلبني وجدني»[1] على سبيل شيء، أولهم أهل الإشارات طلبوه على ما سبق من قوة الإشارة، وهم أهل قدم الصدق عند ربهم، فبالقدم أشار إليهم، فهم أهل الطوالع والإشارات، حظهم منه ذلك.

وقال سهل: سابقة رحمة أودعها في محمد ﷺ.

وقال الترمذي: قدم صدق هو إمام الصادقين والصديقين، وهو الشفيع المطاع وسائل المجاب محمد ﷺ.

وقيل في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: مما يذهل قلوب الصادقين المنتبهين.

وقال النصر آبادي في قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: القدم الصدق لم يبق له مقام إلا وقد سلكه بحسن الأدب، لذلك إن قدم الصدق هو موضع

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٩٣).

الشفاعة للنبي ﷺ.

وقال الأستاذ: قدم صدق ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدقوا في القيام بنقصها[1].

ويقال: هو ما قدم الحق سبحانه لهم يوم القيامة من مقتضى عنايته بشأنهم، وما حكم لهم من فنون إحسانه وصنوف ما أفردهم به من امتنانه، ثم وصف نفسه تعالى بالربوبية والألوهية؛ تنزيهًا لتربية أسرار العارفين، وتقديسًا لقلوب الموحدين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، ثم بيَّن أعلام الألوهية لترفيه فؤاد الموقنين بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أخبر عن ترضيته الملكوت بأنوار الجبروت لاستبصار العاقلين، وجعل أيام بقائها معدودة لإطفاء نيران عجلة الإنسان، وإلا هو مقتدر بقوة القدم، أن يوجد ألف ألف سماء وألف ألف أرض بأقل من لمحة، ثم جعل العرش مرآة قدسه، ومأوى أرواح أحبائه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، خامر أنوار عظمة العرش، وجعله مأوى أنفاس الصديقين، ومنتهى مسالك المريدين.

ثم أخبر أنه تعالى يستهل طريقه إليه لطالبيه بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يقدس للأرواح العاشقة الصادقة طرق مشاهدته ووصاله من علة الحدثان، ويصطفي قلوب العارفين بكشوف عجائب صفاته وأنوار ذاته، ثم بيَّن أنه مختارٌ لولاية الأولياء بنفسه لانتقاص من جهة الخلق، وعلة الخليفة بقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: من يعطيه لسان الانبساط يسأل ويشفع بعد انبساطه إليه، وإلا كيف يكون للحادث عند القديم وزن؟!

ثم عرف نفسه بما وصف به نفسه لفهماء المعرفة والمربين بأنوار المحبة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: اعبدوه بالمعرفة؛ لأنه خلق الخلق لعرفانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ

---

(١) أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيما يسّروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: (عند ربهم) ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة. نظم الدرر (٤/ ٤٢).

وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

قال: «كنتُ كنزًا مخفيًا، وأحببتُ أنْ أُعرفَ»[1].

ثم حثَّهم بالتفكر والتذكر بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا تخوضون في بحار الأفكار لتدركوا حقائق الأذكار، وتبصروا بها حقائق الأنوار، وتنكشف لكم لطائف الأسرار.

قال بعضهم في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يختار العبد ما هو خيرٌ له من اختياره لنفسه.

ثم بيَّن سبحانه أن نفسه تعالى مرجع كل غريق فيه، ومنجى كل خائف منه، ومأوى كل هائم له، ومآب كل أواب إليه، ومقصد كل قاصد إليه، ومطلب كل طالب له، ومنتهى همة كل سيَّار في أسفار آزاله وآباده بقلبه وروحه وسره إليه بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، كل صفة منه تعالى مراد كل مجذوب بنورها إليه من القدم إلى الأبد، فمرجع العاشقين جماله، ومرجع العارفين جلاله، ومرجع الموحدين كبرياؤه، ومرجع الخائفين عظمته، ومرجع المشتاقين وصاله، ومرجع المحبين دنوه، ومرجع أهل الفناء ذاته، أنوار ذاته أوطان أرواح القدسية، وأنوار صفاته مزار قلوب الوالهة، وأنوار أفعاله مقرُّ عقول الهائمة، تعالى جلاله عن علة الحدثان والأكوان، والحدثان يرجع إلى مصرف وجود القدم؛ لأنها بدت منه، وإليه تعود، هو مقدَّسٌ بعظمته عن أن يكون محلاً للحادث، وتصديق ذلك بيانه في آخر الآية: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أبداهم من العدم بتجلي القدم.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣).

ثم يفنيهم بقهر سلطان غيرته، ومرجعهم إلى معدن الأول، ثم يعيدهم رحمة وشفقة ليجازي العارفين بكشف جماله بقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ : أي: يجزي الذين شاهدوا بقلوبهم مشاهد الملكوت بكشف جمال الجبروت، ويجازي الذين أصلحوا سرائرهم لنزول أنواره يجازيهم بمداناة وصاله.

يا أخي من رجع من سفر البعاد إلى قرب محبوبه يفرح المحبوب بمقدمه، ويعطي نفسه لمريده وزائره؛ فإنه سبحانه يكشف نقاب الغيرة عن جمال مشاهدته لكل أواب إليه.

أيَا قَادِمًا مِنْ سَفرةِ الهجرِ مَرحبًا ... أيَا ذَاكَ لاَ أنسَاكَ مَا هبَّتِ الصَّبَا

قال الجنيد:﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مراتع فضله وتواتر نعمه، فمن سبق له في الابتداء سعادة أظهر عليه في مراتعه وثقلته في نعمه بإظهار لسان الشكر وحال الرضا ومشاهدة المنعم: ومن لم يجر له سعادة الابتداء أبطل أيامه في سياسة نفسه، وجمع الحطام الفانية ليرده إلى ما سبق له في الابتداء من الشقاوة.

قال الله:﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : فالراجع بالحقيقة إليه هو الراجع مما سواه إليه، فيكون متحققًا في الرجوع إليه.

قال الأستاذ: الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح كان لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه.

ويقال: المطيع إذا رجع إلى ربه فله الحسنى والثواب والزلفى، والعاصي إذا رجع إلى ربه بنعت الإخلاص وخسران الطريق فيلقى لباس الغفران، وحلة الصفح والأمان ورحمة مولاه خيرٌ له من نسكه وتقواه.

قال تعالى:﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ : فموعود المطيع الفراديس الأعلى، وموعود العاصي الرحمة والرضا والجنة لطف الحق، والرحمة وصف الحق، فاللطف فعلٌ لم يكن ثم حصل، والوصل نعتٌ لم يزل.

وقال الأستاذ في قوله:﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ : من كان له في جميع عمره نفس على وصف ما ابتدأ الحق به ففي الإشارة يكون له إعادة.

ولقد أنشد قائلهم:

كُلُّ نهرٍ فيهِ ماءٌ قدْ جَرىَ ... فإليهِ الماءُ يَومًا سيعودُ

ثم وصف الله تعالى نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة القائمة بتنوير العالم بنوره.

ومنَّ بذلك على عباده بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: جعل شمس الذات ضياءً للأرواح العارفة، فبصرت بها عيون الآزال والآباد، وجعل قمر الصفات نورًا للقلوب العاشقة، فنظرت به شمائل أخلاق الجمال والجلال، فالأرواح فنيت بصولة الذات في عين الذات، والقلوب بقيت المشاهدة الصفات في عين الصفات، فشمس الذات غير محجوبة في جميع الأوقات عن بصائر الأرواح؛ لذلك عاينتها، ولا غابت عنها؛ لأنها مقام التوحيد والمعرفة، إن الشمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب ليست تغيب، وقمر الصفات يبدو للقلوب في أوقات بسطها، ويخفى في أوقات قبضها، ولذلك صارت القلوب في التقلب في أنوار الصفات، فكما خفي القمر في شعاع الشمس ويزيد وينقص كذلك حالات القلوب في خفايا الصفات وظهورها، فلقمر الصفات في قلوب المحبين منازل من المداناة؛ لظهور المواجيد والحالات، ولبيان أعداد الأنفاس التي لا ينبغي لها أن تجري إلا باجتماع همم المعرفة، وصفاء المحبة والإحاطة بأوقات الواردات العينية، وهذا معنى إشارة قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[1].

قال بعضهم: الشموس مختلفةٌ؛ فشمس المعرفة يظهر ضياؤها على الجوارح، فتزينها بآداب الخدمة، وأقمار الأنس تقدس الأسرار بنور الوحدانية والفردانية، فتدخلها في مقامات التوحيد والتفريد.

وقال بعضهم: جعل الله شمس التوفيق ضياء الطاعات للعباد، وقمر التوحيد نورًا في أسرارهم، فهم ينقلبون في ضياء التوفيق، ونور التوحيد إلى منازل الصديقين، ثم زاد سبحانه ذكر أعلام شواهد ملكوته، وأنوار جبروته للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، جعل الليل مأوى أنس العارفين، وجعل النهار مواضع نزهة الصديقين، أظهر في لباس الليل أنوار العظمة، وأبرز من مرآة النهار أنوار مشاهدة الجمال والجلال، وجميع ما خلق من العرش إلى الثرى مرائي لطغيانه، تبرز منها لأهل الهيبة والوجل أنوار صفاته، ليله قبض قلوب العارفين، ونهاره بسط فؤاد المحبين، وما بينهما بين سماء الأرواح وأرض القلوب أشكال الأحوال من المكاشفات، ولا يراها إلا المتقي عما دونه من الحدثان.

---

(١) أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي والساعات لصلاح معاشكم ودينكم من فرض الحج والصوم والفطر والصلاة وغيرها من الفروض، تفسير حقي (٥/ ٢٢٩).

قال الأستاذ: النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، والليل وقت أرباب الوصلة بانفرادهم شهود ربهم.

قال قائلهم:

هـيَ الـشمسُ إلاَّ أنَّ للـشمسِ غيـبةٌ وهـذَا الـذِي تعنـيهِ لـيسَ بغـيبُ

وقال: الليل لأحد شخصين: إما للمحبين فوقت النجوى، وإما للعاصين فلبث الشكوى.

ثم وصف الله من لا نصيب له مما ذكرنا من رؤية شواهد الغيب، ولاحظ له من رؤية الآيات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: لا يخافون فراقنا، ولا يرجون وصالنا.

ثم ذكر علة قلة رجائهم وخوفهم بقوله: ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: أي: لإيثارهم يوم الفانية على حياة الباقية، ثم ذكر سبب ذلك؛ لأنهم غفلوا عن رؤية أنوار الصفات في مرآة الآيات بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

قيل: لا تخافون الموقف الأعظم يوم تبلى السرائر، وتظهر الخفايا، ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ركنوا إلى مذموم عيشهم، ﴿وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ نسوا مفاجآت الموت، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، تقليب القلوب وعقوبات الجوارح.

ثم وصف أهل خالصته من الصادقين الذين سبقت لهم منه الحسنى في الأزل بالعناية إلى الأبد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾: أي: الذين عاينوا الحق في عهد الأول بعيون المحبة، وكنسوا غبار الحوادث من طريق المعرفة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ بذاته إلى صفاته، وبأنوار صفاته إلى جلال ذاته بإيمانهم، يعني: بما سبق لهم في الأزل من هداية الله في علم الله، ثم بيَّن أنهم في جوار جماله ومعاينة لقائه، حيث أفاض عنهم بركات شهودهم إلى أهل القربات بقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، هم في جنات المشاهدات تجري من تحت عيون أرواحهم أنهار المعارف وأسرار الكواشف.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

تظهر عليهم بركات اقتدارهم عند إيجاد الذر بقولهم: بل فمن بركاتها لزوم الفرائض واتباع السنن وتحقيق الإيمان وتصحيح الأعمال.

ثم إن الله سبحانه وصف المشاهدين جماله أنهم إذا رأوه هيَّجتهم نعم المشاهدة، وراحة الوصلة وثناء جلاله، فأغارهم أنوار سطوات العزة وسبحات العظمة، ولا يتهيأ لهم في ثنائه إلا العجز عن ثنائه، فيؤول حالهم في الثناء إلى أنهم جمعوا خصائص صفاته في نعت التنزيه بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾، وهذا حال سيد المرسلين صلوات الله عليه حين عاين الحق، وقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

ثم عرفهم مكاره نعمه عليهم من تعريف نفسه فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي: أنت إلهنا وبك عرفناك ونزهناك سبحانك اللهم.

ثم وصف تحيتهم بأنهم يبدأون باسم السلام بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: بأن سلموا من خوف حجابه وأليم فراقه، يبرئ بعضهم بعضًا من وصمات النفسانية والشيطانية، بتبري الحق وتنزيهه عن الحوادث بأنه تعالى سمى نفسه بالسلام، والسلام المبرئ من الحوادث، فتحيتهم هناك تنزيهه، فلما عرفوا حقائق نعمه التي أدركوها بغير علة الاكتساب أثنوا على ربهم ومدحوه به لا بهم بقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: آخر ذكرهم مدحه تعالى؛ حيث صرحوا أن ما نالوا منه نالوا بفضله الأزلي واصطفائيته القديمة.

قال ذو النون في قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: مقام المحققين من العارفين التنزيه والتبري من جميع ما لهم من أنواع الأقوال والأفعال وغير ذلك، والرجوع إلى الحق على حد التنزيه له أن يقصده أحدٌ بسبب أو يتحبب إليه بطاعة أو يعمل كلا إلا لإظهار سعادة الأزل على السعداء، وسمات الشقاوات على الأشقياء.

وقال الشبلي في قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن نتح لهم طريق الحمد، فلما نتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضُوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ۚ

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وقد وقع لي بعد قول شاه العارفين -رحمة الله عليه، وقدَّس الله روحه: إن القوم لما خرجوا من رؤية علل الحوادث، وغرقوا في بحار الذات والصفات أرادوا أن يثنوا عليه بما رأوا منه من عجائب أنوار الصفات، وأسرار الذات، فما وجدوا ثناءه عليه إلا من تعريفه إليهم، فوجدوه المنعم عليهم في جميع ما وصفوه به، فلا يكون لهم موضع من ثنائه إلا الحمد لتأييده لهم؛ فإن منتهى قول الوصافين صفاته العجز عن البلوغ إلى حقائق ثنائه، ولا يتعرض لهم بعد ذلك إلا الحمد، ثم العجز عن الحمد عن الخجل في المحمود القديم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: إن الله تعالى وصف المتحيرين بين القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، فإذا أظلم عليهم سجوف ليالي البليات، وأذهب عنهم مباشرة القهر أثر الراحات حرك يد اللطف الأزلي سلاسل عقود قلوبهم إلى إقبال الحضرة، وأضاء تنفس صباح لوائح الغيب في أسرارهم، فصرفهم بنعت الاضطرار إلى باب الربوبية، فرأوا هنالك أعلام قهر الجبروت، وخرجت عقولهم من مكمن جنس الامتحان، وحثهم إلى التضرع في ميادين السلطنة، فخلصوا من ورطة الامتحان بدعائهم على باب الرحمن، فما سكنوا عن تواتر البلاء، فاشتهت عقولهم بقاءهم في الاستقامة،

فتصول عليهم عساكر القصريات، وأغرقتهم في بحار الشهوات، وأعمتهم أنظار المشاهدات، ويفعلون قبائح الأعمال، وينسون عهود الأفضال، وأيام النوال:

عـن كـأنَّ الفَتـىَ لمْ يُعـرِيُوا مَـاذَا اكتَسى ولمْ يَـكُ صُـعلوكًا إذَا مَـا تمـولَا

يا ليتهم لو كانوا صادقين في اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، فإن من بلغ إلى مقام الدعاء وعرف مقاماته؛ فهو في منزل الانبساط، والمنبسط شاهد رضوانه، وموضع نظره وإحسانه، ومن وصف هذا الداعي أن يكون مستأنسًا بربه، ويدعوه في جميع حالاته، وإذا دعاه بنية صادقة وعقيدة صافية فدعاه في زمان البلاء الصبر، وفي زمان النعمة الشكر.

قال أبو حفص: الدعاء باب الله الأعظم، وهو سلاح المؤمن عند النوائب.

وقال أيضًا: يرجع العبد إلى ربه بالحقيقة عند الفاقات، ونزول المصائب بالرضا،ولكنه لما لم يكن له في أوقات الرفاهية رجوع إليه رد في حال المصائب، والضروريات إلى الدعاء واللجوء.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: الدعاء على العادة جنايةٌ، وعلى اليقين نجاةٌ وعبادةٌ كما قال النبي ﷺ: «الدعاءُ هو العبادة»[1].

ولكن للدعاء أوقات وآداب وشروط، فمن لم يطالب نفسه بأوقات الدعاء وآدابه وشروطه كان محرومًا، وآداب الدعاء وشروطه ما روي عن النبيﷺ أنه قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[2].

ثم زاد في وصف هؤلاء الذين لم يدركوا حقائق العبودية فيِ مشاهد الربوبية، بأنهم هلكوا بانصرافهم عن باب الله، ومحل الإخلاص إلى متابعة الشهوات والاقتداء بالوسواس بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ : الظلم هاهنا الإنكار بعد الاعتراف والإعجاب بالرأي بعد ترك السنة، والأسوة لما عتوا على أسماء الله بعد علمهم بصدق كراماته، أهلكهم الله بأن تركهم في حجاب الشهوة والنفس، ولم يعرفهم طريق الخطأ، ولم يشدهم إلى طريق أهل قربه ووصاله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ لما اعتمدوا سوانا.

وقال أبو عثمان: لما ظلموا لما لم يعرفوا حقوق أكابرهم، ولما يتأدبوا بآدابهم، ثم خوف الله سبحانه خلفاء الأنبياء من الصديقين والمقربين لا يلتفتوا في طريق الله إلى شيء غير الله،

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢١١)، وأبو داود (٢/ ٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥١٧).

ولن يروا عزًّا من طريق السنن إلى سبيل أهل اليقين بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرفًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بألسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم.

قال بعضهم: لم يزل الأنبياء هُم خلفاء، والأولياء هم خلفاء، أبدلهم الله مكانهم؛ ليروا السباقين سنتهم، ويمسكوا على طريقتهم، قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: ذكر الله سبحانه عجائب أحوال العارفين في هذه الآية، أي: يسير نفوسكم في بر المجاهدات، ويسير قلوبكم في بحر المشاهدات.

وأيضًا: يسير عقولكم في بر الآيات، ويسير قلوبكم وأرواحكم في بحر الصفات والذات، ثم وصف سير القلوب والأرواح في بحار الذات والصفات بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ : أي : في كنف الرعاية الأزلية، ولولا ذلك الفلك كيف يجري الحدث في أنوار بحار القدم جرت القلوب في بحار الصفات بعناية الذات لا بها؛ إذ هي في قبضة ملكة وملكوته، وأصابع أنوار جبروته يقلبها بسفن قبضه في أنوار صفته، وذلك قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: ريح الكرم والعناية لسيرها بريح لطفه في بحار الآزال والآباد، وما أطيب مهب صبا وصاله في قلوب العاشقين والوامقين، فأنشد:

ألا يَـا نـسيمَ الـريحِ مالــكَ كُلـما تقـربت مـنَّا زاد نـشرك طَيـنا

أظــنُّ سُــليمى خــبرت بــسقامنا فأعطــتك رياهــا فجــئت طبيبــنا

ففرحت القلوب بسيرها في الوصال بطيب ريح الجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾: نشطوا بالله على الله، فلما سكنوا في مجالس الوصال وتمتعوا بحسن الجمال عادت عليهم غيرة القدم، وأرادت أن يخرجها من ساحة القدم وبساطين الكرم إلى معادنها من العدم، وهكذا عادة العشق يذيق العاشق من الفراق بعد ذوق الوصال، وذلك قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، فتذروها عواصفات قهر الأزل، وتحيطها أمواج بحار الأبد، وفارقها طيب ريح الوصال وحسن لطائف الجمال، وبقيت في أمواج عظمة الكمال.

قال قائلهم:

وبتــنَا عــلَى رَغــمِ الحــسودِ وبينــنَا حــديثٌ كــريحِ المــسكِ شيبَ بــهِ الخمرُ
فوسَّــدتهُ كفِّــي وبــتُّ ضَــجيعهُ وقلــتُ لليــلِ طُــلْ فَقَــدْ رَقَــدَ الــبدرُ
فلــمَّا أضــاَء الــصبحُ فــرَّقَ بينــنَا وأيُّ نعــيمٍ لاَ يكــدرهُ الدهــرُ

وأنشد أيضًا:

أقمــنَا زمانًــا والعــيونُ قَريــرَةٌ وأصبحتُ يــومًا والجفــونُ ســواكبُ

فلما وصلت القلوب إلى قاموس الكبرياء وكادت تفنى بأمواج البهاء فرَّت منه إليه، واستعاذت من قهره بلطفه بقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ : دعوا الله بعد استماع مناداة الله بعد التبري من غير الله، وبذل الموجود لله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: لئن تخلصنا من قهر غيرتك والغرق في بحار ألوهيتك لأننا نحن الحدث والحدث لا يوازي القدم فوفقنا برؤية جمال بقائك لنبقى ببقائك معك في بقائك، ونشكرك بك لا بنا، فلو أردت فناءنا كيف نبقى معك؟!

فإذا وجب علينا شكر البقاء مع بقائك وشكرنا معرفة عجزنا عن حمل شكرك؛ حيث شكرت نفسك بشكرك القديم المنزه عن شكر الشاكرين.

قيل: يسيركم في بوادي الشوق، وبحار القربة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المريدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف أتت عليهم من موارد القدرة ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: توهموا أنهم من الهالكين في أمواج، وهم المطهرين الأخيار عن الله، مخلصين له الدين، تركوا ما لهم وبهم وعليهم من الاختيار والتدبير، ورجعوا إلى حل التفويض والتسليم فنجوا.

وقال بعضهم: سير العباد والزهَّاد بالأنفس في البر، وهو الدرجات والمنازل، وسير العارفين بالقلوب في البحر، وفيها الأمواج والأخطار، ولكن سير شهر في يوم:

كدَارجـــةِ البـــيوتِ لهـــنَّ رِيـــشٌ ... ولكـــنْ لَا يطِـــرنَ مَـــعَ الحمامـــةِ

وقال بعضهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ﴾ هو الصفات، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ استغراقًا في الذات(١).

وقال بعضهم: ﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ﴾ الاستدلالات بالوسائط، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ غلبات الحق بلا واسطة.

وقال النوري في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: المخلص في دعائه من لا يصحبه من نفسه شيء سوى رؤية من يدعوه.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ثم وصف الله سبحانه أهل بحار السكر الذين دعوا بالسكر بعد نجاتهم منه به؛ لأنهم رجعوا إلى ما لم يكن لهم من كشف الأسرار، وهتك الأستار بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾: فلما نجوا من طوفان الفناء في سطوات الأزل بقوا بنعت السكر في مقام البقاء، ادعوا الأنائية، تجاوزوا عن حد العبودية بسكرهم في جمال الربوبية، ثم خوفهم سبحانه عن ملازمة إحاطة أنوار عظمته عليهم بعد رجوعهم من السكر إلى الظلمة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي: يرجع إليكم ما ادعيتم لا إلى القديم؛ فإنه منزَّهٌ عن النظر، والاتحاد بالخليقة، وكل ما ذكرتم من ذكري ودعواكم بقربي في أتم معانيه، فهو مردود عليكم؛ فإن ساحة الكبرياء مقدسةٌ عن إدراك الفهوم جلال قدر الأزل، تعالى الله مما خطر على قلب بشر.

---

(١) فيه إشارة إلى أن المسير في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح فإن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك هو في نفسه أيضا بل هو منزه عن ذلك وعما يضاهيه سبحانه وتعالى ومن عرف ذلك وقطع الاعتماد على الريح في استواء السفينة وسيرها تحقق بحقائق توحيد الأفعال وإلا بقى في الشرك الخفي، تفسير حقي (٥/ ٢٥٠).

قال الواسطي: البغي يحدث عن ملاحظة النفس ورؤية ما خدع به.

كما قيل لذي النون: ما أخفى ما يخدع به العبد؟ قال: الألطاف والكرامات، ورؤية الآيات .

قال ابن عطاء في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ : حتى إذا ركبوا مراكب المعرفة، وجرت بهم رياح العناية، وطابت نفوسهم وقلوبهم بذلك، ﴿وَفَرِحُواْ﴾ بقصدهم إلى مقصودهم ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾: أفنتهم عن أحوالهم وإراداتهم، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، فزالت عنهم أخطار سعيهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: تيقنوا أنهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفة يرجعون إليها، وأن الحق خصهم من بين عباده بأن سلبهم عن إياهم؛ ولأنه لا شيء لهم ولا صفة، دعوا الله مخلصين له الدين، صفَّى الحق أسرارهم له حتى أخلصوا الدعاء، وخلصوا له سرًّا وعلنًا، فلما نجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٥) ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٣٠)﴾.

فلما ردهم إلى أوصافهم وأشباحهم رجعوا إلى ما عليه عوام الخلق من طلب ما يصلح للنفوس، ثم إن الله ضرب مثلًا لمن سلك الطريق بالجهل، وغير الاقتداء بأهل المعرفة أن جميع سعيه يكون هباءً منثورًا بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أول رغبة السالك مثل الماء الذي وصل إلى البذر في الأرض عند شروعه في المجاهدات والرياضات؛ لقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، فكثرت عليه الأعمال الوافرة المتنوعة من تصفية القلب ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، ورياضة النفس مما يأكل الأنعام، فتمكن في العبادات وصفاء الأوقات، وفرح بما تسهل إليه من شمائل ألطافه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: بهجة العبادات وزينة الطاعات، وظنَّ أنها تجري بمراده إلى المآل، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ فيخرج عليه عساكر القهريات من مكمن الآفات مع مفاداته، والعجب والرياء منه، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، فلما تعجب بنفسه ورأى أعماله تجيء عليه النفس والشيطان ويغريانه بالعجب والرياء والسمعة، فجاء قهر الله بفصاحته من عند ليالي قبائحه أو نهار طاعاته، فجعلها هباء منثورًا كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، وهذا المثل لا يعرفه إلا من له نظر الاعتبار ونور الاستبصار؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، نعوذ بالله من قهر الله، ما أطيب زمان الإرادة والرقة والصفاء، يا ليت لو يبقى المريد في شأنه، لكن يغرقه قهر الغيرة في بحر الوساوس والمخاتيل والرياء والسمعة حتى لا يجد من زمان الصفاء في قلبه ذرة:

فَقَدناهُ لَمّا تَمَّ واعتَمَّ بالعُلا كَذاكَ خُسوفُ البَدرِ عِندَ تَمامِهِ

ويقال: كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أزهاره، وتخضر رباعه، وتتزين بالنبات ألوانه وطلاعه، ثم لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بها لم يكن في حساب كذلك من الناس من يكون أحواله صافية وأعماله بشرط الجلوس زاكية، وغصون أنسه متدلية ورياض قربه مونقة، ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وينسد أبواب عقائد إقباله كما قيل:

عينٌ أصابتكَ إنَّ العينَ صائبةٌ والعينُ تسرعُ أحيانًا إلى الحسنِ

قال رجل لأبي محمد الجريري -رحمة الله عليه: كنت على بساط الأنس، وفتح لي طريق إلى البسط فزللت زلة، وحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟ فبكى أبو محمد، وقال: يا أخي الكل في قهر هذه اللحظة، لكني أنشدك أبياتًا لبعضهم.

فأنشد يقول:

قِفْ بالديارِ فهذهِ آثارهمْ تبكِي الأحبةَ حسرةً وتشوُّقَا

كمْ قدْ وقفتُ بها أسائلُ مُخبرًا عنْ أهلِها أوْ صادقًا أوْ مُشفقَا

فَأجابَنِــي داعِــي الهَــوَى فِي رَســمِهَا   فَارقــتَ مَــنْ تَهْــوىَ فَعــزَّ المُلتقَــى

ثم إن الله سبحانه يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية؛ لئلا يفتتنوا بزخرفها وغرورها، ويصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ السالكين إلى اجنة، ويهدي المجذوبين إلى المشاهدة.

وأيضًا: يدعو الجميع إلى داره، ويهدي خواص العارفين إلى وصاله، والجوار للعموم من الفرقة، والفوز والوصال للخصوص، داره في الدنيا قلوب العارفين؛ لأن فيها سلامة القربة وأنوار المشاهدة، وفيها صراط الله المستقيم الذي تسري فيه عساكر تجلي جماله إلى قلوب العارفين، وتسري هممهم فيه إلى مصاعد قرب رب العالمين، ولكن لا يهدي إليها إلا من يشاء من خواص المريدين والصادقين.

والإشارة في الدعاء إلى دار السلام أن السلام هو الله المنزه عن علل الحدثان، يدعو إلى جواره المتبرئ من الأكوان، المتصف بصفة الرحمن، وأهل هذه الدعوة على ثلاث مراتب: أهل الدار، وأهل المشاهدة، وأهل الوصال الدار لأهل الإيمان، والمشاهدة لأهل الإيقان، والوصال لأهل العرفان، يدعو أهل الإيمان إلى داره، وينادي أهل الإيقان بتقربهم من مشاهدته، ويهدي أهل معرفته بعد إدراكهم وصاله إلى معرفة شمائل صفاته ولطائف أنوار ذاته؛ لأن هناك الطريق المستقيم حيث عرف نفسه لعارفيه.

قال أبو سعيد القرشي: خرجت هداية المريد من الاجتهاد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾، وخرجت هداية المراد من المشيئة، وهو قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وهو الفرق بين المريد والمراد.

وقال القاسم: الدعوة عامة، والهداية خاصة، بل الهداية عامة، والصحبة خاصة، بل الصحبة خاصة، والاتصال خاص.

وقال بعضهم: لات الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية.

وقال جعفر: عملت الدعوة في السر فتجللت بها وركنت إليها.

وقال أيضًا: ما طلبت الجنة إلا بالسلام، وإنما اختارك بهذه الخصائص لكيلا تختار عليه أحدًا.

وقال بعضهم: يدعو إلى دار السلام بالآداب، ويهدي من يشاء للحقائق والمعارف.

وقال بعضهم: الدعوة لله، والهدى من الله.

وقال الأستاذ: الدعاء تكليفٌ، والهداية تعريفٌ، فالتكليف على العموم، والتعريف على الخصوص.

ويقال: الصراط المستقيم طريق المسلمين، وهذا للعوام بشرط اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين، وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين، فهؤلاء ذوو العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1].

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم زاد الله في وصف هؤلاء بالقربة الرفيعة والدرجة السنية، ومشاهدته الكريمة بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: حسانهم شهود قلوبهم مشاهد قربه تعالى في مراقباتهم وخلواتهم بنعت بذل وجودهم، والأكوان كلها لأول بوادي حسن تجلي الحق سبحانه، وما ذكر الله سبحانه من جزائهم بهذه النعوت الحسنى، وهي إدراكهم إياه كشف نور جماله؛ لأنهم لو أدركوه بنعوت العظمة هلكوا، إحسانهم من حسن جمال أرواحهم الناطقة بالكلمات القدوسية، وحسن الحق من حسن جماله القديم، يجازيهم بكشف حسنه وجماله، ثم ذكر زيادة النعم عليهم بقوله: وزيادة الحسنى مشاهدته، والزيادة وصاله والبقاء معه في مشاهدته.

وأيضًا: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ النظر إلى جماله، والزيادة: الاتصاف بصفاته.

وأيضًا: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ محبته، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ معرفته.

قال الواسطي: معاملة الله على مشاهدة الحسنى الالتذاذ في معاملاتهم، والزيادة هو النظر إلى الله.

قال الأستاذ: يحتمل أن يكون الحسنى الرؤية، والزيادة دوامها، ويحتمل أن يكون الحسنى اللقاء، والزيادة البقاء في حال اللقاء.

ثم زاد الله ذكر شرفهم بأن غبار البعد لا يلحق جمال وجوههم بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: لا يغشى وجوههم قتر الخجالة، ولا يلحق وجوههم ذل الفرقة.

وأيضًا: لا يرهق وجوههم قتر الفراق، ولا ينكشف في وجوههم شموس الوفاق.

ثم زاد في وصف عيشهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: باقون في أنواع القربات في مشاهدة الذات والصفات.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

قال بعضهم: كيف تذل وجوه بلقائها الحق منه بالحسنى والإحسان، وكيف تذل شواهد من شاهد الحق على الدوام، بل هي على زيادة الأوقات تزيد نورًا وضياء وعزًا.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقال الأستاذ: لا يقع عليها غبار الحجاب وبعكسه حديث الكفار، حيث قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ فالذلة التي لا تصيبهم هي أنهم لا يردون من عز شهوده إلى رؤية غير.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾: أخبر الله سبحانه عن مواطن امتحانه وتمييزه بغيرته القديمة بين الصادق في دعوى محبته وبين الكاذب؛ لأن الصادق في محبته هناك لا يفرغ من النيران، ولا يطمع في الجنان؛ لغلبة شوقه إلى جمال الرحمن، والكاذب تبدو سرائر ضلاله، وتنكشف فساد ضمائره بين جميع الخلائق، فيرد الصادق إلى لطف مولاهم، ويرد الكاذبون إلى قهر جبارهم بقوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، فيبقى للصادقين خصوصية درجاتهم في المحبة والوصال مع حقائق معناهم، ويضل سعي المرائين الذين يراءون الناس بأعمال الصادقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وأيضًا: يمتحن نفوس الحدثان عند بوادي سطوات سبحات جلال الرحمن، حيث يضمحل الحادث في القديم، ويبقى القدم للقدم، ويكون الحدث مقدمًا في القدم، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قيل: يطالب كل مدَّع بحقيقة ما أدعاه.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾: بيَّن سبحانه أن ما يبدو من نور شهوده هو وصف رؤيته وإعلام صفته، وكشف ذاته بلا شك ولا شبهة، وذلك قوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾: أي: هو الحق بلا شبه ولا تشبيه ولا تعطيل.

ثم بيَّن أن من لم يعرف الأشياء والشواهد بهذه المثابة فهو ضالٌّ من طريق مشاهدته، وطريقه عمياء لا يكون الرشد فيها؛ لأن من احتجب بالكون عن المكون فهو يغيبه في مهمة

القهر، ولا يهتدي من كان مرهونًا بالأشياء عن خالق الأشياء، وهذا معنى قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

ثم بيَّن أن البعد لا يقتضي إلا البعد، وليس للعبد حدٌّ، فأين يذهب البعيد في البعد، ولا يجد في البعد إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: أي: إلى من ترجعون إذا فات وصاله عنكم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وليس للحدثان مصرف الفرار، فأنى أين وإنهم؟! إن هذه الآية إشارة سابق قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: من يرزق الأرواح من الملكوت غذاء قربه ووصاله، ومن يرزق القلوب من ملكوت الأرض صفاء عبوديته، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: من يملك إسماع العارفين بلذيذ جلاله، ومن يملك أبصار الصديقين بكشف جماله والنظر إلى جلاله؟ ومن يخرج الحي من الميت؟ أي: من يخرج الأرواح العارفة الأحياء بحياته ومعرفة ذاته وصفاته من العدم بنور القدم، ويخرج الميت من الحي، من يخرج الأنفاس الفانية في عظمته الباقية من القلوب الحاضرة في مشاهد القربة، ومن يدبر الأمر، من يسهل قطع صفات مفاوز النكرات للعارفين، ومن يعرف أمور العبودية والربوبية قلوب الموحدين؟!

ثمَّ بيَّن أن من شاهد هذه المراتب يعترف بها صدقًا وعدلاً بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، فإذا اعترفوا بذلك، وصاروا شاهدين معاني شهوده لا خوَّفهم من نفسه إلا أن يلتفتوا إلى سواه في طريق بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فلا تخافوا من فراقه، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: هو منعم هذه النعماء، يربيكم بهذه السعادات لا غير، فأين تصرفون منه إلى غيره؟

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: أخصّ الإشارة فيه أي: إذا وقعتهم في أنوار معرفتي بعد كشوف صفاتي وذاتي لا تطلبوا كنه القدم؛ فإنه معادن الملكوت ونكراتها بلا نهاية؛ لأن القدم ممتنعٌ عن إحاطة القلوب به، وعن إدراك الأرواح والبصائر حقائقه

والكنهية.

قال الحسين: الحق هو المقصود بالعبادات والمصمود إليه بالطاعات، لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه.

وقال الواسطي: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: لا يجوزنا موحد أن يشهد بشاهد التوحيد؛ لأنه وصف الأشياء بالضلال، فلم تتهيأ لضال أن يقف، ولا لعاجز أن يصف.

وقال الحسين: الحق هو الذي لا يستقبح قبيحًا، ولا يستحسن حسنًا، فكيف يعود إليه ما منه بدا، ويؤثر عليه ما هو أنشأه؟!

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مع الحق على مراتب: فقلبٌ في قبضة الحق مأسورٌ بكشف الوجد مسرورٌ، وقلبٌ طار إليه بالشوق وروح برياح القدوم بالقدوم عليه، وقلبٌ اعتقد فيه الآمال فهو عليه ثقل الأعمال، وقلبٌ انقطع إليه بالكلية من كل البرية، وقلبٌ شديد الاحتراق لشدة الاشتياق.

وقال بعضهم: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ طريق العلماء، والحقيقة طريق الحكماء، والتحقيق طريق الأولياء، والحقائق طريق الأنبياء.

وقيل في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ من الحق إلى سواه[1].

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: من يبدئ أمره ويعيده ويدبر في أوقاته السائرة، فإذا قال: من يدبر الأمر أزال الأملاك فكيف يجوز لقائل أن يقول: فعلي وعملي!.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ

---

(١) استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع واستبعاده والتعجب أي كيف تصرفون من التوحيد وعبادة الله تعالى إلى الإشراك وعبادة الأصنام الذي هو ضلال عن الطريق الواضح.

يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أثبت الحجة على أن الحدثان معلولة لا تزاحم القدم المنزه عن العلل، وكيف يكون من العاجز القدرة على إيجاد الموجود، وهو كان معدومًا، وفي وجوده عند قدم جلالة بالحقيقة معدوم حيث لا يقوم بنفسه بل يقوم بالقديم، هذا ردٌّ على من أقبل إلى غير الله.

ثم وصف نفسه تعالى الشريك بأنه يبدئ الأشياء ويعيدها أبدًا، يكون بشهود قدمه على العدم بوصف كشوف جميع الصفات، ثم يسلط أنوار العظمة والهيبة، فتضمحل الحوادث تحت أذيال سرادق العزة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بكشف جمال البقاء، فيبقيها ببقائها في بقائه، فينقلب في مدارك تصريفه بنعت المشيئة والإرادة القديمة، يبدئ أنوار القيومية في قلوب العارفين، فيبدئ بلطائفها حقائق المعرفة، ثم يغشيها بسطوات الجلال حتى لا يبقى في ظهور المعروف سوى المعروف، ثم يعيدها بكشف قناع الجمال، وحسن البهاء فتبقى لشاهد حسنه.

قال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة فيوجد المعدوم، ثم يعيدها بإظهار الهيبة نفس الموجود.

وقيل: يبدئ بكشف الأولياء، فيمحو منها كل خاطر سواه، ثم يعيده، فتبقى بإبقائه، فلذلك عظم حال العارف، فلما قدس عليه الخليفة عن راحة الأزلية عرف مكان العلة المخاطبين بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ ﴾، صدق هذه الآية ما ذكر في الآية الأولى، وهي مصداقها بأن الهادي لا يكون إلا المكون القديم، والمنـزه الأزلي كما أن وصفه القدرة القديمة، فأيضًا وصفه الهداية الأبدية، هو تعالى يهدي بنفسه وكشف العارف وجوده للحق الذي على أوليائه وأصفيائه، وهو حقائق العبودية والتأدب بآداب الشريعة.

وأيضًا: الله هو الحق يهدي أهله إلى نفسه بنفسه؛ لأنه كان غنيًا لا علة في الأزل، فتحقق حق غيبيته على أهل محبته.

ثم عرف حقوقه لحقه لأهل حقيقته، بأن يزيلوا علة النظر إلى غيره، وأن يتبعوا المحبة

والشوق ما يوجب رضاه بوصف الأسوة والاقتداء بالكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

سئل الحسين: من هذا الحق الذي يشيرون إليه؟ قال: معلل الأنام ولا يصل إليه إلا هو.

سئل الواسطي: ما حقيقة الحق؟ قال: حقيقته لا يقف عليه إلا الحق.

قال الحسين: الحق من الحق ومن أجل الحق، وهو قائم الحق مع الحق، وليس وراء ذلك إلا رؤية الحق.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن حال الكل فهم عن إدراك حقيقة القدم وعظمة البقاء في توهم النفوس، وتمام الظنون بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: ظاهر الآية وصف أهل البعاد، وللقوم إشاراتٌ فيها، أن العقول محجوبةٌ بالآيات، والقلوب محجوبةٌ بالذات، والأرواح محجوبةٌ بالراحات، والنفوس محجوبةٌ بالشهوات، والأسرار محجوبةٌ بالخطرات، وما وجدت الكل من ساحة الكبرياء إلا رسوم الأفعال، وما وقع عليها إلا ظلال الملكوت وتصرفات الجبروت، وأين الحدث عن إدراك كنه القدم، والأصل ممتنعٌ بذاته عن أن يطَّلع على حقيقة وجوده خاطرٌ من الخواطر وسرٌّ من الأسرار، ولبٌّ من الألباب، حاشا أنهم في مخائيل الظنون عن إثبات الوحدانية بل مستبصرون بنور الحق، وهم على بصيرة معرفته وتوحيده.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾: بل هم مستغرقون بنور الحق في بحار الأزلية والسرمدية، وما هم مبتلون بقطرة من وصول حقائقها، يشربون من لججها أنهارًا، وهم عطاشى، كما قال قائلهم:

وأَقِفُ فِي الماءِ عَطشَانا ولكنْ ليسَ يسقِي

وهكذا دأبهم أبد الآبدين كيف يصل الحدثان إلى قدم الرحمن، وهو منزَّهٌ عن الاتصال والانفصال.

قال الجنيد في هذه الآية: مر عليَّ بذي أرباب التوحيد حتى أبو يزيد ما خرجوا من الدنيا إلا على التوهم.

وهكذا قال الواسطي: إلا ظنًا أنهم قد وصلوا، وهم في محل الانفصال لا وصل ولا فصل على الحقيقة ذات ممتنع عن الاتصال، كما هو ممتنع عن الانفصال.

وسُئل أبو حفص عن حقيقة التوكل؟ فقال: كيف يجوز لنا أن نتكلم في حقائق

الأحوال والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

سُئل أبو عثمان عن الظن؟ قال: هواجس النفس في طلب مرادها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾: بيّن الله سبحانه عجز خواطر الجهل عن إدراك العلوم المجهولة عند أكثر الخلق المعروفة عند أهل المعرفة، تنطق بها ألسنة الروحانيين والملكوتيين، وهي من أسرار الملك والملكوت، وعين الصفات والذات، فلمّا لم يكونوا من أهل الخطاب كذبوا حقائق الخطاب الذي جرى على لسان الأولياء والصديقين والأنبياء والمقربين، وهكذا عادة المفلسين والمنكرين كرامات أهل المشاهدات، وفراسات أهل المكاشفات لجهلهم وغرورهم وقياساتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: يسمعون حقائق كلمات القوم، التي هي مخبر عن حقائق أسرار الغيب، ويسمونها ظلمات، يا ليتهم لو يشمون من ألف فرسخ رائحتها لطاروا من الفرح بوجدانها، لكن ما خلقوا لقبول الخلائق.

قال بعضهم: كذبوا أولياء الله في براهينهم لما حرموا ما خصَّ القوم به، والمحروم من حُرم حظه من قبولهم وتصديقهم الإيمان بما يظهر الله عليهم من أنواع الكرامات.

قال أبو تراب النخشبي: إذا بعدت القلوب عن الله مقتت القائمين بحقوق الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-: «الناس أعداءٌ لما جهلوا»[1].

ثم بيَّن سبحانه أنهم يحرمون من سماع الخطاب الخاصة، وعن رؤية جمال القديم بالبصائر الصافية عن كدورات عوارض البشرية بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

هذه الآية مصدق الأول لما لم يسمعوا بأسماع العقول والأفهام خطاب الغيب، كذَّبوا حقائق الإلهام، ولما لم يبصروا مشاهدة الحق بعيون القلوب كذَّبوا ما أخبرهم أولياء الله مما

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٤٢).

رأوا من أنوار الغيوب، صرح الحق سبحانه أنهم مسلوبون في الأزل أسماع خصوصية العقول القدسية الملكوتية، وأبصار الأرواح الجبروتية لا جرم لم يكن لهم استعداد قبول الحقائق وعلم الدقائق، وقد تبين أن المعرفة بحقائق العلوم اللدنية والنظر إلى عالم الملكوت لم يكن مكتسبًا، بل هما موهبتان خاصتان من مواهب الله الخاصة الأزلية، خصَّ بهما في سابق علمه وأوائل حكمه أهل خالصة وده بغير اعتدال اكتسابهم، ولو كان مكتسبًا لكان النبي ﷺ قادرًا على أن يسمعهم ويبصرهم، بل فضل الله يؤتيه من يشاء من خواص عباده خالصة عرفانه، والحمد لله الذي خصَّ نجباءه بسمع الخاصة من أسماء صفاته، والحمد لله الذي اصطفى أولياءه البصر الخاص من أبصار صفاته، ولم يبق بين ذلك السمع والإسماع والخطاب حجاب، ولم يبق بين ذلك البصر والإبصار ورؤية جماله نقاب.

قال الحسين: من استمع إليك بإيَّاه فإنك لا تسمعه، إنما تسمع من أسمعناه في الأزل فيسمع منك، وأما من لم تسمعه فما إلا صم، والسماع وإن سمع لم يعقل فكأنه لم يسمع.

قال الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: إلا من أجرينا عليه حكم السعادة في الأزل.

قال بعضهم: إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجب داعي الله؟!

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾.

وقال الواسطي: ليس من ينظر إليك بنفسه يراك، إنما يراك من ينظر إليك بنا، فأما من ينظر إليك بنفسه أو به فإنه لا يراك، ولا يراك إلا من يعمر أوقاته في رؤيتك، ويستغرق هو فيها، قال الله: ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وقال ﷺ : «طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤ وَيَوۡمَ
يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا
مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٦).

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن ما يجري في الأكوان من الأمر والقضاء والطاعة والمعصية والكفر والإسلام هو ما جرى في الأزل بأقلام الأقدار على ألواح الأحكام السابقة بمشيئة الله وإرادته القائمة بذاته، وفيما قسم في الأزل لخلقه كان حكمًا عليمًا حكيمًا لم يظلم في ذلك؛ حيث اختار قومًا بالولاية والنبوة، وألزم قومًا الكفر والضلالة؛ لأنه مالك الملك يتصرف في ملكه كما يشاء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾: لا يظلم على الكافر والمطرود إذا عاقبهم؛ فإنهم مخلوقون في الأزل لقهره لا للطفه، ولا يظلم على أهل لطفه؛ حيث يريهم بلطائف مشاهدته بأقدار حواصلهم، ثم أعلمنا أن تلك الطائفتين السعداء والأشقياء يظلمون بأنفسهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ظلم سعداء المعرفة والمحبة على أنفسهم أنهم يريدون أن يدركوا الحق بحقيقة أزليته، وهم إلى إدراك كنهه، وهو تعالى عالمٌ بعجز الحدث عن حمل وارد القدم كما هو، فيريهم ما يطيقون من نفسه، ولو يريهم من حقائقه ذرة يهلكون في أول بوادي سطواتها، وظلم استغناء الكفر طلب الربوبية من أهل العبودية.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قال الواسطي في هذه الآية: لا يتجلى لهم بحقه؛ فإن ذلك ظلمٌ؛ لأن الخلق لا يحتملونه، بل فيه ذهابهم، ويستحيل أن يكون لهم من القوة ما يطيقون بحقه؛ إذ في ذلك مساواة ومقارنة[1].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أخبر عن عين

---

(١) قال شيخنا البوزيدي ﷺ: زينة الله التي أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلي، والطيبات من الرزق هي حلاوة الشهود. وهي لمن كمل إيمانه وصدقه في الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهي حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها في الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله ، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصًا أو خللاً في أنوار جماله وسناه. البحر المديد (٢/ ٢٤٥).

التوحيد وزوال الحدث في القدم، وجعل المشيئة مشيئةً واحدةً، وهي المشيئة التي لا مدخل فيها لمشيئة الحدثان صرف عن سوابق القضاء والقدر علة اكتساب الخلق.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝﴾

قال بعضهم: نفى السيد الأخص أن يكون له من نفسه شيء، أو يعتمد لها حالًا بل أظهر أن الكل منه، ولمن له الكل من لا يملك الأصل، فكيف يملك فروعه من لم يملك نفسه كيف يملك ضرها ونفعها؟ ومن صحت له هذه الحالة، فقد سلم من مدح الخلق، وذمهم بالطمع فيهم والتوسل بهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أخبر سبحانه عن عمى الجاهلين الذين لم يروا أنوار جلاله وعظمته في مرائي كل ذرة ؛ لأنهم في غواشي طباعهم محجوبون عن شهود الحق على كل شيء ظهور نفسه.

ومصداق ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ [فصلت: ٥٣] ، ثم أخبر عن وصفهم وشكوك بواطنهم.

وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، ومن كان محجوبًا عن لقائه فأيضًا يكون محجوبًا إذ أن أسرارهم عن حقائق الخطاب، وعن فهم معانيه، وإن كان لهم بصيرة صافية يرون بها المخبر عنه في الخبر، ولا يحتاجون إلى الاستخبار منه؛ لأن وراء كل خبر أثر.

قال بعضهم: أنوار الحق مشرقة، وآثاره ظاهرة لا يشك فيها إلا معاند، ولا يعمى عنها إلا ضال، فالمتحققون بحقائق الحق هم سالكون مسالك أنوار الحق في مقاصدهم ومواردهم ومصادرهم، والراجعون منها إلى الأغيار هم الضالون عن سنن الحق.

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ اشتد غوائم القدم بأن الأكوان، والحدثان صادرات من فيض فعله سحرت في بطش عزته محتاجات إلى مزيد رحمته حسم أطماع عبيده عنها، وصرف وجوههم منها إلى نفسه إذ لا ذرة من الكون جارية إلا بمشيئته فما دام الكل له، فابذل كلك لكليته حتى يكون كله لك لا غير،

فإن وعد الله في ذلك حق لا يخيب رجاء الصادقين، ولا يخلف مواعيد المقربين.

قال بعضهم: المغيرون من يرجع إلى غيرته في سؤاله ومهماته وطلباته، وله ما في السماوات وما في الأرض، فالكل له، فمن طلب بعض الكل من غيره فقد أخطأ الطريق.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أن يحرم سائل غيره، ويبعد عليه وجه طلبته، ولا يخيب سائله، ويبلغه إلى أقصى أمانيه.

ثم بيّن الحق أن من أقبل إليه يحييه بأنوار حياته حتى يبقى مع الحق بوصف شهوده على معاينة ذاته وصفاته، ويميت نفسه حتى لا تزاحم بظلمة هواجسها أنوار أسراره في قلبه بقوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يحيى قلوب العارفين بمعرفته ومشاهدته، ويميت نفوس الزاهدين بأنوار هيبته ومراقبته، فمعاد العارفين مشاهدة جماله وجلاله، ومعاد الزاهدين آلاءه ونعماءه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال بعضهم: هو يحيي القلوب بإماتة النفوس بحياة القلوب، وهذا لمن كان إليه رجوعه في جميع أحواله.

وقيل: يحيي الأسرار بأنوار العزة، ويميت النفوس بنزع الشهوات عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال النصر آبادي: يحيي الأرواح في المشاهدة والتجلي، ويميت الهياكل في الاستتار.

ثم ذكر سبحانه سبب هذه الحياة الباقية التي هي شفاء أرواح الصديقين، وقوة أبدان المريدين، ومنور أسرار العارفين، وشفاء ألم فراق المشتاقين، وخبر دوام الوصال للمستأنسين والمحبين، وهو كلامه القديم الذي هو بناء القدم والبقاء، وحلاوة الجمال والجلال وأحكام الربوبية والعبودية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: خاطب أهل ودّه وسماهم بالناس؛ لأن غيرهم ليسوا بالناس في الحقيقة؛ حيث لم يعرفوا حقوق الأزلية؛ لذلك وصفهم بأجهل الجهل بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والناس من نسي نفسه، وما دون الله في الله أي: قد جاء من عند الله موعظة أحكام العبودية، ﴿وَشِفَآءٌ﴾ أي: أنوار الربوبية، ﴿وَهُدًى﴾: تعريف

نفسه بظهور أنوار صفته، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾: فتح أبواب المشاهدة، فالموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين المشتاقين.

وأيضًا: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأرواح، والرحمة للأشباح.

وأيضًا: الموعظة مقام الهيبة، والشفاء مقام الوصلة، والهدى مقام المعرفة، والرحمة مقام المخاطبة، والموعظة صدرت من العظمة، والشفاء صدر من حسن الجمال، والهدى صدر من عيان القدم والبقاء والرحمة، للعموم صدر من الأفعال، وللخصوص صدر من الصفات، ولخصوص الخصوص صدر من الذات.

وأيضًا: الموعظة للآبقين، والشفاء لمرضى المحبين، والهدى للمريدين، والرحمة للواصلين، بدأ بالموعظة لمريض حبه؛ لأنها أدوية إسهال شهواته بمعجونات موعظته تقديسًا لأسراره عن عوارض بشرياته، فإذا كان مقدسًا بسقيه من أشربه مراهم ألطافه شفاء لذلك السقم؛ ولأنه تعالى يشفي بخطابه صدور مرضى أهل شوقه، بمقدمك المبارك زال سقمي، وفي لقياك عجل لي شفائي، فإذا شفي يعذبه بهدايته إلى نفسه، فلما كل في صحته يطهره بمياه رحمته عن أوساخ المرض والاستحسان.

قال ابن عطاء :الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأسرار، والرحمة لمن هذه صفته.

قال جعفر: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: راحة لما في السرائر.

وقال جعفر: لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، ولبعضهم شفاء التسليم والرضا، ولبعضهم شفاء التوبة والوفاء، ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء.

وقال الأستاذ: الموعظة للكافة، ولكنها لا تنجع في أقوام آخرين، فمن أصغى بسمع سره انضح نور اليقين في قلبه، ومن استمع إليه بنعت غيبته ما اتصف إلا بدوام حجبته.

ويقال: الموعظة لأرباب الغيبة ليبوء الشفاء للخواص، والهدى لخاص الخاص، والرحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك.

ويقال: شفاء كل أحدٍ على حسب ذاته، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

ويقال: شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة.

ثم زاد تمام نعمته على عباده؛ حيث أنعم عليهم بتذكير الموعظة والشفاء عن العلة والهداية إلى القربة، وإدخالهم في زمرة الرحمة والمشاهدة، ودعائهم إلى رؤية فضله السابق،

ورحمة الكاملة عن رؤية الاكتساب وعلى الاجتهاد وفرح فؤادهم بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ : حكم في الأزل باختصاص أهل وده أن يختارهم لولايته، ويصطفيهم بالنظر إلى مشاهدته، وسماع خطابه بلا واسطة، فالمشاهدة فضله، والخطاب معهم والوصلة لا نهاية لهما؛ حيث لا يقع لديهما لهم موانع من علل الحدوثية، وعوارضات البشرية للرؤية واللقاء.

قيل: فضل الله دوام التوفيق، ورحمته تمام التحقيق.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قيل: فضل الله الرؤية، ورحمته أبقاهم في حال الرؤية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: أخبر عن عظيم اطلاعه على أسرار الخواطر وما يجري في الضمائر، وكيف لا يطَّلع وهو مبدؤها ومنشؤها.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ : خوَّف أشرف خلقه من اطلاعه؛ حيث قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون في طلب وسيلة منك إلى التوصل بها إليَّ وما تتلو منه أي: من قرآن من خطابي التبليغ على عبادي لتخبت قلوبهم بلذة خطابي إلا وأنا منتظر قدوم أسرارك عليَّ، وأراعي خطرات قلبك حتى لا يجري ذكر غيري من العرش إلى الثرى، فتح بهذا الخطاب لحبيبه أبواب أنوار عظمته؛ ليكون عظيم الشأن في عيون العالمين، ثم خاطب الجميع بهذا الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ : من عبوديتي وطلب مشاهدة ربوبيتي: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ : مطَّلعًا على جريان هممكم على أسراركم بنعت كشف جلالي وعظمتي وإلقاء سطوة كبريائي على قلوبكم حتى لا تكونوا إلا مشاهدي عظائم جبروتي، وشرائف ملكوتي، ومعنى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ : عند عزائمكم في بذل وجودكم إليَّ، وكل حركة غيبية تجري عليكم.

ثم أخبر عن سلطان إحاطته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

مُّبِينٍ﴾[1]: بيّن أن ما صدر من العدم بنور القدم يكون بين علمه القديم وقدرته القائمة بذاته، ونظره الشامل على وجود جميع الأشياء على حد صغرها وكبرها، وأنها بجميعها معروفةٌ في علمه عند بصره، وكلها قائمةٌ بذاته وصفاته، وفي جميع الأوقات ينظر إلى كل ذرة بنظر الحفظ والرعاية، ولولا كمال عزة قدرته وإحاطته بعلمه القديم لتفتت ما بين عرصات الملكوت والجبروت، وبهذه الآية يكمل خوف المراقبين وحذر الواجدين وإجلال العارفين وخشية الموحدين ورعاية الصادقين ومؤانسة الصديقين ومطالبة المريدين.

قال الشقيق: على العبد أن يلزم قلبه دوام نظر الله إليه وقربه منه، وقدرته عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقال بعضهم: من شهد شهود الحق إياه قطعه ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع.

قال النصرآبادي: شتَّان بين من عمل على رؤية الثواب، وبين من عمل على اتباع الأمر، وبين من عمل على سبيل المشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقد وقع لي إشارةٌ لطيفةٌ أن الله سبحانه بيّن التفاوت بين الأرواح والأشباح، وبين أجرام الأكوان تفاوتًا شريفًا، حيث أخبر تعالى أنه مع الأرواح والأشباح بأنوار شهوده وكشف وجوده واستغراقها في علمه بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: خطاب الأرواح والأشباح وأجرام الأكوان معها بالعلم والقدرة والإحاطة بعلمه عليها، فالله سبحانه مع العبد العارف بنعت القربة والمشاهدة، والكون مستغرق في علمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وما أنت العارف لو شاهد مشهوده ليغيب عن الخوض في الأعمال، بل يطير إليه بأجنحة الأحوال إذا انكشف جماله لمحبه لم يبق بين المحب والمحبوب واسطة الأعمال، وإذا كان كذلك يسقط عنه أحزان الفوات، وخوف الآفات؛ إذ هو في مشاهد الوصال ورؤية الجمال؛ لقوله سبحانه في وصف المشاهدين جماله المستأنسين وصاله الخارجين عن مكائد القهريات ونوائب العقوبات: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: العارف الصادق

---

(١) هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر، فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص، فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتجُ له الحياء من الله، فيستحيي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه. البحر المديد (٣/ ١).

إذا كوشفت له أنوار جمال الذات استأنس بها، وفرح بمواصلتها على الدوام، ثم دخل في نور البسط، وغلبت عليه الطمأنينة والرجاء.

ثم يدخل في سماع الانبساط من روح الوصال، فيغلب عليه النشاط والاستبشار، وذلك مقام لا يدخل فيه وجل القلوب من سطوات العظمة، ولا اضطراب الأرواح من أنوار الهيبة، ولا فناء الأسرار من قهر سلطان الأولية، ولا اضمحلال الوجود من قوارع العزة؛ لأن الولي العارف إذا كان في رؤية هذه الصفات تكون أسرار، في أسفار الآزال والآباد، ويكون هناك على خطر الفناء من غيرة القهريات، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «المخلصون على خطرٍ عظيم»[1]، فإذا سكنت أسرار عن تلك الأصغار وكملت الحق في الحق وتمكنت بالله في الله وتوطّأت في مواطن أنوار الجمال لا يجري بعد ذلك عليه طوارقات الامتحان، ألا ترىٰ إلى المؤمن في الجنان لا يجري عليه آفات العذاب وصور الخوف والحزن؛ لأنه في جنان الظاهر وموضع الروح والريحان، فالعارف الولي أيضًا إذا بلغ إلى جنان جمال مشاهدة الله يكون محروسًا برعاية لطفه عن طوارق قهره أمنًا به عنه؛ لذلك قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكر السابق في الأزل؛ فإنهم أصحاب العنايات في سوابق علم القدم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من مستقبل عارض القهر؛ لأنهم أصحاب الكفايات إلى الأبد، وكيف يخاف من ينظر إلى جماله، وكيف يحزن من يكون في سنا جلاله، ولا تتم الولاية إلا بأربعة: المقام الأول: مقام المحبة، والثاني: مقام الشوق، والثالث: مقام العشق، والرابع: مقام المعرفة، لا تكون المحبة إلا بكشف الجمال، ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال، ولا يكون العشق إلا بدنو الدنو، ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة، وأصل الصحبة وكشف الألوهية القديمة مع ظهور أنوار الصفات جميعًا، فإذا رأى أنوار الصفات وصرف النعوت والأسماء ومشارب الصفات وعرف بها الذات سبحانه ويخرج من درك الفناء فيها بنعت البقاء فيكون وليًّا، فيورث محبته الطاعة، ويورث شوقه الحالة، ويورث عشقه بذل الوجود، ويورث معرفته الخلو مما سواه، فيتورث بطاعة الفراسات، وتورث الحالة اللطافة والظرافة، ويورث بذل الوجود الكرامات، ويورث الخلو مما سواه الهيبة والوقار، فإذا كان كذلك بما وصفنا تكون الآية لله في بلاد الله شمائله البشارة والسخاوة وأخلاقه الصحبة والنصيحة، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحفظ حدود الله على عباد الله، طوبى لمن رآه، طوبى لمن صحبه، وآثر خدمته.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

وتصديق ما ذكرنا وصف الله إياهم عقب هذه الآية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: آمنوا عاينوا الله بنور الله، وشاهدوا الله بشهود الله إياهم، وعرفوا الله بالله؛ حيث لا سبب لمعرفتهم إلا كشف جمال الله لهم، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مما سواه من نفوسهم وغيرها من العرش إلى الثرى؛ فإيمانهم يوجب الكرامات، وتقواهم توجب المشاهدات، ثم أفرح فؤادهم بنيل وصاله وإدراك مشاهدته بنعت الرضا عنهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: لهم في الدنيا مشاهدة البيان، وفي الآخرة مشاهدة العيان، لهم في الدنيا مكاشفات، وفي الآخرة مشاهدات، لهم في الدنيا التجلي، وفي الآخرة مقام التدلي، لهم في الدنيا رؤية الله في المنامات، وفي الآخرة عيان المشاهدات.

ثم بيّن أن تلك الاصطفائية الأزلية لا تتغير أبدًا بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبديل لما سبق لهم في الأزل من حسن عنايته لهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ حيث نجوا من قهره وظفروا بوصاله ومشاهدته، وأي فوزٍ أعظم من ذلك.

قال الواسطي: حظوظ الأولياء من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم منها، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، ومن كان

حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله ما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مربوطًا بما يستقبله، وكلٌّ كوشف على قدر طبعه وطاقته، إلا من تولاه الحق ببره وقام عنه بنفسه.

وقال بعضهم: قلوب أهل الولاية مصانةٌ عن كل معنىً؛ لأنها موارد الحق.

سُئل بعضهم: ما علامة الأولياء؟ قال: همومهم مع الله، وشغلهم بالله، وفرارهم إلى الله.

قال أبو سعيد الخراز: الأولياء في الدنيا يطيرون بقلوبهم، يرتادون ألوان الفوائد والحكمة، ويشربون من عين المعرفة، فهم يفرون من فضول الدنيا، ويأنسون بالمولى، ويستوحشون من نفوسهم إلى وقت موافاة رسول الرحيل.

وقال أيضًا: نفوس الأولياء جملة قلوبهم، وقلوب الأعداء تحمل أثقال نفوسهم من الشرك طمعًا في راحة نفوسهم.

وقال أبو يزيد: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا من يكون محرومًا منهم، وهم مخدرون عند الله في حجال الأنس لا يراهم أحدٌ.

قال أبو علي الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق وذاته، تولى الله اصطفاءه، فتوالت عليه أنوار الولي، لم يكن له عن نفسه إخبارٌ، ولا مع أحدٍ غير الله قرارٌ.

وسُئل أبو حفص عن الوليّ؟ قال: الولي من أُيِّد بالكرامات وغُيِّب عنها.

وقال محمد بن علي الترمذي: الولي بشرى كأنه على روحه في منامه، وعلى قلبه من تلطفه، فروحه تسري إلى تحت العرش، فتسجد فيه، وقلبه يسري إلى فوق العرش فيلاحظ المجالس ويناجي ويبشر[1].

---

(١) قال الإمام القشيري -رحمه الله تعالى: اختلف أهل الحق في الولي، هل يجوز ألا يعلم أنه ولي أم لا؟ فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يسبه الخوف ويوجب له الأمن، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول بجوازه. وقال القشيري: وهو الذي نريده ونقول به.

قال: وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم أنه ولي، وكانت معرفة تلك كرامة له انفرد بها، وليس كل كرامة لولي يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء بخلاف الأنبياء عليهم السلام؛ لأنه يجب أن يكون لهم معجزة؛ لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزة، ويعكس ذلك قال الولي؛ لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي أيضًا ليعلم بأنه ولي، والعشرة من الصحابة -رضي الله عنهم- صدقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم أنهم من أهل الجنة. وقول من قال: لا يجوز ذلك، لا يخرجه من الخوف، فلا بأس أن يخافوا بغير العافية، والذي يجدونه في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه وتعالى يزيد ويربو على كثير من الخوف.
=

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ : هم به وله، موقوفون بين يديه، غير أن الحق ممتع لهم بها له، أراهم من عظيم الفوائد وجزيل الذخائر مما لا يقع لهم علم به، ولا علم عليه قبل حين وروده حتى يكون الحق مطالعًا لهم على ما يريد من ذلك على حسب ما قسمه لهم، فهم في ذلك على أحوال شتى، فذلك قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ : جعل سكون العشاق والمشتاقين والمحبين في الليل المناجاة معه، ونيل الوصال منه، وخفض جناح القهر تحت أقدام الهمة الجامعة، ينظر عين الجمع إليها، ما أطيب أنس العارفين في الليالي حين أمطروا من عيونهم الباكية من شوق الله الدرر واللآلي.

وأنشد:

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهمُّ جامعُ

وجعل النهار سريان أنوار القدرة، تطلع من جبتها كل لحظة شمس الصفات، وأنوار الذات، فصار مرآة نظر العارفين، وتجلى الحق فيها لهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى

=

واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، ولا له ملاحظة لها، وربما تكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحققهم أن ذلك فضل الله تعالى مستدلين على صحة ما هم عليه من العقائد.

ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

قال بعضهم: جعل سكون الليل إلى الخلوة والمناجاة والنهار مبصرًا ليبصروا فيه عجائب القدرة والاعتبار بالكون.

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: يعني المسلمين في إسلام نبيه نوح ﷺ انقياد نفسه المتصفة بصفات الله عند قدم جلاله وجبروت ملكوته وعظم كبريائه؛ حيث نازعت نفوس المتصفين بصفاته بنعت الأنانية من حدة سكرهم في بحار التوحيد وقفار التجريد، ومهمة التفريد؛ لأنه من أولي العزم، وصار صاحيًا بعد السكر، وليس لأهل الصحو إلا هدوء الأسرار تحت أذيال الأنوار.

وأيضًا: أن أكون من القائلين بالقلوب الربانية سهام امتحان قهر غيرة الأزل.

قال بعضهم: ممن تسلم: سري من قلبي، وقلبي من نفسي، ونفسي من لساني، ولساني الكذب والغيبة والبهتان.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: سبق الحق باصطفائه أهل حقيقته بالحق الذي للحق مع أهله، فيظهر تلك الاصطفائية للخلق بالآيات الواضحة والكرامات المشرقة، التي لا تكون إلا بكلمات الأزلية التي يتكلم بها مع نفسه لسياق محبيه وعارفيه على كل مبطل، ودافع عن طريق الحق.

قال بعضهم: الحق على ثلاثة أوجه: حق أحق، وهو قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: كون الكون بكلماته، وحق أحقه حق، وهي: الصفات؛ لأنها قائمةٌ بالموصوف، والموصوف قائمٌ بالصفات، والحق المطلق هو الله، قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾.

قال الحسين: حقَّ الحق بكلماته أي: بإظهار ما أوجد تحت الـ ﴿كُن﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عرفتم الله، وكنتم منقادين لربوبيته العبودية فعليه توكلوا، فإن المعرفة والانقياد والعبودية توجب تسليم الوجود لتصرف خالقه بنعت استلذاذ مرارة الامتحان.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

سُئل إبراهيم الخواص عن قوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾؟ قال: تناولوا السبب من الله بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾: عرف الله سبحانه لهما مكان الدعاء حتى يعرفا مكان الإجابة والسؤال؛ لأن مكان الدعاء مكان الإجابة، ومن لم يعرف مكان الإجابة لا يستحسن منه الدعاء والسؤال، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ في معرفتكما مكان السؤال مني بشرط معرفتكما مني مكان الإجابة، وذلك مكان الرضوان والبسط والانبساط.

وأيضًا: هذا تهديدٌ لهما أي: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ لضعفكما من تحمل وارد امتحاني، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ بعد ذلك في تحمل بلائي والصبر فيه؛ فإن استقامة المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء والسكون في البلاء.

قال ذو النون: الاستقامة في الدعاء ألا تقنط لتأخير الإجابة، ولا تسكن إلى تعجيل الإجابة، ولا تسأل سؤال خصوص.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قيل: ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ استقيا على مناهج الصدق.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: كان ﷺ مصطفى في الأزل بشرط الرسالة والنبوة، والمقام المحمود الذي خُصَّ به عن جميع خلقه، فلما جاء عليه أوائل الاصطفائية ودلائل الرسالة وحقائق أنوار الوصلة بغتة ولم يحصل له تسرمد الحاصل البداية تردد حاله وعارضه وسره، وخاف من فوت الحال، فسلَّى الحق قلبه بخطابه، وأحاله إلى رؤساء أخبار كتبه المنزلة ليعرفوا من هناك نشر فضائله واختصاصه في الأزل برسالته بما وجدوا في كتبهم، ألا ترى كيف أراد أن تلقى نفسه من حبل جرى شوقًا إلى جبريل ﷺ ورسالة الله سبحانه، حتى جاء جبريل وأخذه وتسلاه بسلام الله ووحيه.

ألا ترى إلى قوله: «زَمِّلوني زَمِّلوني»[1]، ولا تعجب عن خواطر التردد عن البشر، وإن كان رفيعًا، فإن شاهد القدم لو بقلب سربال الربوبية يبلغ قلوب الصديقين، ويفني أرواح المقربين من يتخلص من معارضة النفس بعد المكاشفة، وتلك المعارضة تصدر من الحق امتحانًا وعبرة، حتى تطلع على الطالب شمس العناية، وقمر السعادة، فيرى الحق بالحق ويستقيم به له.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[2]، وكيف قال: «نحن أولى بالشكِّ من إبراهيم»[3]، ليس هذا شكًّا في وعد الله إنه رفع المعارضة والخطرات، ألا ترى إذا استقام وزال الامتحان من مقام العرفان والإيقان، كيف قال: «لا أشكُّ لا أشكُّ»[4]، لا تعجب مما ذكرنا؛ فإن الحق حقٌّ، والخلق خلقٌ، حاشا أنه كان في شك، إنما كان في رؤية جلال القديم، يرى نفسه غريبًا عجيبًا، ويتعجب مما يرى من غرائب وضوح الرؤية، كان كمن لم ير، فتحير في أمر الأزلية وأحكام الربوبية، قد اضمحل الحدث في القدم، ويرى القدم، ولم ير أنه يرى القدم بالحدث، فدهش بين رؤيتين يسمع خطاب

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤)، ومسلم (١/ ١٤١).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٣٣)، ومسلم (١/ ١٣٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥).

الأزل، فيرى الحدث متكلفًا بين أنوار القدم:

أنـــا مبـــصرٌ وأظـــنُّ أنّي نــــائمٌ ويجمعُنِـي بالليـلِ والهـمُّ جَامـعُ
كَـبُرَ العِـيانُ عَـليَّ حَتَّـى أنَّ صَـارَ اليقـينُ مِـنَ العِـيانِ تَـوهُّمَا

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: مما فضلناك وشرفناك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، وهم الأعداء كيف وجدوا وصفك في كتبهم، وكيف رأوا فيها نشر فضائلك يدل عليه قوله ﷺ حين أنزلت هذه الآية: «لا أشكُّ لا أسألُ»[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: تقاضى سر الأزل من الأزل لقهره ولطفه أهلاً يكونون من مصرفها صادرين، وإليهما راجعين بنعوتها، فأجاب الحق سبحانه سره بكلماته الأزلية بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، فلزم سمات لطفه الأزلية على وجوه المقبولين، وألزم سمات قهره على أعناق المطرودين، فبقي أهل اللطف من الأزل إلى الأبد في لطفه، ويقبلون منه ما يصدر من إرادته ومشيئته وأمره، وبقي أهل قهره من الأزل إلى الأبد في ظلمات قهره، فلا يرون واضحات مواهبه على أنبيائه وأوليائه إلا وينكرون عليها؛ لأنهم يرونها بعيون مظلمة وأبصار مطموسة.

قال الواسطي: من لم يلحقه نور الأزل لا يتبين عليه صفاء الوقت؛ فإن صفاء الأوقات نتائج أنوار الأزل، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾: أعلم الحق سبحانه أن شأن مشيئته لا يكون على سنن العقول وإدراك الفهوم لما رفع مسنون المعهود الذي جرى عادته في رسم المواجدة أن يأخذ بعد معاينة العذاب، ولا يقبل التضرع والتواضع فحول ذلك، وقبل تضرع المتضرعين عند معاينة البأس؛ لئلا يظن ظانٌّ أن أمره على مقادير العقول، تعالى الله أن يكون في حين الدركات، التجأوا منه إليه، فانكشف لهم صبح الوصال من مطالع الجمال بعد ذهاب دجى الضلال، فعاينوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهية عليهم،

---

(١) تقدم تخريجه.

فجازهم من سطوات القهر؛ لأن رحمته سبقت على غضبه، ولولا كشف جماله لهم لبقوا في حجاب النكرة واحترقوا.

وأيضًا: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أي: عرفوا صفات الحق بعد بروز أنوارها في قلوبهم ارتفع عنهم عذاب البعد والفراق، ثم بيَّن اختصاص المختصين واصطفائية المصطفين أنها بمشيئة الأزلية ولا بعلة الاكتساب يكون الولي وليًّا، بل بفواتح كرمه وسوابق نعمه قومًا من العارفين ويقهر تدمه يضع آخرين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وصرح الحق أن لو شاء لخلقهم جميعًا مستعدين للولاية بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، ولكن جعل قومًا غذاء رحمته السابقة، وجعل قومًا غذاء قهره الأول؛ لتكون الصفتان على قوام حظهما من البرية، وتبين خاصية أحبائه وطرد أعدائه، وفيه إياس الطامعين في إيمان من ليس له أهليه لمعرفته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: كل نفس ليس لها استعداد معرفته وقبول محبته، وليس بها من الله سابقة حسن عنايته في الأزل بنعت اصطفائيتها بالولاية كيف تعرفه، ومعرفته نتائج أنوار طوالع صفاته في قلوب العارفين.

---

(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إشارة بالاسم الرَّب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، إمَّا بالنسبة إليه ﷺ فبالعلم، وإمَّا بالنسبة إلى قومه فبإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷺ وإشارته لكل مَن هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷺ: ﴿لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ أراد بمَن في الأرض: الأنس والجن، كما دلت عليه كلمة مَن، فإنهم هم المكلَّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأمَّا مَن في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبِّحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله ﷺ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سَجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢]؛ فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم مَن شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقًا، فلو آمن كلهم؛ لبقى بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قال بعضهم: لا يظهر الإيمان على أحدٍ إلا لسعادة سابقة له في الأزل ونور متقدم، ثم زيَّن السماوات والأرضين بأنوار ملكوته وجبروته، وأظهر منها سبحات جلاله وشهود عظمته لنظار المعارف وألباء الكواشف، ودعاء الأحباء والأعداء إلى النظر إليها بقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: ما يبرز من نوره من جبين الشمس وسناه من عارض القمر وضيائه من مرآة الكواكب، الذي انكشف لخليله، وسلبه من الحدثان إلى رؤية القدم بالنظر إلى هذه الوسائل، حين قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم أخبر عن خروجه منها إلى أنوار السرمدية والفردانية بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: لو أن لكم بصائر الصفاتية وأبصار الذاتية انظروا؛ فإن جمال القدم ظاهرٌ للعاشقين، عيانٌ للمشتاقين، وبيانٌ للمحبين، ثم بيَّن أن من لم يكن له عين من تلك العيون، ونور من تلك الأنوار، ألا ترى جماله وجلاله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: كيف ينفعل الآيات بمن خلق محرومًا عن الإيمان بمكون الآيات.

قال بعضهم: لا تصل العقول الخالية عن التوفيق إلى سبيل النجاة ولما يفنى ضياء العقل مع ظلمة الخذلان، إنما ينفع أنوار العقل من كان مؤيدًا بأنوار التوفيق وعناية الأزل، وإلا فإنه متخبطٌ في هلاكه بعقله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجَّا الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجَّا العارفين من حجاب الشهوات، ونجَّا المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطينِ إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبَّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه.

﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأنا

اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقًّا علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

قال بعضهم: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ من مراد النفس، وغلبة الشهوة، وغفلة الوقت وسطوات العدو وشتات السر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالرسل نجريهم على مناهج الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة من صدق في عبوديته.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿لِلدِّينِ﴾ هاهنا: محبة الله والشوق إلى لقائه، ومعرفة صفاته أي: أقبل بوجهك إلى هذه الصفات الحنيفة الخليلة المبرأة عن محبة كل مخلوق سوانا، ثم أقبل بهذه الصفات جميعًا وجهك الاستقامة إلى مشاهدة وجهنا الأزلي المنزه عن المخايل والتصاوير حتى تراني بي، وتصل إليك أنوار وجهي الذي لو أشاط ذرة منها على جميع الأكوان والحدثان من العرش إلى الثرى يضمحل جميعًا تحت أنوار سلطان بهائي وجلالي، قال ﷺ: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]: أي: يستقيم لي في ذلك المقام حتى تطيق أن تحمل أثقال أنوار مشاهدتي، ثم خوَّفه من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: من الطالبين من غيري، والآسرين على حبال مشاهدتي ما لا يليق به من الحدثان.

قال ابن عطاء: صحح معرفتك، ولا تكونن من الناظرين إلى شيء سوى الحق، فيمقتك الله، وإقامة الملة الحنيفية، هو تصحيح المعرفة.

ثم زاد تأكيد الإقبال عليه والإعراض عما سواه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: شدد أمر التوكل والاعتماد عليه بقطعه طريق الإعراض عما سوى وصاله، وبيَّن أن من نظر إلى غيره عند امتحان الله بالسراء

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

والضراء يكون مغلوب قهره، متروك حظه، محرومًا من مراده، محجوبًا عن الله بغير الله، باقيًا في فوات المراد، ومن كان بهذه الصفة فهو ظالم؛ حيث وضع الربوبية عند من لا يستقيم في العبودية.

قال شقيق: الظالم من طلب نفعه ممن لا يملك نفع نفسه الضر ممن لا يملك الدفاع عن نفسه، ومن عجز عن إقامة نفسه كيف يقيم غيره! قال الله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم زاد تأكيدًا إليه في رجوع عباده بالكلية وإعراضهم عما سواه بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: عرَّف حبيبه أن كل حركة من العرش إلى الثرى فهو تعالى محركها، وكل روح وجسد وقلب ونفس وهمة وعقل وكفاية مستغرقة في بحار مقاديره لا يجري عليهم إلا موارد القضاء والقدر، وكل مشيئة في الامتحان بالضر وإيصال النفع تصدر من حكمة السابق، فينبغي ألا يرى الغير في البين، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الحجاب ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لذلك ﴿إِلا﴾ ظهور أنوار وصاله، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ كشف جماله، ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ لفضل وصاله من سبب، وعلة من الألوان والأعمال، فإن المختص في الأزل بوصالنا لا يحتجب بشيء من الأشياء؛ لأنه في الفضل السابق مصون عن جريان القهر.

ثم علق ذلك بمشيئته السابقة، وأخرجه عن اكتساب البشر بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من عرفانه؛ لأنه ساتر الأولياء في قباب عصمته عن طوفان قهره رحيم بهم؛ حيث ربَّاهم بجماله، وآواهم إلى وصاله.

قال ابن عطاء: قطع الحق على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه بإعلامه أنه الضار النافع.

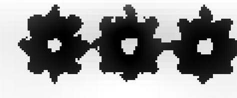
قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: الحق هو القرآن في ظاهر التفسير وحقائقه وتجلي ذاته في صفاته، وصفاته في فعله، فوصل بركة تجليه إلى كل مبارك، وانصرف نوره عن كل محروم، ثم بيَّن سبحانه أن عروس القدم قد انكشف لأهل العدم، فمن رآه، رآه بحظه الوافر، ومن أخطأه أخطأ طريق النجاة بقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: أي: من عرفني فمعرفته راجعةٌ إليه، ومن جهلني فجهله راجعٌ عليه، فإن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن معرفة العارفين وجهل الجاهلين؛ حيث ما استوحش حين جهلوه، وما استأنس حين عرفوه، ثم بيَّن أن المتولي تعالى

هو بنفسه في الهداية والضلالة بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾.

قال الواسطي: لو وقع التفاضل بالنعوت والصفات كان الذات معلولاً ما أظهر، فإنما أظهره لك إن أجرى الإحسان عليكم فلكم بقوله: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، إن أجرى الاهتداء فلكم بقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، وإن أجرى الشكر فلكم بقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾.

ثم إن الله سبحانه أمر نبيه بمتابعة مراده، واستقامته في العبودية، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: اتبع ما يحل في قلبك من خطاب الأزل، وطيب روحك بطيبه، واصبر إذا شممت رائحة وصلتي، ولا تضطرب؛ فإنك في امتحان الرسالة، حتى يحكم الله برفع الحجاب عن مشاهدته، ويريح العارفين والمحبين والمشتاقين عن بلية الحجاب أبدًا، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ بأن يفرّق بين أوليائه وأعدائه، ويُخلّص أهل العرفان من أذية أهل الحرمان، والله أعلم.

قال سهل: أجرى الله في الخلق أحكامه، وأيّدهم على اتباعها بقدرته وفضله، ودلهم على رشدهم بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ﴾، والصبر على الاتباع، وترك تدبير النفس فيه النجاة عاجلاً من رعونات النفس، وآجلاً من حياء المخالفة، والله أعلم.



سورة هود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾.

﴿الٓر﴾: الألف إشارة جميع التأويلات التي جرت في سوابق الأزل الألوهية، واللام إشارة جميع لوازمات العبودية التي وجبت أحكامها في الأزل على أهل العبودية، والراء إشارةٌ إلى راحات مشاهدة الذات، والصفات للأرواح والأشباح.

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: مخبرات الكتاب من عيون الصفات، والذات نزهت عن تغاير الحدثان؛ لأن أصلها صفة القدم، وليس في القدم تبديل وتغيير،

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: أي: بينت للأرواح العارفة والقلوب الشائقة مصارفها وحقائقها، وتلك الآيات معرفة الصفات والذات لأهل المشاهدات والمكاشفات تعرف لهم أحكام الربوبية والعبودية؛ ليشهدوا بأنوارها شهود أنوار الحق، ويعلموا ما يجري من أحكام الغيب القدري على الخلق.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: هو من كلام أزلي حكيم؛ إذ حكم باصطفائية عرفانه بمعرفته ﴿خَبِيرٍ﴾ باستعدادهم وقبولهم بوصف محبة عبوديته.

قال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في قلوب العارفين، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أحكامه على أبدان العاملين.

قيل: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالكرامات وفصلت بالبينات.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾: حفظت عن التغيير التبديل، ثم فصلت تبيان نعوت الحق فيما يتصف به من جلال الصمدية، وما يعبد به الخلق من أحكام العبودية.

ثم بيَّن سبب نزول الكتب بهذه الأوصاف؛ ألا يكون العباد إلا لمولاهم، لما كان بينهم من مواصلة المحبة ووجوب الربوبية والعبودية بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لا يلتفتوا إلى ما الله في عباده الله، ثم بيَّن أنه ﷺ نذيرٌ بعظائم قهره وبشيرٌ بلطائف وصله.

قال الأستاذ: نذيرٌ من الله بالفرقة، بشيرٌ بدوام الوصلة.

ثم أمرهم بالافتقار إلى مشاهدته والافتخار بوصاله والاستغفار عن ملاحظة غيره في طلبه إدراك جماله، والرجوع من قهره إلى لطفه، ومن النفوس وحظها وهواها إلى مراده ومتابعة أمره بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: استغفروا من جنايات الأسرار، وتوبوا إليه لطنب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديسٌ، والتوبة تخليصٌ، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل.

سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها.

وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة.

وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن

كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنه ليغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[1]، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده وجوده الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوحدانية، وعن خواطر الأنانية.

ثم بيَّنَ أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾: المتاع الحسن أنوار المواجيد على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في منِّ الدنيا لقاؤك مرة! فإن نلتها استوفيت كل مناتيًا.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: يؤتي فضل مشاهدته لمن له فضل المعرفة، ويؤتي فضل وصاله لمن له فضل الشوق إلى جماله، ويؤتي فضل الكرامات لمن له فضل العبادات، ويؤتي فضل التحقيق لمن له فضل التوفيق، ويؤتي فضل كفاية الأبد لمن له فضل عناية الأزل، ويؤتي كل ذي فضل الندامة على ما سلف من ذنوبه، والاستغفار من الله والرجوع من نفسه إلى خالقه فضل طمأنينة القلب بالذكر، وفضل رؤية منه الحق بنعت نسيان الخلق، ووصل المؤانسة بروح الوصال، ولذة نور الجمال.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾: طيب النفس، وسعة الرزق، والرضا بالمقدور.

وقال سهل: هو ترك الخلق والإقبال على الحق.

قال أبو الحسن الوراق: يرزقكم صحبة الفقراء الصادقين.

وقال الجنيد: لا شيء أحسن على العبيد من ملازمة الحقيقة، وحفظ السر مع الله، وهو تفسير قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾.

قال الحسين: ﴿مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾: الرضا بالميسور، والصبر على كرمه المقدور.

وقال الواسطي: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: ذو الفضل من رزق بعد الاستغفار، والتوبة حسن الإنابة والإخبات مع دوام الخشوع.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال النصرآبادي: رؤية الفصل يقطع عن المنفصل، كما أن رؤية المنة يحجب عن المنان.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

قال بعضهم: يوصل كل متحقق إلى ما يستحقه من مجالس القربة وسمو المنزلة.

قال الجوزجاني: من ندر عليه الفضل في السبق يوصله إلى ذلك عند إيجاده.

سُئل أبو عثمان عن قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؟ قال: يحقق أماني من أحسن ظنه به.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الخطرات، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من النظرات، يعلم ما يسرون من أذكار القلوب، وما يعلنون من الإخبار عن الغيوب، يعلم ما يسرون من الحالات، وما يعلنون من المعاملات، وهو تعالى كسا أنوار جلاله فؤاد الصديقين، فيرون بأبصار قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من المضمرات والخطرات، كما يرون الظواهرات بعيون الظاهرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾، وقال ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظرُ بنور الله»[1].

قال قائلهم:

أبعَيْنِـــــي أرَاكَ أمْ بفُـــــؤادِي ... كُـــلُّ مَـــا فِي الفـــؤادِ بالعـــينِ بَـــادِ

قال فارس: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من أحوالكم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من أفعالكم، وهو عالم بكم قبل أن خلقكم وأبدعكم.

وقال أيضًا: الحركات على الجوارح، والمشاهدة على الأسرار.

وقال بعضهم: ما يسرون من الإخلاص، وما يعلنون من العبادات.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مباصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لمَّا قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار، ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم.

قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعًا إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج.

قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه.

وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق.

وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال.

يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد.

ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قِبَل الله.

قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعةٌ فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحاب ودائعٌ فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله[1].

---

(١) قال ابن عجيبة: أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها =

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾: إنَّ الله سبحانه وصف الممتحن الذي ذاق من طعم أحوال العارفين والمحبين والمريدين، واقتحم في حظوظ النفس وظلمات هواها، واحتجب بها عن مذاق مراتب الذاكرين والصالحين، ولم يتدارك ما فاته من عمارة الأوقات، وحراسة الأنفاس بقي في حجابه، وألبس عن مدارك إخوانه، وزاد خوضه في متابعة النفس، ويكون هالكًا مع الهالكين، وكم من طائفة هلكوا في هذه الورطة، ولم ينتعشوا.

قال قائلهم:

وكَـانَ لِي مَـشربٌ يَـصفُوا بِـرُؤيَتِكُم ... فَكَدَّرَتـــهُ الأيــامُ حِــينَ صَــفَا

قال أبو سعيد الخراز: من أذيق حلاوة الذكر وصفاء السر ثم نزع منه من سنا المقامات والأحوال فليحكم لقلبه بالموت، ولسره بالعمى عن طريق الهدي؛ لذلك قال الله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا﴾، وهو محل القربة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾، وهو حجاب النعمة.

ثم ذكر سبحانه وصف المتخلص من محن الفراق والناقة من مرض سم أفاعي القهر بمفرح الترياق إذا أدرك ما فاته، وطلع عليه شمس العناية مشرق الكفاية، وأقبل عليه أيام السعادة بعد ذهاب أيام الشقاوة بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

=

في المقام، أو مستقرها في للفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح.

ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾: أذقناه نعماء الوصال بعد ضراء الفراق، أذقناه من شراب الوداد بعد رجوعه إلى المراد، يطربه المواجيد، فيسكره أنوار شراب الوصلة، فيهيج نفسه بهيجان قلبه، ويضطرب ويفرح بذهاب ظلمة الهجران عنه، ويظن أن الأوقات باقيات عليه، فيدَّعى بدعاوي البشرية بالمقامات والأحوال عند الخلق، وذلك غلطٌ عظيمٌ يفرح بغلطه، ولا يعلم مزلة قدمه فيكون بعد ذهاب الوقت كما كان، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

ثم استثنى الله سبحانه أهل الاستقامة والثبات في موازات تجلي أنوار قدمه بنعت الخنوع والفناء حتى يجري عليهم بديهة المكاشفة وصولات الوقت بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: صبروا فيما وجدوا من أعلى الزلفى، وأرفع القربة، ولا يفشون تلك الأسرار عند الخلق بنعت الدعوى.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: استقامتهم على تدارك الأوقات بوصف وضع أقدام الصدق على هواهم؛ حيث يراعون أنفاسهم، ويقدِّسونها عن شربها مع الخطرات، ثم وعد الله لهم بصبرهم واستقامتهم، وتدارك أحوالهم غفران ما مضى من الفترة والغفلة، وأنه تعالى يسترهم عن نفوسهم، وهواجسها، وشياطينهم، ووساوسها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: المغفرة: إقبال الله عليهم بوصف قبولهم، والأجر الكبير دوام الأوقات على السرمدية وتواتر المواجيد، وبلوغهم إلى انبساطات الأول بوصف رفع الاحتشام، وتذكير ما سلف من الفرقة.

وقال الأستاذ في تفسير قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾: من استمسك بعروة التضرع، واعتكف بقوة التذلل، وتحسا كاسات الحسرة، علا بعد نهل طالعه الحق بنعت الرحمة، وجدد له ما اندرس من أحوال القربة، وأطلع عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل:

تقـشَّعَ غَـيمُ الهَجْـرِ عَـنْ قَمـرِ الحـبُّ ... وأشرقَ نـورُ الـصبحِ فِي ظُلمـة الغـيبِ

وليس لأحوال الدنيوية كبير خطر في التحقيق، ولا بعد نوالها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل؛ لكن المحبة الكبرى، والوزنة العظمى تذبل غصن الوصال، وتكدُّر مشرب القرب، وأفول شوارق الأنس، ومد بصائر أرباب الشهود، فعند ذلك تقوم قيامتهم،

وهنالك تسلب العبرات، وهي أرواح، فتقطر من العيون بتصاعدها، فإذا نعق في ساحات هؤلاء غراب البين ارتفع إلى السماء نواح أسرارها بالويل.

ومن جملة ما قالوا في ذلك:

قُولَا لِمَنْ سَلَبَ الفُؤادَ فراقهُ ... ولقد عهدنَا والمناح عناقهُ

تفد الغراء فبالذي هو بيننا ... إلا وثبت لزدنا إزهاقه

عهدي لمنْ جَحدَ الهوَى أرمان ما ... نور الصبابةِ لاَ يضيقُ نطاقهُ

فالآن مدخل الزمان يوصلنا ... ضاق البسيط فشأنه فعراقه

هَلْ ترتَجي مِنْ وَصلِ عَزة رَجعَةً ... تخفوا على قَمرٍ يَدومُ محاقهُ

إنْ كَانَ ذَاكَ كَما تُريد فخازمًا ... فجر المسرَّةِ أَنْ يرَى إشرَاقهُ

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أخبر الله سبحانه أهل الرياء والسمعة الذين لا يريدون من أعمالهم إلا الترفع والجاه والزينة والمال، وهم عن الآخرة بها محجوبون، ولو ذاقوا طعم رؤية الآخرة وجاء أهل المعرفة التفتوا إلى حظوظ أنفسهم، ومع ذلك أعطاهم الله ما يحجبهم عنه في الدنيا والآخرة، ولا تظن يا أخي أن العارف المتمكن إذا باشر الدنيا وزينتها هو من جملتهم، إنه يريد الله برغبة المعرفة والشوق، ويريد الدنيا للكفاف، والعقاب يرزقه الله حياة حسنة طيبة بأنه يجعل الدنيا خادمة له، فيجعله في عين الخلق، ويرفع هيبته في قلوب الناس، قال الله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

وقالﷺ: «من أحسن فقد وقع أجره على الله في عاجل الدنيا وآجل الآخرة»[1]، وليس كالمرائين الذين جعلهم الله محرومين من شرف الآخرة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟﴾.

---

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال أبو بكر الوراق: الحياة الدنيا هي ارتكاب الأماني، واتباع الشهوات والجولان في ميادين الآمال والغفلة عن بغتة الآجال، وجمع ما فيها من الأموال من وجوه الحرام والحلال في زينة الدنيا هي ما أظهر الله فيها من أنواع العلائق التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

وتصديق ما ذكرنا من وصف العارفين والمرائين قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، تقدير الآية على وجه الاستفهام، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن هو في الضلالة والجهالة، أفمن كان معرفة من ربه وولاية وعلامة من كراماته وكل عارف إذا شهد الحق سبحانه بقلبه وروحه عقله وسره، وأدرك فيض أنوار جماله وقربه يؤثر ذلك في هياكله، حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: فالبينة بصيرة المعرفة، والشاهد بروز نور المشاهدة منه.

وأيضًا: البينة كلام المعرفة وشاهده الكتاب والسنة، ومن كان بهذه المثابة يرى بعين الحق مكنون الغيوب وأسرار القلوب، ومشاهدته غالبةٌ على يقينه، ويقينه غالبٌ على بصيرته، وبصيرته غالبةٌ على عقله، وعقله غالبٌ على نفسه بحيث لا يزاحم هواجسها على مناطق الغيب، وظلمتها لا تغشى أنوار القرب، بل هي فانية بحياتها تحت وارد الحق من الكشف والعيان والبيان، ويبين ما قلنا ويصدقه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: كل وارد من الحق فهو الحق حين زالت عنده معارضة النفس، فإن خطر معارضة في أول نزول الوارد فهي امتحان الحق فيرد عليها واردات حقيقة فتزيلها أصلاً، قال الله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ حين بقيت الواردات وزالت المعارضات.

قال أبو عثمان: من كان على البينة لا يخفى عليه سرٌّ.

وقال رويم: البينة هي الإشراف على القلوب، والحكم على الغيوب.

قال الجنيد: البينة حقيقةٌ يؤيدها ظاهر العلم.

قال أبو بكر بن طاهر: من كان من ربه على بينة كانت جوارحه وقف على الطاعات والموافقات، ولسانه مزمورًا بالذكر ونشر الآلاء والنعماء، وقلبه منورًا بأنوار التوفيق وضياء التحقيق، وسره وروحه مشاهد للحق في جميع الأوقات، عالمًا بما يبدو من مكنون الغيوب ومستورها، ورؤيته للأشياء رؤية يقين لا شكَّ فيه: وحكمه على الخلق كحكم الحق، لا ينطق

إلا بحقٍّ، ولا يرى إلا بحق؛ لأنه مستغرقٌ في الحق، فأنى له مرجعٌ إلا إلى الحق، ولا إخبارٌ له إلا عنه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولما وصف الله البينة وصدق الشاهد وصف المغالطين ومدعين مقامات أهل الولاية افتراء وزورًا وبهتانًا قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: ظالم أشد ظلمًا ممن يدَّعي الولاية، وكان في سابق الحكم كذَّابٌ، كأنه يريد نقض إبراهيم حكم الأزل الذي سبق بكفره وزوره وبهتانه، وسبق بعنايته الأولياء والصديقين، فظلمه من جهة كذبه على الله بإخراج نفسه على دعوى الولاية، وهو كاذب، وغرض هؤلاء المفسدين صرف وجوه الناس إليهم رياءً وسمعةً وجاهًا، فيعرفهم الله لجميع الخلائق حين يعرضون على ربهم؛ ليفضحهم ويكشف قبائحهم عند الخلق، يوبخهم على رءوس الأشهاد بدعاويهم الباطلة، فيشهد على كذبهم كل صادق في الحضرة، ثم تبعدهم عن القرب والوصال إلى النار والوبال.

قال بعضهم: المفتري على الله من اتخذ أحوال السادات بدعوات لنفسه حالاً، وأظهر من نفسه مشاهده ما لا يشهده أولئك الذين يفضحهم الله في الدنيا بكذبهم، فيطلع عليهم الذين يشهدون حقائق الأشياء، فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ لأنهم أظهروا من الأحوال ما ليس لهم، وتزينوا بالعواري من لباس السادة، فهذه فضائحهم في مجالس أهل الحقيقة إلى أن يرجعوا إلى الفضيحة في مشهد الحق.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾: لا يسمعون خطاب الحق بأسماع القلوب، ولا يرون مشاهدة الحق بأبصار الأرواح، وكيف يسمعون وما سبقت لهم في الأزل العناية، وكيف يبصرون وليس لهم حظٌّ عن أنوار القربة، وما تطلع من وجوه الصديقين والعارفين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾.

قال بعضهم: كيف يستطيع السمع من لم يفتح مسامعه لسماع الحق، وكيف يبصر من لم يكتحل بنور التوفيق؛ إذ لا سماع إلا عن إسماع، ولا بصر إلا عن إبصار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: أيقنوا مواعيد الغيب بنعت رؤيتها، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بذلوا مهجهم للوصول إلى قرب الحق، وزكوا سرائرهم بصفاء الذكر وجولان الفكر، ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: فنوا تحت أنوار سلطان كبريائه حين عاينوها بأبصار أسرارهم، أولئك أصحاب مشاهدة صفات البقاء بعد إفنائهم في أنوار صفات القدم، باقون في البقاء؛ لأنهم لا يزالون بعد ذلك إلا أصحاب الصحو بعد المحو.

قال شاه الكرماني- رحمة الله عليه: الإخبات ثلاثة: غم الإياس مع التوبة لكثرة العود إلى الذنوب، وخوف الاستدراج في إسبال الستر، وتوقع العقوبة في كل وقت حذر، أو إشفاقًا من العدل.

قال الأستاذ: الإخبات التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامات المخبتين الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستعانة بالسر، ثم أن الله سبحانه فرَّق بين المقبولة في الأزل بنعت اصطفائيتهم بالولاية، وبين المطرودين في القدم باحتجابهم عن الوصلة والمشاهدة بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾(١): مثل المحق والمدعي كمثل السميع والبصير والأعلى السميع يسمع بسمع الحق من الحق كلمات الحق التي يفرق بها بين لمات الملكوتية، والهواجس النفسانية، ويبصر ببصر الحق جمال الحق الذي ينور بصائر العارفين، وأبصار المحبين بحيث يرون بها ضمائر القلوب، وحقائق الغيوب فهذه

---

(١) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (٣/ ٤٠).

الأوصاف وصف المتحققين.

وقال القائل في هذا المعنى:

لَيلي مِنْ وَجهكِ شمسُ الضُحَى ... وأنس الصدفة في الجُودِ

الناسُ في الظُلمةِ مِنْ لَيلهمْ ... ونحنُ مِنْ وَجهكِ في الضوءِ

والجاهل الغاوي لا يسمع هواتف الإلهام؛ بأن ليس له سمعٌ الخاص، ولا يبصر أنوار المعرفة بعوارضات البشرية، ما أبين مثل الحق! حيث بيَّن صريحًا نعوت العارفين، وجهل الجاهلين، ثم استفهم عن أهل العقول استواء أهل الهمم أي: لا يستويان، وكيف يستوي حال العارف بالله والجاهل بالله.

قال بعضهم: البصير من عاين ما يراد به، وما يجري له، وعليه في جميع أوقاته، والسميع من يسمع ما يخاطب به من تقريعٍ وتأديبٍ وحثٍّ وندبٍ لا يغفل عن الخطاب في حال من الأحوال.

وقيل: الأعمى الذي عمي رؤية الاعتبار، والأصم الذي منع لطائف الخطاب، والبصير الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئًا، ولا يتعجب من شيء.

وقيل: السميع من يسمع من الحق، فميز بذلك الإلهام من الوسواس.

وقال الجنيد: الأعمى هو الذي عمي عن درك الحقائق.

وقال الأستاذ: الأعمى من عمي أبصار رشده، والأصم الذي طرش سمع قلبه، فلا بالاستدلالات يشهد سر تقدير في أفعاله، ولا بنور فراسته يتوهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه.

وقال: البصير هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، فالغائبات له حضورٌ، والمستورات له كشفٌ، والذي يسمع بصفته لا يسمع هواجس النفس، ولا وساوس الشيطان، فيسمع من دواعي العلم شرعًا، ثم خواطر التعريف قدرًا، ثم مكاشف الخطاب من الحق سرًّا، فهؤلاء لا يستويان، ولا في الطريق يلتقيان، وانظر ما قال الأستاذ.

وأنشد:

أيهَا المنكحُ الثُريَّا سُهَيلاً ... عَمرَكَ اللهُ كَيفَ يَلتقيَانِ

هيَ شاميةٌ إذَا مَا استقلَّت ... وسهيلٌ إذَا استقلَّ يَمَانِ

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: هذه عادة السفلة وأهل الجهل والغباوة الذين قاسوا بآرائهم الفاسدة حال الأنبياء والصديقين، ولو شاهدوا ذرة من حالهم لماتوا حسرة من شوقها، لكن سبق لهم الشقاء الأزلي يحجبهم عن جمال أحوالهم وأنوار أسرارهم، وبقوا بظنونهم المختلفة، وقياساتهم الفاسدة في الأشكال والهياكل، واحتجبوا عن رؤية الأرواح وطيرانها في الملكوت والجبروت، وتكبروا على أولياء الله من قلة معرفتهم بنفوسهم، ومن قلة إدراكهم حقائق القوم.

قال ابن الفرحي: لم يشهد مخالف الأنبياء والرسل منهم إلا الهياكل البشرية، وعموا عن درك حقائقهم في ميادين الربوبية، واختصامهم بما خصوا به من فناء حظوظهم فيهم، وبقاء أشباحهم وهياكلهم رحمة للخلق، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أكلاً وطعمًا وشربًا، ولو لاحظوا مقامهم من الحق وقربهم منه لأخر سهم مشاهدتهم عن مثل هذا الجواب؛ لأنهم في مشاهد القدس.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾: بيَّن سبحانه من قول نبيه نوح عليه السلام أنه قال: ما أنا بطارد قوم اختارهم الله بالنظر إلى جماله والجلوس على صفائح قدسه ومجالس أنسه وسماع كلامه، والمعرفة بصفاته وذاته وقربه وقرب قربه في الأزل وسابق العلم.

تصديق ذلك قوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي: ليس على قبولهم ولمرادهم من اختارني

بالرسالة، فقد اختارهم بالولاية، يختص برحمته من يشاء لا ينظروا إلى انكسارهم في الطريقة، وإعراضهم عن دنيا الدنية ورثاثة ثيابهم، وصفرة ألوانهم وقصر أكمامهم، فإنهم حمائم أبراج الملكوت وبزاة معارج الجبروت.

قال أبو عثمان في هذه الآية: ما أنا بمعرض عمن أقبل على الله، فإن من أقبل على الله بالحقيقة أقبل الله عليه، ومن أعرض عمن أقبل على الله فقدره أعرض عن الله.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: كيف تنفع نصيحتي لكم ولم يخلقكم الله على استعداد قبول، وذلك من شقاء الأزل، والنصيحة لا تنفع إلا لمن كان في قلبه زاجر من ربه يمنعه من المعصية ويحثه على استماع النصيحة.

قال حمدون القصار: لا تنفع النصيحة لمن لم ينصح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليبصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجودٌ في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه»[1].

وأيضًا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني.

قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق.

وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: إن الله سبحانه أدَّب نبيه نوحًا ﷺ هاهنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم.

وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحدٍ بعد ذلك.

ألا ترى إلى قول ذي النون ﷺ حيث دعا على أهل سعايته كيف كانوا يفرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷺ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين.

قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: هذه الآية وافقت قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم﴾؛ لأن سوابق السعادة والشقاوة لا تتغير بصنائع الحدثان، ولا يزال هما على وصفهما إلى الأبد، كما كانا في الأزل.

قال بعضهم: بالسبق قيد العواقب، فمن أجري له في السبق السعادة كانت عاقبته

---

(١) تقدم تخريجه.

السعادة، ومن أجري له في السبق الشقاوة كتب له بالشقاوة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، وألسنة الأنبياء والأولياء قاصرة عن سؤال مخالفة ما جرى في الأزل؛ لأنه حكم القاهرية سلطان الجبارية.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾: البحر بحر القدم والأبد، والسفينة قلب العارف يجري بشمائل العناية بروح الناطقة الربانية، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ في قلزم الصفات، ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ في قاموس الذات.

ثم أخبر سبحانه عن كمال كرمه؛ حيث لم يسد عليها الجري في الصفات مع حدوثيتها، ولم يفنها في الذات مع ضعفها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأيضًا أي: بسط الله إياها بأنوار جمال مشاهدته جريها في الصفات، ويقبض الله بسطوات العظمة سكونها وثبوتها.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: لا عاصم عند صولة تلاطم بحر القهريات إلا عواصم أنوار اللطيفات من التجأ إليه منه نادبه عنه.

قال الأنطاكي: لا اعتصام لأحدٍ من خلق الله إلا بالله.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: إلا من دلَّه على الاعتصام به، وذلك الذي يعصمه الله من أمره.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: لما غاصت سفينة القلوب في بحار غيوب القدم ودارت في لجج عظمتها كادت أن تغرق بطوفان غيرتها، فسبقت لها عناية الأزلية، وما أبقتها في بحار الفناء؛ لئلا يفني العبودية في سطوات الربوبية، فنادت ألسنة الوصال إلى سماء كمال الذات وأرض الصفات: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، فامتنعت الذات والصفات عن دركها، وتلطفت الصفات

والذات عليها بإرجاعها إلى مشاهد الأفعال والآيات، واندرس عليها مسالك الآزال والآباد، وهذا معنى قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾: جرى عليها أحكام معارف الذات والصفات، وغرق منها ما دون الذات والصفات في الذات، والصفات من النفوس، وهواجسها والشياطين ووساوسها، والعقول ومراتب مقاماتها، والكونين والعالمين، واستوائها بنعت التمكين على جودي الطريق، والحقيقة أن تكون ساكنة بعد الاضطراب في المواجيد، وصاحية بعد السكر بأشربة بحار المقادير، وهذه برمتها مشروحة في قوله النبي ﷺ حيث دنا من الوصال وتدلى إلى مشاهدة الجمال، وكان بين قاب قوسي الأزل والأبد بقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، واستعاذ في دنو الدنو من الغرق في بحار الأزل والفناء في ميادين الأبد من قهر طوفان قلزم الكبرياء والعظمة، بما سبق له من حسن عناية القدم بنعت الرضا بقوله: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[1]، كان ﷺ في مدارك الصفات، ومرائي أنوار الذات سابحًا في بحر حقائق الأزلية، فخاف من فنائه في قهر النكرات، ففرَّ تارة من الصفة إلى الصفة، وتارة من الفعل إلى الفعل، ومن الذات إلى الذات تارة، فقال:أعوذ برضوان عنايتك، ومن سخط غيرتك عليك، أن يعرفك أحد غيرك، وأيضًا أي: أعوذ برضوان جمالك من سطوات جلالك حتى لا أفنى بك فيك، وأعوذ برضا بقائك من صولة عساكر قدمك.

فلما دار في الصفة وخاف من الزوال فرَّ منها إلى أنوال الأفعال؛ ليروح فؤاده الغائب في الألوهية عن أثقال رجاء العزة، فقال: «أعوذ بمعافاتك من عقوبتك»[2]: بمعافاة دعائك الأزلي من عقوبة هجرانك الأبدي، فلما استروح من أثقال السير في الصفات بلطائف الأفعال رجع إلى مشاهدة الذات، فقال: «أعوذ بك منك»[3]: أعوذ بفردانيتك من حلاوة جمال مشاهدتك، التي تصير العاشق بك بنعت وحدانيتك، حتى يخرج بدعوى الأنائية في مشهد تنزيلها، أعوذ بك من هذا المكر حتى أكون لا أكون أنت تكون، وأزول كما لم أزل أزول، وتكون كما لم تزل تكون، فلما فني عن رسوم العبودية وعن مشاهد الربوبية من الأفعال والصفات وبقي بإزاء أنوار الألوهية بنعت استقامة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، واستعار من الحق لسان الأزلي، وأثنى به عليه، فقال: «لا أُحصي ثناءً عليك»[4]، ثم أخرج

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الثناء والنفس والعبودية والتكليف والكينونة والقرب والبعد والتصاريف والعلل من ساحة وجود صاحب الجود الأزلي بقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

جئنا إلى ظاهر الآية: إن نبي الله نوحًا ﷺ كان في مضيق القبض من أذى قومه، فاشتهى وصلة بلا فرقة، وبسط بلا قبض، وأنسًا بلا وحشة، فدعا ربه حتى يخلصه من ذلك، فأغرق قومه وناجى ربه، وانفرد به عن كلٍّ، فتغاضت بشريته ابنه، فجاء الموج وأغرق الكل حتى لا يبقى في قلبه غير الله.

وقال الأستاذ: لما غرق ابن نوح ﷺ سكن الموج ونضب الماء وأقلعت السماء، فكأنه كان المقصود من الطوفان أن يغرق ابن نوح.

فكان كما قيل:

عجبتُ لِسَعي الدهرِ بيني وبينهَا فلمَّا انقضَى مَا بَيننَا سَكنَ الدَّهرُ

ثم أخبر سبحانه عن انبساط نبيه نوح ﷺ بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: تحرك سر بشريته في موضع أحسن الحق حيث من حقه تقديس الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وبذل الموجود والمجهول بينه وبين الخليل ﷺ في منزل الامتحان فرقٌ حين أُلقي إلى النار، ولم يلتفت إلى إعانة المخلوق، حين قال: «أما إليك فلا»[٢] وسلم نفسه، ولم يتعرض لقلبه معارضة برئ من حوله، وقوله من نفسه والكون جميعًا، وههنا قد التفت إلى غرق ابنه، وأين ذكر الابن في منازل التوحيد والتسليم، والرضا شرط المعرفة والتوحيد فنادى، وقد طاب في مناداته مع ربه سبحانه وسأل ابنه، وحكم بأنه أهله وليس هو من أهله قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وأيضًا: تعرض داء علقة البشرية بينه وبين رؤية القدر السابق، ولولا ذلك بإرسال الله بالمناداة في منازل الانبساط، وأسرار المناجات لطائف الخطاب، وحقائق المكاشفات، وكل انبساط في مقام الامتحان ليس على مقارنة رؤية حكم السابق، فهو ساقطٌ عن محل البلوغ وإدراك المراد.

قال الحسين: لم يوزن لأحد في الانبساط على بساط الحق محال؛ لأن بساط الحق عزيز حواشيه قهر وجبروت، فمن انبسط عليه رد كنوح ﷺ لما قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ قيل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

ثم إن الله سبحانه عرف نبيه نوحًا ﷺ بعد ارتفاع الأهلية بينه وبين ابنه بارتفاع أهلية

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) رواه الطبري في التفسير (١٧/ ٤٥).

المعرفة والمحبة بين روحه وروحه في منازل الأول عند عبد الله، وذلك أن في الأزلية لم يؤت الله ابنه أهلية عرفانه وإتقانه، فقال: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾: ليس له ما أعطاك الله من المعرفة والرسالة والقربة: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أدّبه بألا تسأل إلا ما وافق القدر، وكل دعاء لم يوافق مراد الله في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظ وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجاهل من جهل قدر الله وقدر أهله أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال على غير قاعدة مرادي، وفيه تهديدٌ لخواص العارفين ليكونوا على بساط الحق، مجردين لخواطرهم عن الالتفات إلى غير الله، وأنْ يكونوا في محل احتشام الله مستسلمين لمراده.

قال القاسم: الأهل على الوجهين: أهل قرابة، وأهل ملة، فنفى الله عنه أهلية الملة لا أهلية القرابة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أما علمت أنّي قد أمضيت حال الشقاء والسعادة في الأزل، ولا راد لحكمي وقضائي، إنِّي أعظك أن تجهل تلك الأحكام.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾: لما اشرف نوح ﷺ ابنه على الغرق قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، قال خصصت غلبك للدعاء دون سائر عبادي وابنك واحد منهم، ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: في أن يقضي حقك على خصوص، ويمهل حقوق عباده بأجمعهم، ثم رجع ﷺ إلى ساحة الكبرياء بسره المتضرع الحق، ورجوعه من نفسه إليه بوصف الخنوع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: إنَّ السؤال لا يستحسن إلا بالعلم بالمسئول، ولمَّا علم موضع الخطأ تواضع بجبروته وخاضع ملكوته، أي: إن لم تغفر لي ترك الأدب وترحمني بتسهيل أمر الربوبية في العبودية عليَّ أكن من الذين فقدوا حقائق المعرفة في العبودية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: إن نوحًا ﷺ وهو من أهل الصفوة وأولي العزم من الرسل هج وكدح لربه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فعوتب عليه، فأبكاه ذلك سنة حتى قال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾، فكان دهره بطلب المغفرة من هذه الكلمة، ونسي ما كدح وعني واجتهد لما رجع إلى الله، وتواضع للكبرياء، ألبس الله عليه لباس العافية والأمن من أنوار قربه وحضرته بقوله: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي: اهبط بوصف التخلق والاتصاف بصفتنا من سفينة الحقيقة بسلامة منا، بأنك بعد ذلك لا تفنى في سطوات عظمتنا إذا اتصفت بصفتنا؛ لأن بركة وصلتنا معك تنجيك بركة مني، وبركتك مع قومك تنجيهم من عذاب فرقتي، ثم هو تعالى شرَّف نبينا ﷺ بكشف أنباء الغيب بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ الكشف والأنباء على مرتبتين، الأولى: للأرواح قبل الأشباح في ديوان الغيب حتى رأت بنور الغيب أسرار المكتوم، والأخرى: بعد كونها في الأشباح، فترى ويسمع، وسمعت في الغيب قبل دخولها في الأشباح تحديد المكاشفة، وتذكير العقود المشاهدة، وما قال سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ أي: قبل كون روحك، وأمّا بعد كَوْن روحك علمت ما كان وما سيكون، وهاهنا تسلية قلبه ﷺ في احتمال البلوى عن أهل الجفاء ابتداءً بأهل الوفاء من أولي العزم من الرسل.

وتصديقه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: اركب مركب الصبر معي في ظهور حقائق وجودي ولطائف بلائي في ميادين التقوى من غيري، من العرش إلى الثرى، بالهمة الرفيعة فوق العلا، فإنَّ عاقبة المتقين المتبرئين من غيري بي وصالي والنظر إلى جلالي وجمالي.

قال الجنيد: كشف الله لكل نبيٍّ ظرفًا من الغيب، وكشف لنبينا ﷺ أنباء الغيب، وهو الغاية في الكشف، فكان مكشوفًا له من الغيب ما لا يجوز أن يكون مكشوفًا لأحد من المخلوقين، وذلك لعظم أمانته وجلال قدره؛ إذ الأسرار لا تُكشف إلا للأمناء، فمن كان أعظم أمانة كان أعظم كشفًا.

قال النصرآبادي: نجاة العاقبة لمن رسم في الأزل رسم التقوى، وحلي به، قال الله: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا
وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ
ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ
بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ
وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧) وَلَمَّا
جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨)
وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ
فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠)
۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم
مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (٦١) قَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (٦٣)
وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ
غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ
خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ
فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ
أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾[1] أي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إليَّ من

---

(١) يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

نفوسكم ورؤية طاعتكم، راعوا عنها يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها، ولبساتين قدسي ورياض أنسي، وتلك القوة من سقيي إياها شراب الديمومية من بحار السرمدية والأزلية، ومشاهدة الذات والصفات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: غصت في بحار جلالي الأزل، وهو شاهدي وأنا بريء مما تشيرون إليه من دونه، بريء من حولي وقوتي، وانظر إليكم ما بكم تقدرون في ملكه بذرة، فاحتالوا لي جميعًا إن كنتم تقدرون بالحيلة، ولا ينظرون لا بحيلولتي، فإني على ثقة من ربي في ثبوتي ورسالتي، وبيان براهينه، وعلى سلطان كبريائه دلّ كل شيء، وهو حسبي وحسب كل صادق في بلائه، وذلك قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، مشاهدته بشهوده على ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: ربي يربيني بأنوار مشاهدته ولطائف وصلته، وربكم بإيجادكم وتربيتكم بأغذية الظاهر.

ثم وصف جلال قدره وإحاطته على كل ذرة بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: آخذ ناصية كل مخلوق بأيدي القدم، وأخرجها بجبروته من أماكن العدم، ويجذب كل دابة من العرش إلى الثرى إلى ميادين ملكوته، ويغذي كل واحدة منها من موائد تجلي صفاته وذاته وآياته وأفعاله للأرواح غذاء مشاهدة الذات، وللقلوب غذاء مشاهدة الصفات، وللعقول غذاء مشاهدة أنوار الأفعال، وللنفوس غذاء الطبائع من عناصر الكون: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: على طريق الربوبية التي مناديها صحاري الآزال والآباد، وهكذا على طريقة كل رباني صمداني يسيروني في طريق الذي هو السير في عالم الذات والصفات، وذلك الطريق مستقيم؛ حيث هو تعالى بجلاله يظهر نفسه في جميع الأحوال لقلوب أوليائه، وأولياءه يسيرون إليه بطريقة، وجذب ظهوره.

إذا نحـــن أدلجــنا وأنـــت أمامــنا كفـــى لمطايانـــا تلقـــاك هاديًـــا

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: إذ هو مقدَّسٌ عن اعوجاج الحدثاني وتغاير النفساني، لا تسدُّه علة، ولا تعوجه زلة.

قال الواسطي في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: غلب على هود ﷺ في ذلك الوقت حال الوصلة والقربة مما يأتي بشيء ولا أحسن به؛ إذ هو في محل الحضور، ومجلس القربة.

وقال في قصة لوط ﷺ: قال لو أن لي بكم قوة كان نطقه نطقًا طبيعيًا، شاهد في ذلك حال ووقته واشتغاله بهم، وقال هود ﷺ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: نطق عن مشاهدة لا يرى سواه.

وقال بعضهم: أي: كيد يلحق من هو في قبضة الحق وسرادق العزّ، وجلابيب الهيبة، والكيد لا يلحق إلا من هو سائر في طرق المخالفة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾: كيف يكون لك محلٌّ، وأنت بغيرك قيامك وبقاءك؛ لذلك قيل: من قال أنا فقد نازع القبضة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾: بشارة الرسل للخليل ﷺ من الله سبحانه بدوام وصاله، وكشف جماله بلا حجاب ولا عتاب، وإنْ خلته تولدت من سابق خلته الأزلية والاصطفائية الأبدية، وبأن النبوة باقيةٌ في أولاده، وبشروا أنه تعالى مشتاقٌ إلى أحبائه وأخلائه، وبشروا له بقدوم أخص أولاده، وأخص خلق الله من العرش إلى الثرى محمد ﷺ، وبشارتهم بأولاده من المرسلين نظام الرسالة، ودوام الشريعة، ونشر الحقيقة والسلام، منهم أخيار عن أهليتهم لخليله ورفع النكرة، وتعريف العهد الأولية بنعت زوال الخطرات والمعارضة، وسلامهم ممزوجٌ بسلام الحبيب، وبديهة دنوه من خليله، وسلام الخليل إظهار السرور بالضيف وإكرامهم، وإظهاره الأهلية منه، عرف سره سرهم، موافق سلامه سلامهم، أي: هاهنا بيت كرامة وسلامة من العيوب، وما أطيب سلام الحبيب على الحبيب! وما ألذّ رسالة الحبيب إلى الحبيب! وما أشهى بشارة الحبيب للحبيب! وإن كان بالوسائط:

سلامٌ على سلمى وإن شطَّ دارها ... سلامٌ على أرض قديم بها العهدْ
سلامٌ على جاراتها بجوارها ... سلامٌ حزينٌ رامق شقة الصدّ
سلامٌ عليها دائمًا متواترٌ ... سلامٌ على أرض إليها لها قصدْ
إذا نزلت سلمى بواد فإنها ... زال وسلسال وشيحانها وردْ

قال بعضهم: بشروا لإبراهيم بأن نسبة الخلة ثابتة فإنها لا تنقطع.

وقال بعضهم: بشّروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء، وصاحب لواء

الحمد.

وقال بعضهم: رسول الخليل إذا ورد فهو بشارةٌ، فإذا أدَّى الرسالة قد تمت به البشرى خصوصًا إذا أدى من الخليل سلامًا، ألا تراه كيف ذكر: ﴿قَالُوا سَلَـٰمًا﴾ من الخليل، فقال: سلام من الخليل، تم به المراد.

قال ابن عطاء في قوله:﴿سَلَـٰمًا﴾: قال: سلام سلم لك رتبة الخلة من الزلل، قال: سلام أي: هذه السلامة التي توجب لي السلام من السلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أخبر عن فتوته وإكرام ضيفه، ولكن فيه ما فيه من إشارة إلى قلبه المذبوح، وروحه المجروح، ونفسه المبذولة بين يدي سلطان جبروته، وأنوار ملكوته، وسناء جماله، وسر جلاله، وتلك مجموعة نيران المحبة، ولهب الشوق، وحرقة العشق، ليسلبها بياسمين القرب، وورد الأنس، ونسيم صباء الوصلة.

وأيضًا: تعريف أحوال الملائكة هل جاءوا بالبأس أم ذلك من لطيف صنيع الأبناء، وفيه إظهار المعارضة والخفية؛ ليعرف شأن الحال، وإن كان خلقه السخاء والكرم.

قال بعضهم: من آداب الفتوة إذا ورد الضيف أن تبدأ بالكرامة في الإنزال، ثم ثنيه بالطعام، ثم بالكلام.

ألا ترى الخليل كيف بدأ بالطعام بعد السلام، قال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، وهو تعجيل ما حضروا بتكلف التكلم بعد ذلك لمن أحب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أنكر على تركهم استعمال الخلق، ولكن ما عرف شأن الحال الذي فيه إشارة عجيبة، أي: لا تذبح عندنا عجلاً فإنَّا لا نحتاج إلى العجل، وليس للعجل مكان المحبة، ولكن اذبح لنا إسماعيل، فإن المحبة والعشق مقتضيان قربان الوجود بين يدي المعشوق.

حُكي عن أبي الحسن البوشنجي أنه قال: من دخل هذه الدويرة، ولم يبسط معنا في كسيرة أو فيها حضر، فقد جفاني غاية الجفاء.

وقال ابن جعفر: مَنْ امتنع عن تناول طعام الفقراء والفتيان فقد أظهر كبره.

وقيل في قوله: ﴿نَكِرَهُمْ﴾: نكر أخلاقهم، مع ما تفرَّس فيهم من الخير.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: خيفة إبراهيم من الملائكة ليس من جهل بهم إنما رأى آثار بأس قوم لوط من شمائلهم، وهناك متوقع الإنذار؛ لأن ربما جاء الرسول بالإنذار:

لعلَّك غضبانُ ولستَ بعالمٍ سلامٌ على الدارين إن كنت راضيًا

وأيضًا خاف على أخيه لوط ﷺ ومؤمني قومه: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ رفعوا الحجاب وتبينوا العتاب.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: رحمة الله وقربة الله وبركات الله أنوار مشاهدة الله.

وأيضًا: رحمة الله نبوة الله وولايته، وبركات الله رسالة الله وخلافته، وبقي ذلك في أولاده حتى خصَّ باستجابة دعوته محمد ﷺ وعلى آله وأهل بيته وأولاده.

وأيضًا: رحمة الله محبة الله، وبركاته معرفته وتوحيده.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

قال بعضهم: بركات أهل البيت من دعوات الخليل، ودعوات الملائكة، وأمر النبي ﷺ بالدعاء به في الصلوات في قوله: كما باركت على إبراهيم، فبارك علينا، فأنا من أهل بيته وأولاده: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: محمود بحمده القديم؛ حيث حدَّ نفسه مجيد عظيم الشأن لا يناله عوض الفطن، ولا يدركه بعد الهمم، فلما وصلت بركات الله إليه وانفتحت له أبواب المكاشفة وأدركه فيض البشارة خرج قلبه من غبار الامتحان، وانبسط مع الرحمن بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: ذهب عنه خوف البعد، وجاءته بشرى القرب، وذاق طعم الودِّ وسكر الخليل بوجه الخليل، وانبسط الخليل إلى الخليل، وهكذا عادة السكارى إذا شربوا شراب الوصلة وسمعوا صلوات القربة يخرجون بنعت السكارى على بساط الانبساط، وفي ذلك يحمل عنهم ما لا يحمل من غيرهم من أهل الهيبة والإجلال، وانبساطه إليه من مواليد انبساطه إليهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿جَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ثم قال: ﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾؛ فالبشارة انبساط الله، فانبسط بانبساط الله، لكن انبساط الخليل لا يكون إلا رحمة وشفقة على خلقه وأوليائه، ألا ترى كيف قال: ﴿يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: كان يسترحم لهم، ويسأل نجاة لوط وأهل بيته، لما فيه من الظرافة والسخاوة والفتوة والمودة والحلم بما وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ

مُّنِيبٌ﴾: «حليمٌ» بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قالوا: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتأوهه زفرة قلبه مع غيرة عينه من الشوق إلى جمال ربه، وهكذا وصف العاشقين: التأوه والزفرات، والشهقة، والغلبات، والصيحة والعبرات، «مُنيبٌ» حيث أناب إلى كنف قدمه، وقوام خطاب قدسه ومجالس أنسه من رؤية شواهد ملكوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، ومجادلته كمال الانبساط لم تكن جهلاً، ولكن كان مشفقًا بارًّا كريمًا، رأى مكانة نفسه في محل الخلة واصطفائية القديمة وهو تعالى يحب غضب العارفين، وتغير المحبِّين، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين؛ حتى يحثهم على ذلك، وفي الحديث المروي من النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي رأيتُ رجلا في الحضرة يتذمر. فقلت لجبريل ﵇: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يتذمر على ربه تعالى. فقلت: وهل له ذلك؟ فقال: يعرفه فيحتمل عنه»[1]، ألا ترى كيف وصف الله انبساط كليمه بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم.

قال بعضهم: ذهب روع ما يجده في نفسه من تنزههم عن طعامه، وعلم أنهم الملائكة، وجاءته البشرى السلام من الله لَمَّا فزع من قضاء حق الضيف، ولقي البشرى رجع إلى حد الشفقة على الخلق، والمجادلة عنهم، ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ للرحمة التي جبله الله عليه، ثمَّ إنَّ الله سبحانه ذكر وصف خليله بأنه لم يعرف الملائكة في أول مقدمهم، ثم وصف نبيه لوطًا ﵇ بما وصف خليله من ضيق صدره، والخيفة منهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: حزن لأجلهم، وضاق صدره شفقة عليهم من فتنة قومه، ثم وصف بأنه مشفقٌ حزينٌ كريمٌ على الأضياف بقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾، وحكمة إنشاد باب الفراسة على إبراهيم ولوط أنهما كانا في محل البسط وحسن الرجاء من الله سبحانه، ولا يتوقفان البأس والعذاب على القوم، فلمَّا رأيا ملائكة الله لم يعرفاهم باشتغالهم بمعهود حال البسط، ولطائف الرجاء والقربة، وإن كان سرهما لا يغيبان عن معرفتهم، ولكن عارضهما التقدير لإمضاء حكم الله على قوم.

قيل: إن إبراهيم كان صاحب النبوة والخلة والرسالة، ولا بدّ أن تكون فراسته أصدق من فراسة كل أحدٍ، ولكنه في هذا الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق سبحانه إذا أراد إمضاء حكم سدَّ على من أراد عيون الفراسة كما سد فراسة النبي ﷺ في قصة الإفك إلى الوقت الذي أنزل به الوحي، والتبس الحال على لوط ﵇ إلى أن ينزله الأمر، ولما أخذ تلاطم بحر

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣١)، وذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٦٢).

الامتحان لوطًا ﷺ طلب قوةً وركنًا شديدًا ليدفع بهما قوم من ارتكاب المعصية.

قال سبحانه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: رأى نفسه في منازل الابتلاء والامتحان، ورأى أبواب المكاشفات والواردات والمشاهدات مسدودة، ولم ير نفسه إلا في محل الخوف، ورؤية المكر وخشية العظمة، قال: لو أن لي في هذه الساعة اتصافًا بصفة القدرة والقدر الأزلية كما كان حالي قبل هذا الامتحان لرفعتكم عن الكفر والمعصية.

﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لو كشف لي حاشية من حواشي قوام العدم آوي إلى هناك، وأسترع من رؤيتكم أو آتي من عالم الملكوت بيأسكم أو أدعو لكم، أو كان لي لسان الرباني الرحماني ليهتدوا إلى مواقع بالرشد، وتعرفوا حقوق الله عليكم.

قال ابن عطاء: لو أن المعرفة بيدي لأوصلتها إليكم.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قال بعضهم: لو أن لي جرأة على الدعاء عليكم لدعوت، أو آوي إلى ركن شديد من علم الغيب بما أنتم صائرون إليه من سعادة أو شقاوة، فلمَّا تم الأمر وعرف الحال، كشف الملائكة له حال القوم، ووعدوا هلاك القوم وقت الصبح بقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، كأنه تسارع إلى مكان التخلص من بين الضلال، وأراد أن يرجع إلى قرب الله ومشاهدته وتسريح من رؤية الأضداد؛ لأن رؤية الأضداد حمى الروح، كأنه قال: لو أن بكم قوة أزلية أهلكتُكُم، وآوي إلى ركن شديد إلى حضرة الملكوت مجالس الجبروت،

وأستريح من صحبتكم، ورؤية معصيتكم، فأنتظر بعد ذلك ما وعدوه، قيل له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1].

ما أشد على العارفين انتظار واردات الغيب، وطلوع صبح المشاهدة، وانفلاق شرق العناية، وإشراق شمس المكاشفة! دنا وصال الحبيب، واقتربا واطّربا للوصال وأطربا.

حُكي عن السري أنه قال: قلوب الأبرار لا تحتمل الانتظار.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وياسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وألقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، قال الله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما هذا الحجاب والبعد من التاركين السنة والمتابعة ببعيد.

قال بعضهم: لما أدركهم الحكم السابق الجاري في الأزل عليهم قلبنا عليهم أرضهم كما حكمنا عليهم بتقليب قلوبهم، وصرفهم عن طريق الحق وسبل الرشاد.

وقال محمد بن الفضل: ما أصاب قوم لوط ما أصابهم إلا بالتهاون بالأمر، وقلة المبالاة، وارتكاب المحارم بالتأويلات.

قال الله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما له بعذاب ممن حلوا ما علموا من تخطي الشرع، والتهاون بالأمر، وارتكاب المناهي بالتأويلات ببعيد[2].

---

(١) إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب يكون ذلك عبرة للناظرين.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ دلالة على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ =

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: أراد خير الدنيا الذي هو محل الاستدراج والامتحان، وإنْ رأى خير الآخرة ما خاف عليهم وأهل المعرفة، إذ رأوا أنفسهم في أعالي الدرجات والمقامات والاستقامة، زاد لهم خوفًا؛ لأنهم عرفوا الله بغيرة القدم، ولا يستقيم بإزاء غيرته الحدثان، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»[1].

قال بعضهم: أقرب حال إلى الاستدراج أيام الأمن والدعة، وتواتر النعم عليك، وترادف الخيرات عندك.

ألا ترى الله حاكيًا عن بعض أنبيائه لأمته: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال بعضهم في: ﴿أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة من الله، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: تقصيركم في شكر النعمة.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بقية الله وقربته ووصاله وما ادَّخر لأوليائه من الكرامات السنية والدرجات الرفيعة.

قال بعضهم: ما ادَّخر الله لكم من كراماته خيرٌ مما تسألونه فيه.

=

اسْتَطَاعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]؛ فإنَّ مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعبٍ وذلول، لِمَا إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال، وأمَّا القضاء المعلَّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاًّ من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمال إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد، فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرَّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/ ٢٩٤).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾: ليس للصادقين مع الخلق معاداة بسبب من أسباب الدنيا، إنَّما أبغضهم وخالفهم حين يتركون متابعة السنة وما يعطونهم، إلا بعد تركهم هوى نفوسهم، ولا ينصحهم إلا شفقة عليهم.

قال أبو عثمان: ليس بواعظٍ من كان واعظًا بلسانه دون عمله.

وتصديق الآية قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي: ما كان في عقلي ونيتي من قوة الله أريد بها إصلاحكم، ولكن الهداية والتوفيق ليست معي، ولا أطيق أن أنقذكم مما جرى عليكم في الأزل: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: اصطفائيتي بالنبوة والولاية باختيار الله في الأزل: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أسكن به لا لغيره، واثق به فيما وعد لي، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾: أرجع إليه بنعت شوقي إلى لقائه.

قيل في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي: مرادي صلاحكم أن يساعدكم التوفيق، ولا أستطيع أنا ذلك لكم إلا بموئنتي من الله لي عليه.

قال النهرجوري: التوفيق حسن عنايته من الحق سبق إلى العبد ليس له فيه سببٌ، ولا منه له طلبٌ.

قال الجنيد: التوكل ألا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب مع شدة الفاقة، ولا يزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي: استغفروا مما جرى على قلوبكم من أنكم قدرتم بشيء من الطاعة والعصيان، فإنَّ الطاعة والعصيان لا يتعلقان إلا بالسعادة والشقاوة الأزليتين، والرضا والسخط.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: تبرءوا من حولكم وقوتكم، فإذا تيقنتم ذلك وخرجتم من رؤية وجودكم يلبسكم ربي لباس معرفته؛ لأنه رحيمٌ بعارفيه، ويلقي حلاوة ؛ فإنه ودودٌ لأهل وده.

وقال محمد بن فضل: من لم يكن ميراث استغفاره بصحيح توبته كان كاذبًا في

استغفاره، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ومَنْ لم يكن ميراث توبته بصحيح محبته كان مبتلاً في توبته؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ﴾، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.

وقال أبو عثمان: الودود الذي تودَّد إليك بالنعم قديمًا وجديدًا من غير استحقاقٍ ولا وجوبٍ.

﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مستوحشًا مما نحن فيه، مستأنسًا بما أنت فيه، وأيضًا: ضعيفًا فيما تدَّعى من الرسالة والمعجزة، وما تدَّعى من القربة والمشاهدة، فإنك أضعف الضعفاء، كيف تقدر أن تخبر عما لم يعرفه، وما لا يليق بعقول الخلائق.

قال الترمذي: مهجورٌ فيما بيننا، لا تعاشر، ولا تعاسر.

قال بعضهم: قليل العقل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ

يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾: الآيات قدرته على الإخبار عما وجد من أنوار جلاله، وحقائق حضرته، ونشر فضائل معارفه وكواشفه، والسلطان المبين ما ظهر من وجهه من سطوع نور الأزلية، وأثار المحبة التي قال: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾.

قال ابن عطاء: الآيات هي القوة عند مخاطبة الحق، وسماع كلامه، والسلطان هو الانبساط في سؤال الرؤية.

قال جعفر: الآيات هي التواضع عند أولياء الله، والسلطان التكبر على أعداء الله.

وقال بعضهم: الآيات محبةٌ في قلوب خلقه، والسلطان هيبتهم له محبة في هيبة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾: تهديدٌ لأهل الغفلة في النعمة الذين شغلتهم النعمة عن رؤية المنعم.

قال أبو بكر الورَّاق: إذا سخط الله على قوم أكثر عليهم نعمة، وأنساهم شكره، ونزع عن قلوبهم التوفيق، وتراهم سدىً حتى أغمروا في المعاصي، واستوجبوا أخذه، أخذهم على غرة.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾: ذلك اليوم يجمع العارفون لموقف رؤية الجلال، وشهودهم مشاهد الكبرياء والعظمة، ويجمع المحبون ما قامت مشاهدة الجمال، وشهودهم لقاء البقاء، ويجمع الموجدون لرؤية القدم وشهود الأزل، وهم صبَّار لا يزالون عن طوارق القدرة وسطوة العظمة؛ لأنهم في الدنيا أهل جمعٍ وأهل شهودٍ.

قال أبو سعيد الخرَّاز: من عاشق في حقيقة عين الجمع لم يهوله ما جمعوا له من ذلك المقام، ومن كان في كشف المشاهدة لم يتعجب من شهود ذلك اليوم؛ لأنه كان مكشوفًا له عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم محدود، فاليوم المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزوَّد منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلَّه ليس من أيامك،

وهو غدك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وجواب السؤال قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ويرجى من كرم الله ولطفه أنَّ الكفار إذا حشروا يدخلهم النار بلا حساب، ثم يحشر المؤمنون إلى عند الميزان، وتبدَّل الأرض، ويقلع السماء من البين، ويحاسب المؤمنون حسابًا يسيرًا، وهو قادرٌ أن يحاسبهم بلحظة، فإذا أراد أن يدخلهم الجنة يخرج الكفار من النار، ويلقهم في بحر الحيوان، ويدخلهم مع المؤمنون في الجنان؛ لأنه تعالى وعد أنَّهم في النار ما دامت السماوات والأرض، فإذا زالت السماء والأرض كملت الحجة، وهذا شيءٌ مرجوٌّ، ليس بمعتقد أهل السنة.

ومعنى قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إلا من آمن بقلبه قبل معانية الآخرة بلهفة، ولم يطَّلع عليه أحدٌ غير الله، فإن دخله وورد على الصراط كالمؤمن يكون كذلك إن شاء الله؛ فإنه تعالى مستغنٍ عن عذاب الكافرين، كما يستغني عن إيمان المؤمنين وطاعتهم، وإيش يضر به أن يدخل الكفَّار في الجنة وساحة كبريائه منزَّهةٌ عن خلل الحدثان، وإذا أنشر بساط الكرم يدخل الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون في حاشية من حواشي بساط رحمته، وهو صادقٌ فيما وعد وأعدوا، وإنما العلم عند الله.

وتأكيد ما ذكرنا قول أبي مجلز: هو جزاؤهم إلا أن يشاء ربك يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار.

وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

وقال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا أسرعهما خرابًا.

وتصديق هذه الأقوال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإن هذا مما يؤيد إن شاء الله.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾: الذين سبقت لهم في الأزل العبادة الكبرى، وهي التوحيد والمعرفة على قواصير النور على رفارف الجنان تحت سرادق العرش.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: سماء الجنة وأرضها، سماؤها العرش، وأرضها الدر ومكة البيضاء من مسك أذفر.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: وقع المشيئة على العارفين والمحبين والمشتاقين؛ فإنهم يجتازون على الجنان، ويدخلون في أنوار حبال الرحمن أبد الآبدين.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(١).

وقال أيضًا: في فاكهة أهل الجنة في أهل الجنة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

وقال ابن عطاء: إلّا ما شاء ربك من الزوائد لأهل الجنة من الثواب، ومن الزوائد لأهل النار من العقاب.

---

(١) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (٣/ ٧٥).

وقال الجنيد: الشقي من حُرِم الرحمة، والسعيد من رُزِقها.

وقال إبراهيم الخوَّاص: الشقي من اعتمد تدبيره وقوته، والسعيد من فوَّض أمره إلى ربه، والسعيد الذي ساعده التوفيق الأزلي في كل ما يريد من المقامات، وتسهيل الطاعات، والشقي ميت القلب عن مورد تجلي رؤية الرب.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ : أمر الله سبحانه نبيه ﷺ في معهد الأزل أنْ يقوم بتحمل أمانة علوم كنوز القدم، وما يتعلق بها من كشوف أنوار صفاته وذاته إلى الأبد، وذلك بعد أن كساه كسوة الربوبية وقدرة الأزلية، فذكره عهده الأول بعد كونه متحليًا بأنوار التأييد والعناية، وقيامه بأداء حقوق الرسالة والنبوة، فآن الآن أوان الامتحان؛ حيث زَينتُ الدنيا بأحسن زينتها لك، وأجريت الطبيعة فيك، وأن يستقيم أصحابك وأمتك في حمل ما تخبرهم من أحوالك معي، وأحوالهم وكراماتهم بين يديَّ؛ فإني بجلالي وقدري أكشف أسراري لك ولأمتك من أهل الحقائق ما لا يطيق بإزائها السماوات والأرض، فاستقم بما يليق برسالتك.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من أمتك بما يليق بولايتهم، وليس للاستقامة حدٌّ؛ لأنها مقاماتٌ وحالاتٌ ومعارفُ وكواشفُ وتوحيدٌ ويقينٌ وصدقٌ وإخلاصٌ وآدابٌ وخطابٌ، وفي كل مقام استقامة من يستقيم فيها جميعًا، وفيما يرد عليه من واردات المواجيد من اللطفيات، وما يرد عليه من الامتحان والبليات، صار موصوفًا بالاستقامة، ومن يطيق أن يقوم بإزائها مستقيمًا، ولا يثبت على صفوان القدم آثار أهل العدم من جعله الله مستقيمًا بتأييده صار مستقيمًا، المخصوص في ذلك محمد ﷺ، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا»[(١)]، ولما ثقلت عليه أثقال الاستقامة على تتابع كشوف الأزليات وأسرار الأبديات قال: «شيَّبتني هود»[(٢)].

وقال ابن عطاء: إنما ينال الاستقامة على حسب ما أكرم به من نور السر.

وقال بعضهم: من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أُيِّد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة.

ثم عصم بالتثبيت، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾، ثم حُفظ في وقت المشاهدة، ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب والمخاطب في بساط الأنس محمد ﷺ، بعد ذلك خوطب بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ : ولولا هذه المقدمات لانفسخ دون هذا الخطاب.

ألا تراه كيف يقول للأمة: «استقيموا ولن تحصوا»[(٣)] أي: لا تطيقوا الاستقامة التي

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ١٠١)، وأحمد (٥/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

أُمرت بها.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: افتقر إلى الله بصحة العزم.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت أبا عليٍّ الشوني يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت له: روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود»[1]، فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيبك منه قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

وقال جعفر الصادق: منهم من استقام على توحيده، ومنهم من استقام على إيمانه، ومنهم من استقام على إسلامه، ومنهم من استقام على معرفته، ومنهم من استقام على عظمته، ومنهم من استقام على الحمد والثناء، ومنهم من استقام على الكرم والوفاء، ومنهم من استقام على الخوف والرجاء، ومنهم من استقام بالله لا شيء سواه.

وقال بعضهم: من استقام بالحق لا يعوج، ومن استقام بباطلٍ فهو غير مستقيم؛ لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحقيقة.

وقال بعضهم: الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنة.

وقال الجريري: الاستقامة في النعمة للعوام، والاستقامة في البلاء استقامة للخواص.

وقال الجنيد: الاستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين، والاستقامة مع الهيبة والحياء حال المقربين، والاستقامة مع الغيبة عن رؤية الاستقامة حال العارفين.

وقال الأستاذ: يحتمل أن تكون السنن في الاستقامة سنن الطلب، أي: سل من الله الإقامة على الحق.

ويُقال المستقيم: من لا ينصرف عن طريق الله ما لم يصل إلى الله يصل سيره بسراه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: لا تقتدوا بالمرائين والجاهلين وقرناء السوء، فتمسكم نيران البعد، وحب الجاه والرياسة، وتلحقكم نار البدعة والضلالة.

وأيضًا: لا تسكنوا إلى نفوسكم المظلمة بجهلها حقوق الله سبحانه.

قال الكِتَّاني: من لم يتأدب لحكيم أو إمام يكون بطَّالاً أبدًا، قال الله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

وقال سهل: لا تعتمدوا في دينكم إلا السني.

وقال حمدون القصَّار: لا تصاحب الأشرار؛ فإن ذلك يحرمكم الأخيار.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: لا تركنوا إلى نفوسكم؛ فإنها ظلمة.

وقال سهل: لا تجالسوا أهل البدع.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأنَّ من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإنْ كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوساوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشريات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: إنَّ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبِّين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جُعلت علامات الأذكار أوقاتًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالبٌ في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب.

قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي.

قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل.

قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالآمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة،وذلك موعظةٌ لمن يوفق له ويؤهل.

وقال يحيي بن معاذ: إنَّ الله لم يرض للمؤمن بالذنب حتى ستر، ولم يرض بالستر حتى غفر، ولم يرض بالغفران حتى بدل، ولم يرض بالتبدل حتى أجره عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

يقال: حسنات التوبة تذهب سيئات الزلة.

ويقال: حسنات العرفان يذهبن سيئات العصيان.

ويُقال: حسنات العناية تذهب سيئات الجناية، ولمَّا عظم شأن حفظ الأوقات، وأشكل رعاياتها على أهل المشاهدات والمجاهدات أمر بالصبر عليها بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ في دفع الخطرات المذمومة عن مزار المجاهدة وأنوار المكاشفة.

وأيضًا: واصبر تحت رجاء تجلِّي الكبرياء، فإني أجازي بإحسانك بذل وجودك بنعت طلب رؤيتي بكشف جمال بقائي حتى لا تفنى بنور كبريائي، وتبقى معي بنور بقائي.

قيل: اصبر على أداء الطاعات، وعن ارتكاب الجنايات، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن في آداب العبودية.

وقيل: اصبر على الذكر؛ فإن من ذكر الله على الحقيقة ذكره، كما قال ﷺ: «يقول الله: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي... » الحديث [1]، وأي أجر أعظم وأجل وأبقى من ذكر باق يكون ثواب ذكر باقٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾: القرى قلوب العارفين، وأهلها الأرواح القدسية الملكوتية، فإذا كانت الأرواح مخالفة لنفوسها الأمارات بألَّا تجليها في حواشي الأذكار والأفكار ينزل عليها عساكر أنوار تجلي القدس، وتكون قلوبها رياض الأنس، وإنَّ الله سبحانه لا يجليها على أيدي الخطرات والنفوس الأمَّارات، ولا يجري عليها أحكام القهريات، وينورها بأنوار المشاهدات والقربات.

وأيضًا: لا يهلك قلوب العارفين والمؤمنين والموقنين والمحبين ونفوسها مطمئنة بذكره.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: فإنْ خطر عليها خاطرٌ من قبل الهواجس والوسواس لا يحجب الحق أسرارها من جماله ومشاهدته بما خطر عليها من بعض الخواطر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] أي: بقليل ظلم أهل القرية، أي: بقليل من هواجس النفوس.

وأيضًا أي: بظلم منه تعالى على القلوب؛ فإنَّه منزَّهٌ عن الظلم، وكيف يكون منه الظلم على المقبلين وهو تعالى اصطفاهم في الأزل بصلاحية قبول معرفته؛ حيث عرفهم ذاته بكشف

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

صفاته إياهم، فبقيت تلك الصلاحية.

قال بعضهم: ما أخذ أحدًا إلا بجريرته، ومَنْ لزم الصلاح والطاعة وقاه الله الآفات ومكاره الدارين؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: الصلاح هو الرجوع إلى الله في كل نفس بالابتهال والتضرع.

قيل: في تفسير الطاهر وأهلها ينصف بعضهم بعضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي: على سبيل واحد من توحيده ومعرفته وقربته ومشاهدته، ولكن حكمته الأزلية وعلومه القدمية تفرِّقهم في طرق المعارف، وأعطي كل واحد منهم سبيلاً يسلك فيه من معرفة ذاته وصفاته جميعًا، فيسيرون إليه بسبيل الصفات وطريق الذات على حسب مذاقهم ومشاربهم، فبعضٌ في المعرفة، وبعضٌ في التوحيد، وبعضٌ في العشق، وبعضٌ في الشوق، وبعضٌ في الإرادة،، وبعضٌ في الحالات وبعضٌ في المعاملات، ولا يشبه حال المريدين حال المتوسطين، ولا حال المتوسطين حال العارفين، وحال العارفين حال الأنبياء والمرسلين، وتقدر علومهم ومعرفتهم، ولم يرتفع الاختلاف بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: مختلفين في الأحوال والمقامات والأفعال والأقوال، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ويبلغه إلى مقام الغيبة عنه من وله في أنوار القدم، وفنائه في سطوات الأزل، وأيضًا: إلا من يبلغه مقام الصحو والتمكين حتى يطلع على الكل، فلا تخالفهم فيما هم فيه؛ لأنه في مقام الاتصاف ونعت التمكين خارجًا عن التلوين.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: طباعهم مجبولةٌ باختلاف ترقي المقامات ودرجات الحالات، وهذه سنة الله جرت في الجميع، قال تعالى: ﴿كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، ويمكن أن الجميع خلقهم للمخالفة في البدايات، وللموافقة في النهايات في هذه المقامات وهذه الدرجات، ويمكن أن الجميع خُلقوا للرحمة، وهي الموافقة في النهاية بعد عبورهم على بحار الأحوال والأعمال، إذا وصلوا إلى بحار المشاهدة، فيفرقون فيها، ولا يُعرف هناك في تلك الساعة الوضيع من الشريف؛ لأنَّها منازل الشرفات وحقائق المدانات، وهو بجميعهم رءوفٌ رحيمٌ.

إذا طلـــعَ الـــصباحُ لـــنجمِ راحٍ تـــساوى فـــيه ســـكرانٌ وصـــاحي

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ

وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قال الجنيد: خلقهم للاختلاف، ولو خلقهم للموافقة لما رجعوا عنه إلى سواه، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم فأيّدهم بأنوار الموافقة، فلزموا الشدَّة، ولا يلتفتوا إلى الأغيار.

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أنَّهم رزقهم الله فَهْمَ خطابه، فإنَّ الصادق العارف إذا وقع في بحر الأزل يرى عجائب كشوف الصفات وأنوار الذات سبحانه تعجَّب بشأنه، وظنَّ أن واقعته لم تقع على أحدٍ غيره، خاصةً في بداية حاله وبديع كشفه، فظنَّ أنه فريدٌ في حاله، فعرف الله سبحانه أحوال ما مضى على أوليائه ليعلم أن حاله لم يكن غريبًا، بل يكون معروفًا عند العارفين، ومعلومٌ عند الصدِّيقين، ومشروحًا عند المرسلين؛ ليفرح بسنة الله التي جرت باصطفائية أوليائه في أوليائه في الأزل، ولا يغيرها طوارق الحدثان.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾، والشيء إذا كان معروفًا عند العلماء والأولياء لا مدخل فيه للمعارضات والشبهات.

قال أبو بكر الكتَّاني: سألت الجنيد عن مجارات الحكايات؟ قال: هي جنود من جنود الله في أرضه يقوي بها أحوال المريدين؛ فقلت: أله أصلٌ في الكتاب؟ قال: قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكشف لك في هذه الخطابات على أثر كل خطاب جمال الحق سبحانه، وكشوف صفاتك على وفاق الخطاب، فحيث يخبر الخطاب عن الكبرياء ينكشف لك الكبرياء، وكذلك العظمة والجلال والعزة والقدم والبقاء، وإنْ أخبر عن الذات يكشف لك الذات صرفًا، فإذا كان ﷺ في منازل الابتداء يقويه الحق بذكر

(١) سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقَّاه إليه، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه، ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع، ولم يذكر قصَّته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع. تفسير القشيري (٣/ ٣٨٨).

أحوال من الأنبياء ليطيق أن يحمل بدائع الواردات العجيبات له، فإذا قوي بها يثبّته بكشف جماله وجلاله حتى يطيق أن يعبر على بحار نكرات القدم، ولا يتغير بطوارق المكربات والامتحانات.

ثم إنَّ الله سبحانه يقوي قلوب تابعيه من الأولياء والمؤمنين بما جرى عليه من أحكام الغيب وأنباء الأزلية، ليطيقوا أنْ يحملوا أثقال ما أوحي إليه، فثبَّت قلب النبي ﷺ بقصة الرسل، وما كشف لهم، وثبَّت قلوبهم الأمة بقصته وحاله، فما أشرف هذه الأمة، حيث هو ﷺ سبب تثبيت قلوبهم.

وتصديق ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: صورة القرآن موعظةٌ لأهل المعاملات وحقائقه بنصره لأهل المعاينات، يعرف الكل من بحار القرآن ما يوافق حاله وفهمه وإدراكه، فالعموم متعلقون بظاهره، والخصوص متعلقون بباطنه، وخصوص الخصوص في تجلي الحق فيه، وحقيقة القرآن هو الصفة الأزلية، فإذا انكشف القرآن بأصله فقد انكشف الحق فيه لمن خص بخصوصية الصفة، وأخبر بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- فقال: إنَّ الله يتجلى لعباده في القرآن.

قال أبو زيد: فوائد القرآن على حسب ما يؤهل له مستمعه، فمَنْ سمعه من أمثاله ففائدته فيه علم أحكامه، ومن سمعه كأنما سمعه من النبي ﷺ يقرأ على أمّته موعظته منه بيان معجزته، وانشراح صدره بلطائف خطابه، ومن سمعه من جبريل ﷺ كأنّما يقرأ إلى النبي ﷺ؛ فمشاهدته في ذلك مطالعات الغيوب والنظر إلى ما فيه من الموعود، ومن سمع الخطاب فيه من الحق فني تحته، ومحقت صفاته، وصار موصوفًا بصفات التحقيق يعني عن علم اليقين وعين اليقين، ويحصل في درجات حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: غيب السماوات الأرواح، وغيب الأرض القلوب، يعلم ما أودع الأرواح من علوم كنوز الذات، ويعلم ما أودع بابه عن أسرار الصفات.

وأيضًا: غيب السماوات ما في قلوب الملائكة من علوم المقادير التي تجري بنعوت القضاء والقدر على أفعال العباد، وغيب الأرض علوم معرفة ذاته وصفاته في قلوب الأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين.

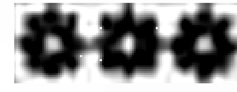
وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾، ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ هو الأرواح ترجع إليه على قدر مشاربها من عيون الصفات وأنوار الذات، ثم رغبة إلى عبوديته التي تورث الحرية، والحرية تورث التوحيد، والتوحيد يورث التجريد، والتجريد يورث التفريد، والتفريد يورث المحو في

الذات، والصحو في الصفات، فإذا قرر هذه المقامات يؤمنه من زوال الشرف، ومحو المحو عنه به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو حسبُك، ارجع من قهره إلى لطفه، ومنه إليه؛ ولذلك قال ﷺ: «أعوذُ بك منك»[1].

قال النهرجوري في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: لا يعملها إلا هو، ولا يطّلع عليه إلا الأمناء من عباده، وهم الذين يصلحون للقرب، والمجالسة، وحفظ الأسرار، والنظر إلى المغيبات، وهم الذين لم يبق عليهم منهم حظٌّ، ولا لهم فيهم مطالبةٌ، وكانوا بلا كون، وشهدوا بلا شهود، بل يكونون بالتكوين، ويشهدون بالأشهاد، فلا هم هم، ولا هم لا هم، فهم من حيث الوجود لا هم، من حيث الاتحاد هؤلاء أهل الغيب الذين غيبوا عنهم، فلا لهم في أنفسهم حظٌّ، ولا للخلق إليهم سبيلٌ؛ لأنهم أخرجوا عن حدود التفرقة إلى عين الجمع، فلا ثَمَّ كلامٌ، ولا عنه عبارةٌ بحال.

وقيل في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: مرجع الكل؛ لأنَّ منه مبدأ الكل.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾: أسقط عنك حظوظ نفسك، وقفْ مع الأمر بشرط الأدب والسنة، وتوكل عليه لا تهتم بما قد كفيته، واهتم بما نُدِبْتَ إليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كيف يغفل عنك من قدر عليك عملك، وما أنت لاقيه إلى آخر أنفاسك، والله أعلم.



سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: الألف إشارةٌ إلى أنانية التوحيد، واللام إشارةٌ إلى نكرة أهل التجريد، والراء إشارةٌ إلى ربانية أهل التفريد.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: مظنات الإشارات في الأحرف

(١) تقدم تخريجه.

الثلاث علامات المعارف، المعرفة في الصفات القديمة المبينة أنوارها في قلوب الصديقين، وآثارها في شواهد الملك والملكوت، وما ذكر في القرآن.

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: أوصاف ونعوت وأسماء وصفات مبينة أسرار الخطاب لأهل المكاشفات والمشاهدات من العارفين والمقربين، والحكمة في الخطاب بالحروف كتمان الأسرار عن الأغيار، وهي سنة الأحباب في رفع النقاب في الحجاب.

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلكم ... من جانب الغرب خوف القيل والقالِ

أقولُ بالخدِّ خال حين أذكره ... خوف الرقيب وما بالخد من خالِ

هذا سر الحبيب مع الحبيب، ولا يطَّلع عليه إلا من له شُرْبٌ من بحره، وسقي من نهره، وطلوعٌ من شرقه، وأفول في غربة؛ لأن بهذه الطائفة رموزٌ وإشاراتٌ لا يقف عليها إلا طيَّارٌ في الملكوت وسيَّارٌ في الجبروت.

قال الأستاذ: في إنزال هذه الحروف المقطعة إشارةٌ، وهو أنَّ من كان بعين الفضل والصحو استنبط من اللفظة اليسيرة كثيرًا من المعاني، ومن كان يشاهد الغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير.

وقال أيضًا: الإشارة من الكتاب المبين هاهنا إلى حكمة السابق له بأن برقية إلى الرتبة التي لم يبلغها غيره.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: إنَّ الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همَّته إتعاب قوسيينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلي صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلَّى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والوامقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان؛ لأنَّ امتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّ بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية.

بيَّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف ﷺ كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلَّى الحق منها للعباد.

وكيف لا يكون أحسن القصص؟! وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدٌّ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قال بعضهم: أعجب القصص، وفيه تعزيةٌ وسلوةٌ للنبي ﷺ لِمَا لقي من أهل بيته أنَّ يوسف لقي من إخوته أكثر مما لقي هو من أهل بيته، فلم يخرج عليهم بنفسه منتقمًا، بل رأى ذلك كله من موارد القضاء ومواجب القدر، فلما رجعوا إليه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، كيف يكون عليكم فيه غيبٌ وكنتم المجبورين عليه؛ وكبت المقصود به من حيث القضاء والقدر.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: اشتغل العوام لسماع القصص، واشتغل الخواص بالاعتبار فيه؛ لقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال بعضهم: هذا يدل على صدق أحوال المؤمنين، ومعاني صفة المتقين، وإلى حقائق صحبة المحبين، وصفاء سر العارفين، تنبيهًا على حسن عواقب الصابرين، وحثًّا على سلوك الصادقين، وبعثًا على سبيل المتوكلين، والاقتداء بزهد الزاهدين، ودلالة على الانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه عند نزول الشدائد، وكشفًا عن أحوال الخائبين، وقُبح طريق الكاذبين، وابتلاء الخواص بأنواع المحن والفتن، وكشف تلك المحن وعواقبها عن الإعزاز والإكرام، وتبديل تلك الشدة بالراحة، والبؤس بالنعمة، والعبودية بالملك، وفيه ما يدل على سياسة الملوك في مماليكهم وحفظ رعاياتهم وغير ذلك.

وقال الأستاذ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ لأنَّا نحن نقص عليك أحسن القصص، لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب إشغال القلب.

وقيل: أحسن القصص؛ لأنه غير مخلوق.

وقيل: لا فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

ولما كان يوسف ﷺ بتلك المثابة التي ذكرتها، وأنه كان مرآة حسن الحق، وأن حسنه تأثير معادن حسن الأزل، يخضع له الحدثان لما عليه من كسوة جمال الرحمن، أخبر عن رؤياه، وما رأى فيها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[1]: جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حرف: الياء، والواو،

(١) فائدة: والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية ، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من =

والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف ﷺ سمي يوسف ﷺ، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف ﷺ؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن.

جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثَّل عالم الملكوت بما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار.

وأيضًا: مثَّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف ﷺ: كان يوسف ﷺ آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية:

لو يسمعون كما سمعت حديثها خرُّوا لعزِّه رُكَّعًا وسُجَّدًا

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ: أن الخليل ﷺ رأى ذلك المعنى من جبين الشمس، وعارض القمر، ونور الكواكب، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾، وهذا عذرٌ للملائكة والأنبياء في سجودهم لآدم ﷺ ويوسف ﷺ؛ لأن هناك يتجلى الحق سبحانه من أجرام الفلك التي معادنها الأفعال، وهنا يتجلى الحق منها وهما من خصائص تجلي الصفات صادران، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: ألبس أنوار الهيبة على أجرام الفلك، فهاجت إليها سرائرهم، كما ألبس على طور أنوار الهيبة فهيج الله سرَّ موسى إليها، وألبس أنوار الجمال آدم ﷺ ويوسف ﷺ، فهاجرت إليه أسرار الملائكة والأنبياء، فيا ليت لو رأى الخليل يوسف ﷺ وآدم ﷺ لرأى فيها أكثر مما رأى في أجرام الفلك:

=

أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، المصادفة منها إنها يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. البحر المديد (٣/ ٨٨).

خليلي وعد أحسن الناس كلهم ويحسدها من حسن شمس والبدرُ

فيا ليت الجميع لو رأوا جمال سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه لهاموا في البوادي والقفار، وغرقوا في الفيافي والبحار، وتطير الملائكة من السماء؛ لأن نوره أنور، وشمسه أزهر، وبدره أشرق، نوره كان من معادن جمال القدم، وسراجه أسرج من سمة الكرم، وفيه نكتة عجيبة من حقائق التوحيد: أن مشار الخليل ما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ سجدت لبعض نبيه بيانًا لتنزيه جلال الكبرياء، وتنزيه ساحة العزة والبقاء عن الأضداد والأنداد، رأى الخليل ﷺ هذا المعنى بنور النبوة، فقال: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وفيه أدب المريد أن المكاشفة تذكر عند أستاذه ليفرق بين الكشف والخيال.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝ ۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝﴾.

قال بعضهم: أعجبه حسن رؤياه حتى قصَّها على أبيه، فكأنه فيه أول بلية ومحنة إلى أن بلغ إلى تحقيق ما رأى، فلمَّا رأى يعقوب أسرار الرؤيا وتأويلها خاف على ابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، وهكذا شأن أهل قصة المعرفة، لا يجوز للمريد أن يفتق سر المكاشفة إلا عند أستاذه، والأنفع في بحر الحجاب، ومحن الدعاوى، ويكون مرتهنًا بعيون الغيرة، كان يعقوب ﷺ في ذلك الوقت في رؤية العلم من رؤية ما جرى في الأزل فدبَّر وقاية ابنه بحسن التدبير قوة من صورة التدبير إلى عين التقدير.

قال بعضهم: إنَّ يعقوب ﷺ دبَّر ليوسف ﷺ في ذلك الوقت خونًا عليه أن يقع من إخوته في شيء، فوكل إلى تدبيره، ووقع به ما وقع، ولو ترك التدبير ورجع إلى التسليم لحفظ، ولما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾، ولما قال: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾، وقال: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾: أراه الله فيه ما كان يخافه عليه؛ لذلك قيل: إن التفويض والتسليم خيرٌ من ملازمة التدبير، ولَّما وصاه وقال: لا تقصص الرؤيا عرَّفه اختصاصه في الرسالة والنبوة والحسن والجمال والخلق والخُلق بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: اجتباه بأن كساه من نوره نور الجمال، وربَّاه بمفرح الكمال، ورزقه الرسالة والكشف وعلوم المدينة الإلهية التي قال:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، وتمام نعمته عليه أن بلغ إلى مقام التمكين، ورؤية التحقيق، وفاز من التلوين، وذاق طعم الاستقامة، وبلغ أشده إلى ما بلغ الذبيح والخليل، وخروجه من درك امتحان العشق بنعت القدس والجارة، كما كان وصف الأنبياء والصديقين.

قال ابن هند: اجتباه ما منحه به من حسن الخلق، ولطيف الصحبة مع أوليائه وأعدائه، وترك الانتقام لنفسه بحال.

وقال بعضهم: اجتباك ربك فصرف عنك كيدهن، ولولا اجتباه لورد عليك منهن ما ورد.

قال يحيى بن معاذ: من تمام نعمة الله على يوسف أن جعله منعمًا على إخوانه، واضطرهم إلى الخضوع له والتذلل بين يديه بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

وقال سهل: ويتم نعمته عليك بتصديق الرؤيا التي رأيتها لك.

وقال بعضهم: ويتم نعمته عليك في أن عصمك عن ارتكاب ما لا يليق بك ولآبائك.

وقال الأستاذ: من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة أن يصونك عن شهود النعمة برؤية المنعم، فلما أعظم شأن يوسف في حسنه وجماله، وقدسه وطهارته وظرافته مع إخوانه في احتمال البلاء منهم، وترك الانتقام منهم لنفسه عظم الله ذلك.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته: وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

قال حمدون القصَّار: للخلق في يوسف ﷺ آيات، وله في نفسه آية، وهو أعظم الآيات، وهو معرفته بمكر النفس وغدرها، قال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

وقال بعضهم: إنَّ من الآيات التي في يوسف أنه حجةٌ على كل من حسَّن الله خلقه ونعوته ألا يدنسه بمعصية.

قال ابن عطاء: آياته ألا يسمع قصته محزون إلا استراح إليه، وأخرج منه ما فيه راحة لما هو فيه.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

﴿٩﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾: بيَّن الله سبحانه محل امتحانه بأن لم ينجو منه أحدٌ حتى الأنبياء لئلا يأمن من مكره فإنَّ كيده متين، وهم في ذلك ما بلغوا مقام النبوة، ولكن عجبت من شأن قهر الله سبحانه، كيف غيَّر فطرة المعروفين في ديوان الأزل بالولاية والرسالة حتى يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وذلك منه تعالى عذرٌ للمذنبين جميعًا، وبيَّن أن مكان الصدق يخطر عليه آفاق النفس والحسد والخدعة، بقوله: ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾، وهم كانوا يعرفون موضع الخطأ في نفوسهم من إضمار إيذاء يوسف ﷺ، سبحان من حجبهم من نفسه وكدَّر عليهم مشارب الصفاء والمودة، وحجبهم عن العلم بفراسة أبيهم؛ حيث عرَّفه الله مكائد نفوسهم!.

قال بعضهم: لمْ يكن يأمنهم عليه؛ لما كان يرى من فراسة النبوة في شواهدهم من إضمار الحسد والبغضاء.

قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[1]: إمهال يعقوب بنيه، وتركه دفع لعبهم، بأنه رأى لطافة خاطر يوسف ﷺ ومواصلة حزن النبوة في قلبه، وتأثير برحاء القبض

---

(١) أي: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونحوهما مما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار وإنما سموه لعبا لأنه في صورته وأيضا لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر، تفسير حقي (٦/ ٥٣).

في صدره، فأذن لهم بذلك؛ ليخرج يوسف عليه السلام لحظة من تحت أثقال هموم المعرفة، وتواتر تراكم حزن المحبة، ومواجيد القربة، ويستروح ساعة برؤية الآلاء والنعماء، فسامحهم بذلك، ليس أنه غافل عن تأديبهم، وزجرهم عن اللهو واللعب، ورأى ما في ضمائرهم من لطيف المكر، وعلم أنه موضع البلاء، فجعل المعول عليهم وسبق التقدير على التدبير، وحجب غيرة الله بينه وبين يوسف عليه السلام.

قال محمد بن علي الترمذي: لما لم يزجرهم عن اللعب وسكت عنهم جاء من ذلك اللعب ما اتصل عليه به الحزن.

قال ابن عطاء : لو أرسله معهم وسلمه إلى القضاء لحفظ، لكنه اعتمد على حفظهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، فخانوه، لو ترك تدبيره عليه وحفظهم له لكان محفوظًا كما حفظ الآخرين، قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾.

قال بعضهم: رجع يعقوب إلى نفسه في ثلاث مواطن فابتلي فيها: قال ليوسف عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ فكادوا له، ولما قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فقالوا: أكله الذئب، ولمَّا قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، أصابهم في ذلك ما حذر عليهم منه.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾: صدق يعقوب خاف من ذئب حسدهم؛ وبرؤيته في ذلك حقيقة، وكل ما رأى يعقوب من هذه الواقعات فقوله فيها وقوع نظر سره على سابق التقدير، وكل ما قال لبنيه من الزجر والنصيحة في حق يوسف عليه السلام مما رأى بنور النبوة ما يقع في المستقبلات من الواقعات، وذلك غير مناقض لحقيقة التوحيد، وكيف يكون استعمال معاملات العقل وعادة البشرية حجاب الأنبياء والصدِّيقين من رؤيتهم حقائق التقدير، وهم يعلمون أن من العرش إلى الثرى من الحريات والسكنات عاجزة بين حرفي الكاف والنون.

وأيضًا: أخاف من ذئب التقدير أن يفرِّق بيني وبين ابني وأنتم عما أراه غافلون، رأى غيرة الحق عليه حتى لا ينظر إلى الوسائط في شهود حقيقته، وتصديق ذلك أن الذئب لم يأكل يوسف، فعلمنا أن الذئب ذئب الحسد، وكيف كانت فراسة خطأ، ورأى بنور فراسة ما كان يجري على يوسف إلى آخر عمره ووُفق في متابعة مراد الله؛ لأنه أراد أن يفرق بينه وبين يوسف عليه السلام أريد وصالي ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد.

قال أبو علي الجوزجاني: خاف الذئب فسلط عليه، ولو خاف الله لمنع عنه كيد الإخوة.

وقال الجنيد: ما أوقعهم في الحسد إلا ما أظهر من شفقته عليه بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: لَمَّا رأى يعقوب أن حبال التقدير لا تضر وأن تواتر البلاء لا ينقطع وأنَّ عساكر الغيرة لا تمتنع أرسله معهم، وذهب مع سيول بحر القهريات مريد المرادة، وكيف تدفع تقدير الأزل قوة العصبة وعلة التدبير، وربما نفي نظر التوحيد في بعض الوسائط في بعض الأوقات، فقطع الله ذلك حتى لا يستمسك غريق بحر المعرفة من قبلهم، فالقوة في الجُب، ثم لما أرسل بنيامين قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾: حفظه وردَّه إلى يوسف ﷺ، وردَّهم جميعًا إلى يعقوب، كذا حال من اعتمد على ربِّه، ومن اعتمد على غيره.

ولما وقع يوسف ﷺ في بحر الامتحان، وعجز في أيدي الأخوان، وذاق طعم جفائهم، رفع عروس الغيب رأسه عن بحر البلاء لتسلية قلب يوسف ﷺ بالولاء بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لتنبئنَّهم بأنباء الأزلية، ومناطق الربوبية بلسان النبوة ما غاب عنهم، وما علموا وفعلوا وصنعوا حين نبلغك إلى رتبة الأعلى من النبوة والرسالة والتمكين والاستقامة، وهكذا كمال تسلية الله سبحانه صديقه في ابتلائه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لما حلَّت به البلوى عجَّلنا له تعريف ما ذكر من البشرى ليكون محمولاً بالتعريف في عين ما هو محتمل له من البلاء العنيف.

ويُقال: إنْ انقطع عن يوسف ﷺ مراعاة أبيه إياه حصل له الوحي من قبل مولاه.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾: سرُّ هذه الآية أن طبيعة البشر إذا ظفرت بمرادها رقَّت، فإذا دُعيت بالبكاء أجابت، ولكن لا يكون بكاءها إلا من فرح الخداع وحب الجاه والرياسة، وإنَّ ذلك البكاء أكثره تباكيًا، بكوا بغير عبرة ولا بقلق وحزن من أسف، ولا بزفرة جاءوا عشاءً حتى لا يتبين تباكيهم من بكائهم، وليرتفع من بينهم وبين أبيهم سجون الاحتشام:

إذا اشـــتبكت دمـــوعٌ في خـــدود   تبـــيَّن مـــن بكـــى ممـــن تباكـــى

قيل: أخروا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة ليدنسوا على أبيهم.

وقيل: ليكونوا إجراء في الظلمة على الاعتذار، وترويح ما مكروا.

قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: فتح الله سبحانه ثوب رزق الرازقين في هذه الآية، الذين زينوه بالرزق والسود، وادَّعوا صدق المقامات والكرامات، وإنَّ دم الكذب إشارةٌ إلى من يدعي جراحة المحبة على

قلبه، ودم القلب من ذبح الله إياه بسيف محبته، وليس كذلك، فإنَّ دم المقتولين بسيف المحبة دم صدق بصدق صاحبه في عيون الصادقين.

قال ﷺ: «المتشبِّعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زُورٍ، ومَنْ كذب وقع كذبُه في قلوب العوام»[1].

والعجب أن ما يطَّلع عليه العوام كيف لا تطَّلع عليه قلوب الأنبياء والصدِّيقين، هاجت طبيعتهم بسر الحسد، فيتولد منه الكذبات والجنايات؛ لأن مثل الحسد كالنار المخفية في الزبد، فإذا خرجت يحترق العالم بها.

قال الحسين بن الفضل: لما كذبوا في إجداء الأمر بقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ رجعوا في آخر الحال عند الاعتذار إلى الكذب حين قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ بيَّن الله سبحانه بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ فراسة يعقوب ﷺ، واطلاعه على أسرارهم في المكر، وعرفهم سر مكائد نفوسهم ولم يعرفوها، والأنفس هاهنا أسرار تقدير قهر الأزل؛ أي أنتم مخدوعون بخداعكم، وأنا لا أرى في البين غير سابق التقدير، فألبس سربال الصبر الجميل في مراد الجليل، والصبر الجميل ما يصبر به صاحبه بالله لا بنفسه بنعت شهود سره مشاهدة المقدر والمبتلي في بلائه تقديره.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وتحقيق هذا الصبر سكون القلب بما يجري عليه الرب سبحانه بنعت ذوقه صفاء الذكر، وإدراك رؤية المذكور، وتحقيق ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: استعانتي في بلائه وصبري به لا بغيره.

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عبراتٌ خططنَ في الخدِّ سطرًا ... فقراء من لم يحسن يقرأ صابر الصبرَ

فاستغاث به الصبر ... فصاح المحبُّ بالصبر صبرًا

قال الحسين: الصبر الجميل السكون إلى موارد القضاء سرًّا وعلنًا.

وقال أيضًا: الصبر الجميل تلقي المحنة بمشاهدة المنَّة.

قال الحكيم الترمذي: الصبر الجميل أن يلقي العبد عنانه إلى مولاه ويسلِّم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاءه حكمٌ من أحكامه ثبت له مسلِّمًا بوارد الحكم، ولا يظهر بورود حكمه جزعًا بحال.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٠١)، ومسلم (٣/ ١٦٨١).

قال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشرٍ.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾: فلما خرجت الأرواح من أماكن العدم وطارت في هواء القدرة وطلبت أنوار موارد القدم فوجدت قاموس الكبرياء، فأدلت دلاء الهمم فيها، فانكشف لها من مطالع الأزل شموس المشاهدة وأقمار العزة، فلما ظفرت بموارد الحقيقة صاحت بصياح العشق وقالت: يا بشرى، هذا شاهد القدم وعروس الأزل، فوجدت شاهدها، وفرحت بمشاهدته، وطارت سكرانة في هواء آزاله وآباده من الفرح ببقاء؛ لأنها وجدت بضاعة المعارف وريح الكواشف.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾: جعلت أنوار جلاله في صميم أسرارها، وسترها عن الأغيار، وجعلها بضاعة التوحيد والمعرفة والمحبة؛ ليربح بها مداناة الوصال والاستئناس بالجمال، يا ليت لسيادة يوسف ﷺ لو عرفت ما في وجه يوسف ﷺ من تلألؤ أنوار حسن الأزل لسجدت له، كما سجدت الملائكة لأنه كالعبودية، ولكن للعشق والمحبة؛ لأنه شاهد الله في شاهد الله.

قال جعفر: كان لله تعالى في يوسف ﷺ سرٌّ، فغطى عليهم موضع سرِّه، ولو كشف لهم عن حقيقة ما أودع فيه لماتوا، ألا تراهم كيف قالوا: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾، ولو علموا آثار القدرة فيه لقالوا: هذا نبيٌّ وصدِّيقٌ[1].

ولما كشف للنسوة بعض الأمر: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾، ولما لم يعرفوه بخاصية النبوة والولاية، ولم يروا عليه آثار جمال الله سبحانه باعوه بثمن بخس؛ لجهلهم به وبما فيه من ودائع كنوز القدرة وأنوار المشاهدة، والعلوم اللدنية الغيبية بقوله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾.

ولو كان فيهم ما كان في يعقوب ﷺ من عشق الله ومحبته، وما رأى في مرآة وجهه من أنوار قدرة الباري سبحانه، ما باعوه بالكونين والعالمين؛ لأن ما في وجه يوسف ﷺ من جمال الظاهر لم يكن في الكونين إلا في أمثاله من الأنبياء والصدِّيقين، وجمال ظاهره كان من جمال

---

(١) نادى البشرى، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعالَ هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه. البحر المديد - (٣/ ٩٧).

باطنه، ولو اطَّلعوا على جمال باطنه لوقعوا بين يديه صرعى من سكر محبته، ولرأوا عجائب الملكوت والجبروت في ظاهره وباطنه.

قال جعفر: باعوا بالبخس من الثمن؛ لجهلهم بما أودع الله فيه من لطائف العلوم وبدائع الآيات.

قال ابن عطاء: ليس ما باع إخوة يوسف ﷺ من نفس لا تقع عليها البيع بأعجب من بيعك نفسك بأدنى شهوة، بعد أن بعتها من ربك بأوفر الثمن، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فبيع ما قد تقدَّم بيعه باطل، وإنَّما باع يوسف أعداؤه الذين كانوا يعادونه، وأنت تبيع نفسك من أعدائك، وهي شهواتك وهواك، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

وقال الجنيد: إنَّما باعوه بذلك الثمن؛ حيث لم يتفرسوا فيه ما كان به؛ لأنه لم يكن وضع لهم في جنبه حظٌّ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى الذي اشتراه لمَّا كان له في يوسف ﷺ حظٌّ كيف قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فصدقت فيه فراسته، ونال به الهداية.

وقال ابن عطاء: لو جعلوا ثمنه الكونين لكان بخسًا في مشاهدته، وما خُصَّ به.

قال الجنيد: كل ما وقع تحت العدد والإحصاء فهو بخسٌ، ولو كان الكونين فلا يكن حظك البخس، وهو كل شيء دونه، ولمَّا لم يعرفوا مكانته، وباعوه اشتراه من رآه بعين الحقيقة وأعد مبوأ جلاله وقدره في أخص موضع في العالم، وهو مكان المحبة والعشق بقوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ اشتراه بالدنيا للآخرة معرفةً بجلالة وجماله، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أي: لا تنظري إليه بنظر الشهوة، فإن وجهه مرآة تجلي الحق في العالم، وأين طور سيناء في مكانته من وجه يوسف ﷺ، وتجلِّي الحق من طور سيناء المولى، وتجلِّي الحق من وجه آدم للملائكة، وتجلِّي الحق من وجه يوسف ﷺ لأجرام الملكوت، وسلاطين معارف الجبروت، وليعقوب ﷺ وأمثاله من أنظار الغيب.

ألا ترى كيف قال: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، وأيضًا: أكرمي تقواه بتقواك، وأيضًا: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ فإنَّه بهديه أمر

الفعل في مجمع عين الجمع، لا تنظري إليه بعين العبودية، ولكن انظري إليه بنظر المعرفة؛ لتري فيه أنوار الربوبية، وأيضًا: ﴿أَكْرِمِي﴾: اجعلي محبته في قلبك لا في نفسك، فإن القلب موضع المعرفة والطاعة، والنفس موضع الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: أن يعرِّفنا منازل الصدِّيقين، ومراتب الروحانيين، ويبلِّغنا بركة صحبته إلى مشاهدة رب العالمين.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾: أحسني صحبته في الدنيا؛ لعله أن يكون لنا شفيعًا في الآخرة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾: لما نظر إلى يوسف ﷺ، وركزَّ بقلبه إليه صار يوسف ﷺ محنة عليه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

قالت له امرأته: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه وصف ما وهب إلى يوسف ﷺ من أحكام الغيب، ورؤية كشوفات الملكوت، وتمكينه في المعرفة والنبوة والرسالة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾: مكنَّاه صبرًا عظيمًا في تمكين المعرفة، وحمل وارد مشاهدة

الغيب، وسكناه من فوران الأحوال، وتغاير التلوين، وبلَّغناه حقائق الصحو؛ ليكون كهفًا لغرباء المعرفة، والمسترشدين من أهل المحبة، وليعرفه بعد تمكينه حقائق المكاشفات، وتأويل لطائف المنامات، وما يبرز من الملكوت في اللبس المجهولة من تصرف الملائكة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: إنْ كان إنهاء راجعه إلى يوسف ﷺ، هو تعالى المتولي على أمر يوسف ﷺ؛ بأن خلَّصه من مكان الامتحان، وبلَّغه إلى درجة الرضوان، وبأن نجاه من فتنة الطغيان، وورطة الحرمان؛ بأن كشف له البرهان والسلطان حين مكر به الشيطان، خلصه من كيد الحساد، وجعله قبلة الأوتاد، والله غالب على أمره حين دبَّر يعقوب ﷺ في حقه ما دبَّر؛ ليعرفه غلبة سلطان قهره واستيلاء تقديره على تدبيره غالب على أمر يوسف ﷺ؛ حين برَّأه من آفة شهوة زليخا حين همَّت به وهمَّ بها، قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

وأيضًا: والله غالب على أمره على أمر عشقه، وعشق زليخا؛ لأنَّ مكان العشق ممزوجٌ بطباع الإنسانية، وإن كان صرف العشق من زند نعوت عشق الأزل، فكشف له سلطنة الكبرياء، وخلَّصه بالكبرياء من مقام العشق الممزوج بطبع البشر؛ كأنه غلَّب الصفة على الصفة، وإن كان الهاء راجعًا إلى الله سبحانه.

فيه إشارةٌ لطيفةٌ: إنَّ أمره من عالم الفعل، والأحكام والرسوم الشريعة والطريقة، والعقول مكلفة به، أمر رسمًا وغلب قهرًا أمر بالشريعة، وغلب مقادير الأزلية أمرًا أمرًا، وغلب على أمره بنسخه وتبديله أمر يوسف ﷺ بالتبرؤ من الأغيار، وبألا يلتفت إلى الحدثان في مكان العرفان، لكن غلب جلال قدره، وانكشف ليوسف ﷺ في رجه زليخا، فأظهر القدس، وجرَّه بالقدس إلى الهمة؛ ليذيقه حلاوة عشق الإنسان؛ ليفوز به عشق الرباني، ومن هناك رقاه إلى مدارج ملك الآزال والآباد، ومن لم تكن بدايته عشقًا كان من المجاهدين لا من العارفين، لا بأن العشاق طاروا إلى جناب مشاهدة الحق، وإنَّ العشق مركب عشقه، والعشق من عشقه صدر؛ لأنه كان عاشقًا في الأزل، وعشقه معادن جميع عشق العشاق.

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]: كما أنَّ حسن يوسف وزليخا وجميع الحسن في العالم انشعب من حسنه وجلاله وجماله، كأنَّ عشقه غلب على أمر العبودية؛ لأن العشق صفة الربوبية، ولم يكن عجبًا غلبة الربوبية على العبودية.

وأيضًا: ما دام الأمر خارجًا عن أماكن الأفعال وصار صرف الصفات فهو غالبٌ على جميع الحدثان، وتدبير أهل العرفان؛ لأنّه واحدٌ في ملكه، أحدٌ في ملكوته، والكائنات خاضعةٌ فانيةٌ لجبروته.

وما ذكرنا من هذه المعاني الغريبة والتفاسير العجيبة من حقائق أمر الإلوهية لا يعرفها إلا أبناء المعرفة ونظَّار المشاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون مواضع تقدير الأزلية؛ حيث دبَّر أمور الحدثان من العرش إلى الثرى، وكيف يطَّلع الحدثان على قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: غالبٌ على أمر نفسه، أجراه على ما شاء إلى مَنْ شاء، وصرفه عمَّن شاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه الغالب في أمره الذي أمر عباده من طاعتهم، إنْ شاء يسَّر لهم من طاعته، وإن شاء أعجزهم فيها.

قال الواسطي: يصرفهم في تدبيره ويدبِّرهم في تصريفهم، ويجد منهم المفقود، ويفقد منهم الموجود، فالإضافات ضربٌ من الإشراك.

ثم وصف الله سبحانه بلوغ يوسف أشد النبوة والولاية والتأييد الأزلية، وما وهبه من أنوار العلوم والحكمة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾: تمكينه واستقامته في المعاملات والحالات ومراتب الآداب في العبودية كشف له تصرفات الربوبية في معادن المكاشفة.

﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: حكمًا بالعبودية، وعلمًا بالربوبية، حكمًا بالطريقة، وعلمًا بالحقيقة، حكمًا بممالك الدنيا، وعلمًا بممالك الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: نجازي المحسنين الذين راقبوا الله سرًّا وعلانية، وبذلوا مهجتهم بالله وفي الله إلى الأبد.

قال النصرآبادي في هذه الآية: لما عقل عن الله أوامره ونواهيه والاستقامة معه على شروط الأدب أعطيناه حكمًا على الغيب في تعبير الرؤيا، وعلمًا بنفسه في مخالفة هواها.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: كانت مستغرقة في العشق الروحاني فغلبت عليها شهوة العشق، فراودته، وذلك أن رعونة سر الطبيعة صارت منجذبة برقة عشق الروحاني إلى معدنه فغلظت وصارت محجوبة بالطبيعة من الحقيقة.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: لَّما كان عشق يوسف ﷺ في قلبها، وصورته مصورة في خيالها لا يحتاج إلى غلق الأبواب، فإن قيد همتها حكمة همَّت يوسف حين همَّت به وهمَّ بها أغلقت أبواب أسرار عشقها على يوسف، فصارت فاشية بأن العشق لا يُبْقِي الكتمان:

أَلا فَاسقِني خَمرًا وَقُل لي هِيَ الخَمرُ   وَلا تَسقِني سِرًّا إِذا أَمكَنَ الجَهرُ

فَبُحْ بِاسمِ مَن تَهوى وَدَعْني مِنَ الكُنى فَلا خَيرَ في اللَّذَّاتِ مِن دونِها سِترُ

وأيضًا: غارت على يوسف حتى لا يرى أحدٌ أسرارهما، فغلقت الأبواب، كذا ينبغي للعاشق.

قال الشبلي في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[1]: قطعت الأسباب وجمعت الهِمَّة عليه، ثم غلب على يوسف عليه السلام قدس النبوة فامتنع من مراودتها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي: ربي سبحانه وتعالى أحسن مثواي في الاصطفائية الأزلية، واختارني بالرسالة والنبوة، وعلمني من تأويل الأحاديث، وألبسني لباس حاله الذي هو يوجب أن ينظر إليها بنعت الهيبة والإجلال، هذا سيد السادات، وسيد الظاهر، أحسن مثواي؛ بأن اختارني لآخرته لا لدنياه، وأحسن مثواه في قلبك بنعت محبة الله، فلا ينبغي لك أن تنظر إلا بمحبة الله.

قيل: لما نظر في ترك المعصية إلى صاحبه وولي نعمته الأدنى، ولم ينظر إلى ربه وولي نعمته الأعلى، عوقب بالهم حتى قال: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال بعضهم: برؤية الهمة امتنع من الفتنة.

قال الأستاذ: إنه أكرمني مولاي تعالى؛ حيث خلقني من الحب، وجعل في قلب العزيز لي محلاً، فقال لي: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، فقال: لا ينبغي أن أقْدِم على عصيانه، وقد أفردني بجميل إحسانه.

ثم أخبر سبحانه عن جذب مغناطيس الهم بعضها بعضًا من سر حقيقة العشق الإلهي والروحاني والإنساني والطبيعي والفطري والجوهري، التي معادنها من عالم الربوبية أفعالاً وصفاتًا وذاتًا بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن هِمَّة زليخا سبقت على هِمَّة يوسف عليه السلام، وحسن يوسف عليه السلام سبق بجذب قلب زليخا وهِمَّتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمَّا هاجت هِمَّة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف عليه السلام هاجت أيضًا همة يوسف عليه السلام إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجوهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة،

---

(١) هي أبواب أركان الشريعة يعنى إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهواتها وحظوظها غلقت عليه أبواب الشريعة التى تدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات الألطاف والعناية، تفسير حقي (٦/ ص ٧٨).

والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحدٍ.

كما قال الشاعر:

والعــينِ كالغُــصنينِ شــقَّهُما الهــوَى　　فــرُوحَاهُما روحٌ وقلــبَاهُمَا قَلْــبُ

فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتهما همة، وسرهما سرًا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة ، إذا تجلى من فِعله لفِعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدَّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف ﷺ في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

تصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، ظهور البرهان ليوسف ﷺ ظهور صرف ذات القديم المنزه عن علة الحلول، ومباشرة الحدوث، وذلك الظهور يوجب إفراد القدم عن الحدوث، وصرف التجريد والتوحيد والتفريد والخروج من محل الالتباس.

وقوله كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: إن وضع سمات الفحش والسوء على أسرار تآلف الأرواح والأشباح وحركات بعضها إلى بعض بنعت المحبة والألفة والمودة والهوى والشهوة، إنها عالم الامتحان والأمر والتكليف والعبودية ومخالفة الأمر سوء وفحشاء من حيث العلم والعقل، وفي الحقيقة ليس هناك علة الفحش والسوء؛ لأنها مواضع المقادير الأزلية.

وأيضًا: إذا بقي العارف في الترقي والوسائط والالتباس عن توحيد الصرف بقي في الحجاب عن رؤية كنه القدم وقدس الأزل، وذلك الاحتجاب سوءٌ وفحشاءُ، وأي سوءٍ وفُحشٍ أعظم من الوقفة في بعض الطريق والانقطاع عن الوصول إلى الكل وأصل الأصل، وإذا كانت معالي هيبته العلية علت على جميع المقامات وبلغت إلى رؤية الذات والصفات بنعت الفناء والبقاء، ذكر سبحانه امتنانه عليه بعد وصفه بتقديس إخلاصه.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: من أهل الكمال من الموحدين والنبيين والمرسلين.

قال ابن عطاء: همَّت به همَّ شهوةٍ، وهمَّ بها همَّ موعظةٍ بزجرها عما همَّت به، وقال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، قال: واعظًا من قلبه، وهو واعظًا الله في قنب كل عبدٍ.

وقال أيضا: همَّت به وهمَّ بها، احتالت زليخا أن تري نفسها ليوسف، فحجب الله نفسها عن يوسف بالبرهان العالي والحق الظاهر، حتى لم يشهد في وقت ذلك غير الحق، وقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: نظر إليها لولا ما صدَّه عن ذلك من حجاب البرهان.

وقال الجنيد: يحرك طبع البشرية من يوسف ﷺ، ولم يعاونه طبع العادة، والعبد في تحريك الخلقة فيه غير مذمومٍ، وفي هيجان الشهوة مذمومٌ، وفي مقاربة المعصية ملومٌ، وذكر الله تعالى عن يوسف ﷺ همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة.

وقال ابن عطاء: قالت زليخا ليوسف ﷺ: اصبر عليَّ ساعة حتى أعود إليك، فقال: ما تفعلي؟ فقالت: أغطي وجه الصنم؛ فإني أستحيي منه، فتذكَّر يوسف عند ذلك اطِّلاع ربه عليه، فهرب منها، فذلك البرهان.

قال أيضًا: السوء الخواطر الرؤية، والفحشاء بالأركان.

قال محمد بن الفضل: السوء بالتفكر، والفحشاء بالمباشرة.

قال أبو عثمان: لنصرف عنه سوء الهم وفحشاء المواقعة.

قال الجنيد: أول ما يبدأ من الإخلاص في أحوال الأولياء خلو من سرائرهم وهممهم وإرادتهم، ثم خلوص أفعالهم، فمن لم يخلص سره لا ينال الصفاء في فعله، فلما رأى ما رأى

يوسف ﷺ لم يبق في نفسه من شهوة الإنساني أثرٌ من استيلاء أنوار التوحيد، وفرَّ من موضع الخطر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: لما بدأ ليوسف أوائل سطوات الأزل وأنوار كشف تجلي الأبد لم يحتمل أوائلها؛ وعجَّل سرَّه في أول بديهة التوحيد، فرَّ من أماكن الخطر، ولو صبر حتى غاص في بحر الوحدانية لم يحتج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكن في رؤية الحق وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتذوب زليخا بنظره إليها، والتقديس من شهواتها؛ لأن حقيقة التوحيد إذا غلبت نادت إلى فناء ما دون الله، وتأثر في كل ناظر إلى صاحبها بألَّا يبقى فيه أثر للشهوة الإنسانية، ولَمَّا لم يكن كذلك ما أثَّر في زليخا حتى عدت خلفه إلى الباب وقدَّت قميصه، ولو كان يوسف مستغرقًا في أواخر التوحيد لاحترقت زليخا، وما قدرت أن تعدو خلفه، وتمزَّق قميصه، كان يوسف في أوائل التوحيد، وزليخا في أواخر العشق، فلم يؤثر التوحيد في العشق، وتخريقها ثوب يوسف من غلبة عشق الإنساني على عشق الروحاني، ولَمَّا خرقت قميصه من عشق الإنساني، صار تخريق القميص برهانًا ليوسف ﷺ شاهدًا على صدقه.

قال بعضهم: لو فرَّ إلى الله والتجأ إليه لكفى، لكنه لما هرب منها وفرَّ بنفسه أكمل نفسه محل التهمة حتى قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، فلما نصَّب الله البرهان وطرد الشيطان ندخل عليها زوج زليخا ورأى حالها العيان.

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: أضاف اسم السيد إلى زليخا؛ لأن الله سيد يوسف ﷺ حقيقةً؛ لأنَّه كان حرًّا بالتوحيد وحرًّا بالتفريد، وكذا على ظاهر الشريعة، وما أطيب العشق إلى أن يؤول إلى الشفاعة! فإن عيش العاشق في الملامة أطيب.

قيل في قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: لم تقل: سيدهما؛ لأن يوسف ﷺ كان في الحقيقة حرًّا، ولم يكن العزيز له سيدًا، فلمَّا أفشى سر العشق بينهما وأطلع زوجها على سرها نفت عن نفسها الحرام؛ لأنها علمت أن لو بيَّن جرمها عند زوجها لقتلها وأوقعت من حلاوة ومحبة يوسف والنظر إلى وجهه، كذلك أوقعت ا لحرام على يوسف ﷺ:

لحـبِّك أحببـتُ الـبقاءَ لمهجتـي ... فـإن طـال أن أعرضت عني بقاؤها

ولعلمها بـأن يوسف ﷺ لم يبق في الضر والبؤس والمؤاخذة، ولا يقدر أحدٌ أن يؤذيه، ومنْ يقدر أن يضره ووجهه سالب القلوب وجالب الأرواح، أغاب العالم بعينيه، سبى الأرواح والأشباح بحسنه وجماله. وتسبي العالمين بمقلتيها

لهـــا في طـــرفها لحظـــاتُ ســـحرٍ ... تُمِـــيت بهـــا وتُحيـــى مَـــنْ تـــريدُ

وتسبـــي العـــالمــين بمقـلـتيهــا

وتعلَّلت في كلامها حيث قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1]، ذكرت حديث السجن، ثم ذكرت العذاب الأليم نفيًا للتهمة عن نفسها؛ حتى لا يعرف زوجها شأنها وعلتها وحيلتها.

وأيضًا ذكر السجن والتأديب والتعذيب لئلا يبادر بشيء آخر أو يوهم بقتل يوسف ﷺ، كانت زليخا متمكنةً في عشق يوسف ﷺ، فتصرفت في حالها بنعت الاستقامة، ولو كانت في فوز عشقها ما أوقعت الجرم على يوسف ﷺ؛ لأن المهتدي لم يعرف في بدايته ما للأشياء ولم يبال بها، فحكم بحكم الوقت، ولم يبال بقتل نفسه وقوف معشوقه عنه، حتى أن لو كان الجرم لمعشوقه لأوقع على نفسه.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ

(١) قال ابن عجيبة: قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها.

رَبِّهِۦ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ
أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ
وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي
مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ
قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾
قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ
قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ
ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ
ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عطاء: لم تستغرق هي في محبتها بعد، فلم تخبر بالصدق، وآثرت نفسه على نفسها، فلمّا استغرقت هي في المحبة وهامت، أخبرت بالحق وقالت الصدق، وآثرت نفسه على نفسها، فقالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾، ولما وضعت زليخا الجرم على يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾، كان الكرم والرضا يقتضيان السكوت عن جوابها حتى لا يفتضحان، ويكون إلى التسليم وترك التدبير أقرب في التوحيد أفضل، حيث أهل الطرق يرون الأشياء على رؤية مقادير الأزلية؛ لكن أعلمهم مكان طهارة النبوة وقدس الرسالة وبيان الحجة؛ لذلك نطق الصبي في المهد، وتشهد بصدقه إظهارًا لمعجزته وطهارته عما لا يليق بالأنبياء، ولطيف الإشارة فيه أنها ادَّعت محبة يوسف عليه السلام، وتبرَّأت منها عند نزول

البلاء، فأراد يوسف عليه السلام أن يلزم عليها ملامة المحبة، فإنَّ الملامة شعار المحبين، فمن لم يكن ملومًا في العشق لم يكن متحققًا في العشق، أراد يوسف عليه السلام كونه عاشقًا جلدًا ليزيد عشقًا على عشقها؛ لأنَّ الملامة للعاشق زيادة ذكر المعشوق، فإذا استقامت تزيد حرقة العشاق والهيجان، همّ إلى رؤية المعشوق والخروج من موضع التهمة، ودفعها دأب المعشوقين أيضًا لزيادة عشق العاشقين، فلما بان جرمها بالبرهان الواضح قال زوجها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أراد بالكيد هاهنا التجشم والغنج والدلال وتقليب طرفهن: وكشف ذوائهن، وخضاب أطراف بنانهن، ولطانة حركاتهن، وإلقائهن التفاح والسفرجل إلى معشوقهن، وتزيين لباسهن، ولطافة كلامهن، وحيث يحتكنَّ بهذه الرعونات على من له لطافة وظرافة ورقة طبع، وأهلية للعشق، فأين إبليس منهن؟ وهو هناك أجيرهن، عظَّم الله كيدهنَّ، وأضعف كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾: سبب ضعف كيد الشيطان هاهنا أنه قبيح الصورة، شنيع المنظر، لا يقدر على الرجال إلا بالوسوسة، وهناك بحسنهن حوليات الشهوات يجرون بها الجبال.

وقال ﷺ: «ما تركتُ من بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[1].

وقوله عليه السلام: «النساءُ حبائلُ الشيطان»[2] أي: أعظم معاملة إبليس النساء بالرجال، أطلق حبال ذكرهن من ألف فرسخ يقيد بها أعناق الرجال، ولولاهن نجساء المعلون من وساوس الخلق، فإنَّ أعظم الفتنة في العالم النساء.

أيضًا: سُمِّيَ كيدهن عظيمًا، وذلك الكيد قيدهن الرجال بلطائف ما ذكرنا من شمائلهن، وذلك من أصل وهوان حسنهن وجمالهن وظرافتهن من حُسن فعل الله في وجوههن، وذلك الفعل مرآة تجلي حسن الأزل؛ لذلك سماه عظيمًا، وهذا إشارةٌ لا يعرفها إلا صاحب واقعة، وأين الأبله والغبي والبليد من فهم هذا المعنى؟!

قال بعض الحكماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وقال الشبلي: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأمَّا من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائدٍ، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنَّ أزواجهن كانت متآلفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف عليه السلام،

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٩٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٦).

فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليذقن ما ذاقت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ذكرهن لملامة اشتهائهن رؤية يوسف ﷺ، وحكمن بحكم الفراسة أنَّ حب يوسف ﷺ بلغ حبة قلبها وصورة شغاف القلب سجف لطيف رفيق، وبراءة عالم الكشافة، وبعده عالم اللطافة الأول مقام النفس والهوى والوسواس، والآخر مقام العقل والروح والملك، ومقام الكشافة مقام شهوة الإنساني، ومقام اللطافة مقام شهوة الروحاني، وليس في الروحاني علة الهوى والنفس والشيطان، فإذا وصل الحب إلى منظر الروح واتصل بروح الروح بلغ إلى عالم الرحماني، فإذا تمكنَّ الحب هناك تخلص من الوسائط، وصار حب الله، فكل محبة وصلت إلى هنا فقد وصلت شغاف القلب، واتصلَت بمحبة الله، كأنهن أردن محبة يوسف ﷺ، وصلت في قلبها إلى محبة الله، وهناك استغراق الحب؛ حيث بقيت الأشباح في سورة الوسائط بمحبتها، وبقيت الأرواح في مشاهدة الحق لا للأرواح قرارٌ، ولا للأشباح قرارٌ، وهذا وصفهن زليخا بهذه الصفة بقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في غيبوبة من استغراق الحب، وتمكين العشق بحيث لا تخاف من الملامة، ولا تلتفت إلى السلامة، ويمكن أن إشارتهن إلى ضلالها إلى أنها أرادت من يوسف ﷺ وحبه أن يكون يوسف من غاية حبها صورة وروحًا اتحادًا، فهن في منزل العقل والعلم يقين من مباشرة الجهال، وعلموا أن ذلك مستحيلٌ من حيث العقل، لا من حيث العشق ومباشرة الحال.

قال الجنيد: وسُئِلَ: ما علامة المحبة؟ قال: ذكر الله في كتابه: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾.
قال: ألَّا يرى جفاء الحبيب له جفاء، بل يرى جفاء الحبيب له وفاء.

قال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منه حتى لا يكون لشيء غيره فيه مكان.

قال الشبلي: الشغاف نهاية العشق.

وقال بعضهم: الشغاف في المحبة حال الخمود؛ حيث لا عبارة عما به ولا إخبار، كما قال الله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

وقال السري: أذهلها حبه حتى لم تكن تعرف سواه، ولم يكن للملامة عليه من الغير أثرٌ، وذلك صدق المحبة.

وقال جعفر: الشغاف مثل الغيم أظلم قلبه عن التفكر في غيره، والانشغال بسواه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي في وجدٍ ظاهرٍ، ومحبةٍ بينةٍ، وشوقٍ مزعجٍ.

سُئل جعفر بن محمد عن العشق؟ فقال: ضلال. ثم قرأ: ﴿لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال: معناه في عشق ظاهر.

وقال بعضهم: في غلبة من العشق ضلَّ فيه عقلها وبصيرتها، فلم يبق عليها محل الكتمان من غلبة الشوق، فلما وصلها خبر ملامة النسوة، واحتيالهن في طلبهن رؤية معشوقها بلطف المكر، أرادت أن تلقيهن في بحر البلاء الذي لا ينجو منه أحدٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتهن إلى بيتها، فاجتمع في بيتها أعيان نساء مصر اللواتي صويحبات الجمال وزينة، وكشفن وجوههن وزينتهن ليغلبن على زليخا ويسلبن يوسف ﷺ منها، فعلمت زليخا ضعفهن عن حمل أوائل رؤية يوسف ﷺ وحسنه، وجماله، ولطفه، ومنظره، واحتالت في إلقائهن في المحبة بقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أجلستهن في أطيب المجالس، وأشرف المناظر، على خوان[1] فيه ألوان الطعام والفواكه، وأعطت كل واحدة أترجًا وسكينًا، وقالت: كلن وقطعن الأترج، وأرادت بذلك الحيلة عليهن، حتى شغلن بالطعام والكلام عن رؤية يوسف ﷺ ليخرج عليهن بالبديهة عن غير موعد ولا استئذان، حتى يستغرقن في بحر الهيبة والبهتة عند رؤيته.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: ألبست يوسف ﷺ قميصًا منظومًا بالدر واليواقيت، ووضعت على رأسها تاجًا مكللاً باللآلئ، وألبست ساقيه وذراعيه سوارًا أو خلخالاً، ووضعت على يده صفحتين حتى لا يستر وجهه؛ لأنه كان إذا رأى امرأة يغطي وجهه، فعلمت شأنه بذلك فخرج عليهن بديهة فصرن هائمات، تائهات، حائرات، مفتونات من رؤية يوسف ﷺ، ذاهبات في حسنة وجماله وعشقه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: عظمته بعظمة الله، وهبنا منه لما رأين في وجهه نور هيبة الله، فذهلن في وجه يوسف ﷺ، فسقطنْ عن التمكين والعقل، وفعلن أفعالاً مجهولة، بقوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وذلك من استغراقهن في عظمة الله وجلاله، وإنَّ الله سبحانه ما أراهنَّ من وجه يوسف ما أراه لزليخا، فأوقعهن في نور العظمة والكبرياء، وجلال تجليه منه لهن، وأرى نور حسنه وجماله لزليخا من وجه يوسف ﷺ فبقيت في العشق، ورعونته، ونظافته، وبقين في العظمة والجلال، لذلك قطعن أيديهن، ولم يشعرن بذلك، ولو رأت زليخا ما رأين ما استقامت في حالها وما راودته عن نفسه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: رأينه على صفة الملائكة المقدسين

---

(١) كلمة فارسية بمعنى: مائدة.

عن أن يوهم أحدًا لهم بالشهوة، أي: ليس هذا من أن يوهم أحدًا بالشهوة؛ فإنه مقدَّسٌ من عالمنا؛ لأنَّ عليه كسوة الملائكة من سواطع النور والبرهان الإلهي.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسري بي إلى السماء، فرأيتُ يوسف ﷺ، فقلت: يا جبريل ﷺ مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف ﷺ، قالوا: وكيف رأيته يا رسول الله؟ قال: كالقمر ليلة البدر»[1] .

وعن أبي فروة قال: كان يوسف ﷺ إذا سار في أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس والماء على الجدران.

قال وهب: بلغني أن تسعًا من الأربعين متن في ذلك المجلس وجدًا من يوسف ﷺ.

يا صاحب العقل افهم؛ إن صويحبات يوسف ﷺ لما رأينَ يوسف رأينَ كسوة الربوبية على محل العبودية، فوقعنَ من رؤيته فيها وقعت الملائكة من رؤية آدم حين سجدت له.

ولذلك قرئ في بعض القراءات: «ما هذا إلا مَلَك كريم»، وهاهنا مقام التباس العارفين ومشاهدة المحبين، ولا قدح فيه؛ لأنهم مقدسون عن علة التشبه والحلول، تعالى الله عن المشابهة بالأرواح والأشباح.

وليس ما قال حسين بن منصور في هذا المقام إشارة إلى التشبيه؛ لأنه فني في التوحيد، أنشد وقال:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب، ثم بدا الخلقة ظاهرًا في صورة الآكل والشارب، ثم بدا لخلقه من خلقه بأنوار برهان قدرته وسنا شواهد لطفه صبغه، ويمكن أن زليخا كانت محل التمكين، وهنَّ في محل التلوين؛ لذلك استقامت في رؤيته، ولم يحل أيضًا مما رأين من يوسف ﷺ من النور والعظمة، لكن غلب عليها مقام مشاهدة الحسن والجمال، لبقائها في مكان الابتلاء ارتفعت عنهن في رؤية يوسف ﷺ الشهوة والبشرية؛ لغلبة أنوار العظمة والهيبة، فلا جرم ما شعرن آلام قطع أيديهن، ولو قرض نملة زليخا لشعرت بذلك؛ لأنها في لطافة العشق؛ وما أطاقت من لطف حالها أن تحمل ألمًا غير ألم العشق، وهذا كمال في أنس المعشوق، ولا يعلم ذلك إلا ذو عشق كامل.

قال بعضهم في قوله: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾: أجلستهن مجالس وطئه ليكون أبين لحركتهن في مشاهدة يوسف ﷺ، وأسقط للملامة والتغيير عنها، وأظهر لما يبدو عليهن من لقاء يوسف ﷺ.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: شاهدن حسنًا خاليًا عن مواضع

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١٥/ ١٣).

الشهوة، مؤيدًا بعصمة النبوة فأكبرنه.

وقال جعفر: سر هيبة النبوة عليهن مواضع إرادتهن منه، فأكبرنه.

قال أبو سعيد الخرَّاز: المأخوذ في حال المشاهدة غائبًا عن حسنه، بائنًا عن نفسه، لا يحس بما جرى عليه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

قال ابن عطاء: دهشن في يوسف ﷺ، وتحيرن حتى قطعن أيديهن، فهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق، فكيف بمن يأخذه مشاهدة من الحق، فلم ينكر عليه تغيير صفاته عليه، أو ينطق في الوقت على حد الغلبة بمرأى كغيرة.

وقيل في قوله: ﴿ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ : لأنه كان مؤيدًا بالعصمة، فشغلتهن هيبة العصمة، فلم تنظر إحداهن إليه نظر شهوة.

وقال سهل: ما هذا إلا ملكًا في أخلاقه، بشرًا في صورته.

قال محمد بن على: ما هذا باطلاً أن يدَّعى إلى المباشرة بل مثله يُكرَّم، ويُنزَّه عن مواضع الشبهة والاعتراضات لكرم أخلاقه، ولطف شمائله.

قيل: إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غداء؛ إلا النظر إلى وجه يوسف، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشبعوا، ويزول عنهم الجوع، فلما رأت شأن النسوة وفناءهن عن عقولهن، صبرت حتى مر يوسف عليهن وأفقن، وشمتت بهن: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ : أرادت أن يذقن ما ذاقت من حب يوسف ﷺ، ويخرجن من ملامتها؛ لأن من لم يعرف طعم المحبة عزل أهلها:

فانظـــــري واقطنـــــي لي تـــــري ... حـرقًا مـن لم يـزد طـرفا مـنها فقـد

وإلا نظر أهل الملامة نظر سرك، حيث كانوا محجوبين عن رؤية سبق المقادير، وإنَّ العشق خارج عن حدود الاكتساب.

خلـــيلي إني قلـــت بالعـــذل مـــرةً ... ومـــنذ عـــلاني الحـــب مذهبـــي الجـــبر

وأنشد الحسين:

مـــا لامنـــي فـــيك أحـــبابي وأعدائـــي ... إلا بجهلهـــم مـــن عظـــم بلوائـــي

تـــركتُ للـــناس دنـــياهم وديـــنهم ... شـــغلي بحـــبك يـــا دينـــي ودنيائـــي

أشـــعلتَ في كـــبدي نـــارين: واحـــدةً ... بـــين الـــضلوع وأخـــرى بـــين أحـــشائي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ إلا رأيتُ خيالاً منك في المائي
النار أبردُ من ثلجٍ على كبدي والسيف ألين بي من هَجر مولائي

قال النصرآبادي: طلب العذر في العشق من نقصان العشق، وإنَّما العشق الحقيقي ما غلب على صاحبه وألهاه عن الاشتغال إلا بمحبوبه.

وقال بعضهم: لمتنني فيه بغيتني لصرعتن.

وأنشد:

وكنتُ إذا ما حدَّث الناس بالهوى ضحكتُ وهم يبكون من حَسراتِ
فصرتُ إلى ما قيل هذا مُتَيَّمُ تلقيتهم بالنَّوحِ والعَبَرَاتِ

فلما رأت زليخا عذر النسوة أرادت أن تعرفهن طهارة يوسف ﷺ فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: هو مقدَّسٌ عن جميع التهم، وباطنه أحسن من ظاهره؛ لأنَّ باطنه مطهر عن دنس الشهوة، وعلة البشرية، ومراودة النسوة والفحشاء، معصوم بأنوار النبوة والرسالة، وأرادت بذلك أن يرينه أكبر مما يرينه، ثم قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: خوف يوسف ﷺ من البلاء، وكيف يخاف من يكون في رؤية المبلي، مؤيدًا بعناية أزلية، معصومًا عن معصية، وتولها في ذلك من استغراقها في الحب والعشق.

وقال بعضهم: ما كان يلحق يوسف ﷺ من السجن والمحبة، إنَّما كان من ترادف البلاء على زليخا، وهيجان المحبة به.

فربَّما كان نصيب يوسف ﷺ من أطراف بلائه شيئًا بالسجن والهم، وغير ذلك وهذا من تمام المحبة وشدة البلاء:

أن أشاركَ المحبوب محبة في بلائه وأنشدت ليلى صاحبة مجنون
لم يكن المجنون في حاله إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهَوى وإنني قد قدمتُ كتمانَا

فلما رأى يوسف ﷺ تملقهن ومكرهن واحتيالهن في دعائهن يوسف ﷺ إلى طاعة زليخا التجأ إلى الله، وتضرع بين يديه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: يا رب البلاء أحبُّ إليَّ من لذة الوقت، وشهوة النفس التي تحتجبني عنك، وعن شهوة الروحاني، ورؤية آثار الربوبية.

وأيضًا: السجن أحبُّ إليَّ؛ لأن في السجن مقام الأنس، والخلوة، والمناجات، والمداناة،

والمشاهدات، والمواصلات، وإنِّي أختار رضاك وأوثر مرادك على حظ نفسي.

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ: أي: السجن أحبُّ إليَّ إذا كنت محبوسًا لزليخا حتى يزيد عشقها على عشقها، ويكون عشقها عشقًا روحانيًّا، وعشقًا رحمانيًّا، وتحترق بنيران عشقها علل الإنسانية، وشهوة البشرية، وإلا تصرف عني بعصمتك القديمة كيدهن في إظهار حسنهن أو جمالهن، وزينتهن عليَّ، وتميل نفسي إليهن، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]: من المؤثرين حظوظ أنفسهم على حظ مشاهدتك وقربتك.

وأيضًا: من الجاهلين بأنفسهم.

وأيضًا: من الجاهلين بقدرتك على عقوبة الأسرار وضرب الحجاب بينها وبين الأنوار.

قال الواسطي: منعك إياي عنهن بنزع القدرة عنى أحبُّ إلى مما يدعونني إليه من طلب الحظوظ.

قال بعضهم: توهم يوسف عليه السلام أن السجن ينجيه من الفتنة، فأوقعه في الفتنة الكبرى، حتى قال لصاحب السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

قال ابن عطاء: السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني من الزنا، فالاختيار أفسد عليه أمره لعلمه لو ترك الاختيار لكان معصومًا من غير امتحان بالسجن، كما كان معصومًا في وقت المراودة.

وقال الجنيد: لمَّا جاء بالافتقار لا بالمسألة في صرف كيد الباغين عنه، وأشفق من دخول الصبوة عليه التي لا مدفع إلا بتأييد العصمة، فأسعده الإجابة، ومنع كيد الشيطان وتسلطه، وأخرجه من البلاء بقبول حسن ما تقدم من الوعيد.

قيل: إن يدخل فيه وبمثل هذا يتعزى أهل المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي: ممَّن يعفو عمَّن ظلمه.

وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت.

وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب.

وأيضًا: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال.

قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم.

وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر.

وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

---

(١) أي: من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به. البحر المديد (٣/ ١٠٦).

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا.

وقال أبو بكر الورَّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك.

وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾: أخبر سبحانه عن كمال التوحيد يوسف ﷺ، وتمكينه أسوة بآبائه من الأنبياء والرسل.

ومعنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ أي: أسألك طريق ما سلكوا إلى الله شوقًا إلى وصاله، وعشقًا لجماله بأسرار نورانيه، وأرواح ملكوتية، وقلوب ربانية، ونيات صادقة، وأنفاس مقدسة، ونفوس طاهرة، وحقول عالمة بأحكام إلهامه، وأسرار خطابه، وأعلام ربوبيته، وآثار عبوديته.

انظر كيف أحسن الأدب؛ حيث ذكر الخليل ﷺ أولاً، وذكر إسحق ﷺ ثانيًا، ثم ذكر يعقوب ﷺ؛ احترامًا وإكرامًا لهم: أي: اتبعت الخليل ﷺ في الخلة، والمحبة، والحلم، والسخاء، وإكرام الضيف، والرضا بالمقدور، والتسليم في الأمر، والحرقة، والهيجان والبكاء، والتلوة، وإفراد القدم عن الحدوث، حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]، والصدق واليقين، وطلب مشاهدة الحق في الآيات، وهو مقلم الالتباس، بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة:٢٦٠]، والإسلام، والانقياد، والحنيفة السهلة، واتبعت ملة إسحاق ﷺ؛ حيث ألقى نفسه لأمر الله، وذبحه على باب ربوبيته، وقربان النفس عند سرادق مجده، والانقياد عند أمر أبيه؛ حيث فعل بأمر الله ما فعل، واتبعت ملة يعقوب ﷺ بالصبر الجميل، والحزن الطويل، والبكاء على الدوام، وتحمل البلاء على التسرمد.

وافهم أن المتابعة وصف الخاصين من المريدين، ومَنْ لم يتأدب بآداب أهل الطريقة والحقيقة لم يبلغ إلى درجات القوم.

ثم بيَّن سبحانه قول يوسف ﷺ أن ملة آبائه إفراد القدم عن الحدوث، وتجريد التوحيد، وتطهير الإدراك عن الإشراك بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾: أي: لا ألتفت في طريق محبته إلى غيره.

ثم بين أن ذلك خارج عن اكتساب البشر، بل متعلق بسابق اختيار الله لهم واصطفائيته لهم في الأزل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾: أي: ما ذكرت من شمائلهم، وما وهبني الله من علم الغيب والحسن، والجمال من فضل الله عليَّ وعلى آبائي، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي:

نحن فضل الله على الناس؛ حيث أظهر شمائل جلاله منا.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾: لا يشكرون الله فيما أظهر لهم منّا من دين الحقيقية، وأنوار الأزلية، وحسنه الأبدي.

قال أبو عثمان: إصلاح القلب والسر بمتابعة الصالحين، واعتقاد تعظيم الأبرار من جميع العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قال أبو عثمان المغربي: أسلم الطرق من الاغترار طريق الاقتداء والتقليد؛ لأنها طريق الأئمة الصالحين.

قال الله: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾.

وقال الواسطي: رؤية الفضل حسن، ورؤية المفضل أحسن، ورؤية المفضل حسن، والفناء عن رؤيته أحسن.

وقال أبو علي الجوزجاني: أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنّة والنعمة، لا تحت ظل عمله وسعيه.

ثم إنّ يوسف عليه السلام عرَّف أهل السجن مكانته في التوحيد والرسالة، ودعاهم إلى ملة آبائه بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أعلمهم أن العدد والانقسام صفة الحدثان؛ لا صفة الرحمن، وإنَّ الرحمن واحدٌ منزَّهٌ عن الانقسام، وإذا كان منزَّهًا عن العلة، يكون وصفه في ربوبيته القهر على عباده وخلقه؛ بأنه جعلهم تحت إمرته وعبادته، عاجزين عن العناد عن خدمته.

ثم بيَّن أن معرفة الواحد القهار وعبادته، والإعراض عن الأغيار دينه المستقيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعرفون أن الحادث لا يكون قديمًا، وأن القديم لا شريك له في عبودية عباده وربوبية أزليته في نصب أعلام آياته وشواهد مملكته.

قال أبو عثمان المغربي: قد يكشف للإنسان حال غيره، ويستر عليه حال نفسه.

ألا ترى إلى يوسف عليه السلام قال لصاحب السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ثم قال في ثاني الحال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وحكي: أن رجلاً قال للفضيل بن عياض: عظني، فقال: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟

قوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: إنَّ الله سبحانه وصف مكان امتحان صديقه يوسف عليه السلام؛ حيث أغان قلبه عين قهر نكرته حتى وقع في بحر النكرة، وامتنع عنه بوصف المعرفة، فلمَّا احتجب عن مطالعة جلال القدم بامتناع القدم بقي في رسم الطبيعة، وعالم الصورة فسلك سبيل الأسباب، وكان ذلك أقل من لمحة، فلمَّا طلعت على قلبه أنوار القدم، وأدركه فيض الكرم على مكان الامتحان، وعرف كيد الشيطان، فرجع عن ذكر الإنسان إلى ساحة الرحمن: وإذا أراد الله بالعبد العارف زيادة معرفته وقربته أوقعه لحظة في الغفلة عن الذكر، ثم بدا لقلبه نور التجلي، فيندم عن نسيانه ويسرع قلبه في طلب مزيد عرفانه، فيكون أقوى في طلب الحق من الأول، كانت غفلته عن الذكر تورث زيادة الذكر، ومن كان أقرب إلى الله فهو أخذته في زلته أسرع، وبلاؤه أوفر.

ألا ترى كيف جازاه بغفلة لحظة لبثه في السجن بضع سنين، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، وإنَّ الله سبحانه أراد من نبث يوسف عليه السلام في السجن كمال تربيته في الخلوة، وبلوغه إلى أخص درجة الأنس بالله، وزيادة القوة في الوجد، وتمكينه في الصحو، ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف تحنث في غار حراء، وآنسه في الخلوة في أوائل النبوة.

ويحتمل أن قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي: عرفني له طريقي مع الله حتى يعرفني أنِّي رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويوحد الله سبحانه، ويخلص من كيد الشيطان، ومن تابعه من الإنسان.

وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: إنَّ يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ في سابق حكمه على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف عليه السلام احتجابه عن النظر إلى مقادير السابق، والله أعلم وأحكم.

قال الواسطي: احذروا أصول النفوس؛ لئلا يكشف لكم عن مواضع العجز، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾[1].

---

(١) قال التستري (١/ ٢٣٥): حكي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثنك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

وقال بعضهم: اذكرني عند ربك ليعلم أنه ليس إليه من الضر والنفع شيءٌ، وإنه مدبرٌ، وإن الأمور كلها إلى الله؛ لئلا يعتمد على غير الله، ولا يسكن إلى أحد سواه، يدل عليه قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، حين قال لصاحبه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقال النصرآبادي: قدّم على ذكره ذكر الذي ذكر عنده، فأنساه الشيطان ذكر ربه حين قال لصاحبه في السجن: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾.

وقال بعضهم: أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لمكانتهم عنده، وتجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاته بهم في إضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

ألا تراه كيف يقول ليوسف ﷺ بقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وجرى على سري أن الشيطان أنساه ذكر ربه؛ لا ربه أنساه الذكر، ولا أنساه المذكور، وكيف أنساه المذكور وشره مشاهد وجوده في جميع أنفاسه، فذكره هاهنا محل التوكل والرضا، وليس من سقط عن درجة التوكل، سقط عن رؤية الله، فإنَّ التوكل من أسباب المقامات، والعارف يسري في الحالات، وليس أنه محجوبٌ عن حقيقة التوكل؛ فإنَّ حقيقة التوكل العلم بوحدانية الله، وغلبة قهره على كل ذرة، وحاشا الأنبياء محجوبون عن ذلك أبدًا.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: سماه الصدِّيق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلِّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الإعمال.

قال أبو حفص: الصدِّيق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره.

قال بعضهم: الصدِّيق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزمًا وزينةً وعقدًا.

وقال بعضهم: الصدِّيق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله.

قال ابن الفرحي: الصدِّيق كأبي بكر ﷺ الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لمَّا قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله»[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: أخبر الله سبحانه أن يوسف ﷺ لما دُعِي من السجن لم يبادر سريعًا إلى الخروج حتى يفحص شأن النسوة، وزليخا حين قالت لسيدها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ بقوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦).

انظر كيف كان أدبه ﷺ حيث لم يذكر زليخا، وذكر النسوة، وغرضه في ذلك زليخا، ولكن أخرج نفسه من محل التهمة باللطف والرمز فيه، كأنّه قال للرسول: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في وجهي، واستغراقهن في حبي، كأنه تكلم من ألم سره من آلام سرهن، وفيه ما فيه من لطائف الإشارات، وغرضه من تفحص إثبات الحجة على قومه، وبيان طهارته من علة الزنا حتى لا يشوش اعتقادهم في شأن نبوته ورسالته؛ لأنّه ينظر إلى الخلق وجاههم، فإنّه كان في محل التمكين من التوكل والرضا؛ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: مظنة هذه المعاني لم أخنه في غيبته بنظر السوء إلى أهله.

وأيضًا: لم أخنه في غيب خاطري بميل سري إلى غير الله، وكيف أحزن، وهو تعالى لا يهدي الخائن إلى مراده؛ لأنَّ من خان لا يظفر بما يريد، ولا يهدي من طبعه الخيانة إلى محبته ومعرفته ومشاهدته.

قال ابن عطاء: لم أخونه فيما يتمني من الأهل والمال.

وقال سهل: لم أنقص له عهدًا ولم أكشف له سرًّا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: بيان الشكر لما عصمت الله، ولما قال: إنّي لم أخنه بالغيب عارضه لسان الحق في السر فيما همَّ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال أهل التفسير: لما قال يوسف ﷺ هذه المقالة قال له جبريل ﷺ: ولا حين همت بها؛ فلمَّا سمع يوسف ﷺ أصوات الغيب بتغيير سره أدرك ما فاته من غيبته عن مراعاته النفس، ولزم لسانها بالدعاوي واعتذر بقوله: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾، مقالة الأولى من يوسف ﷺ خبرٌ عن بدايته في وقوعه في البلاء، وهناك جبلة النبوة المقدسة عن التهمة، وما جرت في البين هو لطيفة الله من قهره وامتحانه، وغلبه قدره السابق على رسوم الأمر، وما ذكر في العذر خبرٌ من تلك اللطيفة.

وافهم: إن سرَّ قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، إن هذه النفس ليست لشيطانٍ، ولا قلبٍ، ولا ملكٍ، ولا عقلٍ، ولا لشيءٍ له أعينٌ يتبين لأحدٍ، فبعضهم يسمي النفس الهوى، وبعضهم يسمي النفس الطبيعة والبشرية، وميلها إلى الشهوة يسمي النفس، وهذه الأقوال هي صورة رسوم العلم وحقيقتها، والله أعلم.

إنّما هي وجود قهر القدم يظهر فغلبته في الفعل، ويحرك طباع الإنسانية المستعدة المخلوقة لقبول ما يصدر من القهريات مما يؤول أواخره إلى سخط الله، وامتحانه، وحجابه،

فالقوم حكموا بما صدر من القهر أنه نفس، وأنا أرجع إلى الأصل؛ لأنَّ القهر صفةٌ دائمةٌ أزليةٌ محركةٌ طباع البشر إلى طلب الشهوات، ولا يطيق أحدٌ أن يخرج من تحته إلا بلطف الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾؛ لأنَّه صفةٌ غالبةٌ على جميع الذرات، وهو صفة الله سبحانه، وهو نفس النفس؛ لأنَّ ذاته تعالى موصوفٌ بصفة القهر، وإنَّ قهره حار جميع الحدثان تحت غلبته، ومن يدَّعي أن يبعد نفسه من سلطان قهره بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾: أي: ما أبرئ نفسي من غلبه قهر الله عليها، وأنها مقهورة بين يديه.

وأيضًا: ما أبرئ نفس النفس عن القهر والغلبة، فإن نفس النفس أمَّارةٌ إلى ما يقتضي القهر، وما يقتضي القهر يقتضي الامتحان، وما يقتضي الامتحان يقتضي الملامة في رسوم العلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾: أي: إلا من عصمه الحق بلطفه عن قهره، وأشار بهذا إلى وجوده حين عصمت بلطفه عن قهره.

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾: إثبات ما جرى من الهمة: أي: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ من الهمة التي همت بها، وهذا محل من عرف سرَّ القهر، وسرَّ الخطاب، وسرَّ الامتحان، وسرَّ النفس، وغلبة الربوبية بقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نفسَه فقد عَرَفَ ربَّه»(١).

ولما عرف حقائق النفس ﷺ استعاذ منها إلى الأصل، وقال: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك»(٢)، وأعلمنا ﷺ أنه تعالى نفس النفوس بقوله: «أعوذُ بك منك»(٣).

ومن أراد أن تبرأ نفسه فقد نازع الربوبية، فإنَّ النفس أصل القدر السابق على ما جرى من البلاء والامتحان.

ألا ترى إلى قول الواسطي كيف قال: من لام نفسه؛ فقد أشرك.

وقال أيضًا: رؤية التقصير من النفس شركٌ؛ لأن من لاحظ نفسًا من نفسه؛ فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك؛ لأنَّه أضاف إلى نفسه ما لم يكن منه قط.

قال ابن عطاء: وما أبرئ نفسي بنفسي إنما أبرئ نفسي بربي.

قال أبو حفص: مَنْ لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

يجرها إلى مكروهها ومخالفتها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل رضي نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: تحملك على الطاعة وتضمر فيها شرًّا.

وقال سهل: خلق الله النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء منها، وجعل الهوى الباب الذي منه هلاك الخلق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: هي نفس الروح، والروح هو نفس الجسد.

وقال سهل: النفس الأمارة هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة.

وقال أبو حفص: النفس ظلمةٌ كلها، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه توفيقٌ في سرِّه من ربه كانت ظلمةً كلها.

وقال سهل: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ موضع الطبع، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ موضع العصمة.

وقال الواسطي: النفس ظلمةٌ، وسراجها سرها، فمَنْ يكن له فهم في ظلمة أبدًا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾: بيان العذر لما قصَّر في أمر الله، فاستوجب واستحق بعذره العفو والغفران، فلما ثبت الحجة والسلطان، وظهر قدسه وطهارته من علل الشيطان طمع الملك في أن يراه ويعظمه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أستخلصه لموعظة نفسي ليعرِّفني طريق نجاة نفسي من عذاب الله.

وأيضًا: أستخلصه بخالص محبتي له ليعرف خالص محبة الله، وخصائص صفة ربوبيته.

وأيضًا: أستخلصه لنفسي حتى أفش عنده ما في نفسي من أسراري.

قال ابن عطاء: كيف يستخلصه لنفسه وقد استخلصه الحق من قبل فهو لديه من المخلصين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾: أخبره عما في ضمائره من أسرار الغيب، وما في غيب الغيب، وما يتعلق، وما في حياة القلوب، وما كان من وصف الله وصف الطريق إليه بلسان فصيح، ووجه صبيح الذي يبرز نور الحق منه للعالمين: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: أنت بما تخبر من الحق وأسراره متمكن أمين فيما أودع الله في سرِّك من النبوة والرسالة

والولاية؛ حيث يشهد بصدقك جمالك وجلالك، فإنَّ معنى الباطن يظهر من ظاهرك، أنت عندنا ذا مكانة وذا أمانة، فاحكم بنا ما شئت، فإنِّي لا أوثر على أمرك شيئًا.

قال بعضهم: أي شاهد صدق يخبر عن صدق، فغلبه عز الصدق، ورؤية صديقه، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقال الشبلي: فلمَّا كلمه أخبر يوسف ﷺ عما في قلبه من كوامن سره، فقال: إنك متمكن في نفسك أمين؛ حيث اطلعت على الأسرار، فلمَّا رأى الملك آيات الله في بلاد الله وعباده آمن بيوسف ﷺ أجله وأكرمه وأعزه، واختاره على جميع الخلق، فعلم يوسف ﷺ أن ما عرف الملك في جنب ما لم يعرفه منه أقل القليل، فأظهر ما وهبه الله له من علمه بالله وبطريقه، وحفظ حدوده في شريعته وشفقته على خلقه، فقال: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أخبر الله يوسف ﷺ الملك أيضًا عن مقام تمكينه، وقدرته بالتصرف في الملك الدنيا؛ بألا يتحجب في تصرفها عن مشاهدة الله وملك الآخرة، وليس كل من ينصرف في الدنيا متمكن إلا من كان على وصف يوسف ﷺ، ووصف يوسف ﷺ حفظ الأنفاس بالذكر، وحفظ القلب بالفكر، حفظ أنفاسه عن الوسواس، وحفظ قلبه وفكره عن ذكر غير الله، عليم بذات الله وصفاته وآياته وعبادته.

وأيضًا: إني حفيظ بنور تفرس نبوتي ما يقع من أمور المقادير عليهم بعلم الله ما يجري في القلوب من الغيوب، وخزائن الأرض في الإشارة قلوب الرياضين من الأولياء والصدِّيقين.

قال الواسطي: مدح النفس قبيح في الشاهد إلا في وقت الإذن فيه، وله حينٌ وأوانٌ، ألا ترى يوسف ﷺ كيف قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال بعضهم: خزائن الأرض رجالها.

فقال: اجعلني عليهم أمينًا، فإنِّي حفيظ لما يظهرونه، مكشوف لي ما يضمرونه، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: إن لله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذاك فسدوا وتعطلوا، وذاك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول الذي لم ينصَّه كتاب، ولا جاء به خبرٌ، لكن العقلاء العارفون يحتجبون له من الكتاب والسنة، وذلك بحسن استنباطهم،

---

(١) لأن الحفظ والعلم كان محتاجا إليهما إما الحفظ، فلأجل ما في خزانة الملك وإما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخرج، تفسير حقي (١٠/ ١٣٩).

وفهومهم، وهو كقول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه تمكين يوسف ﷺ ومكانته واستقلاله بنفسه في مقام الرسالة والنبوة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: الإشارة فيه ملك بحسنه وجماله ولطفه وكماله أرض قلوب الخلق محبةً وهيبةً، تجلس محبته حيث شاءت في صميم فؤاد الناس، بقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾، أضاف مكانة يوسف ﷺ إلى نفسه، لا إلى سبب من أسباب الحدثان، وذلك إشارة إلى سبق العناية له بالرسالة، وكسائه كسوة جماله وجلاله.

ثم بيَّن أن ذلك رحمته الأزلية التي خصَّ بها من يشاء من عباده: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: رحمته كشف مشاهدته للأنبياء الأولياء، وتعريف نفسه بكشف الصفات لهم إياهم حتى عرفوه به، وسهَّل عليهم طريق عرفانه حيث رفع بينه وبينهم علل المجاهدات والرياضات.

وذلك منَّةٌ عظيمةٌ، ورحمةٌ كافيةٌ إذ كشف عِزَّةَ السَّرْمَدِيَّةِ للآدميين، وما مال بأنهم لا يستحقون شهودهم مشاهدته، وأنى لهم مع حدوثيتهم البقاء مع القديم الأزلي الأبدي، ويتلاشى الأكوان والحدثان في الأول بديهة سطوات عزته وظهور مجد جلاله، ولكن تجاوز عنهم وعن حدوثيتهم برحمته، وأراهم ما لم يكن لغيرهم من المكروبين والروحانيين؛ لأنه تعالى اختارهم في الأزل لنفسه ولوصاله، وكشف جماله، ووضع أسراره في قلوبهم، أي: بلوغ يوسف ﷺ إلى هذه المراتب السنية الرفيعة، ﴿بِرَحۡمَتِنَا﴾ بعنايتنا وكرمنا.

هذا مكان العناية التي انقطع عندها الأسباب، ثم بيَّن أنه مع جلاله ولطفه لا يضيع أجر العاملين الذين سلكوا سبيل الأعمال؛ فيصلوا إلى درجة الأحوال بقوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أجر أهل الإحسان كشف الجمال مشاهدة الرحمن، وإحسانهم طلب طلوع صبح الأزل من مشارق الأبد بعيون الأرواح، ودوران بصائر الأسرار.

ألا ترى إلى قوله ﷺ في جوابه السائل عن الإحسان، قال: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»**[1].

فإحسان يوسف ﷺ مراقبة الله في بلائه، وذلك الإحسان والمراقبة من عصمة الله ورحمته؛ لأن العصمة مقرونة بالاصطفائية، وكيف كان معصومًا من لم يسبق له الاصطفائية في الأزل، وأيضًا إحسان يوسف ﷺ العفو والكرم للخاطئين، وتعريف الله بوصفه وصفاته إلى عباده ليحبوه ويطيعوه، وأيضًا إحسان يوسف ﷺ كشف جماله لأهل البلاء والقحط حتى

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

عاشوا بالنظر إلى وجهه.

قال الواسطي في قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: مَنْ لم يفصل بين أول هذه الآية وآخرها التبست عليه آيات القرآن، وأشكلت أوله للعلماء وآخره للجهال به.

ألا ترى إلى قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فبرحمته استوجب اسم الإحسان، وبرحمته عرف الهداية والبيان، وبرحمته أشار إلى غوامض القرآن، قال الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وقال ابن عطاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ بفضلنا يهدي من يشاء إلى سبيل المعرفة.

وقال بعضهم: المحسن من يرى جميع ما يجري عليه من الإحسان منه من الحق عليه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ نكرة الإخوة كانت في رؤية يوسف ﷺ من سبب اختفاء تجلي الحق عن عيونهم في وجه يوسف؛ فلا يرونه ولا يرون ذلك النور والتجلي، كما رأوه قبل الجناية، فغطّى الله عيونهم بنكرة الجفاء عن رؤية تلك الأنوار، فلما لم يروا ذلك جهلوه.

قال بعضهم: جهلوه لما تقدم من جفوتهم له؛ فأحوجهم الله إليه.

وقال الأستاذ: يقال: لما جفوه صار جفاؤهم حجابًا بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك المعاصي بخطابه وزلته يقع غيره على وجه معرفته.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: يوسف ﷺ في قلب يعقوب ﷺ بعض التفاته إلى الوسائط، وأراد أن يصل الشيخ إلى إفراد القدم عن الحدوث بشرط تجريد سره عن الحدثان في جمال الرحمن من شفقته على يعقوب ﷺ لتخرجه بالتلطف عن الكون حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء خيار الحدوث؛ فتلطف في سلب بنيامين عنه.

وذلك من علمه بغيرة الله سبحانه على يعقوب ﷺ حيث رفع محبوبه من بينه؛ فخاف

عليه أن يهلك بنيامين بين يديه ويزيد داؤه على دائه، ولولا ذلك لما قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ بأن ليس من دأب الفتيان طلب العرض بالإحسان، والإشارة فيه أن من لم يأت في طريق محبة الله بالوفاء على عهد المعرفة ضاقت عليه طرق وصاله.

قال بعضهم: من خالف مراد سيده فيه ضيق الله عليه رزقه وحرمه مقام القربة بحال وأصل ذلك قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ الآية.

وقال الأستاذ: المحبة لما كان غيور ليعقوب عليه السلام ليسلي عن يوسف عليه السلام برؤية بنيامين أبت المحبة إلا أن يظهر سلطانها بالكمال؛ فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب عليه السلام بعين يوسف عليه السلام.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ رأى يعقوب عليه السلام في مرآة البلاء أن بنيامين يعتزل عنه بغير اختياره؛ فرجع من الأسباب إلى مسبب الأسباب، وطلب منه الحفظ والعناية والرعاية لا من الخلق، والإشارة في قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي: من حفظه أن يرد عليه يوسف عليه السلام من بنيامين، أي: هو تعالى يحفظهما جميعًا، وذلك قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ برحمته أن يشفني ريح يوسف عليه السلام، ويقر عيني بالنظر إلى وجهه، ثم بعد ذلك يتجاوز عن التفاني في محبته إلى غيره ويريني جماله وجلاله تعالى.

قال بعضهم: قال يعقوب عليه السلام: جربت حفظكم في واحد حين قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ اعتمدت عليكم في يوسف عليه السلام، ولم أرجع فيه وفي حفظه إلى الله؛ فلقيت فيه ما لقيت، وإني في هذا أرجع إلى ربي ألا أعتمد حفظكم له ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ لما استحفظه ربه رد عليه الأول والثاني.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ قيل: متاعهم ظاهر الكرم، ورد إليهم باطنًا لئلا يشق عليهم أثقال المنة ما وجدوا ليوسف عليه السلام لمتاعهم في خزائنه موضعًا لا يليق إلا بالفقراء والمساكين؛ فرد إليهم لئلا يزاحم بغناه على الفقراء

بالمؤاكلة معهم، وأنى يفعل الغني بهال الفقراء لم ير نفسه أهلاً في ملكه أن يأكل طعام الفقراء، وفيه ما فيه من الإشارة إلى أن ما وجد الأولون والآخرون من معرفة الله وتوحيده ومحبته وعبوديته في جنب ما يجدون منه يوم الكشف الأعظم أقل من كل شيء؛ فيرد بكبريائه ما يليق بالحدثان على الحدثان، لأنه تعالى بقدمه وجلاله منزه عن أن يدركه أحد من خلقه، وأن يطلع على أسرار ذاته وصفاته أحد من عباده يرد متاع العبودية على الخلق؛ لأنها لا يليق بربوبيته فيغنيهم بها له عما لهم.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لن ينج أحد منكم عمله»، قالوا: يا رسول الله، ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»[1].

قال بعضهم: إن أعمال الخلق كلها مردودة عليهم؛ فإنهم إنما عملوها بأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وأن الذي يلحقهم من الكرامات من جهة التفضل لا من جهة الجزاء.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ رأى يعقوب ﷺ نية بنيه صادقة في شأن بنيامين بأنهم يتحفظونه، ويأتون به إلى يعقوب ﷺ، ورأى يعقوب ﷺ بنور النبوة ما يقع في المستقبل؛ فتعرف عجزهم عن دفع القدر؛ فقال الله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: ليس على مرادي ومرادكم بل يفعل كما يريد، وهو قادر بحفظه وإرجاعه إليَّ.

قال بعضهم: ما اعتمد منهم الميثاق لما سبق منهم إليه قبل ذلك؛ فعلم أنَّ مواثيقهم وحفظهم معلولة فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، وقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو الذي يحفظ قلوبكم، ولا يحلكم إلى آراءكم وأهوائكم، ثم عرفهم أسباب العلم والعقل، واستعمالها لتوقعه أن تتجاوز الأقدار عنهم بناقض من الحق، من قدر سبق الأقدار.

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٦)، ومسلم (٥٣٤٩).

ألا ترى إلى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ يراقب من إثبات القدر ومحوه؛ فقال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف من عين غيرة القدم على مقدور القدم؛ فينتظر عليه سبق الرضا على السخط بقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»(١).

فاستدرك بعد استعمال العلم صرف التوحيد؛ فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: تدبيري وعلمي وعقلي وحذري لا تدفع سابق القدر؛ فأرضى بما هو كائن منه تصديق ذلك قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما يريد يكون كما أراد، ثم برئ من حوله وقوته بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وحقيقة التوكل رفع التدبير عند رؤية التقدير.

وفي الآية إشارة كان سر يعقوب عليه السلام أشار إلى بنيه أي: إذا عزمتم بقلوبكم وأرواحكم وعقولكم وأسراركم سلوك سبيل الحق لا تدخلوا فيه بسبيل واحد بل ادخلوا عليه بسبيل الصفات لتعرفوا حقائقها وتعرفوا بحقائقها عين الذات؛ فإن من عرفه بصفة واحدة لم يعرفه بما استحقه من أوصاف القدم وصفات الأزل.

قال جعفر في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾: نسي يعقوب عليه السلام اعتماده على العصبة والقوة، وأن القضاء يغلب التدبير بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، ثم استدرك عن قريب وساعده التوفيق، وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

قال ابن عطاء: كيف يرد عن غيره من لا يرد عن نفسه، وكيف يقوم بكفاية الغير من هو عاجز عن سياسته.

وقال الحسين: صدق التوكل استعمال السبب مع ترك الاختيار قال الله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ...﴾ الآية.

وقال الواسطي: التوكل الصبر بطوارق المحن.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ يحتمل أن يكون أراد بتفريقهم في الدخول لعل واحدًا منهم يقع بصره على يوسف عليه السلام إن لم يره الآخر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بيّن الله سبحانه أن ما أوصى يعقوب عليه السلام لبنيه قهر نظر نوري أبصر به كينونة القدر؛ فاستقبله به لا بنفسه، وكان عالمًا بما رأى بأمور استعمال الشريعة والغفل

---

(١) سبق تخريجه.

واسترسال نفسه إلى الحق بنعت الافتقاد والعجز في قدراته وتقديره، وصفه بأنه ذو علم وأن علمه غير مكتسب ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾كان علمه لدنيا بلا واسطة علمه بنفسه كما وصف الخضر ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

والعلم اللدني على نوعين الأول: ظاهر الغيب، والثاني: باطن الغيب؛ فظاهر الغيب علم دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفراسات، وهاهنا للعقل والقلب مجال وباطن الغيب على أربعة أقسام:

الأول: علم باطن الأفعال وذلك حكمة المعرفة.

والثاني: علم الصفات وذلك المعرفة الخاصة.

والثالث: علم الذات وذلك التوحيد والتجريد والتفريد.

والرابع: علم أسرار القدم وذلك علم الفناء والبقاء.

وهناك تبرز أنوار الأقدار للأسرار فعند علم بطون الأفعال، وكشف الصفات للروح مجال، وعند علم الذات للسر مجال، وعند علم أسرار القدم لسر السر مجال، أما تولد علم دقائق المعاملات؛ فالصفاء والرقة، وأما ما تولد علم المقامات؛ فصحة الإرادة ولذة المحبة، وأما تولد علم الحالات؛ فالشوق والعشق، وأما تولد علم الكرامات والفراسات؛ فطمأنينة النفس الأمّارة بالذكر وسكون القلب بنور اليقين، وأما تولد علم بطون الأفعال؛ فالحيرة في القدر ومباشرة لطائف الألفة، وأما تولد علم الصفات؛ فالإنس والجن بالجمال والوله في الجلال، وأما تولد علم الذات؛ فالمحو في الأزل والصحو في الأبد، وأما تولد علم أسرار القدم؛ فالوقوف على العلم المجهول والحكمة المجهولة، ويقتضيان ذلك حالتين حالة السكر، وحالة الصحو؛ فالسكر يقتضي لذلك العالم إفشاء السر بلسان العلم المجهول، وذلك غلبة نطق الأزلية والصحو يقتضي الخرس والكتمان عن إفشاء السر، وجميع ما ذكرنا يتعلق بشيئين بالمكاشفة والمشاهدة؛ فإذا بدا للعالم العارف لوائح أوائل الكشوف ولوامع الشهود في المشهود يقف سره على موارد الصفات، وسر سره على موارد الذات؛ فيعرف السر من كل صفة طريقًا خاصًا من الحق إلى الحق، ويذوق طعمًا منها غير طعم صفة أخرى في رؤيتها، ويعرف سر السر من رؤية الذات طرقًا من الذات إلى الذات ،وذوقًا خاصًا خارجًا عن ذوق الصفات؛ فبقي العالم العارف مع معلومه ومعروفه بخلق الربوبية حتى صار ربانيًا صمدانيًا جلاليًا جماليًا أبديًا، قال الله: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾

قال بعضهم: العلوم خمسة علم يصلح لكسب الدنيا، وعلم يصلح لخدمة السلاطين، وعلم يصلح لكسبه الرياء والزينة، وعلم يصلح للعبادة والمجاهدة، وعلم يصلح لكسب

الحرية والانقطاع، وهو أجل العلوم.

وقال يوسف بن الحسين: أجلّ العلوم ما أخذها العبد من الحق بغير واسطة لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمٗا﴾ لكن فيها اغترارات وأخطار.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَـٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَـٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَـٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ خاف يوسف ﷺ بنيامين من معرفته على قلبه وشوقه إلى يوسف ﷺ لو أن يعرف يوسف ﷺ بغتة هلك؛ فآواه إليه ليعرفه الحال بالتدريج حتى يحتمل أثقال السرور برؤية يوسف ﷺ، وأيضًا رأى وحشة حيث بقي وحيدًا بلا يوسف ﷺ بين الإخوة فآنسه بقربه؛ وذلك من احتمال بنيامين عذاب الفراق وألم البعد، ولو كانوا كبنيامين لآواهم إليه جميعًا، ولكن الكشف والمشاهدة على قدر ألم المحبة والشوق.

قال الأستاذ: حديث المحبة أقسام اشتاق يعقوب ﷺ إلى لقاء يوسف ﷺ؛ فبقي في الأحزان سنين كثيرة، واشتاق يوسف ﷺ إلى بنيامين؛ فرزق رؤيته في أوجز مدة، هكذا الأمر، فمنهم مرفوق به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال: لئن سجنت عين يعقوب بمفارقة بنيامين، فلقد قرَّ عين يوسف بلقائه؛ كذا الأمر لا يغرب الشمس عن قوم إلا تطلع على آخرين؛ فلما ذاق يوسف وبنيامين طعم الوصال بدوام الوصال، وتلطف في أمر بقائه عنده بما حكي الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ إن الله سبحانه بفضله ولطفه أجرى على يوسف بعض ما أجرى على إخوته في أخذ بنيامين، ونسب السرقة إليهم جميعًا ليتخفف على الإخوة أثقال الجفوة السالفة منهم على يوسف مادام نسبهم إلى السرقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل يوسف شريكًا مع إخوته في إبلائهم إياهم، حيث أخذ بنيامين عنه، ونسبه إلى السرقة ليكونوا جميعًا في الجرم سواء، ويحتمل أن من كرمه فعل ذلك

لئلا يخجلوا فيه بين يديه حيث جعل نفسه معهم شريكًا فيما جرى عليهم وطاب قلب بنيامين برؤية يوسف ووصاله؛ فاحتمل الملامة، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاء العالم محمودة بملامة رؤية المعشوق، وكيف يؤثر الملامة؛ فيمن كان في وصال محبوبه.

أَجِدُ المَلامَةَ فِي هَواكِ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكرِكِ فَلْيَلُمني اللُّوَّمُ

وفي الآية إشارة لذيذة أن من اصطفاه الله في الأزل بمحبته ومعرفته ومشاهدته، حيث خاطب الأرواح والأشباح، وضع في محمله ضاع ملامة الثقلين.

ألا ترى إلى ما فعل آدم صفيه ﷺ اصطفاه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ثم عرض الملامة؛ فحمله بقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ثم هيَّج شهوته إلى حبة الحنطة حتى أكلها، ونادى عليه بلسان الأزلي: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ ذلك من غاية حبه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أن كشف جماله لا يحتمل بلاء الملامة كما فعل يوسف ﷺ ببنيامين آواه إليه وكشف جماله له وخاطبه، ثم نادى عليه بالسرقة ليبقيه معه، والإشارة في قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي: سرقتم أمانة المعرفة، وحقائق الأخوة بيني وبينكم حين فعلتم ما فعلتم بأبيكم وأخيكم.

قال جعفر في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أضمر يوسف في أمره مناديه إياهم بالسرقة ما كان منهم في قصته مع أبيهم أن فعلكم الذي فعلتم مع أبيكم يشبه فعل السراق.

وقيل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ لعاقون لأبيكم في أمر أخيكم؛ حيث أخذتموه منه وختنتموه فيه.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: من سرق قلبه عن ربه، نودي يوم القيامة: ويا سارق، وكل سارق عليه القطع، ومن لم يكن للوصال أهلاً؛ فكل إحسانه ذنوب.

قال الأستاذ: احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعد ما بقي مع يوسف.

ويقال: ما نسب إليه من سوء الأفعال هان غلبه في جنب ما وجد من الوصال.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إن الله سبحانه إذا خصَّ نبيًّا أو وليًّا ألبسه

صفاته بتدريج الحال، ففي كل حالة له كساه نورًا من صفته، فمن جملة صفته كيد الأزل ومكر الأبد؛ فكيدي علم كيده قلب يوسف حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي؛ فعرفه تعالى أسرار لطيف صنائعه وعظيم حقائق أفعاله وقدرته؛ فمعنى كدنا ليوسف ﷺ عرفناه مصالح أمور النبوة والولاية بتأثير كشف الذات والصفات.

قال ابن عطاء: أبليناه بأنواع البلاء حتى أوصلناه إلى محل العز والشرف.

وقال جعفر: أظهرنا عليه بركات آباء الصادقين بها عصمناه به في وقت الهم.

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بيَّن سبحانه أن ما لم يوسف ﷺ وفعل من الألوهية ورؤية كشف مشاهدة الأزل يختص بدرجة كشف جماله أهل محبته وشوقه، ويرفع درجات عارفيه وموحديه بحيث عرفهم ذاته وصفاته يرفع درجة الموحدين والعارفين من مقام العبودية إلى مقام الربوبية، بأن يكسيهم أنوار جوده ووجوده؛ ليعلموا من رؤية كل صفة علمًا فوق علم، ومن رؤية الذات علمًا فوق علم الصفات، كما أن ذاته وصفاته لا نهاية لها، فأيضًا علومها لا نهاية لها؛ فيشرب أطيار أرواح القدسية من بحر قدس قدمه زلال حيوته وعلومه الأزلية الأبدية على مقادير حواصلها؛ فيأتي كل واحد منها من تلك البحار بغريب علم صفاته وجواهر حكم بحار ذاته.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فعلم المريد فوق علم المبتدئ، وعلم المحب فوق علم المريد، وعلم العارف فوق علم المحب، وعلم الموحد فوق علم العارف، ووراء علومهم علم المجهول لا يأتي به إلا الفاني في ذاته الباقي في صفاته.

قيل في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ بالعلم والاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفِراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوحيد، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بمعرفة مكائد النفس، وقيل: بالعصمة والتوفيق.

وقال الجنيد: بإسقاط الكونين عنه، ورفعه عن الالتفات إلى المقام والأحوال ليكون خالصًا بالعلة.

وقال الحسين: فضيلة أرباب الحقائق إسقاط العظيمتين، ومحو الملكوت في الحالتين، وإبطال الخيرين، ونفي الشركة في الوقتين الأزل والأبد، والتفرد بالحق بنفي ما سواه، ورؤية الحق والسماع منه، وذلك قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف؛ فيسقط الأوصاف ويبقى حقًّا محضًا.

وقيل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لأن علوم الخلق محدودات معلومات إلى أن

يبلغ العلم إلى عالم السر والخفيات.

وقال ابن الفرجي: العلوم تتقارب على مقدار الطبائع والتعليم إلى أن ترى مَنْ يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني؛ فذلك الذي لا عالم فوقه من الخلق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ فنسبوا السرقة إلى يوسف ﷺ لكن فرق بين السرقة والسراق؛ فسرق بعضهم قماشة الظاهر ويوسف ﷺ سرق بنرجس عينه المخمور به وورد خده المصبوغ بصبغ الله قلوب العالمين، لكن شتان بين سارق وسارق صدقوا في نسبة يوسف ﷺ إلى السرقة، ولكن لم يعرفوا مسروقه لباب الفؤاد بالمحبة وصميم الأسرار بالشوق والعشق والألفة.

أنشد الشبلي:

لَهَا في طَرفِهَا لَحَظاتُ سحرٍ تُميتُ بِهَا وتُحيي مَنْ تريدُ
وتَسبي العالمين بمقلتيها كأنَّ العالمين لَهَا عبيدُ

مفهوم خطاب الآية بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ من قبل أن بقايا النفوس باقية في قلوبهم في حقد الطبيعة بما بدت من أفواههم ظاهر، وانظر إلى تمكن يوسف ﷺ وأناته، حيث لا يجازيهم، ولا يظهر عليهم الجواب مع علمه بأنه مأخوذ بجزاء قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، وهكذا شأن المعصومين عن الجرائم يؤذيهم الله عند كل فلتة من ألسنتهم، ومن حكمة الله سبحانه أنه أعزا يوسف ﷺ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ حتى يكون شريكًا لهم فيما بدا منهم له.

وقال الأستاذ: كان بنيامين بريء مما رمي به من السرقة؛ فأنطقهم الله حتى رموا يوسف ﷺ بالسرقة واحدًا بواحد ليعلم العالمون أن الجزاء واجب.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إشارة الآية من الحق سبحانه بألا نتخذ بمحبته واصطفائيته ومعرفته وخلته وعشقه وشوقه، إلا من أودع

روحه في بدء الأمر أمانته من ودائع أسرار ملكوته وجبروته في غيب الأزل، وأيضًا أي نحن لا نفشي أسرارنا إلا لمن كان في قلبه استعداد قبول معرفتنا، وأيضًا لا يختار لكشف جمالي إلا من كان قلبه في شوق إلى وصالي.

قال بعض الخراسانيين: الإشارة فيه: إنا لا نأخذ من عبادنا أشد أخذًا ممن ادعى فينا أو اخبر عنا بما لم يكن له الإخبار عنه، إلا من مدَّ يده إلى ما لنا وادعاه لنفسه.

وقال أبو عثمان: لا نتخذ من عبادنا وليًّا إلا من ائتمناه على ودائعنا؛ فحفظها ولم يخن فيها، ولطيفة الواقعة مثل الحبيب إلى الحبيب، ومكر الحبيب للحبيب حتى لا مفارق الحبيب عن الحبيب يتعلل بكل علة حتى يسلب حبيبه، وهيهات من مفارق بين الحبيبين في محل الوصال فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أن تأخذ مكان حبيبي بديلاً، فليس في مذهب المحبة أخذ بديل الحبيب، وفي معناه أنشدوا:

أبى القلبُ إلا حُبَّ ليلى ... وبغضت إليَّ نساءٌ ما لهنَّ ذُنوبُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ انظر كيف فعل بإسرائيل ﷺ سلب منه فاكهتي قلبه، ثم نادى عليهما بالبيع والسرقة والفرقة والعزلة ليزيد عليه بلاؤه في محبته قالوا: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ نسبوه إلى سرقة الصاع، ونادى لسان القدر على أن بنيامين سرق يوسف ﷺ من بينهم وهموا فيما نسبوا إليه، وسبب ذلك أنهم كانوا في زمان البلاء، ومَنْ كان في زمان بلائه يعرف طريق المخرج، وكل الفعل يكون عليه لا له.

قال جعفر: كيف يجوز هذه اللفظة على نبي ابن نبي، وهذا من مشكلات القرآن، ومثله في قضية داود ﷺ ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾، وما كان خصمين وما بغيا، صدق الصادق جعفر ﷺ: إن في القرآن كثيرًا من هذه المتشابهات والمشكلات، ولا يعلم تأويلها إلا الله، والراسخون في العلم، ومما علموا من هاهنا أن الله سبحانه تكلم بالحقيقة والأمثال والعبر والمجاز والخبر والقصص على وفق الواقعة؛ فأخبر من حيث الظاهر عن قصتهم بما قالوا وفعلوا وفي الحقيقة حق ما قال؛ لأن الواقعة لا تخلو من إشارة إلى شيء حقيقي كسرقة يوسف ﷺ بملاحة وجهه قلوب الخلق، وقولهم في ذلك صدق.

وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ حقيقة؛ لأنهم سرقوا الأمانة والعهد من بينهم وبين أبيهم، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ صدق أسرار يوسف ﷺ الذي سمع منه في الخلوة والوصال عنهم، حيث ما أخبرهم ذلك السر ووضع الصاع في متاعه كان بتقريره؛ فكلام الله صدق أخبر عن حقيقة وظاهرها مجاز وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾

بالظاهر ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: عما بين ابنيك من الأسرار التي جرت بينهما في الخلوة والوصال، وتصديق الجميع جواب يعقوب ﷺ بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أخبر يعقوب ﷺ عن حقيقة الأمر بالرضا والإشارة، أي ليس كما يظنون ليس السرقة سرقة الصاع، وما هذا فعل الأنبياء، ولكن سرق ما سرق من أسرار يوسف ﷺ عنكم، وخبره من رؤيته مكامن الغيب بنور النبوة في القلب، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إشارة إلى أنه قال: أنا أرى يوسف ﷺ وبنيامين في مجالس الأنس، وأنا أصبر حتى أوصلها الله إلي، ومعنى الصبر الجميل هاهنا ترك إفشاء السر، وابتلاع هيجان الفرح حتى لا ينكشف سر القدر، ولا ينهتك ستر الربوبية، وهذا من وصف تمكين الأنبياء علم إن بدا هذا الأمر خبرًا، وأن الوصال ورجوع الأحبة إلى الأحباء، وانقطاع زمان البلاء دنا وصال الحبيب، واقتربا واطربا للوصال وأطربا وتصديق ما ذكرنا.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ هذه الترجية من رؤية الوصال بعين اليقين قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ معناه أي: علم ما علمت، وحكم بحكمته على فرقتي حتى يمضي بقية الفراق، وأيضًا الصبر الجميل، هاهنا احتمال البلاء على البلاء برؤية المبقي بوصف إسقاط معارضة السر والشكوى، وأيضًا الصبر الجميل الجلادة في تجرع مرارة

كئوس شراب البلاء على وصف التداني حتى لا يغلب عليه بحر البلية؛ فيغرقه ويلقيه إلى بحر الشكوى، صبرت على بعض الأذى خوف كله، ودافعت عن نفسي؛ فغرت وجرعتها المكروه حتى تدربت، ولو جملة جرعتها لاشمأزت، وأيضًا الصبر الجميل ما يكون بالله قاله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

قال الجنيد: الصبر الجميل أن يُجعل ابتداؤه وانتهاؤه لا يبتدئ فيه بتحير، ولا يقطعه بدعوى بل يمضي في جميع أوقاته على رؤية من إكرامه الصبر.

قال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكوى، ولا إحساس بلوى، ولما ثقل عليه أوقات البلاء ضاق صدره من معاشرة الخلق، وأقبل على الله، وشكا منه عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أسفه كان على رب يوسف ﷺ لأنه رأى من يوسف ﷺ جمال رب يوسف ﷺ بواسطة يوسف ﷺ؛ فلما غاب عنه وفقده تغلل كتمانا على الحقيقة، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وهذا كحال الخليل ﷺ حين اشتاق إلى ربه فتعلل بقوله: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأراد بذلك رؤية المحيي، ومثل هذا احتيال العاشقين تولى عنهم إذ لم يرى ما يرى في يوسف ﷺ عنهم، وقال: يا أسفى على مرآة الله في بلاد الله تذكر أيام بالوصال، وظهور أنوار الجمال، وتأسف بالفراق والانفصال بعد الاتصال.

سَقَى اللهُ أيامًا لنا ولياليًا ... مضت فجرت مِنْ ذكرهن دموعُ

فيا هَل لَهَا مِن الدهرِ أوبة ... وَهَلْ لِي إلى أرضِ الحبيبِ رجوعُ

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ علق ذهاب البصر إلى الحزن، وذهابه كان من فقدان ذلك الجمال بكى حتى ذهب بصره بألا يرى غير حبيبه.

لما تيقنتُ أني لست أبصركم ... غمضتُ عيني فَلَم أنظر إلى أَحَدِ

ولما رأى سبحانه دعوى يعقوب بالصبر الجميل زاد حمل بلائه على بلائه حتى ضاق صدره عن حمل وارد قهر القدم، وخرج بعجز البشرية، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ لأنه تعالى غيور ولا يذر أحدًا من التمكين إلا ناقصًا عن موازات طوارق أقدار الأزل.

ألا ترى إلى قول من قال: من صبر اجتوى، ومن شكر ابتدى، ومن ذكر افترى، ما أعجز الحدثان في ظل نور عظمة الرحمن.

قال الجنيد: في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرح ولم يوفيهم مشتكي لشكواه، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فلم يترك في هذا النفس الوجد له نفسًا حتى أوحي إليه أتأسي على غيرنا، أين ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا من نفسك،

أتأسى وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقينا لك عشرًا، فأنت مع هذا تظهر الشكوى، وتقول صبر جميل.

وقال ابن عطاء: بكاء يعقوب عليه السلام وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف عليه السلام زاد في البكاء، فقال: يا أبت، تبكي عند الفراق، وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة الفراق، وهذا بكاء الدهشة.

وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله إلى يعقوب عليه السلام: يا يعقوب تتأسف على غيري، وعزتي لآخذن عينيك، ولا أردهما عليك حتى تنساه.

وقال: التأسف على الغاية تضييع وقت ثان.

ثم وصف يعقوب عليه السلام بشدة حزنه وذهاب بصره، فقال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الحكمة في ذهاب بصر يعقوب عليه السلام وبقاء بصر آدم عليه السلام وداود عليه السلام أن بكاء يعقوب عليه السلام بكاء الحزن معجون بألم الفراق، وذلك من واقعة فقدان تجلي جمال الحق من مرآة وجه يوسف عليه السلام.

وكان يعقوب عليه السلام في خصائص العشق من الله سبحانه، وكان يغذيه من مقام العشق لطائف الالتباس، فلما فقد ذلك الواسطة فقد مطالعة جمال الحق بعظم شأن الفراق، وبعد يوم التلاق، وذهب نور البصر مع المبصر حتى لا ينظر به إلى شيء دونه.

وبكاء آدم عليه السلام وداود عليه السلام بكاء الندم من مقام البداية والتوبة، ومقام الندم لم يكن قويا حزنه وحرقته، ولو كانا في مقام العشق كما كان يعقوب عليه السلام لذاب وجودهما، وأنى مقام التوبة والندم من مقام العشق والالتباس الذي من عوالي درجات المعرفة، وشأنهما شأن أقوياء المعرفة أعني العشق والالتباس، ألا ترى إلى يونس عليه السلام وشعيب عليه السلام كيف ذهب بصرهما في شوق الله، وكانا لا يبكيان من الندم، بل يبكيان من الشوق إلى جمال الله؛ فذهب بصرهما لذلك.

وفي الحديث المروي: «إنَّ شعيبًا كان بكى حتى عمي، فردَّ الله بصره عليه، ثم بكى حتى عمي فرد الله بصره عليه، فأوحى الله إليه: إن كان هذا البكاء لأجل الجنة؛ فقد أبحتها لك، وإن كان لأجل النار؛ فقد أجرتك عنها، فقال: لا، بل شوقًا إليك فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر سنين»[1].

وهكذا حال يونس عليه السلام في الشوق؛ فعرض الجنة عليه، وأمنه من النار، فقال: بعزتك لو كان بيني وبينك بحر من النار أخوض فيها حتى أصل إليك، وأيضًا كل بكاء يكون من الحزن والغم والخوف يضر بعين صاحبه، وكل بكاء يكون من الشوق والمحبة لا يضر بعين

(١) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (١/ ١٤٩).

صاحبه بل يزيد نورها، ويمكن أن ذهاب بصره غيرة الله عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطة بينه وبينه.

وقال سبحانه: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ وما قال: عُميت عيناه حجب عيني يعقوب عليه السلام عن النظر إلى العالم حتى لا ينظر إلى غير الله؛ فرجع نور بصره إلى بصيرته؛ فيرى بذلك جمال الله سبحانه، لأجل ذلك قال: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾.

وتصديق ذلك ما قاله الشيخ أبو علي الدقاق -رحمة الله عليه: لم يكن في الحقيقة عمى، وإنما كان ذلك حجابًا عن رؤية غير يوسف عليه السلام.

سُئل أبو سعيد القرشي: لِمَ لَمْ تذهب عين آدم عليه السلام وداود عليه السلام من طول بكائهما، وذهبت عين يعقوب عليه السلام؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب عليه السلام كان من فقد ولده، فحفظا وعوقب.

وقال أيضًا: بكاء الأحزان يعمي، وبكاء الشوق يجلي البصر، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، وقال أيضًا: الكظيم الممتلئ من الغم.

وقال ابن عطاء: أراد أن يبكي على يوسف عليه السلام فتغرغرت عيناه؛ فأراد أن يرسلها فوجد لذة البكاء؛ فكظمها وردها في عينيه فابيضتا.

ولي لطيفة تجربة وذلك أن كل نظير من جهة عشق الإنساني؛ فداؤه وتعذيبه أشد من داء محبة الله وتعذيبه؛ لأن في محبة الإنسان كثافة وشدة؛ لأنه منزل الابتلاء والعذاب، وفي محبة الله وعشقه لطفًا وحلاوة ربانية لا يكون بإزائها راحة الجنان، ولذلك هناك البلاء أطيب، والمحبة أعذب، فلما كان يعقوب عليه السلام في أشد المحبة وعظم المحبة تجلد في كظمها، ولذا قال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾؛ لأن هناك مكان الشكوى وشناعة، ولولا أن كظم لفشى حاله أكثر مما فشي في العالم، وصفه بالتمكين في تحمل البلاء، ومن كثرة كظمه الحزن والتأوه احترق مسلك نور الباصرة من مكان الروح الناطقة؛ لأن نور الباصرة تجري من نور روح الناطقة في أضيق طريق من شريان الدماغ، فلما احترق السبيل انسد باب الباصرة، وابيضت عيناه من احتجابها عن أنوار الروح، فلما رأوه حين جدد عليه ذكر يوسف عليه السلام والأسف عليه وهم محجوبون من نور الفراسة في ذلك الوقت من استنشاق ريح يوسف عليه السلام أنكروا على أبيه في ذكر يوسف عليه السلام بقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ لم تعلموا أن العاشق لا يزال ذاكرًا لمعشوقه، وكيف يسكن المحب عن ذكر محبوبه، وهو مستغرق بجميع وجوده في ذكر محبوبه.

فَـإِن تَمْـنَعوا لَـيلى وَحُـسنَ حَديـثِها   فَلَـم تَمْـنَعوا عَنّـي الـبُكا وَالقَوافِـيا

خوّفوه بالهلاك والحرص، وكيف يفزع العاشق من هلاكه في عشق محبوبه وهلاكه وحياته؟!

قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وكيف كان يسكن عن ذكر يوسف ﷺ، وفي بصر سرّه ينظر إلى شاهد خيال يوسف؟!

غـــابَ وفي قلبِـــي لـــه شـــاهدٌ   يولـــعُ إضـــماري بذكـــراه
مـــثلت الفكـــرةُ لي وَجهَـــه   حتـــى كـــأني أراه

قال أبو سعيد القرشي: لا تزال تذكر يوسف ﷺ، فمتى تذكر رب يوسف ﷺ؟

وقال أيضًا: كل مشتاق لا يزال يذكر أنيسه وحبيبه حتى يغيره الناس على ذلك، فإما يموت، وإما يصل إلى قربة.

فلذلك قوله: ﴿تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قيل: أطيب الأشياء في الهوى الهلاك في حكم الهوى، فكيف يخوف بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك، فما سمع ملامتهم ولم يرهم أهلًا لدائه وحمل موارد الحق عليه أعرض عنهم.

وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أن ما أجد من امتحان الله عليَّ وعظيم بلائه، وما أرى فيها من لطائف صنعه وكشوف غرائب وجوده وأنوار وجوده لا البسط إلا في بساط الحق، ولا أحمل ذلك إلا على الحق؛ فإنه يحمل هذه الأثقال التي لو تُحمل على السماوات والأرضين والجبال والبحار لتضمحل وجودها تحت سلطان قهرها، وكيف أذكرها لكم وأنتم محجوبون عن ذلك، وتصديق ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان بث يعقوب ﷺ وحزنه من الله، وكذا شكواه؛ فقال: أشكو منه إليه، وأفرق حزني بين يديه؛ لأن ما منه لا يرجع إلا إليه، ما أطيب شكوى المحب إلى حبيبه؛ لأن الحبيب يعلم مداواة حبيبه لا غير، إلى الله أشكو ما لقيت من الهجر وكثرة البلوى، ومن قلة الصبر، ومن حرق بين الجوانح والحشا كحجم العضا، لا بل أحرّ من الجمر.

قال سهل بن عبد الله: لم يكن حزن يعقوب ﷺ على يوسف ﷺ إنما كان مكاشفًا لما وجد من قلبه شدة الوجد على مفارقة يوسف ﷺ، قال: كيف يكون وجد فراق الحق على مفارقة يوسف ﷺ، قال: كيف يكون وجد فراق الحق وقد عمل بي مفارقة يوسف ﷺ كل هذا فشكا وبث وحزن وما وقع لي من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإني أعلم غيرته على أحبائه وأهل معرفته، إذا شكا إلى أحد إلى غيره يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وأنتم لا تعلمون ذلك، وأيضًا أعلم من الله أن من صبر في

بلائه يجازيه بلقائه الذي لا حجاب فيه، ولا عذاب ولا حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأيضًا أعلم من الله حقائق المكاشفات والمشاهدات والقربات ودقائق علومه الغيبية، ومن كان بهذه الصفة لا يضع حمل مطاياه إلا في فناء عطاياه حتى يفعل ما يشاء.

قيل في المثل: عطاياه لا تحمل إلا مطاياه.

وأنشد ذو النون في هذا المعنى:

إذا ارتحل الكرامُ إليك يومًا ... ليلتمسوك حالاً بعد حالِ

فإن رحالنا خطت رضاه ... بحكمك عن حلول وارتحالِ

فشئنا كيف شئت ولا تكلنا ... إلى تدبيرنا ذي المعالي

ويمكن أنه كان عليه السلام بشيرًا إلى الله سبحانه يوصل إليه يوسف عليه السلام، وبنيامين عن قريب فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتصديق ذلك ما قاله سبحانه عقيب الآية بقوله: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معناه علمي بالله علم حقيقة، وعلمكم به علم استدلال، وقال أيضًا: أعلم من الله إجابة دعوات المضطرين.

وقال بعضهم: أعلم من رحمته على عباده ما لا تعلمون.

قيل: لما شكا إلى الله وجد السلوة من الله.

ويقال: كان يعقوب عليه السلام متحملاً بنفسه وقلبه مستريحًا محمولاً بسره وروحه؛ لأنه علم من الله سبحانه صدق حاله فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معناه والشك اليقين إذا ما تمنى الناس روحًا وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمع.

ومعنى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أنه كان يرى بعين سره، وقدم صفائح قدس الغيب، منقوشًا بذكر الوصال ورؤية ذلك الجمال، ووصل إلى مقام روحه روح نسيم يوسف عليه السلام؛ فحكم حكمًا كاملاً فقال: تحسسوا من يوسف عليه السلام بخواطركم الربانية والإحساس والروحانية حتى تجدونه، وأيضًا تحسسوا بجميع وجودكم وقلوبكم لا بنفوسكم الأمّارة، وأيضًا انقطعوا من جميع الأشياء في طلبه، فإن متفرق الهمة لا يظفر بمأموله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ لا تقنطوا من كرمه ورحمته في إرجاع يوسف عليه السلام وبنيامين إليَّ، وأيضًا تحسسوا من يوسف عليه السلام، ولا تيأسوا من روح الله؛ فإنه لا يبقيكم في

الخجالة بين يديه؛ فإنه يعفو عنكم، وفيه إشارة تعليم عزة قدرته أي: لا تيأسوا من قدرة الله؛ فإنه قادر بأن يوصل يوسف ﷺ إلينا بأقل من طرفة عين، ولو كان فانيًا، وإن مَنْ لم يؤمن بذلك مبعدة من الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وإنهم إن الإياس في مقام الإيمان من صفات النفس الأمّارة، والإياس في صفات المعرفة من صفات القلب، وذلك قنوطه من وصوله إلى مطالعة حقائق القدم، وذلك من غلبة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وتحت ذلك الإياس بحار من حسن الرجاء بالوصال: والبقاء في البقاء، وبعد الفناء في الفناء، وعن رؤية سرمدية القدر.

وقال الجنيد: يحقق رجاء الراجين عند تواتر المحن، وترادف المصائب؛ لأن الله يقول: ﴿لَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، والنبي ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج»[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أما قوله: يا أيها العزيز أي: أيها المتلبس بأنوار الربوبية التي كسبت في الأزل ظاهرًا وباطنًا، أيها الممتنع من أن يراك أحد بالشهوة، وأيها الغالب على سلب قلوب الخلائق بالجمال والجلال مسنا وأهلنا ضر فراقك، وبعد وصالك نحن في ضر جنايتنا محجوبون عن جمالك وأبوك وأهاليك في ضر البعاد عن رؤيتك ووصالك، وأنشد:

كَفَى حزنًا بالوالِهِ الصَّبِّ أن يرى منازلَ مَنْ يهوى معطلة قَفرا

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ من تضير الله إيانا في حقك وعتابه فيما فعلنا، وأيضًا مسَّنا ضُر الخجالة بين يديك، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ بعذر من جنايتنا ما لا يليق بها فعلنا بك بكيل عفوك، وتصدق علينا بالتجاوز عما فعلنا؛ فإن الله يجزي المتصدقين بأنه يعافيك عما هممت به، وبأن يكرمك أحسن الإكرام من لطيف الإنعام، وما أحسن افتقار الفقراء أو المبتدئين عند أكابر القوم، وتواضعهم بين أيديهم، وتسميتهم بأسماء التعظيم، كما فعل بنو إسرائيل عند يوسف ﷺ باءوا بذكر المقاسات والفقر حين رأوا بساطًا بسيطًا عن ملكه وسلطانه.

ثم ذكروا قلة بضاعتهم حين شاهدوا هيبة يوسف ﷺ ومهابته وجلال قدره، فلما انبسط إليهم انبسطوا إليه، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فلما طالعوا أن بضاعتهم لا يليق بمثل بساطه تبسطوا، وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾؛ فإن ما معنى لا يليق بعرض بيعك

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٢٣٠).

وشراك؛ فإن جزاؤك عليه بلا علة وحديث البضاعة والفقر علة طلب الوصال ورؤية الجمال والغرض الكلي: ذلك لأنهم مأمورون بطلب يوسف ﷺ، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾ عرضهم رؤيته ومشاهدته.

وأنشد في معناه:

وما الفقرُ مِنْ أرضِ العَشيرةِ سَاقَنا ولكننا جئنا بلقياك نسعدُ

هذا يكون من قبل المخلوق، فكيف يكون إذا دخلوا عشاق جمال القدم في بساط الكرم؟ أي: قالوا ما قال إخوة يوسف ﷺ: مسَّنا وأهلنا الضر، مسَّنا من ضر فراقك، والبعد من وصالك ما لا يحتملها الصنم الصلاب.

خليلي ما ألقاه في الحبِ عن ندم على صخرة يتعلق بها الصحن

ويقولون: جئنا ببضاعة مزجاة من أعمال مغلولة، وأفعال مغشوشة نفسانية حدثانية، ومعرفة قليلة عاجزة عن إدراك ذرة من أنوار عظمتك، وكل هذا لا يليق بعزتك وجلال صمديتك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا﴾ كيل قربك ووصالك من بحار فضلك وجودك، وتصدق علينا أعطنا من نعم مشاهدتك التي لا تعطيها أحدًا إلا بتفضلك بغير الأعواض بقولك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قيل في هذه الآية: تعليم آداب الدعاء، والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبة السادات؛ فمَنْ لم يرجع إلى باب سيده بالذلة والافتقار وتذليل النفس وتصغير ما يبدو منها، ويرى أن ما من بيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق كان مبتعدًا مطرودًا.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: أي: مسَّنا الضر في ارتكاب المعاصي، وبما اجتمع علينا من الجنايات والمخالفات، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ بأنفس قاصرة عن الخلاصة، وأعمال لا تصلح لبساط المشاهدة والنشر، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: نوْف علينا بما لم نزل بعد فيه من فضلك وإحسانك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ اجعلنا منك بمحل الفقراء إليك الذين يستوجبون الصدقة منك تفضلًا، وإن لم يكن منهم فألحقنا بهم.

وقال سهل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾: أي: أيها المغلوب في نفسه كما قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني.

ويقال: استلطفوا بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم، ويقال: لما طالعوا فقرهم نطقوا بقدرهم فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾، ولما شاهدوا قدر

يوسف ﷺ سألوا على قدره، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فلما ذكروا حديث الصدقة ترحم عليهم يوسف ﷺ وهاج سره إلى إظهار الحال، وحيث رأى عجزهم وتواضعهم لم يبق له قرار حتى كشف الحال بقوله: ﴿عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس غرضه تعييرهم، بل غرضه تقريبهم؛ فعاتبهم وذكر صنائعهم به وبأخيه تعريفًا منه إياهم بأنه يوسف ﷺ لئلا يبقى لهم شك، ويعرفوه حق المعرفة ووضع عن لهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: ما جرت في زمان الجهل والشباب لا تعيير به، وتمكن أن سر تلك النفس الأمارة باح في البين؛ ليوقفهم في محل الخجالة، ثم أدركه الله حتى بيَّن غدرهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، وهذا كقول بعضهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ في باب العتاب أعظم من كل عقوبة كان يعاقبهم بها، حيث أخجلهم مكافحة.

ويقال: لما خجلوا بهذا العتاب لم يرض يوسف ﷺ حتى بسط عذرهم؛ فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فلما ذكر الإشارة أوقع الله في أسرارهم أن المخاطب هو يوسف ﷺ فقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ فلما عرفوه خاطبوه بخطاب المودة لا بخطاب التكلف قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فأجابهم أيضًا بخطاب المودة تعريفًا وتواصلا وتواضعًا فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾، وأنشدوا:

إذا صَفَتِ المودةُ بين قومٍ ودامَ ولاؤُهم سَمُجَ الثناءُ

ويمكن أنهم لما عرفوه سقط عنهم الهيبة وهاجت لهم الحمية، وما تكلموا بانبساط الأول من حيث القرابية، وقوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ لإظهار صدق الحال، ويمكن أن يشير إلى تعبيرهم حيث قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾، وما قال: أنا أخوكم أي الأخوة الصحيحة ما لم يكن فيها جفاء، ويقال: هوَّن عليهم حال بديهة الخجلة، حيث قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ فكأنه شغلهم بقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؛ فإنه سبحانه شغل موسى ﷺ بسماع قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وفي مطالعة العصا في غير ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم رجع يوسف ﷺ من تعريفه إلى الله، حيث قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: قد تفضل علينا بها وقانا مما وقعتم فيه، وأيضًا قد منَّ الله علينا بالوصال بعد الفراق، وأيضًا قد منَّ الله علينا بالمعرفة والمحبة والرسالة، وعلم الغيب، والبراهين الساطعة، والحسن والجمال الظاهر، والمكاشفة والمشاهدة الباطنة.

ثم بَيَّن أنه تعالى إذا أراد أن يكرم عبدًا ألهمه الصبر في بلائه والتقوى في عباده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ أي: مَنْ يتق في الخلوة عن متابعة الشهوة والوقوع في النهمة وصبر عن انقياد هوى النفس بعد جريان الهمة.

قال ابن عطاء: مَنْ يتق ارتكاب المحارم، ويصبر على أداء الفرائض؛ فإن الله لا يضيع سعي من أحسن في هذين المقامين، واعتمد على الله، ولم يعتمد سعيه ولا علمه.

ولما رجع يوسف ﷺ إلى ذكره تفضل الله عليه وعلى أخيه، وذكر توحيده أوقعهم الله ذلك إلى رؤية توحيد الله بقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ رجعوا إلى الله في أول مقالتهم، وذكروا فضله عليه، ثم أتوا إلى مذمة أنفسهم أي: آثرك الله علينا بالخَلق والخُلق والحسن والجمال والملك والشرف والمكاشفة والعلم ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: جاهلين بجاهك.

قال بعضهم: اختارك وقدمك علينا بحسن التوفيق والعصمة، وترك المكافأة على الإشارة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لمسيئين إليك، فلما سمع يوسف ﷺ اعتذارهم أرجع نفسه ونفوسهم إلى مقادير السابق، ثم استعمل الكرم والظرافة في الخلق بقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: هذا يوم الوصال وكشف الجمال، يرفع العذاب، لا يوم التعيير والتثريب، وفي هذه الحالة إشارة إلى أن الأولين والآخرين إذا دخلوا في سابقة الكبرياء وسكت لهم ألسنة العذر، يبسط الله سبحانه أوراق الأقدار والتي جرت في سبق السابق بما كان، وما سيكون وتحمل أعمالهم جميعًا على مطية القدر، ويبرئهم عن الجرائم، ويقول: من أفضاله وكرمه: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فإن أفعالهم جرت بمقاديري، وكيف كنتم تدفعون مقاديري كأنه تعالى يضع العذر على القدر، ويغفر لهم جميعًا بقوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بيَّن الجرم وغلب العفو والكرم على العتاب والمؤاخذة.

قال جعفر ﷺ: لا عيب عليكم فيما عملتم، لأنكم كنتم مجبورين عليه، وذلك في سابق القضاء عليكم.

قال أبو عثمان: ليس لمن أذنب أن يعاتب مذنبً، وكيف أعييكم، وقد سبق مني الهم والاختيار للسجن، وقولي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وكيف ألومكم فيما عملتم وأنسى ما عملت؟

قال شاه الكرماني رحمة الله عليه: من نظر إلى الخلق بعين الحق سلم من مخالفاتهم، ومن نظر إليهم بعينه أفنى أيامه في مخاصماتهم، ألا ترى إلى يوسف ﷺ لما علم مجاري القضاء كيف

عذر إخوته، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

قال أبو بكر: اعتذروا إليه، وأقروا بالجناية بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، وهذا من شرط الكرم أن يعفو إذا قدر، ويقبل عذر من اعتذر.

وقال الأستاذ: أسرع يوسف ﷺ التجاوز عنهم، ووعد يعقوب ﷺ لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ﴾؛ لأنه كان أشد حبًّا لهم فعاتبهم، وأما يوسف ﷺ فلم يرهم أهلاً للعتاب، فتجاوز عنهم على الوهلة.

ويقال: ما أصابهم في الحال من الخجلة قام مقام كل عقوبة ﷺ، ولهذا قيل في المثل: «كفى للمقصر حياء يوم اللقاء».

ولما فرغ يوسف ﷺ من كشف حاله مع إخوته ووصاله معهم، رتب شغل وصال يعقوب ﷺ، ومن كرمه وجلاله أعطى وصاله أولاً للخاطئين، ثم للعاشقين؛ لأن الخاطئ ضعيف لا يحتمل البلاء، والعاشق قوي يحتمل البلاء؛ لأن يعقوب ﷺ يرى يوسف ﷺ كل وقت بعين سره، فاحتمل بلاءه بذلك.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحكمة في إرسال القميص أنه علم أن يعقوب ﷺ لا يحتمل الوصال الكل بالبديهة؛ فجعل وصاله بالتدريج لئلا يهلك في أول الملاقاة من فرح الوجدان، فأرسل القميص ليقويه بريحه وطيب روحه، ولأن عيني يعقوب ﷺ ابيضتا لم تكونا عمياوين إنما ضعف نورهما؛ فأرسل القميص لذهاب بياضهما: فإنه لو يشم يوسف ﷺ بعينه احترق بقية نورهما من فورة الهيجان، فخاف على عينيه، وأيضًا إن قميص يوسف ﷺ كان من نسج الجنة؛ فرأى يوسف ﷺ غيرة الحق فأرسل القميص إليه ليشم أولاً رائحة بساط القرب، وأيضًا كان قميص يوسف ﷺ علامة بينه وبين أبيه، فأشار إليه بالقميص، أي: إذا كان بالقميص السلامة من حرق الذنب فأنا أيضًا بالسلامة.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر ﷺ قال: كان المراد في القميص أنه أتاه الهم من قبل القميص بقوله: ﴿وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فأحب أن يدخل السرور من جهته التي دخل الهم به عليه.

ويقال: كان العمى في العين؛ فأمر بإلقاء القميص عليه ليجد الشفاء من العمى.

ويقال: لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في اللقاء للعين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وَمـا بـاتَ مَطـوِيًّا عَـلى أَرْيَحِـيَّةٍ   بِعَقْـبِ النَّوى إِلّا فتـى بـاتَ مُغـرَمًا

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرم يوسف ﷺ يقتضي أن يذهب إلى أبيه ولا يستحضره؛ ولكن أبى نازع العشق إلا أن يزيد البلاء على العاشق، ومَنْ يرى معشوقًا في الكونين رحيمًا بعاشقه؛ فإن اقتضى الظاهر الأدب غلب العشق على الرسوم حتى يزيد عشقُه على عشقِه، وشوقُه على شوقِه، ويرى يوسف ﷺ فتوته؛ فآثر أجر السعي على أبيه، كان سخيًّا بدينه لا بدنياه، وذلك من عزة أبيه عنده، وشارك الأهل؛ لأنهم أيضًا قاسوا أيضًا مقاساة الفراق أراد أن يشتركوا في الفرح.

ويقال: علم يوسف ﷺ أن يعقوب ﷺ لا يطيق القيام بكفاية أمر يوسف ﷺ فاستحضره إبقاء على حاله لا إذلالاً بقدره، وما عليه من إجلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرج من مصر هبت ريح الصبا على القميص، وجاءت إلى يعقوب ﷺ وهبت على وجهه، ونشقته ريح يوسف ﷺ فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وجد ريح يوسف ﷺ من مسافة ثلاثين فرسخًا؛ لأنه كان في كل أنفاسه، مستنشقًا لريح يوسف ﷺ، وهكذا شأن كل عاشق يتعرضون لنفحات ريح وصال الأزل، ويستنشقون نسائم ورد مشاهدة الأبد، بقلوب حاضرة، وعيون باكية في الخلوات والصحاري والفلوات كأنهم ينشدون هذين البيتين كل وقت شوقًا إلى تلك المعادن:

أَيـا جـبلي نُعـمانَ بـاللهِ خَلِيـا   طَـريقَ الـصَّبا يَخْلُـصُ إِلَيَّ نَـسيمُها

فَـإِنَّ الـصَّبا ريـحٌ إِذا مـا تَنَـسَّمَتْ   عَـلى نَفْـسِ مَهمـوم تَجَلَّـتْ هُمـومُها

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن»[1]، ما أطيب حال المحبين حيث راقبوا روائح كشف الصفات من معدن الذات، وطلبتهم عرائس القدم في قميص الالتباس كأنهم ينشدون من غاية الشوق إلى تلك المعاهد هذين البيتين:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

سَلامٌ علَى تلكَ المعاهِدِ إنَّها شريعةُ وِردي أو مهبُ شمالِي
فقد صرت أرضى مِنْ سواكن أرضها بخلبِ برقٍ أو بطيفِ خيالِ

فديت لهذه القضية الحسنة الإلهية، ما أحسن شمائلها، وما أطيب لطائفها، وما أنور روائها، انظر كيف أخبر سبحانه من حسن أحوال العاشقين والمعشوقين، قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ علم يوسف ﷺ مواساة ريح الصَّبا، وأودعه ريحه حتى أسرع البشير في إيصال الخبر إلى يعقوب ﷺ شوقًا منه إلى وصال يعقوب ﷺ.

أذكر في هذا المعنى أبيات لطيفة:

نسيم الصبا بلِّغ سَلامي إليهم وأرفقْ بفضلِك بالهبوبِ عليهم
وقلْ لهم إني وإن كنت نازحًا فروحي وقلبي حاضران لديهم
نسيمَ الصَّبا إنْ جئتَ أرضَ أحبَّتي فخُصَّهُمُ منِّي بكلِّ سلامِ
وبلغْهُمُ أني رهينُ صبابةٍ وأنَّ غَرامي فوقَ كلِّ غرامِ

ومعنى قوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ علم أن مَنْ لم يكن في بلاء المعشوق لم يستنشق ريح المعشوق؛ فيريب المخبر بما كوشف له.

قال جعفر: يقال: إن ريح الصبا سأل الله، فقال: خصني بأن أبشره بابنه، فأذن الله له في ذلك فكان يعقوب ﷺ ساجدًا فرفع رأسه، وقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فقال له أولاده: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: محبتك القديمة، وكان الريح ممزوجة بالعناية والشفقة والرحمة والأخبار بزوال المحنة، وكذلك المؤمن المتحقق يجد نسيم الإيمان في قلبه، وروح المعرفة من العناية التي سبقت له من الله في سره.

قال الأستاذ: كان أمر يوسف ﷺ وحديثه على يعقوب ﷺ مشكلاً، فلما زالت المحنة تغيرت بكل وجه الحالة.

قيل: كان من يوسف ﷺ على يعقوب ﷺ أقل من مرحلة حيث ألقوه في الجب؛ فاستتر عليه خبره، وحاله ولما زال البلاء وجد ريحه، وبينهما مسافة ثمانين فرسخًا من مصر إلى كنعان.

ويقال: لا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، فأما على الأجانب فهذا حديث مشكل أن يكون الإنسان ريح.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تفرس فيهم أنهم يسطون لسان الملامة، فنبَّههم على ترك الملامة؛ فلم ينجح فيهم قوله، فزادوا في الملامة بأن قرنوا كلاً منهم بالقسم

وقالوا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لم يحتشموا أباهم، ولم يراعوا حقه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال: إن يعقوب عليه السلام قد يعرف من الرياح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف عليه السلام كثيرًا حتى جاء الأذان للرياح، وهذا سنة الأحباب مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال.

وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَسْتَهدي الرِّياحَ سَلامَكُم ... إِذا أَقبَلَت مِن نَحوِكُم بِهُبوبِ
وَأَسأَلُها حَملَ السَّلامِ إِلَيكُمُ ... فَإِن هِيَ يَومًا بَلَّغَت فَأَجيبي

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: أنت غائب بسرك في وادي العظمة، وبروحك هائم في فقاد الأزلية، وبعقلك تائه في شوامخ القدرة، وبقلبك مستغرق في بحار الشوق والعشق والمحبة؛ فترى من كل ناحية جمال معشوقك، وتستنشق من جميع الرياح نسيم محبوبك، وأنت واله لا يعتبر قولك بهذا، فأنت تخبر بخبر العاشقين وهيجان المحبين.

قال جعفر: سئل بعضهم: ما العشق؟ قال: ضلال، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

ثم أظهر أنه برهان صدقه وصفاته بالمعجزة الظاهرة بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ الإشارة فيه أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه، وذهب عينه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه؛ فيلقي على وجهه عهد أنسه ورد قدسه، فينفتح عينه بنسيم شمال وصاله، فإذا يرى الحق بالحق لما وصل قميص الحبيب إلى وجه المحب رجع إليه نور عينه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق من قميص يوسف عليه السلام محل تجلي الحق، وقلبه مهب شمال جلاله، وجد منه ريح جنان قدسه ياسمين أنسه، ومحال أن مَنْ وصل إليه شمال جلاله يبقى علة غيرة الفراق، وظلمة العمر؛ لأن نسيمه طبيب أسقام العاشقين، وآلام المحبين، ألا تري إلى قول القائل:

ألا يا نسيمَ الريحِ ما لك كلما تقربت منا زاد نشرك طيبًا
أظن سليمي أخبرت بسقامنا فأعطتك رياها فجئت طيبًا

وحكمة إلقاء القميص على الوجه أن قميص الحبيب لم يكن له موضع إلا وجه العاشق؛ لذلك قال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾، وفي موضع يضع العشاق تراب قدام المعشوقين على عيونهم؛ كيف لا يضعون قميص الأحباب على وجوههم؟

وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ إذا رأى وردًا أو باكورة قبّلها، ووضعها على عينيه، وقال: «هذا حديث عهد بربه»[1].

قال النهرجوري: ألقى على وجهه نور الرضا؛ فارتد يبصر مواقع القضاء.

وقال بعضهم: لما جاء البشير من الله بالصلح منه في بكائه، والتأسف على غيره ورد يوسف ﷺ إليه.

وقال سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب ﷺ قال له يعقوب ﷺ: على أي دين تركت يوسف ﷺ؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

ولما عاينوا معجزة أبيهم، وعرفوا مواضع الخطأ في فراستهم اعتذروا بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: استغفر لنا ما قصرنا في واجب حقوقك، وما بدا منا من إعلام عقوقك، وقلة معرفتنا بنور فراستك، وما يئول عواقب أمور يوسف ﷺ من شرف المنازلات والمقامات والنبوات والرسالات، وأيضًا استغفر لنا تضييع أوقاتنا في متابعة هوائنا، واحتجابنا من رؤية ذنبنا، وما أطيب حال الندامة؛ لأن منها يتولد أنوار الكرامة.

قال بعضهم: أزل عنا اسم العقوق بإظهار الرضا عنا.

قال بعضهم: استغفر لنا ذنوبنا إليك وإلى يوسف ﷺ.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾: جاهلين بأن الله يحفظ أولياءه في المحن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إن يعقوب ﷺ كان عالمًا بالله وأخلاقه العظيمة، وبصفاته المنزهة، وبالأوقات التي هو تعالى يقبل توبة المذنبين، ويغفر ذنوب الخاطئين، ويستجيب دعوة المضطرين، وهو وقت تضوع مسك نفحات شمال وصلته في أرواح المقربين، وفؤاد الصادقين، وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين، وعقول المحبين، ونفوس المريدين، وهم يعرفون منه مكان قبول التوبة، واستجابة

---

(١) رواه البيهقي في «الدعوات الكبرى» (٢/ ١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢/ ٣١) بنحوه.

الدعوة، وعلامتها اقشعرار جلودهم، ووجل قلوبهم، واضطراب صدورهم، وفوران عبراتهم، وهيجان أسرارهم، ووقوع نور التجلي في صميم أفئدتهم، وطيران أرواحهم في رياض الملكوت، وأنوار الجبروت، وهي ترى نسيم صبح الوصال بنعت الرضا عند منازل الثناء، وكشف نقاب النقاب، وأكثر ذلك وقت الأسحار عند تجافي جنوب الأبرار عن مضاجعهم، وانتباههم بركضات عساكر التجلي، وعرائس التدلي حين ينزل بجلاله من هواء القدم إلى عروش البقاء تعالى الله عما أشار إليه أهل الخيال.

قيل في التفسير: أخر على السحر من ليلة الجمعة.

قال ابن عطاء: إن يعقوب ﷺ قال: ارجعوا على يوسف ﷺ، واسألوه أن يجعلكم في حل، ثم أستغفر لكم إن الذنب بينكم وبينه.

قال بعضهم: سوف أسأل ربي أن يأذن لي في الاستغفار لكم لئلا يكون مردودًا فيه، كما ردَّ نوح ﷺ في ولده بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قال الأستاذ: وعدهم الاستغفار؛ لأنه لم يتفرغ من استبشاره إلى استغفاره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ آوى إليه أبويه؛ لأنهما ذاقا طعم مرارة الفراق؛ فخصهما من بينهم بوصاله وتدانيه يوم التلاقي، هناك يتبين تباين منازل الصديقين في المحبة، ومراتب المحبين في الوصلة.

قال الأستاذ: اشتركوا في الدخول، ولكن تباينوا في الإيواء؛ فانفرد الأبوان به لبعدهما من الجفاء، كذلك غدا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه، وفي وجود الجنان؛ ولكن يتباينون في بساطة القربة؛ فيخص به أصل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء، ولما بان حالهما في الإيواء ظهر قدرهما في بساط المؤانسة، ومجلس القربة بقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

قال ابن عطاء: رفع من محلهم بمقدار حزنهم كان عليه وأسفهم، ولم يرفع من أخوته لسرورهم بإتلافه وكذبهم عليه بأنه ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾.

قال محمد بن علي: من دفع من مريد فوق ما يستحقه أفسد عليه بذلك إرادته؛ لأن بعض الصحابة ذكر عن النبي ﷺ قال: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم»[1].

ورفع يوسف ﷺ أبويه على العرش، ولم يرفع إخوته، أنزل كل واحد منهم حيث يستحق من منزلته.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٦)، وأبو داود (٤/ ٢٦١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٦٢).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا﴾ صحت هاهنا بيان المكاشفة، وأوائل المشاهدة التي جرت ذكرها بقوله: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ لما بان سطوع أنوار عزة الله على الصديق العزيز علا هيبته عليهم، وعاينوا ما عاينت الملائكة في آدم ﷺ؛ فخروا له سجدًا بغير اختيارهم؛ لأنه كان كعبة الله التي فيه آيات بينات أنوار مشاهداته وسنا تجليه، وظهور جلاله من إلباس قدرته مقام إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى ذلك في آيات ملكوت السماء، ورأوا ذلك في آيات ملكوت الأرض، لو رأى الملك وأهل مصر فيه ما رأى يعقوب ﷺ وبنوه لخروا له سجدًا كما قال القائل:

لو يسمعونَ كما سمِعتُ كَلامَها ... خرُّوا لِعزَّةَ رُكَّعًا وسُجودا

فلما اقترنت المكاشفة بالمعاينة، قال تعالى ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ أظهر على يعقوب ﷺ كمال علمه بتأويل أحاديث المكاشفات، والآيات المنامات، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: بيانًا بينًا ليس فيه معارضة النفس.

ثم أثنى على الله سبحانه لما أولاه من نعمه الرفيعة، وكراماته الساطعة بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: أخرجني من سجن بلاء النفس وخطوات الشيطان، وأيضًا أطلقني من أسرار الإرادة والمجاهدة والرياضة والامتحان إلى سعة بساط الرضوان والمعرفة والمشاهدة والإيقان، ذكر السجن لأن هناك موضع التهمة، أي: أخرجني بكونه من سجن التهمة بأن أظهر طهارتي من الذلة، وأيضًا بدأ بذكر السجن وما جرى لأجله لئلا يحزن قلوب إخوته، وهذا من شرائط كرم المكرمين، أسقط خجلهم حين أظهر ما جري عليه من الهمة، وطول لبثه في السجن من التفاته إلى غير الله من وقت امتحان، ثم ذكر منازلهم، وما فضل على أبويه وإخوته بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: من بوادي

الفراق إلى منازل الوصال جاء بكم من منازل التفرقة إلى عين الجمع، ومن محل التلوين إلى محل التمكين، ثم رفع بكرمه الجرم عن إخوته واستعمل الأدب حين لم يذكر ذكر القدر تنزيها لقدر الله وقدره من مباشرة العلة بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: ليس من طبائع الأولياء حركات الأعداء، إنما كان شيئًا طارئًا بغير اختيارنا، أغرى الشيطان بالنزغات بيننا لزيادة درجتنا، وصفاء مودتنا.

ثم وصف الله سبحانه باللطف والرحمة والعلم والحكمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لطيف حيث جعلني لطيفًا في حسن وجهي، عليم بنيتي في عفو أخوتي وقبول عذرهم، وأيضًا عليم بخلق صورتي، حكيم حيث خصني بحكمة النبوة والرسالة.

قال السيد جعفر الصادق ﷺ: قال يوسف ﷺ: ﴿أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل أخرجني من الجب وهو أصعب.

قال: لأنه لم يرد مواجهة إخوته بأنكم جفوتموني وألقيتموني في الجب بعد أن قال تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

وقال ابن عطاء: الحكمة أن السجن كان اختياره بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، والجب موضع اضطرار ولم يكن له فيه شيء، وفي الاختيار أفاق شكرانه حين خلصه من فتنة اختياره لنفسه، وعلم أن ما اختياره الحق كان فيه الخيرة، وخاف من اختياره لنفسه لما نجاه الله من ذلك شكره.

وقال الواسطي: قد أحسن بي إذ أخرجني من السجن بعد أن عمدت فيه سواء بقوله لصاحب السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقال جعفر ﷺ: في قوله ربي لطيف لما يشاء أوقف عباده تحت مشيئته، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم، فيكون المشيئة والقدرة له لا لغيره، ثم أظهر لطفه بعباده الذين خصهم بفضله بالمحبة والمعرفة.

وقال الأستاذ: ذكر حديث السجن دون البئر لطول مدة السجن، وقلة مدة البئر.

وقال في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سر برؤية إخوته وإن كانوا أهل الجفاء؛ لأن الأخوة سبقت الحفرة، ثم رجع إلى الحق بالكلية ووصف بما نال من كرمه بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ من ملك النبوة والعلم بحقائق المخاطبة، وأيضًا أعطيتني من ملكك ملك الربوبية حيث ألبستني شواهد

جودك وأنوار جودك حتى أملك بحسني وجمال قلوب العالمين، وأيضًا آتيتني من ملك شاهدتك وعلمتني من حقائق معرفتك.

ثم وصف الله سبحانه بالقدرة القديمة والعظمة الأزلية بقوله: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبيّن مكانته في قربه وساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث كاشف جمالك لي في الدنيا، وعرفتني صفاتك، وتكشف أيضًا نقاب عزتك لي من وجهك الكريم في الآخرة، ثم حاج شوقه إلى جمال الأزل، ورأى تمام نعمة الله عليه فقال تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: توفني حين أخرجتني من رؤية الحدثان، وتدبير الأكوان وما سوي من العرفان والإيقان مما يبدوا إلى من كشف قدمك وجلال أبدك وأنوار ألوهيتك، غيبتني مني فيك حتى لا أبقي أنا فيك وتبقى لي، وألحقني بمَنْ كان حاله بهذه الصفة.

قال سهل: في قوله توفني مسلمًا فيه ثلاثة أشياء، سؤال ضرورة، وإظهار فقر، واكتساب فرض.

وقال أيضًا: أمتّني فإنما مسلم إليك أمرك، مفوض إليك شاني، لا يكون لي إلى نفسي رجوع بحال ولا تدبير في سبب من الأسباب.

قال الدينوري: وألحقني بالصالحين مَنْ أصلحتهم مجالستك وحضرتك، وأسقطت عنهم سمات الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع.

قال أبو سعيد القرشي في نوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ قال: هذا كلام مشتاق لم أجانس إلا بالله.

وقال الأستاذ: قدم الثناء على الدعاء كذلك صفة أهل الولاء، ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أقول بقطع الأسرار عن الأغيار.

قال الأستاذ في قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ علم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فسأل الوفاة.

ويقال: من أمارات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي مثل يوسف ﷺ ألقي في الجب وحبس في السجن فلم يقل توفني مسلمًا.

ولمّا تم له الملك واستقام له الأمر ولقي الأخوة سُجدًا له، ولقي أبويه معه على العرش،قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ نعلم أنه يشتاق إلى لقائه.

ثم بيّن سبحانه أن هذه القصص العجيبة والأنباء الغريبة الأزلية على لسان النبي ﷺ

الأمي أمرًا سماوي عرفه الله بالوحي الصادق والكلام الناطق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ لتخبر العاشقين والمحبين والمؤمنين لتسلي بها ألم فؤادهم وتعرفهم بها الصبر في بلائه، والشكر في آلائه،والشوق إلى لقائه.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أخبر سبحانه أنه جماله وقدرته ألبس أنوار قدرته وهيبته على آيات السموات والأرض، وجعل كل ذرة من العرش إلى الثرى مرآة يتجلى منها لذوي البصائر من العارفين،وذوي العقول من الموحدين، ولا يريها إلا لمن كان له بصير منور بنور الإيقان والعرفان،وأعلمنا أن أهل الجهل والغباوة محتجبون عنها حيث يرون ظاهرها ولا يرون حقائقها، وأيضًا آيات السموات شواهد الملكوت وآيات الأرض سلاسل بيداء الجبروت من العارفين والمحبين.

قال ابن عطاء: نظروا إليها بأعينهم ولم يلاحظوها بأبصارهم، فلا يكشف الأبصار لهم.

وقال: بعضهم لعلمهم من مواضع المكرمات والآيات من الله، وإلا تكاد على مَنْ ظهر ذلك عليهم، ثم شدد الأمر سبحانه ودقق على المجهور في أمر التوحيد وإفراد القدم على الحدوث بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وصف الكل في التوحيد بالإشارة إلى غيره في مقاماتهم، وذلك وصف من نظر إلى الوسائط والشواهد في معرفته وما بدأ من لطيف صنائعه بأهل معرفته حتى بلغ الشرك إلى نهاية أن مَنْ أحب الله تعالى لذوق قلبه من مشاهدته؛ فإنه مشرك في حقيقة التوحيد؛ لأن من أحب حقيقة التوحيد حبه لربوبيته ولوجوده لا بجوده، ومَنْ نظر في رؤية الحق إلى نفسه أو إلى غيره من العرش إلى الثرى لم يكن موحدًا محققًا، وهذا مذهب الجمهور من العارفين.

قال الواسطي: إلا وهم مشركون في ملاحظة الخواطر والحركات.

وقال بعضهم: إلا وهم مشركون في رؤية التقصير عن نفسه والملازمة عليها.

قال الواسطي: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفسًا من نفسه، فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك.

قال الحسين: المقال منوط بالعلل، والأفعال مقرونة بالشرك، والحق بائنًا لجميع ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي: معرفة الله ومحبته، وبذل الروح في طريقة، وانقياد النفس بوصف خنوعها لأمره طريقة، ادعوا من سبقت له الحسنى نبعث العناية في الأزل إلى مشاهدة الله ومحبته وبذل الوجود له، وهذه الدعوة مني على بصيرة ويقين وصدق وذوق وكشف وبيان من الله الذي لا معارضة فيه للنفس والشيطان، وهكذا من اتبعني بوصف المحبة، وطلب المشاهدة والرضوان في الوصال، وكشف الجمال على بيان من معرفتهم، وبيقين بلا شبهة ولا شك ولا تردد.

ثم وصف نفسه بلسان تنبيه وأمره أنه منزه من كل خيال وعلل بقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو منـزّه عن إدراك الخليقة ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما أنا من الملتفتين إلى غير يوسف ﷺ المحبة وطلب الربوبية منه تعالى عن كل خاطر إلا يشوب فيه شوب الحدثان؛ لأن من كان في حيز الحدثان فتوحيده يليق بقدر الحدثان لا يقر قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم منه الفضل والأفضال والبر والنوال على دوام الأحوال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال جلَّ وتعالى.

قال القرشي: من دعي الخلق إلى الله يحتاج أن يكون له صولة وقبول، ويكون هذه الآلات مندرجة في دعوته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ ففرق بين من دعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله يدعوا الخلق إليه به لا يكون لنفسه فيه حظ، والداعي إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه؛ لذلك كثرت الإجابة إلى سبيله لمشاكله الطبع، وقل من يجيب الداعي إلى الحق؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس.

وقال الواسطي في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عمل الفوادح على بصيرة، فلا سَموا ولا نموا له في حقيقته؛ فإن الناس كلهم مفاليس من صحة البصيرة والنخيرة، ولو

لقيت الأنبياء بهاتين الخصلتين لأفلستهم أجمعين، وإني بالبصيرة والعالم كلهم مرتبطون تحت الجناح بها يقومون إليها يؤمرون، والأصل بصورة قاطعة، ونخيرة فائقة لضعف البصائر أطلق من أطلق الثناء من الملأ الأعلى كمَنْ أبصر البحر أخرسه ذكره، فكيف إذا تجاذبته الأمواج وأخذته اللجج، وحقيقة بصيرة الناس هو مشاهدة رؤية الشيء، وهو قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إذ بالله صحت البصائر، والبصيرة أعلى من النور؛ لأنه لا يصح البصيرة لأحد وهو تحق رق ملك وما دام للشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية.

قال بعضهم: الدعاء من البصيرة، والنفاق من ضعف النخيرة.

وقال: البصيرة من لباس الأرواح ليس لها من الأجسام حظ.

وقال الواسطي: على بصيرة أيقن أنه ليس إليه من الهداية شيء، وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ على ذلك، وعلمهم بالتفويض، والتسليم إمرتهم، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أنزه الحق عن أن يروم أحد السبيل إليه إلا به ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ادعى لنفسي مع الحق شامل الكل لِمَنْ له الكل.

وقال ابن عطاء: البصيرة أحرقت المعلوم والموعظة المحجوبة بظلم الأطماع، أما علمت أنه لا يصح بصيرة لأحدٍ وهو تحت رق الملك وأدام الشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية، والبصيرة إذا صحت سلم صاحبها من كل آفة.

وقال ابن عطاء: الفرق بين البصيرة والسكينة أن البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة.

ويقال: البصيرة أن يطلع شموس العرفان؛ فيندرج فيها أنوار العقول.

ولي هاهنا دقيقة فيها مشابهة كلام الكبراء في هذه الآية أدق مما ذكرت من الأول، أي: قل يا محمد هذه التي رأيتم مني من سنن الإلهية التي اختار لي في الأزل هي الشريعة، ووراء الشريعة الطريقة، ووراء الطريقة الحقيقة، ووراء الحقيقة حقيقة الحقيقة، وهي البصيرة وتلك البصيرة إشراق جمال القدم لبصر الروح المطمئنة الساكنة بالله، الطائرة في الله، الهائمة لله التي طارت من قفص العدم في أنوار القدرة، ولا يسكن من طيرانها في أنوار الكبرياء والبقاء إلى الأبد، فموضع البصيرة إدراك نظر تلك الروح، وموضع الإدراك بصر الروح، فتلك البصيرة نور كشف صفات الحق المتصل على السرمدية بذلك الأمور، ويزيد ذلك النور حتى يضمحل فيه ذلك الإدراك، ويغلب سطواته حتى ينطمس تلك العين في ذلك النور، فلا يبقى هناك إلا نور الحق، وكيف يبقى الحدث في القدرة وعز السرمدية بسطواتها، يذهب آثار الحدثين في أوائل ظهور العرفان، أي في هذه حالتي وسبيلي مع الله، وأنا لا أدعوكم إلى هذه فإنها قاصرة

مضمحلة من الحق في الحق بل أدعوكم إلى الله حتى تعرفونه أنكم لا تعرفونه ولا تبصرونه بالحقيقة، فإنه أعز من أن يدرك بالأبصار والبصيرة، وهكذا من سلك سبيلي فأنا يفني في حقيقتي، يعلم أن إدراكه بالحقيقة محال، وسبحان الله هو منزّه عن إدراك المدركين -وإن كان نبيًا مرسلاً، وملكًا مقربًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إنهم يظنون أنه تعالى مدركهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أخبر سبحانه من سنته القائمة، ومشيئته الثابتة القديمة التي أجراها على أهل العناية من الأنبياء والمرسلين والعارفين والمحبين؛ حيث حبسهم في أسجان انتظار كشوف الغيب حتى بلغ قلوبهم إلى محل القنوط من وضوح جلاله وبرهان شمائله وقدسه وعزته، وخافوا من سوابق قهرياته وتنزيه ربوبيته عن كون الخلق وعدمه، فلمّا ذابت قلوبهم، واضمحلت أسرارهم، ومنيت عقولهم، وتحيرت أشباحهم، تطلع بكرمه من مشارق أسرارهم شموس أنور ذاته، وأنوار أقمار صفاته، حتى لا يبقى من ظلمة الالتباس وغبار الوسواس أثر، وهذا حتى قوله سبحانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ خافوا على الغير لا على أنفسهم لئلا يهلكوا، فإنهم في رؤية مشاهدة القدم بأسراره نبعت السرمدية، هذا معنى الانتظار واضطرابهم وشوقهم إلى وضوح الأنوار.

لا من الشك في خصوصية الولاية وسبق العناية في النبوة والرسالة، وفي القراءة قرئ ﴿قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف؛ فعذره أنهم استغرقوا في قلزم[1] الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق، فلمّا لم يروه ناداهم بلسان عبرة قهر القديم، أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فيطلع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر، وهذا دأب[2] الحق مع الأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به من كل ماله.

يقال: حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئًا من الأحوال إلا بعد يأسهم منها.

وقال: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، فكما أنه ينزل المطر بعد

---

(١) القَلْزَمَةُ: ابْتِلاعُ الشَّيْءِ، وبه سُمِّيَ البَحْرُ قُلْزُمًا.

(٢) في المخطوط: أداب.

الإياس؛ فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها، والرضا بالإفلاس عنها.

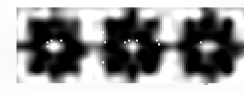
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لزوم الأحوال من العارفين والمحبين والصادقين والمتقين والصابرين والعاشقين؛ لأن فيها من مقلوبات أهل الولاية ما يليق بشأنهم من الفراق والوصال والبلاء والامتحان والعشق والمحبة، وتحمل الجفاء والمكاشفة والبراهين الساطعة، اقتداء بهم وطلبًا لما وصل إليهم من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة.

قال جعفر الصادق ﷺ: أولي الأسرار مع الله.

قال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن اتعظ في أن النفس ليس هي بمحل أمن ولا اعتماد عليها.

قال الأستاذ: منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف ﷺ وفي المن على الرغبة والإحسان إليهم كما فعل يوسف ﷺ لما ملكهم أعتقهم كلهم، ومن العبرة في قصصهم لأرباب التقوى أن يوسف ﷺل ما ترك هواه رقى الله إلى ما دقاه، ومن ذلك العبرة لأهل التقوى في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت ما لقيت من الضرر والفقر، ومن ذلك العبر للمماليك في حفظ حرمة السادة كيوسف ﷺ لما حفظ حرمته في زليخا ملك منك بالعزيز وصرت زليخا امرأته حلالاً، ومن ذلك العفو عند القدرة كيوسف ﷺ حيث تجاوز عن إخونه، ومنها ثمرة الصبر كيعقوب ﷺ لما صبر على مقاسات حزنه، ظفر يوما بلقاء يوسف ﷺ، إلى غير ذلك من الإشارات في قصة يوسف ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه بيان جميع المقامات والمعاملات والمكاشفات والمشاهدات والآيات والكرامات والمنجيات والمهلكات ولطائف الإشارات إلى علوم اللدنية، والأسرار العجيبة، وهدى أي هاديًا لمَنْ له استعداد هذه الواقعات في طريق الله، وما يبدوا منه نعم مشاهدته، وكرائم ألطافه ورحمة، أي: هاديًا لقلوب المحزونين، وباكورة لفؤاد المحبين، وشمومة لأرواح العارفين، الذين يؤمنون بالله لا بأنفسهم، يعرفون ربه لا بيا منه، فإن ما منه محل الامتحان، وهو تعالى بجلاله معادن العرفان، والله أعلم.



سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝﴾.

﴿الٓمٓر﴾ إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته،وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلمّا انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا ينفتح إلا لأهل الأنائية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا ينفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا ينفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا ينفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار .

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنّة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة، وأشار بما عقيبها من القول إليها وإلى أسرار

ما فيها بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ما أشرنا في الحروف أسرار الكتاب وعلامات الخطاب، ولم يكن معوجًا معلولا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بيان وصدق واضح لَمِنْ له أهلية سر الكتاب، ولا يفهم ما فيها من الأسرار ذو فترة غافل، وذو غباوة جاهل بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يعرفون حقائقها، ثم وصف نفسه سبحانه بالقدرة القديمة من الصفات وبالحكمة الأزلية من الأفعال بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ خاطب العموم بخطاب العام، أي: أنا رافع السماء بلا علة من العلل، ونفي العمد إذا كان معلولا، وخاطب الخواص بخطاب الخاص، أي: دفعها بغير عمد يرونها بالأبصار؛ ولكن رفعها بعمد ترونها بالبصائر حيث ينكشف بوصف تجليها لها، وتلك العمد القدرة القديمة الأزلية الباقية، وهي الصفات قامت الأكوان والحدثان بها، ورؤية الصفة حيث تجلت حق كما أن رؤية الذات حق، ثم بين أن قدرته شملت الملك الأعظم بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [1] وأيضًا خلق سموات الأرواح بغير عمد بانت للخلق؛ لأنها مخزونة بسلاسل أنوار الأزل إلى عالم القدم والبقاء، ثم استوي أنوار تجليه على عرش القلوب.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ شمس المعرفة، وقمر العلم، أجراهما بين سموات الأرواح عروش القلب تزيينا للملكة كواشفها ومعارفها، يجريان في عالم العقول بأنوار المشاهدة من رؤية الذات، وكشف الصفات تطلع في سماء الأرواح شموس الذات وفي عروش القلوب أقمار الصفات لانتظام أمور الربوبية وتفصيل حقائق العبودية بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يدبر أمر هموم المحبة ويفصل آيات المعرفة لوقوع أنوار اليقين وحقائق التمكين بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: بهذه الأنوار تعاينون تلك الأسرار،ويرون بقلوبكم مشاهدة الملك الغفار.

قال ابن عطاء: يدبر الأمر بالقضاء السابق، ويفصل الآيات بالأحكام الظاهرة لعلكم تتيقنون أن الله يجري عليكم هذه الأحوال ولا بد لكم من الرجوع إليه، ثم وصف سبحانه عجائب الملك والملكوت، وحكمة الغالبة في مصنوعاته بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ

---

(١) أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت وملوكنا إذا أرادوا التجلِّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم فأخبر الحقُّ- سبحانَه- بما يَقْرُب من فَهْم الخلْق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجَبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود، تفسير القشيري (٣/ ١٩١).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ بسط أراضي قلوب أوليائه ببسط نور المحبة، وجعل فيها رواسي المعرفة؛ لئلا يتزلزل بغلبات هيجان المواجيد، وأجرى فيها أنهار علوم الحقائق، وأنبتت فيها أنواع أزهار الحكم وأشجار الفطن، وأثمرها بثمرات المقامات والحالات بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقرن بكل مقام حالا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ثم يمد عليها أظلال المشاهدة، ويطلع عليها شمس العناية بدوام الكفاية بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ثم وصفها ووصف أصحاب هذه القلوب الذين هم رواسي الأرضين، وأنفاسهم أعمدة السماوات، ورؤيتهم مشكاة أنوار الآيات إنهم علامات شمائله وسرج مشكاة قدرته لأهل التفكر في الإرادة والتذكر في المحبة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ وبهم الغياث، فمَنْ ضرب في الأرض بقصدهم فاز ونجا، ومَنْ كان سعيه لغيهم خاب.

قال الجريري: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلمّا مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا بقدم خطوات وعلا موضعًا عليًّا من الأرض واستقبلني بوجهه، وقال: يا أبا محمد تراني أرجع إلى تلك الخربة، وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشد بقوله:

وا أسفي من فراقِ قومٍ ... همُ المصابيحُ والحصونُ
والأُسْدُ والمزنُ والرَّواسي ... والخيرُ والأمنُ والسُّكونُ
لم تتغير لنا الليالي ... حتى طوَّقهم المنونُ
فكلُّ جمرٍ لنا قلوبٌ ... وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

قال بعضهم: الفكرة تصفية القلوب لموارد الفوائد.

قال أبو عثمان: الفكرة استرواح القلب من وساوس التدبير.

ثم وصف أراضي القلوب وما فيها من أشكال العيوب بقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ قلوب المحبين متجاورات لقلوب المشتاقين، وقلوب المشتاقين متجاورات قلوب العاشقين، وقلوب العاشقين متجاورات قلوب الوالهين، وقلوب الوالهين متجاورات قلوب الهائمين، وقلوب الهائمين متجاورات قلوب العارفين، وقلوب العارفين متجاورات قلوب الموحدين، وفي أرض قلوب العارفين قطع متجاورات قطع النفوس الأمّارة متجاورات بعضها بعضًا، وقطع العقول متجاورات بعضها بعضًا، وقطع الأرواح

متجاورات بعضها بعضًا، وقطع الأسرار متجاورات بعضها بعضًا؛ فقطع النفوس مالحة ملحها الهوى، وقطع العقول عذبة بعذب العلم، وقطع الأرواح طيبة بطيب المعرفة، وقطع الأسرار لطيفة بلطف الأنوار متقاربة بعضها بعضًا؛ فقطعة النفوس تنبت شوك الشهوات، وقطعة العقول تنبت نورة العلوم، وقطعة الأرواح تنبت زهر المعارف، وقطعة الأسرار تنبت كواشف الأنوار ﴿وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ﴾ العشق يسكر منها الأرواح، وفيها زرع دقائق المعرفة تأكل من حبها العقول؛ فترى بها أنواع المعاملات، وفيها يحيل الإيمان ثمرها الإيقان يأكل منها أطيار الأسرار.

قال الله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إيمان مع يقين وعرفان من غير علة الاستدلال، ورؤية الآيات سقي هذه البساتين من زلال قاموس الكبرياء لقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أصل سقيها من عيون الإلوهية بوصف تجليها، وهو واحد منزه عن الأكوان والتغاير لسقيها من سواقي الصفات في جداول الأفعال، فلما وصل مياه التجلي، وأنوار الصفة إلى عالم الفعل، يورث كل صفة الفعل نوعًا من هذه الأشجار والأزهار، ففرع الفعل يتلون بألوان الأحوال، وإن كان أصل منزهًا عن العلل وتغاير الحدثان، وبعض المقام أشرف من بعض لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ ورد المعرفة أنور من نرجس المحبة، ونرجس المحبة من ياسمين الإرادة، وثمر المشاهدة أطيب من ثمرة المراقبة، وهذه الإشارات من الله سبحانه لا يعرفها إلا العالمون بالله بعقول صافية من الأكدار، وقلوب حاضرة مشغولة بالله عن الأغيار لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالعقل ربق الربوبية في مواطن الفطنة والفطرة يزم بها الحق قلوب الخلق ويجريها إلى العبودية لوجدان المعرفة والقربة؛ فمَنْ وافق حاله مع الله في معرفته حال واحد من أوليائه؛ فهما من أصل واحد من غير تباين وتفرق.

كما روى جابر عن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ: «الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ ...﴾ حتى بلغ: ﴿...يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

وقال الحسن البصري: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها؛ فصارت الأرض قطعًا متجاورة؛ فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، ويخرج نباتها ويحي موتاه، ويخرج هذه شجرها وملحها وخبثها وكلتاهما يسقى بماء واحد؛ فلو كان الماء ملحًا، قيل: إنما هذه من قبل الماء

كذلك الناس خلقوا من آدم ﷺ فتنزل عليهم من السماء تذكرة؛ فترق قلوبهم فتخشع وتخضع، وتقسوا قلوب وتلهوا وتسهوا وتجفوا.

عن الجنيد قال: خلق الله الخلق وأظهر آثارها وأحي منبتها متحرفة إلى كل فج عميق وبلد سحيق، وجعلها قطعًا متجاورات، قيعانًا متقاربات، وألوانًا متشابهات، جميعها في النظر وفرقها في المواطن؛ فسقاها بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل؛ فجلّ ربنا -عز وجل- من قادر قاهر، جعل ذلك سببًا إلى معرفته ودلالة لربوبيته.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ لم يتلون الإرادات، وتلونت المرادات كما تلونت الأشجار والثمار، ولم يتلون المياه التي سبقت الأشياء المختلفات، كذلك العلم بالأشياء لا يتلون، وتتلون المعلومات؛ فمَنْ قال: كيف فهو؟ لضيق القدرة عنده وعلل تكوين الحدثات لعلة إثبات الربوبية وامتدادها، ولئلا يسبق إلى الأوهام شيئًا من الكون بغير إرادته، فأراد الموت والحياة والظلمة والضياء -لم يتلون الإرادة، كذلك ما أراد من الكفر والإيمان، قال الله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «العاقل مَن عقل عن الله أمره»[1].

وقال الواسطي: العقل ما عقلك عن المجازي.

ثم بيَّن سبحانه إنما وصف من ذكر آلائه ونعمائه وصنعائه ومصنوعاته لا ينفع بمَنْ لا سعادة سابقة له مساعده، ولا ينفتح له عين غير العقل، بحيث يعجب المخاطب الكريم إنكارهم بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ من غاية استغراقه في بحر الكمال التوحيد، وغلبة صدق الرسالة ﷺ يعجب ممَنْ لا يعرفه بالصدق في رسالته، حيث أطلع من جماله وشمائله شمس آيات القدم ونور قمر الكرم، وأي شيءٍ أعجب من ذلك أن من له عقل ونظر لا يبصر فيه شواهد الملكوت وأنوار الجبروت، إذ الجمادات نطقت بصدق رسالته؛ فتسلاه الحق سبحانه بقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ أي: عجب من ذلك العجب أن من يظهر في نفسه آيات الله في كل لمحة ألف مرة ولم يرها بعين البصيرة ويموت ويحي في كل ساعة ألف مرة، ولا يعرف وجوده من عدم، ولا عدمه من وجوده؛ فإن عند كل نفسين للإنسان موتًا وحياة فعند صعود النفس له موت، وعند دخول النفس في جوفه من طريق الحس حياة؛ ولكن ليس من الحق عجب؛ فإنه تعالى يضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ فإذا ذهب العجب إذ ليس شيء منه عجب.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٦٦).

قال الجنيد: ذهب العجب بقوة سلطان العجب كل العجب من العجب ألا تعجب، قال الله: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾.

قال الحكيم الترمذي: ليس العجب من العجب ممن يتعجب من العجب إذ لا عجب.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۞ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وصف الحق أهل الدعاوي حين تعجلوا بالمجاهدات والرياضات، واستقبالهم بآليات الطريقة قبل ذوقهم شرف الأحوال، ووصولهم إلى طعم المواجيد البديهية من الحق بلا علة الاكتساب، وبروز لمعات الغيب في أسرارهم التي يتولد منه صدق الإرادات في المعاملات، وذلك لأنهم جميعًا حيث أهل الكرامات فتمنوا جاههم عند الخلق ولا ينعقد لهم صدق النية في طريقهم؛ فلا يفتح الله عليهم إلا طريق الهوى والنفس والشهوات وحب الجاه والمال، وعاقبهم الله بسقوطهم عن قلوب الخلق كما فعل سبحانه بأهل الرياء والسمعة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة قبل العافية، ثم بيّن أن مَن سبق لهم العناية من المريدين يسامحه بلطفه، حيث نزل قهر قدمه في مَهَوَات طبيعته بقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ ظلمهم مخالفة عقائدهم واتباعهم هواهم بعد معرفتهم آفات النفوس.

قال بعضهم: إن ربك ليستر على أودّائه ما أظهروا من المخالفات من ظلمهم أنفسهم باتباع هواها والسعي في موافقة رضاها.

قال أبو عثمان: إنما يرجوا المغفرة من الله من يرتكب الذنوب على خطر وخوف وحذر لا من يفتخر فيها من غير مبالاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي: أنت منذر المريدين من عقوبة الحجاب، ومنذر المحبين من مواراة العتاب، ومنذرين العارفين من صولة الإجلال والخجل والحياء في مشاهدة الكمال، ولهؤلاء لكل واحد منهم هو بجلاله تعالى معرفة له طريقة إليه، ويوفقه بما اختار له في الأزل، أي :أنت منذر مخبر عنا ونحن نهديهم إلينا، لأنك شفيع الجنابة

لا شريك القدرة، وأيضًا لكل قوم لكل طائفة من أهل المعرفة شيخ يعرفهم طريق الحق، ولا بأس بأنه فعل الله، وفعله ميراث صفته، وصفته قائمة بذاته، كأنه هو من حيث عين الجمع، ألا ترى إلى قوله لصفيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال ابن عطاء: إنما أنت مخبر عنا بصدق ما أكرمناك به عن القرب والزُّلف.

قال بعضهم: إنما أنت قائم بنا داع إلينا، فالسعيد من أطاعك وقبل منك، والشقي من عصاك وأعرض عنك.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ وصف إحاطة علمه القديم في القدم على كمية كل مقدور قبل ظهوره من العدم، فاستوى علمه القديم بمقادير يومًا أوجدها بعد عدمها؛ بحيث لا ينقص مثقال ذرة، إذا لا نقص في عز ربوبيته وإحاطته بمقدوراته، اصطفى سلاك مسالك معرفته، ومحبته بمقدار اختياره الأزلي قبل اصطفائيتهم، فكلهم يسلكون بمقادير المعرفة السابقة والاصطفائية، وأصل الحقيقة من قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضًا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدثين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ هذا تصديق ما ذكرنا في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لأنه كان عالمًا قبل كون المقدور الغيبي، وعالمًا بعد كون المقدور حين يبدو في عالم الملك والشهادة، وأيضًا عالم ما أسرار العارفين من عجائب كشوف أنوار عزته، والرقاب فؤادهم من الاشتياق إلى جماله، وعالم بشهادة شهودهم في حضرته بوصف الزفرات والتأوه والعبرات، الكبير من أن يدركه الأبصار، المتعالي تعالى كبرياؤه من أن يبقى عند سلطان كبريائه آثار الأغيار بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُۥ﴾[1].

قال ابن عطاء: العالم على الحقيقة من يكون الشاهد والغائب عنده سواء بالعلم، لا بأن يستدل، والعالم على الحقيقة هو الحق -جل وعلا- الكبير في ذاته المتعال في صفاته.

قال جعفر: كبر في قلوب العارفين محله؛ فصغر عندهم كل ما سواه تعالى، إن تقرب إليه إلا بصرف كرمه، ثم وصف إحاطته على كل الضمائر وغيب الخواطر وما يجري على الظواهر بقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: من كتم دقائق حقائق المعرفة وأسرار لطائف الحكمة في قلبه، ولم يتلفظها بلسانه من تمكينه، وزيادة معرفته ومَنْ جهر به بأن يتكلم من رأس سكرة هيجانه، ويخبر بغيب ما غاب من المريدين، ويشاهد خلوة الليالي؛ حيث ينكشف أنوار النزول لنظار الملكوت، وطلاب أنوار الجبروت، أو يستر حاله في ليل الملامة؛ إذ يظهر ما وجد في الخلوة في النهار منه الأبرار، ويخفي كلام المعارف في شرب الأسرار عن نظر الأغيار، فإنه تعالى لا يخفي عليه فرط خاطر المتكلم، وهدوء سره من هيجان التلوين، أو اختفاؤه بنعت الصدق والإخلاص، وظهوره بوصف غلبة الوجد والحال؛ فيقبل منه ما بدا منه، ويزيد عليه إنعامه وإكرامه، فإنه تعالى حافظ أوليائه، حيث حازهم في حيز حفظه ورعايته وأنوار بهائه، حتى يكون مستغرقًا في نوره، محفوظًا بعيون ألطافه، بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ﴾ ما أودعنا فيه من لطائف برّنا، وكتمه إشفاقا عليه، وأظهره ونادي عليه سرورا به، ومحبته له، فإنهما جميعًا من أهل الأمانة في محل الحقيقة، أما المعقبات من بين يديه ومن خلفه، فالإشارة إليها أن أنوار اصطفائيته الأزلية معقبات من خلفه، وأنوار العناية الأبدية معقبات من بين يديه، تحيطه وتحفظه جميعًا من أمر الله، أي من امتحانه في زمان العبودية، وذلك قهره الذي يطارق العبد العارف كل وقت غَيرةً منه عليه، فيكسره عساكر حسن عناية القديم، وجنود أنوار لطائف الاصطفائية، حتى لا

---

(١) أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

يضربه القهر، ويكون محروسًا باللطف، وذلك قوله سبحانه: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وتصديق ذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

فسوابق رحمته تحفظه من غضبه.

قال بعضهم: المحفوظ بالأسباب محفوظ بالمسبب، وأمره، فالعلماء رأوا السبب، والعارفون رأوا المسبب، قال الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

قال ابن عطاء: الأسباب تحفظك من أمره، فإذا جاء القضاء خلى بينك وبينه، كيف يكون محفوظا من هو محفوظ من حافظه، والمحفوظ على الحقيقة من هو محفوظ بالحافظة لا محفوظ من الحافظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لله سبحانه المشيئة السابقة والامتحان، فأما أمر المشيئة قائم بإرادته لا يتغير من شتان المشقة، ولم يكن ذلك ملحقًا بالأسباب، وأمر الامتحان ملحق بأسباب العبودية، ويكون العبد معانًا بالقدرة القديمة من المشيئة السابقة عليه، ومأمور بالتصرف فيه، فإذا تحرك فيه سر القدر بتغير الحال فتغير ما به بقوة القدرة، فيغير الحق سبحانه عليه ما يغير بنفسه من جهة القدرة وقوته مجازاة، وكيف يكون العبد في القدرتين والمشيئتين قادرًا بشيء؟ إنما ذكر الحق سبحانه على غرف الأسباب لإدراك فهوم الخلق ونظام العبودية، فإذا ادعى المريد فوق حاله بما ادعى، يغير عليه ما أعطاه ويشد عليه موارد القربة، ويبقى في الامتحان والفرقة.

قال جعفر الصادق: لا يوفقهم لتغيير أسرارهم، ولا يغير عليهم ولو وفقهم لتغيير الأسرار ومشاهدة الباري لذلوا وافتقروا، فقالوا به النجاة.

وقال النصر آبادي: لكل قوم تغيير وتبديل؛ ولكن لا يناقش العوام في التغيير والتبديل، مثل ما يناقش عليه أهل الصفوة.

قال بعضهم: غيروا ألسنتهم عن حقائق ذكره فغيّر قلوبهم عن لطائف بره، وغيروا أنفسهم عن معاني العبودية، فغيّر قلوبهم عن دلائل الربوبية.

قال الواسطي: حذرهم ما أنزل بهم أن تغييرهم نعمة الله على أنفسهم، وذلك من خذلان الله لهم، فيزيد الله عليهم التغيير، كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

وقال بعضهم: إن الله لا يحرم عبيده نعمة إلا إذا قصروا في شكره أو نسوه.

---

(١) سبق تخريجه.

ولي قول آخر: إن القوم لما امتحنوا وبقوا في امتحانهم ولم يلجئوا إلى الحق نبعت بالتضرع والتواضع والافتقار ولم يغيروا موضع تقصيرهم في دعوتهم في الامتحان؛ فأهملهم الله وألقاهم فيما هم فيه ولو خضعوا له أزال عنهم العلة والامتحان وأعوضهم النعمة مكان البلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

نبّه سر الآية أن جمهور السالكين لا ينجون من محل امتحانه؛ فألزم عليهم نعت القهر، كما ألزم عليهم نعت اللطف، ولا ينفك عنهم نعت القهر ماداموا في العبودية كما لا ينفك عنهم نعت اللطف،وذلك تربية منه لهم، ولا ينفك عنهم وإن تضرعوا وخصوا أو سألوا زوال ذاك، لكن يسهل عليهم جريان أقدار القهر فهو المجري عليهم وهو المستهل عليهم وذلك قوله: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

قال القاسم: إذا أراد الله هلاك قوم حسن في أمنيهم وأراد الهلاك حتى يمشون إليها بأرجلهم وتدبيرهم وهو الذي أتي بهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بيّن سبحانه هزمنا مقامات المريدين والمتوسطين حيث ذكر البرق والخوف والطمع، وأين العارفون من مقام الخوف والرجاء وهم في قنوط النكرة وأمن المعرفة، وأين هم من مقام البرق وهم محترقون في بروق شموس مشاهدة القدم والأزل، هذا حال سلاك الطريقة إذا سافروا في بيداء المحبة والشوق وهم عطاش في سراب الحيرة؛ فيتلطف بهم تعالى وينشئ شمال الشفقة وسحاب الألفة ويريهم برق تجلي المشاهدة ويمطر عليهم وابل أوصال من مزن الجمال؛ فيخافون من فواته تارة، ويطمعون بقاءه تارة، وأيضًا هو الذي يري المحبين برق المكاشفة، ويكشف لهم نور المشاهدة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقال بأنوار الهيبة، ويمطر عليهم طوفان بحر الأزل والآباد؛ فيفنيهم لطوارق العظمة، ويحيهم بماء حياة ألوهية فسقر الإرادة تحت سحاب المنة، وكشف برق المشاهدة وخوف الفرقة وطمع الوصلة.

كما أنشد الشبلي:

أظَلَّتْ علينا منكَ يومًا سَحابةٌ ... أضاءَت لنا بقًا وأبطَا رَشاشُها

فلا غَيْمُها يُجْلي فيَيْأَسَ طامعٌ ... ولا غيثها يأتي فَيرْوَي عِطاشُها

ثم وصف سبحانه أهل كمال بيداء توحيده الذين قاموا عليه بشرط الفناء من مشاهدة قدمه، ورؤية بقائه بالوجد والأحوال والزفرات والعبرات والفناء والبقاء بقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الرعد هاهنا شهقات الصديقين من الوجد والهيجان في بحار العظمة من وقوع أنوار تنزيه القدم في قلوبهم؛ فرعد شهقاتهم لسان الربوبية تقدس ساحة كبريائه عن غار حوادث الحدثان والملائكة أرواح العارفين وهي فانية من إجلال عظمته، ناطق ينطق أزليته بوصف ديموميته، وإذا أشرق شوامخ القدم والبقاء من طلوع شمس الذات والصفات؛ فيقع صواعق الكبرياء على أهل التجريد والتفريد، فيفنيهم عن الحدثان وتحرقهم عن نفوسهم؛ هكذا يفعل بهم سطوات القدوسية وسبحات الألوهية غيره على مشاهدة القدم.

قال ابن البرقي: في هذه الآية يريكم أنوار محبته فمَنْ خائف في استنارة وطامع في تجليه.

وقال أبو علي الثقفي: ورود الأحوال على الأسرار كالبروق لا يمكث بل تلوح، فإذا لاح فربما أزعج من خائف خوفه وربما حرك من محب حبه.

قال أبو بكر بن طاهر: خوفًا من اعتراض الكدورة في صفا المعرفة، وطمعًا في الملازمة في إخلاص المعاملة.

وقال أبو يعقوب الأبهري: خوفًا من القطع والافتراق، وطمعًا في القرب والاستباق.

وقال بعضهم: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

قال ابن عطاء: خوفًا للمسافر، وطمعًا للمقيم.

قال ابن الزنجاني: الوعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

وقال الأستاذ: كما يريهم البرق في الظاهر؛ فيرددهم بين خوف وطمع، خوفًا من احتباس المطر، وطمعًا في محبته، وخوفًا للمسافر في مجيء المطر، وطمعًا للمقيم في مجيئه، كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم الطوالع ثم كالبرق في الضياء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم من قام الوجود إلى كمال الخمود.

ويقال: البروق من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار الفرقان؛ فإن طلعت شموس التوحيد فلا خفاء بعده ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس.

كما قيل: هي الشمس إلا أن الشمس غيبة، وهذا الذي يفنيه ليس يغيب.

ويقال: يبدو لهم أنوار الوصل؛ فتخافون أن يجن عليهم ليالي الفرقة.

قيل: ما تجلوا فرحة الوصال من أن يعقبه رجّة الفراق.

كما قيل:

أَيَّ يَـــومٍ سَرَرتَنـــي بِوِصـــالٍ لَمْ تَرُعنـــي ثَلاثَــــةٌ بِـــصُدودِ

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ إذا أنشئت السحابة في السماء أظلم في الوقت الجو، لكن يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، وما لم يبكِ السحاب لا يضحك الرياض.

كما قيل:

غمامــــةٌ في الــــسماءِ تبكــــي والأرضُ مــــن تحــــتها عــــروسُ

كذلك تنشئ في القلب سحابة الطلب؛ فيحصل للقلب تردد الخاطر، ثم يلوح وجه التحقيق فيضحك الروح بفنون أنوار الأنس وصنوف أزهار القرب.

وقال في قوله ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: قد يكون في القلب حنين وأنين وزفير وشهيق والملائكة، إذا حصل لهم على قلوب المريدين خصوصًا اطلاع يبكون وما لأجلهم لاسيما إذا أوقع لواحد منهم فترة، والفترات في هذه الطريقة الصواعق التي تصيب بها من يشاء، وما قيل ما كان أوليت من وصلنا إلا سراجًا لاح ثم انطفئ.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ دعوته الحق مناداته في الأزل، نبعت محبته وشوقه إلى أرواح المحبين والعارفين؛ فاستجاب بإجابته المحبة والشوق إليه، وأيضًا له دعوة الحق على لسان الصديقين يدعون بها المسترشدين إلى مشاهدة جماله، حين وصفوا جلاله وجماله ليبدو في قلوبهم آثار محبته، وهذه الدعوة سالمة من معينة الهلاك، وما سواها من الدعوة؛ فهو دعوة صاحب النفس والجهل مَنْ رأى الرياء والسمعة لا يفضي إلا إلى الاحتجاب والعمى عن طريق الصواب.

قال الله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما دعاء المرائين من أصحاب النفوس والهوى إلا في ضلال عن طريق الحق والإخلاص.

قال ابن عطاء: أصدق الدعاوي دعاوي الحق؛ فمَنْ أجاب داعي الحق بلغه إلى الحق ومَنْ أجاب داعي النفس رمي به إلى الهلاك.

قال بعضهم: داعي الحق من يدعو بالحق إلى الحق.

وقال جعفر: من دعي نفسه فاني نفسه داعي، وهو الكفر والضلال، وذلك محل الخيانة والإسقاط من درجات من أهل الأمانة؛ فإن الدواعي يختلف داعي الحق وداعي إلى الحق وداعي إلى طريق الحق، كل هؤلاء دعاة يدعون الخلق إلى هذه الطريق لا بأنفسهم؛ فهذه طرق الحق وداعي يدعو بنفسه، فإلى أي شيء دعي فهو ضلال.

وقال الأستاذ: دواعي الحق صارخة في القلوب من حيث البرهان؛ فتدعو العبد بلسان الخواطر، فمَنْ استمع إليها بسمع التفهم استجاب ببيان العلم، وفي مقابلتها دواعي الشيطان، وهي موبقة للعبد تتزين المعاصي؛ فمَنْ أصغي إليها بسمع الغفلة استجاب بصوت الغي ومعها دواعي النفس، وهي قائدة العبد بزمام الحظوظ، ومَنْ ركن إليها ولاحظها وقع في هوان الحجاب، ومن الدواعي دواعي الحق بلا واسطة ملك ولا بدلالة عقل ولا بإشارة علم؛ فمَنْ اسمعه الحق ذلك استجاب لا محالة بالله لله.

وقال في قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ هواجس النفس ودواعيها تدعوا إلى ما في الطريقة شرك، وذلك شهود شيء منك وحسبان أمر وتعريج في أوطان الفرق، والعمى عن حقائق عين الجمع.

وقد وقع لي في زمان الصبا من هذا القبيل في دواعي الحق كلمات مسطورة، وذلك بما تفحصت أسرار الخواطر؛ فوجدت دواعي اللطف والقهر من الحضرة على سبعة أنواع، دعوة الحق خاصة بلا واسطة، ودعوة لمة الملك، ودعوة الروح، ودعوة العقل، ودعوة القلب، ومن قبيل قهره دعوة النفس والشيطان.

والآن أتمم عشرة الثلاثة الزيادة، اثنان من قبيل اللطف، والواحد من قبيل القهر، الاثنان لسان السر ولسان أسرار السر، والواحد لسان الفطرة الطبيعة، وأما دواعي القهريات وأولها دواعي الشيطان وعلامتها النزع، وهيجان النفس، والطبيعة واحتراق الصدر، وغمة في القلب غبار في عين الروح، وخفة في النفس، وانجذاب في الطبيعة إلى طلب حظوظ الشهوات، وأكثر ما يلقي الوسواس ما يفضي إلى الكفر والكبائر؛ فمَنْ أجابت تزندق وهلك في أودية التشبيه والتعطيل والأهواء المختلفة، والثاني هواجس النفس الأمّارة تدعو النفس والشيطان صاحبها بلسان العلم إلى مهالك الرياء والسمعة.

وقيل: مَنْ يعرف ذلك المكر والخديعة؛ فمَنْ أجابها صار مرتهنا بالبطالة والكسالة

والقساوة، ويكون محجوبًا عن حسن الإرادة والصحبة، والثالث داعي الفطرة الطبيعة وذلك سر عجيب هو تحرك الفطرة المخمرة باستعداد قبول الشهوة الخفية التي في مكامن غيب القلب، وهو يكون بعد أن يحركها سر القهر إلى طلب ما خلق لها من لذائذ ميلها وحركتها إلى ما يقوي به من الصفات البشرية والشهوة، وذلك الشهوة الحقيقية التي أضمرتها الفطرة الطبيعة.

وتلك ما استغاث منها النبي ﷺ وقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية مَنْ أجابها بعد حركتها دعوتها صار محجوبًا عن روح الذكر وأنوار الفكر»[1].

والسبعة التي من دواعي اللطف، أولها: دواعي القلب وهو أمر منه لصاحبه بترك الاشتغال لتزكية الأعمال ووقوع صفاء الأذكار لوجدان طمأنيته ولذة اليقين، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ فمَنْ أجابها بنعت المراقبة وتقديس الخواطر يذوق طعم صفاء العبارة ويجد روح الملكوت ونفحة الجبروت.

والثاني: داعي العقل وهو أن يدعو صاحبه إلى تزكية النفس ومجاهدتها ورياضتها وفنون الطاعات والخلوات؛ فمَنْ أجابه وصل إلى أنوار المراقبات والمحاضرات.

والثالث: داعي الروح وهو أن يدعو صاحبها إلى الخوض في تفكير الغيوب، وطلب أسرارها، وطلب رؤية أنوار الملكوت، واستماع أصوات الجبروت، وطلب كشف هلال المشاهدة في المحاضرة وسقي شراب المحبة بكئوس الشوق؛ فمَنْ أجابها بنعت خروجها من أوصاف البشرية وتحليه بالمحلية الروحانية وإسقاط علل الإنسانية يجد حلاوة بروق التجلي من مرآة الإيقان والعرفان.

والرابع: داعي الملك وهو الهامة بأمر الله سبحانه يلهمه بعلم يفرق به بين الحق والباطل من خطوات اللطيفة والقهرية وما يئول عاقبته متابعة الكتاب والسنة؛ فمَنْ أجابه يقع في بحر الحكمة ويستخرج منها جواهر علوم الإلهية.

والخامس: لسان داعي السر وهو أن يدعو إلى تجديد الهمة من الأكوان والحدثين؛ فمَنْ أجابه يصل إلى كشف مشاهدة الرحمن، ويرى بنور تجليه عجائب أسرار المعرفة في خزائن الربوبية.

والسادس: داعي السر وهو لسان النور يناديه من وراء غيب الغيب إلى إفراد القدم عن الحدوث والانخلاع من الوجود، والانسلاخ من جلد العبودية، والإيقان بصفات الربوبية؛ فمَنْ يصل إلى مطالعة مشارق أنوار التجلي الصفات والذات.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٦) بنحوه.

والسابع: داعي الحق بنفسه بلا واسطة هو ثلث مراتب، المرتبة الأولى: مناداته بلسان الأفعال الخاصة ودعاؤه به إلى مشاهدة الصفات في الفعل وهو مقام مشاهدة الالتباس؛ فمَنْ أجابه يقع في بحر العشق الذي يعرفه بأمواج اللطف حيث يدعوه بلطائف الالتباس ولا يبقيه فيه بل يخرجه إلى معادن الصرف ويريه بعض أحكام الصفة لأعلى حد الكمال.

المرتبة الثانية: داعي الصفت وذلك يدعوه إلى النظر إلى طلوع أقمار الصفات من مشارق الذات ليذقه من كل صفة ذوقًا، ويستعين من عين كل صفة شرابًا ليكون كاملاً في حمل موارد أنوار الذات؛ فمَنْ أجابه يقع في نور السماء والنعوت فيطير بجنحي.

وذلك كلام الصوف المقرون خطابه بكشف الحقيقة من عين الذات يدعوه إلى الفناء في كنه القدم وأزلية الذات وأبديته؛ فمَنْ أجاب سره وسر سره إلى ذلك يقع في بحر طوالع شموس، القدم وقدم القدم وأعمار الأبد وأبد الأبد، وينكشف له العين وعين العين، وعجب العجب وغيب غيب الذات؛ فيصير متصفًا بالذات والصفات بعد فنائه في الذات، والصفات بنطقه بعد ذلك نطق الأزل وسمعه سمع الأزل وعينه عين الأزل ويده يد القدرة بقوله: بعد خروج هذا العبد من رسوم العبودية إلى جلال الربوبية كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا؛ فيؤيده عودة وجلال وجوده إلى معرفة نفسه بنفسه، ثم يعرف نفس العبد للعبد، فيعرف الحق بالحق ويعرف نفسه بالحق بعد نسيان نفسه في الحق هذا معنى قوله: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ثم وصف نفسه تعالى بإذعان الوجود بنعت التلاشي بين يدي كبريائه.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ يسجد له أهل الملكوت بعد أن شاهدوا عظمته وخوفه وإجلاله، ويسجد له الآدميون والجن بعد أن شاهدوا أنوار ربوبيته، فمنهم من سجد طوعًا لما كوشف له من أنوار جماله تعالى؛ فيسجد ويخضع محبة وشوقًا وعشقًا ومعرفة وتوحيدًا، ومنهم من سجد له كرهًا في مقام المجاهدة وتكليف العبودية والمتابعة كرهًا لما لم يكشف له دواعي العشق والمحبة والشوق من الحق ومن اللطف معاينة أن العشاق والمحبين يسجدون طوعًا لأنهم في محل العبودية من العشق والمحبة، وأن أهل الكمال من العارفين والموحدين يسجدون له كرهًا لأنه في مقام شهود الربوبية، وهم في الحالين هناك في كرههم في السجود إحداهما أن بعضهم عاين عين القدم وجلال الأزل والأبد، ولا يرون سجود الحدثان يليق بعزة الرحمن بل يرون الحدثين متلاشيين في أول بديهة سطوة جلاله، وأن الخلق والخليقة من خدمته وهو بعزته أعز من أن يقرب إليه أحدًا بسجوده له.

والثاني: أن بعضهم شربوا في بحار الأزلية شربات الإنصاف والاتحاد، ولكن لم يكونوا

كاملين في مقام الانفراد والاتحاد بالربوبية؛ فيسجدون له كرهًا، فإن العبودية شرك في الربوبية ومن كمل منهم لا يكون حاله حال العبودية بل حاله حال الربوبية من استغراقه في أحديته، وليس هناك للعبودية أثر، وسكران التوحيد ينسلخ عنده علة الحدثين؛ فالعبودية على مَن هو سكران غائب، بل فانٍ عن الوجود في الوجود، وأيضًا الإنسان علم الصغير بالصورة، وعالم الكبير المعنى فصورته من أعلاها السماوات، ومن أسفلها الأرض، ومن في السماوات والأرض الروح والعقل والقلب والنفس وجنودهم؛ فيسجد الأرواح طوعًا عند كشف الجمال روحًا وأنسًا، وتسجد القلوب طوعًا عند كشف الجلال إجلالاً وتعظيمًا، ويسجد العقل طوعًا عند كشف الآلاء وأنوار الأفعال ذكرًا وفكرًا واعتبارًا، وتسجد النفوس كرهًا عند كشف أنوار الجبارية والقهارية خوفًا وخشية، وذلك لأنها خلقت أبده بما فيها من نظر القهر ونكرته، ويسجد ظلال الأرواح والقلوب، وهي الأسرار الممكنة التي جعلها الله مرآته بحقائق العرفان؛ فيسجد الأسرار التي هي ظلالها عند طلوع شمس الألوهية من مشرق الأزلية، وغروبها في مغرب الأبدية، وتوحيد أو فناء في بقائه، واضمحلالاً في قدم، وتسجد ظلال النفوس، وهي هواها، راغمت عند طلوع شموس القهريات كرهًا لكره النفوس استسلامًا وانقياد على جناب الربوبية.

قال الجنيد: العارف طوعًا، والمعرض كرهًا.

وقال: إذا نزلت به المصائب ذل، وإذا جاء به الرخاء بل.

قيل: السجود على قسمين، ساجد بنفسه، وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود، وفرق بين من يكون بنفسه ساجدًا، وبين من يكون بقلبه واجدًا فأغرهم من جمع بين الوصفين فيكون ساجدًا بنفسه وواجدًا بقلبه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: لا تستوي المطموس عين قلبه عن شهود مشاهدة القدم ورؤية أنوار الأزل بمَنْ يبصر بصر روحه بنور الحق جمال الحق على نعت السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي ارتفاع ظلمة دخان النفوس في معارك العبودية بسطوع أنور الأرواح إلى صفائح القدس، ينعت بنفسها في مجالس الأنس، وأيضًا من يبصر بنور الحق جمال الحق على نعت

السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي من يبصر رسوم العالم برسوم العلم، ولا يستوي نور وجوه العارفين بما يبدوا من غيره القهر عن وجوه المدعين.

قال أبو عثمان: لا يستوي من كُحِلَ بنور التوفيق وهدي لطريق الخدمة، ومن عمي عنها وحرم دونها، أم هل تستوي من هو في أنوار التوفيق مع من هو في ظلمات التدبير.

وقال أبو حفص الأعمى: حقًا من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من يكون فطرة من ربه إلى المكونات.

قال الأستاذ: من جملة الظلمات الركون في أوطانها التدبير، ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التدبير.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا

رَّابِيًا﴾ شبَّه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتمل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سيلاً؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة: وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من روية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة سابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمنفردين والمتجردين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولهون في الانبساط.

وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد.

وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق.

وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحدثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة.

وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خصَّ كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد ألطافه، ومشرب من مشارب أعطافه.

قال الواسطي: خلق الله ذرة صافية فلاحظها بعين الجمال فذابت حياء منه، فسألت، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليه وجمال الأسرار من نزول ماء ذلك المشرب.

وقال ابن عطاء: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً....﴾ الآية.

فقال: هذا مثل ضربه الله للعبد، وهو أنه إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذي قسم الله للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: قسمة النور، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾: في القلوب الأنوار على ما قسم له في الأزل.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [1] فتلك النور يصير القلب منورًا، فلا يبقى فيه جفوة، و﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يذهب البواطيل، ويبقى الحقائق.

وقال بعضهم: أنزل الله تعالى من السماء أنواع الكرامات؛ فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فكل قلب كان مؤيدًا بنور التوفيق أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور التوحيد أضاء فيه سراج المعرفة، وكل قلب زين بنور المعرفة أضاء فيه أنوار المعرفة، وكل قلب قُيِّد بنور المحبة أضاء فيه لهيب الشوق، وكل قلب عمر بلهيب الشوق أضاء فيه أنس القرب، كذالك القلوب ينقلب من حالة إلى حالة حتى تستغرق في أنوار المشاهدة، وأخذ كل قلب بحظه ونصيبه إلى أن تبدو الأنوار على الشواهد من فضل نور السر.

ثم إن الله سبحانه ضرب مثلاً آخر في تقديس أسرار معاملات العارفين بقوله: ﴿وَمِمَّا

---

(١) كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب ، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قُسم لهم من علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين ، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي، ومثّل العمل الخالص الذي تَصَفَّى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس، ومثَّل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بهما الحلي والحلل؛ ليتزين بها أهلها. البحر المديد (٣/ ١٦١).

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ شبه أعمال الظاهر والباطن وما ينفتح بمفاتيحها من الغيب بجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرها إذا أذيبا لاتخاذها الحلي، وبَيَّن أن لها زبد مثل أن لها زبد، ومثل زبد السيل في ذوبانها؛ فيذهب زبدها بعد إذابتها سريعًا من غلبة النيران، ويمكث في البوتقة أصلها الصافي؛ فكذلك أعمال الظاهر والباطن فيدخل في بوتقة الإخلاص التي تحتها نيران المحبة؛ فيذهب ماء الحظوظ ونظر الأغيار، ويبقى ما هو خالص لله، وكذلك الخواطر فخاطر الحق يبقى في القلب وخاطر الباطن يطير ولا يبقى؛ لأن خاطر الحق من أثقال إلهام الحق؛ فيمكث في القلب خاطر الوسواس هذيان لا أصل له؛ فيفنى سريعًا من غلبة أنوار المعرفة والمحبة.

قال ابن عطاء: ما كان من الأحوال صدقًا ثبت في القلوب بركتها، وما كان غير ذلك فإنها لا تبق فيه خيرًا.

قال الشبلي: احتملت القلوب من الزوائد على مقدار ما فتح الله عليها من أنواع بره.

وقال بعضهم: القلوب أوعية وفيها أودية؛ فقلب يسيل فيه ماء التوبة، وقلب يسيل فيه ماء الرحمة، وقلب يسيل فيه ماء الخوف، وقلب يسيل فيه ماء الرجاء، وقلب يسيل فيه ماء المعرفة،وقلب يسيل فيه ماء الأنس،وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعًا القربة والقرب من الله عز وجل، وبعد هذه القلوب قلوب قاسية حرمة التوفيق؛ فهي في ميادين الشقاق يخبطه إلى أن يبلغها الله مقام الأشقياء.

ولي إشارة أخرى: أن الله سبحانه أوقد نيران المحبة في صميم الأرواح من تأثير تجلي جماله؛ فلما حميت الأرواح من حرق المواجيد تؤثر حرارتها في القلوب، فتلقي القلوب ما فيها من أنواع الشهوات، ثم هاج فطرتها السليمة إلى طلب الحق ومشاهدة؛ فيتعرف من شدة التهاب نيران المحبة والشوق، ويصعد عرفها من قارورة عرق الكواشف والمعارف إلى الأدمغة؛ فيسيل ذلك العرق على أودية العيون وصحاري الوجوه؛ فما أطيب ذلك العرق ويا لها من طيبه ولذته.

كما قيل: كل جمرةٍ فمن أنفاسهم قدحت، وكل داءٍ فمن عين لهم جاري.

ويقال: إن الأنوار إذ تلألأت في القلوب نفت الآثار الظلمة؛ فنور اليقين يفني ظلمة الشك، ونور العلم يفني قمة الجهل، ونور المعرفة يمحو أثر النكرة، ونور المشاهد يفني آثار البشرية، وأنوار الجمع يفني آثار التفرقة، وعند أنوار الحقائق يتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تفني صدفة الليل من حيث حسبان تأثير الأغيار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أشار سبحانه إلى قلوب أوليائه الذين يسمعون بأسماع أرواحهم وقلوبهم وعقولهم وأسرارهم كلام الحق سبحانه من الحق بلا واسطة؛ فيعرفون مكان نزول القرآن على سيد المرسلين، وإمام المتقين -صلوات الله عليه من الله سبحانه بمكان سماعهم كلام الحق من الحق، ويعلمون صدقه في رسالته بما شاهدوه من براهين صفات القدم، ليسوا بمقلدين من حيث طباعهم وإيمانهم الفطري، إنما هو صفة أهل الظاهر من أهل التقليد الذين سماهم العوام بانتسابهم إلى العمى، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا أهل النهى من العارفين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال الشبلي: من استدل عليك بربه ليس كَمَنْ يستدل بك على ربه، وليس من تحقق بما أنزل إليك من جهة الحق كمن يحققه من جهتك وليس من شاهد جيء أن الأشياء في الأزل كمن شاهده في وقت ظهوره.

وقال الأستاذ: أي: لا يستوي البصير والضرير، والقبول بالوصلة، والمودة بالحجة، والمؤهل للتقريب والمعرف للتعذيب.

ثم وصف العلماء بالله القائمون بشرط الوفاء مع عهد الأزل بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ عهد الله مع الصديقين ما عاهد أرواحهم في مشاهدة الأزلية، حيث عشقها بجمال وجهه فوفوا ميثاق العشق بالعشق، والعجب كيف يطيق العاشق أن ينقض عهد معشوقه، وعشقه صار روحه، ومن يطيق أن يفارق روحه، فوفاؤهم معه لزومهم على جناب عزته بنعت الفناء في عبوديته.

قال بعضهم: الموفون بعهدهم القائمون له على شروط العبودية من اتباع الأمر والنهي.

قال ابن عطاء: لا ينقضون الميثاق الأول في وقت يلي أنه لا رب لهم غيره فلا يخافون غيره ولا يرجون سواه ولا يسكنون إلا إليه، ثم ناد سبحانه في وصفهم بوصولهم مراده منهم في طاعته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: الذين يصلون بأسرارهم مشاهدته وقربته، ويخشونه به حيث وقعوا بقلوبهم في بحر إجلاله، ويخافون من عتابه ودقائقه معهم في تغيير إياهم في حركات ضمائرهم، بأن يميل إلى غيره.

وقال ابن عطاء: الذين يديمون على شكر النعمة ومعرفته منه المنعم لدوام النعمة إليهم

وإيصالها لهم.

قال بعضهم: هم المتجاوبون في ذات الله.

قال الواسطي: الخشية منه حقيقة الخوف منه ومن غيره، قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقال بعضهم: الخشية مراقبة القلب ألا يطالع في حال من أحواله غير الحق فيمقته.

قال ابن عطاء: الخشية سراج القلب، والخوف آداب النفس.

وسُئل أبو العباس بن عطاء عن الفرق بين الخوف والخشية، قال: الخشية من السقوط عن الدرجات الزلف، والخوف من الحرق بدركات المقت.

وقال بعضهم: الخشية أرق، والخوف أصلب.

وقال الأستاذ: الوفاء بالعهد باستدامة العرفان وبشرائط الإحسان، والتقى من ارتكاب العصيان، ولي خاطر في الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية مكان العلم والمعرفة بالله بنعت إجلال جلاله وثمرته الحياء، والخوف مكان محبته المقرونة بعبوديته، وثمرته الوفاء بعهد المحبة بنعت اضطراب الخاطر من حزن فراقه.

ثم زاد الله وصف القوم بالصبر في بلائه لأجل لقائه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عما دون الله بالله لله، ولكشف نقابه، والنظر إلى وجهه، وأيضًا صبروا في الله فيما ورد عليهم من أثقال موارد أسراره كتمانًا بها العظم إحاطة أنوار أزليته على قلوبهم طمعًا لوصولهم: أي: إدراك كل الكل.

قال أبو عثمان: صبروا عن المناهي أجمع لا لخوف النار بل بسبب النهي وحرمة عظمة الله.

وقال بعضهم: هذا مقام المريدين أمروا أن يصبروا على أرادتهم وعلى ما يلحقهم من الميثاق، ولا يطلبوا الرفاهية، ولا يرجعوا إليها، ويكون ذلك ابتغاء الحقيقة بصحيح الآراء.

ثم زاد في وصفهم بإقامة الصلاة وإنفاق أموالهم بقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ راقبوا الله وشاهدوه بتقديس الأنفاس، ويبذلون وجودهم ظاهرًا وباطنًا لله وفي الله.

ثم زاد وصفهم بقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بحسنة مشاهدته ولذة محبته ولذيذ شوقه سيئة معارضة النفس ومتابعة الهوى.

قال الأستاذ: يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيبذلون الإنصاف ولا يطلبون

الانتصاب إن غلبهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب عليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوا غيرهم.

كما قيل: إذا مرضنا أتيناكم نفوركم وتذنبون؛ فنأتيكم ونعتذر.

ثم وصف امتنانه عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ الجنات بالتفاوت الجنة مع العموم بساتين الملكوت، وجنة الخصوص معاينة ذات الجبروت؛ فإذا جلسوا على كراسي جنة الملكوت يزورهم أخوانهم من الملائكة ويهنئهم بما فازوا وما ظفروا بقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ أي: من كل أبواب الأهلية بينهم وبين الملائكة في مقام المعرفة والمحبة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: سلامة دوام الوصال وبركة أنوار جماله الحق عليكم ولكم إلى الأبد بلا انقطاع ولا هم أبدًا بما صبرتم في طول الشوق إلى جماله، ونظركم في بلائه.

وقال بعضهم: سلام عليكم بما صبرتم معناه عما لنا.

ثم وصف الله أضدادهم بخروجهم من مكان عبوديته في اتباعهم هواهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ ميثاقه معهم لم يكن مع شرط التوفيق ولو ساعدهم في العهد نور العناية لا يقدرون على نقض العهد؛ لأن الموفق بالتوفيق يكون محفوظًا بعين رعايته عن كل خطر.

وقال أبو القاسم الحكيم: نقض العهد هو السكون إلى غير سكون إليه، والفرح بغير مفروح به، ثم وصفهم بحب الدنيا والفرح بحياتها بقوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ لا يكون الفرح بالدنيا إلا لمَنْ كان معزولاً عن الفرح بمشاهدة الله، ومن كان فرحه بالله كيف يفرح بما دون الله، وإن كان الجنة فإذا لم يفرح بالآخرة فكيف يفرح بالدنيا، والدنيا عند الآخرة كقطرة دم عند بحر الزلال.

قال الواسطي: الدنيا مدرة ولك منها غبرة، ومَنْ أسترته غبرة فهو أقل مستحقًا، ومَنْ ملكه جناح بعوضة أو أقل منه فلذلك قدرة.

وقال أيضًا: لا تدعو الدنيا تفرقكم في بحارها وغرقوها في بحر التوحيد حتى لا يجدوا منها شيئًا.

وقال بعضهم: أخبر الله أن الدنيا في الآخرة متاع، والآخرة أقل خطر في جنب الحقيقة من خطر الدنيا في الآخرة.

وقال أبو عثمان: هوّن الدنيا وحقّرها في أعينهم لئلا يشق عليهم تركها بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ قطع أسباب إضلال أهل الضلال وعلّق الهداية برجوع الراجعين إليه.

قال: يضل من يشاء في الأزل ويرشدهم طريق الإنابة إليه يضلهم عن مشاهدة جماله، ويهدي العارفين إلى مشاهدة وصله.

قال بعضهم: يضل مَنْ قام بنفسه واعتمد عليها مَنْ سبيل رشده ويهدي إلى سبيل رشده مَنْ رجع إليه في جميع أموره، وتبرأ من حوله وقوته.

وقال جعفر: يضل عن إدراكه ووجوده من قصده بنفسه، ويوصل إلى حقائقه من طلبه به، ثم وصف الذين أنابوا به إليه حيث أبصروا ما برز من وجه نبيه ﷺ من أنوار الرسالة، وأيقنوا حقائقه ولم يحتاجوا إلى آية أخرى كطلاب البرهن من رسول الرحمن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ بيّن سبحانه أن ذكر المؤمنين مقرون بإيمانهم؛ فآمنوا بالغيب من حيث الاعتقاد بالغيب بها وهبه الله من نور الإيمان وطمأنينة قلوبهم بذكر الله، والله تعالى غيّبهم آمنوا به ولم يكونوا مطمئنين بإيمانهم بالله لكن مطمئنين بذكر الله فإيمانهم غيب أيضًا، وذكرهم غيب ولو شاهدوه مشاهدة كشف صار غيبهم طمأنينة قلوبهم به، وسقط عنهم الذكر؛ فأما ما دام لم يصلوا إلى مشاهدة المذكور فاقترنت طمأنينة قلوبهم بذاكره، وذكره للمؤمنين على معنيين، ذكر الظاهر على ضربين، ذكرهما اللسان، وذكرهم الآذان، وذلك عند سماعهم ذكر الله، وهذا الذكر الذي من طريق اللسان والسمع يزيد طمأنينتهم من حيث التربية والتواجيد وذكر الباطن، وذلك على حزبين أيضًا، ذكر قلوبهم قدرا الله وجلاله، وذلك من قوله: رؤية آلاء الله ونعمائه، وتفكر في آياته وصنائعه، وذلك كسب القلوب، وما لم يكن من الذكر مكتسبًا؛ فذكر الله قلوب أصفيائه، وذلك يتعلق بواردات غيب أنوار وجوده حيث انكشف لها وهو ذكر خالص إلهي بلا علة ولا سبب وخالص طمأنينتها به وما سواه من الذكر؛ فهو مغلول قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أو بذكره في نفسه إياهم وذكرهم له بعد ذكره لهم، فإذا كان الذكر يأتي من محل الإيمان فيتولد منه الرهبة والرغبة والوجل والخوف والقلق والرجاء وحسن الظن.

وأما إذا كان ذكر الإيمان يكون من محل الإيقان أي: الذين أيقنوا مشاهدة الله ولقائه فهم ذاكرون الله بنور إيقانهم في وجوده ونور الإيقان أشرق من نور الإيمان؛ فنور الإيمان كصبح الأول ونور الإيقان كصبح الثاني، فأهل اليقين في طمأنينة قلوبهم بذكر الله في رؤية أنوار لوائح الحضرة ولوامع نور الإلهية، فذكر قلوبهم بقدر وضع تلك اللوامع، فإذا ذكرهم

الله بكشف أنوار حضرته لهم تطمئن قلوبهم بذكره بعد طمأنينتهم بذكرهم؛ فيتولد من ذكرهم الصدق والإخلاص والتسليم والرضا والتوكل وخالص العبودية، وإذا كان معنى آمنوا شاهدوا الله يكون طمأنينة قلوبهم هاهنا بالله وكشف وجوده، وذلك مثل ذهاب الصبح برؤية طلوع الشمس.

فالأول: من الإيمان علم اليقين.

والثاني: من الإيقان عين اليقين.

والثالث: من مشاهدة الرحمن حق اليقين، وفي مقام المشاهدة زال الذكر والذكر باستيلاء أنوار عظمة المذكور، وهنا ليس مقام الطمأنينة بل مقام فناء القلوب والأرواح والعقول والعلوم والفهوم والأفكار والأذكار في عظمة الملك الجبار، ويتولد من هذا المحبة والوله والشوق والعشق والمعرفة والأنس والتوحيد والتجريد والتفريد والفناء والبقاء، ومعنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وذكر القلوب يعني بالله تطمئن الأرواح.

ومحل الذكر أربعة أشياء، وذكر القلوب من رؤية الآيات، وذكر العقول من رؤية الأفعال في الصنعيات، وذكر الأرواح من رؤية أنوار الصفات، وذكر الأسرار من رؤية سبحات الذات، وها هنا الذكر متصير؛ لأن الذكر غير متناهٍ، فإذا رأى العارف مشاهدة صرف ذاتية فرديته على قدر وجوده، وحاشا أنه محيط بالديمومية والأزلية، فما كان غير مكشوف له فهو مذكور وهو ذاكرة، وإن كان في مشاهدته فهذا الذكر في مشاهدة المذكور، وهذا ذكر عجب ما عرفت طريقًا في المعرفة أدق من هذا، ولا أعرف أحدًا يشير إلى هذا المقام إلا قليلاً من كبراء القوم.

ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: إذا رأوه وأرادوا زيادة كشف الذات والصفات، وعلموا أنهم لم يروه بقدره، ولو رأوه بقدره فنوا فيه فيما لم يروه تطمئن القلوب لرجاء وصولهم إليه، وذلك الزيادة متصور، وإن لم يتصور الإحاطة، وأيضًا معنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ذكر الله لهم في الأزل بحسن اصطفائيتهم بولايته ومعرفته؛ فبقيت لهم تلك الطمأنينة إلى الآباد.

قيل: القلوب على أربعة أنحاء، وقلوب العامة اطمأنت بذكر الله تسبيحه حمده والثناء عليه لرؤية النعمة والعافية، وقلوب الخاصة اطمأنت بذكر الله، وذلك في أخلاقهم وتوكلهم وشكرهم وصبرهم فسكنوا إليه، وقلوب العلماء اطمأنت بالصفات، والأسامي والنعوت، فهم ملاحظون ما يظهر بها، ومنها على الدهور.

وأما الموحدون كالغرقى لا تطمئن قلوبهم بحال كيف تطمئن بذكر من حملوه أم كيف

تطمئن بذكر من لم يؤمنهم بل خوفهم وحذرهم.

قال الحسين: من ذكره الحق تحير في أزله اطمأن إليه في أبده.

وقال النهرجوري: قلوب الأولياء مواضع المطالع، وهي لا تحرك ولا تنزعج بل تطمئن خوفًا من أن يرد عليه مفاجأة مطالعة فتجده مترسمًا بسوء الأدب.

وقال الواسطي: هذه على أربعة ضروب:

فالأول: للعامة لأنها إذا ذكرته ودعته اطمأنت إلى ذكرها له فحظها منه الإجابة للدعوات.

والثاني: إطاعته وصدقته ورضيت عنه فهم مربوطون في أماكن الزيادات اطمأنت قلوبهم إلى ذلك فكانوا ممزوجين الملاحظة بشواهدهم ومقصودي الطبائع برؤية طاعاتهم.

والثالثة: أهل الخصوص الذين عرفوا الأسماء والصفات، وعرفوا ما خاطبهم الله به؛ فاطمأنت قلوبهم بذكره لها ألا بذكرها له وبرضاه عنها لا رضاها عنه.

والرابعة: خصوص الخصوص، وهم الذين كشف لهم عن ذاته وعلمهم علم صفاته؛ فأدرج لهم الصفات في الذات، وأراهم أن ما تعرف إلى الخلق بأقدارهم وعلمهم أخطارهم؛ فعلموا أن سرائرهم لا يقدر أن تطمئن إليه ولا يسكن إليه، ومن كانت الأشياء في سره كذلك إلى ماذا يسكن ويطمئن؟ فلا يجد قلبه طمأنينة لقدر المكان إليه، كلما عادت الزيادة عليه رآها حجابًا لا يستطيع بالبر والنعم؛ لأنها حجاب مستور وهباء منثور، فإن عزمت الدخول في هذا المقام؛ فاحتسب نفسك وأعظم الله أجرك.

وقال الأستاذ: قوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله في الذكر وجدوا سلوتهم وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله لهم؛ فذكرهم الله بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال: إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم واستبشرت واستأنست أسرارهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تقريرًا لها على ما نالت بالله من الحياة.

قال بعضهم: قلوب أهل المعرفة لا تطمئن إلا بالله ولا يسكن إلا إليه؛ لأنها محل نظره قيل اطمأنت إليه لأنها لم تجد دونه موضع أنسه وراحته.

وقال الروذباري: اطمأنت إليه؛ لأنه جللها بالنور وشحنها بالأنس والسرور؛ فاطمأنت إليه ثم أنه سبحانه لم يقنع بذكر الإيمان منهم حتى قرنه بالعمل الصالح بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: أبصروا بعيون أسرارهم أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد وبها وصل إليهم من نور الأحدية أيقنوا ما لم يصل

إليهم منه بما وجدوا منه، ثم اختاروه بما فيه أعمالهم بشرط فنائهم في أوليته وآخريته، وذلك عملهم الصالح فأخبر من جزائهم.

وقال: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: شجر القدم وذات القديم جل ثناؤه لهم، وأغصان الصفات الأزلية الأبدية بشرط الكشف والمشاهدة مأوى أسرارهم وصل شجر الذات بوصف التجلي أكناف أرواحهم، وهناك حسن مآب قلوبهم، وأيضًا أي: طوبى لمن هذا حاله مع الله وحسن رجوعه منه إليه، وطوبى لِمَنْ كان عروس الأزل شاهد مجلسه طوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن في نعمة من وجهك الحسن.

قال الجريري: طوبى لِمَنْ طاب قلبه مع الله لحظة من عمره، ورجع بقلبه إلى ربه في وقت من أوقات.

وقال الشبلي: طوبى لِمَنْ غاب عن حضرته، وحضر في غيبته وأصبح وأمسى مراعيًا لسريرته.

وقال الجنيد: طاب أوقات العارفين بمعروفهم لذلك قال النبي ﷺ: «**وطيب القلب من النعيم**»[1].

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ صدقوا ما ضمنت لهم من الرزق والعمل الصالح ما كان بريئًا من الشرك والرياء والعجب.

قال الأستاذ: طابت أوقاتهم؛ فطابت أنفاسهم.

ويقال: طوبى لِمَنْ قال أحق طوبى له، ويقال: طوبى لهم في الحال، ولهم حسن المآب في المآل.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ لما لم ير الحق سبحانه أهلاً لرؤية وحدانيته، وإدراك حقائق توحيده من الخلق إلا سيد المرسلين صلوات الله عليه اختاره بالرسالة وإنشاء سر التوحيد؛ فأمره أن ينزهه بلسان الحقيقة.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبت ربوبيته حيث رباه بنور ذاته وصفاته، ونفى غيره ولا غيره بالحقيقة دخل في بحر النفي، بقوله: ﴿لَآ﴾ ووصل إلى جواهر وجود القدم والهوية فدار بسره بين دائرة هو واضمحل عن كينونية وجوده؛ فتحرك سر طلب الأصل فيه،

---

(١) لم أقف عليه.

وعرف أنه لا يدركه بنفسه؛ فاستعان بالأزل في معرفة الأزل، واستعاذ به فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ فلما عجز لكل عن حمل هذه المعاني، وحمل السيد حمل جميعهم بالله صار من العالم غرض الكل، لذلك قال: «لولاك لما خلقت الكون»[1]، ولما تام مقام الكل فهو تعالى لم يبال بالكل، وهذه كما قيل:

وكنت ذخر أفكاري لوقت فكان الوقت وقتك والسلام

وكنت أطالب الدنيا لحر فأنت الحر وانقطع الكلام

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ عاتب المؤمنين بهذا القول أي: العتبى لهم بأن يطردوا من رؤية ربهم إلى معادن الأرواح ليعرفوا أهل الاصطفائية مِمَّنْ دونهم من أهل الحجاب، ولا يطيعون إلى إيمانهم؛ فإن سرَّ التقدير حريٌّ يمنعهم من مطالعة جماله.

قال الواسطي: هو على ما يقدر من تصحيح حكمه وأحكام قبضته، ولا يبدل القول لديه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته،

---

(١) ذكره علي القاري في «المصنوع» (١/ ١٥٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢١٤) بنحوه.

وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذّت محبته، ووقفت باللذّة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق.

قال الجنيد: بالله قامت الأشياء، وبه فنيت، وبتجليه حسنت المحاسن وباستنارته قبحت وسمجت.

قال محمد بن الفضل: لا تغفل عمّنْ لا ينفك عنك وراقبه، وكن حذرًا.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ثم بيَّن سبحانه أن مَنْ لم يعرف المحيط بكل شيء القائم على كل نفس ممَّنْ دونه من الحدثان، إن ذلك من قهره عليه وتزيين كفره في عينه بقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ زيّن الله مكرهم بمكره فيهم في الأزل في عيونهم حتى رأوه مستحسنا وهو من أقبح القبائح؛ لأنه موضع هلاكهم وصدهم عن معرفته وحسن مشاهدته، وكيف يخلصون بمكرهم من مكره ويعرف مساوئ مكرهم بعد أن زيّن الله مكرهم لهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون، وهو جنة مشاهدة الذات تجري من تحتها أنهار الصفات، ثمره ثمر أشجار الصفات والذات للمتجردين عن الحدثين دائم بأنهم يعينونها بلا حجاب، ويعيشون في ظلال تجليه بلا غُصة ولا حجاب، تلك منازل أهل الأشواق إلى رؤية الملك الخلاق المتبرئين من الشرك والنفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ مادام في حيز الحدوثية، وإن رأى ما رأى عليه من أنوار الربوبية ووثق عليه بألا يلتفت إلى ما بدا في نفسه

من أنوار الربوبية، ويستقيم في حال العبودية؛ فإن الربوبية في العبودية مكر الحقيقة، ومن نظر من العبودية إلى الربوبية في نفسه فقد أشرك؛ لأنه مخدوع بالله عن الله.

سُئل أبو حفص عن العبودية، قال: ترك كل مالك، وملازمة ما أمرت به.

وقال أبو عثمان: العبودية اتباع الأمر على مشاهدة الأمر.

وقال ابن عطاء والجنيد: لا يرقى أحد من درجات التوحيد حتى يحكم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات، وأوائل البدايات هي الفروض الواجبة، والأوامر الزكية، ومطايا الفضل، وعزائم الأمر، فمَنْ أحكم على نفسه هذا منَّ الله عليه بما بعده.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: بيّنّا حكم عربيا يا عربي، وذلك الحكم ما حكمنا في الأزل بأنك خير البرية، وأعطيناك استعداد قبول تخلقك بخلقنا واتصافك بصفاتنا، فإذا اتصفت بصفتنا رأيتنا بنا وخرجت في مشاهدتنا من الالتفات إلى غيرنا من العرش إلى الثرى؛ فوصفناك في كتابنا بقولنا: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ فتجريد توحيدك حكم عربي بيّناه منك لأمتك؛ ليتصفوا بصفتك ويتخلقوا بخلقك، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تخلقت بخلقنا.

قال بعضهم: أحكام العرب السخاء والشجاعة، وهما من عرى الإيمان.

قال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تصحيح حكم القيافة؛ لأنه لا حكم ينفرد به العرب إلا حكم القيافة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وصف سبحانه تمكين نبيه ﷺ في رسالته، كما وصف الرسل بالتمكين؛ حيث لا يغيره صفات البشرية عن أسرار ما وجد من الله من حقائق القربة والمحبة، بل الأزواج والذرية كانت له ﷺ معينة في بحر سكره، ولولا قسمته أبحر نسبوته متعلقة من تحت سفينة نبوته في بحار محبته ومعرفته، لطارت تلك السفينة بصرصر رياح الأزل في هواء الأبد، ولبقى الحدثان بلا عروس الرحمن، ولم يظفر أحد بحقائق الإيمان.

ألا ترى كيف قال ﷺ من رأس سكره: «كلميني يا حميراء»[1]، وذلك لأن الله أراد بقاءه بين الخلق ليرحمهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ولا يعذبهم ببركته.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأعلم الجهال بهذه الآية أنه إذا شرف وليًا وصديقًا بولايته ومعرفته، لم يَضُر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحًا في ولايته.

قال محمد بن الفضل: جعلنا لهم أزواجًا وذرية، فلم يشغلهم ذلك عن القيام بأداء الرسالة ونصيحة الأمة وإظهار شرائع الدين.

ويقال: أن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الاشتغال لا يؤثر في حاله ولا يضره ذلك من وجه.

ثم بَيَّن سبحانه أن آيته ومعجزته وكرامته خارج عن تصرف الخلق وتعللهم، وإن كان نبيًا أو صديقًا أو ملكًا، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حسم أطماع المريدين عن طلب الكرامات بالمجاهدات، ومنهم من التمسها عن المشايخ، ثم بَيّن سبحانه أنّ أوان ذلك بأجل معلوم في وقت معروف، بقوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لكل مقام ومرتبة من مراتب العارفين لها زمان عند الله سبحانه، لا ينالها أحد قبل بلوغه إلى ذلك الوقت إلا بعد أن يكون مصطفى في الأزل بالدرجات والكرامات.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأيضًا لكل كشف من صفاته وذاته وقت في مراد الله من أوليائه، وذلك الكشف من العيون الصفات والذات لا يكون للعارف إلا ويكون في قلبه شأن محو صفة من البشرية، وإثبات صفة من العبودية وزيادة نور في إيمانه وعرفانه بالربوبية، أيضا لكل مقدر في الأزل في قضية مراد الله من الربوبية والعبودية والنعمة البلية وقت معلوم في علم الله لا يأتي إلا في وقته.

قال جعفر الصادق في قوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ للرؤية وقت.

وقال ابن عطاء: لكل بيان ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريقة، ولكل طريقة أهل، فمَنْ لم يميز بين هذه الأحوال فليس له أن يتكلم بالعرف والحقائق، وعلم هذه الطائفة ومفهوم الإشارة إخبار الحق عن الصفتين الأزليين، وهما الإرادة والعلم، أي: إرادة في إنفاذ القضاء علم في ذاته في كيفية وقوع ما أراد وقوعه من أمور الربوبية؛ فالكتاب علم ذاته يثبت إرادته في علمه ما يشاء، يمحو ما يشاء من القضاء والقدر، فبقي الكتاب كما كان في الأزل،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٥٧)، وابن عجيبة في البحر (٢/ ٣٢٢)، وحقي (١١/ ٩٣).

وبقيت الإرادة كما كانت في الأزل ويتغير أحكام المقضيات والمقدورات للعباد بالعلم والإرادات، بقوله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يمحو بإرادته القديمة من نفوس المريدين صفات البشرية ويثبت في قلوبهم صفات الروحانية، ويمحو من قلوب المحبين معارضة الامتحان، ويثبت في أرواحهم حقيقة نور الإيقان، ويمحو عن أسرار العارفين أوصاف العبودية، ويثبت فيها أوصاف الربوبية، وأيضًا يمحو عن ألواح العقول صورة الأفكار، ويثبت فيها نور الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان، ويثبت فيها لدنيات علم العرفان، وأيضًا ويمحو عن أرواح الصديقين أعلام المرسومات المكتبات، ويثبت فيها نوادر الإلهيات في حقائق المراقبات، وأيضًا يمحو عن عيون العقول شواهد الآيات، ويريها أنوار الصفات، وأيضًا يخفي في القلوب أثار الصفات، ويبدئ لعيونها أنوار الذات، وأيضًا يمحو بفضله خاطر الوسواسية والهواجسية عن قلوبهم الخاصة، ويثبت فيها خواطر حقائق المعرفة، وإذا كان أسرار أهل التوحيد في بحر التجريد بنعت التفريد سائحة فيغرقها الحق في بحار نكرات القدم تارة، تبحيرها وفنائها ويغرقها في بحار معرفة الأزلية ببقائها مع الحق ومشاهداته، فالفناء حق القدم يغلب على البقاء، والبقاء حق الأبد فيغلب على الفناء، وذلك من بدء نور الذات في الصفات، وبدء نور الصفات في الذات، لتلك الأسرار والصفات والذات أصل تلك الغرائب والعجائب بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أم الكتاب المقدورات في الأفعال والصفات، وأم الكتاب الصفات والذات؛ لأن الكل منه بدأ وإليه يعود، فما كان في كتاب الأفعال من القدريات يمحوه ويثبته، وما كان في الذات والصفات منزه عن المحو والإثبات، فكلٌّ متبدل؛ فمن أم الكتاب يتبدل من المقدورات، وكل محو ينهي، فمن أم الكتاب ينهي.

قال الواسطي: منهم من جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم بنفسه، فقال: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، فمَنْ فني عن الحق بالحق قيام الحق بالحق فني عن الربوبية فضلا عن العبودية.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من شواهده حتى لا يكون على سره غير ربه، ويثبت من يشاء في ظلمات شاهده حتى يكون غائبا أبدًا عن ربه.

وقال ابن عطاء: يمحوا الله ما يشاء عن رسوم الشواهد والأعراض، وكل ما يورد على سره من عظمته وحرمته وهبته ولذعات أنواره، فمَنْ أثبته فقد أحضره، ومَنْ محاه فقد غيبه والحاضر مرجوعه لا يعدوه، والغائب لا مرجوع له، يعدوه أو لا يعدوه.

قال الواسطي: يمحوهم عن شاهد الحق ويثبتهم في شواهدهم، ويمحوهم عن

شواهدهم ويثبتهم في شواهد الحق، يمحوا اسم نفوسهم عن نفوسهم، ويثبتهم برسمه.

قال ذو النون: العامة في قبض العبودية إلى أبد الآبد، ومنهم من هو أرفع منهم درجة غلبت عليهم مشاهدة الربوبية، ومنهم من هو أرفع منهم درجة جذبهم الحق، ومحاهم عن نفوسهم، وأثبتهم عنده، لذلك قال: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾.

وقال سهل: يمحو الله ما يشاء ويثبت الأسباب، وعنده أم الكتاب القضاء المبرم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان.

وقال ابن عطاء: يمحو الله أوصافهم ويثبت بأسرارهم؛ لأنها موضع المشاهدة.

وقال الشبلي: يمحوا ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت ما يشاء من شهود الربوبية ودلائلها.

وقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء يكشف عن قلوب أهل محبته أحزان الشوق إليه، ويثبت بتجليه لها السرور والفرح.

قال جعفر: الكتاب الذي قدر فيه الشقاوة والسعادة لا يزاد فيه ولا ينقص، ﴿وَمَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝﴾ [ق:٢٩].

ويقال: يمحو العارفين بكشف جلالهم، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

وقال الأستاذ: المشية لا يتعلق إلا بالحدوث والمحو، والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث، وصفات الحق سبحانه من كلامه وعلمه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله، وقيل يمحوا الله عن قلوب مريديه هم الإرادات، ويرتقي بهم إلى أعلى الدرجات.

قال الواسطي: يمحو ما يشاء عن رسمه ما أثبته في وسمه، ويمحو ما يشاء عن وسمه، وهم الأولياء وخاصة.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾، وظاهر الآية معروف بفتح الأمصار لأهل الإسلام، ولكن فيه إشارة عجيبة أنه تعالى إذا أراد بجلاله أن يزور عارفًا من عرفائه ومحبًا من أحبائه تجلى من ذاته وصفاته له؛ فيقع آثار تجليه بنعت العظمة والكبرياء على الأرض فتروي الأرض من هيبة جلاله حتى تصير كخردله، وذلك من غيبة من الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يا ليت للعاشقين لو يرون ذلك

لطاروا من الفرح به.

كما قيل: لو علمنا أن الزيادة حق لغرسنا الطريق بالياسمين، وأيضًا ينقصها من أطرافها؛ لأن أوليائه وأوتاده في أطراف الأرض، فإذا قبضهم نقص أطراف الأرض بقبضهم عنها.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «في آخر الزمان لا يبقى صاحب موافق إلا في أطراف الأرض، وكل واحد منهم في كل يوم أجر مائتي شهيد، وإذا أراد خراب الأرض أوى أولياؤه إليه، منها ليهلك أهلها بعدهم؛ لأن دعاءهم وبركتهم أثبت أهل الأرض في عوافي ذلك من غيرة الله، ولا مُدفع لغيرته»[1] بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾.

قال محمد بن علي: تخرب الأرضين بذهاب أهل الولاية من بينهم؛ فلا يكون لهم مرجع على ولي في نوائبهم ومحنهم ويتواتر عليهم المحن والنائبات، فلا يكون فيهم من يكشف الله عنهم بدعائه فتخرب.

وقال أبو عثمان: هم الذين ينصحون عباد الله، ويحملونهم على طاعة الله، فإذا ماتوا مات بموتهم مَنْ يصحبهم.

وقال أبو بكر الشاشي: شيء يسبغ عليهم الرزق، ويرفع عنهم البركة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أحكام الحق ماضية على عباده فيما ساء وسر ونفع وضر، فلا ناقض لما أبرم ولا مضل لمن هدى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ في كلام أهل المعرفة بموت الأولياء.

ويقال: هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ كل قصاراه منتهى؛ لأنه سقط في عكره ومكره قائم على كل مُسكر وله نعل لا بكل توم مكر؛ فمكره بالمريدين أن يزين لهم أعمال الطاعات ويجعلهم مسرورين بها، ومكره بالمحبين سكونهم إلى راحات مواجيدهم؛ فيجعلهم مستلذين بها فيصيروا محجوبين عما رأوها من مكاشفات جمال الحق، ومكره بالعارفين أن يرقفهم على

(١) ذكر نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٤٨)، وعزاه للطبراني.

ما وجدوا، حتى ظنوا أنهم واصلون إلى الكل، ومكره بالموحدين أن يغرقهم في بحر البقاء، ومشاهدة الأبدية ولا يطوق عليهم سطوات عزه القدم التي توجب الفناء في النكرة، والفناء في نكرة النكرة، ومن ثم في بحر النكرة؛ فمكره أياسه من الرجوع إلى البقاء المذكور، والكل في مكره، ومكرهم من مكره، ومكره وراء مكرهم يحتالون أن يخرجوا من مكره بمكرهم، ولا يخرجون من مكره إلا بمكره.

قال الحسين: لا مكر بين من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، وللحدث اقتران مع القديم في وقت، والحق بائن وصفاته بائنة إن ذكروا فبأنفسهم، وإن شكروا فلأنفسهم، وإن أطاعوا فلنجاة أنفسهم، ليس للحق منهم شيء بحال؛ لأنه الغني القهار.

قال ابن عطاء: المكر حقيقة ما مكر بهم الحق حتى توهموا أنه يمكرون ولم يعرفوا أنهم مكر بهم، حيث سهل عليهم سبيل المكر.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآية إشارة عجيبة، أي: لو يطالبون شهيد بيني وبينكم بصدق رسالتي؛ فانظروا فإني موضع شهود جمال الحق، فإن ترونني بعين الحقيقة ترون جلاله وجماله وبهاءه في مرآة وجهي؛ فشهود تجليه شاهدي، وأيضًا شاهدي من هذا حاله من الأولياء والصديقين، ومن عنده ينكشف علم ذاته وصفاته وتصديق ذلك إشارته ﷺ بقوله:

«من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»[1].

وأيضًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسراره وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققًا في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفِراسات الصادقة، والآيات الواضحة.

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٥) بنحوه.

قال ﷺ في وصفهم: «إنَّ في أمتي محدَّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم»[١].

وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

قال سهل: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعمل بعلمه عزيز، والإخلاص في العمل أعز، والإخلاص عزيز، والمشاهدة في الإخلاص أعز، والمشاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وأدب محل الأنس أعزّ.

***

سورة إبراهيم



﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ۝ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝﴾

﴿الٓر﴾ في الألف ثلاثة أحرف ألف ولام وفاء، والإشارة فيها إلى ألفته لقلوب أوليائه، واللام لام الولاية، كأنه أليف أوليائه، والراء إشارة إلى رحمة السابقة في اصطفائيته، كأنه قال بالألف إنا، وباللام الأزل، أي أنا في الأزل رحمة أوليائي واصطفيتهم لرؤية جمالي وراحة وصالي لهذه الصفات التي سبقت في اصطفائيته واصطفائيته أمرك وأخبرتك ومحبة أمتك، وما أخبرت بإشارة ﴿الٓر﴾.

﴿كِتَٰبٌ﴾ إن هذا كتاب محبتي، ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ لتعلم فضيلتك وفضيلة أمتك، ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إذا عرفناهم سبق عنايتي لهم تخرجهم بنور

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٣/ ١٧٤)، وابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/ ٧١).

كلامي وأخباري عن كرمي ورحمتي عليهم عن ظلمات طبيعتهم، وغواشي غفلتهم إلى سعة فضاء كرمي ونور بسطي وانبساطي، وأيضًا تخرجهم من ظلمات الظنون إلى نور اليقين، وأيضًا من ظلمات العدم إلى أنوار القدم، ومن ظلمات النفس الأمّارة إلى نور المشاهدة، ومن ظلمات المجاهدة إلى نور المكاشفة، ومن ظلمات رؤية غيري إلى نور رؤية قربي.

قال جعفر في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾[1]: عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم ونجاة أمتك، أنزلناه إليك لنخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى أنوار السنة، ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب.

قال أبو بكر بن طاهر: من ظلمات الظن إلى أنوار الحقيقة.

قال أبو حفص: الظلمة رؤية الفعل والنور رؤية الفضل.

قال الأستاذ: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات التفرقة إلى أنوار الجمع، ثم إخراج الهداية من علة الكسب بقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ ثم بيّن ذلك النور بأن هذا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وهو طريق العبودية الذي اصطفاه الحق لعرفان الربوبية على قدرهم لا على قدره؛ فإنه عزيز ممتنع عن مطالعة الحدث حقائق قدمه، وهو محمود في أفعاله وذاته وصفاته بألسنة أحبائه بما أنالهم عبوديته وهداهم إلى ربوبيته.

ثم وصف نفسه بالألوهية التي بدأ منه الكل وإليه يرجع الكل، وما كان وما سيكون، وما هو حاضر من الملك والملكوت في تصرفه وتدبيره، يهدي فيه ويهدي به، وبما فيه من دلائل صنعه وربوبيته عافيه إلى مشاهدة جلاله وعظيم كبريائه بقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فيه إشارة إلى أحبائه أي أن الكون وما فيه لي من أراد ذلك؛ فليسأل مني لا من غيري، ومن أرادني فلا يلتفت إلى مالي.

قال الواسطي: الكون كله له، فمَنْ طلب الكون فإنه المكون، ومَنْ طلب الحق وحده سخر له الكون بما فيه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وصف الله المرائين الذين

---

(١) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إنَّه لَكِتَابٌ أُنْزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْع بإذن ربهم وبإرادته ومشيئته، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (٤/ ٢٤).

يؤثرون جاه الدنيا ورياستها على طلب الولاية وشرفها، ويصدون المريدين عن طريق القاصدين إلى الله ويصرفون وجوههم إليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ في ظلمات القهر ولا مخرج لهم منها أبدا.

قال أبو علي الجوزجاني: مَنْ أحبَّ الدنيا حرم عليه طريق الآخرة، ومَنْ طلب الآخرة حرم عليه طلب طريق نجاته، ومَنْ طلب طريق النجاة حرم عليه الوصول إلى التفضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ لكل نبي وصدّيق اصطلاح في كلام المعرفة، وطريق المحبة مع قومهم فيعرفهم طريق الحق باصطلاحهم الذي يعرفه قومه وأصحابه تسهيلا لسلوكهم وتيسيرًا لإدراكهم ولو تكلموا بلسان الحق والحقيقة لم يعرفوا ذلك فهلكوا؛ فيفتح تلك الحقائق لَمنْ يشاء من المريدين، ويحجب من يشاء منهم عنها غيره عليها بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ فيه إشارة أن أيام القدم وأيام البقاء، أيام القدم أولية الأولية المنزّه عن دهر الدهار، والزمن الأثار، كان في كان قبل كان وكما كان فيما كان الآن؛ فعشق بنفسه على نفسه، وكان عروس نفسه ولم يكن في كان إلا كان؛ فمضى على كان أيام قدم كان بلا عشق ملهوف، ولا محب معروف، ولا حيران سكران، ولا عارف مكاشف، ولا مؤنس مستأنس يتمتعون بجمال القدم في القدم فيا ويلتا من وصال فائت منّا، وجمال غائب عنّا تذكرت أيامًا ودهرًا صالحًا؛ فبكيت حزنًا فهاجت حزني.

وأما أيام البقاء آخرية الآخرية بلا مرور الحدثان ولا علة الأكوان والأزمان بقاء سرمدي وجمال أحدي ووصال أبدي ويبقى لشهود عشاقه ومطالعة جمال أهل أشواقه كأنه قال ذكرهم أيام القدم ليفنوا حسرة على ما فات عنهم.

على ما فات أبكي من حياتي ... وأيام مضت في النزهات
وذكرهم أيام البقاء ليبقوا ... من فرح وجد إنها أبدا
دنا وصال الحبيب واقتربا ... وأطربا للوصال وأطربا

وأيضًا أي: ذكرهم أيام وصال الأرواح في عالم الأفراح، حيث كشفت قناع الربوبية عن جلال وجد الصمدية لها حتى عشقت بجمالي وبقيت في وصالي وذاقت طعم محبتي من بحر قربتي ما أطيبها، وما ألذها حين كلّمتها بعزيز خطابي، وعرّفتهم حقائق جمالي، فقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف:١٧٢] من غاية محبتي وشوقي لها، قالوا: بلى من شوقي ومحبتي أين تلك الأرواح حيث باعدت من مزار الوصال، وأيام الكشف والجمال؛ ليذكروا زمان الصفاء ولطائف الوفاء؛ ليزيدوا شوقًا على شوق، وعشقًا على عشق.

وكانت بالعراق لنا ليالي ... سلبناهن من ريب الزمان

جعلنا من تاريخ الليالي ... وعنوان المسرة والأماني

وأيضًا ذكرهم سرور مشاهدتي وخوفيهم عن مقاطعتي؛ فإن شأنهما عظيم وخطرهما جسيم.

نهايات راحات النفوس وصالها

وغايات لذات العيون لقاؤها

واشوقاه إلى تلك الأيام الصافية عن كدورة البشرية

واشوقاه إلى أيام كشف النقاب بلا علة العتاب

كان لي مشرب يصفو برؤيتكم

فكدرته يد الأيام حين صفا

ثم بيّن سبحانه أن فوت أيام القدم رزية عظيمة لكل صبّار في الفراق، وإن رجاء وصول أيام البقاء سرور عظيم لكل شكور أنعام المشاهدة والمعرفة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال بعض المشايخ: ذكرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريفه التوحيد قبل حلولها في الأشباح .

سقيًا لها ولطيبها ولحسنها وبهائها ... أيام لم يلح النوى بين العصا ولحائها

ويقال: ذكرهم الله بأيام الله هي أيام التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يقول بفعله الأزلي عبادي ولم يكن للعبد عين ولا أثر ولا للمخلوق منه خبر، حين لا وفاق بعد ولا شقاق ولا وفاء ولا جفاء ولا جهد للسابقين ولا عناء ولا ورد للمقتصدين ولا بكاء ولا ذنب للظالمين ولا التواء، كان متعلق العلم، متناول القدرة، مقصورا الحكم على الإرادة، ولا علم له ولا اختيار ولا زلة ولا أوزار، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور.

قال الأستاذ: الصابر غريق المحن لكنه راضي بحكمه، لذيذ العيش بسره، وإن كان مستوجبًا لرحمته عن خلقيه، والشكور غريق المنن، لكنه محجوب بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه، بل هذا واقف مع صبره، وهذا واقف مع شكره، وكل ملازم بحده وقدره، والله غالب على أمره مقدس في نفسه متعزز بجلال قدسه.

قال أبو الحسن الوراق: في هذا الآية فتح عليهم سبيل الشكر لئلا تغيروا بالنعم.

وقال: عرفهم أن الوقوف مع النعمة يقطع عن المنعم.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ علق زيادة نعمه عليهم بزيادة شكرهم، ولا علة لفضله وكرمه، ولا تعلق لفيضه بكسب عباده وشكرهم وصبرهم، بل شكرهم وصبرهم من توفيقه لهم، أن من عرف عجزه عن شكري لأزيدنَّ معرفته بي، ولعجزه عن إدراك حقيقة معرفتي، وحقيقة شكري يكون عبدًا شاكرًا.

وهذا القول الحسين حين قال: إني عجزت عن موضع شكرك فأشكرك فأشكر عني؛ فإنه الشكر لا غير.

وهذا اعتراف داود ﷺ فقال: إلهي لكل شكر شكر، لأنه يكون بتوفيقك؛ فعجزت عن شكرك فقال سبحانه: «الآن شكرتني يا داود»[1] أيضًا لئن شكرتم اصطفائيتي لكم بمعرفتي في الأزل، وتعرفون حقيقتها لأزيدنكم بكشف مشاهدتي لكم حتى تعاينونني وتبصرونني بعيون المعرفة، والقلوب الخالصة، والأرواح العاشقة، والعقول المتميزة في جلالي.

قال حمدون: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلاً.

قال بعضهم: مَنْ شكر النعمة زاده من أَنْعُمِه، ومَنْ شكر المُنعم زاده معرفة به ومحبة له.

وقال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٩/ ٣٤٣)، وابن كثير في «التفسير» (٣/ ٥٣٠).

لأزيدنكم رؤيتي.

وسُئِل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر.

وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة.

قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ [الكهف: ٢٨] (بالغداة والعشي يريدون وجهه)، لا الزيادة، وفضله ولاحتته وبره، بل الحصول مع الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ويقال: لئن شكرتم وجود الطافي لأزيدنكم شهود أوصافي.

ثم بيَّن سبحانه استغناءه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، وإيمان المؤمنين، وكفران الكافرين، بقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وصف تنزيهه وغناه وحمده وفيه إشارة، أي مادام أنا مستغن عن الأكوان والحدثان، فلا أبالي بغفرانهم وإنْ أدخلهم جميعا في بحار رحمتي، فإني حميد حمدت نفسي قبل وجود خلقي؛ لأني علمت عجز خلقي عن حمدي.

قال أبو صالح الغني على الحقيقة: مَنْ لم يَزَلْ غنيًا ولا يزال غنيًا، ما زاده إيجاد الخلق غنى، بل خلقهم على حد الافتقار، وهو الغني الحميد.

وقال الواسطي: ليس الإيمان بمقرب إلى الحق، ولا الكفر بمبعد عنه، ولكن جرى ما جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاء، فظاهر الكفر والإيمان أعلام لا حقائق، والحقائق القضاء الذي سبق الدهور والأزمان.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ علم الحق سبحانه أن الأعين للحدث يرى بها القدم صدقا؛ فنصب أعلام قدرته لتراه عين الحدث بواسطة القدرة، فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فطرها بقدرته وإبداعها بعزته، وألبسها أنوار جلاله وهيبته، يدعوكم من نفوسكم إلى رؤية جماله في آياته، فتنظروا إليها بأبصار فأذن وقلوب حاضرة.

ثم رقّاهم إلى أعلى الدرجات من رؤية أنواره وقدرته في خلقه إلى مشاهدة عيان ذاته؛ وذلك قوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ وقع الغفران على النظر منهم إليه بواسطته آياته.

وأي ذنب أعظم من طلبه بواسطة من الكون، حار الوجود في وجوده، وغاب وجوده في وجوده، فضلاً عما أوجده في الوجود، وأيضًا يدعوكم إلى معرفته؛ لتعرفوا بمعرفته نفوسكم وذنوبكم، وإذا وقعت المعرفة عنكم ارتفعت ذنوب تقصيركم في طاعته، وإدراك عزته.

قال النوري في هذه الآية قال: دعا الخلق بنفسه إلى نفسه، وذكر من أسمائه فاطرًا؛ لئلا يتعلقوا بشيء من الأكوان.

وقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إن أردتم ما فيها فهو عندي، وإن أردتموني فلا تلتفتون إليها وارجعوا منها إليّ.

وقال بعضهم: ما دعا الله أحدًا إليه ولا الأنبياء، وإنما دعا من دعا لحظوظهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ووقعت التسوية على السواد والخيال، ولكن يختار برسالته ونبوته وولايته مَنْ يشاء من عباده الذين سبقت لهم حسن العناية في الأزل بما وهب لهم من خلع استعداد معرفته، وقبول عبوديته، ورقية مشاهدته، الأول تعريف التواضع، والآخر تشريف الحقائق.

قال أبو عثمان: منَّ الله على خواص عباده ما فات الإحصاء والعد، فأول منّة له عليهم التوحيد، ثم المعرفة، ثم أن بعث فيهم الرسل، ثم أن سماهم عباده، ثم له عليهم في كل نفس نعمة عرفوها أو لم يعرفوها.

وقال سهل: يمنّ على مَنْ يشاء بتلاوة كلامه والفهم فيه.

وقال الأستاذ: ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه منَّ علينا بتعريفه واستخلصنا أفردنا به من تشريفه.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أخبر الله سبحانه عن الرسل اعترافهم في آخر الآية الماضية بالعجز عن التصرف في مملكته إلا بإذنه، وعن براءتهم عن حولهم وقوتهم في ظهور المعجزة وبين اعترافهم، أيضًا بعجزهم في تحمل إيذاء قومهم ورجوعهم إليه.

وقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرفنا نفسه وأنوار ذاته وصفاته بأنه مُعين أوليائه وناصر أصفيائه: توكلنا عليه لمعرفتنا به وما خصنا من لطائف وجوده ومشاهدته، وقد هدانا سبلنا، أضاف السبل إليهم ولبس السبل لهم ولكن السبل له.

قالوا: ذلك انبساطًا أي مهّد لأرواحنا سبلاً إلى نفسه، ومعرفة شأنه؛ فإذا سلكنا تلك السبل ورأيناه وراء السبل، وعرفنا ذاته وصفاته نتوكل عليه به لا بنا.

قيل للحسين ما التوكل عندك قال: الخمود تحت الموارد، وقال: سماعهم الأصم في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد هدينا سبلنا، قال: ما لنا لا نثق بالله وقد أعطانا الإسلام والهدى.

وقال أبو العباس وابن عطاء: التوكل على التجارب خدعة، والتصديق على مطاهرة الوجود لبسته.

قال الأستاذ: ما لنا ألا نتوكل على الله وقد وقانا من تكليف البرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان وكفانا من مهمات الشأن.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] إذا أخرج الأمر جل جلاله على وفق مراد العارف، جعل ذلك منه عليهم، ثم طلب منهم شكر المنّة بوصف الطالعة والمتابعة، وزجرهم عن عصيانه، وخوفهم عن وعيد قرآنه، وعظيم مقامه عليهم بوصف الإحاطة على وجودهم وأسرارهم وضمائرهم لئلا يزول منهم بالغفلة عنه، ومقامه بالتفاوت؛ فمقامه على المريدين بالزجر والتهديد، ومقامه على المحبين بالهيبة والتعظيم، ومقامه على العارفين بالإجلال والحياء، ومقامه على الموحدين بغلبات سطوات الكبرياء على قلوبهم، ومقامه على أهل الأنس والشوق والعشق على نعت كشف مشاهدة جماله وجلاله.

وهاهنا الخوف من مقامه ووعيد مفارقته، ووداعه منظر قلوب المستأنسين حتى تكون خاليه عن كشف مشاهدته، وأدق الإشارة فيه أن مقامه القدم في القدم، والبقاء في البقاء، وذلك المقام معدن الألوهية، ومنبع السرمدية، والخوف من ذلك الهيبة والإجلال، وهذا المقام مقام الربوبية في الربوبية؛ لأن الحدث يتلاشى في بوادي سطوة عزته تعالى الله عن كل علة حدثانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ خلق الكون بحق إرادته القديمة، والمشيئة السابقة التي سبقت بكون الكون في الأزل، وأيضًا علم الكون حقًا في الأزل؛ فأظهر الكون بحق العلم والإرادة والمشيئة إظهار الحق حقيقة، ولحقوق ربوبيته وعرفانه من أهل عبوديته كأنه خاطب لرؤية تلك الحقائق ثم ارتقى من رؤية الحقيقة إلى رؤية عين الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ثم نزل من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأفعال، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ فرؤية أنوار فعله للعقول، ورؤية أنوار صفاته للقلوب، ورؤية أنوار ذاته للأرواح، ورؤية أنوار عين الحقيقة للأسرار.

---

(١) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم وعلانيتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (٣/ ١٩٢).

وقال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعمله وأحكمها بحكمه؛ فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخلق عجائب الخليقة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبدائع صنعه.

وقال بعضهم: خلق السموات عالية على الأرضين مرتفعة عليها، وجعل عمارة الأرضين من بركات السماء وما يصل إليه منه، كذلك خلق النفوس وجعل القلوب أميرًا عليها، وجعل نجاة النفوس وراحتها فيما يصل إليها من بركات القلوب؛ فمَنْ طهر قلبه لاستطلاع المشاهدة أتته الفوائد، والزوائد من الحق في جميع الأوقات.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ أخبر الحق عن كمال شرك إبليس حيث نسي الله نبعت إسقاط قدرة كل قادر غيرة في مقام المؤاخذة بقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فسقوط النظر عن نفسه مع رؤية الغير في البيّن شرك، ولو كان في مقام على حد تحقيق التوحيد ما لام أحد ولا نفسه وما رأى في البيّن غير الله.

ألا ترى إلى قول الواسطي: مَنْ لام نفسه فقد أشرك، ومقام الملامة مقام المريدين لاموا أنفسهم بميلها إلى هواها، وتكاسلها عن عبادة خالقها، وذلك الملامة من طريق المعرفة والتوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأن هناك تسقط الوسائط وتندرس الرسوم؛ وتنطمس طرق الأسباب.

قال محمد بن حامد: النفس محل كل لائمة فمَنْ لم يلُمْ نفسه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال فقد أهلكها.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ السلام اسم من ألطف أسمائه، كأنه محل التثنية؛ فأهل الجنة من العارفين يدعونه بهذا الاسم لوجدانهم مشاهدته بنعت العوافي من المجاب، فإذا أرادوا تحية بعضهم على بعض فيشيرون بعضهم بعضًا سلام، أي هذا هو مشاهدة السلام، كأنهم في مشاهدته ليشير بعضهم على بعض إلى جماله وجلاله، وإذا حيوا بهذه التحية

فحيا الله بأحسن من تحيتهم بأنه حياهم بخطابه وسلمهم بكلامه؛ فكل من رآه فإن الحق سبحانه يسلم عليه بالبديهة قبل ثنائه عليه بقوله سلام قولاً من ربٍ رحيم تجديد العهد الأول حين رأوه بالأرواح وسمعوا كلامه وسلامه بإذن الأسرار في ميثاق الأنوار، وما أطيب هذا السلام من السلام لأهل السلام.

أشـاروا بتـسليم فمجّـدنا بـأنفس تـسيل مـن الأفـاق والـسمُ أدمـع

وقال بعضهم: تحيات الجنة وسلامها على ضروبًا، فأهل الصفوة والقربة تحيتهم من ربهم وسلامتهم منه على قوله سلام قولًا من ربٍ رحيم، ولأهل الطاعات والدرجات تحية الملائكة وسلامهم قال الله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفائيته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن ثغائر الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والفناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والاطلاع على الأسرار والوله والهيمان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد

والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة ببطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في كل ذرة في مرائي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحي بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في أرض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفِراسات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإنفاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبتت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ

ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ إذا نطق القهر القديم على لسان النفس الأمّارة التي هي الشجرة الخبيثة نطق لسانها بالهواجسات التي تورث كلمات الوسواسية الشيطانية، وتلك الكلمات أصل جميع الأهواء المختلفة التي ما لها ظلمة البعد، وغي الشهوات، وخيال النزهات، وتلك الشجرة الخبيثة غرسها في قهر الطبيعة أبدي القهريت، وتسقيها مياه الضلالات، وعروقها أصل النفاق، وساقها أصل الكفر، وأغصانها الأهواء المختلفة، وأوراقها الأوهام والظنون الفاسد، وثمارها الشك والشرك والكسل والبخل والبطر والنشاط والخيال والمحال والكذب والزور والبهتان والغيبة والنميمة والحرص والحسد والشهوة والشحناء والبغضاء والغضب، وجميع المساوئ النفسانية والشيطانية، وفي كل أوان وأوقات وأنفاس تعطي ثمارها، والصادق المحب الموافق يقصدان بقلعها وبقطعها من أصلها بفأس التوحيد والمعرفة والمحبة، وإذا كان مؤيد أسهل الله عليه قطعها من أصلها؛ لأنها عارضة عارية لامتحان القلب الذي هو منظر نور تجلي الحق وتيسر قطعها، لأنها ليست ثابتة بالحقيقة كشجر الإيمان والتوحيد قال تعالى: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾(١).

قال محمد بن علي الترمذي: الشجر الخبيثة اللسان، ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمات الخبيثة.

وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق، وهي التي لا تقر قرارا حتى تهوي بصاحبها في النار.

قال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان، وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب

---

(١) قال القشيري: (٤/ ٤٤): والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

والفجور.

وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات، وأرضها النفوس، وماؤها الأمل، وأوراقها الكسل، وثمارها المعاصي، وغاياتها النار، ثم وصف امتنانه على أهل التوحيد بتسديد إيمانهم وتثبيت توحيدهم وتحقيق معرفتهم واستقامة أحوالهم بتوليته ورعايته لهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ القول الثابت قول الحق جل جلاله في الأزل حيث حكم في نفسه بتوحيد الموحدين، ومعرفة العارفين، ومحبة المحبين، وإيقان الموقنين، وإيمان المؤمنين، وسلام المسلمين، وقوله منزه عن التبدل والتغير والاضطراب؛ فقوله الحق الباقي بوصف الأزل إلى الأبد، وإذا اصطفاهم بذلك القول لا يزيله عوارض البشريات، وغلبات الشهوات، وفنون الامتحانات، لأنه قائم بالذات والصفات وهؤلاء في ظل العنايات محروسون بلطفه عن قهره في الدنيا والآخرة المعرفة لا يتغير بتغير الزمان، ولا بتبديل المكان، ولا بنزول الامتحان، ولا بتغاثر الملوان، ولا بشيء من الحدثان، وثباته للمؤمن العارف منه استقامته به له في طريق مراده وذلك من فريد كشوف جماله وجلاله لهم بنعت الموارد والمواجيد من بحار قربه حين هجم أنوار سبحات وجهه في أسرار قلوبهم، وفيه إشارة لطيفة أن المعشوق يقلب القصة الربوبية في كل لحظة للعارف الصادق آلاف المرات في الدنيا، فإذا قال أدركته أوقعه في بحر نكرته، فإذا تحير كاد لظلمات بحر النكرة إن تغرقه تحت أسافل القهريات يدركه فيض الشفقة ويريه جماله في ظلمات النكرة وكدوره الطبيعة البشرية بالبديهة، ويخلصه من غبار الامتحان، وكذلك دابة في مواقف القيامة حتى يريه بالنكرة في المعرفة، وبالمعرفة في النكرة حتى يلبسه أنوار ربوبيته ويخلصه من مقام امتحان، فإذا صار متصفا بصفاته فاز من ضرر الامتحان، وهذا حاصل في الدنيا والآخرة لأهل المعرفة.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾ على مقدار التوحيد يكون المخاوف والأمن ولم يفزع من أحد الخوف، ولا انفلت منه أحد لحظة، وما من أحد يسعى إلا عقبى سعيه وهو الذي لا يخاف عقباها، فمَنْ ثبّته بالقول الثابت أسقط عنه ذلك المخاوف.

وقال أيضًا: الإيمان إيمانان، إيمان حقيقة بضياء الروح، وإيمان محبة بظل الروح، لذلك استثني من استثنى في إيمانه كيف لا يأمنه بعد وهو لا يخلف الوعد، ثم وصف كيف قهر في القدم الظالمين بإضلاله إياهم بنفس المشيئة والإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ اختار أهل صفوته بمحبته ومعرفته ومشاهدته، وألبسهم حلل عنايته وقربهم منه به، وبعّد المبعدين وطردهم بقهره عن باب لطفه، فعل ما

شاء بأهل العناية والسعادة، ويفعل ما يشاء بأهل البعد بيعادهم عن قربه ليس عليه في إبرام حكمه نقص في ردهم وقبولهم.

قال بعضهم: الخلق كلهم مجبورون تحت القدرة، مقهورون على بساط الجبروت، ليس إليهم من أمورهم شيء، ممنوعون عمّا يريدون، يقضي عليهم ما يكرهون، وهذا من آثار العبودية، والله تبارك وتعالى مدبر الأمر ومنشأها أنشاها على إرادته، وأبدعها على مشيئته، لا ناقص لما أبرم، فلا هناك على الحقيقة فعله، والكون صنعه لا علة لفعله ولا بضعه.

قال الشبلي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا أكرمه بالتثبيت كشف وأعطى كمال المعرفة، ومقال الصدق والتوكل، ومحض الإخلاص، وحقائق اليقين، وكوشف عن مقامات الولاية التي لا نهاية لها، وذلك وصف من ثبته.

وقال: الصادق ثبتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وثبتهم في الآخرة على صدق جواب الرحمن، ثم شكيّ عن المغيرين نعمته عليهم بقلة الشكر في نعمته وقلة الصبر في محنته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هاهنا العقل والعلم والاستعداد، وجمال الصورة والهيئة: بدّلوا العقل بالعبادة، وبدّلوا العلم بالجهل، وبدّلوا استعداد قبول الإيمان بقبول الشرك والشك من النفس والشيطان، وبدّلوا جمال الصورة بقبح المعاصي ومباشرة الشهرة، ويا ليت تلك النعمة لو ساعدها العناية الأزلية: وكيف يتبدل محل العناية ولو غاص المُنعم عليه في بحر الكفر والمعاصي ألف مرة.

قال أبو عثمان: أجهل الخلق بنعمة الله من استعملها في أنواع المعاصي ولم يقم بشكرها في أن يعمل بها في طاعة الله.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خلق السموات الأرواح وعرض القلوب، زيّن السموات بأنوار الجبروت، وزيّن الأرضين بأنوار الملكوت، رفع هذه السموات بأنوار الذات، وبسطه هذه الأرضين بأنوار الصفات.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أنزل

من سماء القيومية على سماء الأرواح أمطار أنوار التجلي، وأنزل من سماء الأرواح على أرض القلوب أمطار المعرفة والتوحيد؛ فأخرج بتلك المياه من جنات القلوب ثمار المحبة والألفة والشوق والعشق رزقًا للعقول والأسرار والنفوس.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ سخّر الأرواح أن تسير في فُلك قاربها في بحر الأولية والأخروية، وتسقيها بشمال همها لوجدان عجائب بحار الذات والصفات من جواهر الأسرار والأنوار؛ فيؤيدها الحق بأن يجري رياح الكرم ولطائف القدم ليوصلها به منه إليه.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ سخّر للعقول إجراء أنهار الأفكار والأذكار والإدراك والأنوار والأسرار، أجرى الحق في أرض القلوب أنهار معرفته ومجده، يسقيها معادن نور حكمته وعروق ورد شوقه وأصول شقائق الصدق والإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ الشمس والقمر هاهنا نور الإيمان، ونور اليقين، ونور المعرفة، ونور التوحيد، ونور المحبة والشوق، ونور الهداية والتوفيق، وأصل ذلك شروق شمس مشاهدة الذات، وبروز قمر نور الصفات من مطالع الأرواح والقلوب؛ ليريان نبات المعارف وأشجار الكواشف، ونرجس الإيمان وورد الإيقان.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ جاء بظلمة النفس للامتحان، وجاء بنهار القلب للعرفان، جاء بليل القهر للنكرة، وجاء بنهار اللطف للمعرفة، جاء بليل الحجاب للعتاب، وجاء بنهار كشف النقاب للسرور بالمآب ربّي سواكن الأرواح والقلوب والعقول، وبالنفوس والأشباح من الأسرار والأفهام والعلوم والحكم والفطن والحقيقة والمعرفة والمحبة والصدق والإخلاص والتوكل والرضا بليل كشف ظلال الصفات، وظهور نهار سبحان الذات ليتم نعمته من الولاية والكرامات لها التي لا نهاية ولا غاية.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أتاكم ما سألتم منه في معاهد الأول وعقود ألست بربكم من كشف الجمال والوصول إلى وصال الذي جلاله غير محصور وكماله غير مقصور بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ عمة الله كشف صفاته وذاته لهم، وتعريفها إياهم على نعت السرمدية لا يبلغ إلى وصفها حساب الحدثان وعدد الزمان والمكان، ثم شكيّ سبحانه من المُنعم عليه حيث ظلم بعد هذه النعم والكرم بسكونه بها وجد وعصيانه لمَنْ أوجد، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وصف شكره في التوحيد حيث استغرق في بحر الديمومية واتصف بتلك الصفة، وخرج منها بدعوى الأنائية ظلم

بجهله بعين القدم، ولو أدركها الغنى عن الأنانية في عين القدم، وأي ظلم أعظم من دعوى الربوبية ومحل العبودية، ثم وصف العطش والشوق في سراب الحيرة إلى إدراك كنُّه الكنّه، ونسي ما وجد وجهل بتنزيه الأزلية عن مطالعة الخليقة بوصف الإحاطة؛ فتارة ظالمًا من كمال استغراقه في الأزل بدعوى الأنانية، وتارة كافرًا حيث نسي ما وجد وجهل بما لم يكن مدركًا إلا الحق سبحانه، وكفرانه غاية عطشه في الشوق إلى إدارتك الربوبية، وعلو همته في خوضه في ظلمة أصل كل أصل وعلة كل علل.

ألا ترى موسى ﷺ إذا استغرق في بحر الأولية كيف طلب الكل بالكل، والآخر بالأول، والأول بالآخر، الصفة بالذات، والذات بالصفات، فقال موسىﷺ: من متى أنت يا رب هذا الإنسان، كيف يكون إنسانًا حيث حمل ما لم يحمل الحدثان، اقرأ آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾، وأدى أمانة حمل معرفة الأولية والآخرية وكنه الكنه، وإدراك عين العين لا بنفسه ظلمًا، حيث اجترى ما اجترى، وجهل لما رأى على ما لم ير.

قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال الصادق: وسخّر لك السماوات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر بأن تتخذ سبيلاً ومتجرًا، وسخّر لك الشمس والقمر يدوران عليك ويوصلان إليك منافع الثمار والزروع، وسخر قلب المؤمن بمحبته ومعرفته، وحظ الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة أسراره.

قال يحي بن معاذ في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين.

وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم.

قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد.

وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية.

وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما

بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وقال ابن عطاء: أجلّ النعمة رؤية معرفة النعم، ورؤية التقصير في القيام بشكر المُنعم.

قال: أيضًا النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون شكره أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وروحًا وقلبًا؛ فنعمة النفس الطاعة، ونعمة الروح الخوف، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الروح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة، والنفس في أبحر الطاعات تتنعم، والقلب في بحر النعيم ينقلب، والمعرفة في أبحر القربة وانتظار العيان بتنعم.

قال :أيضًا سخّر لكم الليل والنهار جعلهما ظرفًا لعبادتك ووعاء لطاعتك، وسخّر لك الشمس والقمر لتستدل بهما على أوقات العبادات، وسخّر قلبك لمعرفته ومحبته؛ لأن حظ الحق من العبيد قلوبهم.

قال الحسين في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ما لا يحصى لا يتناهى لا يصح لها شكر متناه في وقت متناه، وإنما طلبهم بالشكر ليقطعهم عن الشكر.

وقال الأستاذ: سماء القلوب زيّنها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد هو العرفان، ومرج في القلوب يجري الخوف والرجاء، جعل بينهما برزخًا لا يبغيان لا يغلب الخوف ولا الرجاء، وسخّر فُلك التوفيق والعصمة وسفينة الإيواء والحفظ، وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين، وليالي الهرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند سطوع نهار اليقين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مظنّة الآية في حقيقة معناها البلد القلب، والقلب بلد البلدان، والعقل بلد القلب، والروح بلد العقل، السر بلد الروح والمعرفة، والمحبة بلد السر ومشاهدة المعروف، هناك بلد المعرفة والمحبة وسواكن هذه

البلاد عساكر أنوار أفعاله، وفرسان تجلي صفاته، وجنود عظائم أزاله، وإبادة والنفس بلد الشهوات، وسوء النهى جنود القهريات؛ فاستعاذ به في هذا البلاد عن جنود القهر الذي معادنها النفس الأمّارة، أي: اجعل هذا البلد آمنًا بلطفك عن قهرك، وبالروح والقلب عن النفس، وجند شياطينها وهو أجسرها وسراق طبيعتها، واجعلها آمنًا بك عنك.

كما قال: أعوذ بك منك، ثم سأل وقايته عن عبادته، وبَنِيه أصنام الطبيعة، والالتفات إلى الغير في طوارق البلاء، بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كل ما وقف العارف عليه ممّا وجد من الحق فهو صنمه.

ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: رؤية غيرك ومتابعة هذه الشهوات والهوى أضلت لما فيها من معجون قهرك كثيرًا من المريدين والطالبين، حيث ارتبط بهم في مهوات الهلاك ووطآت الغفلات.

قال ﷺ: «النفس هي الصنم الأكبر»[1].

ثم وصف نفسه بالإمامة في الخلة والمعرفة والشريعة والطريقة بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي في طريق المجاهدة والمحبة والخلة بالموافقة في بذل الروح بين يديك؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: طينته من طينتي، وقلبه من قلبي، وروحه من روحي، وسره من سري، ومشربه في المحبة والمعرفة والخلة من مشاربي، ومَنْ عصاني فيما يكون عصيانك ويقتضي حجابك ليس مِنّي ولكن إنك غفور ذنوب قاصديك رحيم بمريديك، بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن كفر الكافرين، وعصيان العاصين، يستغرق في بحار رحمته وغفرانه، وإن يدخلهم في جناته لا يبالي.

والحكمة في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وإنه لم يقل ومن عصاك أنه كان عليه ﷺ في محل الخلة، والخلة توجب المحبة، والمحبة توجب المودة، والمودة توجب الشوق، والشوق يوجب العشق، والعشق محل الاتصاف والإتحاد، وعين الجمع، وجمع الجمع، فالإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ إشارة عين الجمع بعد انسلاخه من رسوم الحدوثية، كأنه قال: فمَنْ تبعني تبعك، ومَنْ عصاني عصاك؛ لأن في حقيقة العشق العاشق والمعشوق واحد.

ألا ترى إلى قول الحلاج -قدس الله روحه:

هـا أنــت أم أنــا هــذا إلهــين في إلهــين ... حاشــاي حاشــاي مــن إثبــات اثنــين

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٢٥).

وأيضًا لمّا قال: فمَنْ تبعني فإنه مِنّي، قال أيضًا: ومَنْ عصاني موافقًا للقول الأول كأنه أشار أن طاعة الخليقة ومعصيتها تليق بالخليقة، وأنت منزّه من طاعتهم وعصيانهم، أي أنا من جنسهم وهم من جنسي وأنه منزّه عن المجانسة بالحدثان، وأيضًا أضاف عصيانهم إلى نفسه؛ لأن عصيان الخلق للخالق غير ممكن؛ لأن ما يبدو منهم من جميع الحركات إجابة وجودهم وسر السر، وما نعلن من حيز الإلهام والوسواس والهواجس، وأيضًا ما تخفى في أنفسنا من منازعة القدر بوصف خاطر النكرة في أمر المعيشة في صورة ما نكرة من أنفسنا من الشكوى والتغير في الغضب، وما نعلن بجلادتنا من صبر الصبر بوصف التصبر والتشكر.

قال الخواص: إنك تعلم ما نخفي من حبك، وما نعلن من شكرك.

وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب.

قال الحسين: ما نخفي من المحبة، وما نعلن من الوجد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا من الله سبحانه محل تعظيم المراقبة والهيبة في الرعاية، والحياء في المحاضرة وللظالم من مشرب بحر جماله وجلاله وحسنه وأفضاله شربات من محبته وشوقه ومعرفته، ويخرج على بساطه بنعت العربدة والسكر ودعوى الأنانية؛ لأنه يجاوز طوره.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا يعني في الحقيقة أبصار سكارى المعرفة والتوحيد يوم الكشف الأكبر، حيث تبدوا أنوار سطوات العزّة فتقضيهم عنهم بالحق وعظمته وكبريائه حتى يستغرقوا في عظمته بحيث لا يقدرون الالتفات إلى غيره بقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

ثم زاد في وصف قلوبهم واضمحلالها في عزّة العظمة بقوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خالية عن العقول المدركة والأرواح الفائقة أو لأن من عزّة القدم شيئًا، ولا من جلا الأبدية مدركًا.

ونِعْمَ ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث يشاهدهم ويشاهد ما يجري عليهم بوصف الجبارية والعظمة؛ فإنه موضع شهوده وشهوده

للعباد أعظم من شهود العباد عنده؛ لأن العباد في محل الحضور وشهوده تعالى محل الكشف.

قال أحمد بن خضرويه: لو أذن لي بالشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: وكيف؟ قال: لأني نلت بظالمي عالم الله من والدي، قيل له: وما ذاك؟ قال: تعزية الله في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قال ميمون بن مهران: كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ هذه صفة قلوب أهل الحق، ألا ترى الهواء قائم بالمشيئة، والإرادة غير قائمة بعلائق فوقها كذلك قلوب أهل الحق في هذه الآية الله ليس في قلوبهم محل لغير الله إلا بساكن سوى الله، ومثل قلوبهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لا تلتفت إلى سواء ولا له قرار مع غير الله.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ السكون في أوطان الظلم من أهلية فطرة النفس الأمارة إليها، وسجيات الشهوات تميل إلى عللها من الآفات لتزيد حظوظ هواها، ومَنْ لم يخرج نفسه في زمان الإرادة من أجوار المدعين تعودت نفسه عادة الظلم في الدعاوي الباطلة، ويقع عليه ما وقع على المدعين الكاذبين.

قال أبو عثمان: مجاورة الفساق وأهل المعاصي من غير ضرورة من فسق كامن، ومعصية مستترة في القلب؛ لأن الله ذمّ قوما من عباده، فقال: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ولم يعذر من مقام فيها، فقال: لم يكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها.

ويقال: إن معاشرة أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم، ويستقبل فاعله ما استقبلهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الإشارة في الحقيقة إلى تبدل أرض قلوب العارفين من صفات البشرية، وأوصاف النفسانية والخواطر الرديئة إلى الروحانية المقدسة لنور شهود جمال الحق وتبدل سموات الأرواح من عجز الحدوثية، وصفاتها وضعفها عن رؤية أنوار العظمة صرفًا وكفاحًا له.

قال: تعديته فالأرواح والقلوب يخرج من ضيق القبض إلى محل البسط من خفقان أخوف إلى روح الرجاء، ومن رسوم العبودية إلى مشاهدة الربوبية، وبروز أهل هذه القلوب والأرواح من أماكن غيبه سكارى حيارى من شدة ولهم من جماله ديموميته في ميادين وحدانيته الأزلية خرجوا بنعت المبارزة والمفاخرة بولايته وقربته يا أخي لو رأيتهم لرأيت عليهم أطراف أردية الكبرياء، متعلقون بحقوق أزار عظمة الجبار، يستغيثون بنعت الوله من فراقه في وصاله حتى لو رأيتهم ما رأيت عليهم رسوم المبشرات، بل رأيت عليهم سمات الألوهيات فما الناس بالناس الذين عهدتهم.

ولا الـدار بالـدار التـي كـنت أعـرف ولـو تـريد أن ذلـك أرض الظاهــر

وسماء الظاهر إنما تبدل من هذه الصفات وظلمة الخليقة إلى أنها منورة ببروز أنوار جلال الحق عليها، وإنها صارت مشرق عيان الحق للخلق، وحين بدأ سطوات عزته بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهنا يا أخي الوجود تحت أخيال القدم من استيلاء قهر أنوار القدم.

قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قيل: فأين الأشياء آنذاك؟ قال: عادت إلى مصابها، وقال: متى كانوا شيئًا حتى صاروا لا شيء؛ لأنهم أقل من الهباء في الهواء في جنب الحق.

وقال الواسطي: في هذه الآية ذلك لما يظهر من كشف حقائقه في بني آدم من أنبيائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسماوات لا يثبت لما يظهر على الأبدان من أنوار الحق.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (١) هذا محل اعتبار العارفين لأنهم الناس بالحقيقة ليزيد شوقهم إلى جمال

---

(١) فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.
قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوَّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمَّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمَّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلِّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال
=

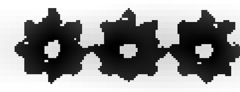
معروفهم، وخوفهم من فراقه، وإجلالهم من عظمة وجهه، منه ما لم يعلموا منه لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت أم رسومهم فإذا عاينوه عرفوه وعرفوا سباهم به وما كان من تقصيرهم في معرفته وعبوديته، وذلك حين وقعوا في بحر توحيده ورؤية وحدانيته بقوله: ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وما وصفنا من فنائهم في بقائه، وبقائهم ببقائه، لا يتذكر فيه إلا البناء الحقيقة، وعلماء المعرفة، وعشاق المشاهدة، وأمناء خزائن المملكة.

قال جعفر في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ولينذروا به موعظة للخلق وإنذار لهم ليجتنبوا قرناء السوء ومجالسة المخالفين؛ فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تُنكس وتنتكس.

قال بعضهم: كشف للخلق ما ندبوا له، وأمروا به وجعل ذلك أعذاراً إليهم وإنذارًا لهم.

❁❁❁

سورة الحجر



﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝﴾.

﴿الٓر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخبارًا كَبير بصورة الألف واللام والراء،

=

مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون، وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خير عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إبهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة ﷺ ألا ترى إلى قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: هذه الحروف المتشابهة أصل هذا الكتاب، والكتاب تفسيرها يترجمها بما فيها في السورة بلسان القرآن، والقرآن مجمع أوصاف الربوبية، وخبر ما كان في الحروف المعجمة يخبر بلسان مُبِين يُبَيّن عند كل عارف عالم القرآن، مبين في ذاته ليس فيه إبهام، لكن لم يخرج جلاله وجماله من الحجاب بالحروف بنعت التبيين إلا لَمَنْ كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فيُبَيّن عن أسراره على قدر إفهام السامعين، فالموحد يسمع من حيث التوحيد فيوله، والعارف يسمع من حيث المعرفة فيبهت، والعاشق يسمع من حيث العشق فيتيه، والمشتاق يسمع من حيث الشوق فيهيم، والمحب يسمع من حيث منه؛ لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت ألم القرآن بوصفه لأهل الستر، فالأنيس يستأنس بجماله، والسكران يطير بفهم خطابه ولذة سماعه.

قال الأستاذ: بيَّن للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يُقوي رجاءهم، وللمحبين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يُنوّر أسرارهم، ولَمَّا عظم شأن القرآن في خبر الملكوت والجبروت لانقياد الأكوان والحدثان عند جناب الرحمن، وخضوع العارفين بنعت الفناء على جناب عز البقاء، وبلغوا بأياديه القدمية، ومنّتِه الأزلية عليهم إلى مقام النظر إلى جماله وجلاله ومعينة ذاته وصفاته، وبروز أنوار جلالهم بين أطباق الأكوان، ويراها مع غرتها أهل الطغيان، ويتمنون أنهم كانوا منقادين مستسلمين كما كان أهل المعرفة والحقيقة فيه للحق منقادين بقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ الساقطين عن طريق الحق يودون أنهم من المريدين، ولم يكونوا من المنكرين، ولم يكونوا من المجتهدين، ولم يكونوا من الكسالى البطانين، وأن يكونوا من الراضين، ولم يكونوا من الساخطين، وأن يكونوا من المتوكلين، ولم يكونوا بتدابيرهم لأجل الرزق من المقيمين، وأن يكونوا من العالمين، ولم

يكونوا من الجاهلين، ومن الموقنين لا من الشاكين، ومن العارفين لا من المقلدين، ومن الموحدين لا من المدعين، ومن المخلصين لا من المرائين.

قال بعضهم: ربما يَوَد الذين فسقوا لو كانوا مطيعين(١).

قيل: ربما يَوَد الذين كسلوا لو كانوا مجتهدين، وربما يَوَد الذين غفلوا لو كانوا ذاكرين.

قال ابن الفرح: الكفر هاهنا كفران النعمة، معناه ربما يَوَد الذين جهلوا نعم الله عندهم وعليهم أن لو كانوا شاكرين عارفين برؤية الفضل والمِنّة.

قيل: إذا صارت المعارف ضرورية احترقت نفوس أقوام عقوبة، وتقطعت قلوب آخرين حسرةً.

ثم سلّى قلب حبيبه عن إنكارهم، وطيب بخطابه فؤاده؛ فقال الله تعالى:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وصف المنكرين بشَرَه بطونهم وشهوات فروجهم وأمل نفوسهم شبههم بالبهائم، وجعلهم أجهل منها بأملهم ومنازعتهم المقادير؛ لأن البهائم لا يكون لها أمل.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فهم لا يعلمون حقائق فسادهم وجهلهم بالله، وبأوليائه بترهاتهم وطاعاتهم، وما أفدوا من أيام الطاعات بالمخالفات عند معاينة العقوبة ووقوع الحسرة.

قال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان شغله ببطنه وفَرْجه وتنفيذ شهوته، حينئذ لا يلحقه أنوار العصمة، ولا يصل أبدا إلى مقام التوبة.

قال أبو سعيد القرشي: في هذه الآية من شغله تربية نفسه، وطلب مرادها، والتمتع بهذه الفانية عن الإقبال علينا، فأعرض عنهم ولا تُقبِل عليهم، وذَرْهم وما هم فيه، فلم يصل إلينا إلا من كان لنا، ولم يكن لسوانا عنده قدر ولا خطر.

قال سهل: أخبر الله عز وجل عن أخلاق الجهال أن همتهم الأكل والتمتع، فأنساهم ذكر قرب الأجل، ويَعِزُ عليهم ما يأملون من عيشهم على هذه الجملة، فسوف يعلمون أن الذي لهم فيه هلاكهم، وذلك الذي يبعدهم عن مدائح أهل السعادة، فإن من أراد الله به الخير جعل همته فيما يقربه إليه من مقام على الطاعات، واجتناب المخالفات ومحاسبة النفس، ومن كان بهذه الحالة يلهيه ذلك عن الأكل والشرب والتمتع.

---

(١) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزّلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصدِّيقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسراره في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانًا وقرآنًا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وأنَّا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا.

يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضييعهم تَضْيِيع كتابه.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أدخلنا الضلال والكفر في قلوب منكري أنبيائنا وأوليائنا الأولين، حتى كفروا بهم ولم يؤمنوا بما جاءوا به، يدخل في قلوب هؤلاء المنكرين الكفر والضلال، ونُسَدِد أبصار قلوبهم عن رؤية حقيقة مشاهدة آياتنا، ونحجب بصائرهم عن إدراك لطائف كتابنا، وما يبدو من أنوارنا عن وجوه أوليائنا، حتى لا يذوقوا طعم لطيف الخطاب، ولا يروا إلينا طريق المآب.

قال الأستاذ: أزاغ قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسد بالحرمان عليها سلوك الطريقة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢ وَإِنَّا

لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظّار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزهة عن الحدود والعلات، ومَنْ سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطّالين والمدَّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضله وجوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات

الشياطين.

كما قال: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ثم بيّن سبحانه أن تلك النفوس الأمّارة والشياطين الوسواسية تسترق من عالم سماء العقول والأرواح والأسرار والقلوب أسماع هواتف الغيب من صرف الخطاب والإلهام؛ لتدع بكلمة الغيب الدعاوي الباطلة؛ فأتبعها شهب طوارق القهريات، وأحرق بنيران المحبة والأشواق، ليصفّي هواء المعرفة من غبار الطبيعة بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وأيضًا فيه إشارة أخرى أنه تعالى يعز جوده وجده وجلاله، جعل في سماء القلوب أبراج المقامات والحالات، ويجري فيها سيارات الهمم نطلب وجدان أهله أنوار الصفة، فترى كل همّة من برج كل مقام نورًا من أنور الغيب، وسر من أسرار الغيب، حتى يستشرف على مطالع الربوبية والإلوهية في كل دورة أفلاك القلوب في هواء الهوية حين تبرز شموس أسرار الذات وأقمار الصفات وسيارات حقائق الأزل والأبد.

ألا ترى تقلب تلك الأفلاك في ممالك ملكوت الأزل، كيف وصفها حبيب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه وعلى خلائه من الأنبياء والرسل والأصفياء بقوله: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[1].

ونظار تلك السماوات العقول القدسية والأسرار الملكوتية، ترى من كل برج نور صفته، فيورث تجليها لكل عقل مقام، وشرفًا وحالاً ووجدًا وعلمًا ومعرفةً، وبجلال قدمه يحفظ تلك السموات مع أبراجها من طوارق النفوس والوسواس، فإذا قصدت النفس الأمّارة إلى حاشية من حواشي القلب يحترق بزفرة من زفرات القلب، وكذلك الوسواس.

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وما ذكرنا من تلك الحقائق من أنوار تلك البروج يظهر من وجوه الصديقين، وتلك الوجوه مطالع أنوار صفات الحق يبرز نورها من وجوههم وجباههم للناظرين من المريدين الصادقين والشائقين من المحبين، وتلك سمات الحق لاعتبار الخلق وهدايتهم، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾.

قال بعضهم: زيّن السماوات بالكواكب والبروج، وجعل فيها علامات لمَنْ يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وزين القلوب بإطلاعه عليها، وأنواع الأنوار لتهتدي بتلك الأنوار إلى مقام المعرفة، وهذه المعاملات إنما يهتدي بها من كان بصيرًا مفتوحًا عين فؤاده ينظر إليه نظر عيان.

---

(١) سبق تخريجه.

قال أبو بكر بن طاهر: كما جلّ الله في السماء بروجًا يهتدوا به في ظلمات البر والبحر وزيّناها للناظرين، كذلك جعل في القلوب بروجًا يهتدي بها العارف إلى ربه، فمن ذلك برج الخوف، وبرج الرجاء، وبرج التوكل، وبرج التفويض، وبرج التسليم، وبرج اليقين، وبرج المعرفة، وبرج المحبة، وكل برج من هذه الأبراج والبروج منها طريق إلى الله تبارك وتعالى ولا يعرفها إلا السالكون فيها والعالمون بها، وكما زيّن تلك البروج للناظرين، كذلك زيّن بروج القلب للناظرين لأنفسهم القائمين بأوامر الرب عليهم والعارفين حالهم وعملهم في كل وقت وحين.

قال الأستاذ: في السماء بروج وهي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم، إذا راموا إن يسترقوا السمع، وفي القلب للمعارف والعقول نجوم، ثم هي للشياطين رجوم، فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من أوليائه أحرقته بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها؛ فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهم زينة، ثم أن الله سبحانه وصف قدرته في مد الأرض وإلقائه فيها الرواسي بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ الإشارة فيه أنه تعالى بجلاله وقدره بسط قلوب الأولياء ببسط سعته وقدرته وعلمه ومدها بأنوار تجلي جماله وجلاله، فصارت مبسوطة بوقوع نور مشاهدته عليها؛ لأنها بلد الله ومقام زيارته، هناك أشرقت الأرض بنور ربها، فكلما يتجلى لها بسطها فانبسطت وزاد في امتدادها بقدر زيادة وقوع نور التجلي عليها، فكلما ازداد نورها من الحق ازداد بسطها وامتدادها وهي مضطرة إلى زيادة بسطها وسعتها إلا أنها يوازي مشاهدة جلالة القدم الذي بلا نهاية ولا غاية، فإذا يزيد بسطها وامتدادها إلى أبد الآباد، وذلك لأن هناك عرش الرحمن وكرسيه، وهنالك ولاية الله ينزل عساكر تجليه عليها في جميع الأنفاس والأوقات ولم يكن موضع من العرش إلى الثرى بهذه الخاصية غير قلوب الأنبياء والأولياء.

لما روي سيد الأنبياء - عليه وعليهم سلام الله عن الله سبحانه - قال: **«لم يسعني السماوات والأرض، ويسعني قلب عبدي المؤمن»**[1].

ولا يظن أن ذلك البسط أبسط صورة القلب؛ لأن بسط القلوب بسط علومها وفهومها وعقولها، وبسط نورها وقبولها أنوار قرب الله سبحانه التي اطلعت على فطرتها وأماكن غيبها، وغيبها معادن علم الله، وفي علم الله استغرقت الأكوان والحدثان؛ فكل شيء من العرش إلى الثرى في تلك الأماكن من قلوب الصديقين أقل من خردله، وكيف لا يكون

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك وهو يسع حمل الملك والملكوت، ولما تجلى لها تزلزلت من هيبته وإجلاله؛ فألقى فيها رواسي العظمة وشدها بحبال أنور الكبرياء، وربطها بأوتاد العقول وأنبت فيها بمياه بحار زلال نور غيبه من جميع نبات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وتلك الحقائق والهبات موزونة بقدر تجليه وميزان علمه، وأيضًا فيه إشارة أخرى أن رواسب الأرض أولياء الله، وكما أن الجبال والرواسي بالتفاوت في صغرها وكبرها، فكذلك الأولياء بالتفاوت في مقاماتها وأحوالهم عند الله، فالرواسي أعظم الجبال، فأعظم الأولياء الغوث والثلاثة المختارون والسبعة ثم العشرة ثم الأربعون ثم السبعون ثم الثلاثمائة وهم الأبدال والأوتاد، والسبعون النقباء، والأربعون الخلفاء، والعشرة العلماء، والسبعة العرفاء، والثلاثة أهل المكاشفة وهم الرواسي والغوث، أعني القطب مثله مثل جبل قاف والأوتاد مفزع، العامة والنقباء مفزع الأوتاد، والخلفاء مفزع النقباء، والعلماء مفزع الخلفاء، والعرفاء مفزع العلماء، وأهل المكاشفة مفزع العلماء، والقطب مفزع الكل.

قال بعضهم: مدّ الأرض بقدرته وأمسكها ظاهرًا بالجبال والرواسي، وأما الرواسي على الحقيقة؛ فهو مقام أوليائه في خلقه بهم يدفع البلاء عنهم وبمكانهم بصرف المكاره، فهم الرواسي على الحقيقة لا الجبال.

قال محمد بن علي الترمذي: أن في العباد عباد هم المفزع ومن فوقهم الأوتاد ومن فوقهم الرواسي.

قال: المفزع مرجع عامة العباد، ومرجع المفزع إذا هال الأمر إلى الأوتاد[1]، ومرجع الأوتاد، إذ يستعجل الأمر إلى الأوتاد وهم خواص الأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

وقال سهل: مدّ الأرض ووسع رقعتها ليسير فيها الناظر بالغيرة والاعتبار؛ فيطلب فيها أماكن الأولياء وهم الرواسي الذين بهم قوام الأرض.

قال الأستاذ: نفوس العابدين أرض العبادة، وقلوب العارفين أرض المعرفة، وأرواح المشتاقين أرض المحبة والخوف والرجاء لها رواسي وكذلك الرغبة والرهبة.

وقال: كما أنبت في الأرض فنون النبات أنبت في القلوب صنوفًا من الأزهار والأنهار، فمن نور اليقين، ونور العرفان، ونور الحضور، ونور الشهود، ونور التوحيد إلى غير ذلك من

---

(١) الأوتاد: هم أربعة في كل زمان، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، وحكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض؛ فإنه بالجبال يسكن ميل الأرض.

الأنوار، ثم وصف سبحانه معايش الجمهور مما ينبت أرض القلوب من زهر المعارف والكواشف بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ معايش الصديقين في أرض أنوار الشهود، ومعايش المحبين ظهور نور تجلي، ومعايش العارفين كشوف التدلي، ومعارف الموحدين استماع الخطاب بعد الكشف، ومعايش سكان أرض القلب من العقل والفهم والنفس نور الإيمان والبرهان والإيقان وذلك قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ هو بجوده سبحانه رازق الأرواح ورازق العقول والنفوس.

قال الأستاذ: سبب عيش كل أحد مختلف، فعيش المريدين بيمن إقباله، وعيش العارفين بلطف جماله، وعيش الموحدين بكشف جلاله، كل مربوط بحاله؛ ولكل نصيب من أفضاله، والحق منزّه عن التحمل بأفعاله، ثم وصف سبحانه سعة قدرته وعلمه وملكه وملكوته وخزائن جوده بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: ما من شيء في قلوب العارفين من أنوار المكاشفة والمعرفة والتوحيد والإيمان واليقين والمقامات والحالات والإلهام والخطاب إلا عندنا خزائنه، وخزائن هذه الحقائق ذاته القدمية وصفاته الأبدية، فإن كل وجد وكشف وعلم وحال ومعرفة وتوحيد مقام ومقال يتعلق بكشف الذات والصفات وكشوف أنوارها تظهر بقدر قوة القلوب مقرونة بالإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وعلم الإشارة في الآية دعوة العباد إلى حقائق التوكل بوصف قطع الأسباب والأعراض عن الأغيار.

قيل: كان الجنيد إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قال: فأين تذهبون؟

قال بعضهم: القلوب خزائن الحق عند الخلق أودع فيها أجل شيء وهو التوحيد وزينها بالمعرفة ونورها باليقين ومجدها بالتفاني في أوصافه.

قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[1].

وجعل آثار أنوار القلوب على الجوارح من التسارع إلى الطاعات، والتثاقل عن المعاصي والمخالفات، وهذا دليل لما قلت من الكرامات لذلك، قال الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

وقال حمدون: قطع أطماع عبيده عن سواه بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا

(١) سبق تخريجه.

خَزَآئِنُهُۥ﴾ فمَنْ رفع بعد هذا حاجته إلى غيره فهو لجهله ولومه.

قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم.

وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه.

وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث.

ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنّة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئًا، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

ثم وصف الرياح اللواقح التي تحمل الأشجار ثمارها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلمًا من علومه، وخبرًا من غيبه، وسرًّا من أسراره، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاه الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائمًا من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت

قال بعضهم: رياح الكرم إذا هبت على أسرار العارفين أعتقتهم من هواجس أنفسهم، ورعونات طباعهم، وفساد هواهم ومراداتهم، ويظهر في القلوب نتائج الكرم، وهي

الاعتصام بالله، والاعتماد عليه، والانقطاع عما سواه، قال الله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ فقلوب تلقح بالبر، وقلوب تلقح بالفجور، وما روي في الأخبار قلوب الأبرار تغلي بالبر، وقلوب الفجار تغلي بالفجور.

قال أبو عثمان: كما أن الرياح الربيع إذا هبت فتحت عروق الأشجار لحمل الماء، فكذلك رياح العناية إذا فتح أسماعها لقبول الموعظة ودلّها على طريق التوبة وباب الإنابة.

وقال ابن عطاء: رياح العناية تلقح الثبات على الطاعات، ورياح الكرم تلقح في القلوب معرفتها لنعم، ورياح التوكل تلقح في النفوس الثقة بالله والاعتماد عليه، وكل ريح تظهر في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، والشفاء من حومها.

وقال الأستاذ: كما أن الريح في الأفاق مقدمات المطر كذلك الآمال في القلوب مما يتفرسه العبد مما يتأدى إلى قلبه من مبشرات الخواطر وتنسم النجاح في طلبه يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

ويقال: إن رياح البسط إذا هبت على قلوب العارفين ما تركت فيها للوحشة أثر.

ويقال: إذا هبت رياح القرب على قلوب العارفين عطرت بنفحات الأنس؛ فيبقون في نسيمها على الدوام، ومما يؤيد تحقيق التوحيد آخر الآية قوله: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ بيّن أن لطائف أنوار المشاهدة لا يتعلق بكسب العباد، ويكلفهم في المجاهدات، وإذا انكشفت أنوارها في القلوب لم يكونوا بحابسيها؛ لأنها شعاع شمس الوحدانية وهي منزهة عن تناول الحدوثية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وبتلك المياه والرياح يحي أرواح الصديقين وقلوب الموحدين بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ نحي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضًا نحي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحي أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية.

قال الواسطي: نحي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه.

قال بعضهم: نحي أقوامًا بالطاعة ونميت أقواما بالمعصية.

وقال البراق: نحي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس باتباع الشهوات.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه بقاؤه.

وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار.

وقال الجريري: كم مَنْ حي حياته موته، وميت موته حياته.

وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا.

وقال: أيضًا نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات.

وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره.

ويقال: نحي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوما بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)
وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن
صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ
(٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣١)
قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن
صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا
سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ (٤٧)
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أنوار وقائع الغيب تقع في قلوب الأولياء في أوان شتى، فمَنْ صاحب واقعته في زمان صباه كإبراهيم، ويوسف، ويحيي -عليهم السلام، ومَنْ صاحب واقعة تقع واقعته في كمال شبابه كموسى، وداود، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، فمنهم المستقدمون بالوقائع، ومنهم المستأخرون بها، وأيضًا إن المستقدم في عهد الأزل بالمعرفة والخطاب والشاهدة، وكشف الحجاب للأرواح الملكوتية، والمستأخر بالإيمان والإيقان بعد كون الأشباح والقلوب، وأيضًا المستقدمين المجذوبين من العارفين بسلاسل جذبات المكاشفات، وهم أصحاب الوجود والحالات، والمستأخرين من أهل السلوك المقتدين بأهل الطاعات من أهل الكرامات، وأيضًا المستقدمين في الأزل بالولايات والمستأخرين من أهل الطاعات، وأيضًا المستقدمين بنعت المحبة والشوق إلى المشاهدة، والمستأخرين من أهل الطاعات بنعت الطلب ساكن الجنات، وأيضًا المستقدمين إليه بالقلوب الوالهة والأرواح العاشقة والعقول الفانية بنعت التسارع إلى طلب الجمال والجلال، والمستأخرين من أهل الرسوم بنفوسها الأمّارة إلى أبواب المعصية والطاعة طلبًا للحظوظ والأعراض، وأيضًا المستقدمين بهم إلى عالم المشاهدات، والمستأخرين بقدهم إلى الطاعات، وأيضًا المستقدمين بنعت هيجان قلوبهم ووله أرواحهم إلى طلب لقائه، والمستأخرين بالطاعة إلى طلب ثوابه، ومَنْ علم المجهول إشارته أن المستقدمين هم أهل الإرادات الذين إذا دعوا إلى الطاعة يتسارعون لخفة قلوبهم لطلب صفاء العبادات وراحة المراقبات في صفاء الأوقات، والمستأخرين هم سكارى التوحيد والمعرفة والمحبة متثاقلين من أثقال برجاء كشف العظمة والكبرياء عليهم إلى رسوم الطاعة، وذلك من غلبته البسط والبساط الحق إليهم مثل بهلول، وسعدون، ومجنون[1]، والنوري، والشبلي، والحصري، وهشام بن عبدان الشيرازي، وعلي ابن سهل البيضاوي، ونظرائهم من أهل السكر والغلبات -قدست أسرارهم.

قال ابن عطاء: من القلوب همتها مرتفعة عن الأدناس، والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطة بها مقترنة بنجاستها لا تنفك عنها طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

وقال بعضهم: عرفنا الراغبين فينا والمعرضين عنا.

وقال النهرجوري: علمنا الراغبين فينا بسرعة الإجابة إلى طاعتنا، وعلمنا الزاهدين

---

(١) يقصد: سمنون المحب.

فينا بالتثاقل بالقيام إلى أوامرنا.

قال الأستاذ: العارفون مستقدمون بهممهم، والعابدون مستقدمون بقدمهم، والتائبون مستقدمون بندمهم، وأقوام مستأخرون بقدمهم وهم العصاة، والآخرون مستأخرون بهممهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال: المستقدمون الذين يستجيبون خاطر الحق من غير تعرج عن تفكر، والمستأخرون الذي يصرون إلى الرفض والتأويل.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ إن الله سبحانه كان موصوفًا في الأزل بالقهر واللطف وللصديقين منه ها تأثير في تجليها عن القدم إلى العدم، ويتجلى بلطفه من أنوار لطفه إلى العدم، فأظهر بنور لطفه التراب والماء وجعلها أصلاً في مواليد الإنسان، وتجلى بقهره للعدم؛ فأوجد من تجليه النار، وجعلها أصل مواليد الجن والجان، فخلق من الماء والطين آدم ﷺ وذريته وجميع معاشهم من الماء والطين اللذين أصلهما من تجلي نور لطفه، وخلق الجن وإبليس من النار التي هي من تأثير قهره؛ فوقع المخالفة بين الجان والإنسان، كما وقعت المخالفة بين الماء والطين والنار، فخلق الأول الماء والطين من لطفه، ثم خلق النار من قهره، فسبق الماء والطين على النار؛ لأن الماء والطين سبب الرحمة على العباد، والنار سبب عذاب العباد، لذلك قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

فتبيَّن فضل الماء والطين وتقدمها على النار، فإذا كان الماء والطين بهذه المثابة خلق سبحانه بلطفه آدم ﷺ وذريته من الماء والطين، وخلق إبليس وذريته من النار، وإذا أراد سبحانه في الأول خلق الإنسان خلق ذريته بيضاء ؛فتجلى لها جميع صفاته وذاته، فذابت تلك الذرة من صولة تجلي ذاته وصفاته، وسارت زلالاً نورانيًا جلاليًا جماليًا، فأثر فيها بركة تجلي ذاته وصفاته، فتلاطم بعضه بعضًا، وألقى فوق الماء زبدة من نفسه فصارت تلك الزبدة طينًا، فخلق سبحانه من تلك الزبدة الأرض، ودار ذلك الماء حول الأرض ودخل في بطنها، ثم خلق منها آدم ﷺ وكان ما خلق آدم ﷺ منها طينًا لزجًا بما فيها من ذلك، فيبس الماء في نفسه بتأثير شعاع تجلي العظمة، فخلق آدم ﷺ منه لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فإذا أراد خلق آدم ﷺ سلط على ترابه ومائه سطوات تجلي قدمه وبقائه؛ فخمرها بتجلي القدم والبقاء الذين كني عنهما باليدين بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يد القدم ويد البقاء أربعين صباحًا كل صبح منها أصبح كشف ألف صفة؛ فخمرها أربعين صباحًا

---

(١) سبق تخريجه.

يتجلى كشف أربعين ألف صفة من صفاته، وجعل صورة آدم ﷺ وطينته مساقط أنوار تجلي صفاته؛ فلما كملت صورته طرحها بين العرش والكرسي ثمانين ألف سنة من سني الآخرة، وربما بأفانين كرامات تجليه، وهو سبحانه خلق روحه قبل صورته، وصورة الكون بألفي ألف عام من أعوام الآخرة.

قال ﷺ: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام»[1].

وكان خلق روحه من تأثير تجلي ذاته، فأصلها أيضًا يتجلى جميع صفاته، فحبسها في حجال غيب الغيب وغيب غيب الغيب، وسترها بقباب غيبه من أعين الملائكة، ثم ألبس طينتها وصورتها لباس الغيرة؛ فنظرت الملائكة إلى صورة المعرفة من قلة معرفتهم بجلال قدرها، وأعمى الله إبليس عن رؤية ما في صورة آدم ﷺ حتى تفاخر عليها، فلما أراد سبحانه إظهار صنيعه في ملكه وملكوته وجلال صنيعه الموجود جاء بروحه التي انقدحت من زنود تجلي الذات والصفات بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وأدخلها بنفخة المنزّه عن همهمة الأنفاس الحدثانية في صورته؛ فقام بإذن الله ملتبسًا نور الصفات والذات، وجلس على بساط سلك بقائه فصار مختار من بين الفريقين الجن والملائكة، أيضًا لأن الملائكة خُلقت بأمر واحد وكان آدم ﷺ خُلق بتجلي الذات والصفات فشتان بين آدم ﷺ وذريته، وبين الملائكة وبنيه، وبين إبليس وجنوده.

قال بعضهم: الأشباح مزدولة قيمتها؛ لأنها خرجت من تحت ذل كن، وأظهرت من الصلصال والحمأ المسنون.

قال الأستاذ: ذكرهم نسبتهم؛ لئلا يعجبوا بحالتهم.

ويقال: القيمة لهم بالتربية لا بالتربة النسب تربة ولكن التعب قربه.

ثم أخبر سبحانه الملائكة بخلق آدم ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ إخباره لهم من خلق آدم ﷺ انفتاحه لهم أبواب خزائن ملكوت الأصغر ليريهم ما في عالم الكبير وما فيه إياهم في عالم الصغير، وهو الإنسان ليشاهدوا عجائب صنعه وقدرته ويروا فيها جمال جلاله؛ لأن آدم ﷺ كان مرآة الحق في العالم مَنْ يراه يرى آثار الله فيه.

قال جعفر: امتحنهم ليحثهم على طلب الاستفهام؛ فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته ويتلاشى عنهم نفوسهم، ثم أعلم الملائكة محل جوده ولطائف جوده في آدم ﷺ ليروا آيات

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١١/ ٩٠)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٣/ ٢٦١)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٢٢).

بهائه وتخضعوا لجلاله بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أعلمنا أن مزية آدم ﷺ على الكل بتشريف تسويته ونفخه روحه فيه وإن كان شريف في الأصل فطرة طينه شرفه كان لله، ومباشرة أنوار ذاته المنزّه عن الحلول والاجتماع والافتراق؛ فيصير قبلة الله في بلاده وعباده فإذا ظهر لكم فاسجدوا له عند معاينتكم أنوار قدرتي وعجائب لطفي.

قال أبو عثمان: إذا خصصته بإظهار النعت عليه من خصائص الروح وبيان التسوية فدعوا مجادلتكم وارجعوا إلى حد القهر والتعبد له.

قال الواسطي: لما نفخ الروح في آدم ﷺ جعل معرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها قصودها مرادات بابها على محابها، فلما احتجب الملائكة بالصورة الصلصالية والرسوم الشجية عن جمال روحه وما صنع الله بعزته وصمديته وجلال جميع صفاته وذاته في تسويته وصفرته حين لم يشاهدوا عين الجبروت والملكوت فيه، ولم يروا صور حقائق اللاهوتية في مرآة الناسوتية، واحتجوا وجادلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ترحم عليهم الحق سبحانه بأن رفع حجاب الغيرة عن وجه آدم ﷺ دلالة منه لهم به إليه ليعرفوا ذلهم وغره فرأوا أنوار الأسماء والصفات وسنا سبحات الذات في وجهه، ورأوه ملتبسًا بنوره ونور نوره، وما عليه من كسورة ربوبيته؛ فتاهت قلوبهم، وفنيت عقولهم من صولة جلاله، وخروا له ساجدين من شدة حبهم له وشوقهم إليه، وتصاغرت نفوسهم بين يديه وذلك قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ سجودهم لما بدا من آدم ﷺ من نور الحق؛ فسجدوا له لا له بالحقيقة بل سجدوا للأزلي الأبدي المنزه عن إشارة الزائغين، وتهمة المبطلين، وأوهام الغالطين، ولم ير إبليس ما رأت الملائكة؛ لأنه كان من عالم القهر محجوبًا بالقهر عن رؤية جمال الحق في آدم ﷺ بقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولو أدركه بتلك الصفة سجد له في كل لمحة ألف مرة.

لو يَسمَعونَ كَما سَمِعتُ كَلامَها   خَرّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجودا

قال بعضهم: أبصر الملائكة من آدم ﷺ هيكله وشخصه، ولم يشاهدوا إضافة الروح إليه واختصاص الخلقة به واستقامة التسوية وتعليم الأسماء والإشراف على الغيب فنكلوا على السجود؛ فلما أظهر الحق تعالى هذه الخصائص سجدوا له وقالوا: سبحانك أنت تخص من تشاء من عبادك بخصائص الولاية، وتنعيه بنعوت الربانية، وتجريه إلى بساط القربة، وأنت الفعال لما تريد.

قال الواسطي: الفرق بين روح آدم ﷺ وبين الأشياء كلها تسوية الخلقة وتخصيص

الإضافة، فقربت من الله وعرفته ومكّنها من حكمها فغنت وغنمت، ورجعت إليه بالإشارة وقطعت عنه العبارة، وذلك كله من عجز الفخر إذ لم يلبسها ذل القهر؛ فزينها بخلقه فتخلقت بخلقه، وتأدبت بصفته فكانت به تنطق وبإشارته تعقل، وهذا تفسير قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

قال أبو عثمان: فتح الله أمين الملائكة بخصائص آدم ﷺ، وأعمى عين إبليس عن ذلك فرجعت الملائكة إلى الاعتذار، وقام إبليس على منهج الاحتجاج بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

قال أبو الحسين: نظر الملائكة إلى الروح، وإلى ما خص الله به آدم ﷺ من القربة والكرامة؛ فانقادوا لأمره سبحانه، وسجدوا له وأبى إبليس واستكبر؛ لأنه كان في عبادته أسوأ حالاً منه في آياته؛ فإنه ما عبد الله قط، وإنما كان يعبد نفسه وهواه، ثم غير الحق سبحانه إبليس حيث لم يسجد له مع الملائكة بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ما لك ألا تكون من المشاهدين شهودي بوصف كشف جماله وجلاله مع دعواك معرفتي وعبوديتي، فإن من لوازم المعرفة والعبودية والعلم بالربوبية عليك أن تراني بوصف الربوبية في العبودية، وأن تعرفني بأمري ما وراء أمري من أسرار علمي، وظهوري في لباس قدرتي.

ثم أخبر عن جوابه وجرأته بالكلام في حضرة القديم، ومؤازرة كبريائه الأزلي بكبرياء نفسه بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقًا على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم ﷺ كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجمال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحًا لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضًا إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوبًا بنظرين، نظر إلى آدم ﷺ، ونظر إلى

نفسه؛ فأما نظره إلى آدم عليه السلام قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب ندم آدم عليه السلام؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبته لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريدًا لا مريدًا؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفيائه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

ألا ترى كيف كان حاله إلى الأبد إذا لم يعرف مكان القرب من مكان البعد، وكيف يهيم ويعمه في وادي الطرد واللعن بقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ رجمت بأحجار القهر من مكان اللطف إلى معدنه؛ لأنه كان فيه عارية قد قُصد باللعنة إلى يوم الدين، وكان في الأزل ملعونًا.

أراد بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أن اللعن لعنان، لعن قديم، ولعن جديد؛ فإبليس كان موصوفًا بهما، اللعن القديم سبق إرادة الحق لإبعاده عن رحمته وذلك لا يتغير أبدًا؛ لأن القديم هو الباقي، وتلك الإرادة قائمة به، واللعن الجديد زيادة القهر حيث أعطى زمام العصاة إلى يده حتى يفعل بهم ما يشاء بإذن الله، واستكباره عن طاعته، وارتكاب معصيته، وإغواء عباده هو اللعن الجديد الذي هو زيادة البعد، فذلك منقطعة يوم الدين حيث ارتفعت العبادة والمعصية؛ فيكون موصوفًا بما كان موصوفًا في علم القديم إلى الأبد، ليت لو كان رجلاً من الرجال، ويطلب الحق في أودية قهره ليرى أشياء من عجائب الربوبية ما يرى الرجال في معادن اللطف، ولكن كيف أقول وإنه ليس من دواب الإصطبل عجبت من تحنثه وجهده كيف يمشي خلف بنيات وصبيات وجهيلات، ويفعل كما يفعلون من خساسة طبعه وكثرة جهلة ويستأنس بكل مستوحش، ويستوحش من كل مستأنس، وليس هذا من أوصاف الرجال.

قال الواسطي: اللعنة التي لم تزل تستحقه مني، وإن كانت الأوقات جرت عليك بزينة السعادة.

ولما سقط من أصله بحسده وعداوة أولياء الله زاد حسده واستنظر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ

﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد بذلك إيذاءهم، وإلقاء نيران ضلاله إلى عباد الله، وظن من جهله بالله أنه يسبق القدر المعلوم حتى لا يموت كما يموت الخلق، فرد عليه الحق بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي: تموت كما يموت الخلق بالنفخة الأولى، وأراد الملعون أن يتشفى على آدم ﷺ وذريته بعد موتهم، ويسخر منهم بما فيه من الحسد عليهم؛ فألقى الله سبحانه رغام الحسرة على أنفه.

قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، ثم ذهب الملعون إلى طلب الحيلة في إغواء بني آدم ، وخرج بالجرأة في المخاطبة في الحضرة بما أخبر الحق عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ادعى الملعون اتصافه بصفة قهر المقدم؛ حيث قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك دعوى الاتصاف بالقدرة في عالم القهر، أي بما ألبستني من لباس قهرك وإغوائك إياي، لأغوينهم لا بقدرة نفسي تكلم من التوحيد بغير اختياره، وعلم أن اللطف من الحق سبحانه ورحمته سابقتان على قهره وغضبه، فاستدرك واستثنى أهل اللطف والرضوان الذي اصطفاهم الله بولايته، وطهر أسرارهم عن دنس الرياء والشرك بماء بحر إخلاصه وتوحيده.

فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبأنه رآهم خارجين من تحت أديان قهر القدم إلى ساحة كبرياء لطف الأبد، وذلك ما قال عقيب الآية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: أنهم ملتبسون بأنوار قدسي، المجالسون معي في مجالس أنسي، اخترتهم لنفسي، وهم مواطن سري، وهم سكان أماكن غيبي، ألبستهم أنوار صفاتي، وسنا بهاء ذاتي في بحار عبوديتي مستغرقة، وقلوبهم في بحار شوقي ومحبتي مستغرقة، وأرواحهم في هواء هويتي هائمة، وأسرارهم في أودية أسراري تائهة، أوتيهم بي إليَّ من قهري، تقدر أن تسلط عليهم، وإن كان معك راية قهري، وإنهم في ساحة لطفي معصومون من قهري؛ فإن سلطنتك يكون على تبعك من الغاوين بإغوائي إياهم، وقهري عليهم، وافهم يا غافل أن الله وصف المخلصين من عبادي بأنهم معصومون من شر إبليس بنور إخلاصهم، وذلك النور نور التوحيد، ونور التوحيد من كشف نور الموحد ينكشف حين زند الملعون مقدحة الوسواس في صدورهم لوقوع نيران الرياء والشرك فيغلب نوره على ناره فيذهب النار، وبقي فيهم النور، وانقطع سلطنة الملعون عنهم؛ لأنهم بعين رعاية الأزل محفوظون عن الخطرات.

قال رجل ليحيى بن معاذ: بماذا كرم الله عباده المخلصين؟ قال: بالإيمان بالغيب

والمشاهدة.

قال ذو النون: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترين إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وقال النصر آبادي: المخلص على خطر من إخلاصه؛ لأنه بإياه، والمخلص جاوز حد الخطر؛ لأنه لا به(١).

وقال بعضهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: الذي أوصلتهم إلى قربي من غير كلفة ولا سابقة، وأفنيتهم عن أوصافهم، وزينتهم بأفلها وصفاتي عليهم، فهم مع الخلق بالهياكل، ومعي بالأرواح والسرائر، لا عليهم من الخلق أثر، ولا لهم مما هم فيه خبر، أولئك هم عبادي حقًّا، ليس لهم مطلب سواي، ولا مرجع إلا إليَّ هم هم، بل أنا هم، بل أنا أنا، ولا هم هم، ولا صفة لهم، ولا أخبار عنهم، لفنائهم عنهم وبقائهم لي.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر الصادق -عليهم السلام- في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] قال: جملة الخلق من جهة الخلقة، لا من جهة المعرفة، وعبادي تخصيص في العبودية والمعرفة.

قال ابن عطاء: المخلص من أخلص من رؤية نفسه ومشاهدة أفعاله واستقام مع الله تعالى في كل أحواله، فلا يتقدم إلا بأمره، ولا يتأخر إلا بحكمه.

وقال جعفر: منَّ الله بهذه الآية أن ليس للشيطان على عباده المخلصين سبيل، والمخلصين درجات من قبل المجاهدات والمشاهدات، فمن أخلص في عمله فهو مخلص، ومن أخلص بقلبه فهو مخلص، ومن أخلص سريرته وعلانيته لله فهو مخلص، ومن أخلص روحه نال الاستقامة بالله، والوصول إلى قربته.

---

(١) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية، فهم فانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممَن يتذكَّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيَّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

وقال الأستاذ: من أشهده الحق حقائق التوحيد، ورأى العالم مصرفًا في قبضة التقدير، لم يكن يهبأ للأغيار، ومتى يكون للغير عليه تسلط.

في معناه أنشد الحسين بن منصور- قدس الله سره:

جُحـودي لَـكَ تَقـديسُ وَعقـلي فـيكَ تَهـويسُ

وَمـا آدَمُ إِلّاكَ وَمَـن في البَـينِ إِبلـيسُ

ثم إن الله سبحانه وصف تلك العباد الذين هم معصومون من شرّ إبليس بالتقوى، وذكر منازلهم في جنات العلا وعيون الأسني، وسلامته من البلوى، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٱدْخُلُوهَا ﴿٤٦﴾ بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي أن الذين يغضون أبصارهم عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن هم في جنات مشاهدات الذات وعيون الصفات يشربون من سواقيها شرابات المحبة، ورواق المعرفة، يقول حبيبهم: «ادخلوا بساتين القدم والبقاء بسلامة من الانقطاع، والأمن من الفراق»[1].

قال بعضهم: مَنْ اتقى الشرك فهو في بساتين وأنهار، ومَنْ اتقى الله فهو في حظيرة القدس عند مليك مقتدر.

وقال الواسطي: مَنْ اتقى العوض جعل ثوابه عليه ما يرجو ويأمله، ومَنْ اتقى العوض فالحق عوض له من كل ثواب.

وقال الأستاذ: المتقي مَنْ وقاه الله بتفضل الأمن، اتقى بتكلفة لا بل يبقى بتكلفة، لا بعد أن وقاه الحق بتفضله، فهم اليوم في جنات ولها درجات، بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غدًا في جنات، ولها درجات بعضها فوق بعض، فدرجة قوم حلاوة الخدمة واللذة الطاعة ولقوم البسط والراحة، والآخرين الرجاء والرغبة، ولآخرين الأنس والقربة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]، ولزم كل فريق منهم اليوم مذهبهم.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: معناه يقال لهم: ادخلوها، وأجمل ذلك، ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم: ادخلوها؟ فقوم يقول لهم الملك: ادخلوها.

ويقال: يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملك حتى يقول الحق لهم: ادخلوها كما قالوا:

فَـلا أَلـبَسُ النُّعمـى وَغَـيرُكَ مُلـبِسٌ وَلا أَقـبَلُ الدُّنـيا وَغَـيرُكَ واهِـبُ

ثم إن الله سبحانه زاد وصف المتقين، أنهم مقدسون من غل النفساني وغش الشيطاني

---

(١) لم أقف عليه.

بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ بيّن في هذه الآية أن قلوب الصديقين والمتقين مقدسة من علل الإنسانية والشيطانية؛ لأنها مقدسة بقدس جمال الرحمن؛ ولأنها متقلبة بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يدخل فيها علة الحدثان.

الأرواح كانت مستغرقة في لجج بحار الوحدانية والأسرار، هائمة في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها غبار وساوس الشيطانية، وما طوى عليها في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها وساوس الشيطانية، وما طرأ عليها قتام هواجس النفسانية، لكن لمّا أراد الحق سبحانه امتحانها خلق الأشباح، وجعل منها أوديتها الشهوات، وأنبت فيها نبات الأخلاق الذميمة، والفطرة السليمة، وجعل القلوب أماكن الأرواح، وجعل الأرواح أماكن العقول، وجعل العقول أماكن الأسرار، وجعل الأسرار أماكن لطائف معرفته وحكمته، وجعلها أصداف جواهر تجلي جماله وجلاله، ثم وضع الجميع في مواضع الفطرة من الأشباح، فلمّا سكنت هذه الجنود في الأشباح، وتواترت عليها أنوار تجلي الحق، تطهرت الصدور بمساكنها من علل الإنسانية، وانسدت عليها أبواب الشيطانية، فلم يبق فيها علل الأخلاق، ولا يدخل فيها بعد ذلك غبار الوسواس فإذا بعد ذلك صاروا متقين، الذين وصفهم الله بنزع الغل عن صدورهم، قيل: دخولها في الجنان نزع علة الغل والغش بنفسه عن صدورهم، ثم بكرمه أدخلهم في جنان مشاهدته، وأجلسهم على كراسي قربته ينظرون بعضهم إلى وجوه بعض بالمودة والمحبة والشوق إلى لقائه، يرى سيماء نور الألوهية بعضهم من وجوه بعض، ولو بقى الغل في صدورهم على باب الجنة ما أسوأ حالهم إذا بقى قلوبهم في غواشي الغل، الله الله لا نظن، فإنه لك بجلال قدره دفع عن صدورهم هذه العلة قبل دخول أرواحهم في أجسادهم، وكيف يكون موضع المضافات والمودة والأنفة الإلهية مغشوشة بغل الطبيعة، والغل والغش من أوصاف أهل النفوس، لا صفة المتحابين في الله، لا ترى كيف وصفهم بالآخرة، ولا يبعد من قدرة الله وحكمته أن يدخل الغل في صدور ولي من أوليائه، ابتلاءً وامتحانًا؛ ليشتغل بدفعه وتطهير سره عن ذلك، واستعاذته بالحق من وسواسه، ويصل إلى معالي الدرجات باستنكاره على نفسه، ومحاربته مع شيطانه، ولا يكون ذلك من منقصة في ولايته.

ألا ترى إلى قول أسد الله علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كيف قال في هذه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك القلوب صافية من هواجس النفس، وظلمات الطبائع،

بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخوانًا.

قال الأستاذ: أمر الخليل ﷺ ببناء الكعبة وتطهيرها، فقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]، وأمر جبريل ﷺ حتى غسل قلب المصطفى ﷺ، وطهره وتولى نفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ لا تقديمًا لهم على الأنبياء - عليهم السلام، ولكن رفقًا بهم، وقد يصنع الله للضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكَّل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهر عيوبهم، فتولَّى ذلك بنفسه رفقًا.

ويقال قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، ولم يقل: ما في قلوبهم من غل؛ لأن القلوب في القبضة يقلبها، وفي الخبر: **«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»**[1].

ثم إنَّ الله تعالى نفى عنهم النصب والمشقة في جواره بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ آواهم إلى أنوار بقائه، ومشاهدة جماله، وحرسهم بها عن قهر سلطان الكبرياء القدم الذي لو هجم عليهم سطوة من سطواته يفنيهم عن اللذة، وما هم فيه من الجنان كلها؛ لأن الحادث إذا قُرن بالقديم يزول من عظمته فيه بأقل من لمحة، ولولا استتارهم بأستار نور البقاء لهلكوا في جلال الأزل، كأنه تعالى حفظهم به عنه، وأيضًا لولا تفضله ورفقه بهم؛ حيث أراهم جماله بوصف اللذة؛ ليفنون في بوادي عزته وهيبة عظمته، ومعنى قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لأن هناك ليس مكان الامتحان والتربية، وقد صار في زمان الغضب بوصف الرضا، ويصير الغيرة مرتفعة من بين العاشق والمعشوق.

قال النصر آبادي: أي نصيب يلحق في المجاورة لِمَنْ غفل عن الله تعالى، وأما من انتبه فأي راحة للحدث في جنب القدم، هل هو إلا تعذيب واستهلاك؟ ثم رجع إلى المقامات، ومحل الامتحانات، ورعب المريدين بنيل الدرجات، وهدد السالكين بنصب الحجاب، وتعذيبهم بالعتاب، بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر جناية خطرات قلوب العارفين بعد إدراكهم مواضع خطرها، وتداركهم بالندم على تضييع الأوقات، وعمارتهم أسرارهم بأنواع الذكر وصفاء المناجاة يرحمهم بأن يوصلهم إلى أعلى مراتبهم من المكاشفات، والمشاهدات، وعذاب فراقه، واحتجابه أليم لِمَنْ عرفه، ثم يستأنس بغيره، وإنْ كان واسطة مليحة، ويمكن أنه تعالى أخبر عن تلك الأسرار التي ذكرناها في قوله: ﴿لَا

---

(١) سبق تخريجه.

﴿يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ غفر لهم علل الحدوثية، ورحمهم بأنه ألبسهم لباس الربوبية حتى بقوا به معه من غير زوال، وأن عذابه هناك لو أطلق عنانه يحرق الجمهور بنيران سر كبريائه وحقيقة أوليته، أخبر عن تلك الصفتين ما أخبر عن مباشرة صفة القهر، بل أخبر عن استغراقهم في بحر رحمة مشاهدته وغيبوبتهم في حجال وصلته؛ فإنه الغفران الحقيقي.

قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ وانحسم باب القهر بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾، وأيضًا أخبر عن الوصفين من أوصاف المغفرة والرحمة، وهما في الحقيقة صفتان قديمتان باقيتان، وأن عذابه صفة فعله، وإذا قورن الفعل بالصفة لزال الفعل في الصفة، فإذا مقام الرجاء أقوى من مقام الخوف؛ لأن الرجاء من شقائق الإنس، والبسط وهو باق أبدًا مع العبد؛ لأنه من تأثير تلك الصفة، وزال الخوف؛ لأن في جواره لا يبقى الخوف، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بزوال العذاب، وغيبة الفعل في الصفة.

قال ابن عطاء: أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصحَّ لهم سبيل الاستقامة في الإيمان؛ فإن من غلب عليه رجاؤه عطّله، ومن غلب عليه خوفه أقنطه.

قال الجنيد في هذه الآية: النبأ سابق إليهم في الدنيا باجتماعهم في الآخرة، فلذلك لا يشكون ولا يضعفون، ويطيقون حمل البلاء فهم في سعة من العيش في كل حال، كل ذلك لسعة علمهم بالله، وسكونهم إلى مواعيده فحملوا الحقوق، وما خفي عليهم شيء مما خفي على غيرهم، وهم مشرفون بالله على ما له منهم، وما لهم عنده.

وقال ابن عطاء: إن الله تعالى وصف نفسه بالفضل والعدل، ولا يوصل فضله إلى عبد إلا أنجاه من كلِّ بليةٍ وهمٍّ، ولا وضع عدله على أحد إلا أهلكه، وأوصل عدله إلى إبليس مع طول عبادته التي توهم أنها تنجيه، وتقربه إلى ربه، فأبعده بعدله، وأخزاه إلى أبد الأبد، وأوصل فضله إلى السحرة، وهم يقولون لفرعون: بعزتك، فردهم مما هم فيه بفضله إلى محل السعداء، فتلاشى كفرهم ومعصيتهم.

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ

أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ثم إنَّ الله سبحانه إذا أغلق باب الفراسة على الأنبياء والصدِّيقين لا يرون مرقومات المقدرات، ولا يعلمون بحقائق المغيبات.

ألا ترى كيف غاب حديث رؤية روح إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام عن الخليل عليه السلام حتى قنط من نفسه أن يكون ذلك في كبره، ولو رأى ذلك في سرِّ القدر لم يقل: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾، ولم يكن شاكًا في قدرة الله، ولكن لم ير هناك في ذلك الوقت ما عند الله من مكنون سره، وأيضًا كان في كبر سنه هائمًا في أودية الخلة، مستغرقًا بوصف الشوق في بحار المحبة، مستأنسًا بجمال المشاهدة، مستوحشًا من أحكام الحدوثية، فقال: أي وقت لتربية الولد، وإني كنت على جناح سفر الوصلة، وتصديق ذلك قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: بأي شيء تبشرون، وإني غائب في الحق.

وأصل النكتة في هذا: إن الخليل رأى في سطور مقدرات الغيب بنور النبوة اسم إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، ورأى بروحه روحهما، فقال: أبشرتموني على أن وصل إليَّ الكبر، ويلغني الحق إلى درجة الشيخوخة، ولا يخفى مثل ذلك عليَّ، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، وإني أرى بنور نبوتي ما لا ترون بنور الملكية.

قال الجوزجاني: أيام الكبر أيام القنوط من الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة، وما عند الله.

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لم يقبل بشرى الولد من الملائكة عند الكبر، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ إلى أن ذكروا أن البشرى له من الله فزال عنه القنوط لعلمه بقدرة الله على ما يشاء[1].

---

(١) في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزَم للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «عليكم بالدلجة» فإن الأرض تُطوى في الليل، والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلُّونها لما =

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياة روحك التي أوجدتها من العدم بتجلي القدم، وعمرها في مشاهدتي بعد كون وجودها، وأيضًا أي بأعمار أنوارك المصطفوية في علم غيبي، حيث لم يكن الدهر الدهار، ولا الفلك الدوار، وهي كانت تزورني في سرادق كبريائي، ولا تحصى زمانها؛ لأن زمانها بلا زمان ومكان، أوجدتها بقدرتي وكمنتها بقدرتي في أماكن قدرتي، أي: لعمر أنوارك التي تعرف مني نور صفاتي، وتدرك مشاهدة ذاتي، فنعم تلك الأعمار أي: بعمرك في ديوان ربوبيتي، ومنازل قربتي، وحسن مشاهدتي من زمان معراجك ووصالك معي، وأيضًا أي: بعمرك الذي يبقى في جمال مشاهدتي أبدًا، وأيضا أي بعمرك الذي ما هجم عليه طوارق الغضب ولا قوارع العطب، وأيضًا أي: بحياتك التي كونتها لك من تجلي حياتي فيك، وتلك الحياة من روح روحي التي نفختها في أبيك آدم ﷺ كانت روح آدم الذي نفخها الحق في آدم بحياتك التي عاش آدم، ومن دونه بها، إنهم من حياتك، ورؤيتها في حجاب الضلال، وسكر العمى.

قال بعضهم: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمارة سرك بمشاهدتنا، وقطعك عن جميع المكونات.

وقال النوري: أي: بحياتك التي خصصت بها من بين الخلق، فحيوا بالأرواح، وحييت بي، فبقاؤك متصل ببقائي؛ لأنك باق بي.

وقال جعفر: أي: بحياتك يا محمد، إن الكل في سكرة الغفلة وحجاب البعد إلا من كنت وسيلته ودليله إلينا.

=

يُورثهم النسيم الرحماني في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللّذات والنشاط.

وفيه أن الأهل: وهي المخدّرات ينبغي أن يكون خروجهنّ من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر لهنّ، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار ألبتّة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزفُّ إلى بيت زوجها بعد المغرب حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقال القرشي: أقسم الله بحياة محمد ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ لأن حياته كانت به، وهو في قبضة الحق: وبساط القرب، وشرف الانبساط، ومقام الإنفاق، فأقسم بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بحياة مثلك يكون القسم؛ لأن الكل زاغوا وما زغت، وطغوا وما طغيت، وسألوا وما سألت، حتى بدأناك بالإجابة قبل السؤال، فحياتك هي التي بها حياة الخلق قبلك، وبها حياة الخلق بعدك، فإنك حيٌّ بحياتنا غير مباين عنَّا بحال.

وقال الخراز: وصفه لخلقه، ثم سَتره ببره عن خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ رهن الحق سبحانه الفراسة برؤية الآيات والشواهد، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، و﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وهذه أوصاف البدايات في الفراسة، حيث يحتاج إلى النظر إلى العلامات، وأصل الفراسة إصابة نظر الروح إلى مقدرات الغيبية بلا علامة ولا علة ولا سبب، بل يتعلق هذه الفراسة بانكشاف ما يبدو من الغيب بنور الغيب، وسر المقدور، وخفيات الضمائر، ومكنونات السرائر لأبصار الأرواح الناطقة بالحق، المسامعة أصوات أنباء الغيبية، الشاهدة مشاهدة الحق، فترى بالحق بعد أن تكون موصوفة بصفة الحق ما للحق، فكيف يخفى شيء عمَّن ينظر بالحق ويبصره؛ لأنه تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به من جهة الاتصاف، والاتحاد بالنعوت الأزلية.

وافهم أن الفراسة على عشرة مراتب: فبعض الفراسة يحصل بعين الظاهر ورؤيتها إلى منقلبات الآيات والأفعال في عالم الصورة، وهي تصرف الحق مكان الآيات إعلامًا من مكنون ما سترها من أعين الخلق، وهذا تفرس بصرية ظاهرية مقرونة بعلم العقل والقلب والروح والنفس والسر وسر السر.

والثاني: ما يسمع آذان العارفين حركات المعالم، وما ينطق الحق وملائكته بألسنة الخلق والخليقة، وذلك يسمع الظاهر، وتلك الفراسة تتعلق بالأسماع الظاهرة، وما يسمع أيضًا بأسماع البواطن وقواها.

والثالث من الفراسة: ما يبدو في صورة المتفرس من أشكال تصرف الحق وإنطاقه، وجوده له حتى ينطق جميع شعيرات بدنه من حيث التصرف والتغير بألسنة مختلفة، فيرى ويسمع من ظاهر نفسه ما يدل على وقوع الأمور الغيبية، وذلك أيضًا يتعلق بالرؤية والسمع وحركة الفطرة في الباطن، وإيصالها بأجزاء الظاهر.

والرابع: ما يحصل بحواس الباطن حيث وجدت بلطفها علامات أوائل المغيبات باللائحة الواضحة.

والخامس: ما يحصل من النفس الأمارة بما يبدو فيها من التمني والاهتزاز، وذلك سر عجيب؛ لأن الله إذا أراد فتح باب الغيب ألقى في النفس الأمارة آثار بواديه، إما محبوبًا فتتمنى، وإما مكروهًا فتفزع، ولا يعرف ذلك إلا رباني الصفة.

والسادس: ما يحصل للقلب سمعيًا بالإلهام، وإما فعليًا كوجدانه برد الواقعة، وإما كشفيًا يبصر ويعلم.

والسابع: ما يحصل للعقل، وذلك ما يقع من أثقال برجاء الوحي الغيبي عليه، فيعلم من وجود الوحي إلهامه ما سيقع من تصرف الحق، وذلك أيضًا يحصل له سمعيًا وبصريًا.

والثامن: ما يحصل للروح؛ لأنها تراه من تصرف الحق فيها، وما يبدو في غيبه يبصر الخاص، وما يسمع من الحق بالواسطة وغير الواسطة.

والتاسع: ما يحصل لعين السر وسمع السر، ترى تصرف الصفة، ويبصر علامة كون الحالة في نور الصفة.

والعاشر: ما يحصل في سر السر، وهو ظهور عرائس أقدار الغيبية ملتبسات بأشكال إلهية ربانية روحانية، فيبصر تصرف الذات في صفات، ويسمع الصفت بوصف الحدث والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهى الكشف والفراسة الحقيقية التي حذرها الخلق النبي ﷺ بقوله: «اتَّقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله»[1].

فإذا وجب الخوف من فِراسة مَنْ يرى بنور الحق؛ فكيف لا يجب الخوف من فِراسة من يرى بالحق لا بالغير؟!

قال الواسطي: السرائر متألهة بحظوظها، مصروفة عن أوقاتها، صدقها في تحركها، أظهر عليها من صدقها في تعبدها، تظهر من السرائر أبدًا قهرًا، ما يوقفك عليها عفوًا، فيشرف المتفرس عليها في أوقاتها؛ فيعرفها، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتصفحون المتفرسون.

وقال بعضهم في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتفرسون، وهم على ثلاثة أوجه بالنظر والسمع والعقل، وأجل من هذا حال الكشف والمشاهدة لمن أوتيها، فيكون فراسته غائبًا وحاضرًا صحيحة.

وقال بعضهم: المتوسمون هم المتفرسون على السرائر، فإذا أردت أن تعرف بواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصاريف أخلاقهم، ومواقيت إشجابهم.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ٣١٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢/ ١٦٠).

وقال محمد بن الخفيف: الفراسة مقسومة على ثلاثة أوجه:

الأول: إصابة المكنون من الأوقات المستكن في النفوس من الأحوال المستخفية من حمل عوام الخلق، وذلك مخصوص به الرسل لما كان للنبي ﷺ في عبد بن زمعة حين قال: «إن أمرها لبيّن، لولا حكم الله».

والثاني: تجلي ما استودع الحق في النفوس من الأحكام المخفية على الخلق المتفرد به الحق، وكشف ذلك لأهل التخصيص من الصديقين والأولياء بعد الأنبياء، كما قال أبو بكر الصديق لعائشة -رضي الله عنهما: «إنما هما أخوك وأختاك»[1].

والثالث: ذكر اطلاع القلوب عندما انكشف له من الغيب البعيد، وهذا مقرون بالإلهام، كما قال عمر بن الخطاب: «يا سارية، الجبل الجبل»[2].

سئل الجنيد عن الفِراسة؛ فقال: آيات الربانية تظهر في سماء العارفين، فتنطق ألسنتهم بذلك، فتصادف الحق.

وقال الحسين حين سُئل عن الفِراسة؛ فقال: حق نظر عن أحد نظرًا إياه، فخبر عن حقيقة ما هو إياه بإياه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الصفح الجميل ما يكون برؤية تقدير الأزل بنعت شهوده مقدور الغيب بوصف السرور في مباشرة الأمر، والنشاط بالرجوع إلى الحق، وسابق أمره ومشيئته فيما جرى عليه بالواسطة من الغير، فإذا كان كذلك سقط الملامة بسقوط الوسائط، وحصل الرحمة على المجرم المجبور بأمر التقدير.

ألا ترى كيف أشار بتمام الآية إلى سرِّ ما سبق من التقدير الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ما هجم عليك من إيذاء قومك هو مخلوق الخلائق، وتقديره في تربيتك، وإبلاغك إلى مقام أولي العزم، وهو عليم بما قدَّر، وبما يكون من اتصافك بخلقه العظيم، وإنْ

---

(١) ذكره الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥١٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٤).

كان لفظه الخلاق متعلقًا بمعنى الإيجاد والتقدير، وأيضًا فيه إيماء من معنى الخلق والتخلق كأنه داعي حبيبه إلى التخلق بخلقه في العفو والكرم، ثم واساه بأنه عليم بما قلبه من الشفقة على دينه، وأيضًا الصفح الجميل مواساة المذنب يرفع الخجل عنه، ومداواة موضع آلام الندم في قلبه.

روى عمرو بن دينار عن محمد بن الحنفية عن علي -رضوان الله عليهم- في قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، قال: هو الرضا بلا عتاب.

وقال بعضهم: صَفْحٌ لا توبيخ فيه، ولا حقد بعده، والرجوع من الأمر إلى ما كان قبل ملابسة المخالفة.

ثم إن الله سبحانه وصف امتنانه عليه بما أعطاه من علوم الألوهية وأسرار الربوبية ليزيد رغبته في الصفح والعفو والكرم، ومواساة عباده، وتحمل إيذائهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ فيه بيان التخلُّق والاتِّصاف بصفاته القديمة، وأخلاقه الكريمة.

أي: ألبسناك أنوار سبع الصفات من صفاتنا؛ لتتصف بها، وتتخلق بخلقها، فتكون ربانيًّا، ألوهيًّا، جبروتيًّا، ملكوتيًّا، جلاليًّا، جماليًّا، نوريًّا، قدسيًّا، أوليًّا، آخريًّا، رحمانيًّا، رحيميًّا، ذاتيًّا، صفاتيًّا، والسبع المثاني سبع بحار الصفات القديمة، فغسله فيها، وألبسه من أنوارها كسوة الربوبية حتى تكون مرآة الله في بلاد الله وعباده، فسقاه من بحر علمه شرابات، ومن بحر قدرته، ومن بحر سمعه، ومن بحر بصره، ومن بحر كلامه، ومن بحر إرادته، ومن بحر حياته، فصار عالمًا بعلمه، قادرًا بقدرته، سميعًا بسمعه، بصيرًا ببصره، متكلمًا بكلامه، مريدًا بإرادته، حيًّا بحياته، فعلم بعلمه علم ما كان وما سيكون، ويقلِّب الأعيان في السموات والأرض بقدرته، ويسمع حركات الخواطر بسمعه، ويرى ما في الضمائر ويبصره، ويتكلم بحقائق الربوبية والعبودية بكلامه، ويكون ما أراد بإرادته ويُحي القلوب الميتة والأبدان الفانية بحياته، ولكل صفة منها ثانيها من جمهور الصفات الخاصة على إزاء كل صفة منها صفة، حتى يكون مثاني، ومنها القدم، والبقاء، والجلال، والجمال، والرؤية، والصمدية، والربوبية، فالصفات الأولى مع هذه الصفات السبع المثاني، فكان من مشاهدة القدم والاتصاف به صار بنعت التجريد عن الحدثان، ومن مشاهدة البقاء والاتصاف به، صار متمكنًا في محل الصحو، ومن مشاهدة الجلال والاتصاف به صار في محل الهيبة مهيبًا في السماوات والأرض، ومن مشاهدة الجمال والاتصاف به صار عاشقًا بوجه القدم، وصار مرآة جمال الحق في العالم، ومن مشاهدة رؤيته، والاتصاف بها، صار شائقًا محبًّا مستغرقًا في بحر الأزل، وصار معشوقًا لقلوب الخليقة، ومن مشاهدة الصمدية واتصافه بها، صار صمدانيًّا

مشربه من الصمدية، وطعامه من المشاهدة، بقوله: **«أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»**[١]، وكان لا يراه أحد إلا سكن جوعه من تأثير صمدانيته، ومن مشاهدة الربوبية والاتصاف بها، صار متصرفًا في مماليك الحق وعباده وبلاده.

ألا تري كيف أجابته الشجرة حتى أتت عنده من البعد، وسترته لقضاء حاجته، وكيف انشق القمر بإشارته، وصار بذلك مسجودًا للحجر والشجر، فقد أعطاه الله أنوار هذه السبع المثاني من الصفات القدمية، وزاد بأنه أعطاه القرآن العظيم الذي أخبره خير جميع أسمائه، ونعوته، وصفاته، وما لم يصل إليه جميع الصفات؛ لأن صفاته تعالى غير متناهية، فعرفه القرآن أوصاف الذات والصفات جميعًا، وعظم القرآن من عظم متكلمه، وهو بذاته تعالى تكلم بقرآن عظمته من حيث عظمة الذات وعظمته، إن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من علوم الأزلية الأبدية، وأيضًا لكل صفة من صفاته ثاني من عينية الذات، فالصفة ثاني الذات، والذات ثاني الصفات، ليس من جهة الافتراق والاجتماع هو واحد من جميع الوجوه، وهو منزه عن كل تفرقة وجمع، كأنه قال: أتيناك معاني الذات والصفات، وجئت عرفتها بعد أن عرفك تعالى بجلاله وعزته، أي: كسيناك نور ذاتنا وصفاتنا، لذلك قال ﷺ: **«من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني؛ فقد عرف الحق»**[٢].

والقرآن العظيم علمك أنباء الربوبية، وعرّفك حقائق الإلوهية، وأعلمك علوم الغيبية وأحكام العبودية، وأدق الإشارة أن السبع المثاني هي تلك الصفات القائمة، وتأثيرها من جهة الاتصاف بها في قلب النبي ﷺ كأنه توانى بالسبع الصفات القائمة بالذات؛ لأنه العالم والقادر والسميع والبصير والمتكلم والمريد والحي، وهذه الصفات من النبي ﷺ مواليد تلك الصفات القائمة الأزلية المنزهة من العلة وتأثيرها.

ألا ترى إلى ما حكي عن الله ﷻ في حق المحبين، قال الله: **«إذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»**[٣]، ولذلك قال ﷺ: **«خلق الله آدم على صورته»**[٤][٥].

ويمكن أنه تعالى قد أشار أيضًا إلى صفته العامة وصفته الخاصة مثل المتشابهات، أي: عرفناك صفتي الخاصة والعامة، وعرفناك بالقرآن العظيم معاني الصفات العامة والخاصة فصرت عاشقًا محبًا مشتاقًا من رؤية الصفات الخاصة المتشابهة؛ لأنها معدن الجمال والجلال،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٥) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٢/ ٥٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨/ ٣١٩).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٨)، وابن حبان (١٤/ ٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٣).

(٥) هي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وصرت متفردًا من رؤية صرف الألوهية بواسطة الصفات العامة عن الأكوان والحدثان، وظاهر الآية أتيناك سبعًا من المعاني أربعة عشر خُلقًا من أخلاقه، مثل: الرحمة والشفقة والعفو والصفح والكرم والظرافة واللطافة والحسن والجمال والهيبة والحياء والسخاء والوفاء والولاية والنبوة والرسالة، هذا كما روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر -عليهم الصلاة والسلام- في هذه الآية، قال: أكرمناك، وأنزلنا إليك، وأرسلناك، وألهمناك، وهديناك، وسلطناك، ثم أكرمناك بسبع كرامات؛ أولها: الهدى، والثاني: النبوة، والثالث: الرحمة، والرابع: الشفقة، والخامس: المودة والألفة، والسادس: النعيم، والسابع: السكينة والقرآن العظيم، وفيهما اسم الله الأعظم.

ولما بيَّن امتنانه عليه، وعرفه مكان النعمة السرمدية له، صغر الكون وما فيه في عينيه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر يا صاحب هذه المعاني العظيمة الربانية إلى زينة أصناف أهل الدنيا من الغافلين عنا، فإنها فانية لا يليق بنعمتك، وهذا إشارة إلى سرِّ الفطرة النفسانية المجبورة بالشهوة الخفية، أي: ينبغي ألا يميل نفسك إلى شيء غيرنا، فإنه موضع خطر المخلصين؛ لأنه محل امتحاننا لا تمدن عينيك إلى طلب جمالنا في غيرنا من أوصاف الروحانيات، فإن حقيقة المشاهدة ما تكون خالية من الوسائط، أي: لا تكن كالخليل، حيث قال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ﴾ لكن اقتد بآخر مقامه؛ حيث قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فبدايته في قوله: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ مقام العشق، وآخر مقامه إفراد القدم عن الحدوث، فأول مقامك آخر مقام الخليل فغض ﷺ بصره عن الوجود، لذلك وصفه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وفي الحديث المروي أنه ﷺ كان إذا رأى أموال أهل الدنيا من الإبل، والغنم، وغيرهما، يغطي عينيه بكمه، ويقول: بهذا أمر ربي.

ثم زاد التأكيد برفع الهمة عن الغير بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أمر باستعمال خلقه للمقبلين إلى الله، المتابعين حبيبه بنعت المحبة والإيمان واليقين، بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جناح همتك ارتفعت من الكونين، ووصلت إلى قاب قوسين؛ لأنها أجنحة ألوهية ربانية قيومية، أي: اخفض جناح الربوبية التي اتصفت بها لأهل العبودية حتى يطيروا بجناح نبوتك إلى معادن رسالتك، ويجدون بمتابعتك وهمتك المقامات الشريفة، والولايات الرفيعة، ومع ذلك لا تتكلم من حيث أنت، فأنت من حيث أنا، ولكن تكلَّم معهم من حيث أنت في مقام العبودية، بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لست من قبل الربوبية

بشيء لكن أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، فمن جهة الوحي أنذركم من عظيم جلاله، وقهر كبريائه، وأحذركم من ألم فراقه، أنا النذير منه مبين، حيث ألبسني شاهد ملكه، وعز جلاله وأنوار بهائه مبين من حيث ظهر معجزتي لكم وأنتم معاينوها.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ غار الحق على حبيبه أن يستحسن من الكون شيئًا أو ينظره طرفة؛ فإن ذلك متعة لا حاصل له عند الحق، وأراد منه أن يكون أوقاته مصروفة إليه، وأيامه موقوفة عليه، وأنفاسه له حسيبة عنده؛ فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا﴾[1] لذلك وقع في المحل الأعلى، فما زاغ ولا طغى.

قال يوسف بن الحسين أذن الله في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ لنبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه بأنه السفير الأجل، والعلم الظاهر، والبيان الشافي، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يحتاج الحق إلى السؤال عمّا عمل أهل معرفته، لكن يعرفهم مكان الخطوات، واعوجاج الهمم، وميلان الطبيعة، ودقائق النفس والشيطان، حتى يكونوا مذابين من حيائه في بحر الخجل من صولة العظمة، وأيضا أراد أن يواسيهم بما قاسوا من آلام المشقة والمجاهدة، كيف يخلصون من مكان الامتحان، فيقول: كيف أنتم عبادي في معاملتي، ومن أجرتي، ومشقة امتحاني، حتى يقولوا بلسان الاضطرار والشوق إلى لقائه ومقاساتهم داء الفراق هذا البيت:

عندك لا تسأل عن حاله جل بأعدائك ما حل به

قال الواسطي: يطالب الأنبياء والأولياء بمثاقيل الذر لسمو رتبتهم ولا يطالب العامة بذلك، لبعدهم عن مصادر السر.

قال الواسطي: غفلة العامة من المسئول عنها أهل الحقائق من حركات الأطراف، وخطرات القلب، وهواجس السر.

---

(١) فضل الرؤية فيما لا يُحتاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام، والذي له عند الله مَنزِلٌ وقَدْرٌ فَلِلْحَق على جميع أحواله غَيْرَةٌ، إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رِضاءٌ، تفسير القشيري (٥/ ٦٤).

قال الجنيد: لتسألن أهل الحقائق عن تصحيح ما أظهروا للناس من الدعاوي وتحقيقها، وبلغني أن بعض المشايخ قال لبعض المريدين: إياك وهذه الدعاوي فإن الله سائلك عنها.

فقال المريد: لو علمت أن الله يكلمني في القيامة ويسألني عن هذا، لما كان مني في طول عمري إلا هذا، وأنا ممن يصلح لمخاطبة الحق، وللوقوف بين يديه، وسقط فمات.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾.

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ واسى الحق حبيبه بما سمع من أعدائه، وقال: أنت بمرأى منّا يضيق صدرك من لطافتك بما يقول الجاهلون بنا في حقنا بما لا يليق بتنزيهنا فترة، أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا، فإن مثلك ينزهنا لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر في مشاهدة جمالنا، فإذا كنت تعايننا يسقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم.

وقال الواسطي: تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فينا من الضد والند والشريك، فسبح بحمد ربك لا تضيق به صدرا، فأنا في الأزل نزّهنا صفاتنا عما أحدثوه من هذه الألفاظ.

قال بعضهم: يضيق صدرك بما يقولون إذا رجعت إليهم، وسمعت منهم، أرجع إلى مشاهدتنا، فإنه وطن الحق، ولا يضيق صدرك.

قال الواسطي: هذا تعزية للمحسودين من العلماء، فقال: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون بجهلهم وحسدهم فيكم، ثم أمرهم بلزوم طاعته بقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

قال الأستاذ: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ولم يقل قلبك؛ لأنه كان في محل المشهود ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا يكون مع اللقاء وحشة، ثم أمر حبيبه بخالص العبودية عن كدر الخليقة بقوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ اليقين هاهنا مشاهدة الصرف، أي: إذا بلغت مقام التوحيد به، وحقيقة الرؤية، ومشاهدة مشاهدة الأزل، وغبت في بحر الأبدية، سقط عنك في تلك الحال، تظاهر الرسوم حتى تفيق عن تلك الحالة.

قال في مقام المشاهدة: الاشتغال بالعبادة ترك الأدب، وما أردنا بهذا التفسير خلع ربق العبودية عن أعناق أهل المعرفة، لكن أردنا أن العارف إذا عاين الحق يكون مجذوبًا بشوق

الحق إليه إلى جماله، وهناك هو عروس الحق ومحبوبه، لا يجوز أن يشتغل برسم من الرسوم، بل الاشتغال بحكم الوقت عين العبودية، أي عبودية أعظم من متابعة أمر المحبوب، لكن ما دام قادرا أن يكون مصححًا لظاهر رسوم العبادة، ولم يكن سكرانًا غائبًا يلزم عليه حفظ الأوقات في العبودية إلى الممات، وهذا من شعار أهل التمكين.

قال الواسطي: لا يلاحظ غيره في الأوقات حتى يأتيك اليقين، فيتحقق عندك أنك لا تحس بغير الحق، ولا ترى إلا الحق، ولا يجاذبك إلا الحق.

وقال فارس: حتى تتيقن أنك لست تعبده حق عبادته.

وقال أيضا: من نظر إلى معبوده سقط عن عبادته، ومن نظر إلى عبادته سقط عن معبوده.

وقال الحسين: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾، أي: إنك تستيقن بأنك لا تعبده ولا يعبد أحد حق العبودية ابتداء وانتهاء، فتستوجب بها لا بد من مكافأته.

قال ابن عطاء أن الله حكم على أصفيائه وأحبائه وأخلائه أن لا يخرجهم من الدنيا إلا وطوق العبودية في أعناقهم، لباس الخدمة عليهم، ولذا قال لحبيبه ﷺ من بين بريته: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

قال الحسين بن عبد الله: بصدق التوحيد خرج عن رسوم التقليد، وأبان عن شرف التفريد، فصار علمه جهلا وعرفانه نكرة.

وقال الحسين: العبودية كلها شريعة، والربوبية كلها حقيقة.

قال الأستاذ: قف على بساط العبودية معتنقا للخدمة إلى أن تجلس إلى بساط القربة، وتطالب بآداب الوصلة، ويقلل النوم شرائط العبودية إلى أن ترقى، بل تلقى بصفات الحرية.

سورة النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ الإشارة في إتيان الأمر الإلهي أنّه تعالى كان قديمًا

موصوفًا بالإرادة القديمة، والعلم القديم وفي الإرادة، والعلم كان كون العالم والعالمين فتقاضى سر الإرادة كون الوجود، فكوَّن الحق الكون بأمره القديم الذي كان في نفسه، فوقع الأمر منه بغير زمان ومكان، فصدر الكون من الأمر بما كان في إرادته وعلمه، فكوَّن ذلك أبد الآبدين بغير سؤال من الغير، ولا انتظار، ولا تعجيل، فإن الأمر قائم به، وللأمور معلق به وجفَّ القلم بما هو كائن، فإذا سقط السؤال والعجلة إذ هما صفتا جاهل بالله وبأمره، ولو كان الأمر يأتي بمراد الحدثان لكان نقصًا في الوحدانية، لذلك نزّه نفسه عن ذلك النقص بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أيها الفاهم الأمر منه، صفته قديمة أبديته، وهو تعالى قائم قديم بجميع ذاته وصفاته، ظهر حيث ما غاب، ظهر لنفسه بنفسه من الأزل إلى الأبد، فما معنى الإتيان الأمر والأمر قد أتى في القدم من القدم، ولكن ظهر بالإرادة للقدم ولكون وجود الحدث فالاستعجال لمعنى غير قائم، فأمره قائم قبل وجود العالم، وإشارة المعرفة أن العارف الصادق العاشق الشائق أبدًا يستعجل إتيان المقامات والواردات، وكشوف المشاهدات، من كمال شوقهم إلى لقائه كأنّه قال سبحانه أنّ هذه تتعلق باختصاصه، وقد أتى هذه الخاصية بغير سبب ولا علة، كان في الأزل مشتاقًا إليكم قد خصّكم بولاية قبل وجودكم فما معنى الاستعجال.

قال بعضهم: هل رأيتم أمرًا من الأمور إلا بأمره، وهل رأيتم وحدًا وفقدًا إلا به، لا تتعجلوا بطلب الفرج، فإنّ النصر مع الصبر.

قال النصر آبادي: أوامر الحق شتى بالعبادات أمر على الظاهر من الترسم، وأمر على الباطن من دوام المراعاة، وأمر على القلب بدوام الراتب، وأمر على السر بملازمة المشاهدة وأمر على الروح بلزوم الحضرة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

قال الأستاذ: أصحاب التوحيد لا يستقبلون شيئًا باختيارهم؛ لأنه سقط منهم الإرادات والمطالبات، فهم خامدون تحت جريان تصاريف الأقدار، فليس لهم إيثار ولا اختيار، ومن خاصيته لأوليائه إلقاء الهام في قلوبهم بواسطة الملائكة بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ مقامات الوحي فنون، فبعضها وحي الذات، وبعضها وحي الصفات، وبعضها وحي الفعل، ومنه لمّات الملك، وما يأتي به من الوحي يكون على مراتب أرباب القلوب، فوحي في مقام العبودية، ووحي في قرآن الحق من الباطل، وتخويف من الفراق، أو بشارة لنيل الوصال وتعريف لأسرار عيوب النفس، ومداولتها، ودفع مكائد الشيطان، ورد وسواسه، وتربية العقل بالتفكر، وتربية القلب بالذكر، ولتصفية السر بنور الفراسة، أو خبر من الغيب الكائن من وقوع المقدرات ما يختفي في الضمائر

والسرائر، أو خبر عن وقوع كشف عالم الملكوت، أو خبر عن اختصاص الربانية من لمعان أنوار الذات والصفات، فالملائكة يخبرون أرباب القلوب من أسرار ما وصفنا ومخاطبتهم مع القلوب، ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وأما وحي الصفات يكون بأنواع على مراتب الصفات تخاطب الأرواح على قدر سيرها في عالمها، وأما وحي الذات يكون مع الأسرار، وهناك يتزلزل الصفات، ويتغير الأفعال، تضمحل الرسوم، وتسقط الوسائط يحدث في السر بالسر للسر ويظهر للسر ما في السر.

قال ﷺ: «إنّ في أمتي محدَّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم»[1].

فالمحدثون الذين يتحدث معهم الملائكة والمكلمون الذين يكلمهم الله، يجوز أن يحدثَهم الله، وبيان قوله سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الروح الوحي الإلهي سمّاه بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلمين والمحدثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة، بخبر الأولياء من وحيه ما يهذب قلوب السامعين، وهو توحيده، ووصف عظمته، وكبريائه، ليسقط عنهم الخيال، وليزيل عن قلوبهم المحال بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ خوِّفوا الخلق من الخواطر الرديئة الممزوجة بالنظر إلى غيري، وخوِّفوهم من عظم جلالي، ونعوتي الشاملة على كل أسرار وأخطار.

قال بعضهم: من أنذر وحذّر فقد قام بمقام الأنبياء، ربما يأتي أمره بالبلاء، وربما يأتي أمره بالرحمة، فالصبر في الأوقات والرضا بأمر الله، وذلك لكل أوَّاب حفيظ، يحفظ أوقاته، ولا يضيع أيامه.

قال ابن عطاء: المحدث من العباد من يكلمه الملك في سره، ويطلعه على خصائص الوجود، ويفتح لروحه طريقًا إلى الأشراف على الموت.

قال الله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ينزل الملائكة بالروح على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار باب التوحيد، وهم المحدثون، فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، وإنزال الملائكة على قلوبهم، غير مسدود: ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحملون رسالة إلى الخلق.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ

(١) سبق تخريجه.

﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: هي زينتكم بالظاهر، وللعارفين في سرجها وإراحتها جمال، وهو جمال الصفة الإلهية يظهر في محل بنعت عين الجمع لأبصارهم، فيزيد من رؤية ذلك الجمال محبتهم في شوقهم إلى الله سبحانه، والأرواح، والقلوب، والأسرار، رغبةً في عالم الملكوت ورياض الجبروت، ولأربابها رؤية جمال الحق في تقلبها إلى معارج الغيب ودرجات القرب حين صعدت بأجنحة المحبة إلى سرادق المملكة، وحين نزلت بأوقار المعرفة، وهي مطايا الملكوت تحمل أثقال أشواق المحبين إلى حضرة الجبروت، وتأتي برواحل أسرار الصفات إلى ميادين العبودية، بقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ﴾ إذا أراد سبحانه أن يفتح أبواب الغيوب لأهل القلوب يرسل على قلوبهم حوامل أنوار العناية، فتحمل القلوب بقوة فيض المشاهدة إلى عالم الغيب، وتراها أسرار عجائب الملك والملكوت، وهم أصحاب الجذب والواردات بلغوا بالجلالات إلى بلاد المشاهدات، ولو كانوا أهل السلوك لا يبلغون إليها إلا بلزوم المراقبات والمقامات.

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ﴾ لا بالسير في المقامات، ولزوم الطاعات، ودليل الجدية والعطف، بغير العلة[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالمجذوب محمول الله بمطية فضله إلى بلد مشاهدته، فمن محمول بنور فعله، ومن محمول بنور صفته، ومن محمول بنور ذاته، فمن حمله بنور فعله يكون بلده مقام الخوف والرجاء، ومحلته صدق اليقين، وداره مربع الشهود، ومَنْ حمله بنور صفته، فبلده مقام المعرفة، ومحلته صفو الخلة، وداره المودة، ومَنْ حمله بنور ذاته، فبلده التوحيد، ومحلته الفناء، وداره البقاء.

قال بعضهم: يدوم المحمول على بساط الرفاهية، والحامل في مفاوز المشقة، فمَنْ حمل فقد كفى، ومَنْ أهمل فقد ضُيِّق عليه، لذلك قال: لم يكونوا بالغيه بأنفسكم وتدبيركم إلا بشق الأنفس، وربما يهون على مَنْ يشاء من عبيده حتى لا يصليه في سيره تعب، ولا نصب كذلك سير العارفين من سير الزاهدين.

قال ابن عطاء: تضعف الأنفس عن حمل تلك المشاق، وتقوي القلوب على ذلك حتى

---

(١) جمع ثقل بفتح الثاء والقاف وهو متاع المسافر وحشمه أي تحمل أمتعتكم وأحمالكم.

لا يلحقه كراهية بعد، إلى أن علم إلى أين مقصده، ويأمر من قام وقصد.

وقال الجنيد: في هذه الآية دليل على أن مراد البلوغ إلى مقصده يجب أن يكون أقل أمره، وقصده الجهد والاجتهاد؛ ليصل بركة ذلك إلى مقصوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنَّ الله سبحانه خير الإفهام والعقول عن حصر أفعال وبدائع صنعه؛ لأنها قاصرة بفتورها عن إدراك لطائف فعل وعجائب قدرته ما يصدر من غيبه من الآلاء والنعماء، أي: إذا عجزتم عن إدراك الخلق فكيف لا تعجزون عن إدراك الخالق وهو قادر أن يخلق على أدابر نملة ألف ألف عرش، وألف ألف كرسي، وألف ألف عالم، يخلق بساتين الروحانية في قلوب الأطيار والوحوش والبهائم، وهم بها يعيشون، ويحيون، ويسرحون، ويخلق في قلوب الجن جنان الرحمة، ونيران العذاب، ويخلق في قلوب الملائكة بحار التسبيح والتهليل، ويخلق في قلوب عقلاء المجانين عيون الحِكَمْ والمحبة والشوق والمناجاة، ويخلق لعشاق حضرته من العارفين من صور الروحانية عالما في عالم، ويتجلى بجوده وجلاله منها لهم، ولا يعرفها إلا شائق عاشق واقف بأسرار الربوبية.

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يريدان عن يمين العرش نهرًا من نور، مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخله جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل، فيزداد نورا إلى نوره، وجمالا إلى جماله، وعظمًا إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفًا لا يعودون إليه، إلى أن تقوم الساعة.

قال بعضهم: علمك الحق الوقوف عندما لا يدركه عقلك من آثار الصنع، وفنون العلوم لا تقابله بالإنكار، فإنه خَلَقَ ما لا يعلمه أنت ولا يعلمه أحد من خلقه إلا من علّمه الحق، ألا ترى يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: القسم مقدر عليكم من أفعالكم ما لا تعلمون إلا في وقت مباشرته، وهو عالم به؛ لأنه الذر قدر وقضى.

وقال الواسطي: يخلق فيكم من الأفعال ما لا تعلمون إنها لكم أم عليكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: على الله الطريق المستقيم أن يعرفه من اصطفاه في الأزل بمحبته، والإيمان به، والإيقان في معرفته بربوبيته، أي: على الله الهداية، لا على غيره من العرش إلى الثرى، أي: أنه لا شريك له في ألوهيته بأن يجد أحد سبيلا إليه بغير إرادته ومشيئته، أو يأخذ طريقًا من طرق معرفته بسبب من الأسباب أو علة من العلل.

﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن طريق الصواب، وهو طريق قهره، أجلس شيخ الضلالة على رأس وادي الطغيان، فمن طرده عن طريق المستقيم سُلِّط عليه الملعون حتى يغويه في أودية الشهوات، وقفر الظلمات، وأن الضلالة والهدى يتعلقان بقهره ولطفه، ولو أراد أن يجيز الكل في حيز الرحمة لكان كما أراد، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، تصديق ذلك قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قال الواسطي: على الله أن يهدي إلى قصد السبيل، ومن السبيل ما هو جائر، والله سبب الجائر، والسبيل القصد، والسلوك على أنوار اليقين، والجائر في السبيل على سبيل التوهم والدعاوى.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لمّا أشرقت أرض القلوب بأنوار عظمة الآزال والآباد، وسنا سبحات الذات والصفات، وتزلزلت واهتزت وكادت أن ترتفع في هواء الهوية، فألقى الحق سبحانه رواسي علومه الغيبية، ومعارفه السرمدية، حتى لا تطير بأشباحها وأرواحها، وأرباب هذه القلوب رواسي الأكوان والحدثان، ولولاهم لطار الأكوان في الغيب، وغيب الغيب، ثم وصف أرض

القلوب كيف أجرى فيها أنهار المعرفة والمكاشفة والمحبة والشوق والعشق والحكمة والفطنة، وأوضح فيها سبلاً للأرواح، والعقول والأسرار، منها إلى الحق، وتلك السبل بلا نهاية؛ لأن الطرق إلى الله غير متناهية؛ لأنه تعالى غير متناهٍ، فبعض سبلها للعقول إلى أنوار الآيات، وبعض سبلها للأرواح إلى أنوار الصفات، وبعض سبلها للأسرار إلى أنوار الذات، وأنَّ الله سبحانه يظهر بجلاله وجماله في تلك السبل؛ لإسراره القلوب كشفًا عيانًا، ولولا ذلك الكشوف والظهور لم يهتدِ الأرواح والعقول والأسرار إليه.

قال تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي: تهتدون به إليه، ثم زاد تسبب العرفان بأن يريهم علامات مشاهدته من لوائح كشف الملكوت وأنجم الجبروت.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ العلامات في الظاهر أنوار الأفعال للعموم، وأخصّ العلامات في عالم الأولياء والنجوم وأهل المعارف الذين يسبحون في أفلاك الديمومية أرواحهم وقلوبهم وأسرارهم، من اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[(1)].

ما أنور علامات سمات القدوسية في وجوه الصديقين، وما أزهر نجوم أرواحهم متقلبات في أشباحهم، لطلب معادن القدس رياض الأنس، من نظر إلى وجوههم بالحقيقة يرى أنوار الحق من وجوههم وقلوبهم.

قال المالكي: طريق الهداية أعلام، فمن استدل بالأعلام بلغ إلى محل الهدى، وكوشف عن معدن النجوم، ومن استدل بنجوم المعرفة، مر في طريق الهداية، كان عالما بمسراها وصل إلى غاية المنتهى من الطريق، ولا دليل على الحق سواه، ولا علامة يخبر عنه، فهو الدليل على نفسه، ليس لأحد إليه سبيل، ولا لخلق عليه دليل، فمَنْ وصل إليه فيه وصل، ومَنْ انقطع عنه فبسوابق لقائه عليه انقطع.

ثمَّ إنَّه سبحانه جعل ما وصف من نعمة بلا نهاية، بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ ﴾ نعمة سوابق نعم عنايته، وهي أزلية أبدية والحوادث عن حصرها قاصرة ونعمة المعرفة في قلوب العارفين، وله نعمة التوحيد في قلوب الموحدين، وله نعمة المحبة في قلوب المحبين، وله نعمة الشوق في قلوب المشتاقين، وله نعمة الأنس في قلوب المستأنسين، وله نعمة الإرادة في قلوب المريدين، وله نعمة الإيمان في قلوب المؤمنين، وله نعمة الإسلام في قلوب

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٦٢)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٤٧)، والمناوي في «فيض القدير» (٤/ ٤٣٢)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ١٣٧).

المسلمين، وكل نعمة من هذه النعم معدن أصل الذات والصفات، يزيد بزيادة كشفها، فبأي لسان يعد نعمته، والخليقة عاجزة عن شكر قطرة ماء زلاله، فكيف لا يعجز عن شكر نعمة مشاهدته القديمة، لكن رحمته وغفرانه شكر نفسه لعلمه بضعف عباده عن حمل شكره، لذلك قال في آخر الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبّة ومعرفةً ودينًا ودنيًا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وصلاً وفصلاً ووصلاً، فنعمة النفس الطاعات والإحسان، والنفس فيهما تتنعم، ونعمة الروح الخوف والرجاء، وهو فيهما يتنعم، ونعمة القلب اليقين والإيمان، وهو فيها يتقلب، ونعمة العقل الحكمة والبيان، وهو فيهما يتقلب، ونعمة المعرفة الذكر والقرآن، وهو فيهما يتقلب، ونعمة المحبة الألفة والمواصلة والأمر من الهجران وهو فيهما يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ من أمانة الحق بموت الحرمان عن حياة العرفان، كيف يحي بحياة لا موت فيها، فالجاهلون في غمرات هوة الجهالة، والعارفين في حياة المشاهدة، أماتهم حيث طردهم عن أبواب لطفه، فهم يعمهون في ظلمات القهر وما يشعرون سبل الحياة وطريق النجاة، فمثالهم مثل الأصنام التي لا أرواح فيها، ولا استعداد لها لقبول الحياة، فكذلك أهل الجهل به ليس لهم استعداد قبول حياة المعرفة

وروح المحبة، لذلك أكّد في حق الأصنام بعد قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ قطع الحياة الأصلية عنها، وقطع عنها أيضا استعداد قبول الحياة؛ لأنها جمادات؛ فالمنكرون كذلك أموات القلوب عن معرفة العارفين، وغير مستعدين لعرفانهم، والعلم بأحوالهم، فسلاطين المعرفة أحياء بأرواح معرفته، والمحبون أحياء بأرواح محبته، والموقنون أحياء بأنوار مشاهدته، والصدِّيقون أحياء بأنوار لقائه، والمقربون أحياء بأنوار صفاته، والموحدون أحياء بأنوار ذاته، وأهل ستر الغيب أحياء بحياته القديمة، والجمهور من وصل القدم في بحر نكرة، مستغرقون لا يموتون فيها بالحقيقة من سكون أرواح معرفته في أسرارهم، وأحاطت أرواح بقائه على أرواحهم، ولا يحيُّون فيها بالحقيقة لصولة سطوات عظمته الأزليات عليهم، وإذا أبصرتهم بالحقيقة فعن إدراك كنْه القدم أموات غير أحياء، إذ لا سبيل للحدث في القدم بنعت إدراكه، لكن هم في حسبان من حلاوة أوقاتهم في إدراكه، وما يشعرون أنهم لا يدركون أبدًا، لكن إذا طلع صبح الوحدانية عليهم، وباشرهم أنوار شموس الذات، وأقمار الصفات، يقومون به معه بوصف الحياة الباقية، والعلم بفروع الربوبية، ولكن لا يعرفون أيان يبعثون في هذه المنازل، كأنَّ الأوقات هناك وقت واحد بنعت تسرمد السرمدية والأزلية سبحانه وتعالى.

قال الجنيد: من كان بين مفرقي فناء فهو فان، ومن كان بين طرفي عدم، فهو معدوم، والحي هو الذي لم يزل ولازال.

قال بعضهم: أموات عن وصول الحق غير أحياء وما يشعرون، وإنَّما يشعر بذلك من كُشِفَ له عن محل الحياة بالحق.

وقال الحسين: الحياة هي أنسام، فحياةٌ بكلماته، وحياةٌ بأمره، وحياةٌ بقربه، وحياةٌ بنظره، وحياةٌ بقدرته، وحياةٌ هي الموت، وهي الحركات المذمومة، وهو قوله جل وعز: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقال سهل: خلق الله الخلق ثم أحياهم باسم الحياة، ثم أماتهم بجهلهم بأنفسهم، فمن حي العلو فهو الحي وإلا فهم موتى بجهلهم.

وقال الواسطي: الميت من غفل عن مشاهدة المنّان، والحي من كان حيٌّ بالحي الذي لا يموت.

وقال أبو عمرو الزجاجي: كيف تحيون وأنتم لم ترو أحياء.

وقال النصر آبادي: أهل الجنة أموات ولا يشعرون؛ لاشتغالهم بغير الحق، وأهل الحضرة أحياء؛ لأنهم في مشاهدة الحق.

قال الله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي: للذين رفعوا أرواحهم وقلوبهم وعرضوها في الحضرة لبذلها وفدائها لعروس المشاهدة، وأحسنوا عبودية خالقهم، وشاهدوه مشاهدة إيقان وعرفان في دار الامتحان حسنة مشاهدة الرحمن في وقت كشوف أنوار جماله في أوقات المواجيد والواردات، وهم في دار الآخرة عيان في عيان، وبيان في بيان، بلا فترة ولا فتور، ولا حجاب ولا عتاب، ولنعم دار هؤلاء المتفردين عن الأكوان والحدثان دار مشاهدة الرحمن.

ثم وصف مقاماتهم السنية ودرجاتهم الرفيعة في مقاعد صدق المشاهدة بقوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ بساتين مقام الجلال والجمال، ويجري فيها أنهار زوائد المنن وهم من مشاهدة جلاله وجماله ما يشاءون عن حلاوة الخطاب والوصال، وهذا جزاء قوم انفردوا بالحق عمّا دون الحق.

قال أبو عثمان: في قوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ أي: أحسنوا في ابتداء أحوالهم الرجوع إلى محل المحسنين.

قال يوسف بن الحسين: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ آداب الخدمة واستعملوها للرفعة إلى محل الأولياء، وهو غاية الحسنى.

قال الأستاذ: إن في الدنيا مشاهدة، وفي الآخرة معاينة، ثم وصف لهؤلاء المحسنين المتقين بطيب قلوبهم وأرواحهم عند خروجهم من الدنيا، بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في الدنيا بطيب نفحات مسك تجليه وتدليه وفي الآخرة بطيب مشاهدته ووصاله، أيضا طيبين بطيب محبته، طيبين بطيب معرفته، طابت نفوسهم في خدمة مولاها، وطابت قلوبهم في محبة سيدها، وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربها، وطابت أسرارهم بطيب الأنوار؛ هؤلاء مقدسون من شوب الحدثان، وإشراك الأصنام، تقدست نفوسهم من لوث الطبيعات، وتقدّست قلوبهم من لطخ الشهوات، وتقدّست أرواحهم من الوقوف في الآيات، وتقدّست أسرارهم من علائق الكرامات، طابوا بطيب المناجاة، واستأنسوا بأنس المداناة، وسكروا بوجوه المشاهدات، وصلحوا في مجالس أنوار الصفات، وطاروا بأجنحة الشوق والمحبة في أنوار الذات، طيب الله قلوبهم؛ حيث جعلها متصفة بأنوار شهوده عليها، فطابت الوجود بوجودهم، وفاحت فارات مسك محبتهم في الآفاق، فما أطيب ذلك الطيب إذا تنفسوا من غلبات الشوق إلى جماله، واستنشاقهم طيب وصاله، هبت عليها ريح الشمال وحملت أنفاسهم، ودارت حول الكونين، فطابت الأكوان والحدثان من طيب أنفاسهم، لأنها رياض جمال الحق، وموضع أنفاس الرحمن.

ألا ترى كيف قال سيد أهل الأنفاس ﷺ: «**إنّي أجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن**»[1].

وقال: «**إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن**»[2].

عرائس جود المشاهدة هناك تتبختر، فتطيب بطيبها تلك الأنفاس الربانية، فطابت السماوات والأرض وأهلها بطيبها، كما قيل:

تضوع مسكًا بطن نعمان إن مشت ... به زينب في نسوة عطرات

قيل: أي طيبة أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

وقال أيضًا: أي: لم يتدنسوا من الدنيا وخبثها بشيء.

قال أبو حفص: ضياء الأبدان بمواصلة الخدمة، وضياء الأرواح بالاستقامة.

قال الأستاذ: طيبين تفيض أرواحهم طيبة ببذلها نفوسهم.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ١٢٩)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ بيَّن سبحانه جلال كرم حبيبه، وشفقته على خلقه، محبةً لدينه، ونظامًا لعبوديته، ثم فإن لا يضيق صدرك لأجل من أغويته في الأزل عن طريقك، فإنك لا تهديه، فإن من طرده سابقة إرادته الأزلية، يقدر الحدثان حسم باب الطرد عليه، فإن العبودية من خلقه يتعلق بتخصيص من خصّه بمعرفته، وألبسه لباس عبوديته، ومن ألبسه لباس قهره فأنت لا تقدر أن تنزع ذلك عنه، فإنّ جريان أمر القدم لا يدفعه إلا القدم، وإنما بعثت الرسل لبيان الشريعة، ووضوح الطريقة لأشركتهم في الهداية.

قال الواسطي: السعادة والشقاوة والهدى والضلالة جرت في الأزل بها لا تبديل فيها، ولا تحويل وإنما يظهر في الأوقات رسمًا على الأجسام، والهياكل لا صنع فيها لأحد، وليس يقدر عليها خلق، بل هي إرادة جرت في الأزل بعلم سابق قصرت عنه أيدي الأنبياء وإلى الأولياء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ وتصديق ما ذكرنا، وما أشار إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يكون كون الأشياء إلا بتكويننا إياها، إما في الإيجاد، وإما في الهداية، وبيان هذه الآية إنّ لذاته تعالى صفات قديمة أزلية، منها الإرادة والمشيئة، وهما سابقتان قبل كل سابق؛ لأنهما قديمتان جرتا لكون الكون وما فيه، لا أن تكونا تحدثان في الحق؛ لأنه منزه عن البدء الذي خلا عنه الإرادة والمشيئة في سابق العلم.

إنّما أراد الله الأشياء في القدم وعلمه كان مقرونا بإرادته، وكان الوجودُ موجودًا في علمه مريدًا لإرادته، وكان قادرًا بقدرته القديمة بإيجاد الكون بمحض الإرادة ومعلوم العلم، ولكن لو أوجد لكان معًا معًا، ولوجدان الحدثان رتبة القدم أخرها بغير علة، ولا لوقت من الأوقات، أراد حدوث الحدث وإحداثه فعلم وجوده، وبعد أن كان معدومًا فأوجد بتمام الصفة حتى يكون على حد الكمال؛ لأنه تعالى خلق الأشياء بمباشرة نور ذاته وجميع صفاته، فالقول منه صفة من صفاته، فقال للمعدوم: كن بتكويننا إياك حتى يكون ذلك المعدوم

موجودًا بكمال جميع الصفات، إذ لو كان خاليًا عن الأمر والكلام كان ناقصًا، مع أنه تعالى قادر يخلق الأشياء على حد الكمال. سئل بعضهم ما كان يكفي الإرادة والمشيئة حتى أظهر قول ﴿كُن﴾.

قال: خفية الإرادة والمشيئة، فأظهر الأكوان في المعلوم، وأظهر لفظة: ﴿كُن﴾؛ فأخرج الأكوان إلى الوجود.

قال الواسطي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ إنه على قدر المعارف إشارة إلى القدرة، وأما الحقيقة فليس للحق مكون، كما أنه ليس له موجود، إذ لم يكن له معدوم، فإذا كانت الأشياء بذاته ظهرت، وبه وجدت لا بصفاته فلم يزل، كما لا يزال إلى أنه لم يكن، أظهر بعضهم لبعض ظهور الأشياء بذاته لا بصفاته.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أخفى الله سبحانه مكنون أسرار كتابه كما كانت بالحقيقة إلا على نبيه؛ لأنه كان بتلك الحقائق مخاطبًا، وكان بها مأمونًا؛ ليبيِّنها لأمناء المعرفة وأصفياء الحقيقة، الذين لهم استعداد قبول الحقائق، ولهم أسماع الأهلية الحاضرة لشهود الغيب، وسماع الأنباء العجيبة ليتفكروا فيها بعقول كاملة، ويستخرجوا جواهر علومها بأسرارٍ ظاهرة، وهمم عالية، وخواطر مشرقة، وإدراكات منيرة، وهم لا يضيعونها بأنْ يقولوا عند غير أهلها فيسقطوا عن درجة الأمانة، وأنشد ما ذكرنا:

من ساروه فأبدى السر مشتهراً ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وجاء بنوه فلم يسعد بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يصطفون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

قال ابن عطاء: قطع عقول الخلق عن فهم كتابه، والإشراف عليه والتبيين منه إلا عقل النبي ﷺ، فإنه قال له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وإنَّ فيه أحكام الخلق والخطاب معك، وأنت صاحب البيان لهم بما أنزل عليك، فإنهم في مقامات الوحشة، وأنت في محل الحضور ومحل الائتمان، فبيان الكتاب ما تبينه، وآداب الشريعة ما ترسمه؛ لأنك الأمين في جميع الأحوال؛ ولا يؤتمن على أسرار الحق إلا الأمناء من العبيد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ بين الله سبحانه جهالة المتكبرين والمستكبرين عن خدمته بأنهم لا يرون ظلالهم بالغدو والآصال، كيف يسجد لخالقهم ولو كانوا على محل العقل والإيمان والمعرفة لتنبهوا وتعرَّفوا مكان جهلهم بالله وبعبوديته، فإنَّ جميع الموجودات حتى الجمادات تسجد لصانعها من جهة وقوع نور العظمة عليها، فهي داخرة صاغرة في أنوار تجلي عظمته لها، كما قال ﷺ: «إذا تجلى الحق لشيءٍ خشع له»[1].

وفيه بيان أن كل موضع في نفس الأمَّارة الشيطانية، هناك استكبارًا وتكبرًا من عرف الحق بالحق بعد ما رأى الحق بالحق.

قال بعضهم: ما خلق الله شيئًا من الجماد والحيوان ينازع صانعه وخالقه إلا الإنسان، فإنه أبدًا يدَّعي لنفسه ما ليس من قدرة وعلم، ويثبت على الوحدانية والفردانية بادِّعاء الأهل والولد جلَّ وعزَّ، وتكبَّر في الإذعان والخضوع، لذلك قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (١١٧٧)، والنسائي (١٤١١٣)، وابن ماجه (١٢٦٢).

إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ بيَّن أنَّ مَنْ أقبل على شيء دونه بوصف المحبة والاختيار على الله، فهو في حيز الثنوية، حيث اتخذ إلهه هواه ومن ذاق من برح الوحدانية ذوقًا سقط عنه علائق الكونين، ويكون متفردًا بفردانيته، موحدًا بوحدانيته.

قال أبو عثمان: نهاك ربك أن تتَّخذ إلهين أو تتخذ معه شريك، فاتخذت آلهة وادَّعيت شركًا، كيف يصبح لك مع ذلك التوحيد وأنت تعبد نفسك وهواك وطبعك ومرادك، وتعبد الخلق فأنَّى تصل إلى محل العبودية.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ الخطاب للعارفين الذين يشربون ألبان المحبة من بين بطون الأفعاليات ما يحصل بين فرث ودم من الآيات، من لطائف الصفات، تشرب منها القلوب والأرواح والأسرار على قدر مزاجها من القرب، وأيضًا تشرب الأرواح ما يحصل في العقول الصافية من بين النفس والقلب من زلال بحر المشاهدة، فهنالك منازل اعتبار المعتبرين.

قال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام وتسخيرها لأربابها، وطاعتها لهم، وتمردك على

ربك وخلافك له في كل شيء، وما يتعلق بها ذكرنا من حقائق الإشارات قوله: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي: مما يتخذ الأرواح والأسرار من ثمرات نخيل القلوب، وأعناب العقول شراب المحبة المُسْكِرة صميمها، وشراب الأنس المتخذ من صفاء أنوار الذكر الذي هو رزق حَسنٌ لتربية وجودها، وذلك الشراب والسكر من تأثير مياه تجلي الجمال والجلال، وصفاؤهما من صفو الوصال، فإذا شربتها صارت سكرانة من شوق الحق مستأنسة بوجه الحق سبحانه، وفي هذه الإشارات اعتبار ومعرفة ألباء الحقيقة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

قال الأستاذ: الرزق الحسن ما كان حلالاً.

ويقال: هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، بيّن سبحانه مواضع الحقيقة لأهل المعرفة في منازل وحيه واختصاصه مما خلق به وأكرمه بذلك بقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ صرَّح بيان الحق موضع خاصية وحيه عن النحل وأمثالها مما فيه الحياة، فإنَّه تعالى أعطى من فيض فعله، ونور صفته، ورحمة ذاته كل ذي روح روحًا يعيش بها، ويكون مستعدًا لقبول وحيه بها، ومنها يعرف صانعه وخالقه، ويعرف مكان رزقه، ويعبد الخالق بما يفعل من عبوديته وربوبيته بقدرة قوته في تلقف الإلهام منه بلا واسطة، فهو تعالى ألهم الجمهور بنفسه؛ لأنهم موضع أسراره لا يطّلع عليها جميع العقلاء، وبقدر نور الإلهام يتولد منهم حقائق الأشياء الغيبية المقدَّرة في علمه، وذلك الوحي إلهام، والإلهام على مراتب الفعل والصفات، فمَنْ كان مشربه من إلهام الأفعال فصنوف مواليده على قدر الأفعال، ومَنْ كان مشربه من إلهام الصفات، فمواليده أصفى وأنور.

ألا ترى إلى النحل كيف يكون ثمرتها عسل لطيف شفاء كل عليل؛ لأنَّ إلهامه تختص بالصفة دون الفعل، فأمرها بأكل الطيبات من كل ثمرات خوالص الأشجار والأنوار، واتخاذها طيبات المساكن من الجبال والأشجار، فعلى قدر صفاء ثمرة الأشجار ولطفها وزينتها يكون العسل، فكل ثمرة أصفى مما تأكل منها عسله أصفى، فأوحي الحق نحل الأرواح أن تتخذ أماكنها من جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وأنوار عرش الأفعال، ولا تسكن غيرها من مواضع الحدثان حتى لا تتعوَّد علّاتها، ولا يلتصق عليها غبارها.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين إصبعين من أصابع

الرحمن، يقلبها كيف يشاء»[1] يقلِّب بحر القلوب والأرواح والأسرار والعقول في جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وعروش أنوار الأفعال، ويكملها بغرائب خطابه بأكل ثمار أنوار الصفات والذات والأفعال، بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من ثمرات تلك الأشجار الصفاتية، ونور بهار أنوار الذاتية، وأزهار أنوار الأفعالية، ثم أمره لسلوك سبيل الآزال والآباد والقدم والبقاء بنعوت الفناء بقوله: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ لتعرف في طيرانها وسيرانها ثمار أشجار غيبه، وتأكل رياحين أنسه، وتطير في صحاري قدسه، وتعرف جلال وجوده تعالى الله عن كل علة، فإذا تم دورها في بساتين الغيوب ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[2]؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة؛ ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن عطاء: ألهمها ودلَّها على الموضع، وعلَّمها كيف يضع ما في بطنها، لا يضعها إلا على حجر صانٍ أو خشب نظيف، لا يخلطه طين ولا تراب، ثم قال تعالى: ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الذي جعلته رزقك، ثم أمره بالتواضع، فقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ للنفوس لا للقلوب، فمن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (٣/ ١٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٧).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٧٧)، والترمذي (٣/ ١٤٨)، وأبو داود (٢/ ١٥).

أراد صلاح قلبه فليعرف موارد ما يرد على قلبه في الأوقات، ويحل قلبه في جميع الأحوال، وما يبدو في قلبه في كل زمان، ثم ليلزم مع ذلك التواضع والخلوة، فهذا غذاء القلب، وذلك غذاء النفس، وغذاء الروح أعز وهو مشاهدة الحق والسماع منه، وترك الالتفات إلى المكونات بحال.

وقال ابن عطاء: جعل ما يخرج من النحل شيئين ممزوجين لا يصفيهما إلا النار، فإذا أصفاهما النار، صار عسلاً وشمعًا، فالعسل هو غذاء الخلق وشفاؤهم، والشمع للحق لا غير، كذلك إذا خاص العقد عما خلص له عمله، وما خالطه برياء وشرك فلا يصبح إلا للنار.

وقال أبو بكر الوراق: النحلة لما اتبعت الأمر وسلكت سبيلها على ما أمره به، جعل لُعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن إذا اتبع الأمر وحفظ السر وأقبل على ربه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد.

ويقال: إن الله سبحانه أجرى سنته أن يخفي كل شيء عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهي أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف، وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، كذلك أودع الذهب والفضة والفيروز في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يعصى، وفيهم من يخطئ[1].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ

---

(١) في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا هو علمهُ بالله تعالى فهو أجلُّ العلوم كما أن الله تعالى أجلُّ المعلومات؛ يعني أن أجلَّ العلوم هو ما تعلَّق بأجلِّ المعلومات، وأمَّا ما عاده مما تعلَّق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوُّف أجلُّ العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلِّقة بالأكوان بل كانت عُلوية متعلِّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نُكِّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتَّحد العلم اتَّحد الأشياء ولَمَّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خُلقت كتلوُّن زوال وشواهد اضمحلَّت عند حصول الفِناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ الأرزاق منقسمة على أهل سلوك المعارف، الأرزاق لبعضهم طاعات، ولبعضهم إرادات، ولبعضهم مقامات، ولبعضهم حالات، ولبعضهم مكاشفات، ولبعضهم مشاهدات، ولبعضهم معرفة، ولبعضهم محبة: ولبعضهم توحيد، ولبعضهم تفريد، فرزق الأشباح بالحقيقة العبودية، ورزق الأرواح بالحقيقة رؤية أنوار الربوبية، ورزق العقول الأنكار، ورزق القلوب الأذكار، وكلهم مشفقون على أرزاقهم، غوثان إلى قوتهم من الحقائق، عطشان إلى مشاربهم بعد سقيهم بحار القربة والمشاهدة، لا يطيقون رؤية غيرهم من المريدين أن يكونوا معهم في الشراب والطعم غيرة على أحوالهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

قال إبراهيم الخواص: منهم من جعل رزقه في الطلب، ومنهم من جعل رزقه في القناعة، ومنهم من جعل رزقه في التوكل، ومنهم من جعل رزقه في الكفاية، ومنهم من جعل رزقه في المشاهدة، كما قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1].

وقال الفضيل: أجل ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه، وعقله يدله على رشده، ثم بيّن سبحانه حلاوة ذلك الرزق، وطيبه، وطهارته، بقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أجل طيبات الرزق مشاهدته ولقاءه؛ لأنها هي الرزق بالحقيقة الذي يعيش به الأرواح في المعرفة، والأشباح في العبودية، والعقول بالتفكر، والقلوب بالتذكر، والأسرار بإدراك علم الربوبية، وذلك الرزق أطيب الطيبات، وهو بالحقيقة طيب؛ لأنه قديم أزلي منزه عن علل الحدثان، وما دونه غير طيب بالحقيقة؛ لأنه معلول، والمعلول كيف يكون طيبًا وصورة الرزق الطيب ما

(١) سبق تخريجه.

يوافق حال العارف، لا يحجبه عن صفاء الوقت حين صدر من الغيب.

قال المحاسبي: هو الفيء والغنيمة.

وقال أحمد بن علي الحواري: الطيبات المباحات في البوادي.

وقال ابن الجلاء: ما يفتح لك من غير طلب ولا استشراف، ثم نزَّه نفسه بها أولاه من رزق مشاهدة، ومعرفة قُدس وجلال وافر ذو جود، وجوده من مشابهة الحدثان، وأمر العبادات ينزهوه عن التشبيه والتصوير والأضداد، بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ بيَّن قدس القدم، وأفرده عن شواهد الالتباس في مقام المحبة والعشق والشوق؛ حيث دارت الهمة في طلب الحق في رؤية الكون، وظهوره في لباس أفعاله ليعرف العارفون مقام إفراد القدم عن الحدوث، ويدركوا بفهم الفهم تنزيه الصفة عن الفعل، وقدس الذات عن الأوهام والإشارات والعبادات، وضرب الأمثال بحقيقة ذاته، فإنه قائم بنفسه ممتنع بذاته بالحقيقة عن درك الخليقة، فكل مثل حقيقي يقع بالحقيقة، فإذا تراه يقع على غير ذاته وصفاته، فإنه منزه عن أن يدخل جلاله تحت العبارات والإشارات، أو يباشر أنوار ذاته وصفاته لباس الحدوثية، فالشاهدون يشهدون على أنفسهم بالحقيقة، وهو تعالى يعرف حقيقة ذاته، والخلق منعزلون عن إدراك أنوار صفاته وحقائق ذاته، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لكن يجوز ضرب المثل في طريق معرفته ومحبته والسير في عالم ربوبيته؛ وتسهلاً للسلوك، وتيسيرًا للعلم والإدراك، ومن لطيف الإشارات أنه تعالى أعلم المحبين والعارفين الذين هم في مقام مشاهدته بنعت الالتباس أنهم إذا افترقت أوقات حالاتهم، وانصرم أنوار وارداتهم، وغابت أنوار شهود الحق عنهم، وبقوا في محل الاشتياق إليه ألا ينشئوا من أنفسهم ميخاييل الصورية والأمثال الحدثية لما وجدوا منه ليتذكروا بها زمان الوصلة لئلا يقعوا في محض التشبيه، ويغلطوا ويعلموا مثل الحق من أمثالهم، كأن قال: لا تضربوا لما تجدون الأمثال، فإنكم لا تقدرون ذلك؛ ولكن أنا أضرب الأمثال لما ترون مني بالحقيقة، مثلاً تدركونني بلباسه وأنا قادر بذلك، ولستم بذلك قادرين، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الا ترى إلى قوله في ضرب مثله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إذا كان المثل الأعلى يجوز أن يضرب به كأنَّه قال: فلا تضربوا لله الأمثال للتشبيه؛ ولكن اضربوا الأمثال للدلالة عليه، والأمثال تصوير ما في الغائب معنويًا، لا صوريًا.

قال ابن عطاء: لا تضربوا لله الأمثال في ذاته وماهيته؛ لأن الذات لا يمكن تعقله

بحال.

قال الواسطي: الأشياء كلها أقل من الهباء في الهواء، كيف تظهر في الذات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ في ذاته وكيفيته؛ لأنه ليس كمثله شيء، وأما صفاته التي أظهرها للخلق كسوة لهم إبقاءً وعزًّا، وقال: لا تضربوا لله الأمثال في صفاته وذاته؛ لأن الصمدية ممتنع عن الوقوف على ماهية ذاته وكيفية صفاته.

وقال: إنما ضرب الأمثال وأكثر فيها من المقال جذبًا للسرائر، وأن تفنى عن حضورها فيما أسند إليها، ثم إنَّ الله سبحانه ضرب مثل عبدين المسك والمنفق بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ إنَّ العبدَ المملوك لنفسه أسيرٌ في يدها عاجزٌ لا يقدر أن يميتها ويرضى بموتها صانعه، ولا يقدر على أن يملك قلبه، ويرى ما فيه من عجائب الذكر ولطائف الفكر، وكيف ينفق وخزانته قلبه، وهو لا يقدر على خزانته؛ لأنَّ قلبه مسلوب النفس، والشيطان، والعبد الموفق الذي هو مرزوقٌ رزق معرفة الله وحكمته وإلهامه ورشده وتوفيقه وأرزاقًا حسنة من مشاهدته وجماله، فهو ينفق نفسه ووجوده وماله لله، ولأوليائه، وينفق لطائف حكمته على طلاب الله، كيف هذان العبدان يستويان في العبودية ومعرفة الربوبية، فعند الجُهَّال يستويان؛ بل إنهم يقبلون من يليق بمذهبهم من أهل الجهل والبخل والغباوة.

لذلك قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون العارف من الجاهل، والصادق من المرائي، حمد نفسه تعالى بأن الجهال لا يعرفون مقادير أهل قربه، ولو عرفوهم لشغلوهم عنه، فإذًا بقوا أهل الحق مع الحق بلا شغل ولا شاغل.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يكون المنكر معروفًا والمعروف منكرًا»[1].

ومن إشارة اعتبار المثلين ينبغي أن العبد يكون مملوك لله طوعًا، ولا ينظر إلى شيء من وجوده وأعماله، فإنه مفلس عاجز عن القدرة بين يدي الله، وهذا صفة أهل المعرفة.

قال بعضهم: أخبر الله عن العبد وصفته فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فمن رجع إلى شيء من علمه وحاله وعمله؛ فإنه المتبرئ من العبودية، وهو في منازعة الربوبية، والعبودية هي التجلي مما سوى معبوده، يرى الأشياء به ويرى نفسه له.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٣/ ٢٨٦) بنحوه.

شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ
تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا
هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ
يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وصف نفسه سبحانه هاهنا بالعلم الأزلي والقدرة الأزلية، فبا العلم الأزلي عَلِم عِلْم كون الكون، وما فيه وما يبدو من قدرته وحكمته فيه، فإقلاعه من أصله غير ثقيل عليه؛ لأنه قام به قائم بقدرته، يفعل به ما يشاء إيجادًا وإعدامًا قبل أن يتصل الكاف بالنون، وإذا كان غيب السموات والأرض له لا لغيره، لا يكشفه إلا لمن أحبه من أوليائه، ولا يستره إلا على أعدائه، فمن أشرفه على غيبه، فهو أيضًا غيب كأنه يرى غيب الغيب، وأي غيب أشرف من خزانة الله في قلوب أصفيائه من لآلئ حكمه، وعجائب علومه، وغرائب عرفانه.

قال النهرجوري: الحق ستر غيبه في خلقه، وستر أوليائه في عباده، فلا يشرف على عباده إلا خواص أوليائه، ولا يشرف على أوليائه إلا الصدِّيقين من عباده، والإشراف على الغيب عزيز، والإشراف على الأولياء أعز، فلما استأثر نفسه بعلم الغيب عزل الجمهور عن رؤيته وعلمه والموقوف به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت

المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون بأنه لا يشكره غيره.

قال الواسطي: لا تفهمون شيئًا مما أخذت عليكم من الميثاق في وقتِ بلى.

قال بعضهم: لا تعلمون شيئًا مما قضيت لكم وعليكم من الشقاوة والسعادة، ثم جعل للسعداء من عباده السمع ليسمع بها لطائف ذكره، والأبصار ليبصر بها عجائب صنعه، والأفئدة ليكون عارفًا بصانعه ومخترعه، وهذه الأعضاء والحواس هي الموجبة للشكر، فالشاكر من رأى منَّة الله عليه في سلامة هذه الحواس، والكافر من يرى أنه يؤدي به شكر شيء من نعم الله عليه بشيء من أحواله.

قال أبو عثمان المغربي: جعل لكم السمع لتسمعوا به خطاب الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها عجائب القدرة، والأفئدة لتعرفوا بها آثار موارد الحق عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تبصرون دوام نعمي عليكم، فترجعوا إلى بابي، ثم بيَّن قدرته سبحانه في إمساك أطيار الأرواح في هواء الملكوت وأنوار سماء الجبروت حين ترفرفت بأجنحة العرفان، والإيقان على سرادق مجده، وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطان سبحات جلاله حتى لا تفنى في بهائه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ طير الهموم في سماء الأزل ممسكة رياش طلبها بحبال أنوار الأبدية عن الوقوع على غير مواقع مشاهدة الوصلة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعلامات لألباء الحقيقة وإدلاء الطريقة وأهل الإرادة في المعرفة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ يعني ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله في أرضه لقوله ﷺ: «**السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم**»[1].

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٦٢)، و«شعب الإيمان» (٦/ ١٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٩٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ أكنان الجبال قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة يسكنون فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الإنس لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة؛ لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومنَّته عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ نعمته ووقايته ورعايته، وقاهم من هجرانه، ورعاهم بلطفه عن قهره ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ تنقادون لأمره في العبودية، وتتواضعون لربوبيته.

قال الأستاذ: جعل إيواءً لأوليائه في ظل عنايته مثوى وقرارًا، وألبسهم في سرائرهم لباسًا يكفيهم به الشر والضر، فمن لباس العصمة يحميهم به عن مخالفته، ومن صدر التوفيق يحملهم به على ملازمة عبادته، ومن خلة الوصلة يؤهلهم بها القربة، وصحبته و﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ إتمام النعمة أن يكون عاقبتهم مختومة بالحسنى، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويسدِّدهم حتى يؤثروا ما يوجب لهم من الله الرضا.

قال بعضهم: تمام النعمة أن يرزق العبد الرضا بمجاري القضاء.

قال ابن عطاء: إتمام النعمة هو الانقطاع عن النعمة بالسكون إلى المنعم.

قال حمدون: تمام النعمة في الدنيا المعرفة، وفي الآخرة الرؤيا.

قال أبو محمد الجريري: تمام النعمة حفظ القلب من الشرك الخفي، وسلامة النفس من الرياء والسمعة.

ثم وصف المخالفين بالطريقة المثلى بقوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يعرفون أولياء الله بالبراهين الساطعة والآيات الواضحة والفراسات الصادقة؛ ولكن لم يعرفهم بحقيقة المعرفة من حيث التوفيق والسعادة، وينكرونهم حسدًا وبغيًا وعدوانًا وظلمًا وطلبًا للرياسة والجاه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يسترون ولاية أوليائه، وآيات أصفيائه، وفي الآية توبيخ علماء السوء وقراء المداهنين، الذين وضعوا شبكة الرياء والسمعة نيصطادوا بها الجهال، ويوبخوا عندهم أحباء الله؛ لينصرفوا وجوه الناس إليهم، يخونون الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، يعلمون الحق وينكرونه، وأي شقي أشقى ممن رأى منهم ألف كرامة صادقة، ثم يسترون بها وبإنكارها رئاسة الدنيا من العامة.

قال بعضهم: يتقلبون في نعمة ولا يوفقون لشكرها.

قال النصر آبادي: معرفة النعمة حسن، ومعرفة المنعم أحسن، ومعرفة النعمة ربما يتولد منه الأذكار، ومعرفة المنعم لا يتولد منه إلا صحة الاستقامة.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق الأمم وجعل فيهم الأولياء والأكابر والأنبياء، فجعل الرسل شهداء على الأنبياء، وجعل الأنبياء شهداء على الأولياء يشهدون عند الخلق بولايتهم وصدق محبتهم ،وإخلاص توحيدهم، وجعل نبينا ﷺ شاهدًا صادقًا يشهد بولاية أولياء أمته، وأصفيائه خواص أهل نحلته، فزال بذلك الإبهام والعلل؛ لأنه كان ﷺ بين شواهدهم وحقائق أعمالهم في ما أنزل الله عليه بلسان كتابه وواضح آياته قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مبينًا لكل حق وباطل، يفرق بين الصديقين الغالطين، وهو كتابه المكنون وخطابه المصون، بخير عمّا كان وما يكون من كل حد وكل علم، وأنار سبيل الحقيقة، وأوضح طريق المعرفة، وهو سراج الله في العالم، يخرج بنوره كل طالب صادق من ظلمات الأوهام، وشكوك القتام، وهو خطاب الحبيب إلى الحبيب، وذوقه مع الحبيب، وسره معجون في الحبيب، وغرائبه مكشوفة له، وعجائبه مصونة في قلبه، لا يعرفها غيره بالحقيقة، فمن تابعه وصل إليه بحظ وافر، وأصل حاضر.

قال أبو علي الجوزجاني: الخلق شهداء بعضهم على بعض، وأمّة محمد ﷺ هم شهود

الأنبياء على جميع الأمم، ومحمد ﷺ هو المزكي المقبول، فمن قدَّمه فهو المقدَم، ومن أخَّره فهو المؤخَر ومن تعلق به نجا، ومن تخلف عنه هلك، قال الله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

وقال الواسطي: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإنما خوطبت به دون غيرك، لأنك أهل المخاطبة، وخوطبوا جميعًا تبعًا لك فبين لهم مرادنا فيما خوطبوا به، فإن إليك البيان.

وقال أبو عثمان المغربي: في الكتاب تبيان كل شيء، ومحمد ﷺ هو المبين لتبيان الكتاب، ثم وصف كتابه بعد وصفه بأنه مبين علوم جميع صفاته وأسمائه ونعوته وذاته بأنه مع أنه تبيان طريق معارفه وكواشفه هادٍ للمسترشدين طريق معرفة وجدانيته وفردانيته، ورحمة على أحبائه بأن يخاطبهم به من حيث داء محبته في قلوبه يسمعهم خطابه وأناجيله الذي فيه أنباء غرائب لطفه بأوليائه، وعجائب صنعه بأحبائه وأصفيائه؛ ليستأنسوا بخطابه وسماعه، ويتواجدوا بلذة كلامه، وذلك نعمة تامة ورحمة كافة عليهم وعلى جمهور سلَّاك الطريقة وقصَّاد الإرادة، وبشرى لكل مقبل إليه، واقف عليه، ومنقاد بين يديه، بنعت الخضوع والتسليم، يبشرهم برضوانه الأكبر ووصاله الأوفر لهؤلاء المخاطبون بهذه الحقائق، يؤكدهم الله الأمر عليهم بأن يعدلوا بين خلقه ويواسيهم بإحسانه، ورفقهم لهم برحمة، وينهاهم عن مباشرة حظوظهم، والحسد على إخوانهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاَّه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًّا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه نيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليقة.

قال الساري: ليس من العدل المقابلات بالمجاهدات، والعدل رؤية المنّة منه قديمًا

وحديثًا، والإحسان أن الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد، لذلك قال: استقيموا ولن تحصوا.

وقال بعضهم: العدل والإحسان ما استطاعها آدمي قط؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ وكيف تستطيع أن تعدل بينك وبين الله في استيفاء نعمه وتضييع وعظه وحكمه، وليس من العدل أن تفتر عن طاعة من لا يفتر عن برك والإحسان هو الاستقامة إلى الموت، وهو «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] كالمروي عن النبي ﷺ وقال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**»[2].

أخبر أنه لا يقدر أحد أن يعدل بين خلقه، فكيف يعدل بينه وبين ربه والفحشاء الاستهانة بالشريعة، والمنكر الإصرار على الذنوب، والبغي ظلم العباد، وظلمه على نفسه أفظع.

قال الواسطي: العدل ألا يوافق العبد غير ربه، ولا يطالع غير حده، والإحسان ألا يرى حسنًا إلا من الله، وإيتاء ذي القربى، فلا قريب أقرب إليك ممن أنت له وبه وإليه، وأفحش الفحشاء إضافة الأشياء إلى غيره ملكًا وإيجادًا، وأنكر المنكر رؤية الأشياء من غير الله ولغير الله، وأقبح البغي تلوين النعوت ورؤيتها بالعلل لعلكم تذكرون، تعرفون فضله عليكم بالموعظة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: عسى أن تذكروا نعمه عليكم.

ومن جملة ما يتعلق بالعدل والإحسان، الوفاء بعهد الله في عبوديته بقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ هذا العهد عهد الأرواح مع الله حين خرجت من العدم بمحبة القدم والعبودية لربوبيته، خالصًا من إيثار الشيء عليه من العرش إلى الثرى، عهد الله معها أنه تعالى آواها على نعت الديمومية إلى مشاهدة الأبدية، وعهدها مع الله خروجها مما لا يليق بالعبودية، فحقيقة الوفاء بالعهد من الطرفين يتعلق بعناية الله ورعايته وكل الاجتهاد من العباد يبدو منها، فإنْ وقع النقض على عهدنا من غيره السابقة في الأزل، وتغير عهدنا بحيث تتغير صفاتنا من حال الاستقامة إلى حال الفترة، فلم يقع النقض، والنقض في عهد الله؛ لأنه منزه عن التغاير الحدثانية، وهو ذو رحمة واسعة يفي بعهده ولا علة عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي: أنت متردد بين صفتين، صفة الحق وصفتك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٢٦)، والدارمي (١/ ١٧٤).

وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى أيها نظرت فإنك الأحرى، ثم العهود مختلفة، وفي الأقوال عهود، وفي الأفعال عهود، وفي الأحوال عهود، والصدق مطلوب منك في جميع ذلك، وعلى العوام عهود، وعلى الخواص عهود، وعلى خواص الخواص عهود، فالعهد على العوام لزوم الظواهر، والعهد على الخواص حفظ السرائر، والعهد على خواص الخواص التجلي من الكل لمن له الكل.

وقال: من حمل الحمد بنفسه وحوله نقضه في أول قدم ومَنْ حمله بالحق حفظ عليه عهده ومواثيقه.

وقال الواسطي: تقدمت العهود في الميثاق الأول، فمن أقام على وفاء الميثاق فُتح له طريق الحقائق وقتًا بعد وقت، ومن خان في الميثاق بقي مع وقته وأُغلق دونه مسالك رشده.

وقد وقع لي نكتة هاهنا من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ إن كان العهد واليمين وقعا من جانب العباد في الأزل تحقق لهم الاختيار في الوفاء بالعهود والأيمان، وإن وقعا من الحق صرفًا، وعهد العباد وأيمانهم من نتائجهما وفرعهما، فقد سقط عنه الاختيار المنزه عن عوارضات التلوين، وتغير الزمان والمكان.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلوهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنَّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنَّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

ثم أخبر أنه يجازي المحبوسين في قيود إسراء بلاء محبته، وامتحان شوقه، وبلاء عشقه بمشاهدته، وكشف جماله لهم بأحسن ما يرجون منه، فإن رجاءهم على قدر هممهم، وهممهم على قدر نياتهم، ونياتهم على قدر قصودهم، وهي كلها معلولة مقصورة وأجر جماله ووصاله غير محسوب من حيث وجود الخلق والخليقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال بعضهم: ما منكم من الطاعات فإنها فانية، وما منّي إليكم من جزاء أعمالكم فهو

باق على الدوام، وأنى يقابل ما يفنى بما يبقى.

وقال ابن عطاء: أوصافكم فانية وأحوالكم بائية، فلا تدعو منها شيئًا وما من الحق إليكم باق، فالعبد من كان فانيًا من أوصافه باقيًا بما لله عنده، وهو تفسير قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقال جعفر عليه السلام: ما عندكم ينفد يعني الأفعال من الفرائض والنوافل، وما عند الله باق من أوصافه ونعوته؛ لأن الحديث يفنى والقديم يبقى.

قال أبو عثمان: جزاء الصبر هو أن يعطي الله العبد الرضا، فمن تحقق بالصبر ولزم طريقة الصابرين فإن الله يثيبه على أحسن ثواب عاجلا وآجلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ويقال: ما عنكم من معارفكم ومحابكم آثار متعاقبة وصفات متناوبة أعيانها غير ثابتة، وإن كانت أحكامها غير باطلة، والذي يتصف بالحق به من رحمته بكم ومحبته لكم وثنائه عليكم، فصفات أزلية، ونعوت سرمدية.

ويقال: ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا، فيعرض الزوال وقبول الانقضاء، وما وصفنا به نفسنا بما ورد به الآثار إلا طال، شوّق الأبرار إلى لقائي، وإنَّا إلى لقائهم لأشد شوقًا وذلك إقبال لا يتناهى وإفضال لا يفنى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التّبَرُّؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا

بوصله، معانًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألذ حاله، طوبى له ثم طوبى له.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الحياة الطيبة هي القناعة»[1].

وقال السوسي: الحياة الطيبة عيش الفقراء الصبر، وقيل: عيش الفقراء الرضا.

وقال الجريري: هو العيش مع الله، والفهم عن الله.

وقال ابن عطاء: إسقاط الكونين عن سره حتى يبقى مع ربه.

وقال أيضًا: روح اليقين، وصدق نية القلب.

قال سهل: ذلك قلب بقي مع الله بلا رؤية الكون.

وقال جعفر: يعيش مع الخلق بالنفس، وقلبه معلق بمشاهدة الله.

وقال أيضًا: قلب مع الصفاء، وروح مع اللقاء، وبدن مع الوفاء.

وقيل: حياة القلب مع الله بحسن المعرفة وتجريد الهمة.

قال الصادق: القناعة والرضا.

وقال أيضًا: إذا كان قلبه في محبة الله، ولسانه في ذكر الله، وجوارحه في خدمته، فذلك حياة طيبة.

وقال أيضًا: إذا اجتمع له خمس مقام وهو عيش السرمدية، وحياة الأبدية، وصدق العبودية، وقرب الصمدية، وملك الأزلية فذلك حياة طيبة.

وقال الواسطي: هو الرضا بالميسور، والصبر على كربة المقدور، فما طابت حياة أحد إلا بالرضا بما قدَّر الله وقضى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: العمل الصالح لا يكون من غير المؤمن.
فمعناه عمل صالحًا في الحال وهو مؤمن في المآل؛ لأن صفاء الحال لا ينفع إلا مع وفاء المآل، فإن الأمور بخواتيمها.

ويقال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق بأن نجاته بفضل الله، لا بعمله الصالح.

ويقال: الحياة الطيبة هو نسيم القرب.

ويقال: الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٧٥).

نحـــن في أكمـــل بالــــسرور ولكـــن لـــيس إلا بكـــم يــــتم الـــسرور

غـبت مــا نحــن فــيه يــا أهــل ودي إنكـــم غـــيب ونحـــن حـــضور

ويقال: الحياة الطيبة الأولياء ألا يتركه لهم سؤالاً إلا حققه، ولا مأمولاً إلا صدقه، وأما الخواص نالحياة الطيبة لهم ألا يكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة، وكم بين من له مراد فيرتفع، وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئًا، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون معتقون بشرط الحرية.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بيَّن سبحانه أن الشيطان لا يغلب بالكفر والضلال على من اختارهم الله في الأزل بالإيمان والمعرفة، وبصفاته، وبأسمائه، وبنعوته بنعت نفي الأنداد والأضداد عن عبوديته، والإيقان في وجوده، والإذعان عند تصرفه، والتوكل عليه في امتحانه وبلائه، ولا تسلط له عليهم؛ لأنهم في رعاية الحق وعنايته لا يقدر أن يوسوسهم للتردد في الإيمان؛ ولكن يوسوسهم من جهة الشهوات الدنيوية، فإذا صبح أنوار شمس جلاله على وجوههم وقلوبهم وأرواحهم، يحترق الشيطان عند إلقائه إليهم حتى أفاقوا، فإذا أفاقوا يقصد إليهم أيضًا بالوسواس، فإذا استعانوا بالله من شره، وأووا إليه بالتوكل، احتبس الملعون في مكانه، يذوب كما يذوب الملح في الماء.

قال أبو حفص: من أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل، فليصحح إيمانه، وليصحح بالإيمان بالتوكل عليه، والإيمان هو ألا يرجع في السراء والضراء إلا إليه، ولا يرضى بسواه عوضًا عنه، والتوكل هو الثقة بمضمون الرزق كثقتك بمعلومك، وهذا تفسير قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾.

قال النصر آبادي: من صحح نسبته مع الحق لا تؤثر بعد ذلك عليه منازعة طبع، ولا وسوسة شيطان، ثم بين أن سلطانه على من: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ معنى سلطان الشيطان الحيل والمكر والخديعة والوسواس، لا أن يطيق أن يضل أحدًا من خلق الله بغير إذن الله؛ لأنه تعالى يضل بنفسه ويهدي بنفسه: وليس له شريك فيها، إذ هو منفرد بالوحدانية الأزلية وتسلطه إنَّما على من أضله الله في الأزل، وتسلطه أغراه، وزيادة الوسوسة لمن تابعه وتابع هواه، وأما للمسلمين والمؤمنين فمن جهته مراد النفس؛ لا للكفر والضلالة؛

لأنه يغويهم إلى زيادة المعصية.

قال بعضهم: من اتبع هواه فقد تولى الشيطان، ومن ركن إلى الدنيا فقد اتبعه، ومن أحب الرئاسة فقد اتبعه، ومن خالف ظاهر العلم فقد تولاه، ومن خان المسلمين فقد جعل للشيطان عليه سبيلاً، ومن ركب شيئًا من المخالفات ظاهرًا وباطنًا فقد أهلك نفسه، ومن تولى الشيطان فقد تبرأ من الحق.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا لم يكن الأعداء من قبيل أهل المعرفة بخطاب الله صار بحجتهم الإنكار عليه، لبعد مكانها من معرفة الله وشهوده، ووجوده، وما صدر منه، من كلامه العزيز ردَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني أن الله سبحانه كلَّم في الأزل، نأوحى جبرائيل ﷺ وأمره أن يوحي حبيبه أمر حبيبه أن يبلغه إلى المؤمنين الذين عرفوا الله بالأرواح حين أخذها الحق بميثاقه وكلمها بكلامه حين قالوا: بلى، ليثبتوا في معرفة الله بخطاب الله، ويستقيموا في طاعتهم، ثم وصف كتابه بأنه معرف جميع صفاته وذاته لأهله، ومبشر لهم بوصال حبيبهم بقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وأن الله سبحانه إذا أراد أن يتكلم، يتكلم بنفسه مع نفسه، كما يليق بجلاله، بلا همهمة، ولا صوت، ولا شيء من صفة الحدثان، ثم يلبس كلامه قوة من قوته، وجلالة من جلاله، وعظمة من عظمته، فيسمع جبرائيل على ما يليق بقوته، يسمع كلامه بقوة قدسية مستعارة من قدس الله، ولولا ذلك لذاب بسماعه أهل الملكوت، ثم إن جبرائيل احتمل ذلك، ونزل به إلى النبي ﷺ فألبس الحق ذلك القوة والجلال قلب نبيه فسمعه بتلك القوة، ثم يفيض تلك القوة في جميع وجوده، فثقل عليه فحفظه الله بحفظه حتى بقي

تحت أثقال برجاء وحيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] وهو الملقي، وهو الحامل، ولولا قوته الأزلية بإعانته، لطاش في أول سماع يسمع من كلامه وروح القدس مع جميع الأرواح المقدسة من فيض تجلي قُدس جلاله، فكلها تكون قدسية، فأي روح قدسه عليها أكثر، فهو أظهر في قُدسها لا يلتصق بها الملل والحوادث.

قال الواسطي: الأرواح ليس لها نوم ولا لذة ولا موت ولا حياة، بل هي جوهرة لطيفة للطفه، فسمي روحًا، أو للطف جبرائيل، سمي روح القدس.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ إنَّ الله وصف المريدين الصادقين حين هاجروا من حظوظ أنفسهم بعد ذوقهم طعم معصية الله، وبعد وقوعهم في محل امتحانه، فلمّا خرجوا من تحت مراد النفس والهوى، وجعلوهما منكوسين، وباشروا عبودية الله، وجاهدوا في محاربة الشيطان حين دعاهم إلى منازل الفترة، وصبروا على ترك الهوى في متابعة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لما جرى عليهم في سالف الأيام من الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أي بأن يحفظهم من المراجعة إلى حظوظ النفس، ومرادها وأنه تعالى يذيقهم طعم الأنس بحيث لا يطيقون أن يفتروا من طاعته لمحة.

قال سهل: هاجروا قرناء السوء بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم، ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير، ثم صبروا معهم على ذلك، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من بدء الأحوال.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينبسط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي،

فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبدًا، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفسٍ بقدر طاعتها، وهو منزه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويريهم جماله.

قال بعض الخراسانيين: ذهب وقت الخلق في الدنيا اشتغالاً بنفوسهم في الدنيا تجادل عنها، وفي الآخرة تجادل عنها، فمتى يتفرغ إلى معرفة الحق[1].

وقال الأستاذ: المؤمن لا نفس له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فأنفسهم اشتراها الحق منهم، ثم أودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق سبحانه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ القرية المطمئنة: قلب العارف الصادق المطمئن بذكر الله، بل الله طمأنينته حين شاهده، بكشف جماله وجلاله له، أمر بلطف الله عن قهر الله، وبرعايته عن طوارق الوسواس

---

(١) والمعنى اذكر يا محمد ويا كل من يصلح للخطاب يوم يأتي كل إنسان يجادل ويخاصم عن ذاته يسعى في خلاصه بالاعتذار كقولهم هؤلاء أضلونا وما كنا مشركين لا يهمه شأن غيره فيقول نفسي نفسي وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى خليل الرحمن عليه السلام وقال رب نفسي أي أريد نجاة نفسي. تفسير حقي (٧/ ١١٢).

وشوارق الهواجس، يأتي عليه رزق المعرفة والمحبة، ويرد الأنس والمشاهدة من كشف الذات وجميع الصفات رزق أرغد؛ بحيث لا كدر فيه ولا كدورة عليه من قتام الهجران، وظلمة الحرمان، فإذا أراد الحق سبحانه إتمام النعمة عليه، رفع عنه الخطأ والنسيان، والظن والحسبان، حتى لا يشتغل إلا بمراعاة أسراره، وبمداركة لطائف أنواره، وإذا أراد به الامتحان وضعوا عليه النسيان، وأغلق عليه أبواب فتوح المشاهدة حتى يذوق طعم وبال الهجران، ويسقط في ورطة الحرمان، ويكون خائفًا بعد أن يكون آمنًا، وفاترًا بعد أن يكون ساكنًا، بقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

قال الأستاذ: فراغ القلب عن الشهوات نعمة عظيمة، إذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وأنجز في قياد الشهوات شوَّش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته، فإن طوارق النفس أوجب غروب شوارق القلب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ أي: باشروا مراد الهوى بجهلهم على صفات ربهم الأعلى من قهر ولطف، ثم تابوا من بعد ما رأوا مكائد الشيطان، وعيوب النفس، وعرفوا موضع خطأهم، وندموا على ما فات عنهم من أوقات سنية، وحالات شريفة، وأصلحوا ما أفسدوا بالورع التام، والزهد على الدوام، والندم على فوت الأيام، وغفلتهم في المنام، يوفقهم بالاستقامة في طاعته، وبقائهم بنعمتها في رعايتها، لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال سهل: ما عصى الله أحدٌ إلا بجهل، ورُبَّ جهل أورث علمًا، والعلم مفتاح التوبة، وفي الصلاح صحة التوبة، من لم يصلح في توبته عن قريب يفسد عليه توبته؛ لأن الله يقول: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ إنَّ إبراهيم كان آدم الثاني،

خلقه الله على رؤية جمال جميع صفاته، واستيلاء أنوار ذاته في إيجاده على كونه، فتجلى بقدمه من حيث الذات، وبالبقاء من حيث الصفات، ومن الأسماء والنعوت برسم الأفعال لروحه وقلبه وعقله وسره، فصار موجودًا بوجوده، مشكاة لأنواره، نورًا من تجليه متخلقًا بخُلُقِه، موجودًا بلطفه، مقدسًا بقدسه، خليلاً بخلته، حبيبًا بمحبته، صفيًّا باصطفائيته، ملكًا بملكه، بصيرًا ببصره، سميعًا بسمعه، متكلمًا بكلامه، عينًا من عيون الحق في العالم، وشقائقًا من منابت لطف آدم ما اجتمع في كل، اجتمع في وجوده، مطيعًا في عبوديته، حرًّا في حنيفيته، غير مائل من جمال الحق إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وَلَيسَ اللهَ بِمُستَنكِرٍ ... أَن يَجمَعَ العالَمَ في واحِدِ

ثم زاد وصفه بمعرفة منعمه ونعمه لاجتبائيته بخلته، وتعريفه إياه طريق محبتهن بقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ شاكرًا لأنعمه حيث بذل نفسه لأمره ولمراده، وأسلم نفسه في ذبح ابنه، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه، اجتباه في الأزل بالخلة، وهذا إلى المعرفة، وكمله بكمال الاستقامة، والقانت الذي سكن قلبه مع الله في مقام الأنس الحنيف الذي قلبه مربوط بنعت القدس.

قال بعضهم: أمّة أي: معلمًا للخير، عاملاً به.

وقيل: القانت الذي لا يفتر عن الذكر، والحنيف الذي لا يشوب شيئًا من أعماله بشرك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: لم يك يرى المنع والعطاء والضر والنفع إلا من موضع واحد.

قال الواسطي في قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: قابلاً لقضائه وقسمته قبول رضا لا قبول كراهية.

قال أبو عثمان: الشاكر لنعمه ألا يرى شكره إلا ابتداء نعمة من الله عليه؛ حيث أهلّه لشكره، واجتباه من بين خلقه، وكتب عليه الهداية إلى صراط مستقيم، عالمًا أن الهداية سبقت له من الله ابتداء فضل لا باكتساب وجهد وكدّ.

قيل: القنوت القيام بالحق على الدوام والحنيف المستقيم في الدين، ثم وصف كرامته عليه وشرفه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آتيناه في الدنيا حسنة النبوة، والرسالة، والخلة، والمحبة، والمعرفة، وإنَّه في الآخرة لمن الشاهدين لقائه أبدًا بلا حجاب؛ فإنه بوصف ما ذكرنا يصلح لقربه وجواز وصاله أبدًا.

قال بعضهم: آتيناه في الدنيا المعرفة حتى صلح في الآخرة لبساط المجاورة.

قال بعضهم: أصلح الله قلوب المؤمنين للمعاملة، وأصلح قلوب الأنبياء والأولياء للمجاورة والمطالعة.

وقال الواسطي: هي الخلة لا غيرها تولي الأنبياء بخلقه خلقهم على ذلك جذبًا منهم إليه.

قال الأستاذ: آتيناه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم يكن لغيرنا، ثم جعله إمامًا لنبينا محمد ﷺ وأمّته بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الخلة والمحبة والرضا والتسليم والسخاء والوفاء والكرم، أوحى إلى رسوله بمتابعته، إذ اختاره بما اختار خليله وأجل وأفضل بدايته متابعة الخليل، ونهايته انفراده في تجريد التوحيد عن غير الحق بالحق، ويقتضي هذا التأدب بآداب المشايخ، والتواضع للأكابر، كما قال الدينوري: أمر الله نبيه ﷺ باتباع الخليل لئلا يأنف أحدٌ من الاتباع، وملة إبراهيم كانت سخاء، والخلق الحسن، فزاد عليه النبي ﷺ حتى جاد بالكونين عوضًا عن الخلق؛ فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ومن جملة ما أمره الله باستعمال الخلق.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: خاطب الجمهور بلسان الشريعة لا بلسان الحقيقة، فإنْ تكلمت معهم بالحقيقة طاشت العقول فيها، وبقيت الخلق بلا فهم، ولا علم، والموعظة الحسنة التي لاحظ للنفس فيها، ويكون على قدر عقول الخلق وطاقتهم.

قال بعضهم: خاطب كلاً على قدره، والموعظة الحسنة فيها ترغيب وترهيب.

سئل بعضهم: لِمَ قدم الله الحكمة؟ فقال: لأن الحكمة إصابة القول باللسان وإصابة الفكرة بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إنْ تكلم، تكلم بحكمة، وإنْ تفكر، تفكر بحكمة، وإنْ تحرك، تحرك بحكمة.

وقال جعفر: الدعاء بالحكمة أن تدعو من الله إلى الله، بالله، والموعظة الحسنة أن ترى

الخلق في أمر القدرة، فتشكر من أجاب، وتعذر من أبى وفي قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ الجدال الحسن أن تدلّهم إلى الله بالله، تعرف ذاته وصفاته، بما وجدت من كرمه ولطفه، شفقة ورحمة على خلقه.

قال بعضهم: هي التي فيها من حظوظ النفس شيء، ولا يرى أنه الممتنع من قبول الموعظة، فيغضب عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فلا ينجح فيه قولك ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الموفقين الذين شرحت صدورهم لقبول ما أتيت به.

قال سهل: السبيل الذي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو إليه، هو الإيمان بالله، فإنه طريق ممدود من الدنيا إلى الآخرة.

وزاد تعالى تأكيدًا باستعمال الكرم والخلق، والعفو والصبر، بقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ دفع الانتقام لحظ النفوس، وأجاز الانتقام له لا لغيره، والصبر في المكاره، والامتحان منتهى مقام المجتهدين، الأول يتعلق بمقام المبتدئين، وانصبر يتعلق بمقام الراضين، والمريد منغمس في أنوار الشريعة، والعارف مستغرق في بحر الربوبية، الأدب شعار المريدين، والرضا مقام المختارين.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾: ولم تعاقبوا لها خير للصابرين التاركين العقوبة، التي أباح العلم فعلها بالأدب الذي يتبعه بالأمر، ويلزمه بالترغيب، أنه خير للصابرين، ثم بيّن سبحانه أنّ ذلك الصبر الذي هو خير للصابرين لا يكون إلا بالله بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: صبرك في بلائه لا يكون إلا بكشف جماله لك، وأيضًا أي: ما صبرك إلا بعد تخلقك بصبره، وأيضًا ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: الله عوض صبرك، وأيضًا صبرك بالله، لا بنفسك، فإن بلاءه لا يحتمله إلا هو.

وقال الواسطي في هذه الآية: أخبر بأنه هو الذي تولاهم بحجبهم عند المعاينة في الحضرة عن الحضرة، وهم ثلاث طوائف عند اللقاء، طائفة تسرمدت بقيومية دوامه وأزليته، فلم تجر عند اللقاء عليها آفة باتصال أنوار السرمدية بأنوار الأبدية، وطائفة لقيته في زينته، وحسن نظره واختياره، فغمزهم في نعمته وحجبهم بكرامته، فهي متلذذة بنعمة محجوبة عن حقيقته، وطائفة يثبت شواهد طاعاتها وزهدها؛ فقال لهم مرحبًا بمقدمكم فحجبهم في نفس ما خاطبهم.

وقال ابن عطاء: يأمره ويبرئه.

وقال جعفر: أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ، حيث جعل أمر

صبره بالله لا بنفسه؛ فقال: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

قال النوري: في هذه الآية هو الصبر على الله بالله.

قال الأستاذ: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ تكليف، و﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تعريف.

ويقال: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ تعنيف، و﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تخفيف، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ أمر بالعبودية، ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ إخبار عن حق الربوبية، ثم أخبر سبحانه بألا تنظره إلا إلى سوابق التقدير، حتى لا تحزن على موارد التدبير، بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على أمر العبودية.

قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكِنَّ الله تعالى حذَّره ما هو موهوم في البشرية، وإنْ كان هو منزَّهًا عنه.

قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلَّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: مع الذين عظَّموا الله برؤية عظمته، وأجلوه بإجلاله، وتبرؤا به عن غيره، وهم في حال الإحسان في جمال مشاهدته، هائمون في بهاء وجهه، وأنوار قدسه، فهو معهم من حيث لا هم، أفناهم به عن وجودهم، ثم أبقى نفسه لهم بعد فنائهم عنه فيه له.

قال ممشاد الدينوري: رأيت ملكًا من الملائكة يقول لي: كل من كان مع الله فهو هالك، إلا رجل قلت: ومن هو، قال: من كان الله معه، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قال بعضهم: من اتقى الله في أفعاله أحسن الله إليه في أحواله.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: التقوى مع الله، والإحسان إلى خلق الله.

قال الواسطي: التقوى: كيف اتقى؟ وماذا يتقي؟ ولماذا يُتقى؟

وقال الأستاذ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ رؤية البصيرة من غيره والذين هم أصحاب التبرُّؤ من الحول والقوة، والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهو حال المشاهدة.



سورة بني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: في هذه الآية أربع إشارات: إشارة التقديس، وإشارة الغيرة، وإشارة الغيب، وإشارة السرِّ، فأما إشارة التقديس فقوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ أي: منـزَّهٌ عن إشارة الجهات والأماكن في الفوقيّة، وما يتوهم إليه الخلق أنّه إذا وصل عبده إلى وراء الوراء إنه كان في مكان، أي: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السماوات إنه رفع إلى مكان، أو هو في مكان، فإنَّ الأكوان والمكان أقل من خردلةٍ في وادي قدرته.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»[1]، فالعندية والفوقية منزَّهةٌ عن أوهام المشبهة؛ حيث توهَّموا أنه أسري به إلى المكان، أي: سبحان من تقدَّس هذه التهمة.

وأما إشارة الغيرة فقوله: ﴿الَّذِي﴾، ولم يذكر من اسم الظاهر مثل الله والرحمن؛ لأنّه غار بنفسه أن يراه أحدٌ سوى عبده، وما سمى النبي باسمه الظاهر أيضًا غيرةً عليه، فرفع الاسمين من البين؛ لئلا يطلع عليهما من العرش إلى الثرى.

وأما إشارة الغيب قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾: سرًّا على ما بين العبد والرب، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ محل السر والنجوى، فبان من التقديس إفراد القدم عن الحدوث، وسقوط الاكتساب عن محل التفضل، وكون الاختصاص له من البرية، وطهارة القدم عن إحاطة الحدث به، وبقاء العزة بوصفه عن محمدة العارفين وعرفان الموحدين، وبان عن اسم المبهم حقائق المحبة، وامتناع الصمدية عن إدراك الخليقة، وبان من إشارة الغيب ظهور أنوار الربوبية وسطوع أنوار علم المجهول، وبان من إشارة السر خطاب المتشابهات، وغوامض علوم المشكلات، والإشارة إلى وقائع أشراط الساعة أسرى بعبده من محل الإرادة إلى محل المحبة، ومن محل المحبة إلى محل المعرفة، ومن محل المعرفة إلى محل التوحيد، ومن محل التوحيد إلى محل التفريد، ومن محل التفريد إلى محل الفناء، ومن محل الفناء إلى محل البقاء، ومن محل البقاء إلى محل

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٣/ ٣١٥).

الاتصاف، ومن محل الاتصاف إلى محل الاتحاد، فلم يبق منه شيءٌ من رسوم الحدوثية من استيلاء القدم على الحدث، فدنا منه ثم تدلى عنه، ثم فني فيه، فكان بين فنائه قاب قوسين، قوس الأزل وقوس الأبد، فبين القوسين غاب في الغيبة، فبقي غيبه، فاستوى أو أدنى فأزال بالغيرة غيب غيبه، كأنَّه كان في فناء الفناء، والفناء عن فناء الفناء، فبقي اسمه مع اسم الإشارة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: هو مع مكانته في مقام الاتحاد على وصف العبودية، وسبحان الذي سبحان عن أن يكون محلاً للحوادث، أو امتزجت اللاهوتية بالناسوتية، قوله سبحانه كان أزليًا سرمديًا، كان سبحانه قبل إيجاد العبد والتعبد عن القريب والبعيد هو هو بذاته وصفاته له، لغيره امتنع عن القرب والبعد من جهة الخليقة بحال من الأحوال أبد الآبدين، أسرى من رؤية فعله وآياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مشاهدة جماله فرأى الحق بالحق، وصار هناك موصوفًا بوصف الحق، فكان صورته روحه، وروحه عقله، وعقله قلبه، وقلبه سره، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده صار بجميعه عينًا من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب؛ حتى فنيت عيونه وأسماعه وقلوبه وأرواحه وعقوله في الحق، فنظر الحق إلى الحق لأجله نيابةً عنه؛ لأنَّ عيون الحدوثية فنيت في عيون الحق، وعيون الحق رجعت إلى الحق، فرأى الحق الحق، وعرف الحق الحق، وسمع الحق من الحق رحمةً منه إليه، وتلطفًا به؛ لأنه يسمع ويرى.

ألا ترى إلى آخر الآية قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: سمع كلامه من نفسه، وأبصر نفسه بنفسه، كان في الأزل سميعًا بصيرًا، لكن هاهنا يسمع ويبصر بسمع عبده وبصر عبده.

قال الواسطي: نـزَّه نفسه أن يكون لأحدٍ في تسيير نبيه ﷺ حركة أو خطوة، فيكون شريكًا في الإسراء والتسرية.

وقال أبو يزيد: نـزَّهه عما أبدى، ولا تعرفه بما أخفى.

وقال ابن عطاء: طهَّر مكان القربة وموقف الدنو عن أن يكون فيه تأثيرٌ لمخلوق بحال، فسرى بنفسه، وسرى بروحه، وسرى بسره، فلا السر علم ما فيه الروح، ولا الروح علم ما يشاهده السر، ولا النفس عندها شيء من خبرهما وما هما فيه، وكلٌّ واقفٍ مع حده، مشاهدًا للحق، متلقفًا عنه بلا واسطة ولا بقاء بشرية، بل تحقق بعبده فحققه وأقامه؛ حيث لا مقام، وخاطبه وأوحى إليه ما أوحى جلَّ ربنا وتعالى.

وقال: جاء رجلٌ إلى جعفر بن محمد، وقال: صف لي المعراج. فقال: كيف أصف لك

مقامًا لم يسمع فيه جبرائيل مع عظيم محله.

وسبب بداية المعراج الذهاب إلى المسجد الأقصى؛ لأن هناك الآيات الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ في تلك الجبال مواضع كشوف الحق لذلك قال: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: علامات شواهد مشاهدتنا؛ حتى يتعود برؤية شهودنا في الآيات، وليقوى برؤيتها؛ حتى يطيق أن يرى آيات عظام الملكوت، وسبب عروجه إلى الملكوت؛ ليرى جمال الجبروت في أنوارها؛ لأنه سأل عن الحق رؤية ظهور صفاته في مرآة آياته بقوله: أرنا الأشياء كما هي، فأراه الحق ما سأل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: هو يريه وهو قادرٌ بذلك، وهو منزّهٌ عن الحلول في الآيات.

ألا ترى إلى أول الآية كيف قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾، والحكمة في ذلك أنه إذا قوي في رؤية الصفات في الملكوت الأعلى والملكوت السفلي يطيق أن يرى صرف ذاته بلا حجابٍ، ولا حسبانٍ، ولا قتامٍ، ولا ضبابٍ، ولا علةٍ، ولا آياتٍ، ولا شواهد، بل يراه به لا بشيء ولا بإياه.

قال بعضهم: قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، فغمض عينه عن الآيات شغلاً منه بالحق، ولم يلتفت إلى شيء من الآيات والكرامات فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يشغلك ما لنا عنا.

ويقال: أرسله الحق سبحانه ليتعلم منه أهل الأرض العبادة، ثم رقّاه إلى السماء؛ ليتعلم الملائكة منه أدب العبادة، قال الله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ما التفت يمينًا، ولا شمالاً ما طمع في مقام، ولا في إكرام، وتحرز عن كل طلب وإرب.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: كان تعريفًا بالآيات، ثم تعريفًا بالصفات، ثم كشفًا بالذات.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: عبدًا من حيث العبودية، ومحبًّا من حيث المعرفة، وعاشقًا من حيث الحرية، ومنفردًا بالأنس من حيث الغيرة.

ألا ترى كيف قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]: شكورًا من حيث أن يرى المنعم بالمنعم لا بالنعمة بنعت العجز عن أداء حق نعمة جلاله وكشف جماله، كأنَّه تعالى علم نبيه ﷺ مقام معرفة أبيه نوح ﷺ كيف كان معرفته بالله؛ حيث احتمل بلاءه به، وشكر في موضع الصبر، كأنَّه علَّمه الشكر في مقام البلاء؛ لأنَّ العارف لا يتم؛ حتى يعرف الحق في رؤية البلاء ورؤية النعمة، فيأخذ من مقام البلاء الصبر المقرون بالرضا، ومن مقام النعمة الشكر المقرون بالصفاء والوفاء والسخاء والتُّقى، وإن كان متحليًا بهاتين الحلتين صار مزينًا بجميع زينة العبودية؛ لذلك قال: ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾[1].

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: العبودية هي: ترك هذين الشيئين: السكون إلى اللذة، والاعتماد على الحركة، فإذا فقد عنك هذان فقد أديت حق العبودية، يستعظم قليل فضلنا عنده، ويستصغر كثير خدمته لنا، ليس له إلى غيرنا التفاتٌ، ولا يشغله تواتر النعم عليه عن المنعم بحال.

وقال أيضًا: قائلاً بالحق، ناطقًا به، قابلاً له، مقبلاً عليه.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾: حكى الله سبحانه عن العباد بأنهم يعملون بالأعواض لحظِّ نفوسهم، لا لحقيقة العبودية التي وجبت عليهم في الأزل، لحق الربوبية التي هي مستحقةٌ لها، فمَنْ عمل للنجاة عمل لنفسه، ومن عمل للثواب فقد عمل لنفسه، ومن عمل لحظ المحبة وكذا الأنس فقد عمل لنفسه، ومن عمل لغير هذه العلل وقام على شرط العبودية بنعت إسقاط رؤية الأعواض وكل علة على وصف الخجل والحياء والفناء فقد عمل لله، ولكنَّ أعماله راجعةٌ إليه بسببين: أحدهما أن عبودية الخليقة لا تليق

---

(١) وفى التأويلات النجمية يشير إلى شكر داود الروح وسليمان القلب من آله السر والخفى والنفس والبدن فإن هؤلاء كلهم من مولدات الروح قال اعملوا...

بالأزلية، والآخر أنه منـزَّهٌ عن عبودية الخلق وعصيانهم؛ لأنَّه قائمٌ بنفسه، ليس له أنسٌ بطاعة المطيعين، ولا وحشة بمعصية العاصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفيه نكتةٌ عجيبةٌ، أي: إنْ شاهدتم مشاهدتي شاهدتم لحظوظ أنفسكم لا لحق شهودي، وإنْ شاهدتم مشاهدتي كما ينبغي وفنيت مشاهدتكم فنيتم في مشاهدتكم في مشاهدتي؛ لأنَّ سطوات العظمة مهلك كل شاهد من شهوده.

قال أبو سليمان الداراني: العمّال في الدنيا يعملون على وجوه، كلٌّ فيه يطلب حظه، فجاهل عمل على الغفلة، وعامل عمل على العادة، ومتوكل عمل على الفراغة، وزاهد عمل على الحلاوة، وخائف عمل على الرهبة، وصديق عمل على المحبة، وعمّال الله أقل من القليل.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: ذكر الرجاء، وقدَّم الرحمة، وتكلَّم من نفس التربية، كأنَّه تعالى دعاهم إلى مقام الرجاء من مقام الخوف، ومن رؤية الوحشة إلى رؤية تربية الربِّ، ومن رؤية العذاب إلى رؤية الرحمة، أي: أنا أستعمل كرمي القديم على كل حال إنْ تطيعون وإنْ تعصون على عواقب الأمور، لأنَّ وصفي غالبٌ على كل وصفٍ، وأنا غالبٌ على أمري، ثم أثبت الأكساب القائمة بالمشيئة بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: إنْ عدتم إلى عالم القهريات عدنا معكم، فننجيكم منها، فإنَّ سوابق الكرم والرحمة غالبةٌ على الغضب، كما قال: «سبقت رحمتي غضبي»[1]، وإنْ عدتم إلى عالم اللطف عدنا معكم إلى عالم اللطف، فأريكم جلالي في لباس لطفي، وإنْ عدتم إلى المعصية عدتم إلى معادلكم التي خليقتها الجهل والعصيان عدنا إلى ما كنَّا في الأزل من اللطف والكرم؛ لأنَّ اللطف والكرم من نهارير القدم، وإنْ عدتم إلى الهجران عدنا إلى الوصال، وإنْ عدتم إلى المجاهدة عدنا إلى كشف المشاهدة، وإنْ عدتم إلى النكرة عدنا إلى المعرفة.

قال ابن عطاء: يتعطَّف عليكم، فيخرجكم من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات، فمَنْ طلب الرحمة من غير الله فهو في طلبه مخطئ.

وقال سهل: إنْ عدتم إلى المعصية عدنا إلى المغفرة، وإنْ عدتم إلى الإعراض عنا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإنْ عدتم إلى انفرار منا عدنا إلى أخذ الطرق عليكم، لترجعوا إلينا.

وقال الورَّاق: إنْ عدتم إلى الطاعة عدنا إلى التيسير والقبول.

قال الأستاذ: إنْ استقمتم في التوبة عدنا في إدامة الفضل والمثوبة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٢).

وقيل: إنْ عدتم إلى الخطأ عدنا إلى الوفاء، ثم بَيَّن سبحانه أن الفراق يعرف العارفين أصوب الطرق وأقومها في مسالكهم إلى الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أنَّ القرآن يعرف أهله بنوره أصوب الطريق إلى الله، وتلك الطريقة طريق طاعته التي في سلوكها لسالكيها مقام كشف وصاله وظهور جماله، وأنه يهدي للطريقة انصائبة في نفسه من حقائقه بأن يرشدهم بظاهره إلى معاني باطنه، ومن معاني باطنه إلى نور حقيقته، ومن نور حقيقته إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى الذات، فالقرآن أسماءٌ ونعوتٌ وأوصافٌ وصفاتٌ، يعرف للعارف الصادق عيون الذات والصفات والأسماء والنعوت والأوصاف وهي أقوم الطريقة؛ لأنَّ العوام يسلكون إليه بأوصافهم، وأهل القرآن يسلكون إليه بصفاته.

إذَا نحـــنُ أَدلجـــنَا وأنـــتَ أمامـــنَا   كفَـــى لمطَايانَـــا بـــريَّاكَ هَاديَـــا

ويبشر أهله من الذين يتبعونه بمراد الحق أن لهم أجر المشاهدة وكشفها بلا حجاب أبدًا.

قال ابن عطاء: القرآن دليلٌ، ولا يدال إلا على الحق، فمن اتبعه قاده إلى الحق، ومن أعرض عنه قاده الجهل إلى الهلاك.

وقال أبو عثمان في كتابه إلى محمد بن الفضل: من تمسَّك بالقرآن وفِّق للزوم الاستقامة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾: من لم يبلغ أعالي درجات القوم لم يعرف مقامات الدعاء، ومن لم يعرف مقام الدعاء ففي كل وقت يستعمل سوء الأدب؛ لأنَّه في رسوم الصورة يسأل شيئًا بجهله، وهو سبب خطره قرب مراد لا ينجح له المقصود؛ لأنَّه عجولٌ لا يصبر حتى يبلغ، ويعرف ما يليق بحاله فيسأل.

قال سهل: أسلم الدعوات الذكر وترك الاختيار في السؤال والدعاء؛ لأنَّ في الذكر الكفاية، وربما يدعو الإنسان، ويسأل ما فيه هلاكه، وهو لا يشعر.

ألا ترى الله يقول: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ والذاكر على الدوام التارك للاختيار في الدعاء والسؤال، مبذولٌ له أفضل الرغائب، وساقطٌ عنه آيات السؤال

والاختيار.

قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي السائلين»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: الليل والنهار هاهنا مقام المجاهدة والمشاهدة، فالمجاهدة ليل العارفين، والمشاهدة نهار الصدِّيقين، ففي مقام المشاهدة كشف شمس الذات آية نهار المشاهدة، وكشف قمر الصفات آية ليل المجاهدة، فأهل المشاهدة في رؤية شموس الذات، وأهل المجاهدة من الصادقين في رؤية أقمار الصفات؛ لأنهم في ضعف الأحوال من حمل وارد العظمة، ولولا غيبة أنوار الذات عنهم لهلكوا في أول سطوتها، ولو كان إتيان أحدهما كالآخر لهلك العارفون لبقائهم في مشاهدة الذات صرفًا على السرمدية، ولم يصلوا إلى معادن الصفات.

كما قال سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وفضل الحق هاهنا معرفة الصفات، والعيش في مشاهدة الذات، والوقوف على مقامات الدنو، وأوقات الحالات، بقوله سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لتعلموا في محاق أقمار الكواشف، وزيادة كمالها بفيض نور الأولية والأخروية أعداد زمان الوصال والفراق، وحساب المقامات والحالات، وتقعوا في دور أدهار الأزال والآباد، وتعرفوا منازل سيارات الأرواح وحركاتها في أبراج أفلاك الوحدانية والفردانية بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، وهاهنا منازل انقطعت الأوهام في مداركها، وذهب الحسبان عند شوارق أنوارها، وانصرمت العقول عن تقلب أسرارها، وفنيت القلوب في حقائق أنوارها، كان لسان القدر ينطق بنطق الأبد على لسان عندليب سكران موردات ورد العشق شطاح فارس روزبهان البقلي، هذه الأسرار المباركة الممتنعة عرائسها بحجب الغيرة عن غيره أو غير مثله.

واستشهد ببيت النوري في هذا المعنى:

لَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ ودَادك مَنْزِلاً ... يَتحيرُ الألبابُ عِندَ نُزُولِهِ

قال بعضهم: جعلنا الليل والنهار ظرفين لإقامة العبودية، جعل أحدهم خلفًا عن الآخر وخليفة عنه، فمن أنفق أوقاته في أثناء ليله بما هو مستعبدٌ به فهو زمرة الموفقين، ومن أهمل ساعاته ولم يطالب نفسه، ولم يراع أوقاته مع كل خاطر أو نفس فإنه من المخذولين.

قال الله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في تصحيح العبودية وإخلاص العمل والمعونة

---

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ١٠٩).

على ذلك من الله ﷻ.

ثم إنَّ الله سبحانه أخبر عن سوابق أحوال الواردين إلى مناهل العبودية والربوبية بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، اختار بعضًا في الأزل بالإرادات، واختار بعضًا بالمعاملات، وبعضًا بالحالات، وبعضًا بالمشاهدات، وبعضًا بالمكاشفات، وبعضًا بالمعرفة، وبعضًا بالمحبة، وبعضًا بالشوق، وبعضًا بالرغائب، وبعضًا بالعزائم، وفي كل مقام طائر أحد من السالكين وسمته ألزمته نعوت الربوبية على عنق العبودية، يخرج من مربع عهد الأزل بهذه السمات، ويخرج إلى معاهد الأبد لا يتغير بتلون الملون، ولا بظهور الآيات والبرهان، ولا بطوارق الطاعات والعصيان.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، فما بدت للأرواح من معالم الرد والقبول بيد، ولصاحبه غدًا في الحضرة، فيرى أوله موافقًا للآخر والآخر للأول لا ينقص السوابق من الأواخر، ولا ترتد الأواخر على السوابق.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ هذا مقام الستر والغيرة على أحبائه؛ حتى لا يطلع عليهم الأغيار من الملائكة والجن والإنس، بل هو من مقامات النجوى وسرائرات تخفى، وحقائقات البلوى، وعجائبات الشكوى.

قال النصر آبادي: ألزمت نفسك أحوالاً، وألزمت أحوالاً، وما ألزمته أشد مما ألزمت نفسك.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾ من سعادة وشقاوة، ومنهم من ألزم الصبر على مقام المشاهدة، ومنهم من ألزم التمسك بالأدب على بساط القرب، وهذا أشد وأشد.

قال بعضهم: كتابًا تكتبه على نفسك في أيامك وساعاتك، وكتاب يكتب عليك في الأزل، ولا يخالف هذا ذاك ولا ذاك هذا.

قال بعضهم: الكتاب الذي يخرج إليك هو كتاب لسانك قلمه، وريقك مداده وأعضاؤك ومفاصلك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت من ذلك شيئًا يكون الشاهد فيه منك عليك، قال الله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: اقرأ كتابك؛ فإنك كنت المملي له.

وقال بعض السلف: محاسبة الأبرار في الدنيا، ومحاسبة الفُجَّار في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾: إذا أراد الله سبحانه خراب الدنيا يأخذ أولياءه منها، ويُبقي أعداءه فيها، فإذا ذهب منها الصدِّيقون الذي يندفع العذاب بدعائهم وتدفع البلايا ببركاتهم يسقط عليهم بعد ذلك قوله الحق بالغضب وهلاكهم، وأيضًا إذا أراد الله أن يخرب قلب المريد سلَّط عليه عساكر هوى نفسه، وجنود شياطينه؛ حتى يدوروا في أرض القلب، ويخربوها بسنابك خيول الشهوات، وآفات الطبيعيات والخطرات، نعوذ بالله منها.

قال بعضهم: أهلكنا خيارها، وأبقينا شرارها.

وقال أبو عثمان: إذا أخرج الله أمر المعاصي من القلوب فإنه يخاف على الخلق إذ ذاك الهلاك[1].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ

---

(١) المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها؛ ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلَّبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعًا، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدمَّرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصَّ المترفين: أي المتنعِّمين؛ لأن الفقراء تبعٌ لهم، والناس على دين ملوكهم، والسمك يتغيَّر من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضًا؛ فهم أُسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداهنة، أو السكوت عن الحق، وفيه إشارة إلى قرية القالب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلُحت؛ صلُح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾: من مال إلى الدنيا أراد حظ الأدنى؛ كأنَّه استعجل لطلب العاجلة عن الآجلة من خسَّة طبعه ودناءة همته؛ وذلك من قلة معرفته بزوالها وبلائها والعذاب والحساب من أجلها، فعجَّل الله بعض مراده له في الدنيا لحرمانه عن الآخرة والدرجات العلى، ولم يكن مظفرًا بمراده أيضًا من مأموله؛ لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

قال الواسطي: في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة التأييد زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الحق سقوط صفات العبد.

ثم وصف مريد الآخرة بعد تركه للدنيا ولذاتها بأن سعيه مشكور وعمله مبرور بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، فجعل هاهنا شرطين في إرادة الآخرة: شرط السعي، وشرط الإيمان أي: ينبغي له أن يكون سعيه على نعت مشاهدة الآخرة، ورؤية الغيب واليقين الصادق؛ حتى يكون سعيه مقرونًا برؤية ما وعد الله له من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة؛ حتى يكون عمله وسعيه على وصف حظ القلب والروح.

وأيضًا معنى قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارفٌ بالله وبصفاته: عالمٌ بعمله لله، لا يعمل إلا بالعلم، ولا يسعى إلا بالشوق إلى الله وإلى جواره والبقاء في المشاهدة، والسعي المشكور أن ينكشف لصاحبه مشاهدة الحق في سعيه نقدًا في الدنيا، فإنَّ تأثير القبول ظهور أوائل الكرامات، وبروز لطائف أنوار المشاهدات.

قال القاسم: شرط الإرادة بحسن السعاية؛ لأنَّ لكل طائفةٍ إرادة الآخرة وسعيها، وهو الذي يسعى على الاستقامة وما توجبه عليه الشريعة، وشرط السعي بالاستقامة، وشرط الاستقامة بالإيمان؛ لأنَّ كل من أراد الآخرة وقصد قصدها فليستقم عليها، رُبَّ قاصدٍ مستقيمٍ في الظاهر خلعة الإيمان عارية عنده، وكم من ساعٍ حسن السعي غير مقبولٍ فيه سعيه.

وقال بعضهم: السعي في الدنيا بالأبدان، والسعي إلى الآخرة بالقلوب، والسعي إلى الله بالهمم.

وقال أبو حفص: السعي المشكور ما لم يكن مشوبًا برياءٍ ولا سمعةٍ ولا رؤية نفسٍ ولا طلب ثوابٍ، بل يكون خالصًا لوجهه لا يشاركه في ذلك شيءٌ سواه، فذلك السعي المشكور،

ثمَّ بيَّن أنَّ ساعي الدنيا وساعي الآخرة كل واحدٍ على جزاء سعيه بقدر همته بقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: وصف عدله سبحانه وتعالى ألا يخيب رجاء كل مؤمن؛ لأن عطاءه غير ممنوع، فجازى الكل بقدر الهمم، فعطاء الدنيا حظ النفوس، وعطاء الآخرة حظ القلوب.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد -عليهم السلام-: عطايا الدنيا غفلة من الله؛ وعطايا الآخرة القربة من الله.

ثم بيَّن سبحانه تفاضل الفريقين بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾: فضَّل العابدين بعضهم على بعض في الدنيا بالطاعات، وفضل العارفين بعضهم على بعض في الدنيا بالمعارف والمشاهدات، فالعباد في الآخرة في درجات الجنان متفاوتون، والعارفون في درجات وصال الرحمن متفاوتون.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨)﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: صفو الوصال التفات بلا عتاب حصول المراد بلا حساب.

قال ابن عطاء: من تولَّاه الله بضرب من العناية وتوالت أعماله كلها لله فله فضل الولاية على من دونه.

قال الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾: فالفضيلة تقع فيما بين الخلق والخلق، لا تكبر عنده الطاعات، ولا تغضبه المخالفات.

قال الواسطي: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالمعرفة والإخلاص والتوكل.

وقال في قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾: بدرجات السوابق يصل العبد إلى

الدرجات العلى، وأعظم درجة في الآخرة التخطي إلى بساط القرب ومشاهدة أعلى وأجل.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: وجب في الأزل للربوبية القديمة العبودية على نعت تجريدها عن رؤية غير الله؛ لأنه كان تعالى في الأزل موصوفًا بالربوبية والأحدية، وحق العبودية لغيره مستحيلٌ بالحقيقة؛ لأن عبودية الحدث للحدث على نعت المجاز، ولا تقع العبودية الخالصة إلا للأزلي الأبدي، والعبودية إفراد القدم عن الحدوث بنعت الإذعان لتصرفه والخضوع بنعت الفناء لعزته، وحديث الوالدين بالإحسان؛ لأنها فعله الخاص، وحرمة فعله في إيجاد خلقه من حرمة صفته، وحرمة صفته كحرمة ذاته، والإحسان للوالدين احترامهما وإجلالهما باحترام الله وإجلاله، وأشياخ الطريقة وآباء أهل الإرادة والإحسان لهم متابعة أمرهم لمحبة الله.

قال بعضهم: العبودية قطع الأرباب وخلع الأسباب، والرجوع إلى الحق بالحقيقة.

قال أبو عثمان المغربي: من تحقق في العبودية ظهر سره لمشاهدة الغيوب، وأجابته القدرة إلى كل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾: بما في نفوسكم من إجلال الله وتعظيم كبريائه، وشهود النعمة على بساط قربه، ورؤية العقل مشاهدًا أنوار آياته، ومشاهدة الروح ضياء صبح صفاته، وسكون السر بنعت الأنس إلى عظيم سبحات ذاته، ونية بذل الوجود لرضاه والصبر والتمكين في قضائه أن يكونوا صالحين مصلحين للخطرات النفسانية بالأنفاس الروحانية، وتقديس الخليقة بقدس المعرفة، والفرار منه إليه بنعت الفناء فيه، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: راجعين منه إليه بنعت الخجل بين يديه وطلب مزيد القربة منه؛ فإنه غفورٌ لمن أتى إليه بنعت التضرع والبكاء والخشوع والتواضع في جلال قدره وعظيم كبريائه.

وفيه نكتةٌ: أن سبحانه ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح ولا الأسرار ولا العقول، أي: هو أعلم بها في نفوسكم من شرها وسجيتها المائلة إلى الاستكبار والإنكار، والفرار من الطاعة، وهواها إلى المعصية، لذلك قال: إن تكونوا صالحين مائلين عن متابعتها راجعين منها إلى الله.

﴿غَفُورًا﴾ أي: غفورًا لمن أتى إليه بتلك الصفة بنعت الندم على ما سلف من الذنوب طلبًا لمشاهدة الغيوب.

قال ابن عطاء: فيها إيمان لها أو ليس فيها إيمان، إيمان جحود أو إيمان قبول، إيمان تقليد أو إيمان حقيقة ومشاهدة.

قال سهل: أي الذنوب من رجع إليه من عبيده غافرًا ولهم راحمًا.

قال أبو عثمان: الأوب الدعاء.

قال بعضهم: الأوّاب المتبرئ من حوله وقوته، المعتمد على الله في كل نازلة.

ثم ذكر سبحانه بعد بر الوالدين بر أقرباء المعرفة بالحقيقة بعد ما في الآية من رسوم الظواهر، ومساكين المريدين، وأبناء السبيل بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، حقوق هؤلاء تربيتهم في الطريقة بذكر الحقائق من المعاملات والأحوال والمعارف والكواشف والعلوم الغيبية لهم، فذوو القربى إخوان المعرفة الذين وصلوا معالي المقامات، والمسكين المريد الصادق الذي سكنه لطف الله عن طلب غير الله، وابن السبيل المحب الصادق، فحق العارف نشر الأسرار، وحق المسكين ذكر الأنوار، وحق المحب ذكر شمائل المحبوب، زيادة لتمكين العارفين، وشوق المحبين، ورغبة المريدين.

وأيضًا: ذو القربى الروح، والمسكين العقل، وابن السبيل القلب، فحق الروح السماع الطيب، والجمال الحسن والطيب والريحان، وحق العقل الفكر والتفكر، وحق القلب الذكر والتذكر.

وأيضًا: حق الروح الفراغة، وحق العقل الطاعة، وحق القلب الاستئناس بالخلوة لطلب المشاهدة، والروح ذو القربى؛ لأنَّه كان في بدء الأول في القربة والمشاهدة قبل خلق الخلق، والمسكين العقل؛ لأنَّه فقيرٌ من إدراك حقيقة الوحدانية، والقلب ابن السبيل؛ لأنه ينقلب في سبيل الصفات لطلب عرفان الذات.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا
(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوٓا۟
أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا۟
ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الإشارة في الحقيقة أنه تعالى أدَّب حبيبه في القبض والبسط والمنع والعطاء، أن القبض والبسط أن يكونا على وفاق الأمر في الخاطرة لا على صورة الرسوم من حيث الظاهر، فربما يقبض من رسم وهو غير مأمور به، وربما يبسط وهو غير مأمور به، فالعارف الصادق خازن الله في أرضه، يقبض ويبسط لأمره فيه، إشارة أن العارف الصادق أحقُّ ما حضر من غيره إذا كان محتاجًا

كأنه في سفر الأزل والأبد، ولو أعيي مركبه للبث بلجةٍ عن سير ألف عام، وغيره ليس يساويه في مقام العبودية والمجاهدة: فهو أولى، وهذا كلامٌ ليس من قبيل السخاء والبخل، وليس من سجية الأنبياء والصدِّيقين؛ فإن مذهبهم الإيثار والبذل، وما أشرنا إليه حقيقة حكمة المعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه كيف أدَّب حبيبه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ نفسك بالندم محسورًا منقطعًا عن السير في عالمك.

وفيه إشارةٌ أخرى، أي: لا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك بألا تنشر عند السالكين فضائل المعرفة وحقائق القربة، ولا تبسطها بأن تذكر شيئًا لا يحتملون فيهلكون.

قال أبو سعيد القرشي: أراد الله ﷻ من نبيه ﷺ بهذه الأمة ألا يكون قائمًا بشرف البسط والسخاء، ولا قائمًا بنقض المنع والإمساك، وأن يكون قائمًا به في جميع الأحوال.

قال بعضهم: لا تبخل بما ليس لك، ولا تمن بالعطاء، فإنَّ الملك لنا على الحقيقة، وأنت القاسم تقسم فيهم حقوقهم، قال النبي ﷺ: «الله يعطي وأنا قاسم»[1].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: العهد عهد الأزل وقع بين كينونة الأرواح في عالم الأفراح، قبل كون الأشباح بينهما، وبين الحق العهد صدر من الحق

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٤).

معها بألا يشتغل بغير الله أبدًا.

قال: أوفوا بمعاهد الأول؛ فإن ذلك مسئولٌ عند كل نفسٍ، ومطالبٌ عند كل حركةٍ، فعهد المحب المحبة، وعهد العارف المعرفة، وعهد الموحد التوحيد، وعهد المريد الإرادة، ولكل عهدٍ رعايةٌ، فعهد المريد بذل الوجود، وعهد المحب الصبر في المفقود، وعهد العارف تبرؤ الهمة عن الدارين، وعهد الموحد إفراد القدم عن الحدوث والفناء في بقاء الحق.

قال حمدون القصَّار: مَنْ ضيع عهود الله عنده فهو لآداب شريعته أضيع؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

وقال يحيى بن معاذ: لربك عليك عهودٌ ظاهرًا وباطنًا، فعهدٌ على الأسرار ألا يشاهد سواه، وعهدٌ على الروح ألا يفارق مقام القربة، وعهدٌ على القلب ألا يفارق الخوف، وعهدٌ على النفس في أداء الفرائض، وعهدٌ على الجوارح في ملازمة الأدب، وترك ركوب المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد العهد الوفاء في صدق الأعمال والأقوال بقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الإشارة فيه إلى أشباح المعرفة ألا ينقصوا ما عندهم من ذخائر العلوم على المريدين بما يوافق حالهم، وألا يملُّوا من نصيحتهم وتأديبهم، ثم يحذر أوساطهم أن يزنوا دعواهم بالقسطاس المستقيم من المعاملات؛ حتى لا تكون دعواهم خاليةً عن الأعمال والكيل الوافي، الإخلاص والقسطاس المستقيم الصدق من كان في وزن الأعمال وكيل الأحوال مخلصًا صادقًا يعطيه الله لطائف كرمه وجوده ما لا يحصى عددها، ويصف له جميع الخلائق؛ لأنه منصف ينصف مع الله.

قال بعضهم: أوف الكيل؛ فإن وزنك موزونٌ وكيلك مكيلٌ، إنْ وفيت وُفِّيَ لك، وإن نقصت نقص عنك[1].

ثم أدَّب نبيه ﷺ بألا يحكم بما لم ينكشف له بالحقيقة بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ العارف معاتبٌ مأخوذٌ من حيث الظاهر والباطن، فالظاهر المعاملات، والباطن الحالات، مُطالبٌ بالصدق فيها، لم

---

(١) قال ابن عجيبة: أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يُخرجه ، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيَّره، وإن كان فيه ضررٌ بادَرَ إلى محوه من قلبه ، قبل أن يصير هماً أو عزماً، فيعسر رده. البحر المديد (٤/ ٣٤٩).

يذكر اللسان مع الحواس الأخرى ظاهرًا، ولكن في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تخبر من شيء، لا تعلم بقلبك، ولا ترى بعينيك، ولا تسمع بأذنك، فإنهن مسئولات جميعًا، اللسان مسئولٌ بالدعوى، والعين مسئولةٌ بالنظر بغير الاعتبار، والسمع مسئولةٌ عمّا تسمع من غير ما ينفع به، والفؤاد مسئولٌ عما يجري عليه من غير ذكر الله.

قال الواسطي: لا تخبر عنا إلا على طريق الحرمة، ولا تجاوز فيه محل الإذن.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: مَنْ استقرت المعرفة في قلبه فإنه لا يبصر في الدارين سواها، ولا يسمع إلا منه، ولا يشغل إلا به.

وقال الفارسي: قال بعض الحكماء: اطلبوا من العلم حالكم، ومن حالكم يومكم، ومن يومكم ساعتكم، ومن ساعتكم قلوبكم، ومن ذكركم مرادكم، ومن مرادكم بغيتكم، حتى تكونوا من الصدِّيقين، واطلبوا في كل هذه الأشياء خطراتكم، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: إن الله سبحانه أوجد الخلق بقدرته القديمة الأزلية، والمشيئة السابقة، والإرادة القائمة بذاته وعلمه وحكمته، فخرج الكون من العدم بما ظهر عليها من صفات القدم، فباشر أنوار قدرته الوجود، فأثَّرت قدرته ومباشرتها في الأشياء الأرواح الحضرتية، والعقول الربانية، والألسنة الجبارية، والمعرفة الأبدية، ورفع الحجاب من بينها وبين معدن القدرة ومصادر الفعل، فشاهدت الأشياء مصادرها، فاهتزت أرواحها بنعت عشقها إلى معدنها، وبكلمة ألسنتها، وتقدس خالقها، وتقديس بارئها وتسبيح صانعها، وذلك من حياة فائضة شائعة من تواثير الحياة الأزلية، فالكل في حياتها قائمةٌ بتلك الحياة مُسبِّحةٌ لصانعها بتلك الألسنة، وذلك من استيلاء غواشي أنوار القدرة، وسبحات العظمة عليها؛ فالسماوات تسبح له بلسان العظمة، والأرض تسبح له بلسان القدرة، ومن فيهن يسبح له من ذوات الأرواح، والحياة بألسنة الصفات، والأفعال على قدر مراتبهم، وجميع الأشياء تسبح له الناميات والجمادات بالظاهر من قول أهل الرسوم لا من قول أهل المعرفة: يسبح له بلسان الأوصاف والأسماء والنعوت، والعارفون من بينهم يسبحون له بالألسنة الذاتية؛ لأنهم في شروق شموس الآزال، وأنوار طلوع أقمار الآباد، ولكن لا يعرف تسبيح الجميع إلا من تجلِّي الحق لسره وروحه وعقله وقلبه وصورته بجميع الذات والصفات، وللأشياء ألسنة روحانية ملكوتية يسبح الحق بها بلغات غيبية، وإشارات أزلية، لا يسمعها إلا أهل شهود الغيب الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق، وتصديق ما ذكرنا في تسبيح

الجمادات ما روى أنس بن مالك قال: «كنَّا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفًّا من حصى يسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد أبي بكر حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد عمر فسبَّحن حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا»(١).

والدليل على صدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أي: سبِّحي معه، ومعروفٌ أنَّ الجبال سبحن بتسبيح داود عليه السلام.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه -عليهما السلام- قال: «مرض رسول الله ﷺ، فأتاه جبريل عليه السلام بطبق فيه رمان وعنب، فأكل النبي ﷺ فسبَّح، ثم دخل الحسن والحسين فتناولا منه فسبَّح العنب والرمان، ثم دخل عليٌّ فتناول منه فسبَّح أيضًا، ثم دخل رجلٌ من أصحابه فتناول فلم يسبح، فقال جبريل: إنَّما يأكل هذا نبيٌّ أو وصيٌّ أو ولد نبيٍّ»(٢).

وأصدق التصديق قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ من حلمه وغفرانه عرف المخلوقات كلها نفسه بالصفات القديمة الأزلية الأبدية، ولولا حلمه وغفرانه ما كان الكون، ولم يكن له لسان يذكره، ولكن بكرمه ورحمته وهب الكل من سلطانه وبرهانه لسانًا يسبح بحمده، وحمده شاملٌ على كل ذرةٍ، وثناؤه في لسان كل ذرةٍ، سبحان الغني المحسن وهب عطاءه العميم والكريم القديم بغير استحقاق من الكون ولا يبالي.

قال أبو عثمان المغربي: المكونات كلها يسبحن الله باختلاف اللغات، ولكن لا يسمع تسبيحها، ولا يفقه عنها ذلك إلا العلماء الربانيون، الذين فتحت أسماع قلوبهم.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لقلّة النظر والفكر في ملكوت الأشياء، وعدم الإصغاء إليهم، وإنما يفقه ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾: لا يعاجلكم بترك التسبيح في طلب، كما لا تكبر وإظهار خواصكم، فإن من خواصكم تفقه تسبيحهم وتوحيده كما وحدوه.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر لكم غفلتكم وإهمالكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ

(١) رواه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٢٠٧).

(٢) لم أقف عليه.

ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ معنى الآية: إذا قرأت القرآن جعلنا بين فهم الكتاب وشرفك المذكور في القرآن مع معاني حقائقه، وبين قلوبهم وعقولهم وأرواحهم حجابًا من غيرتنا، حتى لا يرون بأبصار أسرارهم عرائس الصفات، ولا يسمعون بآذان قلوبهم لطائف حكم الخطاب، وإذا كان ﷺ قرأ القرآن صار منورًا بنور الصفات، موشحًا بتجليها، مزينًا بحقائقها من حيث كان شربه من سواقي الصفات، وحظُّه من مشاهدات الذات، وإذا بلغ إلى ذلك المقامات في قراءته وتلاوته وحسن صورته غار الحق عليه أن ينظر إلى وجهه أحدٌ غيره، ولو رآه أحدٌ بهذا الوصف طاش عقله وطار روحه من هيبة الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ وإذا استترت بأستار كلامنا صرت مستورًا عن أعين المبطلين، ومحصنًا عن تناول المغضبين والمنكرين، ورُبَّ صادقٍ فرَّ من العدو إلى ستر القرآن، فكان مستورًا من جميع الضرر مثل أنه يقول: بسم الله، فيكون مستورًا عن أعين الخلق، وهذا وصف الأخفياء الأتقياء.

قال بعضهم: مَنْ تحصَّن بالحصن فهو في أحسن حصنٍ، ومَنْ تحصَّن بكتابه فهو في أحسن حصنٍ، والمضيع لوقته مَنْ تحصن بعلمه أو بنفسه أو بجنسه؛ فيكون هلاكه من موضع أمنه.

وكان أبو يزيد إذا قرأ هذه الآية قال لأصحابه: تدرون ما ذلك الحجاب؟ هو حجاب الغيرة، قال النبي ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله»[1].

وتصديق ما ذكرنا في حقيقة الآيتين قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾: إذا ذُكر الحق بصفات الحق بنعت الوحدة وإفراد قدمه عن الكون بحيث انفرد الحبيب بفردانية الحبيب، وتوحد بوحدانيته، واتصف بصفته، وشاهد إفراد ذاته، صار وجوده وحدانيًا ربانيًا ألوهيًا جبروتيًا ملكوتيًا، يزول كل ما قورن به من

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦٩٦)، ومسلم (٤/ ٢١١٤).

الحدثان، ويفارق منه كل شيطان وسلطان.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: لقصور نظرهم عن إدراك الروحانيات، وقصر همتهم على الجسمانيات، ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ من الجهل وعمى القلب، فلا يرون حقيقة القارئ وإلا آمنوا، وإنما لا يبصرونك؛ لأنهم لا يحسبونك إلا هذه الصورة البشرية، لكونهم بدنيين منغمسين في بحر الهيولي، محجوبين بالغواشي الطبيعية، وملابس الصفات النفسانية عن الحق وصفاته وأفعاله؛ إذ لو عرفوا الحق لعرفوك، ولو عرفوا صفاته لعرفوا كلامه، ولم تكن على قلوبهم أكنة من الغشاوات الطبيعية، والهيئات البدنية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، ولو عرفوا أفعاله لعلموا القراءة، ولم يكن في آذانهم وقرٌ؛ لرسوخ أوساخ التعليقات، ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ لتشتت أهواؤهم، وتفرقت هممهم في عبادة متعبداتهم من أصنام الجسمانيات، والشهوات، فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة، واحتجابها بها.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ إذا وصل العارفون إلى مشاهدة الحق حين فارقوا من الدنيا وغابوا في جماله وجلاله واستغرقوا في بحار أوليته يناديهم الحق يوم العرض الأكبر: «يا أحبائي وعرفائي وأصفيائي وأوليائي احضروا ساعة مواقف رؤية صنائعي وأفعالي في يوم الحشر، وانظروا آثار ربوبيتي في خلقي»[1]، فيستجيبوا بلسان الثناء والحمد له وعليه بما وجدوا منه من لطائف قربه ولذائذ جماله وجلاله شبه السكارى، ويقولون: بعزتك وجلال مجدك وكبريائك ما رأيناك لمحة، اتركنا من مشاهدتك حتى نراك لحظة، وربما عاشوا في جماله ألف سنة، واستقلوا ذلك لعظيم حلاوة وصله، ولذائذ عيشهم في قوله: لم يعرفوا مرور الزمان، وانقلاب الملوان، لذلك قال سبحانه: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الحق ما أطيب ذلك العيش حيث نسوا مرور أعمال الوصال.

ألا ترى إلى قول القائل:

شـــهورٌ ينقـــضينَ ومَـــا شَـــعرنَا بأنـــــصَافٍ لهـــــنَّ ولا سِرَار

وفيه نكتةٌ أخرى: أن العارفين محبوسون في الدنيا، فإذا دعاهم فيستجيبون داعي الحق بحمده، ويقولون: الحمد لله الذي خلَّصنا من حبس الهجران، ومكان الحرمان، وجوار الشيطان، وورطات الطغيان، وعلّة الزمان والمكان، ومصاحبة الحدثان، كأنهم يجيبون داعي الحق مكان الجواب بلبيك بقولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

وفيه إشارةٌ: أنَّ الجمهور في ظنون وحسبان من أمر المشيئة وجريان الأقدار، ووقوع الرضا والسخط، فإذا دعاهم الحق إليه ورأوه بوصف الرضا وزوال الخطر هيجتهم رؤيته إلى الحمد والثناء عليه؛ حيث يقع الأمر بخلاف ظنونهم فيه؛ لأن أمر العاشق عند المعشوق أسهل ممَّا يظن العاشق، وسبب جوابهم بالحمد أيضًا لا بالتنزيه والتقديس، أو كل ذكر من وصف صفاته؛ لأن جميع ذلك يتعلق بالمعرفة، وهم كانوا في ذلك مقصرين؛ حيث لم يذكروه بالحقيقة، ولم يعرفوه بالحقيقة، ولم يعبدوه بالحقيقة، فلمَّا رأوا جميع الحقائق فانيةً عند كشف مجد جلاله يقولون في جواب مناداة الحق: الحمد لله بما حمد نفسه في الأزل، حيث امتنع بجلاله عن معرفة كل عارفٍ، وذكر كل ذاكرٍ، وبأنه ليس للحدثان إلى معرفته طريقٌ، كان حمدهم ذهابهم عن رؤية أعمالهم وحالاتهم ومعارفهم وعلومهم بالله، فشكروه به؛ لأنهم ما نالوا من مواهبه السنية بغير علّة الحدثية.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: تتعلق إرادته ببعثكم، فتبعثون في

---

(١) لم أقف عليه.

أقرب من طرفة عينٍ، حامدين له بحياتكم وعلمكم وقدرتكم وإرادتكم حمدًا، واصفين له بالكمال بإظهار هذه الكمالات، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في القبور والمضاجع لذهولكم عن ذلك الزمان، كما يجيء في قصة أصحاب الكهف، أو في الحياة الأولى، لاستقصاركم إياها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، فيتناول اللفظ القيامات الثلاث، إلا أن الآية السابقة ترجح الصغرى.

قال بعضهم: مَنْ أسمعه الحق الدعوة ونَبَّهه للجواب، ومَنْ لم يسمعه الدعوة كيف يجيب مَنْ لم يسمع!

وقال الجنيد في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾: يقولون: الحمد لله الذي جعلنا من أهل دعوته.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ علمه سبحانه كان أزليًّا قبل وجود المعلومات، خارجًا عن جميع العلّات، اختار في علمه بعلمه وإرادته جواهر أرواح المقربين والعارفين من بين البرية بشرف قبول معرفته واستعداد حمل أمانته، وجعلها في أماكن غيب طائرة في مزار قدمه، وأراها منازل العبودية والامتحان من فيض قهره ولطفه، فحبسها بعضًا في مقام المشاهدة، وحبسها بعضًا في مواقف الوصلة، وحبسها بعضًا في منازل الدنو والقربة، وهو كان عالمًا بشوق الشائقين إليه، وداء المحبين لديه، واستئناس المستأنسين به، واستغراق العارفين في بحار عظمته، وحيرة الموحدين في ميادين أزليته، فيرحم بعضهم برؤية حسن الجمال، حتى بقوا معه بنعت عيش السرمدية، ويعذب بعضهم بأن يفنيهم فيه من تسلط سطوات العظمة عليهم حتى لا يدركوا في محل الفناء فيض البقاء، وذلك من غيرته على نفسه، فرحمته على العارفين كشفٌ ووصالٌ بلا حجابٍ، وعذابه عليهم غلبة النكرة على قلوبهم، وهذا دأبه مع أهل ولايته أبدًا، وحديث سبق العناية؛ حيث اختار أهل وداده بمعرفته، خلَّصهم من عذاب فرقته، وإذا أراد طرد الغافلين شغلهم بغيره عن الإقبال عليه ورؤيته ورحمته.

قال القاسم: سبق علمه في الخلق بالرحمة والعذاب، ولا مبدل لما أراد، وقد وسم الخلق بسمة الرحمة والعذاب، ويرجع إلى منتهاه بما قد جرى له في مبتداه.

وقال الأستاذ: سدَّ على كل أحدٍ طريق معرفته بنفسه ليعلّق كل قلبه بربه، فجعل العواقب على أربابها مشتبهةً، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قدَّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وفي ذلك ترجيح للأمل أن يقوى.

تصديق ما ذكرنا في حقيقة الآية وتفضيل مقاماتهم بعضًا على بعض قوله سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بيَّن سبحانه أنه أعلم بما أعطى ملائكته في السماوات من مقام الخوف والعبودية، واختار لهم شرف القربة، وفضَّل بعضهم على بعض في الذكر والتسبيح والعبادة والخوف والخشية، وهو أعلم بما هو أعطى مَنْ في الأرض مِنْ الشريعة والطريقة والحقيقة، وفضَّل بعضهم على بعض في مراسم السلوك، وأعطى الشريعة للعموم، والطريقة للخصوص، والحقيقة لخصوص الخصوص، فلمَّا تم نظم الولاية رقى الأمر إلى درجات النبوة، فأعطى المرسلين خبر غيب الغيب، وأعطى النبيين خبر الغيب، وكشف جميع مراتب القربة، وأدارهم في ملكوته بالهمم، وسيرهم في ميادين جبروته بالأرواح والأسرار، وفضَّل بعضهم على بعض في الدنو ودنو الدنو، والتجلّي والتدلي والكلام والخطاب والمعارف والكواشف، فبعضهم أهل رؤية القدم وخبره، وبعضهم أهل رؤية البقاء وخبره، وبعضهم أهل رؤية الصفات وعلمها، وبعضهم أهل رؤية الذات ومعرفته، فهؤلاء أهل الأول والآخر والظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فأهل القدم أهل الأول، وأهل البقاء أهل الآخر، وأهل الصفات أهل الظاهر، وأهل الذات أهل الباطن، فاصطفى آدم ﷺ بعلم الأسماء والنعوت، ومباشرة الصفة، وتجلي الذات، فصار في محل عين الجمع، لقوله ﷺ: «خلق الله آدم ﷺ على صورته»[1]، واصطفى نوحًا ﷺ بالسلطنة والمعجزة وإجابة الدعوة، واصطفى الخليل ﷺ بالخُلّة والسماع ومقام الالتباس؛ حيث قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام :٧٦]، وإفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]، واصطفى موسى ﷺ بالخطاب الأصلي وسماع الكلام الأزلي والتجلّي، واصطفى عيسى ﷺ بدرجة القدس، وجعله روح القدس من كلمته العلية الأزلية، واصطفى داود ﷺ بالزبور، والذي فيه بناء الذات والصفات، وأعطاه مقام العشق وحسن الصوت الذي من مزامير الصفات وألحان بلابل القدم، واصطفى سليمان ﷺ بالملك والتمكين، واصطفى يوسف ﷺ بكسوة حسن جماله الذي أشرق في وجهه من طلوع صبح الصفة في عالم الفعل، واصطفى محمدًا ﷺ بجميع ما أعطاه إياهم، وخصَّه بالمعراج، والدين، والتجلّي، والتدلي، والمحبة الكبرى، والمجلس الأعلى، والمقام الأدنى؛ فكان قاب قوسين أو أدنى، فرمى بقوس الأزل ما وهبه الله إلى الجمهور، ورمى من قوس الأبد ما وهبه الله له، فبقي بين القوسين بعد ذهاب الكونين، فصار هدنا بقوس قاب قوسين؛ لأنَّ هناك لا يليق إلا

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

صاحب الرفيق الأعلى، والمخبر عن مقام الأدنى، المذكور اسمه بعلّة محمد سيد الورى ﷺ بعدد ذرات ما بين العرش إلى الثرى.

قال محمد بن الفضل: تفضيل الأنبياء بالخصائص كالخُلّة والكلام والمعراج وغير ذلك، فضَّل البعض منهم على بعض، وفضل محمدًا ﷺ على الجميع، ألا تراه يقول: «أنا سيِّدُ ولد آدمَ ولا فخر»(١)، كيف أفتخر بهذا وأنا بائنٌ منهم بحالي، وأقف مع الله بحسن الأدب؟ لو كنت مفتخرًا لافتخرت بالحق والقرب والدنو منه، فلمَّا لم أفتخر بمحل الدنو والقرب كيف أفتخر بسادة الأجناس.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ ردَّ الله بهذه الآية رغام التغيير على أنوف المبطلين، الذين يشيرون إلى غيره بالعبودية من الملائكة والأنبياء، مثل عيسى ﷺ وعزير وبعض من مؤمني الجن، وهؤلاء الذين يشير إليهم الظلمة بأنهم معبودون، فإنهم على باب كبرياء الأول يعجزون تحت أنوار عظمته، حتى يصيروا في حد الفناء من عظمة الله وجلاله، يطلبون وسيلة قربة من الله تشفعهم عنده؛ لأنهم يخافون من سلطان قهره، ويطمعون في كشف جماله بقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وأخص الوسيلة كرمه القديم وإحسانه العميم، ثم بعد ذلك أقرب الوسيلة إليه من كان معرفته به أكثر، وخوفه منه أوفر، ومقام الوسيلة مقام الشفاعة، وتلك خاصة لمحمد ﷺ وهي المقام المحمود، وكل شفاعة منه تتشعب إلى غيره، وهو أقرب الوسائل إلى الله، كان الكل يجعلونه وسيلة إلى الله الأنبياء والملائكة وغيرهم.

ووصف الله طلاب هذه الوسيلة بالخوف والرجاء، والخوف صدر من أنوار عظمته، والرجاء صدر من أنوار جماله، فالصادق يطير إلى الحق بجناح نور الجمال والجلال، وهما وسيلتاه منه له إليه يقربانه من الله، فينظر إلى الجلال فيفنى، وينظر إلى الجمال فيبقى، وبهما نظام العبودية، وعرفان الربوبية.

قال سهل: الرجاء والخوف زمامان على الإنسان، فإذا استويا دامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر.

ألا ترى إلى النبي ﷺ يقول: «لو وُزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا»(٢).

قال بعضهم: رجاء الرحمة هو طلب الوصول إلى الرحيم، وخوف العذاب هو الاستعاذة من قطعه، فلا عذاب أشدُّ من ذلك، ما سهل رجاء الرحمة في الظاهر الجنة، وفي

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٢) بنحوه.

الحقيقة حسن المعرفة بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الكرامات للنفوس على مرتبتين: الأولى: لها لطمأنينتها في إيمانها بالله، والأخرى: لها لامتناعها عن معصية الله، رؤية آيات العظمة للنفس تخويفٌ، وللعقل تحذيرٌ، وللقلب خشيةٌ، وللروح ترويحٌ واستئناسٌ، وللسر إجلالٌ وتعظيمٌ، ولسر السر معرفةٌ وتوحيدٌ ويقينٌ، وشاهده الذات بعد الصفة.

قال الحارث المحاسبي: الآيات التي يظهرها الله في عباده رحمةٌ على السابقين، وتنبيهٌ للمقتصدين، وتخويفٌ للعاصين.

سُئل أحمد بن حنبل عن هذه الآيات: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؟ قال: موعظةً وتحذيرًا، والآيات هي الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك لعلك تتغير بحال أو تتعظ في وقت.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ إلى آخره تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام؛ لأن الاستعدادات متفاوتةٌ، فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه أي: استخفه بصوته يكفيه، وسوسه وهمس بل هاجسه، وله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إشارة الحقيقة مع العارف إذا وقع في بحر الديمومية والأزلية، واستغرق في طوفان الأولية، وفني في سطوات الألوهية، تبرأ مما له من الكرامات، والولايات، والفراسات، والمقامات، والحالات، والمكاشفات، والمعارف، ودعاوي الاتحاد والاتصاف، ويلتجئ منه إليه، فلما خرج من تلك الأحوال الرفيعة إلى مقاماته الشريفة رجع إلى رؤية الأحوال والمقامات، فيدَّعي ما كان مدَّعيًا

من معرفة الإلوهية، وهكذا حال من خرج من عنده الأسد إذا كان في أجمة، لكن تفحَّص حاله عند الأسد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ وإذا رجعنا إلى حال العبودية فإنَّ صدق المعرفة هناك الاستقامة فيها، والتساوي في رؤية النعماء والبلوى.

قال ابن عطاء: ليس بخالص لله من لا يكون في حاله الرجاء مع الله كحال الشدة، ومن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، وهو من العبيد السوء الذي لا يقوِّمه إلا الأدب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ كرامته سابقةٌ على كون الخلق جميعًا؛ لأنها من صفاته واختياره ومشيئته الأولية؛ أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته الخلق كلهم في حيز الكرامة الرحمة للعموم والكرامة للخصوص، خلق الكل آدم وذريته وخلق آدم وذريته لنفسه؛ لذلك قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:٤١] جعل آدم ﷺ خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن في خدمتهم، والأمر والنهي والخطاب معهم، والكتاب الذي أنزل إليهم، والجنة والنار والسماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم وجميع الآيات خلق لهم، والخلق كلهم طفيلٌ لهم.

ألا ترى يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك لما خلقت الكون»(١).

ومن ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالنطق والتمييز، والعقل والمعرفة.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يسَّرنا لهم أسباب المعاش، والمعاد بالسير في طلبها فيهما، وتحصيلها.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المركبات التي لم ترزق غيرهم من المخلوقات.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: ماعدا الذوات المقدسة من الملأ الأعلى.

وأما أفضلية بعض الناس كالأنبياء على الملائكة المقربين فليست من جهة كونهم بني آدم، فإنهم من تلك الحيثية لا يتجاوزن مقام العقل؛ بل من جهة السر المودعة فيهم المشار إليه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠]، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة بواسطة الجمعية التي فيه أي: مقام الوحدة، وحينئذ ليس هو بهذا

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٢٧) بنحوه.

الاعتبار من بني آدم.

كما قيل:

فقال من أنت قلت أنت ... فلي فيه معنى شاهد يأبوني

بل هو عين المكرم المعروف كما قيل:

رأيت ربي بعين ربي ... فقال من أنت قلت أنت

وقد فني ابن آدم في هذا المقام، وما بقي منه شيءٌ، وإلا فما للتراب ورب الأرباب.

أو: ولقد كرمنا بني آدم بالتقريب ومعرفة التوحيد، وحملناهم في بر عالم الأجساد، وبحر عالم الأرواح بتيسيره فيهما لتركيبه منهما، وإرقائه عنهما في طلب الكمال، ورزقناهم من طيبات العلوم والمعارف، وفضلناهم على الجم الغفير ممن خلقنا أي: جميع المخلوقات على أن تكون من البيان، والمبالغة في تعظيمه بوصف المفضل عليهم بالكثرة، وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف أي: كثير وأي كثير وهو جميع مخلوقاتنا؛ لدلالة من على العموم.

﴿تَفۡضِيلٗا﴾ تامًا بينًا.

ولهم كرامة الظاهر، وهي تسوية خلقهم، وظرافة صورتهم، وحسن فطرتهم، وجمال وجوههم؛ حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة واستواء القامة، وحسن المشي والبطش، واستماع الكلام والتكلم باللسان، والرؤية بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم التي صدرت من حسن اصطناع صفته الذي قال: «خلقت بيدي»[1].

فنور وجوههم من معدن نور صفته، فأنوار الصفات نورت آدم ﷺ وذريته، فيكونون من حيث الصفات والهيئات والحسن والجمال متَّصفين متَّخلقين بالصفات؛ لذلك قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[2] من حيث التخلق لا من حيث التشبه.

ولهم كرامة الباطن، وهي العقل والقلب والروح والنفس والسر، وفي هذه الجنود خزائن ربوبيته، فالنفس مع جنود قهره، والعقل مع جنود لطفه، والقلب مع جنود تجلي صفاته، والروح مع جنود تجلي ذاته، والسر مستغرقٌ في علوم أسراره، فالكل مكرمةٌ بكشوف الصفات ممن له استعداد رؤية الصفات، ومن له استعداد رؤية الذات فهو في مشاهدة الذات؛ فبكرامته عرَّف العقول آياته، وعرَّف النفوس عبوديته، وعرَّف القلوب صفاته، وعرَّف الأرواح جلال ذاته، وعرَّف الأسرار وعلوم أسراره، فأعطى العارفين من سمعه أسماعًا، ومن بصره أبصارًا، ومن كلامه خطابًا، ومن علمه قلوبًا، ومن سره أسرارًا، ومن أنوار صفاته

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٥).

(٢) تقدم تخريجه.

أرواحًا، ومن أنوار أفعاله عقولاً، فخلقهم بخلقه، ووصفهم بوصفه، فمن حيث الاتصاف متصفون، ومن حيث الاتحاد متحدون، ومن حيث العبودية هم في الربوبية يطيرون بأجنحة الأزلية في ظلال حيزوم القدم مع الحق إلى أبد الأبد، فأي كرامةٍ أشرف مما ذكرت يا كريم بن الكريم، يا آدم بن آدم، يا عارف القلب تعرف من أنت يفنى الناسوت في اللاهوت، ويبقى اللاهوت للناسوت وخاطب اللاهوت مع اللاهوت، العارفون ينظرون إليك من مجالس سرادق مجد الكبرياء، ويفرحون بك في عالم البقاء، طيَّب الله وقتك من أين أنت وأين مأواك، من حيث لا يعرفونك الكل، ثمَّ إنَّ الله سبحانه أسقط العلل والأسباب من مواضع تفضيلهم من حيث كرَّمهم قبله بكرامته ومحبته السابقة لهم، ثمَّ بيَّن عقب كرامته بأنه بعزه وجلاله جعلهم في بر الصفات بمراكب عناياته، وفي بحر اللذات بسفن محبته وكفاياته.

قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أدارهم في براري النعوت والصفات بأنوارها، وأجراهم في بحار الذات بسفن أنوارها، فاستفادوا من براري الصفات معادن المعارف، واستفادوا من بحار الذات أصداف جواهر الكواشف، حملهم في بر العبودية بمراكب المعرفة، وحملهم في بحر الربوبية بمراكب المحبة، وحملهم في بر المجاهدات بمراكب الشريعة، وحملهم في بحر المشاهدات بمراكب الحقيقة، ثمَّ رزق أسرارهم موائد العلوم الغيبية، ورزق أرواحهم فيض الوصلة، ورزق قلوبهم لطائف القربة، ورزق عقولهم حقائق الحكمة، ورزق أشباحهم فيض عناصر فعله عن متابعة عنصر الخليقة بتواتير مياه قدرته، وظلال ليالي رحمته، وأنوار شموس كفايته، وصفاء أنهار كلاءته، فهم على خوان الرحمانية وموائد الكرامة.

قال: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ثمَّ قرَّبهم منه من البرية، وكساهم حلل المغفرة، وجمعهم في دار الوصلة، وأدار الكون له بالخدمة قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ابتدأهم بالبر قبل الطاعات، بالإجابة قبل الدعاء، وبالعطاء قبل السؤال، كفاهم الكل من حوائجهم؛ ليكونوا لمن له الكل وبيده كفاية الكل.

سُئل ذو النون في قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾؟ قال: بحسن الصوت.

وقال الجنيد: بالفهم عن الله.

وقيل: بالخلق، وقيل: بتقويم الخلقة واستواء القامة.

وقال الواسطي: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه؛ لئلا يكونوا في تسخير شيء، ويتفرغوا إلى عبادة ربهم.

وقال جعفر: بالمعرفة.

وقال بعضهم: معنى البر النفس، ومعنى البحر القلب، فمن حمله في النفس فقد أكرمه بنور التدبير، ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، فمن لم يكن له نور التأييد وكان له نور التدبير يكون هلاكه عن قريب.

وقال الواسطي: البر ما أظهر من النعوت، والبحر ما استتر من الحقائق.

وقال: في مشاهدة أبده قسمت الوقتين الفصل والوصل، وهو البر والبحر.

وقال أبو عثمان: الرزق الطيب هو الحلال.

وقال: فضَّلناهم بالمعرفة على جميع الخلائق.

وقال أبو حفص: بأن بصَّرناهم عيوب أنفسهم.

وقال الجنيد: بإصابة الفراسة.

قال السياري: فضَّلنا العلماء على الجهال بالعلم بالله وأحكامه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ إمام كل عارفٍ، مقامه مع الله من حيث الأحوال والخطاب والقربة والوصال والمعارف والكواشف والعلوم والحكم، فيدعو المحبين إلى منازل المحبة، ويدعو المشتاقين إلى منازل الشوق، ويدعو العاشقين إلى منازل العشق، ويدعو العارفين إلى منازل المعرفة، ويدعو الموحدين إلى منازل التوحيد، وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشايخهم، ويدعوهم إلى منازلهم.

قال ابن عطاء: يوصل كل مريدٍ إلى مراده وكل محبٍّ إلى محبوبه، وكل مدَّعٍ إلى دعواه، وكل متمنٍ إلى ما كان يتمنى، ثم هو سبحانه بيَّن أن من لم يعرفه في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: من سمع في الدنيا ذكره ولم يره بنعت ظهور الصفات في الآيات لن يراه بوصف كشف الذات، ومن عمي عن معرفة العبودية في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى عن معرفة الربوبية، ومن عمي في الدنيا عن معرفة الأولياء فهو في الآخرة أعمى عن رؤية منازلهم عند

الله، وهناك هم أضلُّ سبيلاً؛ لأن أولياءه في أكناف غيبه ولا يراهم غيرهم.

قال الجنيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة الفضل ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة الذات.

وقال أيضا: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدة بره ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن رؤية وصال قربه.

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾ إلى آخره أي: نحضر ﴿كُلَّ﴾ طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم، ويتوجهون إليه من المال، ويعرفونه سواء كان في صورة نبي آمنوا به، كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝﴾ [النساء: ٤١]، أو إمام اقتدوا به، أو دين أو كتاب، أو شئت على أن تكون الباء بمعنى مع أو ننسبهم إلى إمامهم، وندعوهم باسمه لكونه هو الغالب عنيهم، وعلى أمرهم المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم.

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: من جهة العقل الذي هو أقوى جانبيه، وبعث في صورة السعداء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾[1] دون غيرهم؛ لاستعدادهم للقراءة والفهم؛ لأن الذي أوتي كتابه بشماله أي: من جهة النفس التي هي أضعف جانبيه لا يقدر على قراءة كتابه، وإن كان مقرًّا بذهاب عقله وفرط حيرته.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصون من صور أعمالهم، وكمالاتهم وأخلاقهم شيئًا قليلاً.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن الاهتداء إلى الحق.

﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كذلك.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ مما هنا؛ لأن له في هذه الحياة آلات وأدواتٌ وأسبابًا يمكنه الاهتداء بها، وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد إن كان ولم يبق هناك شيء من ذلك.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ إلخ هو من باب التلوينات التي تحدث لأرباب القلوب؛ إذ النقصان الموجب للعذاب يقابل الكمال الموجب للذة، فكلما كان الاستعداد أتم والإدراك أقوى كانت المرتبة في الكمال والسعادة اللذة أقوى، فكذا ما يقابله من النقص والشقاوة أبعد

(١) أي: قراءة ظاهرة مسرورين وينتفعون بما فيه من الحسنات ولم يذكر الأشقياء وإن كانوا يقرأون كتبهم أيضا لأنهم إذا قرأوا ما فيها لم فصحوا به خوفا وحياء وليس لهم شيء من الحسنات ينتفعون به.

وأسفل، والألم أشد.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق روح نبيه لَمَّا خلقها قبل كون الكون، فأدارها في بسط ملك الأزل والأبد، فعلم من رؤية الصفات علوم غيب الغيب، وعرف علم المجهول الذي صدر من لطفيَّات الأزل وقهريات الأزل، وعلم في علم العلم أن طريق القهر واللطف منتهاهما وصول عين الذات، ولم يرَ الفراق في أصل القدم بينهما، فلَمَّا عرف الطريقين الواضحين من القدم إلى القدم إلى أبد الأبد بنعت غير تغاير الصفة، وعلم بعد أن كان في محل الرسالة حقيقة طريق الوصول إلى الحق بهما، ولم يرَ الكفَّار مستعدين لطريق اللطف، ووصولهم إلى الحق به كاد بسر سره من علمه بعلم المجهول أنْ يدعوهم بتلك الطريقة إلى الحق؛ لأن المسالك غير معتبرة، إنَّما الاعتبار بالوصول فلَمَّا علم الحق سبحانه أنه يكاد أن يفشي سر سره المكنون في غيب غيبه نهاه عن ذلك؛ لئلا ينتهك ستر الربوبية، ولا تضمحل أحكام العبودية بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أن كدت تميل إلى دعوتهم بطريق المجهول إلى الحق، وذلك حركة سر سر نفس النفس التي غواص قاموس بحر القهريات، ولا تخف: وقل: يا عارف، فإن النبي ﷺ كان في علم ما كان مع تلك النفس التي هي لباس قهر الربوبية، ولا يجوز للعارف الصادق أن يكون خاليًا عنها؛ لأنه يسلك إلى الحق بسر القهر وسر اللطف، ومَنْ لم يسلك إليه بهذين الطريقين لم يكن كاملاً في معرفته، فالعتاب من جهة تحرك سلسلة تلك الأسرار: وهو بجلاله محركها تعريفًا وامتحانًا، التعريف حق العارف، والمعرفة حق المعروف، يعصمهم الله من هتك تلك الأسرار للأغيار.

قال الحسين: خلق الله الخلق على علمٍ منه بهم، وهو علم العلم، وجعل النبي ﷺ أعظم الخلق خلقًا، وأقربهم زلفى، فجعله الداعي إليه والمبين عنه به يصلون إلى الله ظاهرًا وباطنًا وعاجلاً وآجلاً، فثبت الملك بالعلم، وثبت العلم بالنبي، وثبت النبي ﷺ به، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ بنا.

وقال عمرو بن عثمان المكي: قال ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ وهو الشيء بين الشيئين، وهو الخروج من ذا إلى ذا، ولم يخرج من ذا، ولم يدخل في ذا، وكان واقفًا بأمرٍ عظيمٍ، وشأنٍ

عجيبٍ، وعلمٍ غريبٍ، وهو نـزاهة نفسه، وعظيم علمه بربه، فبلغ هذا الخطاب به من الخوف والوجل من ربه؛ حتى كاد أن يساوي خوف الواقعين للمخالفة، وهذا الفرق بين الخواص والعوام أنهم يخافون في الهمة ما لا يخافه العوام في المواقعة.

وقال ابن عطاء: عاتب الأنبياء بعد مباشرة الزلّات، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتباهًا وتحفظًا لشرائط المحبة، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إذ أدلكت الشمس من قهر الجبارية، فسجد في دلوكها لأنوار عظمة الجبار في تلك الساعة، فأمره بسجوده والقيام بين يديه موافقةً للشمس في سجودها لخالقها عند كشف عظمته، فإنّ ذلك الوقت وقت خاصة لكشف العظمة، وهكذا في وقت العصر، فكأنها في وقت دلوكها في الركوع، وفي وقت العصر في السجود إلى وقت غروبها، فإذا غربت وجاءت غسق الليل، ثم هناك غلبة سطوات العظمة، فيسجد له الليل، وتدور النجوم في سجودها إلى وقت الفجر، فإذا طلع الفجر سجد له عمود الصبح الذي لم يكن من الليل والنهار، وفي ذلك الوقت طلوع صبح الجمال والجلال، وهناك يسجدون له الأرواح والأجسام لغلبة روح قدسه وأنسه عليها، وهناك شهود الحق بوصف صفاته.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الشاهد ذاته، والمشهود صفاته، وهذه الأوقات تدل على الإخبار بحفظ الأوقات على السرمدية، وحضور القلب في مشاهد الغيوب.

قال بعضهم: القيام في بعض الأسحار مشهودة من صاحبه، وشاهدة عليه.

وقال الأستاذ: الصلاة بالبدن مؤقتةٌ، والمواصلات بالسر والقلب مسرمدةٌ، فإذا فرغ من حفظ أوقات الليل والنهار على حبيبه بيديه المكاشفات الصفاتية حفظ أيضًا وقت كشوف جلال ذاته له بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَّحْمُودًا﴾ المقصود من تهجد الليل: كشف جمال ذاته للمصلين في جوف الليل، وذلك المقام المحمود.

و﴿عَسَىٰٓ﴾ ها هنا مقام الرجاء ينكشف أنوار جلال ذاته لقلوب العارفين العاشقين في أجواف الليل التي هناك تُسْكَب عبراتهم، وتُصْعَق زفراتهم، يرونه به لا بتهجدهم، هيجهم إلى مقامات الأنس لكشف القدس، فإذا بعثوا هنالك ينسون أنفسهم ويتضرعون بين يديه فيبكون عليه، ويسألون عنه رحمته الكافية الكافة.

قال ﷺ: «إنَّ الله سبحانه يضحك في وجوه المصلين في جوف الليل»[1].

قال الأستاذ: المقام المحمود هو المجالسة في حال الشهود.

ويقال: هو الشفاعة لأهل الكبائر.

ثم علمه دعاء الوسيلة منه إليه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: أدخلني في بحر قدمك بنعت الفناء والتجريد عن غيرك وصدق المحبة؛ لأن هناك مدخل الصدق؛ حيث لا يبقى مني شيء غيرك، وأخرجني بحر الفناء بنعت البقاء حتى أكون باقيًا معك في مشاهداتك، فإن هناك مخرج صدق؛ حيث لا يبقى معي غيرك، وألبسني من أنوار سلطان عزتك قميص الاستقامة؛ حتى لا أكون فانيًا فيك، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

وأيضًا: أدخلني مدخل صدق العبودية، وأخرجني مخرج صدق الربوبية، واجعل لي من لدنك قوة الاتصاف والاتحاد من سلطان كبريائك.

قال سهل: أدخلني في تبليغ الرسالة مدخل صدق ألا يكون لي ميلٌ إلى أحدٍ، ولا أقصر في حدود التبليغ، وشروط وأخرجني من ذلك على السلامة وطلب رضاك منه والموافقة، ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ زينتني بزينة جبروتك ليكون الغالب عليَّ سلطان الحق لا سلطان الهوى.

قال جعفر بن محمد عليهما السلام: أدخلني فيها على حدِّ الرضا، وأخرجني عنها وأنت عني راضٍ.

وقال أيضًا: طلب التولية أن يكون هو المتولي، أي: أدخلني ميدان معرفتك، وأخرجني من مشاهدة المعرفة إلى مشاهدة الذات.

وقال الواسطي: قال المعلّى في شرفه يعني: محمدًا ﷺ ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) بنحوه.

﴿وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾، فأظهر محمد ﷺ من نفسه صدق اللجوء بصدق الفاقة بين يديه، وبصدق اللجوء تزينت الأسرار.

وقال فارس: السلطان هاهنا سلطان على نفسه بقمع هواه، فيلزم جميعها بشاهد الهيبة، فيهلك نفسه بسلطان الوحدانية، وينصر على عدوه بحسن نظر الله له في معاونته، وحمله عن رؤية هواه.

وقال سهل: لسانًا ينطلق عنك، ولا ينطلق عن غيرك، فأجاب الله دعوته، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

وقال جعفر ﵇: حقيقة الفاقة صدق استقامة المدخل فاقة العبودية، والمخرج سعة الربوبية.

وقال الأستاذ: إدخال الصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لله لا لغيره، وإخراج الصدق أن يكون خروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حتى لا ألحظ دخولي ولا خروجي، فلما استقام النبي ﷺ في جميع المعاني أمره الحق أن يخبر الخلق بأنَّ الحق قد ظهر ظهورًا لا شكوك فيه، وارتفع الإبهام والظلام.

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ الحق هو الحق جلَّ وعزَّ، والباطل الكون، والحق العلم، والباطل الجهل، والحق المعرفة، والباطل النفس والهوى، والحق ما بدا من نور تجلي الحق وإلهامه، والباطل هواجس النفس ووساوس الشيطان، فإذا بدت أنوار سلطان بداهة المكاشفة تنمحي آثار النفس وإلقاء العدو.

وقال فارس: الحق ما يحملك على سبيل الحقيقة، والباطل ما يشق عليك أمرك، ويفرق عليك وقتك.

ويقال: الحق من الخواطر ما دُعِي إلى الله، والباطل ما دُعِي إلى غير الله، ومن الحق ما جاء.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ اعلم أن الصلاة على خمسة أقسام: صلاة المواصلة والمناغاة في مقام الخفاء، وصلاة الشهود في مقام الروح، وصلاة المناجات في مقام السر، وصلاة الحضور في مقام القلب، وصلاة المطاوعة والانقياد في مقام النفس، فدلوك الشمس هو علامة زوال شمس الوحدة عن الاستواء على وجود العبد بالفناء والمحض، فإنه لا صلاة في حالة الاستواء؛ إذ الصلاة عملٌ يستدعى وجودًا، وفي هذه الحالة لا وجود للعبد حتى يصلى كما ذكر في تأويل قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

ألا تـرى الـشارع ﷺ كـيف نهى عن الصلاة وقت الاستواء، فإما عند الزوال إذا حدث ظـل وجـود العـبد سـواء عـند الاحـتجاب بالخلق حالة الفرق قبل الجمع، وعند البقاء حالة الفرق بعد الجمع، فالصلاة واجبةٌ.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ﴾ ليل النفس، ﴿وَقُرْءَانَ﴾ فجر القلب، فأول الصلاة وألطفها صلاة المواصلة والمناغاة، وأفضلها وأشرفها صلاة الشهود للروح المشار إليها بصلاة العصر، كما فسرت الصلاة الوسطى أي: الفضلى في قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨] بها، وأرجاها وأخفاها صلاة السر بالمناجاة أول وقت الاحتجاب بظهور القلب؛ لسرعة انقضاء وقتها؛ ولهذا استحب التخفيف في صلاة المغرب في القراءة وغيرها؛ لكونها علامة لها، وأزجر الصلاة للشيطان وأوفرها تنوير الباطن الإنسان صلاة الحضور للقلب المومأ إليها بقرآن الفجر، فإنها في وقت تجليات أنوار الصفات، ونزول المكاشفات، ولهذا استحب التكثر في جماعة صلاة الصبح، وأكد استحباب الجماعة فيها خاصة وتطويل القراءة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: محضورًا بحضور ملائكة الليل والنهار، إشارة إلى نزول صفات القلب وأنوارها، وذهاب صفات النفس وزوالها، وأشدها تثبيتًا للنفس وتطويعًا لها صلاة النفس للطمأنينة والثبات؛ ولهذا سن فيها جعل آية لها من صلاة العشاء السكوت بعدها حتى النوم إلا بذكر الله، وحيث أمكن للشيطان سبيل إلى الوسوسة استحب فيها جعل علامة لها الجهر كصلاة النفس والقلب والسر للزجر، ولا مدخل في مقام الروح والخفاء فأمر بالإخفات.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: خصص بعض الليل بالتهجد.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: زيادة على ما فرض خاصة بك؛ لكونه علامة مقام النفس، فيجب تخصيص بزياد الطاعة لزيادة احتياج هذا المقام إلى الصلاة بالنسبة إلى سائر المقامات، فيقتدي بك السالكون من أمتك في تطويع نفوسهم، ويقوي تمكنك في مقام الاستقامة، كما قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: في مقام يجب على الكل حمده، وهو مقام ختم الولاية بظهور المهدي، فإن خاتم النبوة في مقام محمود أي: الوجود الممكن.

﴿كَانَ﴾ فانيًا في الأصل لا شيئًا ثابتًا، طرأ عليه الفناء ففني، بل الفاني فانٍ في

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧١).

الأزل، والباقي باقٍ لم يزل، وإنما احتجبنا بتوهم فاسد باطل فكشف.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ العقل القرآني الجامع بالتدريج نجوم تفاصيل العقل الفرقاني نجمًا، فنجمًا على الوجود الحقاني على حسب ظهور الصفات أي: نفصل ما في ذاتك مجملًا مكنونًا تفصيلًا بارزًا ظاهرًا عليك؛ ليكون ﴿شِفَآءٌ﴾ لأمراض قلوب المستعدين المؤمنين بالغيب من أمتك، كالجهل والشك والنفاق وعمى القلب والغل والحقد والحسد وأمثالها، فنزكيهم.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تفيدهم الكمالات، والفضائل، وتحليهم المعارف.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الناقصين استعدادهم بالرذائل والحجب الظلمانية، الباخسين حظوظهم من الكمال بالهيئات البدنية والصفات النفسانية.

﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفسهم بصفاتها كالإنكار والعناد والمكابرة واللجاج والرياء والنفاق، منضمة إلى ما لهم من الشك والجهل والعمى والغمة.

قوله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] القرآن خطابه مع أحبابه المرضى من سقم محبته، ومن داء شوقه، ومن رجاء عشقه، ومن أثقال معرفته، وعظم توحيده، فالقرآن شفاء كل مريض منه، ولكل واحدٍ منهم شفاؤه من حيث داءه، فخطاب التشوق شفاء شوق الشائقين، وخطاب المحبة شفاء محبة المحبين، وخطاب المعرفة شفاء جرح قلوب العارفين، وخطاب التوحيد شفاء آلام جراحة أرواح الموحدين، فيسقيهم مفرح الصفات من تسنيم عيون تجلي الذات، فيصححهم من لوعة الفراق بفنون الترياق، وهو رحمةٌ للمؤمنين من حيث الظواهر؛ لأجل المعاملات، ورحمة خاصة للعارفين من حيث الحالات.

قال الأستاذ: القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشك للمؤمنين، وشفاءٌ من داء النكرة للعارفين، وشفاءٌ من لواعج الاشتياق للمحبين، وشفاءٌ من داء القنوط للمريدين والقاصدين.

---

(١) قدَّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلِّقة بالأدعية، ولذا قُيِّد بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمَن لم يتكلَّم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلاً بالنسبة إليه: أي بالفعل كمَن عنده عسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضرير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

وأنشدوا:

وكتابك حولي لا يفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتمُ

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ استنشق منه رائحة الاتحاد، فإنه لمَّا أنعم على العارف بأن جعله متصفًا بصفاته استبشر بروح الأنس، ومباشرة نور القدس، ورأى الحق بالحق في نفس فعله، وهو فعله، ادَّعى من سكر الحال الأنائية، وأعرض عن مقام العبودية في حال الوجد بغير تكلف البشرية، ورعونات النفس، فإذا رآه الله بتلك الصفة أمسك تلك اللطيفة عنه بالتدريج؛ حتى صيره محجوبًا عن تلك الحالة، فيصير آيسًا من رجعته إلى مقامه خجلاً عن دعواه.

قال الواسطي: أعرض بالنعمة عن المنعم، والنعمة العظمى الهداية والإيمان والمعرفة والولاية، والعبد لا ينفك من رؤية ذلك من نفسه، وهذا هو الإعراض عن المنعم بأن يستحلي بطاعته، ويتلذذ بها أو يسكن إليها أو يختص بها من النار.

وقال الأستاذ: إذا أزلنا عنه موجبات الخوف، وأرخينا له حبل الإمهال، وهيأ له أسباب الرفاهية اعتراه مغاليط النسيان، واستهوته دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ الفطرة مختلفةٌ على اختلاف المقامات، ففطرة العارفين خلقت لمقامات المعرفة، وفطرة الموحدين فُطرت لمقامات التوحيد، وفطرة المحبين فُطرت لمقامات المحبة، وفطرة المتوسطين من أهل الإيمان والإيقان فُطرت لفطرة المعاملات والشرائع والدين، وفطرة أهل المشاهدة فُطرت على شهود الصفات وتجلي الذات، فكلٌّ من هؤلاء يعمل على العبودية لزيادة عرفان الربوبية على شاكلة فطرته، فيبدو منه مزيد قرباته ومداناته ومكاشفاته ومشاهداته، وكل من أسرع شوقه إلى الله وفناء في الله فهو أقرب منه، قال تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: يعمل على ما في سره؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «اعملوا؛ فكلٌّ ميسرٌ لما خلق له»[1].

قال جعفر: كلٌّ يُظهر مكنون ما أودع فيه من الخير والشر.

(١) رواه البخاري (٤/ ١٨٩١)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠).

قال الأستاذ: ما تحب الضمائر يلوح على السرائر، فمن صفا عن الكدورة جوهره لا يفوح منها إلا نشر مناقبه، ومن طبع على الكدورة طينته فلا يعبق بمن يحوم حوله إلا ريح مسالبه.

يُقال: حب الغبيراء لا ينبت غصن العود.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بنعمة ظاهرة ﴿أَعْرَضَ﴾؛ لوقوفه مع النفس والبدن، وكون القوى البدنية متناهية، لا تتدبر الأمور الغير المتناهية الممكنة الوقوع من سبب النعمة، وردها عند عدمها وسائر الغير، ولا يرى إلا العاجل وتكبره لاستعلاء نفسه على القلب وظهوره بأنانيته وتفر عنه.

﴿وَنَـَٔا﴾ أي: بعد عن الحق في جانب النفس، وطوى جنبه معرضًا، وكذا في جانب الشر إذا يئس؛ لاحتجابه عن القادر قدرته، ولو نظر بعين البصيرة شاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين، ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم، وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم فشكر وصبر، وعلم أن المنعم قدر فلم يعرض عند النعمة بطرًا وشرًّا خائفًا زوالها غير غافل عن المنعم، ولم ييأس عند النقمة جزعًا وضجرًا راجيًا كشفها مراعيًا لجانب المبلى.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: خليقته وملكته الغالبة عليه من مقامه، فمن كان مقامه النفس، وشاكلته مقتضى طباعها عمل ما ذكرنا من الأعراض واليأس، ومن كان مقامه القلب، وشاكلته السجية الفاضلة عمل بمقتضاها الشكر والصبر.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: من العاملين، عامل الخير مقتضى سخية القلب، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس فيجازهما بحسب أعمالها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾
وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن
يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا

مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ إنَّ الله سبحانه أبهم علم الروح في ظاهر رسوم العلم، وبيَّنها لأهل المكاشفة من الأنبياء والأولياء، بأنه أراهم الروح بأوصافها في المكاشفة، وذلك سره عندهم، وهم يكتمونه لقلة إدراك أفهام الخلق، ولا يعلمون ماهية وجودها وكيفية خلقها قط، لأن الله قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، ولا يطَّلع على ماهيتها إلا صانعها، وكيف يعلم الخلق ماهيتها وهي كانت معدومة، كوَّنها الحق سبحانه بعد أن ظهر صفاته وذاته بنعت التجلي والكشف عيانًا بلا حجاب العدم، فأوجد الروح بقدرته القائمة، وإرادته الأزلية حين شاهد الصفات الذات، وشاهد الذات الصفات، وشاهد كل صفة كل صفة، وشاهد الصفات الفعل، وشاهد الفعل العدم، فباشر الموجود المعدوم، فظهر الروح من تحت مباشرة القدم العدم، موجودة بوجود الذات والصفات، وشهودها بنعت الظهور، كاملة جامعة متخلقة بخلق الحق، متصفة بصفاته، فبلغت إلى محل يحيي بفيض مباشرة فعله جميع الكون، ففي كل موضع يقع عكسه يحيى بحياة تامة كاملة لا موت فيها، ومن خاصتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن وكل صوت طيب، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، وخلق الله آدم على صورتها، فإذا أراد الله خلق آدم أحضر روحه فصوَّر صورته بصورة الروح؛ لذلك قال ﷺ إشارة وإبهامًا: «خلق الله آدم على صورته»[1]؛ لذلك قال: على صورته؛ لأن الروح مؤنثة سماعية.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(١) أي: ليس من عالم الخلق؛ حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدينين الذين لا يتجاوزون إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به والتوصيف، بل من عالم الأمر أي: الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولي والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم، وعملكم عنه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو علم المحسوسات، وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علوم الله تعالى المناسبة لاستعدادهم وإدراكهم كتفجير العيون من الأرض، وجنة النخيل والأعناب وإسقاط السماء عليهم كسفًا والرقي فيها والإتيان بالملائكة، وسائر الممتنعات المتخيلة، وأجيبوا بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: ما أمكن نزول الملائكة مع كونهم نفوسًا مجردة على الهيئة الملكية في الأرض، بل لو نزلت لم ينزلوا إلا متجسدين كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٩]، وإلا لم يمكنكم إدراكهم، فبقيتم على إنكاركم، وإذا كانوا مجسدين ما صدقتم كونهم ملائكة، فشأنكم الإنكار على الحالين، بل على أي حال كان كإنكار الخفاش ضوء الشمس.

---

(١) تعريف له: بأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ لكنه لمّا تعلّق بعالم الخلق؛ واشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرُّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَن قال: سبحان مَن أظهر الأشياء؛ وهو عينها؛ ولذا لم يقل: سبحان مَن خلق الأشياء؛ وهو عينها، ومن ثمَّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليّات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلّق بعناصره إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنما تمنَّى الكافر أن يكون ترابًا؛ لأن التراب أبعده عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَن كذب وتولى لا على مَن أعطاه الله خلقه فهُدي فافهم جدًا، ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرئي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقتضى الأدب الإلهي ألا يتكلم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ بل من الروح الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جَدًّا للحضرة العيسوية، فاعرف جدًا.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى العناية الأزلية في الفطرة الأولى بنوره.

﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ خاصة دون غيره.

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ بمنع ذلك النور عنه.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ﴾ أنصارًا يهدونه.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ويحفظونه من قهره.

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ أي: ناكسي الرؤوس؛ لانجذابهم إلى الجهة السفلية، أو على وجوداتهم وذاتهم التي كانوا عليها في الدنيا كقوله: كما تعيشون تموتون، أو كما تموتون تبعثون؛ إذ الوجه يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها أي: على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان.

﴿عُمۡيٗا﴾ عن الهدى كما كانوا في الحياة الأولى.

﴿وَبُكۡمٗا﴾ عن قول الحق لعدم إدراكهم المعنى المراد بالنطق؛ إذ ليسوا ذوي قلوب يفهم بها ويفقهه فكيف التعبير عما لم يفهم؟.

﴿وَصُمّٗا﴾ عن سماع المعقول؛ لعدم الفهم.

أيضًا: فلا يؤثر فيهم موجب الهداية لا من جهة الفهم من الله تعالى بالإلهام، ولا من طريق السمع من كلام الناس، ولا من طريق البصر بالاعتبار.

﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ كقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: ٥٦]، بل أبلغ منه ذلك بسبب احتجابهم عن صفاتنا خصوصًا قدرتنا على البعث وإنكارهم له أنكروا، وما استدلوا بخلق السماوات والأرض على القدرة.

قال ابن عباس: الروح خلق من خلق الله، صورها على صورة بني آدم، وما نزل من السماء تلك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان، وليست بإنسان.

قال مجاهد: الأرواح على صورة بني آدم، لهم أيدٌ وأرجلٌ ورؤوس، يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

وما ذكرنا فهو أقل من قليل القليل، الذي قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

قال بعضهم: الروح شعاع الحقيقة، تختلف آثارها في الأجساد.

وقال بعضهم: الروح لطيفةٌ تسري من الله ﷻ إلى أماكن معروفة، لا يعبر عنه بأكثر من موجودها بإيجاد غيره.

وقال الواسطي: لما خلق الله أرواح الأكابر ردَّها بمعرفته بها، فأسقط عنها معرفتها به، وأسدى إليها علمه بها، فأسقط عنها ما علمت منه، فمعرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها، فصورها بوده إياها على محابها.

قيل: الروح لم تخرج من الكون؛ لأنها لو أخرجت من الكون لكان عليها الذل، فقيل: من أي شيء أخرجت؟ من بين جماله وقدس جلاله بملاحظة الإشارة، وغشاها بجماله ورداها بحسنه، واستمالها بسلامه، وحياها بكلامه، فهي معتقة من ذل ﴿كُن﴾ [الأنعام: ٧٣].

وسُئل أبو سعيد الخرّاز: عن الروح مخلوقة هي؟ قال: نعم، ولولا ذاك لما أقرَّت بالربوبية حين قالت: بلى، والروح هي التي أوقعت على البدن اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل متعطلاً لا حجة عليه ولا له.

سُئل الواسطي عن الأرواح: أين كان مكانها حين أظهرها؟ فقال: إنَّ الأرواح خلقها وقبضها قبل الأجساد، أين كانت صار ما عاين عيانًا؛ لأنَّ الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ۝١٠١ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ۝١٠٢ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ۝١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ۝١٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أخبر سبحانه عن سجية النفس الأمارة الإنسانية أنها خلقت بخيلة حريصة على الدنيا، وجمعها ومنعها لعميها عن رؤية الآخرة وبقائها، وعن معرفة الدنيا وفنائها، وهذه النفس إذا قورنت بالروح الصادقة العاشقة، والعقل القدسي، والقلب الملكوتي، والسر الجبروتي تذوب عن خلقها وتزول عن بخلها، وصارت ساكنة عن الحرص، سخية بالبذل، وهذه نفس الأولياء، ونفس الأنبياء خلقت سخية غير حريصة، ونفس العامة

بقيت على حال الفطرة إلا نادرًا، فإن الله سبحانه يخلق في الأحانين كافرًا سخيًا ومؤمنًا بخيلاً.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ لوقوفكم مع صفات نفوسكم التي من لوازمها الشح الجبلي؛ لكون إدراكها مقصورًا على ما يدرك بالحس من الأمور المادية المحصورة، واحتجابها عن البركات الغير المتناهية والرحمة الواسعة الغير المنقطعة التي لا تدرك إلا عند اكتحال البصيرة بنور الهداية، فتخشى نفادها وانقطاعها.

قال حمدون: أخبر الله عن حقيقة طباع الخلق، فقال: لو ملكتم ما أملكه من فنون الرحمة وخزائن الخير لغلب عليكم سوء طباعكم في الشح والبخل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ﴾ الآيات التسع: ملاحة عينه، وحسن وجهه، وحل لسانه، وشرح صدره، وهيبته من الله قد علاه، وانبساطه، وغر بدنه، واستجابة الدعوة بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [يونس: ٨٨]، والشريعة المجموعة.

وأيضًا: فلق البحر، وانقلاب عصاه، ويده البيضاء، ومقام التجلي، وسماع كلام الصرف، وغلبة الشوق عليه، والمن والسلوى، وانفجار الحجر بالماء، وإحراق الذهب بالكيمياء.

قال جعفر ﷺ: من الآيات التي خصَّه الله بها الاصطناع، وإلقاء المحبة عليه، والكلام والثبات في محل الخطاب، والحفظ في اليم، واليد البيضاء، وعطاء الألواح.

وقال ابن عطاء: من الآيات حمل قوة الخطاب في المشاهدة، والمراجعة في طلب الرؤية، وهذه من أعظم الآيات.

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بحق الربوبية على العبودية أنزلنا القرآن على قلوب الصدِّيقين والمقربين؛ ليعرفهم ذاتنا وصفاتنا الأزلية الأبدية، ويدور أسرارهم في عالم الغيوب لترى أسرارنا، وخزائن ملكنا، وعجائب قدرتنا في جميع الذرات؛ لأنَّ القرآن مفاتيح الذات والصفات، وخزائن الملك والملكوت، وبحق العبودية نزل القرآن ليعرفهم منازلنا ومقاماتها من الصدق والإخلاص وجميع المعاملات؛ لتسري على بحارها الأرواح القدسية، والقلوب الروحانية، والعقول الصافية، والأبدان المقدسة، لعرفان مكان الخضوع والفناء في الحق.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ لأهله، وحامله بحسن القبول واليقين والمعرفة

والتمكين.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن تقاعد عن أمره، ولم يعرف مكانه.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا بعد زوال بشرية النبي ﷺ بالكلية في مقام الفناء، وانتفاء الحدثان عن وجه القدم، وانقشاع ظلمة الإمكان عن سبحات الوجه الواجب الباقي بالفرق الثاني؛ ليكون له محل وجودي، فما كان إنزاله إلا ظهور أحكام التفاصيل من عين الجمع وجدوه مطابقًا لما اعتقدوه، فإن الاعتقاد والحق لا يكون إلا واحدًا.

قال جعفر ﷺ: الحق أنزل على قلوب خواصه من مكنون فوائده، وعجائب بره، ولطائف صنعه، ما نوَّر بهم أسرارهم، وطهَّر بها قلوبهم، وزيَّن بها جوارحهم، وبالحق نزل عليهم هذه اللطائف.

وقال ابن عطاء: مبشرًا لمن أقبل عليك، ونذيرًا لمن أعرض عنك.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أراد بـ﴿ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أوتوا المعرفة، وأوتوا الأرواح الناطقة بالحق العارفة بالحق، العالمة على الحق، في بدء أمرها قبل الكون، ومن قبل ظهور الشرائع والعبودية، سامعة للحق من الحق بلا واسطة ولا حجاب، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونهم في الأشباح تكون معرجة من محبة الله، متحركة بشوق الله، مستروحة بلذة خطاب الله، عارفة بمراده، خاضعة لأمره، إذا سمعوا كلام الحق استلذوا محبته في قلوبهم، فيهيجهم إلى بذل الوجود والخضوع بين يدي جبروته، فلا حيلة لهم إلا وضع وجوههم على التراب خنوعًا لجبروته، ومعرفةً بعظم ملكوته، ويذكرون الله وينـزهونه ويقدسونه عن الأضداد والأنداد، وعن الشرك والشريك في ملك ربوبيته، وذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾.

ثم زاد في وصفهم بالخوف عنه وإجلال جلاله بنعت البكاء والخشية بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ بكاؤهم من شوقه إلى جماله، وحبًّا للقائه، وتعظيمًا لعظمته، ما أطيب هذا البكاء، وما ألذَّ هذا الخشوع، بكاؤهم منه عليه، يبكون من الفقدان في الوجدان، ومن الوجدان في الفقدان، ومن الحضور في الغيبة، ومن الغيبة إلى الحضور، والسرور بالشهود، وحسن الإقبال عليه، وخوف إعراضه عنهم.

وأنشدوا في هذا المعنى:

يـا هـلال السـماء كطـرف كلـيل ... فـإذا مـا بـدا أضـاء طـرفيه

كـنت أبكـي عـلي مـنه فلـما ... أن تـولّى بكـيت مـنه علـيه

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: باللين والانقياد لحكمه لتأثرهم به، وحسن تلقيهم لقبوله.

قال سهل: لا يؤثر عليه سماع القرآن، فإن العبد إذا سمع القرآن خشع سره لسماعه، وأنار قلبه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحه بالتذلل والانقياد.

وقال أبو يعقوب السوسي: البكاء على أنواع، بكاء من الله، وهو أن يبكي شفقة لما جرى عليه من الحق في الأزل من السعادة والشقاوة، وبكاء على الله، وهو أن يبكي حسرة وتحسرًا على ما يفوته من الحق ومن حظه منه، وبكاء لله، وهو البكاء عند ذكره وقربه ووعده ووعيده، وبكاء بالله، وهو يبكي بلا حظ منه في بكائه.

وقال القاسم: البكاء على وجوه، بكاء الجهال على ما جهلوا، وبكاء العلماء على ما قصروا، وبكاء الصالحين مخافة الفوت، وبكاء الأئمة مخافة السبق، وبكاء الفرسان من أرباب القلوب للهيبة والخشية وتواتر الأنوار، ولا بكاء للموحدين.

وقال الأستاذ: السماع مؤثرٌ في قلوب قوم، محير لأسرار آخرين، فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصير، وتأثير السماع في أسماع الموحدين بالتحيير، فيبصر العلماء بصحة الاستدلال، ويحير الموحدين في شهود الجمال والجلال.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ إنَّ الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات والنعوت والأفعال، فالله اسمه ،وهو اسم عين جمع الجمع، والرحمن اسم عين الجمع، فالرحمن مندرجٌ تحت اسم الله؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت الله ذكرت عين الكل، فالقول خبرٌ، والخبر أثرٌ، والأثر ذكرٌ، والذكر فكرٌ، والفكر وقوع نور العقل، ونور العقل مقرونٌ بنور الصفة، ونور الصفة مقرونٌ بنور الذات، فإذا سميته ذكرته، وإذا ذكرته فنيت الصورة في فعله بنعت الخشوع، وإذا فنيت الصورة ذكره العقل، ففني العقل في الاسم والنعت، وإذا فني العقل ذكره القلب بالصفة

والوصف، وفني القلب في الصفة، وإذا فني القلب ذكره الروح بالذات، ففنيت الروح في القدم، وإذا فنيت الروح ذكره السر بباطن العلم، ففني السر في الغيب، وذكره سر السر في غيب غيبه، فلم يبق في البين رسمٌ ولا اسمٌ ولا وصفٌ من حيث العبودية، وبقي الاسم، والمسمى واحدٌ في واحدٍ.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ بالفناء في الذات الجامعة لجميع الصفات.

﴿أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ بالفناء في الصفة التي هي أم الصفات.

﴿أَيّٗا مَّا﴾ طلبت من هذين المقامين لست هناك بموجود، ولا لك بقية ولا اسم ولا عين ولا أثر؛ إذ الرحمن لا يصلح اسمًا لغير تلك الذات، ولا يمكن ثبوت تلك الصفة أي: الرحمة الرحمانية لغيرها، فلا يلزم وجود البقية بخلاف سائر الأسماء والصفات.

﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ كلها في هذين المقامين لا لك.

﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾ في صلاة الشهود بإظهار صفة الصلاة عن نفسك، فيؤذن بالطغيان ظهور الأنانية.

﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ غاية الإخفات، فيؤذن بالانطماس في محل الفناء دون الرجوع إلى مقام البقاء، فلا يمكن لأحد الاقتداء بك.

﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ يدل على الاستقامة ولزوم سيرة العدالة في عالم الكثرة، وملازمة الصراط المستقيم بالحق[1].

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فإذا كان العبد في قوله: «الله» هكذا أو في قوله: «الرحمن» هكذا فهو مصدر صفة القدم والبقاء، وهو مصدر القدرة والحياة، فإذا قال: «الله» يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن» يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون.

قال الحسين: ما دعا الله أحدٌ قط إلا إيانًا، فأما دعوة حقيقة فلا.

قال الواسطي: أسماؤه لا تدخل تحت الحصر، وذاته ليس بمشار إليه، ولا بموصوف بصفة حقيقية، إلا بصفة المدح والحق، وهو الخارج عن الأوهام والأفهام، فأنّى له النعوت والصفات!

---

(١) أي: طريقًا وسطًا بين الإيمان والكف، ولا واسط، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلاً وإجمالاً، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل في الضلال. انظر: البحر المديد (٢/ ١٠).

وقال الأستاذ: من عظيم نعمته سبحانه على أوليائه تنـزيهم بأساريرهم في رياض ذكره بتعداد أسماء الحسنى، فينقلبون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.

ويقال: الأغنياء ترددهم في بساتينهم وتنزهم في منابت رياحينهم، والفقراء تنزههم في مشاهدة تسبحيهم، يسترحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جماله وجلاله.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: أظهر الكمالات الإلهية والصفات الرحمانية التي لا تكون إلا للذات الأحدية.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم تكن علة الموجود من جنسه؛ لضرورة كون المعلول محتاجًا إليه، ممكنًا بالذات، معدومًا بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك؛ وإلا لكانا مشتركين في الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبية، فلزم تركبهما فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين.

وأيضًا: فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهًا، وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له.

وإن استقلا جميعًا لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد إن فعلا معًا وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يكن له ناصر علة كان أو جزء علة تقويه وتنصره من ذلة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهًا واجبًا بل ممكنًا؛ لتكون حبيبًا قائمًا به لا بنفسك .

﴿وَكَبِّرْهُ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، وصورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائض، فينحصر في وجود خاص، تبارك وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿تَكْبِيرًۢا﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لامتناع وجود شيء غيره يفضل عليه وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا تكبر غيره بهذا التكبير.

ثم إن الله سبحانه أمر حبيبه وصفيه ﷺ بأن يحمده؛ لأنه كان أهل المدح والحمد بالحقيقة لا غير، أمره بحمده بأن أخبره عن تنزيه قدمه عن إشارة كل مبتدئ إلى ابتدائه؛ لأن ابتداءه منزه عن كل ابتداء، فإن ابتداء قدمه هو القدم، وقدم القدم منزه عن حصر الزمن، وقدم قدمه مع تنزيهه عن العدد، وعلة الابتداء لم يكن محلاً للحوادث بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا﴾، بدأ الكل من حواشي حرفية النون وكافه، فكفه ونونه منزه عن أن يكون محلاً لحمل الحدثان، وأخذه من حيث المباشرة بدء حين القدر جاء بأمر القدم، فظهر الكون من نيران الكاف والنون، حيث أظهرها من العدم للقدم، فإذا قطع الخيال والأوهام عن درك الأولية، روح الأسرار بأحديته عن كل ضد وند، بأن يزول عزته عن تعالي الأضداد عليه، ففزع أسرار الموحدين عن نقائص الفناء، ودخولها في بقائه لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فإذا أفرد نفسه عن النقائص والنكائد وعلل الحوادث فردانية حقيقية منزهة عن أوهام المشيرين إليه بعلل الخيال والوهم والعدد والمدد، أمره بأن يكبره ويعظمه من كل خاطر ممزوج بالتشبيه والتعطيل بقوة ظهور كبريائه في قلبه لا من حيث العلم والصورة بقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ تعالى الله، وتعالى كبريائه عن أن يكون في ملكه متكبرًا، وفي ساحة جلاله متعظم.

قال ابن عطاء: عظم منته وإحسانه في قلبك بعلمك بتقصيرك في شكره.

وقال بعضهم: اعلم أنك لا تطيق أن تكبره الآية، فاستغث به ليدل قلبك على مواقف التعظيم.

سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده.

فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم

لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له.

وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ ظاهر فيه أسرار باطنه.

﴿عِوَجَا﴾ أي: زيغًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: لم ير الغير في شهوده.

﴿قَيِّمًا﴾ اجعله قيمًا يعني: مستقيمًا كما أمر بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]

والمعنى: جعله موحدًا فانيًا فيه غير محتجب في شهوده بالغير ولا بنفسه، لكونها غير أيضًا ممكنًا مستقيمًا حال البقاء.

كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أو جعله قيمًا بأمر العباد وهدايتهم إذ التكميل يترتب على الكمال؛ لأنه ﷺ لما فرغ من تقويم نفسه وتزكيتها أقيمت نفوس أمته مقام نفسه، فأمر بتقويمها وتزكيتها، ولهذا المعنى سمي إبراهيم- صلوات الله عليه- أمة.

وهذه القيمة أي: القيمة بهداية الناس داخلة في الاستقامة المأمور هو بها في الحقيقة؛

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلق بعامل قيمًا أي: له قيمًا بأمر العباد؛ لينذر ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وحذف المفعول الأول للتعميم؛ لأن أحدًا لا يخلو من بأس مؤمن كان أو كافر.

كما قال تعالى: «أنذر الصديقين بأني غيور، وبشِّر المذنبين بأني غفور»[1]، إذ البأس عبارة عن قهره، ولذلك عظمه بالتنكير أي: بأسًا يليق بعظمته وعزته ووصفه بالشدة، وخصصه بقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ والقهر قسمان: قهر محض ظاهره وباطنه قهر كالمختص بالمحجوبين بالشرك، وقسم ظاهره قهر وباطنه لطف وكذا اللطف.

كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ: سبحان من اشتدت نقمته على أعدائه في سعة نعمته،

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وقد ثبت في أحاديث عدة بنحوه.

واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته، ومن القسم الثاني: القهر المخصوص بالموحدين من أهل الفناء أطلق الإنذار لكل تنبيهًا ثم فصل اللطف والقهر مقيدين بحسب الصفات والاستحقاقات.

فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الموحدين لكونهم في مقابلة المشركين الذين قالوا: اتخذا الله ولدًا، ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الباقيات من الخيرات والفضائل؛ لأن الأجر الحسن: هو من جنة الآثار والأفعال التي تستحق بالأعمال.

واعلم أن الإنذار والتبشير اللذين هما من باب التكميل اللازم؛ لكونه قيمًا عليهم كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللطف الإلهيين اللذين محل استعداد قبولها من نفس العبد الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولها إلا بصفتي: الغضب والشهوة وفنائهما، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامتا مقامهما؛ لأن كلًّا منهما ظل لواحدة من بينك يزول بحصولها، فعند ارتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ العمل الصالح: التبري من الوجود بوجود الحق، والأجر الحسن مشاهدة الحق بلا حجاب أبدًا.

قال بعضهم :العمل الصالح ما أريد به وجه الله لا غير، والأجر الحسن لا يحجب عن لقاء سيده تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ومن لم يجد مقام مشاهدته، ولم يعرف ذاته وصفاته بنعت رؤيته وخطابه، ويشير إليه بكلمة المعرفة فقد عظم ذلك عند الله؛ لأنه افترى على الله كذبًا يا ليت لو خلص من عاينه، وأخبر عنه من هذه الورطة؛ لأن من عاينه وأخبر عنه، فقد أخبر عن غيره، وخبره وقع موقع تلك الكلمة التي كبرت، تخرج من أفواههم؛ ألا ترى إلى تمام الآية: كيف شكا عن الكل فقال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ولذلك قال الواسطي: من ذكر افترى.

وقال ابن عطاء: أكبر الدعاوى من ادعى في الله، وأشار إلى الله، أو يكلم عن الله أو دخل في ميادين الانبساط، فإن ذلك كله من صفات الكذابين.

قال الله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ولتحقق به لا يظهر شيئًا من أحوال بحال.

وقال الأستاذ: من تكلم بهذا اللسان قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بهذا القول من علم بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للآباء لا عن علم ويقين ويؤيده قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء؛ لأنه مستحيل بالقرآن، استشعر ببقية من نفسه وتوجس بنقصان حالة فعلاه الوجد، وعزم على قهر النفس بالكلية طلبًا للغاية، وكان ذلك من فرط شفقته عليهم، وكمال أدبه مع الله حيث أحال عدم إيمانهم على ضعف حاله على عدم استعدادهم؛ ولذلك سلاه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعًا إنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء، ثم نفنيها ولا حيف ولا نقص، أو إنا جعلنا من على أرض البدن من النفس ولذاتها وشهواتها وقوى صفاتها وإدراكاتها ودواعيها ﴿زِينَةً لَّهَا﴾؛ ليظهر أيهم أقهر لها وأعصى لهواها في رضاي، وأقدر على مخالفتها لموافقتي.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أخبر سبحانه عن محبة حبيبه نظام طريق محبته وعبودية عباده له، وشدة حرصه واهتمامه على الخلق، ومن غلبه ذلك غاص في بحر الأولية، وسابق العناية لطلب فسخ إبرام القدر المقدر لا بنفسه، وذلك من علمه بتنزيه جلاله؛ حتى لو أراد أن يبدل جميع أقداره لقدر، ولو يغفر لجميع الكفار لقدر، ولا نقص على برهانه وسلطانه، فأعلمه الحق أن هذا رسم أسرار الربوبية، ولا تقدر أن تهتك تلك الأسرار؛ لأنه غيور على سره وغيبه.

قال بعضهم: لا تشغل سرك بمخالفتهم فما عليك إلا البلاغ، والهدى منا لمن نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ إن الله سبحانه جعل في الأرض آيات السفلية من كل ما أظهر فيها من: الأنهار والأشجار والجبال والبحار والمعادن والنبات والرياحين، وألبسها قميص أنوار صفاته، وجعلها مرآة للعارفين؛ لينظروا فيها، ويرون فيها أنوار جلاله وجماله، وأي زينة لها أعظم من نور بهائه وضياء صنائعه، ويمتحن بذلك

المحتجب بمحل الزينة، والمنفرد برؤية الصفات.

وذلك قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. العمل هاهنا ترك صورة الزينة والمزين والاشتغال بالمزين؛ بأن آثار جماله مبين من كل ذرة فمن نظر إلى ذلك رأى الأشياء بالحقيقة.

لذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» (١) وأيضًا: زينة الأرض أولياء الله والخلق ممتحنون بهم؛ حتى من يعرف حقوقهم فحسن العمل النظر إليهم بالحرمة.

قال ابن عطاء: أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها.

وقال سهل: أحسن توكلاً علينا فيها.

وقال أيضًا: حسن العمل الاستقامة عليها بالسنة.

وقال القاسم: زينة الأرض: الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون والأوتاد.

وقيل: أهل المعرفة بالله والمحبة له المشتاقون إليه هم: زينة الأرض ونجومها وأقمارها وشموسها.

وقال الجنيد: أهل الفهم عن الله هم الذين جعلوا ما على الأرض من زينتها عبرة لهم؛ لئلا يتشاغلوا بشيء من الزينة، ولا يعملوا بشيء من الزينة، ويعملون لمن زين هذه الزينة.

قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ﴾ أعلى همة وأطرب نفسًا في الإعراض عما لا يبقى بالاشتغال بالباقي.

وقال الواسطي: أيهم أفزع قلبًا وأصفى قصدًا.

يقال: العباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال: زينة الأرض تكون الأولياء، وهم أمان في الأرض.

ويقال: إذا تلألأ أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرق حمى الآفاق بحيائهم.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصدقهم نية، وأخلصهم طوية.

ثم إنَّ الله سبحانه لما آوى أولياؤه إلى حضرته القديمة، بقي ما على الأرض من زينة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يابسًا وأرضًا فقرًا لا نبات فيها؛ ليتعطل الحدثان، ويبقى الرحمن بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: تغرب شموس أنوار الصفات في مغارب الأنعال، فلا يبقي في مرآة الفعل أثر من نور الصفة؛ لأن نور الصفة رجع إلى معدنه من الذات وظهوره؛ لأجل سلب قلوب الصديقين من الأولياء إلى تلك المعاهد، فإذا بلغوا إلى مأواهم ذهب معهم أنوار الصفات.

---

(١) ذكره ابن عادل في تفسير اللباب (٣/ ٧).

قال الواسطي: في هذه الآية الكون في قبضة الحق، وهو هباء في جنب القدرة.

قال الله: ﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ .

﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ﴾ بتجلينا وتجلي صفاتنا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من صفاتها هامدة كأرض ملساء لا نبات فيها أي: نفنيها وصفاتها بالموت الحقيقي وبالموت الطبيعي ولا نبالي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ ذكر سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقد أنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون نينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشامّ العالمين، يهيمون في البوادي والقفار أبدًا، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم ، وآمنهم ثم أنناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعاينتهم، فتاهوا في الحضرة والهين؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، بل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ .

أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا، بل هذه أعجب.

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ويلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومى لا علم لهم بوقت، ولا زمان ولا معرفة بمحل، ولا مكان، أحياء موتى صرعى مفيقون، نومى متنبهون، لا إليهم سبيل، ولا لهم إلى غيرهم طريق، ورددت عليهم خلع الهيبة، وأظلهم بنور التعظيم، وأحدتت بهم حجب العظمة، واستناروا بنور العرش الكريم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

وقال الأستاذ: مكثوا في الكهف مدة، فأضافهم إلى مستقرهم، فقال أصحاب الكهف:

وللنفوس محالّ، وللقلوب مقارّ، وللهمم مجال، وحيثما يعتكف القلب، فهناك يطلب أبدًا صاحبه.

واعلم أن أصحاب الكهف هم السبعة الكمَّل القائمون بأمر الحق دائمًا الذين يقوم بهم العالم، ولا يخلو عنهم الزمان على عد الكواكب السبعة السيارة وطبقها، فكما سخرها الله تعالى في تدبير نظام علم الصورة، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝﴾ [النازعات: ٤، ٥] على بعض التفاسير.

وكل نظام عالم المعنى، وتكميل نظام الصورة إلى سبعة أنفس من السابقين كل ينتسب بحسب الوجود الصوري إلى واحد منهم، والقطب هو المنتسب إلى الشمس، والكهف هو باطن البدن، والرقيم ظاهره الذي انتقص بصور الحواس والأعضاء، إن فسر باللوح الذي رقمت فيه أسماؤهم والعالم الجسماني، إن جعل اسم الوادي الذي فيه الجبل والكهف والنفس الحيوانية، إن جعل اسم الكلب والعالم العلوي، إن جعل اسم قريتهم، على اختلاف الأقوال في التفاسير.

ومنهم الأنبياء السبعة المشهورون المبعوثون بحسب القرون والأدوار، وإن كان كل نبي منهم على ذكر وهم: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ لأنه السابع المخصوص بمعجزة انشقاق القمر أي: انفلاقه عنه لظهوره في دورة ختم النبوة، وكمل به الدين الإلهي. كما أشار إليه بقوله: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**»[1] إذ المتأخر بالزمان والظهور أي الوجود الحسي هو الحائز لصفات الكل، وكمالاتهم كالإنسان بالنسبة إلى سائر الحيوانات.

ولهذا قال: «**كان بنيان النبوة قد تم، وبقي منه موضع لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة**»[2].

وقد اتفق الحكماء المتألهة من قدماء الفرس أن مراتب العقول والأرواح على مذاهبهم في التنازل تتضاعف إشراقاتها، فكل ما تأخر في الرتبة كان حظه من إشراقات الحق وأنواره، وسبحات أشعة وجهه وإشراقات أنوار الوسائط بكل منها من مبادئها في الأزل. كما قال ﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة**»[3] حتى انتهت الدرجات في العلو إلى الفناء والتوحيد الذاتي فبهذا الاعتبار يكون محمد ﷺ عين آدم، بل عين السبعة وكذا باعتبار كونه

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٦٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٣٨)، ومسلم (٤/ ١٩٥٨).

جامعًا لصفاتهم.

كما قيل: إنه سئل أبو يزيد - رحمة الله عليه- أنت من السبعة؟ فقال: أنا السبعة.

وباعتبار علو مرتبته ومكانته وسبقه في القدم، وارتفاع درجة كماله وفضيلته كان أقدمهم، وأولهم وأفضلهم. كما قال: «**أول ما خلق الله نوري، وكنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»[1] فهو متقدم عليهم بالرتبة والعلية والشرف والفضيلة، متأخر عنهم بالزمان، وهو عينهم باعتبار السر، والوحدة الذاتية فالحاصل أن اختلافهم وتباينهم روحًا وقلبًا ونفسًا لا ينافي اتحادهم في الحقيقة، وكذا افتراقهم بالأزمنة لا ينافي معيتهم في الأزل والأبد وعيَّن الجمع.

كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] مع قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران: ٨٤] ويجوز أن يكون المراد بأصحاب الكهف: روحانيات الإنسان التي تبقى بعد خراب البدن.

وقول من قال: ثلاثة إشارة إلى الروح والعقل والقلب، والكلب هي النفس الملازمة لباب الكهف، ومن قال خمسة إشارة إلى: الروح، والقلب، والعقل النظري والعقل العملي، والقوة القدسية للأنبياء التي هي الفكر لغيرهم، ومن قال: سبعة فتلك الخمسة مع السر والخفاء، والله أعلم.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: كهف البدن بالتعلق به ﴿فَقَالُوا﴾ بلسان الحال ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من خزائن رحمتك التي هي أسماؤك الحسنى ﴿رَحْمَةً﴾ كما لا يناسب استعدادنا ويقتضيه، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن فيه من مفارقة العالم العلوي، والهبوط إلى العالم السفلي لاستكمال ﴿رَشَدًا﴾ استقامة إليك في سلوك طريقك والتوجه إلى جنابك أي: طلبوا بالاتصال البدني والتعلق بالآيات الكمال وأسبابه الكمال العلمي والعملي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ وصف الله سبحانه أول زمرة السبعة المختارة من أصحاب الكهف، والثلاثة المختارة من أصحاب الرقيم، وهم فتيان المعرفة الذين خُلقوا بسجية الفتوة، وفتوتهم إعراضهم عن غير الله، وعن الكون جميعًا، وإقبالهم على الله بنعت

---

(١) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص٦٣)، وشرف المصطفى للخركوشي (١/ ٣٠٧)، وكشف الخفاء للعجلوني (١/ ٣١١)، والمواهب اللدنية (١/ ٧١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص٢٧، ٣٣).

إيوائهم إلى كهوف وصاله، وظلال جماله، وحصون أنسه، وقصور قدسه بذلوا مهجتهم لله بلا نصب لأنفسهم، وطلبوه منه، ودخلوا في مزار قربه، ومساقط أنوار شهوده، فلما استقاموا في منازل الأنس، ومشاهدة القدس ورأوا محبوبهم بنعت الرعاية والكلاءة، هيجهم نور البسط، وسر الافتقار إلى سؤال زيادة القربات والمدانات.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ معرفة كاملة وتوحيدًا عزيزًا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ من أمر محبتك ﴿رَشَدًا﴾ صبابتك والوصول إلى وصال قدمك الذي بلا زوال ولا امتحان، فهناك مقيل السعادة الكبرى، ومراقد المشاهدة الكبرى.

قال الأستاذ: آواهم إلى كهف بظاهرهم، وفي الباطن مهد مقيلهم في ظل إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم رقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال، وهم مصطلمون عن شواهدهم، فلما عاينوا من الكشف الأكبر، والرضوان الأعظم، استطابوا الوقت، وخافوا الفوت، والتجئوا منه إليه، فألطف عليهم الحق سبحانه، فغيبهم عن الوجود، وأخذهم بنفسه عن وجودهم بقوله:﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذكر واحدًا من الإحساس وجميعها مستغرقة في أنوار وطأة هيبة الجلال عليهم، لما سترهم وضرب عليهم سرادق غيرته، بقي عليهم حس الآذان، فضرب على آذانهم ستر الغيرة؛ حتى لا يحسوا أصوات الأغيار أدخلهم في قباب عصمته، وآنسهم بحسن مشاهدته، وغيبهم عنهم فيه وزال عنهم رسوم البشرية، فبقوا مع الحق بالحق ناظرًا إلى الحق بلا فترة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم نومه الغفلة عن عالمهم وكمالهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخفير، ولا دعوى الداعي الخبير في كهف البدن ﴿سِنِينَ﴾ ذوات عدد أي: كثيرة أو معدودة أي: قليلة هي مدة انغماسهم في تدبير البدن وانغمارهم في بحر الطبيعة مشتغلين بها غافلين عما وراءها من عالمهم إلى أوان بلوغ الأشد الحقيقي، والموت الإرادي والطبيعي، كما قال: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] .

وفيه نكتة لطيفة: لما رأوا الحق بهتوا في أنوار قدمه، وفنوا في سطوت عظمته، وذهبوا عن مقام سماع الخطاب لو بقي عليهم سماع الخطاب، لم يستحكموا في مقام الخطاب على حد الرضا مقام الاستلذاذ والأنس والبسط والبقاء، فأفناهم عنها لاستيفاء حظ التوحيد والفناء عنهم.

وأيضًا: صارت أسماع الظاهر إلى سماع بواطنهم، فسمعوا بأسماع القلوب والأرواح

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٠٧).

والأسرار، وما سمعوا من الحق شغل أسماع خواطرهم عن أسماع الأصوات المختلفة.

قيل: أخذنا عنهم أسماعهم؛ حتى لا يسمعوا إلا منا، وأخذنا عنهم أبصارهم، فلا ينظروا إلا إلينا؛ حتى لا يكون لهم إلى الغير التفات، ولا للغير فيهم نصيب بحال.

وقال ابن عطاء: أخرجنا منهم صفة البشرية، وأفنيناهم بصفات القدسية، قدسنا ظواهرهم وبواطنهم وجعلناهم أسراء في القبضة، ثم رددناهم إلى هياكلهم وصفاتهم بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾.

قال أيضًا: إن الفائدة في الضرب على الآذان، وليس للآذان في النوم شيء إنه ضرب على آذانهم، حتى لا يسمعوا الأصوات، فينتبهوا ويكونوا من الخلق كلهم في راحة.

قال الأستاذ: أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه، وحقائق ما كنا سقيناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية، فلما استوفوا حظ شهود الغيب، ولطائف مقام السكر، وأراد أن يجعلهم من مقام الصحو لهم حظًّا، رفع عنهم برجاء الهيبة، وسجوف ليالي الحشمة، وآفاقهم عن خمار السكرة بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أقامهم مقام الاستقامة؛ ليعرفوا منازل القرب بنعت الصحو؛ لأن السكارى صيروا في قفار الديمومية بالحظ، والوجد لا بالمعرفة، وليعرفوا مسالك الحقيقة أهل الإرادة.

قال الأستاذ: أي رددناهم إلى حال صحوهم أوصاف تمييزهم، أقمنا شواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: نبهناهم عن نوم الغفلة بقيامهم عن مرقد البدن، ومعرفتهم بالله وبنفوسهم المجردة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر علمنا في مظاهرهم أو مظاهر غيرهم من سائر الناس ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين في مدة لبثهم، وضبط غايته الذين يعينون المدة أم يكلون علمه إلى الله، فإن الناس مختلفون في زمان الغيبة.

يقول بعضهم: يخرج أحدهم على رأس كل ألف سنة، وهو يوم عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] إلى الحق عند كل جبار هو دقيانوس وقته، كنمرود وفرعون وأبي جهل وأضرابهم ممن دان بدينهم، واستولى عليه النفس الأمارة فعبد الهوى أو ادعى لطغيانه، وتمرد أنانيته وعدوانه الربوبية من غير مبالاة عند معاتبته إياهم على ترك عبادة الصنم المجعول، كما هو عادة بعضهم أو صنم نفسه. كما قال فرعون اللعين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ

ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ۝ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟

يا حبيبي اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له.

وأيضًا: زدناهم مشاهدة وقربًا وصالاً ومعرفة وكمالاً ومحبة وشفاء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ الآية.

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ أصحاب الفتوة حيث بذلوا أنفسهم لي، ولوجدانهم حسن وصالي أبدًا.

يا حبيبي الفتوة: من الفتيان بالحقيقة طلب معادن المحبة، والانصراف إلى مصرف المعرفة، وإلقاء الوجود بنعت الوجد للموجود القديم جل وعز.

قال ابن عطاء: زدناهم نورًا، ومن يعرف قدر زيادة الله؛ لذلك كانت الشمس ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ خوفًا من نورهم على نورها أن يطمسه.

وقال أيضًا في قوله: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ لتنظر إليهم بعين المشاهدة.

وقال سهل: سماهم الله فتية؛ لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وقاموا إلى الله بإسقاط العلائق.

وقال فضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

قال أبو عثمان: الفتوة اتباع الشرع والاهتداء بالسنن، وسعة الصدر، وحُسن الخُلق.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ جعلناهم أئمة المهتدين.

وقال بعضهم: سهّلنا لهم طريق القربة والوصلة.

ويقال: لا يسمع قصة الأحباب أعلى وأجل مما يسمع من الأحباب.

قال عز من قائل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

وأُنشد في معناه:

وَحَدَّثْتَنِي يَا سَعْدُ عَنها فَزِدتَنِي ... جُنونًا فَزِدني مِن حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

ويقال: فتية؛ لأنهم قاموا بالله، وما استقروا؛ حتى وصلوا إلى الله.

وقال الأستاذ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ لاطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم بما زاد من أنوارهم فلقاهم أولاً بالنبيين، ثم رقاهم عن ذلك إلى ما كان كاليقين، ثم زاد في وصف إيقانهم وإيمانهم، وعرفانهم ثبات قلوبهم؛ حين قاموا مقام المحبة؛ بشرط وفاء العبودية، ونفاذ أبصارهم وأسرارهم في المشاهدة والبراهين العقلية، وبلوغها إلى رؤية رب العزة بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أضاف ارتباط قلوبهم إلى نفسه؛ حيث عرَّفهم نفسه بنفسه بلا واسطة، فلما أدخلهم في عالم الملكوت، وأراهم سبحات عظمة الجبروت، كادت قلوبهم تفنى في أول بوادي أنوار العزة، بديهة كشف سناء الأولية فألقى عليها رواسي نوار الهيبة، وربطها على مشاهد القربة بمسامير المحبة؛ حتى استقاموا في المعرفة حين قاموا بالشوق إلى مشاهدة الوصلة، فلما عظم عليهم قهر لطمات بحر القدم ألجأهم الحق إلى سواحل الكرم، وأشهد ما أخرج من العدم؛ حتى ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولولا خوف الزوال لهم ما غابوا عن القدم إلى مراسم العدم، ولكن قلوبهم في مواقف العدم مرتبة، وإن كانوا في مشاهدة الرسوم لهم إشارة إلى براهين.

بقوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي: لن نرى من دونه شيئًا في البين، ولو نرى الوسائط في رؤية الوسائط ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي:ميلاً عن طريق إفراد القدم عن الحدوث.

قال ابن عطاء: رسمنا أسرارهم بسمة الحق فقاموا بالحق للحق ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا﴾ إظهار إرادة، ودعوة.

ثم قالوا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رجوعًا من صفاتهم بالكلية إلى صفاته، وحقيقة علمه ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ لن نعتمد سواه في شيء لو قلنا غير ذلك كان شططًا يعني بعيدًا من طريق الحق.

وقال جعفر: قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب، ونادوه نداء صدق، وأظهروا له صحة الفقر ولجئوا إليه أحسن اللجاء ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ افتخارًا به وتعظيمًا له فكافأهم الحق على قيامهم الإجابة عن ندائهم بأحسن جواب، وألطف خطاب، أظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل حين قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ وقد استدل بعض المشايخ بهذه الآية في حركة الواجدين في وقت السماع؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حركها أنواع الأذكار، وما يرد عليها من فنون السماع.

والأصل قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ نعم هذا المعنى إذا كان القيام قيامًا بالصورة، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين والاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن إذا كان الربط بمعنى التسكين، والقيام بمعنى الاستقامة.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بما أسكنا فيها من اليقين فلم تسبح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ إشارة إلى النفس الأمارة وقواها، لأن لكل قوم إلهًا تعبده، وهو مطلوبها ومرادها والنفس تعبد الهوى كقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

وإلى أهل زمان كل من خرج منهم داعيًا إلى الله إذ كل من عكف على شيء يهواه، فقد عبده.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: على عبادتهم وإلهيتهم وتأثيرهم ووجودهم.

﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: حجة بينة دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله، وتأثيره ووجوده محال.

كما قال: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أخبر سبحانه عن صدقهم وإخلاصهم وفرحهم بالإيمان بالله، والنجاة عن الكفر والضلال، واجتماعهم في مقام الخلوة أي: إذا أخرجتم من أماكن النفوس والهوى، صرتم منفردين باليقين الصادق، فأووا إلى جوار كرمه وبساط قدمه ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ ذخائر لطائف علومه الغيبية، ويبسط لكم بساط عطايا مشاهدته، وأنوار قربه ومحبته ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: احتياجكم إلى وصاله ورؤية جماله ﴿مِّرْفَقًا﴾ مسند الأنس، ويسقيكم شراب الزلفى من بحر القدس.

قال الأستاذ: العزلة عن غير الله يوجب الوصل بالله؛ بل لا يحصل الوصلة بالله؛ إلا بعد العزلة عن غير الله.

ثم أخبر عن زيادة تلطفه بهم؛ بأن دفع عنهم تواثير العناصر التي أصلها من طبع الشمس والقمر والسيادة، ودفع عنهم حرارة الشمس وشعاعها؛ لئلا تتغير أشباحهم عن أحكام الروحانية، كأنه تعالى أدخلهم في حجلة الأنس في عالم القدس، وجعل ذلك العالم في الكهف، وهو قادر على أن يخلق ألف جنة في عين نملة، فلما سكنهم في حجر وصلته دفع عنهم تغاير الحدثية، وإطلاع الخليقة عليهم من غيرته، فمن غيرته حجبهم عن الشمس الطالعة التي هي في الفلك الرابعة، فإذا حجبهم عن الشمس مع جلالتها التي هي سبب نماء العالم، فانظر كيف يطلع عليهم غيرها من الخلق.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتم نفوسكم وقواها بالتجرد ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ من مراداتها وأهوائها ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ إلى البدن؛ لاستعمال الآلات البدنية في الاستكمال بالعلوم والأعمال، وانخذلوا فيه منكسرين متراضين، كأنهم ميتون بترك الحركات النفسانية والنزوات البهيمية، والسطوات السبعية أي: موتوا موتًا إراديًا.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ حياة حقيقية بالعلم والمعرفة ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ كما لا ينتفع به بظهور الفضائل، وطلوع أنوار التجليات، فتتلذذون بالمشاهدات، وتتمتعون بالكمالات.

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷺ في أبي بكر: «من أراد أن ينظر ميتًا يمشي على وجه الأرض، فلينظر أبا بكر»(١) أي: ميتًا عن نفسه يمشي بالله، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قومكم ومعبوداتهم غير الله من مطالبهم المختلفة ومقاصدهم المتشتتة، وأهوائهم المتفننة، وأصنامهم المتخذة ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ إلى كهوف أبدانكم، وامتنعوا عن فضول الحركات والخروج في أثر الشهوات، واعكفوا على الرياضات ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ زيادة كمال وتقوية، ونصرة بالإمداد الملكوتية والتأييدات القدسية، فيغلبكم عليهم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ دينًا وطريقًا ينتفع به، وقبولًا يهتدي بكم الخلائق ناجين، وفي الآوي إلى الكهف عند مفارقتهم سر آخر يفهم من دخول المهدي في الغار إذا خرج ونزل عيسى ﷺ، والله أعلم.

وفي نشر الرحمة وتهيئة المرفق من أمرهم عند الآوى إلى الكهف إشارة إلى أن رحمته الكاملة في استعدادهم، إنما تنشر بالتعلق البدني والكمال بتهيئته.

قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ الإشارة في الحقائق أنه أخفاهم في كهف الأسرار، وأجلسهم في متسع الأنوار، وأشهدهم مشاهدة الجمال، وآواهم سناء الجمال، ووقاهم من سطوات أنوار شمس العزة والعظمة والكبرياء التي تطلع من مشرق القدم، وتغرب في مغرب الأبد؛ لئلا يحترقوا في أنوار عين الألوهية، ويفنوا في سلطان إشراق سبحات الكبرياء، ولا يطلعوا على ذخائر غيوب البقاء؛ كأنه تعالى رباهم في مشاهدته بنور جماله، وحفظهم عن قهر كنه قدمه؛ لئلا يتلاشوا في عزة جلاله، ويبقى معه بنعت الصحو والبقاء، ولولا ذلك الفضل العميم لو لم يبقوا في استعلان أنوار وحدانيته بأقل من لمحة رعاهم بنفسه عن نفسه؛ لإدراك العلم بنفسه هم في فجوة الوصال، وشمس الكبرياء، تزاور عن كهف قربهم ذات اليمين الأزل، وذات الشمال الأبد.

---

(١) هو من الأحاديث المشتهرة عند السادة الصوفية، وهو صحيح عند أرباب الكشف.

وهم في فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف ذات الأزلية التي يتلاشى الأكوان في أول بوادي إشراقها، وأي آية أعظم من هذه الآية أنهم في وسط نيران الكبرياء، ولا يحترقون بها فبقوا بالحق مع الحق مستأنسين بالحق للحق بنعت فقد الإحساس في مقام الاستئناس غائبين عنهم شاهدين بالله على الله.

انظر كيف كان كمال غيرة الله بهم، حيث حجبهم عنهم، ورفع الإحساس عنهم، ورفع حوادث الكون عنهم؛ ليكون الكشف أصفى، والقرب أجلى، والسر أخفى، والمشاهدة أشهى والروح أدنى، والوقت أحلى، ولا يعرف هذه الإشارة إلا العارف بالله بنعت الذوق، ويرى الله بوصف الشوق المستقيم بالله لله.

قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ من عرف نفسه، وأقدار أوليائه فهو عارف بالله وبأوليائه، ومن لم يكن من أهل سلوكه، كان في الأزل محرومًا عن قربه، وإن خنق نفسه في المجاهدة.

قال الله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾

مَـــنْ لَمْ يَكُـــنْ للوِصَـــالِ أهْـــلاً فَكُـــلُّ إِحْـــسَانِهِ ذُنُـــوبُ

سبحان الله! أين غابوا تلك السبعة الغارقة في أماكن الغيب، ومشاهدة الرب هام طلابهم في بوادي المعارف والكواشف، ولم يظفروا برؤيتهم، وانحسرت الأزمان، والأكوان والحدثان عن تفقدهم، ولا تطلع عليهم من غيرة حق عليهم هم ملوك معارف القدم؟ غابوا في مهمة الكرم.

بِأَيِّ نَوَاحِي الأَرْضِ أَبْغِي وِصَالَكُم وَأَنْتُمْ مُلُوكٌ مَا لمَقْصِدُكُم نَحْو

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ أي: شمس الروح ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ أي: ترقت بالتجرد عن غواشي الجسم، وظهرت من أفقه تميل بهم من جهة البدن، وميله ومحبته إلى الإلهام، والشيطان للوسواس ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢].

وفي الآية لطيفة، وهي أنه استعمل في الميل إلى الخير الازورار عن الكهف، وفي الميل إلى الشر قرضهم أي: قطعهم، وذلك أن الروح يوافق القلب في طريق الخير، ويأمره به ويوافقه معرضًا عن جانب ألبدن وموافقاته، ولا يوافقه في طريق الشر، بل يقطعه ويفارقه وهو منغمس في ظلمات النفس وصفاتها الحاجبة إياه عن النور، وهو إشارة إلى تلوينهم في السلوك، فإن السالك ما لم يصل إلى مقام التمكين، وبقي في التلوين قد تظهر عليه النفس

وصفاته، فيحتجب عن نور الروح، ثم يرجع ذلك أي: طلوع نور الروح واختفاؤه من آيات الله التي يستدل بها، ويتوصل منها إليه وإلى هدايته.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بإيصاله إلى مقام المشاهدة والتمكين فيها ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بالحقيقة لا غير ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يحجبه عن نور وجهه، فلا هادي له ولا مرشدًا، ومن يهد الله إليهم وإلى حالهم بالحقيقة، ومن يضلله يحجبه عن حالهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ ذلك لمعنى النور الذي كان عليهم بقوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ نور على نور، وبرهان على برهان، والشمس نور، ولكن إذا غلب نور أقوى منها انكسفت الشمس فكانت تزيغ عن كهفهم؛ لغلبة نورهم خوفًا أن ينكسف نورها من غلبة نورهم.

وقال جعفر: يمين المرء قلبه، وشماله نفسه، والرعاية تدور عليهما، ولولا ذلك لهلك.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ما حجب عن الله أحد إلا من أراد أن يصل إليه بحركاته وسعيه، وما وصل إليه أحد إلا من أراد أن يصل إليه بصفته تعالى.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ من جاء بأوائل الإيمان بلا علة، وبأواخره بلا علة، وهذا صفة الحق لا صفة الخلق، وظهر أن المهتدي هو البائن من جميع أوصافه، المتصف بصفات الحق ثم زاد في وصفهم لحبيبه ﷺ بأنهم غائبون بأرواحهم في أنوار القدم، وبأسرارهم في بحار الكرم، وبعقولهم في أودية الهوية، وبقلوبهم في قفار الديمومية، وبأنفسهم في أشراف سلطنة الربوبية وبأشباحهم في أماكن المؤانسة، بقوله:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: من كمال حسنهم في الغيبة أنه نشر أنوار القربة على ظاهرهم، وأزال عنهم وحشة النومى، وأظهر عن صورتهم لطائف النعمى كانت أرواحهم كأجسادهم، وأجسادهم كأرواحهم؛ لذلك قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح**»[1] كأنهم من كمال حسن وجدهم وغيبتهم فيه، والتمكين لهم غير غائبين.

وانظر كيف كانوا في لطف غيبتهم؛ حتى لا يعرف سيد المرسلين ﷺ أنهم رقود وهذا من شواهد التمكين، ولطافة الحال لما حضروا مشاهد القرب، غابوا عن القرب بالقرب، وغابوا في القرب بالقرب، وغابوا عن قرب القرب في قرب القرب، وقعوا في أسفار الأزل ففي كل نفس لهم الترقي والنقل من مقام إلى مقام[2]؛ لقوله سبحانه:

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المتنبهين، فمَن نظر إليهم ممّن هو مثلهم في الغفلة =

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أغرقهم الحق سبحانه في بحار أوليته وأخرويته، وقلبهم بنفسه ذات يمين الأزل، وذات شمال الأبد، قلبهم من رؤية الأفعال إلى أنوار الأسماء، ومن أنوار الأسماء إلى أنوار النعوت والأوصاف، ومنها إلى رؤية أنوار الذات قلبهم في كل نفس من عالم صفة إلى عالم صفة، وهم معهم في سيرهم بين الصفتين، فأدار بأرواحهم إلى صحارى الأزل، وآزال الأزل، وأدار بقلوبهم في بوادي الآباد، وآباد الآباد.

وأدار بأنجم عقولهم في أفلاك حقائقه، وأدار بأسرارهم في بساتين علوم غيبه المجهولة، فقصر عليها بعد مزار أسفارهم بلطفه، ولولا ذلك لبقوا في تقلب المقامات وسير الحالات، ولكنه بلطفه وبرحمته خلصهم من التقلب في عالم الصفات، ولو تركهم مع أنفسهم لم يبلغوا أمر الأزل إلى الأبد إلى رؤية صفة بعد رؤية صفة حملهم بنفسه، وأدارهم في عالم صفاته، ثم ألقاهم في بحر وحدانيته، فصاروا مستغرقين في بحار ذات متخلصين من التقلب، ذهب بهم سيول طوفان الكبرياء إلى قاموس البقاء، فهناك قلبهم سر الأسرار تارة إلى نكرة القدم، وتارة إلى معرفة البقاء.

قال ابن عطاء: نقلبهم في حالتي القبض والبسط والجمع والتفرقة جمعناهم عما تفرقوا فيه فحصلوا معنا في عين الجمع.

وقال بعضهم: نقلبهم بين حالتي الفناء، والبقاء، والكشف، والاحتجاب، والتجلي، والاستتار.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مقيمون في حضرة كالنومى لا

=

عن الله تعالى يراهم متيقِّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر، وإنَّما إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلَّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسِّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

علم لهم بوقت، ولا زمان، ولا معرفة محل، ولا مكان إحياء موتى صرعى يفيقون نومى متنبهون لا هم إلى غيرهم طريق ولا لغيرهم إليهم سبيل، ومحل الحضور والمشاهدة ،إنما هو الخمود تحت الصفات لا غير.

وقال أبو سعيد الخراز: هذا محل الفناء والبقاء، أن يكونوا فانين بالحق باقين به، لا هم كالنيام ولا كاليقظى، أوصافهم فانية عنهم، وأوصاف الحق بادية عليهم، وهو حياة تحت كشف دولة مقابلة ويقين.

وقال أيضًا: هؤلاء أئمة الواجدين﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كشف لهم حتى تبينوا جلال القدرة، وعظم الملكوت فغيبوا عن التمتع بشيء من الكون بحقيقة أحوالهم، فصاروا داهشين لا أيقاظًا ولا رقودًا.

وقال الأستاذ: هم مسلوبون عنهم مختطفون منهم، مستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق.

وقال في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ إخبار عن حسن إيوائه لهم.

ويقال: أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق في وصف أصحاب الكهف:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لشواهد الفرق في ظواهرهم لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم تجري عليهم أحوالهم، وهم غير مكلفين بل هم يبيتون، وهم خمود عما هم به.

وفي قوله:﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وقع لي من طريان الأحوال رمز في وصف الصفات المتشابهة أضاف نقلبهم إلى نفسه أي: أقلبهم بنفسه في حجر وصلتي، وهذه فيهم تلك الخاصية التي خص بها آدم بقوله : (خلقت بيدي)، فباشرهم أنوار يدي البقاء والقدم، وتقلبهم من ذات يمين الربوبية بمحض الصفة بغير التشبيه والحلول في ذات الشمال العبودية.

وذلك حين ألقاهم في قفار الآزال والآباد، ولومهم على رؤوس أودية الصفات بنعت الغيبة عن الذات، ولولا ذلك التقلب الذي أرجعهم من معدن الربوبية إلى معدن العبودية؛ لتستفتهم صرصر الكبرياء في هواء عزة البقاء؛ لما أطلع عليهم الحق شموس جلاله، كادوا أن يذوبوا في رؤيتها، فقلبهم من ذات يمين الأحدية إلى ذات شمال الحدوثية؛ لبقائهم بالحق مع الحق، وإلا كيف يكون بقاء الحدث في القدم، وإذا كانوا متنغصين في مرارة التفرقة، ومباشرة الحدوثية تقلبهم من الحدثان إلى بحار العرفان فهم بين الثقلين في مقامي: الفناء والبقاء والقبض والبسط والجمع والتفرقة، وهذه من لطائف سر العارفين وتقلب أسرار الموحدين

في عالم الملكوت والجبروت، ثم أخبر سبحانه من سعة قدرته وكمال رحمته وجلال منته بأنه اختار من بين سباع البرية كلبًا عارفًا، وجعله مستعدًا لقبول المعرفة ممهدًا لجريان أنوار محبته، ومقبلاً عليه مع أوليائه لديه بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وضع قلب الروحاني الملكوتي في كلب، وجعل قلبه خزائنه من خزائن معارفه، وصندوقًا من صناديق جواهر سر أسراره، وحركه بسلاسل جذباته، وحبس عنايته إلى مشاهدته قربة، وعرَّفه طرق الربوبية وسلوك العبودية، فروحه كان روحانيًّا، وسره ربانيًّا، وشهوده رحمانيًّا، وألبسه ما ألبس القوم؛ لذلك فرَّ إلى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثان، ويا عاقل لا تنظر إلى صورة الكلب، وغيره فإن محتمل الصفات حقائق فعله، والكلب الغير من أفعاله، والصفات والأفعال في معادنها منـزه عن التفاضل، بل إذا أضيف إلى الكون يفضل البعض على البعض من حيث العلم والحكمة، وإذا كان سبحانه اختار أحدًا من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية لا ينظر إلى سببه، ولا إلى نسبه، ولا إلى صورته، ولا إلى رتبته بل يجري عليه بإرداته القديمة أحكام حسن عنايته فيصيره جواهر الآفاق، ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت.

قال الله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:١٠٥]،فجعل الكلب معظم آياته لهم؛ حيث أنطقه بمعرفته، وكسا قلبه أسرار نوره، وأبرز له أنوار هيبته، فأضجع مقام الحرمة للرعاية بحسن الأدب بالوصيد، وبين سبحانه رتبة الإنسانية، وفضلها على الحيوانية بحيث أقامه بالوصيد، وعلى سرادق الكبرياء، ووصيد مجد الجلال، وأدخلهم في فجوة الوصال سبحان المتفضل بالكمال.

قال أبو بكر الوراق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم يؤثر على الخلق، وإن لم يكونوا أجناسًا؛ ألا ترى الله كيف ذكر أصحاب الكهف فذكر كلبهم معهم لمجاورته إياهم!

ويقال: لما لزم الكلب محله ولم يجاوز حده فوضع يده على الوصيد بقي مع الأولياء كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة، ثم زاد سبحانه في وصفهم عما كساهم من أنوار الجلال، وعظمته التي ترتعد من رؤيتها قلوب الصديقين، وتقشعر من صولتها جلود المقربين، وتفزع من حقائقها أرواح المرسلين بقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. إن الله سبحانه نبهنا هاهنا عن جلال قدر نبيه ﷺ بأنه تعالى ربَّى روحه وعقله وقلبه وسره ونفسه في بدو الأول بنور حسن مشاهدته، وأنوار مال وجهة خاصة بلا مطالعة العظمة والكبرياء؛ لأنه كان مصطفى لمحبته مجتبى لحسن وصاله ودنو دنوه، ولطائف قرب قربه، وألبسه حلل حسن صفاته، وطيبه بطيب أنسه ونشقه ورد قدسه، وسقاه من بحر وداده

من مروق زلفته بكأس روحه، فكان عيشه مع الحق من حيث الأنس والانبساط والبسط والجمال، وكان خطابه خطاب تكرمة ومكرمة عاش في مشاهدة جماله ونيل وصاله، كان عندليب رياض الأنس، ويلبل بساتين القدس رأى الحق بعين الجمال في مرآة الجلال، ورآه بعين الجلال في مرآة الجمال، محفوظًا عن طوارق قهريات القدم، وسطوات عظمة الأزل، حاله أصفى من كدورة عيش الخائفين، وغبار أيام المجاهدين، ما وقع على سره قهر الغيرة، وما جرى على روحه سيول الفرقة، كان مرادًا معشوقًا حبيبًا محبوبًا موصولاً بالوصال معروفًا بالجمال كان من لطافته ألطف من نور العرش والكرسي، وطيبه كان أطيب من طيب الفردوس شمال جماله يهب على رياض وصال الأزل وحياة جنانه منـزه عن قهر أيدي الأجل لو رأى بالمثل نملة ملتبسة بنور هيبة فعل الحق لفزع منها من حسنه ولطافته؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ﴾ يا حبيبي من حيث أنت على ما ألبستهم لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي، لوليت منهم من رؤية ما عليهم من هيبتي وعظمتي ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾؛ لأنهم مرآة عظمتي تجلى منهم بنعت عظمتي للعالمين؛ لئلا يقربوا منهم، ويطلعوا عليهم؛ لأنهم في عين غيرتي، ولا أريد أن يطلع عليهم أحد غيري أنت يا حبيبي موضع سرى. ,موضع سر سري، ومكان لطفي لو رأيتهم بذلك اللباس السلطاني الجباري؛ لفررت منهم، وتملأ من رؤيتهم رعبً، كما فرَّ موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حية تسعى، وذلك من إلباسي إياها كسوة عظمتي وجلال هيبتي، ففر موسى من عظمتنا، ولم يعلم من أي شيء فر ولا نقص عليك، فإنك وإن كنت مربى برؤية الحسن والجمال منا، فجميع صفات العظمة ونعوت الكبرياء، انكشفت لك في لباس الحسن والجمال، وأنت جامع الجمع.

قال جعفر: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أنت لوليت منهم فرارًا، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوحدانية والربانية.

قال ابن عطاء: لأنه وردت عليهم أنوار الحق من فنون الخلع، وأظلتهم سرادق التعظيم، وأحرقت جلابيب الهيبة؛ لذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾.

وقال الحسين: لوليت منهم فرار أنفه مما هم فيه من إظهار الأحوال عليهم، وقهر الأحوال لهم مع ما شاهدته من أعظم المحل في القربات في المشاهدة، فلم يؤثر عليك بجلالة محلك.

وقال جعفر: لو اطلعت على ما بهم من آيات قدرتنا ورعايتنا لهم وتولية حفظتهم، لوليت منهم فرارًا أي: ما قدرت على مشاهدة ما بهم من هيبتنا، فيكون حقيقة الفرار منا لا

منهم؛ لأن ما بدا عليهم منا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ يا مخاطب الانفتاح أعينهم وإحساساتهم وحركاتهم الإرادية الحيوانية ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بالحقيقة في سنة الغفل، تراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: نصرفهم إلى جهة الخير، وطلب الفضيلة تارة وإلى جهة الشر ومقتضى الطبيعة أخرى ﴿وَكَلْبُهُم﴾ أي: نفسهم ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي: ناشرة قوتيها الغضبية والشهوانية ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: بفناء البدن، ولم يقل وكلبهم هاجع؛ لأنها لم ترقد، بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه والزراع الأيمن هو الغضب؛ لأنه أنوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديبه، والأيسر هو الشهوة لضعفها وخستها.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على حقائقهم المجردة وأحوالهم السنية، وما أودع الله فيهم من النورية والسنا، وما ألبسهم من العز والبهاء ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ فارًا لعدم اعتقادك بالنفوس المجردة وأحوالها وعدم استعدادك لقبول كمالهم، أو لوليت منهم للفرار عنهم، وعن معاملاتهم لميلك إلى اللذات الحسية والأمور الطبيعية.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ من أحوالهم ورياضاتهم؛ أو لو اطلعت عليهم بعد الوصل وإلى الكمال وعلى أسرارهم ومقاماتهم في الوحدة لأعرضت عنهم، وفررت من أحوالهم وملئت منهم رعبًا؛ لما ألبسهم الله من عظمته وكبريائه، وأين الحدث من القدم وأنى يسع الوجود العدم .

ثم أخبر سبحانه عن ارتفاع أثقال العظمة عنهم، وإفاقتهم عن سكر المشاهدة، وحضورهم بعد الغيبة، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ فيه إشارة أنهم في بديهة وقائع الغيب، وهم أهل البدايات في المعرفة، وهجوم غلبات الوجدان ؛ لذلك هاموا في الغيب وطاشوا في القرب، ولو كانوا في محل التمكين والصحو ما غابوا عن الإحساس ورسوم المعاملات، ويكون حالهم كمال نبينا ﷺ حين دنا وثبت في التدلي، واستقام في منازل الأعلى، واستقر بين أنوار القدم والبقاء بنعت الصحو والصفا.

وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، ولو أن ما ورد عليه من أحكام الربوبية في المشاهدة، ورد منه على جميع الأولين والآخرين لطاشت عقولهم، وطارت

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

أرواحهم، وفنيت قلوبهم واستهلكت نفوسهم، ولكن ما أطيب زمان السكر للمريدين، والمحبين، والشائقين، والعاشقين أخذهم سكر الوصال عن المقيل والقال، وعن الاشتغال والمحال، وغيبهم في أنوار الجمال والجلال؛ حتى لم يحسوا شيئًا من الحدثان من ذوق وصال الرحمن، ما أطيب تلك الأوقات السرمدية، والأحوال المقدسة بحيث ما لهم خبر عن مرور الزمان، وحوادث الملوان.

شُهورٌ يَنقَضِينَ ومَا شَعَرنَا ... بِإنصَافٍ لَهُمْ ولا سِرارُ

ما أقل زمان الوصال لعشاق الجمال والدهر عندهم في المشاهدة ساعة، وأعمار العاملين في منازل أنسهم لمحة.

وأنشد:

صَبَاحُكَ سُكرٌ والمسَاءُ خمَارُ ... نَعمتَ وأيَّامُ السُّرورِ قِصارُ

زمان القربة قليل وزمان الفرقة طويل، وذلك من غيرة العشق المجران في كمين الغيرة مقيم وملدوغ الفراق من سم أفاعي الغيرة سليم، لا يصير الدهر؛ حتى يفرق بين العاشقين والمعشوقين، وأنشد:

عَجِبْتُ بِسَعْيِ الدَّهرِ بَيْنِي وَبينَهَا ... فَلَمَّا انقَضَى مَا بَينَنَا سَكِرَ الدَّهرُ

كانوا لا يعرفون اليوم من الأمس، ولا يعلمون من حدة الحال القمر من الشمس: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقاموا مقام الوصال واستلذوا لطائف الجمال وتخبطوا في المقال، وما كان ذلك إلا من خمار سكر الأحوال ذكروا أيام الوصلة في مقام الفرقة، وتعاظموا لطائف المؤانسة في منازل الوحشة، واشتاقوا إلى معاهد المشاهدة، وأيام المدانة.

وأنشدوا:

سَلامٌ عَلَى تلكَ المعاهِدِ إنَّهَا ... شَريعَةُ وردٍ أو مهبٌ بِشَمالِ

لَيَالِي لم نحْصِرْ خُرونَ قطيعةٍ ... ولم يَمشِ إلاَّ في سُهولٍ وصَالِ

فقدْ مرَّت أرضِي مِن سَواكِنِ أرضِها ... تجلبُ ببرقٍ وبطيفِ خَيَالِ

قال ابن عطاء: مقام المحب مع الحبيب، وإن طال فإنه قصير عنده إذ لا يقضي من حبيبه وطرًا، ولو مكث معه دوام الدهر، فإن انتهاء شوقه إليه؛ كالابتداء، فانتهاؤه فيه ابتداء، فلما رجعوا من مقام الجذب إلى مقام السلوك، ومن مقام الروحانية إلى مقام البشرية، واحتاجوا إلى ما يعيش به الإنسان، استعملوا حقائق الطريقة بقوله سبحانه:

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ لما

استطابوا الخلوة فلم يخرجوا، وأمر المبعوث في طلب الرزق فتركوا السؤال، واستعملوا الكسب بقوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾، ثم أمروه باستعمال الورع؛ لأن الورع من موجبات الطريقة وحقوق الحقيقة، وهذا دأب الأئمة.

لذلك قال ذو النون: لا يطفأ نور المعرفة نور الورع، وأمروه بالمراقبة؛ حتى لا يطلع عليهم أحد، وفيه بيان أن الكسب أيضًا من التوكل؛ لأن القوم بحمد الله لم يخلوا من مقام التوكل، وفيه بيان أن أهل الوجد والحال والمكاشفة والمقال، هم أهل الغذاء المحمود الملطف من لطف الطعام؛ لأن أرواحهم من عالم القدس، ولا يليق بهم إلا ما يليق بأهل الأنس من أكل الطيبات، وأشهى المأكولات، ولبس الناعمات.

قال جعفر بن أحمد الرازي: أوصى يوسف بن الحسين بعض أصحابه فقال: إذا حملت إلى الفقراء وأهل المعرفة شيئًا، واشتريت لهم طعامًا فليكن لطيفًا، فإن الله تعالى وصف أصحاب الكهف حين بعثوا من يشترى لهم طعامًا قالوا: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشتر كل ما تجده فإنهم بعد في تذليل أنفسهم، ومنعها من الشهوات.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن[1]: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: إرفاق المريدين بالعنف، وإرفاق العارفين باللطف.

وقال الأستاذ: تواصوا فيما بينهم بحسن الخلق وجميل الرفق أي: ليتلطفن مع من يشتري منه شيئًا.

ويقال: من كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن الملبوس، ولا النازل في الطعم من المأكول.

ويقال: أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات، فطعامهم الخشن ولباسهم كمثله والذي بلغ المعرفة لا يوافقه أكل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث الحقيقي والإحياء المعنوي، بعثناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا بينهم عن المعاني المودعة في استعدادهم الحقائق المكنونة في ذواتهم، فيكمل بإبرازها وإخراجها إلى الفعل، وهو أول الانتباه الذي تسميه المتصوفة اليقظة.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ مرَّ تأويله النفس الرشيد السمة الفاضل السيرة النقي السريرة الكامل المكمَّل دون الفضولي الظاهري الخبيث النفس المتعالم المتصدر لإفادة ما ليس

---

(١) يعني السلمي في حقائق التأويل.

عنده ليستفيد بصحبته ويظهر كماله بمجالسته ويستبصر بعلمه فيفيدنا أو ليتلطف في أمره حتى لا يشعر بحالكم ودينكم جاهل من غير قصد.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل الظاهر المحجوبين، وسكان عالم الطبيعة المفكرين، وإن أوَّلنا أصحاب الكهف بالقوى الروحانية فالبعوث هو الفكر والمدينة محل اجتماع القوى الروحانية والنفسانية والطبيعية، والذي هو أزكى طعامًا العقل دون الوهم والخيال والحواس ؛لأن كل مدرك له طعام والرزق هو العلم النظري على كلا التقديرين:

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من القوى النفسانية.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا﴾ أي: يغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بحجارة الأهواء والداعي من الغضب والشهوة، وطلب اللذة فيقتلوكم بمنعكم عن كمالكم.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ باستيلاء الوهم وغلبة الشيطان والإمالة إلى الهوى، وعبادة الأوثان على التأويل الأول ظهور العوام، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين، ورجمهم أهل الحق ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ظاهر كما كان في زمان رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث والإماتة، اطلعنا على حالهم المستعدين القابلين لهديهم ومعرفة حقائقهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ بصحبتهم وهدايتهم.

﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: حين يتنازع المستعدون الطالبون بينهم أمرهم في المعاد، فمنهم من يقول: إن البعث مخصوص بالأرواح المجردة دون الأجساد.

ومنهم من يقول: إنه بالأرواح والأجساد معًا، فعلموا بالاطلاع عليهم ومعرفتهم أنه بالأرواح والأجساد، وأن المعاد الجسماني حق.

فقالوا ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أي: فلما توفوا قالوا ذلك كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الكمل المقربين من الأنبياء والأولياء كإبراهيم ومحمد، وعلي وسائر الأنبياء والأولياء- عليهم الصلاة والسلام- ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام أتباعهم من أممهم المقتدين بهم أي: هم أجل وأعظم شأنًا من أن يعرفهم غيرهم الموحدون الهالكون في الله المتحققون به ،فهو أعلم بهم، كما قال الله تعالى: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفونهم غيري**»[1].

---

(١) ذكره الشيخ حقي في روح البيان (٩/ ٧٩).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من أصحابهم والذين يلون أمرهم تبركًا بهم وبمكانهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يصلي فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بيَّن أن القوم بلغوا إلى مشاهدة جلال أزله، وأغرقهم في بحار أبده، ووجدوا منها جواهر أسرار محبته، وقرب وصاله ما لا يطلع عليها أحد غير الله، فنفى إحاطة علم الغير بهم فكأنه أخبر عما عمرهم من سطوات العزة، واستيلاء قهر الربوبية ما أفناهم أي: أنا أعلم بما هم فيه من فنائه في الوجد والموجود، أخبر عن عظيم ما ورد عليهم من سلطان قهر مشاهدة قدمه.

قال ابن عطاء: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حيث أظهر عليهم عجائب صنعه، وجعلهم أحد شواهد عزته، وجعلهم بالمحل الذي خاطب به النبي ﷺ فهمَّ فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾[الكهف: ١٨]

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الظاهريون من أهل الكتاب والمسلمين الذين لا علم لهم بالحقائق وقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: رميًا بالذي غاب عنهم يعني ظنًّا خاليًا عن اليقين بعد قولهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ بينائه والآمرون هم الغالبون الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يسجد أي: ينقاد فيه جميع القوى الحيوانية والطبيعية والنفسانية، والمأمورون هم المغلوبون الفاعلون في البدن، المبعوث فيه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إن الله سبحانه أعلم نبيه وأدب حبيبه في منازل العبودية ومشاهدة الربوبية بمحو الوجود عند وجود القديم الأزلي، وأن يرى الكل قائمًا بالله في مقام التوحيد مع الكل في غير الجمع بائنًا عن الكل في أفراد القدم عن الحدوث، ومحض التجريد والتفريد، وقطع حدود علوم الخليقة عما في المشيئة الأزلية

فأعلم معنيين: إثبات الكسب وسبق التقدير، وأبهم أسرار المسببة على الكل في بيان الاستثناء بقوله:﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

قال بعضهم: لم يطلق لرسوله ﷺ أن يخبر عن الحق إلا بما أخبره الحق، ولم يأذن له في الإخبار عن نفسه إلا عن مشيئة ربه فقال:﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ﴾... إلخ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ أدبه بالتأديب الإلهي بعد ما نهاه عن المماراة والسؤال فقال: لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول فتكون قائلاً به، وبمشيئته أولاً بمشيئته على أنه حال أي: ملتبسًا بمشيئته، يعني لا تقولن لما عزمت عليه من فعل أني فاعل ذلك في الزمان المستقبل إلا ملتبسًا بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله أي: لا تسند الفعل إلى إرادتك بل لإرادة الله فتكون فاعلًا به وبمشيئته.

ثم بيَّن سبحانه أن من شاهد نفسه في مشاهدة الحق حيث طوى عليه أحكام رسوم الاكتساب من جهة الأمر، ولم يسقط شهود نفسه وكسبه، فقد نسى الحق بقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإن قوله:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ عقيب قوله:﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ﴾ يدل على ذلك أي: إذا شاهدت نفسك فقد غبت مشاهدة ربك فاذكره أي: شاهده مشاهدة تغيبه في مشاهدة عن مشاهدتك نفسك.

وأيضًا:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ إذا كنت متصفًا متحدًا بربك حين يغلب عليك سر الأنانية، فإذا ذكرت ربك في مقام الأنانية خرجت من حد الخداع والتلبيس الصادرين من مكر القدم، وإذا ذكر قدمه بان عدمه وإذا بان عدمه تلاشى الحدث في القدم، ولم يبق إلا القدم، ويتبين أمر العبودية عند الربوبية.

وأيضًا:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ ذا غبت في مشاهدة المذكور؛ حتى يتخلص من غمار الفناء في الوحدانية، ويبقي ببقاء الحق ورؤية الأبدية، فإنك إن لم تذكر ربك، ولم ترجع من رؤية مذكورك إلى ذكره تفنى فيه، ولا تدرك حقائق وجوده فإن السكران الفاني لا يظفر بما يظفر الصاحي المتمكن.

وأيضًا:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ من مشاهدته، وغيب عن شهود عليك حتى فصل بالذكر إلى رؤية المذكور.

وأيضًا:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرك له فإن رؤية الذكر في رؤية المذكور نسيان المذكور بالحقيقة.

وأيضًا:﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكون والحدوثية، فإن ذكره لا يكون ذكرًا

حقيقيًّا إلا بنعت فناء ما دونه، فإذا فني الحدث في القدم صار الذكر صافيًا.

وأيضًا: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ما جدت منه، فإن الوقوف في المقامات حجاب ذكر الحقيقة.

وأيضًا: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فسك فإن في رؤيتك وجودك، وبقاء وجودك لا يكون الذكر بحقيقة الانفراد، ورسم أفراد القدم على حدوث ،ثم أمره سبحانه أن يخاطب أهل السر من المعرفة بترجيه وصول أدنى الدنو وأعلى العلو بقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾. كان ﷺ أقرب الخلق من الله بنفس المعرفة والاصطفائية الأزلية، لكن كان مع محله وشرفه في حيز حقائق المعرفة، قطرة في بحر الأزلية، فأمره الحق أن يسأل منه مزيد ما فيه من طرائق حقائق عرفان الأزلية، وأقرب ما يكون فيه من وصول الوصول، فإن الحق غير متناه من جميع الوجوه.

قال ابن عطاء: إذا نسيت نفسك والخلق فاذكرني فإن الأذكار لا تمازج ذكرى.

قال الجنيد: حقيقة الذكر فناء الذاكر فيه، والذكر في مشاهدة المذكور.

قال الشبلي: ما هذا خطاب أهل الحقيقة وأنّى ينسى المحق الحق فيذكره، بل يذكر حياته وكونه.

وأنشد:

لا لأنّي أنـــسَاكَ أكْثـــرُ ذِكْـــرَاكَ ... وَلكِـــنْ بِـــذَاكَ يجْـــرِى لِـــسَانِي

وقال الجنيد: حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت الذكر يكون المذكور صفتك، وقد وقع لي نكتة هاهنا .

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الذكر حق جميع الذات والصفات ولا نهاية لها، وذكر جميعه ما واجب الحقوق على الخلق والصفات القديمة، والذات الأولى غير مذكور بذكر الحدثان ،كأنه تعالى أعلم نبيه ﷺ جميع فكره ما بلغ إلى وصف ذرة من صفته ، فكل وقت مع جميع ذكره في حد النسيان ، حيث لا يبلغ ذكره حقائق القدم .

قال: ﴿ وَٱذۡكُر ﴾ بعد ذكرك ولا تفتر عن ذكرك ، فإن ذكرك على السرمدية واجب أبدًا؛ لأن بعد كل ذكر نسيان عن الباقي ، فإذا لا ينقطع الذكر أبدًا يدل على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَقُل عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.

أي: بمعرفتي معرفة المذكور بنعت مشاهدته، ورؤية ذاته وصفاته، بوصف فنائي

وفناء ذكر فيه .

قال الجنيد: إن فوق الذكر منزلة هي أقرب رشدًا من ذكره له، وهو تجديد للنعوت بذكره لك قبل أن يسبق إلى الله بذكره .

وأيضًا لي نكتة في الذكر أي: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإنك إذا ذكرته بلسان الحديثة نسيته، وإن أردت أن تذكرني بالحقيقة التي لا نسيان فيها، ولا فترة فاتصف بصفتي ثم اذكرني بصفتي حتى يصل ذكرك إليّ بالحقيقة.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بالرجوع إليه والحضور ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ بالغفلة عند ظهور النفس بظهور صفاتها ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

أي: من الذكر عند التلوين، وإسناد الفعل إلى صفاته بالتمكين، والشهود الذاتي المخلص عن حجب الصفات ﴿رَشَدًا﴾ استقامة وهو التمكين في الشهود الذاتي.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ من التي تُبْتَنَى على دور القمر فتكون كل سنة شهرًا ومجموعها خمسة وعشرون سنة، وذلك وقت انتباههم وتيقظهم.

﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ هي مدة الحمل، وروعيت في الآية نكتة هي أنه لم يقل ثلاثمائة سنة وتسعًا أو ثلاثمائة وتسع سنين؛ لاستعمال السنة في العرف وقت نزول الوحي في دورة شمسية لا قمرية، فأجمل العدد، ثم بينه بقوله سنين فاحتمل أن يكون المميز غيرها كالشهر مثلًا، ثم بين أن المدة سنين مبهمة غير معينة، إذ لو قيل ثلاثمائة شهر، فأبدل سنين من مجموع العدد كانت العبارة صحيحة، والمراد سنين كذا عددًا أي: خمسة وعشرين ويؤيده قوله بعده.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وقال قتادة: هو حكاية كلام أهل كتاب من تتمة، سيقولون.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ رد عليهم، وفي مصحف عبد الله وقالوا: ﴿لَبِثُوا۟﴾ وذلك أن اليقين غير محقق ولا مطرد.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون من لابتداء الغاية، والكتاب هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحي إليه، وأن تكون بيانا لما أوحي والكتاب هو العقل الفرقاني وعلى التقديرين ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي هي أصول الدين من التوحيد والعدل وأنواعها.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ تميل إليه لامتناع وجود ذلك.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟

لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾هذا تسلية لنبيه ﷺ فإنه كان ﷺ بقلبه في الملكوت، وبروحه في الجبروت، وبسره في مشاهدة القدم، وبعقله في أنوار غيبه مشتاقًا إلى الحق، لا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق بالصورة، وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت؛ لما رأى بين القوسين بغير الكونين مشاهدة الجلال والجمال.

فقال سبحانه احبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي المشتاقين إلى جلالي، الذين في جميع الأوقات يسألون عني لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلتي حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال، فإن في رؤيتك لهم رؤية ذلك الجمال فتكون معهم موافقًا وسرك وعقلك وروحك وقلبك عندي فإنها مواضع تجلي كبريائي وأسرار عزتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك ، فإن قلبك معادن أسرار العليين، ومزار الكروبيين وهو عرش تجلي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة أهل العدم.

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾[1] فإنهم ينظرون بعينك إليَّ إذا كانت عينك في طلب مشاهدتي في مرآة أفعالي من الخلق والخليقة.

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ بأن يواسيك برؤية الأكوان والحدثان؛ لزيادة العرفان، فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه، وحجبهم برؤية الخليقة عن مشاهدة الحقيقة، فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل غفلته رؤية الأعواض، ومن غافل غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن

(١) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدً، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

غافل غفلته العيش الهنيء في الدنيا.

وأدق الغفلة السكون بما وجد من الحق والوقوف مع مقام الحظ، فالكل محجوبون عن مشاهدة الأزل صرفًا أي: لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم المحجوبين بحظوظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء والصبر معهم والاستنان بسنتهم.

قال الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1].

وقال عمرو المكي: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا.

وقال ابن عطاء: خاطب الله نبينا ﷺ وعاتبه ونبهه، وقال واصبر على من صبر علينا بنفسه وقلبه وروحه، وهم الذين لا يفارقون محال الاختصاص من الحضرة بكرة وعشيا، فحق لمن يفارق حضرتنا أن تصبر عليه فلا تفارق.

وسُئل أبو عثمان عن الغفلة فقال: إهمال ما أمرت به ونسيان تواتر نعم الله عندك.

وقال بعضهم: الغفلة عقوبة القلب، وهو حجاب عن المنعم.

وقال سهل: الغفلة إبطال الوقت بالبطالة.

وقال الأستاذ قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ لم يقل قلبك لأن قلبه كان مع الحق فأمره بصحبة الفقراء جهرًا بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سر السر.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أمر بالصبر مع الله وأهله وعدم الالتفات إلى غيره، وهذا الصبر هو من باب الاستقامة والتمكين لا يكون إلا بالله ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: دائمًا هم الموحدون من الفقراء.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ

---

(١) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تتميم لاتّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأُخر هنا إشارة إلى العلم، فتفطّن لهذا المقام، والله العلاّم.

ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ
ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ
مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ
لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا
قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إن الله سبحانه علم من كتمان نبيه ﷺ سر أسرار الأزل وماله من عند الله من علومه الغريبة وأنبائه العجيبة من العلوم المجهولة ولطائف الحقيقة، وأحكام صفاته المتشابهة من شفقته على أمته، وعلم بضعف جلهم أثقال تلك الحقائق، فأمره الحق ألّا يكتم تلك الأسرار التي إعلام فضائله وفضائل خواص أهل الولاية وأسرار الربوبية في قلوبهم ويفشيها، ولا يخاف من إيمان الخلق بها وإنكارهم عليها، فإن العاشق الصادق لا يبالي بهتك الأسرار عند الأغيار ولا يخاف لومة لائم ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم، فإن لذة عشقه في هتك الأسرار أصفى، والحلاوة عيشه في ذلك أشفى؛ ألا ترى إلى قول القائل:

ألا اسقِني خمرًا وقُل لي هِي الخمرُ ... ولا تَسقِني سِرًّا إذا أمكنَ الجهرُ

وبُح باسمِ الهوَى وَدَعْني مِن الكُنَى ... فَلا جَبرٌ في اللذَّاتِ مِن دُونِهَا

كأنه تعالى حث نبيه ﷺ على التحديث بنعمه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وإشارة الظاهر أي: بيّن طريق الرشد عن الغي لمن تابع الرشد فلا يتبعه إلا بتوفيق الأزل في الغي ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه:١٢٣] إلا بسابق قدر الحق.

قال ابن عطاء: أظهر الحق للخلق سبيل الحق وطرق الحقيقة، فمن سالك فيه بالتوفيق ومعرض عنه بالخذلان.

وهذا قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فمن شاء الحق له الهداية هداه بطريق الإيمان، ومن شاء الله له الإضلال سلك به مسلك الكفر وهو الضلال البعيد.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينيات والفضيات هي الصفاتيات النورانيات كقوله تعالى ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ يتصفون بصفات مهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ الأحوال والمواهب؛ لكونها ألطف، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب ؛لكونها أكثف ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى﴾ أرائك الأسماء الإلهية التي هي مبادئ أفعاله لاتصافهم بأوصافه، وكون الصفة مع الذات هي الاسم المستند هو عليه في جنة الصفات والأفعال.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ في مقابلة (بئس الشراب وساءت مرتفقًا).

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ إن الله

سبحانه وصف الذين عملهم الصالح ،ترك ما دونه وهو بكرمه ورحمته يجازيهم به قربته ومشاهدته، ويدخلهم قباب أنسه رياض قدسه، وإلباسه إياهم أنوار جمال وجلاله فيكونون مزينين بحلي كرامته، ولباس رأفته مستندين به إليه بنعت رؤية الرضوان الأكبر، والحظ الأوفر نعم الثواب صلته، ونعم حسن المرتفق مرتفقهم مجالس الوصال ورؤية الكمال والجلال والجمال.

قال ابن عطاء: على آرائك الأنس في رياض القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة مستشرفون على بساتين الوصلة مشاهدون مليكهم في كل حال.

قال الأستاذ: يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحلون بحلي المباسطة يتكئون على أرائك الروح يشمون رياحين الأنس، ويقيمون في حجال الزلفة، يسقون شراب المحبة.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أخبر عن كمال حفظه أوليائه يوم القيامة عن التحير فيه، فإذا يحفظهم عن قهر سلطان ربوبيته، ويدخلهم في منازل وصلته فتلك الولاية الحقة له التي خص بها في الأزل أهل وداده وهي أرفع المنازل، وأشرف المناهل، وأحسن العواقب، وأكرم المناقب، والولاية الحق في الدنيا والآخرة هي ما صدرت من اختياره الأزلي وإرادته القديمة، وحقيقتها ألا يخذل من اصطفاه بها.

قال الواسطي: من تولاه الله بالحقيقة فهو الولي، ومن تولاه الله فيه فهو الوالي.

قال ابن عطاء: الحق أسبق من حقيقة المحق، وهو يدعوك إلى حقه فإذا طلبته لنفسك يأتي عليك.

ألا ترى إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ هو خير ثوابًا وخير عقبًا ثواب للطالبين له لا لطالب الجنة، وخير أمد للمريدين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ معناه: المحبة الدائمة غير مشوب بشوب الحدثان، ولا بغبار الحرمان.

وأيضًا: المعرفة الكاملة التي صدرت من رؤية ذاته وصفاته في قلوب العارفين.

وأيضًا: الأنس بالله والإخلاص في توحيد الله، والانفراد بالله عن غير الله، وهذه المنازل باقية للعارفين، وهي صالحة لا اعوجاج لها على حد الزائد، وهي خير المنازل؛ لأنها وصف بقاء العارف مع بقاء الحق.

قال جعفر الصادق: ﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ هو تفريد التوحيد فإنه باق ببقاء الموحد .

وقال ابن عطاء: هي الأعمال الخالصة والنيات الصادقة، وكل ما أريد به وجه الله.

وقال يحيى بن معاذ: هي نصيحة الخلق.

ويقال: ما يلوح في السرائر من تجليه للعبد بالنعوت، ويفرح نشره في سماع الملكوت، ثم أخبر سبحانه عن عظيم قدره، وجلال وعظم كبريائه، وسلطانه تخويفًا لعبادة، وتبنيها لهم عن عظيم آياته بقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ إن الله سبحانه يتجلى بعظمته يوم القيامة للجبال فتقلع الجبال من أصلها، وترقص في الهواء، وتصدم بعضها بعضًا؛ حتى تمهل وتصير غبارًا من خشية الله وهيبته، وبقيت الأرض باردة؛ حتى لا يكون حجاب بين أحد من الواقفين عليها.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي: نذهب جبال الأعضاء بالتفتيت فتجعلها هباءً منثورًا.

قال ابن عطاء: دل بهذا على إظهار جبروته، وتمام قدرته، وعظم عزته ليتأهب العبد؛ لذلك الموقف ويصلح سريرته وعلانيته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

قال الأستاذ: موت الأبدال الذين هم الأوتاد، ومنهم القطب فجبال الأرض التي هي أوتادها لتقلع في القيامة، وتسير جبال الأرض اليوم بموت السادة إذ هم الأوتاد للعالم بالحقيقة.

﴿ وَتَرَى ﴾ أرض البدن ﴿ بَارِزَةً ﴾ لا ظاهرة مستوية مسطحة بسيطة، كما كانت لا صورة عليها، ولا تركيب فيها ترابًا خالصًا ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ الضمير إما للقوى المذكورة وإما لأفراد الناس ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ غير محشور.

قوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ عرف كل صنف من أهل المقامات والولايات، وكل من لله دعوى من بساط عزته بما هم فيه في أيام البلاء في دار العناء، فيشهد كل مشاهد مشهده فمن شاهد يشهد مشاهد المنة، ومن شاهد يشهد مشاهد الوصلة، ومن شاهد يشهد مشاهد الصفات ومن شاهد يشهد مشاهد الذات، فمن كان مشربه المحبة فيكون في بحر الجمال، ومن كان مشربة الهيبة فهو في بحر الجلال، ومن كان مشربه المعرفة فهو في بحر الصفات، ومن كان مشربه التوحيد فهو في بحر الذات، ومن كان مشربة الجولان في الأفعال فموضعه مقام الجوار في الجنان، ومن كان محجوبًا في الدنيا عن هذه الأحوال فموضعه النيران.

قال الأستاذ: يقيم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص، ويلبس كلا بما هو أهله، فمن لباس تقوى، ومن قميص هدى، ومن صدار وجد من صدره محبة، ومن لبسه شوق، ومن حله وصلة.

ويقال: يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه فطرهم يوم القيامة فينادي المنادي على أحدهم هذا الذي أطاع واتقى، وهذا الذي عصى وطغى، وهذا الذي أتى ووجد، وهذا الذي أبى وجحد، وهذا الذي عرف فأقر، وهذا الذي خالف فأصر، وهذا الذي أنعمنا عليه فشكروا،وهذا الذي أحسنًا إليه فكفر، وهذا الذي سقيناه شرابنا ورزقناه محابنا، وشوقناه إلى لقائنا، ولقيناه خصائص مراعتنا، وهذا الذي وسمناه بحجتنا وحرمناه وجوه قربتنا، وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه توفيق وفاقنا، وهذا وأخجلتنا من وقوفي وسط دراهم إذ قال لي معرضًا: من أنت يا رجل.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ عند البعث ﴿ صَفًّا ﴾ أي: مصطفين مترتبين في المواقف لا يحجب بعضهم بعضًا كل في رتبة ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ أي: قلنا لهم ذلك اليوم لقد جئتمونا حفاة عراة عزلًا فرادى أي: ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ بإنكاركم البعث ﴿ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ وقتًا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ شاهدوا الحق على وصف فطرة الأولية حيث لا أعمال، ولا أحوال، ولا نطق، ولا أقوال محتاجين إلى عين منه ينظرون بها إليه، وإلى سمع منه يسمعون بها منه، وإلى قلب يعقلون به عنه، وإلى روح يعيشون به، وهم هناك على حد الفناء عن أوصاف الخليقة مغلوبين بأسرار قهر الأزل دهشين بين يدي جبروته؛ كأنهم يخرجون من العدم عاجزين في أنوار القدم يسألون عنهم على أي شيء كنتم، وعلى أي موقف وقفته من معرفة الجلال ومحبة الجمال فيهيجهم فضله العميم وكرمه القديم إلى نطق بالجواب فيقولون: نحن ما كنا في مهاد الولاية شاربين ألبان الزلفة من ثدي القربة، ساكنين عن غبار الوحشة، والآن جئناك على لباس العبودية ملامين في دار المحبة.

قَالَتْ سُكَينةُ مَن هَذَا؟ قلتُ لَهَا   أنَا الَّذِي أَنتَ عَن أَعْزَائِهِ زَعَمُوا

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ كتاب الأعمال يوضع الزهاد والعباد، ويوضع كتاب الطاعة والمعصية للعموم، ويوضع كتاب المحبة والشوق والعشق؛ لأهل الخصوص فكم من زفرة مكتوبة، وكم من أوه مكتوب، وكم من غيرة منقوشة، وكم من حرقة معرفة، وكم من لوعة الاشتياق مشهودة، وتلك الكتب بنظائر حقائق أنوار أسرارهم مشحونة، وهي لفضائل هؤلاء المشتاقين منشورة، وأودعت الفؤاد كتاب شوق سينشر طيه يوم القرار بعرض كتبهم على الأولين والآخرين؛ حتى يعترفوا بجهلهم عن معرفتهم في الدنيا بأستار، فكم من عارف ليس كتاب، وهو من أهل السر في سر السر ما عرف ملكه ما

جرى عليه، كيف يكتبان الذي لا يعرفان ولا يرانه، فأعماله قلبية وقلبه غيبي ،وغيبه أزلي لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه.

وهذا كقوله ﷺ: «إن لله عبادًا لا يطلع عليهم ملك مقرب، ولا نبي مرسل» [1] وهو من أهل خصوص الخصوص ظاهر الآية تخويف لمن له خاطر من الخواطر المذمومة، ونفس من أنفاسه المعدودة المعلومة المشوبة بالتفات سره إلى غير الحق.

قال أبو حفص: أشد آية في القرآن على قلبي قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ انظروا إلى المخالفات كان فيها الهلاك، ونظروا إلى الموافقات وجدوها مشوبة بالرياء والسمعة والشهوات فخوف أهل اليقظة من الموافقات أكبر من خوفهم من المخالفات؛ لأن المخالفات في مقابلة العفو والشفاعة وسوء الأدب في الموافقة أصعب وأكثر خطرًا، ولو لم يكن فيه إلا المطالبة بصدق ذلك. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب القالب المطابق لما في نفوسهم من هيئات الأعمال الراسخة فيهم، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ لعثورهم به على ما نسوا ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ يدعون التهلكة التي هلكوا بها من أثر العقيدة الفاسدة، والأعمال السيئة.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لكون آثار حركاتهم وأعمالهم كلها باقية في نفوسهم صغيرة كانت أو كبيرة ثابتة في ألواح النفوس الفلكية، وأيضًا مضبوطة فيها، تظهر عليهم على التفصيل في نشأتهم الثانية لامحيص لهم عنها وهذا معنى قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ سر معنى سجود الملائكة وإباء إبليس.

وقوله: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلامٌ مستأنف، كأن قائلاً قال: ما بال إبليس لم يسجد قال: كان من الجن أي: من القوى البدنية المختفية المواد؛ فلذلك فسق ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي: لاحتجابه بالمادة ولواحقها.

قال الله سبحانه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٩).

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إن الله سبحانه عاتب من التفت إلى شيء سواه من العرش إلى الثرى، وعرف مكان ألطاف ربوبيته ،وفردانية ذاته وصفاته، وأعلمنا مقام تنـزيه قدمه عن الأضداد والأنداد التي هي فانية تحت جبروته، وخاضعة في ميادين ملكوته القدم عن الحدوث ومن النور، وأي شيء النور والظلمة من إبليس وذريته، وإيش الأصنام والأوثان في ساحة كبريائه الأزلي الذي يفنى بسطوة من سطواته كل ما بدأ من العدم إلى الوجود، أي شناعة أشنع على من يعتمد على أحد دون عزته.

قال يحيى بن معاذ: لا يكون وليًا لله، ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شيء دون الله، أو اعتمد سواه، ولم يميز بين من يواليه ومن يعاديه، وحال إقباله من حال إدباره.

قال الله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال الحسين: خاطبك الحق تعالى أحسن خطاب، ودعاك إلى نفسه ألطف دعاء بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن الله سبحانه أخبر عن أولية ذاته، وتقدم صفاته حيث لا حيث، ولا أين ولا بين إلا رسم للحدث، ولا وسم كان بحر وجود جلاله مسرمدًا دائمًا منـزهًا عن نقائص الحدوثية، ولا عقل، ولا فهم، ولا علم كان في قدم عزته لا وجود لها، ولا عدم ولا رسم فلم يزل قائمًا بذاته، فإذا أراد كون الخلق مشاهد صفته بنعت التجلي أخرج الكون من العدم، ولم يحتج إلى إعانة حادث في إيجاده إذا لو شاهد

الخلق عند كونه، وإيجاد الحق وجوده تكون منقصة في نظر العدم، وكيف تكون ذلك القدم منـزه عن المعية مع الخلق.

فإذا كان كذلك فإيش يدرك من الحدثان وأسرار صفاته مندرجة تحت أسرار ذاته، وأسرار ذاته مخفية في أسرار صفاته للعقول بها إحاطة، وليس للقلوب بعرفانها منزلة، وليست الأرواح؛ لإدراكها خطرة، ولا للأسرار همة هي ممتنعة عنها ، يشاهدها أهل البرية التي استحقاقها من سطوة عزته وفناء.

قال أبو سعيد الخراز: لقد عجزت الخليقة عن أن تدرك بعض صفات ذاتها، وتدري كيف كنهها في أنفسها.

قال الله: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ فلم يملك الله الخلقية أن نحرى علم أنفسها في أنفسها فكيف يدرك شيئًا من صفات شاهدها.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾﴾، قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾.

قرى الحقائق لبعضهم نفوس، ولبعضهم قلوب ولبعض عقول، ولبعضهم أرواح، ولبعضهم أسرار، وللعموم صدور، ولعموم العموم أشباح فأهل الأشباح لما لم يستعملوا الحواس؛ بما خلق الله لها من طاعته وخدمته مسخها كقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ وأهل الصدور لما لم يراعوا أنوار الإسلام بتقديسها عن شوب النفاق خربها الله بجند الوسواس وأهل النفوس لما لم يزكوها بصفاء المجاهدة تركها في شهواتها، وحجبها عن صفاء الذكر وأهل القلوب لما لم يراقبوا أنوار الغيوب، ولم يدفعوا عنها الخواطر المذمومة حجبها عن رؤية ملك الآخرة وأهل العقول لما لم يستعملوها بالجولان في الأفكار، ولطائف الأذكار حجبها عن غرائب الأنوار.

وأهل الأرواح لما لم يجيلوها في ميادين الملكوت؛ لطلب مشاهدة الجبروت حجبها الحق بشواغل الرسوم وأهل الأسرار، ولما لم يعرفوا حقائقها وماهيتها؛ بأنها طروق لطائف

علومه الغيبية تركها خالية عن كشوف أحكام الربوبية، وأهل الظاهر لما لم يعرفوا المنعم باشتغالهم بالنعمة أهلكهم الله بأن شغلهم بالنعمة عن طلب المنعم.

قال أبو بكر بن طاهر: لما لم يشكروا نعم الله عندهم، ولما يقابلوا البلاء بالصبر والرضا.

قال الواسطي: وكلنا هم إلى سوء تدبيرهم حين سخطوا حسن اختبارنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ظاهرة على ما ذكر في القصص، ولا سبيل إلى إنكار المعجزات وإما باطنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ لما أخطئوا والطريق لم يسرا بالقلب فأثر عليهما النصب، وذلك بتعليم الله إياهما؛ بأن جاوزا عن الحد وسر القلب ربما عرف حكم الغيب لم يعرف ذلك القلب والعقل فيتأذى النفس من جهة الجهل به، ولو عرف القلب والنفس كما عرف السر لم يطرأ عليهما أحكام التعب، ولحوق النصب لهما بأنهما في مقام المادة والامتحان، ولو كان موسى هناك محمولاً بحظ المشاهدة؛ لكان كما كان في طور لم يأكل الطعام أربعين يومًا، ولم يلحق به تعب وهذا حال أهل الأنس، والأول حال أهل الإرادة؛ ألا ترى كيف قال ﷺ:

«أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1]. ولما كان في طلب الواسطة احتجب عن مقام المشاهدة، وابتلي بالمجاهدة أدبه الحق بذلك؛ حتى لا يخطر بباله أنه في شيء من علوم الحقائق فإنه تعالى غيور على من يدع بالبلوغ إلى سر الأسرار؛ لأجل ذلك أخرجه إلى تعلم علم الغيب.

وقال الأستاذ: كان موسى في هذا السفر محتملاً، وكان سفر تأديب واحتمال مشقة؛ لأنه ذهب لاستكبار العلم، وجال طلب العلم، وحال التأدب وقت تحمل المشقة، ولهذا لحقه الجوع فقال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ وحين قام في بدء انتظار سماع الكلام عن الله صبر ثلاثين يومًا، ولم يلحقه جوع ولا مشقة؛ لأن ذهابه في هذا السفر إلى الله، وكان محمولاً.

فإن يقال وإذ قال: ﴿هَـٰذَا نَصَبًا﴾ هو نصب الولادة ومشقتها ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ ما عراني ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: النحر للارتضاع ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ لاستغنائنا عنه ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، على إبدال أن أذكره من الضمير؛ وذلك لأن موسى كان راقدًا حين اتخذ الحوت سبيله في البحر على ما

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٣٠٩)، والترمذي (٣/ ١٤٨).

قيل، وفتى النفس يقظان، فأنسى شيطان الوهم الذي زين الشجرة لآدم، ذكر النفس الحوت لموسى؛ لكون الحال حال ذهول والسبيل المتعجب منه هو السراب المذكور.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تملص الحوت واتخاذه سبيله الذي كان عليه في جبلَّته ﴿مَا كُنَّا﴾ نطلبه؛ لأن هناك مجمع البحرين الذي وعد موسى عنده بوجود من هو أعلم منه، إذ الترقي إلى الكمال بمتابعة العقل القدسي لا يكون إلا في هذا المقام ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ في الترقي إلى مقام الفطرة الأولى، كما كانا أو لا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ أي: يتبعان آثارهما عند الهبوط في الترقي إلى الكمال.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه إشارة خفية إن لله سبحانه خواصًا من عبادة، وهم الذين اصطفاهم لمعرفة ما استأثر لنفسه من علوم الربوبية، وأسرار الوحدانية، وحقائق الحكمة ولطائف ملكوته وجبروته، وهم أهل الغيب وغيب الغيب والسر، وسرّ السر الذين غيبهم الله في غيبه، وسترهم عن خلقه شفقة عليهم فيما يظهرون من سر الله، وهم العباد بالحقيقة الذين بلغوا حقيقة العبودية بحيث جعل الله عبوديتهم محاذيًا لربوبيته، وإلا فالكل عباده من حيث الخليقة لكن هم العباد بالحقيقة من حيث المعرفة، ولولا تلك الخاصية المحضة لما قال ﷺ: «أنا العبد، لا إله إلا الله، أنا العبد بالحقيقة لا غير»[1].

وأي تشريف أشرف لخضر ﷺ من هذه الخاصية له سماه عبدًا، ومن بالحقيقة عبده لولا رحمته الكافية التي سبقت في الأزل لعباده لما يجترئ أحد من خلقه أن يقول: أنا عبدك؛ لأنه منــزه عن أن يعبده الحدثان بالحقيقة.

ووجد العقل القدسي وهو عبد من عباد الله مخصوص بمزية عناية ورحمة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي كمالاً معنويًا بالتجرد عن المواد والتقدس عن الجهات النورية المحضة التي هي آثار القرب والعندية ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ من المعارف القدسية والحقائق الكلية اللدنية بلا واسطة تعليم بشري.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هو ظهور أداة السلوك والترقي إلى الكمال ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية والحقائق المعنوية لعدم تجرد أو احتجابك بالبدن وغواشية فلا تطبق مرافقتي.

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

وهذا معنى قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ القوة استعدادي وثباتي على الطلب ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ لتوجهي نحوك وقبولي أمرك؛ لصفائي وصدق إرادتي والمقاولات كلها بلسان الحال

﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ في سلوك طريق الكمال ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ ﴾ أي: عليك بالاقتداء والمتابعة في السير بالأعمال والرياضات والأخلاق والمجاهدات، ولا تطلب الحقائق والمعاني﴿حَتَّىٰ﴾ يأتي وقته ﴿ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي: من ذلك العلم ﴿ ذِكْرًا ﴾ في الغيبية عند تجردك بالمعاملات القلبية والقلبية ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ في سفينة البدن البالغ إلى حد الرياضة الصالح للعبودية إلى العالم القدسي في بحر الهيولي للسر إلى الله ﴿ خَرَقَهَا ﴾ أي: نقضها بالرياضة، وتقليل الطعام، وأضعف أحكامها، وأوقع الخلل في نظامها وأوهنها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أي: أكسرتها؛ لتغرق القوى الحيوانية والنباتية التي هم القوى البدنية واستطعامهما منهم هو طلب الغذاء الروحاني منهم أي: بواسطتهم كانتزاع المعاني الكلية من مدركاتها الجزئية، وإنما أبوا أن يضيفوهما، وأن أطعموهما قبل ذلك؛ لأن غذاءهما حينئذٍ كان من فوقهم من الأنوار القدسية والتجليات الجمالية والجلالية والمعارف الإلهية والمعاني الغيبية، لا من تحت أرجلهم كما كان قبل خرق السفينة، وقتل الغلام بالرياضة والقوى والحواس، مانعة من ذلك لا ممدة بل لا تتهيأ إلا بعد نعاسهم وهدوئهم .

كما قال موسى لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ [طه: ١٠]، والجدار الذي ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ هو النفس المطمئنة، وإنما عبر عنها بالجدار؛ لأنها حدثت بعد قتل النفس الأمارة، وموتها بالرياضة، فصارت كالجماد غير متحركة بنفسها وإرادتها؛ ولشدة ضعفها كادت تهلك فعبر عن حالها بإرادة الانقضاض، وإقامته إياها تعديلها بالكمالات الخلقية والفضائل الجميلة بنور القوة النطقية، حتى قامت الفضائل مقام صفاتها من الرذائل.

وقول موسى ﷺ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ تلوين قلبي لا نفسي، وهو طلب الأجر والثواب باكتساب الفضائل واستعمال الرياضة؛ ولهذا أجابه بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أي: هذا هو مفارقة مقامي ومقامك ومباينتهما، والفرق بين حالي وحالك، فإن عمارة النفس بالرياضة والتخلق بالأخلاق الحميدة ليست لتوقع الثواب والأجر، وإلا فليست فضائل ولا كمالات؛ لأن الفضيلة هي التخلق بالأخلاق الإلهية بحيث تصدر عن صاحبها الأفعال المقصودة لذاتها لا لغرض، وما كان لغرض فهو حجاب ورذيلة لا فضيلة، والمقصود هو طرح الحجاب، وانكشاف غطاء صفات النفس والبروز إلى عالم النور؛ لتلقي

المعاني الغيبية، بل الاتصاف بالصفات الإلهية، بل التحقق بالله بعد الفناء فيه لا الثواب كما زعمت.

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي: لما اطمأنت النفس واستقرت القوى أمكنك قبول المعاني وتلقي الغيب، الذي نهيتك عن السؤال عنه حتى أحدث لك منه ذكرًا فسأذكر لك، وأنبئك بتأويل هذه الأمور إذا استعددت لقبول المعاني والمعارف.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾[1] في بحر الهيولي أي: القوى البدنية من الحواس الظاهرة والقوى الطبيعية النباتية، وإنما سماها مساكين؛ لدوام سكونها وملازمتها لتراب البدن، وضعفها عن ممانعة القلب في السلوك والاستيلاء عليه كسائر القوى الحيوانية.

وحُكِيَ أنهم كانوا عشرة إخوة خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر، وذلك إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بالرياضة؛ لئلا يأخذها ملك النفس الأمارة غصبًا، وهو الملك الذي كان وراءهم أي: قدامهم ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ بالغواشي البدنية أو القلب الذي مات، أو قتل قبل الكمال باستيلاء النفس في المدنية البدن.

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أي: كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب، لا مكان اجتماع جميع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال، وهو حال بلوغ الأشد واستخراج ذلك الكنز.

وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين: كان الكنز صحفًا فيها علم.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا ﴾ على كلا التأويلين ﴿ صَٰلِحًا ﴾.

وقيل: كان أبًا أعلى لهما، حفظهما الله له فعلى هذا لا يكون إلا روح القدس.

وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ولاية وقربًا ومشاهدة ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ معرفة كاملة، وعلمًا من علومه المجهولة الغيبية التي مكتومة عن كثير من الأخيار، وهو علم اللدني الخاص الذي استأثره الله لنفسه، والخواص خواصه، وذلك العلم حكم الغيب على صورة مجهولة حقائقها مقرونة بمنافع الخلق، وهذا يتعلق بعلم عالم الأفعال التي براهينها لاستحكام العبودية.

---

(١) أي: ضُعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي فِي زُمرةِ المَسَاكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

وأخص من ذلك الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة، وأخص من ذلك علم الصفات، وأخص من ذلك علم الذات، وعلم المتشابه خاص في العلم المجهول فكل ما يتعلق هذه العلوم يكون بالمكاشفات، وظهور المغيبات وعلم القدم الذي هو وصف الحق تعالى من علم الربوبية يتعلق بالإلهام الخاص، وسماع كلام القديم بغير الواسطة، وفوق ذلك ما استأثر الحق لنفسه خاصة، وليس للخلق إليه سبيل بحال.

قال ذو النون: العلم اللدني هو الذي محكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

قال ابن عطاء: علم بلا واسطة للكشوف، ولا بتلقين الحروف لكنه الملقى إليه بمشاهدة الأرواح.

قال الحسين: العلم اللدني إلهام أخلد الحق الأسرار فلم يملكها انصراف.

وقال القاسم: علم الاستنباط بكلفة ووسائط، وعلم اللدني بلا كلفة ولا وسائط.

وقال الجنيد: العلم اللدني ما كان محكمًا على الأسرار من غير ظرفية ولا خلاف واقع؛ لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات، وذلك يقع للعبد إذا زم جوارحه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كل الإرادات، وكان شبحًا بين يدي الحق؛ بلا تمنٍ ولا مراد.

قال سهل: الإلهام ينوب عن الوحي كما قال الله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وكلاهما إلهام.

وقال الأستاذ: إذا سمى الله إنسانًا بأنه عبده جعله من جملة الخواص، فإذا قال: عبدي جعله من خواص الخواص.

وقال العلم اللدني: ما يحصل من طريق الإلهام دون التكلف بالطلب، ويقال: ما يعرف به الحق أولياءه مما فيه صلاح عباده.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[1] أحسن الأدب موسى ﷺ حيث استأذن في المتابعة عرف موسى أن علم الحق لا نهاية له، فاشتاق إلى ما فوق علمه، فاستعلم مكنونه من مواضع تجليه وخاصية خطابه ،وذلك الرشد الأعلى بحيث إذا علم عرف في جنبه الحق بنعت خاص دون ما علمه السيار والسباح في بحر وحدانيته، وميادين قدرة غرثانه إلى علم ألوهيته، ولا بأس، فإن ذلك العلم الذي عند الخضر لم يكن عند موسى، فأراد سبحانه أن يعرف موسى ذلك العلم السري النور الغيبي فامتن بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريق وتقويم السنة في متابعة المشايخ،وليكون أسوة للمريدين والقاصدين في خدمتهم أشياخ الطريقة، وكان موسى أعلم من الخضر بما عنده من الحق، ولكن ليس عنده ما كان عند الخضر في ذلك الوقت فساعده التوفيق، فعرف منه أبواب تلك الأسرار المكتومة، فدخل في باب علم الخضر إلى عالم العلم المجهول، وبلغ إلى مقام فيه غاب علم الخضر، وعلم جميع الخلق هناك، وهذا زيادة فضل الله على موسى .

قال فارس: إن موسى كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى.

وقال أيضًا: إن موسى كان مبقى عليه صفته؛ ليأخذ الغير أدبه، فمن انقطع عن الرياضة كان على حسب العصمة والتمكين فيه، والخضر كان فانيًا مستهلكًا، والمستهلك لا حكم له، وموسى كان باقيًا بالحق، ولا فرق بينهما؛ لأنهما تكلما من معدن واحد، ثم إن الخضر تعلل، ودفع صحبة موسى ﷺ ونسب موسى إلى قلة الصبر معه، وبقلة العلم بما عنده وهو يعلم أن موسى أكرم الخلق على الله في زمانه، وهو رجل منبسط معربد، ففزع من صحبته فدفع صحبته بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فقرن الصبر بالعلم، وبين أن قلة الصبر من الجهل، وكان موسى صابرًا عالمًا، ولكن من حمية في دينه وشريعته، لم يقبل ما لا يوافق الشرع، وذلك ليس قلة الصبر، ولا قلة العلم؛ إنما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحفظ لحدود الله، كان موسى مستغرقًا في بحر جمال الحق وسماع كلامه المسفر منه بلا وساطة، وذلك الكلام أخبره عن سر الأسرار، وغرائب علوم الربوبية، وكان فارغًا عن

---

(١) فصار جوابه لن من الحق ومن الخلق ليبقى موسى بلا موسى ويصفو موسى عن كل نصيب لموسى بموسى. تفسير حقي (٤/ ٢٦٨).

صورة رسوم علم المقادير التي يتعلق بالمنافع والمضار فعلم الشيخ شأنه؛ إنه مع حاله وسكره بوصال الحق لا يحتمل مالا يتعلق بتلك الكشوفات، ولا بأس به وإن لم يعلم ذلك العلم فإن السلطان لا يضر به إن لم يعلم علم التجارة.

قال جعفر: لن تصبر مع من هو دونك فكيف تصبر مع من هو فوقك؟

وقال بعضهم قال الخضر لموسى: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ثم لم يصبر مع الخضر بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ليعلم أنه ليس لولي أن يتفرس في نبي.

قال بعضهم: آيسه من نفسه؛ لئلا يشغل صحبته عن صحبة الحق، ولما عزم أمر طلب الزيادة في موسى ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ تأدّب موسى واستثنى؛ لأنه كان عالمًا بأن الصبر لا يكون إلا بالله.

قال فارس: موسى‍ﷺ استثنى على نفسه بقوله: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أو لم يستثن الخضر على موسى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال: لأن علم موسى في ذلك الوقت علم تكليف واستدلال، وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب، وقال: موسى كان على مقام التأديب، والخضر قائم مقام الكشف والمشاهدة لما جعل مؤدبًا له، ثم علم الخضر أن موسى صغر في عينه علم من كان على وجه الأرض، ولا يلتفت من مقامه الذي هو الشهود مشهد رؤية الذات والصفات إلى ما يظهر من المقدرات في عالم الصورة التي يتعلق بمنافع الخلق من جلال شأنه عند الله، وعظيم علمه بنعت الله وصفاته فأكد الأمر : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ دفع سؤاله فإن الصادق يعلم الواقعة إذا كان متحققًا، وتبين له ما يريد بصدقه وإخلاصه، ولا يحتاج إلى السؤال وحق المتابعة السكون عند تصرف الأستاذ.

قال الحصري: علم الخضر تصور علمه عن محل سؤال موسى، وإنه لجأ إليه للتأديب لا للتعليم فقال له: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ لأن علمك أعلى وأتم، وإنما أُلجئت إلى التأديب لا للتعليم في خاص حال من الأحوال.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ سلكا طريق السؤال يتعلق

بتذلل النفس في الطريقة، فلما أبوا أن يضيفوهما نزلا من مقام السؤال إلى الكسب والكسب من أوصاف السالكين، والسؤال من أوصاف المجذوبين الذين لا يطيقون أن يشتغلوا بالمكاسب، ويضيعوا أنفسهم بالاشتغال بالكسب بل يسألون ما يحتاجون بلحظة، ويفرغون من ذلك بلحظة، وطريق السؤال بالحقيقة للتمكين أن يكون المسئول في البين هو الله عز وجل، والسؤال سبب ضعيف، فإذا كمل الحال يسقط السؤال والكسب، وفيه بيان أن الكسب والسؤال لم يمنعا العارف من مقام الرضا والتوكل؛ لأن مع جلالة قدرهما سألا واكتسبا وكانا في محل التوكل والرضا على أحسن الأحوال.

قال الواسطي في قوله: ﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ الخضر شاهد أنوار الملك، وشاهد موسى الوسائط، وكان الخضر أخبر موسى أن السؤال من الناس هو سؤال من الله فلا تغضب عن المنع فإن المانع ، والمعطى واحد، فلا تشهد الأسباب، وأشهد المسبب تشريح من هواجس النفس، ولما أقام الخضر الجدار، وترك أجر العمل.

قال موسى: ﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ لم يكن موسى يطمع في أجرة العمل لكن وجد أهل القرية لئامًا بخلاء أراد أن يأخذ أجرة العمل ويتصدق بها لأمرين شحنه لعيون البخلاء داء.

هكذا قال ﷺ في وصف تلك القرية قال: كانت قرية اللئام، وقال: طعام البخيل داء، ويمكن أنه أراد أن يأخذ الأجرة، ويأكل منها الأنبياء فيغفر الله لأهل القرية ذنوبهم ويجعلهم أسخياء ببركتهم، وكان موسى في مقام الرفاهية والأنس، وتضر به المجاهدة، وكان الخضر بعد قد بقي في منازل ، وكان موسى في بحر نيران الاشتياق، ولا يصبر عن الطعام، وهكذا حال أهل النهايات، وكان ﷺ في بدء الأمر في مقام السماع والمشاهدة صبر عن الطعام والشراب أربعين يومًا، وكان نبينا ﷺ من المعراج روي أنه جاع في الساعة، وذلك من صولة الحال، وكان ميل الخضر إلى ترك أجره العمل، وهذا من دأب الفتيان.

قال ابن عطاء: رؤية العمل وطلب الثواب به يبطل العمل.

ألا ترى الكليم لما قال للخضر: ﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ كيف فارقه.

وقال الجنيد: إذا وردت ظلم الأطماع على القلوب حجبت النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم، ولما انتهى علم الخضر إلى كمالها وعرف موسى شأنه، وحد علمه، وكاد أن يغلب على الخضر بأن يطلب منه أسرار العلوم الربانية الصفاتية الذاتية علم الخضر أنه بنفسه لا يطيق أن يجيبه، مما يدفعه فيفرغ منه فعلل بقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ ﴾ عرف الخضر سر موسى وآنسه بجمال الحق، وأنه ممتحن في صحبته فأراد أن يريحه من صورة العلم

والعمل، وأيضًا عرف حدثه، وخاف من جواب سؤاله الذي من عالم سرٍّ سر الربوبية العلية فخاف منه بأن يتطاول على شيخ من شيوخ القصة، وكيف لا يفرغ منه وعلم وكزته التي ذهبت بإحدى عيني عزرائيل عليه السلام.

قال النصر آبادي: لما علم الخضر انتهاء علمه وبلوغ موسى إلى منتهى التأدب، قال: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾(١) لئلا يسأله موسى بعده عن علم أو حال فيفضح.

وقال أبو بكر بن طاهر: كان موسى ينهى الخضر عن مناكير في الظاهر، وإن كان للخضر فيه علم لكن ظاهر العلم ما كان يأمر به موسى فلما نهاه عن المعروف بقوله: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ورده الطمع.

قال: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ قد عجبت من هذا الأمر، وأن الله سبحانه كان في الأزل عالمًا بذلك قادرًا على أن يخلقه مؤمنًا، ولم يطبع على قلبه الكفر حتى لا يكون أبواه بسببه كافرين ،لكن حكمته الأزلية جارية بغير إدراك إفهام الفهماء ،وهو لا يحتاج إلى قتل الغلام بغير جرم، بل هو قادر على أن يهديه إلى طريق الحق؛ حتى لا يغشى عليه، وعلى أبويه ظلمة الكفر﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨] و ﴿ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] ظاهر الآية كأنها تنبئ أن اكتساب البشر مانع القدر، كقتل الخضر الغلام يمنح صيرورة كفر أبويه، والأمر على مما يتوهم المتوهمون فيه؛ لأن ذلك بيان وصف عين الجمع في العالم أن الخضر كان فعل الله، والغلام فعل الله، والقتل فعل الله،

---

(١) فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبَوَيْ الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوعُ تعريضٍ به، وعناية عليه السلام. البحر المديد (٣/ ٤٢٤).

والأمر أمر الله، والقدر قدر الله، فمن حيث القدر يثبت، ومن حيث الفعل يمحو ما قدر يمحو الله ما يشاء مما قدر في الأزل، بقدر أسبق من ذلك القدر، وهو علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر، وأمر الأمر ويثبت مما يشاء مما قدر الذي لم يسبق عليه قدر القدر، فهو في جميع ذلك واحد من كل الوجوه ،السبب صدر من المسبِّب والمسبَّب والسبب في عين الجميع واحد.

كان نظر الخضر إلى القدر الظاهر، ونظر موسى إلى قدر القدر، كان موسى احتج على الخضر؛ بأن القدر سبق على بقاء إيمان أبويه، وإيمان المقتول معًا، وإن لم يكن القتل في البين، واحتج الخضر على موسى بأن قتل الغلام كان أيضًا مقدَّرًا في أزل الآزال، وهو بذاته فعل الله المباشر في أمر الله، فلما علا علمه بالقدر على علم موسى.

قال: ﴿ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وأظن في ذلك أن الغلام كان حسن الوجه، وكان فيه نور من كسوة حسن الحق، فخاف الخضر على أهل الحق ومعرفته أن ينظروا إليه ويستأنسوا بها يجدون من نور الله فيه، فيقفون بالوسائط عن مشاهدة الله، فقتله بغير الله ورفع الوسائط من بينه وبين أحبائه وأنبيائه وأوليائه.

قال بعضهم: تفرس الخضر في الغلام ما تئول إليه عاقبته من الكفر، كذلك من تفرس بنور الله لا يخطئ فراسته، قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ هذه الإرادات على صورتها مختلفة، وفي الحقيقة واحدة ؛لأن الإرادة بالحقيقة إرادة الله إذ الإرادات صدرت بصنوفهم عن إرادة الله فقوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ خبر عن عين الجمع والاتحاد ، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ خبر عن الاتصاف والانبساط وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ خبر عن إفراد القدم عن الحدوث، وتلاشي الحدث وفناء الموحد في الموحد، وهذه الإرادة بوصفها باطن المشيئة، وباطن المشيئة غيب الصفة، وغيب الصفة سر الذات، والذات غيب جميع الغيوب، ولما تحرك من وصف الاتحاد قطعته الغيرة من محض الاتحاد إلى عين الجمع وقطعته الجمع إلى الاتصاف، ومن الاتصاف إلى الانبساط، ثم أغرقته بحر الألوهية، وأفنته في لجحها عن كل رؤية، وعلم وإرادة فعل، وإشارة كان الحق بفصله نطق في الأول والثاني والثالث، ولم يبق في البين إلا الله.

قال ابن عطاء لما قال الخضر ﷺ: ﴿ فَأَرَدت ﴾ أوحي إليه في السر من أنت؛ حتى تكون لك إرادة فقال في الثانية: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ فأوحي إليه في السر من أنت وموسى؛ حتى تكون لكمال إرادة فرجع وقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾.

وأيضًا قال أما قوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ كان شفقة على الخلق، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ رحمة، وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ رجوعًا إلى الحقيقة.

وقال الحسين في قوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ وأردنا ربك المقام الأول استيلاء الحق، والمقام الثاني مكالمة مع العبد، والمقام الثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر، فصار به باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان وعيان العيان غيب الغيب، كما أن القرب من الشيء بالنفوس هو البعد فالقرب منها بما هو القرب.

قصة ذي القرنين مشهورة، وكان روميًّا قريب العهد والطبيعي أن ذا القرنين في هذا الوجود هو القلب الذي ملك قرينه أي: خافقيه شرقها وغربها ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ ﴾ في الأرض البدن بالأقدار والتمكين على جميع الأموال من المعاني الكلية والجزئية، والسير إلى أي قطر شاء من الشرق والمغرب ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ إرادة من الكمالات

﴿ سَبَبًا ﴾ أي: طريقًا يتوصل به إليه ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ طريقًا بالتعلق البدني وتوجه إلى العالم السفلي.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: مكان غروب شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي: مختلطة بالحمئة وهي المادة البدنية الممتزجة من الأجسام الفاسقة، كقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ هم القوى النفسانية البدنية والروحانية ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ بالرياضة والقهر والإماتة ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالتعديل وإيفاء أحظ ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ بالإفراد وعدم الاستسلام والانقياد كالشهوة والغضب والوهم والتخيل ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ بالرياضة

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ في القيامة الصغرى ﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ ﴾ بالإلقاء في نار الطبيعة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي: منكرًا أشد من عذابي، وفي القيامة الكبرى فيعذبه عذاب القهر والإفناء ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ بالعلم والمعرفة كالعاقلتين، والفكر والحواس الظاهرة ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ بالسعي في اكتساب الفضائل والانقياد والطاعة ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ المثوبة ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ من جنة الصفات، وتجليات أنوارها وأنهار علومها ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: قولًا ذا يسر بحصول الملكات الفاضلة ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ ﴾ طريقًا هي طريق الترقي والسلوك إلى الله بالتجرد والتزكي.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: مطلع شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم العاقلتان والفكر والحدث والقوة القدسية ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي: حجا ب بالتنور بنورها؛ لإدراكهم المعاني الكلية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أمره كما وصفنا ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من العلوم والمعارف ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ لا يتجاوزن حاجزًا لا يعلونه، وذلك هو الحد الشرعي والحجاب القلبي من الحكمة العملية ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ من المعاني الكلية والجزئية الحاصلة بالتجربة، والسير في المشرق والمغرب ﴿ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي: عمل وطاعة.

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هو الحكمة العملية والقانون الشرعي ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ من الصور العلمية وأوضاع الأعمال ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ بالتعديل والتقدير ﴿ قَالَ ﴾ للقوى الحيوانية ﴿ ٱنفُخُوا ﴾ في هذه الصور نفخ المعاني الجزئية، والهيئات النفسانية من فضائل الأخلاق.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ أي: علا برأسه من جملة العلوم يحتوي على بيان كيفية الأعمال ﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ والنية والقصد الذي يتوسط بين العلم والعمل، فيتحد به روح العلم وجسد العمل، كالروح الحيواني المتوسط بين الروح الإنساني والبدن، فحصل سدًا أي: قاعدة وبنيان من زبر الأعمال ونفح العلم والأخلاق، وقطر العزائم والنيات، واطمأنت به النفس وتدبرت فآمنت.

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾(١) ويعلوه؛ لارتفاع شأنه وكونه مشتملاً على علوم وحجج لم يمكنهم دفعها والاستيلاء عليها ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لاستحكامه بالملكات والأعمال والأذكار ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ السد أي:القانون ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ على عباده يوجب أمنهم وبقاءهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بالقيامة الصغرى ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ باطلاً منهدمًا؛ لامتناع العمل به عند الموت وخراب الآلات البدنية.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا

---

(١) أي: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه. البحر المديد (٣/ ٤٣٥).

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان بجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له ، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

وهذا وصف قول الله سبحانه وتعالى :﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨].

وقال :﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ ﴾ جعلنا الدنيا طوع يده فإذا أراد طويت له

الأرض، وإذا أحب انقلبت له الأعيان، وإذا شاء مشى على الماء، وإذا هوى طار في الهواء، وكذا من أخلص سريرته مكناه من مملكتنا ينقلب فيها كيف يشاء، فمن كان الملك كان المُلك له.

وقال جعفر: إن الله تعالى جعل لكل شيء سببًا، وجعل الأسباب معاني الوجود، فمن شهد السبب انقطع عن المسبب، ومن شهد صنع المسبب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، وإذا امتلأ قلبه من الزينة حال بينه وبين الملاحظة، وحجبه عن المشاهدة قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: من عرف الله وشاهده وبرئ مما دونه.

﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يعني له وصل الحق أبدًا جزاء لهذه المعاملات الحسنة.

وأيضًا زيادة المعرفة بجلال الله وعظمته، وتلك المعرفة الحسنى من الله .

قال ابن عطاء : من صدق الموعود، وأحسن اتباع أوامر ربه فله جزاء الحسنى، وهو أن يرزقه الله الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعمة، ونزع من قلبه حب الشهوات والدنيا ووساوس النفس والشيطان.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ بالاضطراب والاختلاط أي: تركناهم يختلطون لاجتماعهم الروح مع عدم الحيلولة.

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ للبعث في النشأة الثانية ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ أو بالقيامة الكبرى حال الفناء، وظهور الحق جعله دكًّا؛ لارتفاع العلم والحكمة هناك، وظهور معنى الحل والإباحة، بتجلي الأفعال الإلهية وانتفاء الغير وفعله ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ حيارى مختلطين شيئًا واحدًا لا حراك بهم، ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ بالإيجاد بالوجود الحقاني حال البقاء، فجمعناهم جمعًا في التوحيد والاستقامة والتمكين، وكونهم بالله لا بأنفسهم.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ أي:يوم القيامة الصغرى يتعذب المحجوبون عن الحق بأنواع العذاب والنيران ،كما ذكر في سورة «الأنعام» أو في ذلك الشهود أي: ظهر لصاحب القيامة الكبرى تعذبهم في نار جنهم.

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ كانت أعينهم في غطاء

غيرته، وشقاء مشقته عن النظر إلى مرآة الكون بالحقيقة؛ حتى يروا حقيقة ماهية الأشياء التي لطائفها تذكر القلوب عجائب أنوار الذات والصفات.

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي: محجوبة عن آياتي وتجليات صفاتي الموجبة لذكري ﴿ لَا يَبۡغُونَ﴾.

وأيضًا أعينهم في غطاء الشقاء، ولا يرون جمال القرآن الذي هو مذكر جميع الذات والصفات القدمية.

وأيضًا كانت أعينهم في علم الأزل مسدودة عن رؤيتنا.

وأيضًا وصفتنا التي مذكرة ذكرها ذكر، وصف القدم لأهل العدم بعد كونهم، وبعد غيبتهم عنا ولا يسمعون كلامنا بالحقيقة، ولا يسمع آذان قلوبهم وأرواحهم وعقولهم أصوات هواتف غيبنا.

قال ابن عطاء: أعين نفوسهم في غطاء عن نظر الاعتبار، وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة العيان في الملكوت، فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح رأسه نظر الاعتبار وقال: لا يستطيعون سمعًا؛ لأن آذانهم مسدودة عن سماع الحق، ولم يفتح له سمع السماع كيف يسمع بظاهر سمعه، وهو تبع لسمع قلبه.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ وصف الله أهل الرياء والسالوس والناموس الذين يجلسون في الصوامع؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس ، وطلب الرياسة

---

(١) في قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ ﴾ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلَّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفَّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمها الكفار.

والسلطنة ضل سعيهم في الدنيا والآخرة حين يفتضحون في أعين الخلق؛ لأن الله سبحانه عن صفته أن يفتضح المرائين في الدنيا، ومع ريائهم يجهلون سوء عواقبهم،ولا يعرفون أن ما هم فيه عين الشرك والضلالة، ويحسبون أن أعمالهم حسنة، وكيف يقع الحسن على أعمالهم، وهم فيها يشركون بنظرهم فيها إلى غير الله.

قال ﷺ: «أدنى الرياء شرك»[1].

سُئل أبو بكر الوراق عن هذه الآية قال: هو الذي يبطل معروفه في الدنيا مع أهلها بالمنة، وطلب الشكر على ذلك، ويبطل طاعته بالرياء والسمعة.

ثم إن الله سبحانه وصف عقب ذكر هؤلاء المبطلين أهل الإخلاص من الصالحين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ أي: إن الذين عاينوا الحق وصبروا في الحق، وتمكنوا في إخفاء الأسرار، واستقاموا في إدارة قلبهم بوصف الهدف عند أصالة سهام الربوبية فيه كانت في الأزل لهم باختيار الحق واصطفائيته لهم بساتين فردوس جلاله وجماله ونطائف وصاله وأسرار كماله إلى أبد الآبدين لا يحتجبون عنها أبدًا؛ لأن من وصل إليه صار مستقيمًا بالحق مقدسًا بقدسه عن علل الحجاب، والاعوجاج والتحويل.

قال أبو بكر الوراق: من أنزل نفسه في الدنيا منزل الصادقين، أنزله الله تعالى في الآخرة منزل المقربين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ متنعمين فيها نعيم الأبد ينقلبون في مجاورته، ويفرحون بمحرضاته قد أمنوا كل مخوف، ووصلوا إلى كل محبوب، ولا يشتهون شيئًا إلا وجدوه كيف يطلبون عنه تحويلاً؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ إن الله سبحانه أخبر بهذه الآية أن أوهام الخليقة تقاصرت عن إدراك علومه وحكمته بالحقيقة، وأن أبصارها كليلة عن الإحاطة بذاته، وأن قلوبنا عاجزة عن فهم معاني صفاته في ذاته وذاته في صفاته، وأن الكون لو كان كمل بحره

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٥).

منه بحر الأساعي لها مداد، وإن من العرش إلى ثرى كل ذرة منها ميدانًا وصحارى من أقلام، وجميع الأولين والآخرين من الأزل إلى الأبد يكتبون كلمات القدمية لفنيت الكل عن حصرها، وبقيت الكلمات غير محصورة الحدثان، وكيف ذلك والحوادث منتهية، وصفات الأزلية منزهة عن نقائض الحدوثية والعدد والمدد من قبل الخليقة، فلو كان بالمثل هذه البحور والأقلام والأيدي ، تكتب ما في قلب عارف في ساعة من كلام الحق وخطابه وحديثه ووحيه لنفد البحر، وينقطع الأقلام والأيدي، ولا تنتهي تلك الكلمات؛ لأنها قائمة بالصفات والذات والصفات منزهة عن تقدير المقدرين، وحسبان المتوهمين، وحساب المحاسبين.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ [لقمان : ٢٧].

وإشارة الحقيقة أي: لو كان بحار القلوب مملوءة من مداد الخواطر وأسرارها التي تدور في سرادق الكبرياء أقلامًا، وتستمد مدادها من بحر الأفعال؛ لنفدت عند نشر معاني علم الله في كلمة من كلمات الله؛ لأن ملك البحار فعالية والكلمات صفاتية، والأفعال متلاشية تحت أنوار الصفات، ولا تعجب أن جميع الأكوان من العرض إلى الثرى؛ لو كانت كل ذرة منها ألف بحر لا ساحل لها يكون قطرة من بحر خواطر القلوب وأسرارها سبحان المنزه عن إحاطة المخلوقات بشيء من علمه.

قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

قال الحسين: مقياس العدم في الوجود في معنى جوده فإما خاص الخاص من كلامه فلو كانت أبد الأبد أقلامًا ومدادًا وبياضًا ما نفد معاني كلمة من كلماته، ولا يوصف أكثر مما قد أشير إليه، وإنما يذكر الناس ما يفيدهم معاني العبودية من علم وثواب عقاب، ووعد وعيد على حسب ما يحتمل عقولهم، فأما الكمال من فائدة الكلام فللأنبياء والأصفياء والأولياء.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ إن الله سبحانه زين حبيبه بأنوار الربوبية، وجعله متصف بصفاته متخلقًا بخلقه، وكان مرآة الحق في العالم يتجلى منه للعالمين فمن كان له عين من عيون الله مكحولة بسنا ذاته ينظر بها إليه، ويرى بالحق فيه جمال الحق فكاد من عليه شوقه إلى جمال ألا يبرح لحظة من عنده، ولا يتفرغ إلى صورة العبادة فأخبر الله

سبحانه بلسانه بأنه مخلوق، وإن كان متخلقًا بخلقه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمره بأن يعرفهم إفراد القدم عن الحدوث بعد كونهم في رؤية عين الجمع فلا يرضى عنهم برؤية عين الجمع؛ بل يرضى عنهم برؤية جمع الجمع لذلك: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: من نظر إلى غيره، وإن كان متلبسًا بنوره ملبسًا بسنائه فقد أشرك في التوحيد.

لذلك قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»[1].

وزاد التأكيد في تقديس الأسرار عن ملاحظة الأغيار في مشاهدة الملك الغفار قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾ أي: من كان من أهل مشاهدة الله، ورجاء وصوله واليقين في لحوقه إلى قربه فلتكن أعماله في السر والعلانية مقدسة عن نظر نفسه ورؤية أعواضها في قلبه، والتفات عقله إلى غير الله فالفرد لا ينبغي إلا للفرد، والفرد يكون بالفرد فردًا فمن أفرده الحق يكون منفردًا عن غيره لا بغير شيء من الحدثان.

قال الأنطاكي: من خاف المقام بين يدي الله عز وجل؛ فليعمل عملاً يصلح للعرض عليه، والله عجبت من أقوال مشايخي- رحمة الله عليهم- في العمل الصالح، وأين العمل الصالح، والعمل الصالح ما يصلح للقدم، وأين الحدث من القدم؛ حتى يصلح له؟

قال يحيى بن معاذ: العمل الصالح ما يصلح بأن تلقى الله به، ولا تستحي منه في ذلك.

قال سهل: العمل الصالح المقيد بالسنة، ثم إن الله سبحانه بين أن ما يكون من الأعمال الصالحة خاصة لوجهة يصير خالصًا عن إشارة الأغيار، وأن يخطر بقلب العامل ذكر الأشياء الحدثانية في مباشرة العمل، وأي: شرك أعظم من أن يرى لنفسه قيمة عند مباشرة العمل، فينبغي أن يتفرد بقلبه وسره وخاطره عن أن يكون له نظر إلى وجود؛ بل يكون فانيًا بحقيقة الفناء في بقاء الحق.

قال الأنطاكي: لا يرائي بطاعته أحدًا.

قال جعفر: لا يرى في وقت وقوفه بين يدي ربه غيره، ولا يكون في همة وهمته غيره، وعجبت من سر التوحيد؛ لأن الله سبحانه خاطب الخلق من حيث الخليقة لا من حيث الحقيقة ، وأين الحدث؟ وشركه في وجود القدم حتى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الأحدية صفة الموحد القديم، وعبادة اسم الأحد عرف الأسماء، والصفات خارجة عن العرف، فإذا كان اسم العدد في الوحدانية معزولاً، فأين اسم وحدة الحدثان في وحدة الحق؟

قال الله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧١).

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ ۝﴾ أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.

ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبأن نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي

«الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصّاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق والمحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله: وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝﴾، وتخصيص زكريا برحمته وذكره أنه كان ﷺ تعرض بنعت الفناء والعجز بجلال جبروته وعظائم ملكوته ليهب له من يرث منه علوم الحقيقة، ولطائف حكم الإلهية، فأخبر سبحانه عن تعطفه به ورحمته الكافية عليه بأنه أجاب دعوته وأعطى مأموله، وجعله إمامًا للخاضعين، ومقتدى للسائلين.

قال الحريري: في هذه الحروف سبب رحمة ربك عبده زكريا.

قال ابن عطاء: ذكر اختصاص زكريا بالرحمة، وإن كانت رحمته قد وصلت إلى الأنبياء فخصَّ زكريا من بينهم باللطف رحمة، وهو أن وهب له يحيى الذي لم يعص ولم يهم بمعصية؛ فهذا هو محل اختصاصه.

ثم وصف الله سبحانه نبيه زكريا بلطائف المناجاة، وخفي الذكر في المراتبات بقوله:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ إذ حاج سره إلى طلب الخنوع إلى الربوبية، والفناء تحت العظمة، والذهاب عن الذهاب في برجاء الهيبة في مقام المشاهدة ونجوى سره فناجى سر سره خفيًّا عن سره، ونادى سره خفيًّا عن روحه، ونادى روحه خفيًّا عن عقله، ونادى عقله خفيًّا عن قلبه، ونادى قلبه خفيًّا عن نفسه، ونادى نفسه خفيًّا عن صورته، ونادى لسانه بل جميع وجوده لسانًا خفيًّا عن غير ربه؛ فمناجاته ونجواه أخفى عن كلِّ خفي؛ لأنه نادى ربه بريه، وتلك المناداة ما وصف ﷺ بالخيرية والخاصية عن جميع العبادات والأذكار والأفكار بقوله: «خير الذكر الخفي»[1].

قال: عن عطاء: ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ أخفى نداءه من الخلق، ومن نفسه، وأظهر النداء لمن يجيبه، ويقدر على إجابته، وفائدة إخفاء النداء من الخلق، ومن النفس لئلا يدخله تلوين.

وقال بعضهم: خفي في الذكر عن الذكر، ومن ذا قيل: إذا أذهلتك العظمة خرس قلبك ولسانك عن الذكر.

قال بعضهم: أخفى سؤاله عن نفسه، وروحه فنداؤه لمن يقدر على إجابته وقضاء حاجته فسمع الحق نداءه، ووهب له يحيى كما طلبه.

ثم وصف الله سبحانه عبده زكريا بأنه جعل نفسه في مقام العجز والتواضع في سؤاله عن ربه، وهكذا حال السؤال على باب جبروت ذي الجلال، وكان في دعائه موقنًا؛ لأن قلبه شاهد مقام استنشاق نفحة الإجابة لذلك قال: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال ابن عطاء: قام مقام معتذر لما وجد في نفسه من فترة العبادة لكبر السن، فسأل الله من يعينه على عبادة ربه، وينوب عنه فيما عجز عنه من أنواع العبادة منابة؛ فقال: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، ورضاه لخدمتك ومستصلحة لعبادتك ثم إنه كان ﷺ رأى بعين سره روح ابنه في الملكوت طائرة في رياض الجبروت؛ فسأل ما رأى فقال: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ ناصرًا صديقًا نبيًّا مرسلاً، يعرف حالي، ويرث مقامي، ويتخلق بخلق آبائي، ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ مرضيًّا عندك بعد اتصافه بصفتك راضيًا عنك بعدما شاهد الرضوان الأكبر بنعت المتبري عن غيرك.

قال ابن عطاء: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ ﴾ أي: ولدًا نتخذه وليًّا يرث مني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، وقيل: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب السخاوة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٩١).

والكرم والصبر على النوائب، والرضا بالمقدور.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾: يرضى منه أخلاق الظاهر، ويرضيه عنك في الباطن.

وقال جعفر: «ورضيًّا» أي: راضيًا بما يبدو له عليه.

قال أبو حفص: اعتذر إلى ربه في ضعفه عن القيام بالعبادة على حسب ما يريد ثم هو سبحانه بشَّره بما سرَّه، فقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ يحيى بحياته، ومشاهدة جماله، ومعرفة كماله، نفخ نفس صبح القدم في يحيى، فيحيى من موت العدم بأنوار القدم، وإذا بحياته لم يمت بموت الفرقة، وما طرأ عليه طوارئ قهر الغيرة، وقد تخصص من بين الأنبياء والرسل وجميع الخلق من طريان الامتحان الذي يكون سبب حجاب القلوب عن الغيوب، ولذلك خصَّ اسمه وخصه بهذا الاسم المبارك بقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فكان في اسمه «ياءان وحاء»؛ فالياء الأولى ياء نداء الحق في الأزل نادى الحق بنفسه إلى العدم، ودعا من نفسه بنفسه وجود عبده يحيى؛ فتكون بياء نداء الأزل، وأجاب الفطرة الفعلية نداء الحق فصار قائمًا بقدرته بعد أن تجلى الحق من «حاء» حياته لتلك الفطرة، فصيرورته بروح الحق وروح حياة الحق فنادت تلك الفطرة بعد كونها، ودعت صانعها وأقرت بربوبيته، فالياء الأول نداء الربوبية من العدم.

والياء الثاني من اسمه نداء بنعت الجواب بالعبودية من العدم فألبسه الحق بين ياءين روحًا من حاء حياة الأزلية فصار حيًّا بحياته، مقدسًا من غمرات الموت، ولا اعتبار بذهاب الصورة عن البين فإنه نقل مع نقل الروح لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا أرواحنا»[1].

قال الصبيحي: سماه يحيى، وقال: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝﴾ افتتح اسمه

---

(١) لم أقف عليه.

بالياء، وختمه بالياء، وتوسط بين ياءين حاء الحنانية، فاسمه في الخط مرسوم موجه يُقرأ من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله.

فياء الأول توفيق، وياء الآخر تحقيق؛ فلذلك لم يعص، ولم يهم بمعصية؛ فقال الجنيد: سمي يحيى، ولم يكن له من قبل سميًّا؛ لأن يحيى من يحيا بالطاعة والموافقة، ولا يموت بالذنب والمخالفة، وكان هذا صفته ونعته لم يجر عليه وسم الخلاف، ولا لسان الذنب بحال، كان محمود السيرة من مبتدأ أمره إلى منتهاه؛ لذلك قال النبي ﷺ: «ما أحد من الخلق إلا أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا؛ فإنه ما أخطأ ولا همَّ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝﴾ هذا جواب قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝﴾ ما شكَّ في قدرة القادر، لكن تفحص من شأن الحال حتى يقع نظر سره على تجلي القدرة وسرها لعل ينكشف له عين ذات الأزلي.

فأجابه الحق: أين أنت مما طهر في نفسك مما تطلب في خلق ابنك؟ انظر إلى وجودك بعين الحقيقة؛ حتى تراني في كونك، وتستغني عن النظر إلى غيرك، ألبست نور قدمي فعلي، وألبست نور فعلي العدم وصيرتك موجودًا بظهور وجودي بنعت قدمي بعدمك.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝﴾: المقادير صرحت بمعانيها، وكشفت عن أوقاتها.

وقال أيضًا: أنت في حال وجودك كأنك في حال عدمك عندنا لا تحدث لنا في عدمك ووجودك حالة لم تكن لا الأشياء ثابتة في حال وجودها، ولا هي بائنة في حالة عدمها إذ وجودها وعدمها عند الحق سواء لا ثبات لشيء.

قال جعفر في قوله: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾: استقبل النعمة بالشكر قبل حلولها.

وقال الروذباري: غاية الرجاء في غاية اليأس، وهو في قصة زكريا حين قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ قوله له مثل يحيى.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٤٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٤٤) بنحوه.

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ الكتاب كلام الحق الأزلي، كلف الله سبحانه يحيى ﷺ حمل كتابه الأزلي، وأمره أن يأخذ بقوة قال: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ معًا ذكرناه في قسمة أي: خذ الكتاب الأزلي بالقوة الأزلية التي ألبستها روحك وصورتك حين خلقتك بمباشرة قوتي الجبارية الأزلية، ولولا تلك القوة في نفسه كيف كان يأخذ الكلام القديم، والقديم لا يحتمل إلا بقوة من القدم.

أي: خذ كتابنا بنا لا بك، خذ بقوتنا لا بقوة الحدثية، وأيضًا خذ كتابنا بمعرفة كتابنا، وبمعرفتنا تعرف معاني حقائق كتابنا، وأيضًا خذ باستعانتك بنا بأخذ كتابنا.

ثم وصف امتنانه عليه حيث ما بالى أنه لم يكن بالغًا بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ عرفناه مكان الحقيقة في معرفة صفاتنا وذاتنا في زمان صباه؛ لأن روحه خرجت من عالم الملكوت كاملة بأنوار الجبروت، وأيضًا آتيناه الحكمة البالغة والمعرفة الشاملة والفراسة الصادقة والمحبة الشافية.

قال ابن عطاء: «الحكم» المعرفة.

وقال جعفر: التوفيق لاستعمال آداب الخدمة.

قال الحسين: كان روح يحيى معجونًا بأنوار المشاهدة، ونفسه معجونة بآداب العبودية والمجاهدة؛ لذلك قال له: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

وقال يوسف بن الحسين: أوتي يحيى حكمًا على الغيب، وفراسة صادقة لا يخالطها ريب ولا شك.

ثم وصف الله سبحانه صفيه يحيى بالطهارة والرحمة والتقوى بقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ أي: آتيناه رحمة من عندنا تلك الرحمة العندية أنه تعالى ألبسه كسوة من صفات رحمته، حتى جعله رحمة للمنقطعين، وشفاءً لمرضى المحبين، وجعله مطهرًا بأن قدسه في بحر جلاله بزلال وصاله عن غبار الامتحان وعماء العصيان، وجعله تقيًّا معرضًا عن غيره، مقبلاً عليه بنعت الشوق والمحبة.

قال الواسطي: ذلك الذي أوجب له الانبساط والدلال.

وقال سهل: رحمة من عندنا، وطهرة طهرناه بها من ظنون الخلق فيه، وكان تقيًّا معرضًا عما سوانا، مقبلاً علينا.

ثم إن الله سبحانه من شرف يحيى زكى روحه وقلبه وصورته بروح روح سلامه وخطابه بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلي جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لئلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ تحية ربه له، وأمان له من كلِّ محذور، واتصال العصمة به إلى الممات، وقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ من ثنائه على نفسه أنطقه بلسانه، وهو أغرب في العلم، وأدق في اللطف.

وقال الواسطي: سلام في طرفي حياته مماته من جريان مخالفة عليه بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾﴾ الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر نطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شموس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسراره إلى روحها فحملت

روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شأنها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة، وذلك قوله: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ فلما خلت بذلك النور والبرهان، فبان لها نور صدر من تجلي الجلال والجمال، ووصل بنور روحها بعد أن تمثل لها بصورة عيسى، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾.

إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت، وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت، وتنزيه جلال الحق عن ممازجة الخلق، وإفراد القدم عن الحدوث، وعزة جماله وكبرياء أزليته عن المماثلة والمشابهة بقول: إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الصفات في لباس الأفعال على صورة حسنة مرغوبة، إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها، وذلك روح الفعل، وروح الصفة، وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها؛ لذلك قال: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم، وقلوبهم إلى معدن تعريف الصفات والذات صرفًا بعد انفراد الحقيقة عن الخليقة، ومن ذلك قال ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»(١).

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾: نورًا منا ألقيناه عليها، وخصصناها به؛ فأين الكون الذي فيه أثره، فأُخرج من ضياء نتائج ذلك النور عيسى روح الله صلوات الله عليه.

روي عن أُبي بن كعب ﷺ: «إن ذلك البشر الممثل هو روح عيسى»(٢).

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ جعل الله عيسى مرآة نور مشاهدته، ومشكاة نور صفاته لطلاب قربه ووصاله، فتجلى منه لأبصار عرفانه، وأهل خصائص محبته،

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٢/ ١٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٣١٧).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٥)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٤٠٥).

وهذا رحمته على كل مريد من صعقه لا يبلغ سر روحه إلى القدم؛ فيبصر جمال القدم في مرات الحدث، وأي آية أحسن من هذه الآية ظهر الحق بعزته، وقدسه عن التشبيه والتعطيل من وجه موسى وعيسى ومحمد -صلى الله عليهم وسلم؛ لذلك أشار ﷺ بقوله: «جاء الله من سيناء، ويستعلن بساعير، وأشرق من جبال فاران»(١).

قال أبو بكر بن طاهر: في هذه الآية علامة دالة على تصحيح الربوبية، ورحمة لمن آمن به، ولم يدع فيه ما لم يدعيه لنفسه.

قوله تعالى حكاية عنها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ تحيرت بين أمرين بين غيبتها عن رؤية سوابق التقدير في الأزل يكون عيسى آية الله في بلاد الله وعباده، وبين حياتها في رؤية جلال الحق مما زعم الكفر حيث قالوا بألوهيتها وألوهية ابنها، فأرادت أنها ما كانت ولم تكن، وتكون فانية مضمحلة من حياء خالقها وعلمها بتنزيه جلاله، وقدس جماله عن علة المخلوقات جميعًا، وممكن أنها قالت ذلك لمعارضتها جبريل بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾.

قال ابن عطاء: لما رأت قومها قد أثموا في أمرها رجعت باللائمة على نفسها؛ فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾.

وقال بعضهم: يا ليتني مت قبل أن يظهر فيهم آفة أكون أنا سببها.

وقال جعفر: يا ليتني مت قبل أن أرى لقلبي متعلقًا دون الله.

قال بعضهم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ قبل أن يقال فيَّ ما قيل من قولهم: ثالث ثلاثة.

وقال أبو بكر بن طاهر: أي: ليتني مت في أيام كفاية التوكل قبل أن رددت إلى عناء الطلب بقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ خاطبها الحق سبحانه بعد غلبة الحزن على قلبها عند سماع أقوال المبطلين ليسلي قلبها بأنه منزه عن خطرات الأكوان، وعلة الحدثان، وأقوال الحرمان، وألبسها لباس أنوار قدرته، وجعلها عينًا من عيون جمعه حتى عرفت مكانتها من جوهر القدس، ومعدن روح القدس، والكلمة القائمة بعزته، فقالت الأعيان لها بأنها هزت نخلة يابسة؛ فأسقطت عنها رطبًا جنيًّا.

وقال الواسطي: كانت يابسة لما حركت اهتزت واخضرت وأطلعت وسقطت.

فقال: كما أن الله تولى النخلة بما عاينت تولى عيسى في إظهاره من غير فحل.

قال ابن عطاء: لما كانت مجردة رزقت بغير حركة وكسب فلما تعلق قلبها بعيسى قال

---

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٣/ ١٥٩).

لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: لما رأت من نفسها شفقة على ولدها، خافت أن يكون ذلك يقطعها عن الله ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي: كلي من خوان عنايتي فواكه مشاهدتي، واشربي من بحار محبتي، وقري عينا برؤيتي، وبأني قرة عينك قري عينك بي، وأيضًا قري عينك بما ترين من أنوار جمالي في وجه ابنك عيسى، وظهور آياتي من نفسه.

قال ابن عطاء: إنك غير مطالبة بالثياب فيما أعطيت.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ بيَّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق.

قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها نيا تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها.

قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطرار حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

وقال ابن عطاء: أشارت إلى الله، ولم يفهم القوم إشارتها، فأنطق الله عيسى بالبيان:

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنطقني بهذا النطق الذي أشارت مريم، وأظهر ربوبيته في تكلمه.

وقال بعضهم: أشارت إلى الله بسرها، وإلى عيسى بنفسها؛ فأنطق الله عيسى ببراءتها

فيما رُميت به، وبراءة نفسه فيما يدعى فيه، ولي رمز هاهنا لما أراد سبحانه أن ينطق عيسى بكلمة التوحيد، وإقراره بالعبودية أمر أمه بالصمت؛ لأن لسان مريم لسان الظاهر لها، ولسان عيسى لسان باطنها؛ فإذا سكت ظاهرها نطق لسان باطنها بقدرة الله، وتأييده الأزلي، وهكذا شأن العارفين إذا سكتوا بالظاهر تنطق ألسنة أرواحهم بنطق الغيب الإلهي؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي: صمتًا أي: إذا كنتِ في رؤية الخلق، وترين في البين أحدًا لا تتكلمي بالحجة؛ فإنك لا تبلغين إلى دفع الخصماء بنطقك، وإذا سكت عن الحجة، وفوضتِ أمرك إليَّ؛ فإني أنطق ابنك بالحجة البالغة بالألوهية.

قال ابن عطاء: صمتًا يدل ذلك على ترك الانتصار للنفس، فقيل لها: اسكتي، ولا تنتصري؛ فإنك إن أردت أن تبرئي نفسك بحجتك لم تزدادي بذلك إلا شغلاً؛ فإن كلامك وانتصارك لنفسك مشقة عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمت الصمت، فلما علم الله صدق انقطاعها إليه أنطق الله عيسى ببراءتها؛ فقال الله تعالى: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أبان عن أكرم الأسباب، وأسقط دعاوى من يدعي فيه ما لا يجب: وأقر بالعبودية لله فلما سكتت مريم عن الكلام بالحجة، أنطق الله ابنها بلطيف المعجزة: وأقرَّ في المهد بالعبودية بقوله: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾.

هذا محض معجزته؛ لأنه نطق بالحق، وتفرس بنور النبوة أن قومه جاءوا بالإشارة إليه بالألوهية؛ فنفى العلة من البين حتى لا يكون لهم شبهة بأنه عبد من عبيده، وأمين من أمنائه، وإن كان عليه كسوة أنوار الربوبية؛ انظر كيف حركته في المعرفة حتى اجترأ لي بعبودية القديم الأزلي الذي لا يقوم بعبوديته الأكوان والمحدثان بأسرها في مقام واحد، ولو تُلقَى ذرة من حقوق العبودية على جميعهم لذابوا في تحت أثقالها؟

وقوله: ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: أنا من أهل سماع كلامه القديم، ولقائه الكريم أخبر الخلق والخليقة من الحقيقة ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ صديقًا مخبرًا عن وصاله ﴿ مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ على لباس بركة جماله أي: حيث كنت، وأكون في الأرض والسماء مباركًا، وبركتي تصل إلى المؤمنين بأني قرة عيونهم، ومن تلك البركة أذهب عنهم البلاء وبها أحيي الموتى.

﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ بظاهر العبودية، والخدمة التي فيها لطائف المناجاة، وفتح أبواب المشاهدات، وزكاتي بذل وجودي له، وهذه العبودية المباركة واجبة عليَّ، وعلى من اتبعني، وإن بلغنا إلى منازل الاتصاف والإنصاف والاتحاد.

وفيه إشارة: إنه وإن كان في الحضرة يخدم صانعه، ويتواضع لخالقه؛ لأن عبوديته أفخر المفاخر له.

قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: ليس بعبد هوى ولا عبد طمع ولا عبد شهوة.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خصني بخصائص الأسرار، وجعلني نبيًّا مخبرًا عنه خبر صدق.

وقال ابن عطاء: لما علم الله في عيسى ما علم من أن يتكلم فيه من أنواع الكفر أنطقه أول ما أنطقه بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ليكون ذلك حجة على من يدعي فيه ما يدعي إذ قد شهد هو الله بالعبودية.

وقال أيضًا في قوله: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ إنفاعًا للناس كافي الأذى.

قال الواسطي: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ عارفًا بالله داعيًا إليه.

وقال الجنيد: مباركًا على من صحبني، وتبعني أن أدله على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: أمرني بمواصلته، وطهارة السر عما دونه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ بحياته.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مادام أقرَّ بالعبودية، وأخبر عن خاصية النبوة؛ كيف يكون جبارًا مستنكفًا من عبادته شقيًّا عن رجاء وصاله؟

قال سهل: أي: جاهلاً بأحكامه، ولا متكبرًا عن عبادته.

وقال ابن عطاء: الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا يقبل النصيحة.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: عليَّ السلامة يوم دخلت في الدنيا، حيث بلغت مقام الامتحان في العبودية بعد أن كنت في مقام المشاهدة، وهذا السلام دوام محل انبساط الحق عليَّ بشرط العصمة والرعاية ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ سلام الأمن والرضا ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ سلام الشرف واللقاء والفرق بين سلام الحق على يحيى وسلامه على عيسى أن سلام يحيى بلا واسطة، وسلام عيسى بواسطة وأصل الإشارة أن سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية، وبيان الشرف والكرم عليه من الحق، وسلام عيسى محل الانبساط ثم محل الاتصاف، ثم محل الاتحاد فإذا كان متصفًا متحدًا من حيث المعرفة والتوحيد والمحبة والشوق صار لسانه لسان الحق من حيث عين الجمع فسلامه على نفسه سلام الحق عليه على مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية، وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحًا في وصاله وكشف جماله، فهو سلم عليه بلسانه كان السلام مقصودًا؛ إذ جرى بلسان الحدث عليه، ولا يبلغ ذلك السلام إلى كمال رتبته لكن سلَّم عليه بأوصاف قدمه حتى شمل على شرفه كله.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ إن الله سبحانه حثَّ حبيبه على ذكر خليله –عليهما السلام– وما جرى عليه من أحكام الخلة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

قال ابن عطاء: الصديق القائم مع ربه على حدِّ الصدق في جميع الأوقات لا يعارضه

في صدقه معارض بحال.

قال أبو سعيد الخرّاز: الصديق الأخذ بأتم الحظوظ من كلّ مقام سني حتى يقارب من درجات الأنبياء.

وقال الجنيد: الصديق القائم مع الحق بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ هذا سلام الإعراض عن الأغيار، وتلطف الأبرار بالجهال، قال تعالى: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل:١٠].

قال أبو بكر بن طاهر: لما بد منه كلام الجهال من الدعوة إلى آلهته والوعيد على ذلك أن خالقه جعل جوابه جواب الجهّال بالسلام؛ لأن الله قال: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

ثم إن الله سبحانه أخبر عن صديقية إبراهيم من تبرئه عما دون الله بقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ العيش الهني صحبة الأبرار مع ترك مصاحبة الأشرار.

قال أبو تراب النخشبي: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ تكلم من حقائق يقينه أنه عند الله على شرف كامل، وأنه مجاب الدعوة؛ فطمع في الحق ما طمع من نظره إلى علومه المجهولة الغيبية.

قال عبد العزيز المكي: كان الخليل ﷺ يهاب به أن يدعوه ويذكره ويعظمه ألا يكون يدعوه بلسان لا يصلح لدعائه على استحياء وحشمة وخيفة وهيبة بعد معرفته بجلاله، فلما ترك صحبة المنكرين رزق الله من نفسه أنبياء بقوله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من ترك الخليقة فالله خليقته في كل مراد جعل سبحانه إسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد -صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين- وموسى ويحيى وجميع الأنبياء والرسل بعده عوضًا له من أبيه آزر، كان ﷺ ضيق الصدر من هجران أبيه عنه، وعن دينه فجعل أخلافه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين عوضا لأبيه؛ حتى لا يضيق صدره.

قال الواسطي: عوض الأكابر على مقدار الحدث جعل فهم التلاوة للأحكام، وجعل لهم الحقيقة للأسقام قال الله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ ﴾، وقال لموسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾، ولما اعتزل محمد ﷺ الأكوان أجمع، ولم يزغ البصر في وقت النظر وما طغى قيل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يزاغ غيره حلاّه بصفته؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح:١٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ رحمته: نبوته ورسالته وقربته ومشاهدته، ولسان الصدق العلي ثناؤه عليهم، وأي لسان أعلى من لسان مدح الحق عليهم، وأنطق لسان جميع الصديقين بثنائهم إلى الأبد، وأيضًا أعطاهم لسان صدق بيان جلال ذاته وصفاته للخلق.

قال ابن عطاء: أصدق الألسنة هي المعبرة عن الحق بالصواب، والذاكرة على الدوام لنعمائه والناشرة لآلائه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي: اذكر ما بيني وبين كليمي من سماع الكلام ومشاهدة التجلي وشوقه ومحبته وإخلاصه في عبوديته، وإخلاصه كان في البحر عند وقوع الامتحان، قوله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾[الشعراء:٦٢].

قال الترمذي: المخلص على الحقيقة مثل موسى ذهب إلى الخضر ليتأدب به، ولم يسامحه في شيء، فظهر له منه، وما كان يفعله حتى أوقفه على العذر فيه، وهذا من تمام إخلاصه.

ثم أخبر سبحانه عما بينه وبين كليمه من الأسرار والمناجاة بقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ ناداه بوسائط الطور والشجرة في البداية، وقربه نجيًّا من رؤية جلاله، وأسمعه كلام الصرف بلا واسطة، وكان التجلي أيضًا في الابتداء بواسطة الشجرة والطور، فلما قربه من بساط المجد والكبرياء أرى وجهه جل جلاله وروحه وقلبه وسره وجميع وجوده بنعت الشهود والمكاشفة، النداء بداية والنجوى نهاية، النداء مقام الشوق والنجوى مقام كشف السر.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾: جعلناه من العالمين بنا والمخبرين عنا بالصدق والحقيقة.

وقال رويم: كشفنا عن سرِّه ما كان مغطى عليه من أنواع القرب والزلف وأذنا له في الإخبار عنا.

وقال بعضهم: ناديناه للمحادثة والمكالمة والمناجاة.

وقال الأستاذ: للنجوى مزية على النداء؛ فجمع له الوصفين النداء في بدايته وقت السماع، والنجوى في نهايته فوقفه الحق، وناداه ثم قربه، وناجاه في جميع الحالتين تولاه.

ثم من كمال كرمه وهب لموسى أخاه هارون بقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ علم الحق سبحانه أن جميع الخلق لم يحتملوا ما في صدر موسى من عظيم أسرار صفاته وذاته وملكه وملكوته، فجعل هارون موضع سر موسى حتى لا يكون ذائبًا تحت أثقال تلك الأسرار، وهذا رحمة من الله عليه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ أي: اذكر ظرافة إسماعيل وشمائله وموقع شرفه عندنا؛ فمن خلقه الرضا بالقضاء، والصبر في البلاء والكمال في السخاء، وصدق الوعد بنعت الوفاء.

قال الحسين: الصادق هو المتكلف في حاله يجري بين استقامة وزلة، والصديق هو المستقيم في جميع أحواله.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر فوفى به في قوله: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ أي: اذكر ما كشفت لإدريس من أسرار الملكوت، وأنوار الجبروت وطيرانه في الجنان، وشهوده مشاهدة الرحمن.

قال أبو بكر الطمستاني: الصديق الذي لا يطلب طريق من غيره، ويكون له أن يطالب غيره بحقيقة الصدق.

ثم وصفهم جميعًا بأنهم منعم عليهم بالمعجزات الرفيعة، والكرامات الشريفة،

والقربات المداناة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

ثم وصفهم مع ما أنعم عليهم بالخشوع والخضوع والبكاء والوجد في السجود بعد ما أعطاهم الاصطفائية والاجتبائية والمعرفة والإصابة والحكمة والمشاهدة والشوق والمحبة، انظر إلى ذكر هيجانهم وشوقهم إلى لقائه، ووجدهم بقربه، وحركاتهم في إجلاله عند نزول الآيات عليهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ ما أطيب ذلك البكاء، وما أحلى ذلك السجود، بكاؤهم من رؤية عظمته، وسجودهم من كشف عزته، وحركاتهم من شدة شوقهم إلى معادن المشاهدات وأسرار المداناة.

أَلا يـا صَـبا نَجـدٍ مَتـى هِجـتِ مِن نَجدِ فَقَـد زادَني مَسـراكِ وَجـدًا عَـلى وَجدي

بِكُـلٍّ تَداوَيـنا فَلَـم يُـشفَ مـا بِـنا عَـلى أَنَّ قُـربَ الـدّارِ خَـيرٌ مِـنَ الـبُعدِ

ثم إن الله سبحانه ذكر المخالفين عقب ذكر الأنبياء والمرسلين، وذمهم بزوغانهم عن سبل أهل السعادة، واقتحامهم غيابات أهل الضلاله بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لما استكبروا عن متابعة أهل الحق، وادعوا بالدعاوى الباطلة، سقطوا عن أعين القوم، واحتجبوا بما رأوا من أنفسهم من الترهات والطامات والمزخرفات والأباطيل من الخيالات والمحالات عن لطائف الطاعات، ومقام المناجاة، وحسن المراقبات، ووقعوا في ورطات الشهوات، وصاروا أئمة الضلالات.

قال محمد بن حامد: أولئك قوم حرموا تعظيم الأنبياء والأولياء والصديقين، فحجبهم الله من معرفته، وأصابتهم شقاوة تلك الحال؛ فأضاعوا الصلاة التي هي محل وصلة العبد مع سيده ترسموا بها، ولم يتحققوا فيها، واتبعوا آراءهم وأهواءهم فأصابهم الخذلان حرموا بذلك السعادة، وأثر الشقاوة على العبيد هو حرمان الخدمة، وتصغير من عظم الله حرمته.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ الرزق هناك حقيقة كشف مشاهدة الحق ورؤية جماله ووجدان وصاله، فكل وقت ينكشف جماله لهم، فذلك الوقت بكرتهم،

وإذا حان وقت إرخاء الحجب يرونه قبل ذلك، وهذا لعموم المريدين والمؤمنين.

فأما العارفون والمحبون والمشتاقون والموحدون فهم في منازل وصاله وكشف جماله بالسرمدية، ولا ينقطعون عنه لمحة، ولو احتجبوا لحظة لماتوا في الجنة من فوت ذلك الحال، ولو بقي أهل الجنة في مشاهدة الحق على الدوام لذابوا من صولة سطوات جلاله وجماله.

قال أبو يزيد -قدس الله روحه: «لو احتجبت في الجنة عن لقائه لمحة أنغص العيش على أهل الجنة».

قال محمد بن عيسى الهاشمي: ردَّ الأشباح إلى قيمتها عن المطعم والمشرب بكرة وعشيًّا، وتزاد الأرواح والأسرار عن ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]، وهو مقام لا ينـزله إلا من كان ظاهر الأمانة سرًّا وعلنـًا.

ثم بيَّن سبحانه أن تلك الجنة، والمشاهدة الكريمة الأزلية لمن كان متبرئًا بهمته عن الكونين، وبسره عن الدارين، وبعقله عن العالمين، وبحقيقته عن نفسه، وعن جميع الخلائق بقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ الجنات هي منازل شتى جنة المحبة، وجنة المعرفة، وجنة التوحيد، وجنة رؤية أنوار الفعل، وحكم الغيب فيها، وأسرار المقادير، وجنة منها رؤية أنوار الصفات، ومشاهدة كل صفة للعارفين جنة وعيان الذات جنان، وهو أصل كل جنة، فأهل الحق في كل لحظة في جنة من هذه الجنان، وأوصافهم التبري من غير الله، فإذا خرج عن الأكوان والحدثان فأورثه الحق تلك الجنان، وحاشا أنها مقرونة باكتساب الحدث، بل اصطفاهم في الأزل بتلك الخاصية، ووقاهم من محن الامتحان والحرمان، وأعطاهم حسن وصاله، وكشف لهم من جلاله وجماله.

قال بعضهم في هذه الآية: نجعلها لم يطلبها بفضلنا لا بعمله؛ فإن الجنة ميراث سعادات الأزل لا ميراث الأعمال والعمل سمة ربما يتحقق، وربما لا يتحقق والتقوى نتيجة تلك السعادة.

قال الواسطي: إذا بلغت العقول الغاية، وبلغ بها النهاية؛ فحاصلها يرجع إلى حدث يليق بحدث، وحسبك من ذلك قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ لما كان التقوى وصفك قابلك بما يليق بك، وأعلمك أنه غاية ما يليق بتقواك، ونهايتك في نجواك.

ثم إن الله سبحانه ذكر وصفه وربوبيته وسلطته وكبريائه وإحاطته بجميع الأشياء علمًا وقدرة وحكمًا وإثباتًا لحقوق الربوبية على أهل العبودية بقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وصف ارتسام السماوات والأرض، وانتظام ما بينهما باصطناع قدرته، وإحاطة

علمه ثم ألزم حقه على عبده وحبيبه، وعلى جميع الخلائق من العرش إلى الثرى بعد بيانه أنه هو القادر بذلك لا غير وأمره بالصبر في عبادته، وأوضح الحجة بأن لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه ولا ندب له في كبريائه بقوله: ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ أي: ما تعلم إلهًا غيري ووجود ألوهية الغير مستحيل من كل الوجوه أي: اصبر معي في عبادتي ومعرفتي، واستغن بي في خدمتي ومعرفتك بي، وسل مني ما تريد، ولا تظهر حوائجك لغيري، فإن ما تريد لا يقدر بذلك أحد سواي.

قال محمد بن الفضل: هل تعلم أحدًا يجيبك في أي وقت دعوته، ويقبلك في أي أوان قصدته؟

وقال الحسين بن الفضل: هل يستحق أحد أن يُسمى باسم من أسمائه على الحقيقة، وقال أهل التفسير: هل تعلم أحدًا يسمي الله إلا الله؟

ومن أوضح النكت في أسرار الحقيقة من الآية نفي الحق الربوبية عن كل متصف مستمد، وإن كانوا مستغرقين في جمال ألوهيته، وردهم إلى قيمتهم من العبودية أي: مادامت تلك الكسوة النورية الأزلية عليكم عارية تذهب بذهاب الكشوف وغيبة للمواجيد والصحو بعد السكر، ينبغي ألا تبرجوا من أصل قيمتكم؛ فإن القدم قائم بالقدم، وبقي الحدث على نعته.

كُنتَ أَنتَ إذ غِبتُ فينا بَل أَنا كنتُ   إذا غِبتَ عَنا أَنا أَنا وأَنتَ أَنتَ

هل تعلم له سميًا بحقيقة اسم الألوهية التي أنوارها تزيل الحدثان، وتهلك جميع الأكوان بقهر سلطانها، وتصديق هذه الإشارات.

﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ
لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾
وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ
وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ
هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا
رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ
جُندٗا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من أنتم، ومن أين أنتم، والعدم في العدم معدوم والقد في القدم معروف، لو يعرف العارف أوائل كونه فني في لحظته في حياء الحق من دعوى معرفته إذ كونه في علم الأزل كعدمه بالحقيقة إذ قوامه بالحق لا بنفسه.

قال الواسطي: المقادير صرحت بمعايتنها، وكشفت عن أوقاتها، فالأول: أخبر أنه مأخوذ عن شاهده، واكتسابه نفسه حين لم يكن شيئًا، والثاني: أخذوا من النطفة، والثالث: أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ذكر الطين للعبادات، وذكر النطفة للإشارات، والباقي لفقد النعوت والصفات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ هذا القسم من وجوب حق صفة القدم، إذ نعته قهر الجبروت، فأورد الكل عليها لمباشرة ذلك فيهم ليعرفوه بجميع معاني صفاته، وذلك رحمة كافية إذ لم يعزلهم من رؤية جلال أزليته في لباس قهره، فكم كشف من الجبروت هناك، وكم مشاهدة من عين الملكوت هناك، وكم ظهور سر في دروبهم هناك أين أنت من قول سباح قاموس الكبرياء وعنقاء مغرب؛ فإن البقاء حيث قال: وضع الجبار قدمه في جهنم، هل ترى هذا القدم إلا كشف جلال القدم، وإذا كان جمال قدمه مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران؛ فإن هناك أصل الجنان.

إذا نــــزلتْ سَــلمَى بِـــوادٍ نماؤُهَـــا ... زُلال وسلــــسال وشـــــيحانها وردُ

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ إذ كان وصفه في الأزل أنه عرف نفسه بجميع الصفات لكونهم عارفين، فإذا تم ذلك الكشف وصلوا بالحق مع الحق إلى جواره ووصاله الأزلي ولطفه الأبدي ولقائه السرمدي الذي بغير امتحان، وهذا معنى قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ اتقوا من أليم القطيعة، وعذاب الفرقة، ومرارة المخالفة.

قال الواسطي: ما أحد إلا ويورده النار ملاحظات أفعاله ثم ينجي الله منها من أسقط عنه ذلك أو أزالها عنه بملازمة التوفيق.

وقال في قوله: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا ﴾: بالرجاء يطلب المحتوم، وبالخوف يدفع المقضي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا.

قال الجريري: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى.

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتصحيح العهد بالوفاء.

وقال هذا العارف الفارسي العباد الرباني الشطاح الملكوتي: ما نجا من نجا إلا بالاصطفائية الأزلية، والعناية الأبدية، والرسم والوسم، والاسم عوارضات زائلة وامتحانات عاطلة.

قال جعفر الصادق: لولا مقارنة النفوس ما دخل أحد النار فلما قارنهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم فمن كان أشد إعراضًا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ألا ترى الله يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ إذا أراد الله هداية العبد إلى محل الإيمان شرح صدره بنور الإسلام، فلما ثبت في إيمانه بنعت السُّنة والمتابعة عرَّفه منازل قربه ووصاله وحقائق العبودية فيقع في بحر الألوهية؛ فلا يجري عليه بعد ذلك طوارق الزيادة والنقصان.

قال سهل: يزيد الله الذين اهتدوا بصبرهم في إيمانهم بالله والاقتداء لسنة محمد ﷺ وهو زيادة الهدى النور المبين.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾﴾ كل ما دون الله إذا أقبلت إليه بنعت الحاجة والافتقار فهو إلهك، وطلب العز في غير الله غير ممكن لأن الأكوان تحت نهرة ذليلة، وإذا أردت العز قبل إلى الله ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾.

قال بعضهم: كيف تظفر بالعز، وأنت تطلبه من محل الذل.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ افهم أن المتقي من يتقى مما دون الحق ولا يتقي إلا بأن وقاه الله من طريان النفس والهوى على قلبه وآنسه بأنسه فالمتقون الخارجون بنور مشاهدة الله عن ظلمات الأكوان إذا كان وقت حشرهم أركبهم الله على مراكب أنوار تقواه ودعاهم إلى مشاهدته ووصاله وأنـزلهم عيون الرحمانية وأعطاهم من بحار رحمته جميع مأمولهم لذلك ذكر اسم الرحمانية أي: لم يكن هناك وحشة قطع الآمال إذا نـزلوا موارد الجلال والجمال، وهذا وصف المتقين الذين هم أهل بنايات المقامات فأما العارفون فهو بنفسه يحملهم في ميادين الآزال والآباد ويبقيهم في معارج أنوار الذات والصفات، ولولا حمله إياهم كيف يقطعون براري الديمومية وقفار الأزلية والحدثان ساقطة في أودية قهر الربوبية.

قال ابن عطاء: بلغني عن الصادق أنه قال أي: ركبانًا على متون المعرفة.

وقال جعفر: المتقي الذي اتقى كل شيء سوى الله والمتقي الذي اتقى متابعة هواه فمن كان بهذا الوصف؛ فإن الله يحمله إلى حضرة المشاهدة على نجائب النور نيعرف أهل المشهد محله فيهم.

وقال الواسطي: أي: ركبانا وذلك حجابهم؛ لأنه من جذبته زينته عن الحق حتى ينسيه ولا يجذبه ذكر الحق عن الأعراض جذب الزينة فهو الكاذب في دعواه.

وقال أيضًا: لما لم يوافقه صفة ولا نعتًا في الدنيا حشرهم في الآخرة إلى الله باسم الرحمانية يسوقهم سوقًا أرفق ما كان بهم وأكثر شفقة لا يعرجون إلى غيره ولا يلتفتون سواه.

وقال الأستاذ: قيل: ركبانـًا على نجائب طاعاتهم وهم مختلفون فمن راكب على صور طاعاتهم ومن راكبي على مراكب هممهم ومن راكب على نجائب أنوارهم ومن محمول يحمله الحق في عقباه لكما يحمله اليوم في دنياه وليس محمول الحق كمحمول الخلق.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ إن الله سبحانه أخبر عن عظيم افتراء الكفرة عليه لما في قلوبهم من مخائيل الشيطانية وهواجسهم النفسانية، قالوا في حق الحق سبحانه ما يليق بالحدث لا ما يليق بالقدم فلم يقع وصف الحدث على القدم، ولم ير مقالتهم في الحق موضعًا في البرية لمكانها فقصدت السماوات والأرض والجبال؛ لأنها منصرفة عن جناب الربوبية قهرًا وغيرة، فنـزلت على السماوات والأرض والجبال، فلم يحتمل بها السماوات والأرض والجبال من عظمها فتكاد السماوات

يتفطرن والأرض تنشق والجبال تخر؛ لأن الكلمة خرجت من مصدر القهر ممزوجًا بالغيرة، وذلك بأنهن عقلن بروج إشراق نور صفة الأزل عليهن، فكادت أن تفنى من عظم ثقل روح لطفه بروح قهره.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ كل مزين بأنوار الربوبية فهو تحته بنعت العبودية فمن شاهد أنوار الربوبية عرف محل الربوبية والعبودية فإذا فنى العبودية في الربوبية بقى الربوبية وصف المتصف بها فيرى نفسه بزينة نور الحق فيدعى من مباشرة شكر التوحيد ونور الأزلية بدعوى الأنائية، فإذا كان يوم القيامة رجعت أنوار الربوبية إلى معدنها، وبقي الكل عريانًا منها ملبسين بذل العبودية حتى يجري عليهم طوارق غيرة الحق هذا إذا يمضي حكم الغيرة، ويدل عليه قوله: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي: فردًا عن دعوى الأنائية والمعرفة وبقي فردًا في حقيقة القهر عند فردانية الحق فانفرد بالحق حتى اتصف بالفردانية واتحد بالوحدانية فيرجع إلى ما كان فيه من إظهار الربوبية والألوهية فيشهد العارف مشاهد الوصلة فيحويه أنوار الدنو فيسكر بجمال الحق فيدعى هناك بلسان الأزل والأبد دعوى الأزل والأبد، ويا صادق كلهم في حجاب هاهنا عنه ماداموا في الحجاب يميلون إلى مأمول سوى الله من الثواب والنجاة من العقاب، فإذا شهدوا مشاهدة جماله سقط عنهم مراداتهم، ويخلصوا عن علة رق النفوسية، وصاروا عبيدًا له محققين مخلصين في محبته ومشاهدته حيث لا يبقى إلا وجهه قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨].

قال جعفر في قوله: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ فقيرًا ذليلاً بأوصافه دالاً بأوصاف الحق.

قال أبو بكر الوراق: ما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار؛ لأن ملازمة العبودية تورث دوام الخدمة، وإظهار الافتقار إليه يوجب دوام الالتجاء والتضرع.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: عبد من؟ فأراد أن يقول عبد من فغشي عليه فلما أفاق قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم

مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾».

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ في هذه الآية عجيب من أن الله سبحانه قرن الود بالعمل الصالح، وذكر العمل الصالح قبل الود كان الود جزاء العمل الصالح، والإشارة فيه أن وده لهم قديم في الأزل، وبذلك الود عملوا العمل الصالح فإذا اصطفى بذلك الود وقفهم للأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من ميراث ذلك الاصطفائية والود فإذا وقع العمل الصالح يزيد كشف ذلك الود في قلوبهم، والحق سبحانه منزه عن الزيادة والبدء، فإذا ألبسهم نوره وكسا أسرارهم سنا وده فيكونون مزينين ظاهرًا وباطنًا، ويصيرون مرآة جمال الحق، وكل من يراهم يحبهم فالله أحبهم وهم يحبونه بمحبته، والخلق يحبونهم بمحبة الله إياهم، وما يرون من أنوار جمال الحق منهم.

قال ابن عطاء: الذين أخلصوا بسريرتهم لي، واتعبوا ظاهرهم في خدمتي سأجعل لهم وجهًا في عبادي لا يراهم أحد إلا أحبهم وأكرمهم وفي محبتهم وكرامتهم كرامتي ومحبتي.

وسئل بعضهم عن قوله: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال: يعني لذة وحلاوة في الطاعة.

سورة طه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾».

﴿ طه ﴿١﴾ ﴾ ذكرنا أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرِّية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل

ويا مطهرًا من الأكوان والمحدثان، يا هاديًا بنوري خلقي إليَّ ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ سرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم:١] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك.

قال ابن عطاء في قوله ﴿ طه ۝ ﴾: «طا» هديت لبساط القربة والأنس.

وقال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا.

وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

ثم إن الله سبحانه تلطف على نبيه وخفف عليه أثقال العبودية؛ لأنه كان تحت أثقال سطوات الربوبية التي لا تحملها الأكوان بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ قام جميع الليل بالتهجد كأنه قال سبحانه: يا أول طا القدم على بساط حضرتنا لطلب المقام المحمود لا تشق على نفسك لأجل زيادة الهداية؛ فإنك هديت في الأزل واصطفيناك لمشاهدتنا وقربتنا والرسالة والمحبة لا تحتاج إلى كثرة المجاهدة، فإنك في المشاهدة أنزلنا عليك القرآن ليعرفك أسرار ذاتنا وصفاتنا وتعرَّف عبادنا أسرار العبودية وأحكام المعرفة وعزة الربوبية، أنزلنا عليك القرآن ليقرن عنانه بعنان همتك ويبلغك إلى منازلنا فتدلى فإذا وصلت إلينا فأؤنسك بنفسي بعد أن جعلت القرآن مستأنسك؛ فإذا رأيتني رأيت ذاتي وصفاتي وسمعت القرآن مني بلا واسطة فتعرف أن صفاتنا تضيء الأكوان ولا تفارق الرحمن.

قال الواسطي: سُمي القرآن قرآنا لأنه يقارن لمتكلمه لا يباينه تعظيمًا لشأن القرآن كما وصل إلينا شعاع الشمس وحرارتها ولم يباين القرص.

قال بعضهم: أنزلناه إليك لتستروح إلى كلام خالقك؛ فإن المحب يستروح إلى كلام حبيبه ولا يلحقه فيه التعب.

وقال الأستاذ: ليس المقصود من إيحائنا إليك تعبك إنما هو استفتاح باب الوصلة

والتمهيد لبساطا القربة.

ثم بيَّن سبحانه لم أنـزل القرآن عليه قال: ﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ معناه بالحقيقة أن أرواح أهل الخشية قد استغرقت في بحر القدم حين خرجت من العدم فعرفت منازل شهودها من مشاهدة الذات والصفات، وعلمت اصطفائيتها وخاصيتها على بساط القرب وتلطف الحق بها وانبساطه معها بمحبته إياها، فلما دخلت الأشباح بقيت معها خشية العظمة وصولة الهيبة فزاد خشيتها بعلمها بالله بالوصلة والفرقة، وطرأت عليها وحشة الفراق عن معادلها، فأنـزل الله تعالى القرآن على حبيبه ليذكرهم أيام الوصال في مقام الفراق ليذهب عنهم الظنون والحسبان، ومعارضة النفوس وتخويف الشياطين بأنهم لا يصلون إلى تلك المناهل والموارد.

سقى اللهُ أيامًا لنا وليالي مضتْ ... فجرتْ مِنْ ذِكرهنْ دموعُ

فيا هل لنا يومًا من الدَّهرِ أوبة ... وهل لي إلى أرض الحبيب رجوعُ

وأيضًا أهل الخشية هم العلماء بالله وبصفاته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر:٢٨]، والخشية صدرت من رؤية عظمة الحق إلى قلوبهم فإذا دخلوا في منازل الامتحان بالحجاب، فأنـزل الحق القرآن ليذكرهم عظائم عظمة جبروته وسلطان قهر كبرياء ملكوته لئلا يتداخل أسرارهم غبار الأغيار ولا وحشة الاستكبار ولئلا يفتروا عن ملاحظة عزته وقهر كبريائه.

قال ابن عطاء: قيل له محمد أنت إمام أهل الخشية وسيدهم أنـزلناه تذكرة لك لتسكن عليه وتزول به الخشية عن قلبك، فإن المحب: يأنس بكتاب حبيبه وكلامه.

وقال جعفر: أنـزل الله القرآن موعظة للخائفين ورحمة للمذنبين.

وقال الأستاذ: القرآن تبصرة لذوي العقول تذكرة لأولي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون، فسألوا راحة اليقين في أجلهم وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح أنس في عاجلهم.

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ

طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ذكر سبحانه قبل هذه الآية خلق السماوات والأرض، ولم يقل أنه خلق العرش، وفيه إشارة إلى أن قوله سبحانه عن إحاطة الحدثان به ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [1]يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمته والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضًا إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالمًا وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بركنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، ويا عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو مستو بغير علة اعوجاج الحدثية بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان.

وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

---

(١) مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيذان بأن ذلك أمر بيّن لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحًا. البحر المديد (٣/ ٤٩٦).

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشًا معنويًّا روحانيًّا ملكوتيًّا رحمانيًّا جبروتيًّا، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطًا لا نهاية له ويصير مبسوطًا يسط التجلي حتى يكون مستقيمًا متمكنًا في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنـزه عن الورود على الحدثان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»(١).

ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منـزه عن الحلول الله، الله هو منـزه أيضًا أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»(٢) هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منـزه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية.

قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استولى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١/ ٢٣١)، وأحمد في مسنده (١٣/ ٣١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨٤).

الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى، وذلك قوله: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۞ ﴾ أخبر عن علمه وملكته معًا بما فوق العرش، وما تحت الثرى وما بين العرش والثرى من أطباق السماوات، وما بينهن وأطباق الأرضين، وما بينهن فذكره تعالى استوى على العرش إخبار عن قهر سلطانه وبنعت الاستيلاء على أعظم خلقه وعن علمه بما فوق العرش من علم الغيب غيب الغيب وما تحت العرش إلى الثرى من علومه الغيبية في بطون أفعاله، وما تحت تحت الثرى من أسرار ربوبيته أي: أن الكون استغرق في بحار علمه وقدرته وإرادته بالمثل كخردلة في البوادي، أو كحلقة في البحار والسلطان، كبرياؤه محيط بجميع ذراته فالكون كالكرة في ميادين عظمته عند صولجان قدرته، يضرب بها تلك الكرة في كل لمحة ألف مرة ويذهب بها من الأزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، والله إن من وقت ما خلق الله الكون يتحرك الكون في طلب ما يتعلق به من نور فعلمه، وما أدركه فكيف يدرك أنوار الصفة وإذا لم يكن مدرك أنوار الصفة كيف يدرك عزة الذات وأين الكون من إدراك وحدانية القديمة ولحوقه بجلال مجد ذاته، بل هو صاغر حقير في قبض جبروته لا مصرف له ينصرف إليه منه، ولا مخرج له منه فيخرج من تحت قهره بل كذرة تبن على جناح الرياح العواصف والصرصر القهار تذهب بها، ولا تعرف أين تذهب.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»[1].

ثم اعلم الخلق أن الكل له؛ فلا ينبغي العالم به أن يطمع في غيره حتى لا يشوب قلبه بالشرك الخفي، قيل له: الملك كله فمن طلب البعض من الكل من غيره فقد أخطأ الطلب.

ثم أخبر عن عظيم جلال علمه بمكنون الأسرار وخفي الإضمار بقوله: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ انهم أن للطبيعة سرًّا والملك السر سر وللنفس سرًّا، ولذلك السر سر، وللقلب سرًّا، ولذلك السر سر، وللعقل سرًّا، ولذلك السر سرًّا، وللروح سرًّا، ولذلك السر سر، وللسر سرًّا، وذلك السر سر، ولسر السر سرًّا، ولذلك السر سرًّا، أما سر الطبيعة إضمار الميل إلى طلب ما تقوم به من فيض العناصر، وسر ذلك السر نداء فعل الحق إلى الطبيعة بنعت جذبها إلى طلب حظها، وهو أخفى من ذلك السر.

وأما سر النفس؛ فهو حديثها الخفي الذي يصدر منها في غيب الخواطر بقلب هواها

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٣١٥).

وسر ذلك السر نداء القهر إياها بنعت جذبها إلى طلب الهوى، وهو أخفى من سرها.

وأما سر القلب فهو حديثه الخفي الذي يصدر منه لطلب مزيد الصفاء من فيض الذكر، وسر ذلك السر فرع الملك باب سره بنعت تحريكه إلى طلب مزيد الذكر وذلك إلهام خفي وأخفى من سر الأول.

وأما سر العقل فهو حديثه مع القلب والروح بما يبدو له من حقائق أحكام الربوبية في الشواهد، وسر ذلك السر بحجة نور فعل الخاص التي هي داعية العقل إلى مشاهدة حقائق الأشياء، وذلك السر أخفى من سر الأول.

وأما سر الروح؛ فهو حديثها مع العقل بما يسمع من إلهام الخاص الإلهي لزيادة شوقها إلى معادنها، وسر ذلك السر ما يبدو لسر الأول من برق سنا الصفة بنعت الكشف مع تعريف أمر العبودية والربوبية، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر السر؛ فهو حديثه الخفي في بطنان غيب الخاطر في مشهد الملكوت مع الحق حيث يكون محتجبًا عنه بنعت المتضرع لطلب مشاهدته، وسر ذلك السر وقوع كلام الحق على مجاري الصفة له في الغيب وهو يسمع ولا يبصر، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر سر السر ما يكون وراء الحجاب فوق الملك والملكوت مشاهد الجبروت ومعاين الذات يرى عجائب أنواره وحقائق أسرار صفاته وذاته فيعرف منه به ويسمع منه بلا واسطة، ويقول معه يطلب منه بلسان الافتقار مزيد قرب القرب ودنو الدنو حتى يقع في بحار الألوهية فلا يرى ولا يعرف فهو أسر الأسرار، وأخفى الخفيات فالطبيعة لا تطلع على سر النفس، والنفس لا تطلع على سر القلب، والقلب لا يطلع على بعض سر العقل، والعقل لا يطلع على بعض سر الروح، والروح لا يطلع على سر السر والسر، لا يطلع على سر سر السر؛ لأنه مقام ما أخفي من السر، ولا يطَّلع على جميعها إلا الله سبحانه من الخلق والخليقة لا الملائكة لا المقربون ولا الأنبياء المرسلون إلا ما يكشف الحق لهم من ظاهر الأسرار قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجن:٢٦] إلا من ارتضى من رسول، وباطن هذه الأسرار لا ينكشف لأحد غير الله؛ لأنه مما استأثره لنفسه ولا يطلع عليه غيره وحاصل الحقيقة من معنى الآية أن السر ما في صفاته، وما أخفى ما في ذاته.

قال الصبيحي: السرُّ ما طالعه الحق ولا يطالعه الملك ولا الشيطان ولا يحس به النفس ولا يشاهده العقل، وهو في الإضمار لم تحوه الهمم، ولم تدبره الفطن، وهي في لباب لب القالب من حقائق المحض من خطرات الإلهام كشرر النار الكامن في الشجر الرطب حتى تمثله الإرادة والمشيئة والأحكام؛ فيتنقل في الأحوال، فهذا هو السر، وما هو أخفى فما لم تحس

ولم لطالع لا يعلمه إلا الله؛ فهو أخفى من الحقائق، فإذا ظهر معلومه أبدى علمه.

قال الواسطي: السرُّ ما خفي على العباد، والذي هو أخفى ما لم يقل له كن.

قال الجنيد: يعلم سره فيك، وأخفى سره عنك.

وقال جعفر الصادق: السرُّ موضع الإرادة، وأخفى موضع الخطرة والمشاهدة.

وقال الأستاذ: فالنفس ما تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا سبيل له إلى حقائق السر، والذي هو أخفى من السر فما لا يطلع عليه إلا الحق، ويقال: الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه الملكان، ويستأثر بعلمه الجبار، ولا يقف عليه الأغيار، ولما تفرد بنفسه بالإطلاع على السر والخفيات نفى عن ساحة كبريائه من لم يستحق للفردانية الأزلية، والعلم الشامل بأسرار الحوادث وخفيات الضمائر، ووصف نفسه بذلك.

وقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ ﴾ فمعاني الأسماء بالحقيقة سر من حيث يعبر حقائق الصفات، وما في الذات من علوم القدمية وأسرار الأزلية وهو أخفى من سر الأسماء أخبر سبحانه حبيبه من أسراره التي بينه وبين كليمه موسى وتلك الأسرار أعجب العجائب.

أما غرب الغرائب من علوم أسراره وحقائق أنواره بقوله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ ﴾ ما أطيب ذكر قصة الكليم للحبيب خص أن الحبيب الأكبر ذكر حال الكليم للحبيب؛ لأن الحبيب يستأنس بسميه من الأحياء، لذلك قصَّ الله قصة الأنبياء لحبيبه ثم بيَّن يد وحال كليمه بقوله: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾.

لما كَمُل كليم الله كَمُل في الإرادة ودخل في الإرادة ودخل من الإرادة إلى مقام المحبة ترك الوسيلة الصغرى وهي خدمة شعيب، ووقع في الوسيلة الكبرى، هي رؤية النار في الشجرة وتلك بداية مكاشفته وسماع خطاب الحق سبحانه، فوقعت مكاشفته قبل الخطاب وهو مقام الكبراء في المعرفة، ثم وقع بعد ذلك في بحر الخطاب، وذلك قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾؛ فإذا أراد الله أن يعرفه مقام رؤية الصفات في الأفعال تجلى بجلاله لكسوة النار، ثم تجلى من كسوة النار لكسوة الشجرة ثم تجلى من الشجرة لموسى، وذلك مقام أسرار الالتباس الذي يجذب بالحق عشاقه إلى معادن الألوهية ليصيروا بعد ذلك موحدين؛ فرباهم في البداية في مقام العشق برؤية أنوار الصفات في الأفعال حتى لا يفنوا بالبديهة في سطوات عظمته، ولو يريهم صرف عيان الذات يصيرون مضمحلين في أنوار قدسه جعل الشجرة مرآة للنار، وجعل النار مرآة للنور، وتجلى منهما لموسى فرأى موسى نيران الكبرياء، وأنوار البقاء

من شجرة القدم فانجذب إلى قرب مغناطيس الصفات ورأى لطائف مشاهدات الذات، كأنه هو في رؤية المعاني، وظن أنه في صورة الأماني فأتاها بنعت الشوق وتحير في شأن الأمر وطلب نفسه أين هو وما علم أنه في كنف الوصلة وبساط القربة فدار حول الشجرة برسوم العلم، وهكذا حال من كوشف له حقائق الحقيقة بالبديهة؛ فلما غاب في الغيب في طلب الرب ناداه الحق وقال: أيش تطلب؟ أنا ربك، أي: ما ترى يسرك وروحك وعقلك فهو جمال ربك وإن كنت في تلبيس الفعل والصفة لو تريد أن تراني صرفا، فاخلع نعليك أي: نعلي الكونين فإنك بالواد المقدس وادي الأزل المقدس عن غبار الظنون والحسبان وأنفاس النفس والشيطان، ولا ينبغي أن تأتي قدس القدم بآثار أهل العدم حتى يطوى لك وادي الآزال والآباد، وينكشف سرها لهمتك وقلبك وروحك وسرك، وأيضًا أي: اخرج أنت منك حتى تصل بي فأنا لمن لم يكن لنفسه.

قال الواسطي في قوله: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ موسى خطرات به حسه الحظوظ في أخذ نار فنال النور، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من نفسه، وقد حوله من شاهد الحظ إلى شاهد الحق.

قال جعفر: قيل لموسى: كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق؟ فقال: لأنه أفنتني وشملتني، فكان كل شعرة مني كان مخاطبًا بنداء من جميع الجهات، وكأنها تعبر من نفسها بجواب، فلما أشملتني أنوار الهيبة، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت علمت أنه تخاطب من جهة الحق ولما كان أول الخطاب ﴿ إِنِّيٓ ﴾ ثم بعده ﴿ أَنَا۠ ﴾ علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظتين جميعًا متتابعًا إلا الحق فأدهشت، وهو كان محل الفناء، فقلت: أنت أنت الذي لم يزل ولا تزال ليس لموسى معك مقام ولا له جرأة الكلام إلا بأن تبقيه ببقائك وتنعته بنعوتك، فتكون أنت المخاطِبَ والمخاطَب جميعًا؛ فقال: لا يحمل خطابي غيري، ولا يجيبني سواي أنا المتكلم، وأنا المكلم وأنت في الوسط شبح تبع بك محل الخطاب.

وقال الشبلي في قوله: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾: اخنع الكل منك تصل إلينا بالكلية فنكون، ولا تكون فيتحقق في عين الجمع يكون إخبارك عنا ونعلك فعلنا.

قال ابن عطاء: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾[1] أعرض بقلبك عن الكون؛ فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب قيل: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾؛ فإنك بعين موجدك.

وقال جعفر: اقطع عنك العلائق ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾.

---

(١) كما يفعل بحضرات الملوك أدباً، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأ للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (٥/ ٢٣٨).

وقال ابن عطاء: أي: أسقط عنك محل الفصل والوصل؛ فقد حصلت في وادي القدس، وهو الذي يظهرك من الأحوال أجمع، ويردك إلى محولها عليك.

وقال الأستاذ: فارغ قلبك عن ذكر الدارين وتجرد للحق بنعت الانفراد، أما الفرق بين قوله: ﴿ إِنِّيٓ ﴾، وبين قوله: ﴿ أَنَا ﴾، وبين قوله: ﴿ أَنَا ﴾، وبين قوله: ﴿ رَبُّكَ ﴾، فـ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إشارة إلى أصل الذات، و﴿ أَنَا ﴾ إشارة إلى كشف الصفات، و﴿ رَبُّكَ ﴾ إلى أعيان الذات والصفات في الأفعال.

وقال بعضهم: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إخبار، و﴿ أَنَا ﴾ إظهار، و﴿ رَبُّكَ ﴾ تذكار.

وقيل: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ معرفة، و﴿ أَنَا ﴾ توحيد، و﴿ رَبُّكَ ﴾ إيمان.

وقيل: بقوله: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ إفناؤه، وبقوله: ﴿ أَنَا ﴾ إبقاؤه، وبقوله: ﴿ رَبُّكَ ﴾ إيواؤه.

وقيل: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ لقلبه، و﴿ أَنَا ﴾ لروحه، و﴿ رَبُّكَ ﴾ لنفسه، وقد وقع إخواني إشارة إلى امتناع ذاته عن إدراك الخليقة، و﴿ أَنَا ﴾ إبراز علوم حقيقة صفاته، و﴿ رَبُّكَ ﴾ ظهور مشاهدة تجليه الذي هو سبب تربية موسى، رباه بتجلي ربوبيته في لباس فعله.

ثم أخبر سبحانه أنه اختاره لمكان وحيه وخاصية رسالته واصطفائيته بسماع كلامه القديم حتى يكون خالصًا من جميع البريات، ويكون منفردًا في العبادات بقوله: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ اختاره في الأزل لمحبته والشوق إلى لقائه ومعرفته بفردانيته، ويكون الحق سبحانه سميره في مناجاته، وظاهرًا بوصف الربوبية، وتجلي العظمة لمشاهدته، ومراده سبحانه بقوله: ﴿ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ جمع همته وحضور قلبه وسكون سره وهدوء روحه عند جريان الخطاب حتى لا ينفك منه خاطر يشتغل بغيره من العرش إلى الثرى ليكون علمه أشمل، ومعرفته أكمل وحاله أصفى ووقته أشفى ووجده أوفى؛ لأنه كان في مشاهدة عرض جلال القدم، وفي لجج بحار الكرم حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾، قوله: ﴿ إِنَّنِي ﴾ خبر عن بطنان أولية القدم، و﴿ أَنَا ﴾ خبر عن شهور ذاته وصفاته على الأسرار والأرواح والقلوب بنعت غيبتها عنه.

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ظهور ظهور الذات والصفات لشهود الأرواح والأسرار والقلوب والعقول كشفًا وعيانًا وبيانًا؛ فإذا أعنمه حقيقة ربوبيته استدعي منه العبودية الخالصة عن كل كدورة بشرية وخاطر شيطاني بقوله: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ألزم عليه حتى حق الربوبية للغير للعبودية وأي تشريف مما ألزم عليه من حقوق ألوهيته وجعله موضعها ليكون فردًا بعبوديته كما كان سبحانه فردًا له بإظهار جماله له وإسماع كلامه إياه وأراد سبحانه أن يلبسه أنوار

الربوبية في مكان عبوديته حتى يصيره متصفًا بصفاته متحدًا بمحبته مستغرقًا في جمال أوليته وآخريته ليخرج منها بوصف الأزل والأبد لا بوصف الحدث.

ثم بيّن أن الصلاة إعلام عبوديته ومواقع شهود مشاهدته ولطائف حقائق ذكره ومناجاته بقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ البيان هو الذكر ومزيد الذكر وحقيقة المراد استغراقه في بحار مشاهدة المذكور؛ لأن الصلاة موضع شهود الأسرار على الأنوار وكشف الجمال للأرواح لترقيها بنعت شكرها في عالم الأفراح.

قال الواسطي: في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ المختار من جهة من هو مصطنعة ومصطنعة ومربيه على يد أعدائه والملقي محبته في قلوب عباده فلم يستطيعوا له إلا محبة، والمطلق لسانه بحر العقد والميسر له أمره فلا يعسر عليه مطلوب بحال كل هذا يقدم إليه ويمن به عليه؛ ليكون ثابتًا عند مكافحة الخطاب ومواجهة الوحي والكلام.

وقال في قوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ لا تشغل قلبك بغيري قولاً وفعلاً، ولا تكن من أبناء الأفعال والإحصاء والأعمار والدهور، وكن من أبناء الأزل والأبد مطالعًا لما سبق من الأولية، وجرى لك في الأثرية، وإن كان كلاهما واحدًا.

قال ابن عطاء: إشارة إلى حقيقة الحق إذ الأزل والأبد علة في ذكر الأوقات والدهور علة.

قال الواسطي: أظهر هذا الخلق في شموخ وعلو في أنفسهم؛ فأمرهم لعلة الفاقة لا لعلة الاستغناء تبسمًا لرؤية الاضطرار.

قال: يا موسى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ أحب أن يريه عجزه.

وقال أيضًا: بالعبرانية خاطب موسى ثم وصف لمحمد ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هل تلونت الصفة بذلك.

قال: لو لونتها اختلاف اللغات لتلونت في اختلاف الأوامر والنواهي.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ وجدني على الشهود كما عرفتني بالوجود، ودع عنك الرسوم والحدود فلا حد إلا حده ولا عبد إلا عبده.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشيها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا
عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ
حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ
جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)
اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ
أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا
عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ إن الله سبحانه كلم كليمه فطاب وقته من لذة كلامه، واختلج في سره إرادة لقاء المتكلم، وكاد يقول في بداية حاله ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فعلم الحق سبحانه سر ما في قلبه، وعلم أنه لا يطيق أن ينظر إليه كفاحًا، وأراد ألا يحرمه من سؤله ومأموله؛ فقال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾، قال: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾، قال: ﴿ أَلْقِهَا ﴾؛ فلما ألقاها صارت حية ففر منها موسى، قال سبحانه: أين تفر من رؤية مأمولك؟ انظر إليها بنظر الحقيقة حتى ترى مشاهدة الذات في الصفات، ومشاهدة الصفات في الآيات؛ فحصل لموسى مشاهدة رؤية العظمة مع الخطاب الخاص، وأيضًا أراد سبحانه أن يريه الآية الكبرى حتى يتعود برؤيتها، ولا يفزع منها عند تقلبها في ابتلاعها سحر السحرة، وأيضًا كان في مواجهة كلامه القديم في رؤية الجلال العظمة فكاد يذوب من صولة العظمة ورؤية الكبرياء فشغله الحق في ذلك بذكر شيء من الحدثان حتى يسكن لحظة من سكن رؤية الجلال، وألا يفني في سطوات الكمال، وأيضًا ظن موسى أنه تعالى لا يتكلم معه في شيء محقر إنما يتكلم في العظائم فأعلمه الحق موضع انبساطه إليه حتى ينبسط إليه.

ألا ترى لما وجد لذة حسن انبساط الحق كيف خرج من مقام الهيبة، وانبسط إليه بقوله: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾، قوله: ﴿ عَصَايَ ﴾ جواب بالانبساط من لذة وجدان مكانته في شهود عين الحق، ولولا ذلك ما أضاف إلى نفسه في رؤية فردانية الحق، وأيضًا أراد الحق سبحانه أن يعلمه أن في عصاه كثيرًا من معجزته فنبهه

عن ذلك، فلم يعرف موسى في ذلك الوقت إشارة الحق، فقال: معي عصاي، ولو لقال: هي موضع آياتك ومسقط قدرتك، وأيضًا أظهر عجزه عند سرادق كبريائه بأنه أضاف الحدث إلى الحدث، وعلم أن الحدث لا يليق إلا بالحدث ويمكن أنه رأى منها بعض الآيات؛ فذكر إنعام الله عليه في حضرته وزاد ذكر النعمة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها أي: أعتمد عليها بأنها آية من آياتك ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أستمتع بما أريد منها ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝﴾ وتلك المعجزة من مآربه فلما ارتهن من الحق بالوسائط.

قال سبحانه في غيرة الوحدانية: ﴿أَلْقِهَا﴾ جوابًا لقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ لئلا يسكن إلى غيره، فلما ألقاها ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: موسى عصاه متقلبة بحية عظيمة مقبلة إلى موسى بالهيبة والصولة ففر منها موسى خيفة، وذلك من غيرة الله عليه سبحانه لئلا ينظر إليها، ولا يستأنس بها؛ فإنها وسيلة منة إليه، ومن بقي في رؤية الوسيلة احتجب عن رؤية الحقيقة، ويا عاقل إن فرار موسى لا من الخوف من غير الحق إنما هو خاف من عظمته التي ظهرت من الحية؛ لأنه تعالى تجلى بعظمته من الحية لموسى، ومن يستقيم بإزاء مشاهدة عظمته القديمة فلما علم الحق أنه تبرأ من غيره ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: خذ عصاك، ولا تخف من غيري.

قال: ما خفت منه؛ فهو أنا لا غير.

قال فارس في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾[1] سمع موسى كلامًا لا يشبه كلام الخلق، فلما سمع ذلك الكلام كاد يهيم، فمرة أضاف العصا إلى نفسه، ومرة أجاب عما لا يسأل كذلك الهيمان.

وقال: لما غلبت عليه لذعات الصفات وأراد الحق إلى المخلوق ليسكن ما به؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ أشغله بالإجابة عما يملكه، ولولا ذلك لتفسخ عنه ورود الخطاب عليه بغتة.

وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وانبسط إليه في السؤال

---

(١) وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أنْ تقولَ لي : وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ - بعد ما عدَّد موسى وجوَه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها - ولَكَ يا موسى فيها أشياءٌ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ .

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (٤ / ٤٩٣).

ليربط على قلبه لعلمه بها بيديه في شهود الكبرياء.

وقال أيضًا: أحب الله أن ينبسط موسى في الكلام كيلا يحتشم في السؤال.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا ﴾ عليها، فقال له: ألق كل ما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه نفسك؛ فإن الكل محل العلل، فإن كل ما تسكن إليه ستهرب منه عن قليل، ألا تراه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً ﴾.

وقال الحسين: عدَّ موسى منافع العصا على ربه وسكونه إليها وانتفاعه بها؛ فقال تعالى: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي: ألق من نفسك السكون إلى منافعها وقلبها حية ليزول عنه الأنس بها ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾؛ فقال حين قطعه عنها بالفرار منها: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾، وراجع إلينا.

قيل: الحكمة في انقلاب العصا بحية في وقت الكلام أنه جعل آيته معجزته، ولو ألقاها بين يدي فرعون، ولم يشاهد منها قبل ذلك ما شاهد لهرب منها كما هرب فرعون حين بدهته رؤيتها.

قال فارس في قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾: ذكر كل ما فيها من وجوه المنافع لئلا يكون له معاودة إلى ذلك؛ فيستلذ بخطاب سيده وعتابه.

وقال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: جواب الذي بعده ذكر ما أنعم الله عليه بالعصا من المنافع، فكان بعد قوله «عصاي» لسان الشكر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: أضافها بالملك إلى نفسه، ولم يكن يجب له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكًا بين يدي الحق، فلما أضافها على نفسه، قال: ﴿ أَلْقِهَا ﴾ فألقها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ قال: خذها أي: خذ عصاك، ولا تهرب مما ادعيت فيه الملك لنفسك؛ فخاف وتبرأ من إضافتها ملكًا إلى نفسه فتعطف الحق عليه، فقال: خذها ولا تخف فإنها لن تضرك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: سرائر مغيبة عني في العصا غطيته على ذلك أو أن يكشف لي من الآيات والكرامات.

وقال جعفر: منافع شتى، وأكثر منفعة لي فيه خطابك إياي بقولك: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

قال سهل: ذكره موسى من العصا مآرب ومنافع؛ فأراه الله في عصاه مآرب ومنافع كانت خافية على موسى من انقلاب العصا ثعبانًا، وضربها بالحجر في انبجاس الماء وضربها

بالبحر فانفلق، وغير ذلك أراد بذلك أن علم الخلق وإن كانوا مؤيدين بالنبوة قاصر عن علم الحق في الأكوان.

قال الواسطي: في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾: اطرح عن نفسك السكون إلى العصا والاعتماد عليها، وعدَّ المنافع فيها فلما ألقاها، وخلا منها سره، ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ الآن منا على الشرط أن ترانا النافع والضار لا الأسباب.

وقال ابن عطاء: ألقها من يدك؛ فإنك أخذتها من غيرنا، فعددت فيها أسباب المنافع، وخذها منا لتكون ولي نعمتك دون غيرنا.

وقال الجنيد: كان خوف موسى خوف التسليط لا خوف الطبع.

وقال الواسطي: خوف موسى من العصا أنه شاهدها فيه أثر سخطه.

وقال أيضًا: رأى موسى على عصاه كسوة من سخط الحق، ولم يأمن من مكره.

وقال ابن أنبار في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ قال: كلام بسط ليزول عنه روعة الهيبة.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾: فإنك بنعت التوحيد واقف على بساط التفريد؛ فكيف يصح لك، ومتى يسلم لك أن يكون لك معتمد تتوكأ عليه أو مستند إليه تستعين بهنّ وتنتفع، ولما وجد الحق كليمه مستقيًا في محبته وشوقه وتبرئه من جميع الأسباب بعد إلقائه عصاه أراه أنوار ملكه وملكوته في نفسه، وما كان في عصاه من شهود جاد أن أظهر له من يده حتى رأى من يده ما رأى من عصاه، فإن فيها العجائب أكثر والغرائب فيها أوفر؛ لأن النقل من رؤية الأشياء إلى رؤية مشهد النفس زيادة القربة؛ لأن ما يتجلى من الإنسان للإنسان أشرب مما يتجلى من الكون له.

ألا ترى سبحانه كيف ميَّز بين الأمرين العظيمين بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، وذلك معنى قوله سبحانه لكليمه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ اضمم يد همتك عن غير شهود كبريائنا، ومشاهدة جمالنا تخرج بيضاء متصفة بنور أحديتنا مقدسة بقدسنا عن الأكوان والحدثان، فيكون بعد ذلك آيات تجلينا بظهور نور تجلي كبريائي من وجهك للعالمين، وأيضًا واضمم يدك الظاهرة إلى جيبك الذي فيه قلبك حتى تخرج بيضاء بما فيه من نور نظرنا ومشاهدتنا، وأيضًا فيه مقام الأدب أي: واضمم يدك التي تكسر بها الأرواح، وتأخذ بها رأس هارون، ووكزت بها القبطي من تلك الحركات حتى تكون موضع معجزتنا، ولي فيه واقعة كنت يومًا حضرت

الحضرة في الخلوة، فأخرجت يدي بين يدي الله سبحانه مجردة للدعاء، فنادى في هواتف الأسرار: اضمم يدك، ولا تجرها فإنها سوء الأدب في الحضرة الخاصة؛ فأخذت يدي إلى جنبي، فأريت بعد ذلك أشياء في قلبي وفي صورتي، ولا أطيق وصفه.

قال الجنيد: اجمع عليك همتك، ولا تشتت سرك.

وقال بعضهم: اقطع مرادك عن الكونين، وكن مريدًا لنا لنكون مرادك، ثم بيّن سبحانه أن يده البيضاء أكبر آية وأعظم معجزة له ولغيره وذلك قوله: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ أرى الله موسى من يد موسى له أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد من موسى؛ فكان يد موسى يد قدرة الله من حيث التخلق والاتصاف، وهذا إشارة صفي ممالك الملكوت غواص بحر الجبروت، حيث حكى غن الحق سبحانه في حديث المحبة والاتصاف بقوله: «**لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا**»[1].

فلما زينه الحق بأنوار ربوبيته أشهره على العالمين ليكون حجة عليهم، قال سبحانه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحكمة فيه أن موسى كان في مشاهدة قرب جلال الأزل شاهد الربوبية، وكاد يفنى في العزة فشغله الحق بالشريعة عن الفناء في الحقيقة فلما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة سأل من الحق سبحانه شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر ليطيق احتمال صحبة الاضداد ومكابدتهم، وذلك أنه كان في مشاهدة الحق ألطف من الهواء، وفي خطابه أرق من ماء السماء، فطلب قوة ألوهية وتمكينًا قادريًا بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ عرف مكان مباشرة الشريعة أنها حق الله وحق الله في العبودية مقام الامتحان، وفي الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر أي: إذا كنت في عين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة اشرح صدري بنور وقائع المكاشفة حتى لا يكون محجوبًا بها عنك.

ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكا من صحبة الأضداد في أداء الرسالة؛ بقوله: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٤٨٧٠)، وأحمد في مسنده (١٢٩٤)، وأبو داود (١٢٩٤).

اشرح لي صدري بنور القدس حتى أكون معك في مقام الأنس وادي عجائب الغيوب، وغرائب الكشوف: ﴿ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴾ هيئ لي قوة من قوتك حتى أقوم بنعت الاستقامة معك في أداء رسالتك ونشر شريعتك ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ عجمة الإنسانية حتى أطيق أن أشرح ما كاشفت لي لعبادك بلسان شرع نبوي ﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾؛ فإن لساني لسان الحقائق، ولو أتكلم معهم بلسان الحقيقة لا يفهمون إشاراتي وعباراتي منك، وأنا أريد الوقوف بسري معك في شهود الغيب، وإذا كنت غائبًا لا أطيق أن أؤدي رسالتك بهيئتها ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا ﴾ يعبر قولي لهم، فإنه يحس مقالتي، وإشارتي التي هي من مجمع بحار الكلام الأزلي والشهود الأبدي، ولا أكون مشغولاً عنك بغيرك هذا من عموم التفسير وإشارات الحقائق أصفى من كل صفاء، وهي أن موسى كليم الله عرف مكانه من مواجهة خطاب الأزل ومشاهدة جلال القدم وبقائه ببقاء الحق مع الحق وأنه يكون بضعف حدوثيته موازيًا لشهود القدم إلى البقاء بوصف كشف الذات والصفات، وأنه يفنى بأول برقة تتبرق من بروق أنوار جلال الذات والصفات، ولو كان موسى ألف ألف موسى وكل موسى في موسى أعظم من العرش والكرسي والكون والكائنات، وما فيها يضمحل في صدمة واحدة من سطوات ألوهية الحق، فسأل أن يشرح صدره بنور تجلي الجود الأزلي، وبسطه ببسط الأبدي حتى يكون صدره حاملاً لتجلي جميع الذات والصفات؛ فمن هذه الإشارة وقع سؤاله في حيز الاستحالة؛ لأن الحق أجل من أن يكون ذاته وصفاته في حيز علوم الحدثان وإدراك أهل الزمان والمكان.

وقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ﴾ أمر طلب الربوبية أي: يسر لي الربوبية من حيث الاتصاف والاتحاد، وهذا جرأة العشاق ووقع أيضًا هذا السؤال في محل الاستحالة؛ لأن الربوبية لا تفارق عن مصدر الأزل.

وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي سبوحي صمداني رباني» حتى أطيق أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادرًا بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.

وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيعه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة.

ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى

أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكًا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان ممن وفى المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

وقال بعضهم: سأله هل عقد الحياء عنه؛ فإنه استحى أن يخاطب عدو الله فرعون بلسان به خاطب الحق.

وقال ابن عطاء: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لاستماع كلامك، ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ بالوقوف معك، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً﴾ النفسانية، ﴿مِّن لِّسَانِى﴾.

وقال الجنيد: ما سأل الله موسى في هذه الآية إلا الأخلاق.

وقال جعفر: لما كلم الله موسى عقد لسان موسى عن مكالمة غيره؛ فلما أمره بالذهاب إلى فرعون ناجاه بسره، وقال: ﴿ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ لأكون قائمًا بالأوامر على أتم مقام.

وقال ابن عطاء: اكشف لي عن صدري حتى لا أشاهد غيرك ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ حتى لا أنطق إلا بمعرفتك، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً﴾ الإنسانية من لساني حتى لا أتكلم إلا بما يتلقنه منك.

وقال جعفر: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ عقدة الهيبة والإجلال، ولما سأل وزارة أخيه بين مراده منه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أراد بالذكر والتسبيح الكثير نشر فضائل ما مَنَّ الله عليهما بنعت الحمد والشكر، والحمد إذا كان بلسان الحدث يكون قليلاً ولكن إذا كان المعارف يذكر الله بالله ويسبح الله بالله يكون بالله لله كثيرًا حيث من عين الجمع في محل الاتصاف والاتحاد ثناء موسى وهارون ثناء الله على نفسه، إذ لم يبق في البين غير الله فإن الكل هو الله وذكره موازي وصف قدمه، وذلك الذكر الكثير، وما دونه فهو في محل القليل.

قال ابن عطاء: لا يخطرن بسرك ما خطر بموسى حيث قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ استكثر ما منه من العبادة، والتسبيح؛ فلا يخطرن بك ما خطر به.

قال جعفر: قيل لموسى: استكثرت تسبيحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في حفظك في اليم وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خاطبنا معك

وكلمنا إياك وأكثر منه إخبارنا باصطناعنا لك، ولما كان قصد موسى بسؤاله إنفاذ مراد الحق لا مراد نفسه وقع الإجابة على موافقة الاصطفائية الأزلية بقوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي: وقع سؤلك محل خاصيتك التي صدر منا في الأزل فبتلك الخاصية سألت عنا مأمولك، وقد أعطيناك سؤلك: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ بأن ألبستك نور اصطناعي واصطفائي حين خرجت من العدم وذلك النور.

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾[1].

قوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ هذه خاصية عجيبة اصطفاه في الأزل لقبول وحيه ورسالته وسماع كلامه ورؤية مشاهدته؛ فلما أراد أن يجعله مسقط نور جلاله وجماله ألبسه نور محبته الأزلية السابقة للأنبياء والمرسلين والصديقين حتى يكون بقوتها متحملاً لحمل أنوار صفاته وذاته فمن كل صفة عليه نور، ونور المحبة علا على كل صفة ليكون مع هيبته وجلاله محبوب كل محب ومألوف كل أليف، وبذلك النور يكون حسنًا مستحسنًا مليحًا شريفًا ظريفًا

---

(١) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾ [طه: ٤٠] يا موسى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠]. أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسى القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلقات الذات والصفة، وقوله ﷺ: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (١/ ٢٧٥) بتحقيقنا.

في أعين الخلائق جميعًا وهكذا حال كل محب للرحمن.

قال الواسطي: في قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ سأل وبه ابتدأ شرح صدره فجاز الاقتداء به للعوام دون الخواص؛ لأن الله أعلم بها فيه إبلاغ رسالته وأداء أمانته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ إلى قوله: ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ فذكر أيام حداثته ثم ردَّه إلى أصله ثم رده من أصله إلى أصل الأصل؛ فقال: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ فأضافه إلى نفسه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾.

قال السري السقطي -قدس الله روحه: ألقى عليه لطفًا من لطفه استجلب به قلوب عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ لك، فمن رأى فيك محبتي لك أحبك يحبى لك.

قال فارس: زينتك بملاحة من عندي حتى لا تصلح لغيري، ويحبك كل من يرى تلك الملاحة فيك؛ فقيل: أليس يوسف أعطي شطر الحسن، ولم يسكن يستوجب المحبة.

فقال: الحسن لا يوجب المحبة والملاحة توجب المحبة، ألا ترى النبي ﷺ كان عليه ملاحة ممزوجة بهيبته.

قال بعضهم: بعينك لا يراك لا أحد إلا رق لك ومال إليك ولما خصه بكسوة نور محبته جعله محفوظًا في مقام الامتحان والبلاء لا ينقطع عنه أنوار تلك الخاصية، وكان في مجمع حجر وصلة الحق يربيه بأيدي الأعداء ليبيِّن منته واصطفائيته، كأنه خاطب لطفه قهره ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: لتكون مربى في مقام القهر بعين اللطف، وهذا خاصية عجيبة.

قال الواسطي: ما نجا نبي ولا ولي من محنته ولا سلم أحد من مشقته، وهذا معنى قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ أنا مشاهد لك حافظ أرعاك بعيني ولا أسلم سياستك إلى غيري ليعلمه حسن العناية.

ثم إن الله سبحانه ذكر لموسى منته عليه بأن أنجاه من كيد العدو، وإرجاعه إلى أمه، وبأن لم يأخذه بجرم القتل بقوله: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ إن الله سبحانه أعلم الحقائق أن من اصطفاه الله في الأزل بشرائف المعرفة ولطائف الولاية لا يضر به المعصية ولا يزيله من مقام

الاصطفائية مباشرة الكبيرة فألقى موسى في البداية في محنة المعصية كأبيه آدم عليهما السلام ليكون التواضع مصحوبًا له إلى النهاية ويربيه بحقائق القهر كما يزينه بحقائق اللطف ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ أي: نجيناك من طريان العتاب منا على قلبك ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ أخلصناك من النظر إلى غيرنا في جميع أنفاسك، وألبسناك أنوار لباس ربوبيتنا حتى عرفتنا بمعرفتنا، وصرت فنون عجائب لطفنا في العالم.

قال الواسطي: ألقاه في أعظم كبيرة حتى يوجده طعم الاصطفاء بقوله: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾.

وقال أبو الحارث: فتناك بنا عما سوانا.

وقال ابن عطاء: فنجيناك بالبلاء طبخًا حتى صلحت لبساط الأنس.

وقال سهل: أفنينا نفسك الطبيعي ودبغاها حتى لا تأمن من مكر الله.

ثم زاد ذكر المنة عليه بأن جعل شيخه ومقدمه في طريقته شعيبًا ﷺ بقوله: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ لبثه عند شعيب بأن رباه الله بصحبة المرسلين ليكون متخلقًا بخلقه مهذبًا في آداب الحضرة، وهذا سنة الله للمريدين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أي: على قدر زمان الإرادة؛ فإذا كنت كاملاً جئت على قدر مقام المحبة، ووطئت بقدم المحبة على بساط القربة بعد قدم الإرادة في مقام الخدمة جئت بها اصطفيناك في القدم من العدم، لا يتغير قدرك بتقليل بدور العناصر عن قدر اصطفائيتنا.

قال بعضهم: قدرنا لك سبيل المعرفة وقتها فجئت على ذلك القدر أقدر.

ثم ذكر سبحانه أعظم منته عليه بقوله: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي: ضمرت سرك بنور سري وقلبك بنور نوري وعقلك بسنا قدسي وروحك بجمال وجهي وألبستك نور محبتي وكسوتك كسوة ربوبيتي لتكون مشكاة أنوار صفاتي وذاتي، أتجلى من وجهك بالهيبة للعالمين وخصصتك بمخاطبتي وسماع كلامي؛ فإن في زمانك ليس في العالم سواك محل وقوع نور تجلياتي وكشوف أسرار سري ولتكون لنفسي خاصًا بالمحبة والشوق والعشق لا لغيري وأنا غيور عليك لا يراك أحد بعين المحبة إلا أبتليه، ولا ترى أحدًا بعين المحبة إلا أبتليك حتى لا يكون فيك نصيب أحد غيري.

قال الخرَّاز: في قوله: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾؛ فمن أين وإلى أين ومنه وإليه وله وبه وفني فناؤه لبقاء بقائه بحقيقة فنائه.

وقال فارس: أخلصتك لي حتى لا تصلح لغيري.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في بعض كتبه: غير أن أولياء الله رهائن الله في أشياخهم قد خبأهم وأخفاهم في أنفسهم من أنفسهم لنفسه، وهذا مقام الاصطناع الذي قال الله لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾.

قال سهل: مفردًا إليَّ بالتجريد لا يشغلك عني شيء[1].

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢﴾ أي: إذا أمر دعا أن تذكراني فاذكراني حتى لا تضعف تحت أثقال ذكري؛ فإن ذكر القديم لا يحتمل إلا بقوة من القديم، وأيضًا لا تغيبا عن مشاهدتي باشتغالكم بأمري حتى لا تكونا فاترين بي عني.

قال سهل: لا تكثرا الذكر باللسان، وتغفلا عن مراقبة القلب.

ثم إن الله سبحانه أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لقطع حجته وإظهار كذبه في دعواه بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ هذا تهديد لكل مدعٍ لا يكون معه بينة من الله في هواه، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله، ومن يعجز عن هداية غيره فأيضًا يعجز عن هداية نفسه، ويعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب ويشكروا الله بما أنعم عليهم بلطفه، وربما يصطادون من بين الكفرة من يكون له استعداد نظر الغيب مثل حبيب النجار ورجل من آل فرعون وامرأة فرعون والسحرة.

قال ابن عطاء: الإشارة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو المبعوث بالحقيقة إلى السحرة؛ فإن الله يرسل أنبياءه على أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه ولكن يبعث الأنبياء إليهم ليخرج أولياء المؤمنين من أعدائه الكفرة.

ثم بيَّن سبحانه لطفه وكرمه للمؤمنين بما أظهر لطفه بأعدائه بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ انظر كيف تلطفه بأعدائه؛ فهذا لطفه بأعدائه فكيف لطفه بأوليائه علم عجزه وضعفه وكذبه وعلمه بنفسه بأنه أعجز العاجزين، ولكن ضرب قهر الجبارية، ولطمه الميل على قفاه وبعده من باب العبودية مع استعداده بقبول المعرفة، ولولا ذلك لما قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ

---

(١) أي تفرد إلي بالتجريد لا يشغلك عني شيء. تفسير التستري (١/ ٣٢٣).

تَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، ومن ذلك الاستعداد وقع في بحر دعواه ولولا كان في نفسه شيء من ذلك لم يجترئ أن يخرج بتلك الدعوى ألا ترى أن دعواه لم يقع إلا لقليل من الخلق من الكفرة، وفي كل موضع يظهر به قهر القدم بنعت المباشرة يفيض سكرًا كما يفيض لطف الأزل سكرًا في ألطف وصف الروح الناطقة ولدعواه في الحقيقة وجه من الحقيقة، وسكر القهر وصف النفس الأمّارة، ولولا اختلاف المكانين واللباسين يقع لفرعون ما يقع لأهل الحقائق من دعوى الأنانية، ومن هاهنا أمر الصفيين المكرمين بأن يقولا له قولاً لينًا؛ لأنه يكفي ما عليه من قهر قدمه فأثقال البعد والسقوط من درجات المؤمنين العارفين وفيه إشارة لطف الله بموسى وهارون ليكونا متخلقين بخلق الله في تأديب عباد الله.

وعلم الله سبحانه حدة موسى، وقلة احتماله رؤية المخالفين من أعداء الله؛ فأكد العزم عليها لئلا يغضبا عليه في دعواه الذي قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾ [الشعراء:٢٩] لئلا يسقط سبيل الحجة عليه.

قال يحيى بن معاذ: هذا رفقك بمن آذاك فكيف رفقك بمن يؤذى فيك؟

قال النهرجوري: قال الله لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنه أحسن إليك في ابتداء أمرك فلم تكافئه فأحببت أن أكافئه عنك.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ انظر إلى هذا اللطف من اللطيف الكريم أن معيته يكفيهما حيث إنه معهما ولا يحتاج إلى قوله أسمع وأرى، فزاد التلطف، فقال أسمع وأرى وهذا كمال رعايته وحفظه لهما أي: أسمع قولكم وفعلكم جميعًا وأنا بالسمع والبصر معكما ومع فرعون، ولكن أنا بذاتي المنزه بنعت الكشف معكما خاصة.

قال سهل: أخبر الله أنه معهما بالنصرة مشاهدًا لهما في كل حال بالقوة والمعونة والتأييد لئلا يخافا إبلاغ الرسالة بحال قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلام الأزلي والسلامة الأبدية بنعت الاصطفائية على من اتبع الأنبياء والأولياء، ولا يتبع الهدى إلا من سبق في الأزل له منا الهدى.

قال الواسطي: اتباع الهدى لسابقة الهدى، ومن سبقت له من الله الهداية اتبع الهدى في

جميع أحواله.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ لم تبق ذرة من العرش إلى الثرى إلا وخرجت من العدم بنور القدم ووقع وجودها في حيز الرحمة وكساها الحق أنوار قدرته ثم أعطاها عقلاً سريا تعرف بها صانعها وهو تعالى بذاته يعرفها نفسه، وكيف لا يعرف الوجود وجود صانعه، وهو بمجموعه مستغرق في بحر الألوهية؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١٧]؛ فما كان فيه روح فعله فزاد حياته بروح فعلى مثل الحشرات والوحوش والطيور ومعرفتها بقدر أرواحها وعقولها، ومن كان فيه روح الروحانية مثل الملائكة والجن؛ فمعرفتهم أيضا بقدر أرواحهم وعقولهم، ومن كان روحه من نفخ الحق عند كشف الذات والصفات في أوائلها بمعرفتهم وهدايتهم من حيث الكشف والمشاهدة وهم القدسيون الربانيون الألوهيون.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾ الإشارة

فيه إلى الأجسام والهياكل؛ لأن الأرواح من عالم الملكوت، ولولا أنها سترها الحق بقوالب ترابية لملأت الأكوان والحدثان من روح واحدة ولاحترق الجميع في أنوارها، وإن الله سبحانه صوع[1] من إكسير الأشباح لمعادن الأفراح، ورباها بنظام تجلي جماله وجلاله بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] فلما حملت الأرواح في ميادين العبودية حتى طارت منها الأرواح إلى عالم الربوبية بقيت السبائك في معادنها الزوائد تربية ربها، فلما تمت التربية لها من نور فعل الحق صارت الهياكل والأرواح على نعوت الروحانية، ولا تقوم الأرض بحملها بعد ذلك، ويكون موضعها عالم الغيب التراب يا عاقل هو معادن نور الفعل، ومصدر خاصية القبضة الجبروتية، ما أشرف هذه الطينة حيث تخمرت بقبضة الأزل والأبد كان معدنها معدن ملك الصفات ورجوعنا من الصفات إلى عالم الذات، ألا ترى كيف قال سبحانه في أصل خلقتنا ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]؛ فصددنا من الصفة لرؤية الذات، وصد من الذات للعلم بالصفات.

انظر كيف قال لحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، الله الله لا تظن حديث النسطورية والأفروقية التي تقول بالثالث والثلاث؛ فإنهم في غلط الخيالات وقعوا في إنقسام الجزئيات من الكليات فنحن وقعنا من زنود تجلي القدم في العدم فكنا معدومين ونكون معدومين ونحن في وجودنا معدومون من حيث الحقيقة؛ لأن من ليس وجوده منه وبقاؤه به معدوم من حيث الحقيقة والمعدوم يكون معدومًا كما لم يكن في العدم والقديم لا يزال، كما لم يزل في القدم ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وقع على تراب العدم الذي في قبضة القدم.

قيل ليحيى بن معاذ: ما بال الإنسان يحب الدنيا؟ قال: حق له أن يحبها منها خلق وهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قد قدر رزقه فهي حياته، وفيها يعاد فهي كفاية، وفيها كسب الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي ممر الصالحين إلى الله؛ فكيف لا يحب طريقًا يأخذ بسالكه إلى جوار ربه؟!

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ

(١) صرع: الصّواع: إناء يُشْرَبُ فيه. وإذا هيّأَتِ المرأةُ موضِعاً لنَدْفِ القطن قيل: صوَّعَتْ موضِعاً، واسم الموضع: الصّاعة. العين (١/ ١٢٦).

ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ لا تعجب؛ فإن النفس الأمَّارة بقيت في الأنبياء؛ ألا ترى إلى قول الصديق المرسل يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وتلك النفوس جبانة خلقت عاجزة عن حمل وارد القهريات، وإن رأت كثيرًا من آيات الله لا يخرج من جبلتها قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] خاصة أن الله سبحانه ألبس سحر السحرة لباس قهره فتحركت بقوة قهر الله؛ فلما رأى موسى انقلاب لباس قهر الله خاف من قهر الله لا من غيره؛ لأنه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٧].

سئل ابن عطاء عن قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ ما كانت هذه الخيفة، والله يقول: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾، قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله، وما خاف على نفسه فلما وجد الحق حركة نفس موسى في رؤية قهر الجبروت، قال الله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إنك محفوظ بعيون رعاية جبروتنا، ومعك الآيات الكبرى وهو لباس حفظنا، أنت في لطفنا تسبق على القهر وأصله «سبقت رحمتي غضبي»[1].

قال ابن عطاء: لا تخف فإنك بمرأى منا، ومسمع منا ونحن معك في جميع أحوالك؛ فإنك القائم بالمسبب، وهم معتمدون على الأسباب.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨)، ومسلم (٤٩٤٠).

غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إن القوم شاهدوا في رؤية الآيات مشاهدة الذات والصفات، فهان عليهم عظائم البليات.

قال ذو النون: من آثر الله على الأشياء هان عليه ما يلقى في ذات الله؛ لأنه آثر الأثير، وحصل في حمله اللطيف الخبير.

قال الله حاكيًا عن السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ افعل بنا ما كنت فاعلاً؛ فإن الذي كشف لنا عنه يسهل في مشاهدته حمل المؤن ملاقاة المكاره والضرر.

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ من كان له استعداد النظر إلى عالم الغيب وباشر حظوظ النفس احتجب عنه، فلما انقطع إلى الله ينظر الله إلى قلبه بنعت الإخلاص واليقين يكشف الله له أنوار حضرته ويجذبه إلى قربه، فلما رجع إليه بالكلية لا يبالي الله سبحانه بما جرى عليه في أيام الحجاب من أحكام مقاديره؛ لأنه كان معذورًا من جهة جهله بالطريق، فالتائب المنقطع إلى الله والمؤمن العارف بالله العامل بالصالحات ترك ما دون الله، فإذا كان كذلك فاهتدى بالله إلى ما لله، وما في الله ويكون مغفورًا برحمة الله ومعصومًا بعصمة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ لمن رجع من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة، وصدق موعود الله فيه وله واتبع السنة ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلكًا وطريقًا.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[1] ضاق صدر موسى من معاشرة

(١) فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

الخلق وتذكر أيام وصال الحق فعلت العجلة الشوق إلى لقاء الحق.

قال الواسطي: عجلت إليك شوقًا مني إليك واستهانة بمن هو مبعوث إليهم فقال: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ إن الله سبحانه أحب كليمه حبًا بالغًا وأحب انبساطه وصولته وغضبه عليه ففتن قومه بحب العجل ليهيجه بذلك إلى غضبه ويشغله عن صحبة الأضداد بصحبته ومناجاته.

قال ابن عطاء: قال الله لموسى: تدري من أين أتيت؟ قال: لا يا رب.

قال: حين قلت لهارون اخلفني في قومي أين كنت أنا حينئذٍ حين اعتمدت على هارون.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ غضبه انبساطه وجرأته في حضرة ربه من العلم بمكانه عند الله كأنه عربد في إضلال قومه وأسفه من فقدان وصاله واشتغاله بشريعته قيل «غضبان» على نفسه إذ ترك قومه حتى ضلوا «وأسفًا» على ما فاته من مناجاة ربه.

قال الشبلي: «أسفًا» على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة من لا أوزان لهم فرده من شوقه إلى مشاهدة ولم يظفر ببغيته وشُفي من وجد فغضبه كان من ذلك.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ أن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في صميم إرادتهم إلى طلب ما ألقي من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فأثر به الحياة القدسية في كل من عُكِس عليه نوره فورد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسيين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه، قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: حب العجل وهذا من نوادر تجلي الالتباس، ألا ترى كيف كانوا إذا عنموا مواضع الغلط قتلوا أنفسهم لله ومقصود الحق من ذلك أن يرى أحباءه على بابه قتلى صرعى.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ لما قص غلط عبدة العجل وغيرة موسى عليهم وذبحه العجل وحرقه وإفراده القدم عن الحدوث بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ

إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال في عقبه: مثل ما قصصت من أحكام الأولين وما فعلت بهم نقص أيضًا زيادة الباء هل الابتلاء اعتبارًا وامتحانًا وإصابة الرشد والعلم بآثار أهل الحقائق.

قال ابن عطاء: موعظة بعد موعظة وبيانًا بعد بيان، ثم خصه بها أفرده من العلم اللدني الإلهي والأنباء الغيبي بقوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ الذكر اللدني كشف ما ستر الحق على الخلائق من أسرار ربوبيته يعرف حبيبه بها معلومات الحق في القلوب والغيوب.

قال ابن عطاء: أي: موعظة تتعظ بها وتتأدب بملازمتها؛ فلا يخفى عليك شيء من أسرارنا وما أودعنا أسرار الذين قالوا قبلك، فيكون الأنبياء مكشوفين لك وأنت في سر الحق.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ إذا أراد الله سبحانه أن يطلع شموس ذاته وأقمار صفاته من مشارق قلوب العارفين يقلع عن قلوبهم شواغلات الإنسانية ورسومات النفسانية وعوارضات البشرية ورسومات العلومية، ومرسومات العقولية، حتى بقيت الأرواح المقدسة على صحاري القلوب مطالعة لطلوع أنوار مشاهدات الأزلية ومكاشفات الأبدية بغير رسوم الفهوم، والعلوم فإذا اضمحلت المخائيل من جبال الشهوات وموهومات النفوسية شاهدوا الله بصرف المعرفة وحقيقة الفناء.

قال الحسين: هو الذي يطمس الرسوم ويعمى الفهوم ويميت الذهن ويترك الجسم قاعًا صفصفًا حتى يعجز الكل عن معرفته وبلوغ نفاذ قدرته، ثم يظهر من طوالع ربوبيته على أسرار أهل معرفته فيعرفونه به.

قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝﴾ (١) أخبر الله سبحانه عن كشف العظمة والكبرياء والسلطنة للقدم، فهناك مقام فناء الأرواح والأشباح بنعت الخمود والخشوع فلا حيلة لهم هناك للخروج من تحت غواشي ضباب العزة؛ لأن الحوادث مضمحلة عند بروز أنوار سطوات الألوهية، فإذا ذهب طوفان بحار العظمة ويطلع عليهم زبرقان(٢) الجمال من مشرق الجلال فيبقوا ببقائه ويفيقوا من صعقاتهم ويجيبوا الله ويسمعوا منه فالأول مقام الفناء والآخر مقام البقاء.

قال الواسطي: وهل كانت إلا خاشعة في الأول وهل يكون إلا خاشعة في الأبد فالاقتحام في حال الوجود بالتوثب والمنازعة ووقاحة الوجه ورعونة الطبع؛ لأنها لم تكن وهي إذا كانت كأنها لم تكن.

وقال الجنيد: كيف لا تخشع وقد كشف الغطاء وأبدي الخفاء فلهيبة الموقف وحياء الجنايات خشعت أصواتهم وذلت رقابهم ثم أخبر عن ذهاب صولات العظمة وإقبال كشف الحال بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من رضي الله عنه في الأزل واختاره باصطفائيته وحسن عنايته، ورضي عن قونه في دعواه في الدنيا بمحبته، ومعرفته مقرون بالصدق والإخلاص، وله لسان الولاية بإذن الله، يهب الله له بشفاعته، ولو شفع لجميع الكفرة، فإنه لا يرد مكان خاصية إرادته القديمة، وهناك تبيين صدق الصادقين ودعوى المدعين.

قال الواسطي: لا تنفع الشفاعة إلا لمن لا ينسب إلى نفسه شيئًا، ولا يرى نعته فإذا عاين نعته نسى الأول، وإذا ظهر عليه رضوانه ذهب ما دونه، ثم أخبر عن كمال جلاله وعز قدمه وبقاء ديموميته التي تقاصرت الأوهام عن إدراكها وفنيت العقول عن الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝﴾ كيف يحيط الحدث بالقدم والحدث فاني الوجود في كشف وجود الحق والفاني لا يدرك الباقي إلا بالباقي، وإذا أدرك الباقي بالباقي لا يبلغ إلى ذرة من كمال الأزلية؛ لأن الإحاطة بوجوده مستحيلة من كل الوجوه صفات وذاتًا وسرًا وحقيقة يا عارف كيف تدعي معرفة من لا تدركه معرفة كل عارف، فإن معرفة كل عارف

---

(١) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للرحمن) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همساً) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (٥/ ٢٦٩).

(٢) قالوا: سُمّي الرجل زِبرقان لجماله. وقالوا: زبرقَ ثوبَه، إذا صبغه بحُمرة أو صُفرة. والزِّبْرِقان، زعموا: القمر. جمهرة اللغة (٢/ ١٣٢).

مستفاد من كرمه والحادث بمعرفته لا يعرف ماهية حديثه فكيف يعرف سر السر وعين العين وعلة العلل، أنهم أن ما تدرك منه يرجع إليك بكل معروف ومفهوم ومعلوم فكلها متقى إدراك حقيقة ذاته وصفاته.

قال ابن عطاء: لا يحيطون بشيء من ربوبيته علمًا؛ لأنه لم يظهر شيئًا إلا تحت تلبيس؛ لكيلا يستوي علمان في شيء واحد ومن لا يرى الكل تلبيسًا كان المكر به قريبًا، والعبيد لا يقفون على تلبيساته.

وقال الواسطي: كيف يطلب أحد طريق الإحاطة وهو لا يحيط بنفسه علمًا ولا بالسماء، وهو يرى جوهرها ثم زاد ذكر غلبة عزته وجلاله واشتمال أنوار هيبة ذاته وصفاته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ افهم يا صاحب العلم أنه سبحانه ذكر الوجوه، وفي العرف: «صاحب الوجه من كان وجيهًا عند كل ذي وجاهة»؛ فالأنبياء والمرسلون والأولياء والمقربون في الحقيقة هم أصحاب الوجوه، وكيف أنت بوجوه حور العين ووجه كل ذي حسن وحسن فوجوه الجمهور مع حسنها وجلالها، المستفاد من حسن الله، وإن كانوا جميعًا مثل يوسف تلاشت وخرت وخضعت عند كشف نقاب وجهه الكريم وظهور جلاله وجماله القديم.

وقال سهل: خضعت له بقدر معرفتها به وتمكين التوفيق منه.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ عن الله سبحانه وتعالى إبصار سر نبيه وحبيبه، وكشف لها بحار علومه الأزلية وعرفه مكان قصور علمه فيها فأمره باستزاده، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قال محمد بن الفضل: «رب زدني علمًا» نفسي وما تضمره من الشرور والمكر والغدر لأقوم بمعونة في مداواة كل شيء منها تداويها، ثم أخبر سبحانه عن لسان آدم صورة الأمر من غلبة سطوة إرادته بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ إن الله سبحانه قدر قبل الكون وقبل آدم أن آدم مصطفى مجتبى بالرسالة والنبوة وعلم الأسماء والجلال والكمال وأنه يعرف الله بطريق كل اسم من أسمائه ونعت من نعوته، ونعت قهر جبروته، فجر آدم

باسمه إلى نعته ومن نعته إلى صفته، ومن صفته إلى رؤية ذاته فألبس نور بهائه الشجرة المنهية وأراه ذلك النور والبهاء الرباني، ثم أمره بالاجتناب عنها وألقي في قلبه محبة قربها؛ لأنها مرآة جلاله يتجلى لآدم منها فغلبت المحبة على الأمر وسلبته لطائف هذا الجمال فوقع في هيجان شوقها وغمار لذة بهاء مشاهدتها فترك صورة الأمر لشوق جمال الأمر ووقع في بحر القهر بغير مبالاته على العهد؛ لأن عهد الأزل باصطفائيته سابق عهد الأمر فمن رؤيته عهد الأزل ترك عهد الأمر فاجترأ لعلمه بمكانته بوصف الاصطفائية عند الحق وقبوله؛ لأن بعد القبول الأزلي لا يؤثر فيه مباشرة المعصية، وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ لم يجد الحق في قلب آدم عزم متابعة أمر الظاهر عند العهد؛ لأن في قلبه رؤية ما يتولد من أكل الشجرة من خروج عرائس المقدرات الغيبية من مكمن القدم، يا عاقل فديت لنقض عهده الذي بسببه بدا إعلام دولة المرسلين والنبيين والصديقين وحقيقة عهد الله مع آدم ألا يسكن بشيء دونه، وإن كان وسيلة إلى قربه ومشاهدته فلما ارتهن في طريق الوصول بوسيلة وقع العصيان عليه لما لم يسلك في طلب الحقيقة بنعت التجريد وإسقاط الوسائط قال ابن عطاء: عهدنا إلى آدم ألا لا تطالع معي سواي فنسى عهدي وطالع الجنان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ أي: لم يطالع سره، ولكن طالعه بعينه فنادى عليه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

وقال الواسطي: ونسي ولم نجد له عزمًا أي: قوة على ضبط نفسه، وإن كان الواجب أن ارتكاب المباشرة أوجب زوال النسيان فإن غيبته عن شاهده ليريه شواهد عبوديته تنبيها وتزيينًا وقال أيضًا: ﴿فَنَسِيَ﴾ رجهان أي: جهل قدر عهده وفرق بين من نسي بالحضرة وبين من نسى في الغيبة، لذلك قال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[1].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ خاف آدم في سره قبل دخول الجنة أن ينقطع عن لذائذ مشاهدته ووصاله في الجنة وأن يحتجب عن روح الأنس والنظر إلى جمال

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٦/ ٢١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢١٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٨٤).

القدس، وأن يعرى عن ثوب عافية الرعاية والكفاية باشتغاله عنه بالجنة، وهذا قرع سر القدم باب سر سره بأن ما يخاف عنه يقع فيه في ظاهر العلم، فأخبره سبحانه ﴿لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ في شوقك إلى مشاهدتنا؛ لأن هناك تستغرق في بحر وصالنا ولا تعرى عن لباس أنوار الاصطفائية؛ فإنك ملبس أبدا بكسوة الاجتبائية، وأنت في ظل عنايتنا لا تعطش إلى مياه الزلفة؛ فإنك تكون في الوصلة، ولا تضحى لا تحترق في حر شمس الفراق، فلما وقع عليه واقعة الامتحان من القدر السابق صار عرياناً في الجنة عما دون الله، وذلك أنه سبحانه جرب صفيه بالجنة، وأجرى عليه شهوة الحنطة، فلما رآه في حجاب الامتحان جرده عن الجنان وأفرده عن الأكوان والحدثان غيرة على سر ما في قلبه: وفيه إشارة أخرى كأنه أشار بالسرِّ أي: لا تأكل الشجرة المنهية كيلا تجوع ولا تعرى؛ فإن من خالفنا وقع في بحر الحجاب وعرى عن ستر المآب.

قال ابن عطاء: آخر أحوال الخلق الرجوع إلى ما يليق بهم من المطعم والمشرب، ألا ترى إلى آدم بعد خصوصية الخلقة باليد، ونفخ روحه الخاص، وسجود الملائكة كيف رد لي نقص الطبائع بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

قال الواسطي: خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، واصطفاه على الخلائق، ثم رده إلى قدره لئلا يعدو طوره قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ وما تعرض لي في حكم الظاهر أن الله سبحانه قال لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ أي: لو تخرجا من الجنة بسبب المعصية تتعبا في الدنيا لأجل المطعم والمشرب والملبس في الحراثة، وغيرها في الدنيا وتعرى وتظمأ وتضحى، ولا يكون مثل هذه العقوبات في جنبي وجواري، كأنه خاطب معه من حيث الطبيعة خوف نفسه بالجوع والعرى والظمأ في الهواجر؛ لأن النفس لا تفزع إلا من مثل هذه العقوبات لئلا تقع في جوار الحق في المعصية، وإن من لطفه وكرمه عاقب آدم في الدنيا بالمجاهدات الكبيرة بما جرى عليه من المعصية في الحضرة ويعاقب المجهود في الآخرة بما جرى عليهم من المعصية في الدنيا وهذا خاصية له؛ لأن عقوبة الدنيا أهون، ولولا امتحان الله آدم بأكل الشجرة، ومثل هذا الخطاب لم يخرج آدم من الجنة، ولم يظهر أسرار علوم حقائق قهرمانه لأهل المعارف من الصديقين، ولم يقع عنده عذر المذنبين فخاطبه من حيث العبودية والحدوثية ولو خاطبه من حيث الربوبية لطار في الجنة في هواء الهوية، ولم ير أثره في الزمان والمكان، ولا في الجنان والحدثان.

سئل ابن عطاء عن قصة آدم: إن الله ﷻ نادى عليه بمعصية واحدة وستر على كثيرين من ذريته؛ فقال: إن معصية آدم كانت في بساط القربة في جواره، ومعصية ذريته في دار المحنة،

فزلته أكبر وأعظم من زلتهم، ولما أراد الله أن يخرج من ذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين ابتلاه بأكل الشجرة فقفاه الشيطان حتى يوسوس، وهذا سر القدر الغيبي كأنه يوسوسه القدر، قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ أجرى الله هذه الكلمة الغيبية على لسان الشيطان، وهو بذلك مغرور ظن أنه أوقع آدم في تيه الفرقة الأبدية، ولم يعلم أن ذلك سبب الوصلة الأبدية، وأنها شجرة الخلد بالحقيقة؛ لأن الشجرة ملبسة بأنوار السلطانية حاملة بأسرار الربانية ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أسرارهما التي انكشفت لهما من الغيب بعد أكل الشجرة، ولم يبد تعبيرها؛ فلما حازا الأسرار الألوهية خرجا من تحت موت الجهل، وبلغا إلى ملك لا يبلى، وذلك الملك الوقوف بالعلم الإلهي على أسرار قدر الآزال والآباد دلهما الشيطان إلى هذه المعالم والمعادن الغيبية، وهو معزول عنها مثله مثل حية تمشي على وجه الأرض إلى رأس كنز، وخلفه إنسان ليقتلها فلما ضربها ظهر تحت ضربه كنز فصار الكنز له، وصارت الحية مقتولة، وبلغ إلى الأمرين العظيمين البلوغ إلى المأمول والفلاح من العدو، فهكذا شأن آدم عليه السلام مع الملعون دله إلى كنز من كنوز الربوبية غرضه العداوة والضلالة فوصل آدم إلى الاجتبائية الأبدية بعد الاصطفائية الأزلية وبلغ الملعون إلى اللعنة الأزلية الأبدية.

قال الخضرمي: بدت لهما، ولم تبد بغيرهما لئلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علما ولو بد للأغيار، لقال: بدت منهما ثم ذكر سبحانه تغيير آدم بالظاهر، وأخفى تلك الأسرار في الباطن قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ عصيان آدم الرجوع من الأصل إلى الفرع ومن مكاشفة إلى الجنة، والميل من طريق الأمر إلى طريق النهي، ولو سلك طريق الأمر ليكشف الحق سبحانه ما كان في الشجرة بغير عصيان؛ لأن في بساتين غيبه مائة ألف ألف شجرة غيبية مملوءة حاملة من علوم الأسرار، ولكن سلبته صولة المحبة، وتعجيل الاشتياق أكل من شجر القدم، وصار سكران في وادي الأزل يكشف علم الأزل له فطلع على الجنان، وكاد يفشي سر السر وغيب الغيب، ويشوش أحوال الجنانين؛ فأخرجه الحق إلى حبس الدنيا، وحبس لسانه عن إفشاء سر القدم والبقاء؛ فكان اصطفائيته الأزلية مصحوبة زلته، فاستهلكت الزلة في الاصطفائية، وزاد عليها اجتبائيته الأبدية التي لا تغيرها حوادث الدهور.

قال ابن عطاء: اسم العصيان مذمة إلا أن الاجتباء والاصطفاء منعا أن يلحق آدم اسم المذمة بحال.

قال جعفر: طالع الجنان ونعيمها بعينه فنودي عليه إلى القيامة، وعصى آدم، ولو

طالعها بقلبها لنودي عليه بالهجران أبد الأبد، ثم عطف عليه فرحه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ فلما غرق في بحر الامتحان والحجاب عن الجنان فاطلع على قلبه الرحمن، ولم ير إلا الشوق إلى لقاء الرحمن أظهر نفسه له في منازل الفرقة بوصف الوصلة، بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ زاد الاجتبائية على الاصطفائية وتاب الحق على صفيه؛ لأن القديم لا يلحقه الحدث، وإن اجتهد فأين يطلبه، ولا أين فأقبل عليه الحق بنعت كشف جلاله هو لم يزل مقبلاً عليه بنعت العناية والاصطفائية، ويرجع إليه بحسن الإقبال، وكشف الجمال، وهُدي إلى طريق الوصال الذي لا تفرق فيه بعد ذلك أبدا بقوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ هدي منه إليه.

قال الواسطي: العصيان لا يؤثر في الاجتبائية، وقوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ ﴾ أي: أظهر خلافًا ثم أدركته الاجتبائية؛ فأزالت عنه مذمة العصيان ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾، وكيف يعزم على المخالفة من هو في سر العصمة وخصوصية الاجتباء والاصطفاء.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ أي: من تبع خطابي وإلهامي فلا يضل عن طريق السنة ولا يشقى عن المتابعة.

قال سهل: هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة لا يضل عن طريق الهدى، ولا يشقى في الآخرة والأولى ثم بيَّن أن من أعرض عن طريق الإلهام والذكر ومتابعة السنة وقع في ضنك عيش الفرقة بقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: من اشتغل بذكر غيري احتجب عن أنوار ذكري، ومن كان محجوبًا عن أنوار الذكر كان محجوبًا عن أنوار مشاهدة المذكور، وله حياة غير طيبة ويرزق غير هني، وأي عيش أضيق من عيش من كان

محجوبًا عن وصال الحق؟! ومن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أقبل الله إليه أقبل إليه كل شيء بالخدمة والمتابعة، قيل: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه حاله.

وقال جعفر: لو عرفوني ما أعرضوا عني ومن أعرض عني رددته إلى الإقبال على ما يليق به من الأجناس والأكوان، وقيل: قلة الصبر مع الذاكرين.

وقيل: ضيق الصدر على مداومة الطاعات، ثم زاد عليه ضنك معيشة الآخرة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ يعني: جاهلاً بوجود الحق كما كان جاهلاً في الدنيا كما قال على بن أبي طالب: «من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه».

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: إذا كنت متعرضًا لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك بما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونـزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدسًا بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائبًا بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنـزيه والتفريد، واذكر شمائل منتنا عليك نـزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برؤيتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أن الله سبحانه ألبس الكون أنوار بهائه

فصرف نظر نبيه عن ذلك حتى ينظر إليه صرفًا بلا واسطة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان:٤٥]، ولا أن روحه كان عاشقًا بالله مستأنسًا بكل شيء مليح، وبأن نظره أعظم من أن ينظر به إلى شيء دون الله.

قال الواسطي: هذه تسلية للفقراء وتعزية لهم حيث منع خير الخلق عن النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان ثم بيّن أن ما له من المكاشفة والمشاهدة والقربة والرسالة بلا واسطة خير مما كان له في رؤية الكون بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ رزقه وصاله وكشف جماله ثم أمره بالعبودية وملازمة الطاعة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، الاصطبار مقام المجاهدة، والصبر مقام المشاهدة[1].

قال ابن عطاء: أشد أنواع الصبر الاصطبار، وهو السكون تحت موارد البلاء بالسر والقلب والنفس والصبر بالنفس لا غير.

وقال الجنيد: أي: وأمر أهلك بالاتصال بنا، والاصطبار على تلك المواصلة معناه: ومن يطيق ذلك إلا المؤيدون من جهتنا بأنواع التأييد.

قال يحيى بن معاذ: للعابدين أردية يكسونها من عند الله سداها الصلاة ولحمتها الصوم ثم بيّن أن عواقب السعادة مقرونة بالتقوى بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ التقوى الخروج مما دون الله والحياء في إجلال الله.

قال أبو عثمان: هو ذم النفس والجوارح عن جميع ما يقبحه العلم.

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ

(١) قال الحرالي. ويصح أن يراد بها الدعاء، فمن صبر عن الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر. نظم الدرر (٨٥/١).

بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ إن الله سبحانه حذَّر الجمهور من مناقشته في الحساب، وزجرهم حتى يتنبهوا عن رقاد الغفلات وترك الحساب أقرب من كل شيء منهم لو يعلمون، فإنه تعالى يحاسب العباد في كل لمحة ونفس، وحسابه أدق من الشعر وأخفى من دبيب النمل على الصفا، ولا يعرف ذلك إلا المراقبون الذين يحاسبون أنفسهم في كل نفس وخطرة وهم في غفلة في حجاب عن مشاهدة الله معرضون عن طاعته إذ لا حظ لهم في الطاعات، ولا شرب لهم في المشاهدات ويا غافلاً لو تدري حلاوة حساب الله ودقائق تعريفه مكان السهو والغلط تحاسب نفسك في كل نفس، ما أحلى خطابه وإلهامه في تعبير العارفين، ما أطيب مسامرته مع الصديقين في مؤاخذته دقائق الخطرات كأن بطون علم المجهول قد أشارت إلى أن هذا حركة جرسات الوصلة ولمعات أنوار القربة، كما قيل:

ويبقـــى الـــودُّ مـــا بقـــي العِـــتَاب

وقال بعضهم: دنا أوان الانتباه، وهم في غفلتهم معرضون عن طريق التوبة والعظة والانتباه.

قال بعضهم: قرب أوان اللقاء وهم في غفلة عن استصلاح أنفسهم لتلك الحضرة، ثم وصف سبحانه القلوب الغافلة بقوله: ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ ﴾ ساهية عن الذكر وحقائقه ولذته، شاغلة بحظوظ نفسها محجوبة عن لقاء خالقها.

قال ابن عطاء: معرضة عن طريق رشدهم.

وقال بعضهم: غافلة عن مسالك اليقين وطريق المتقين.

قال الواسطي: لاهية عن المصادر والموارد والمبدأ والمنتهى.

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: فاسألوا أهل شهود جمال المذكور القديم بنعت صفاء الذكر في قلوبهم من مشرق نور مشاهدته، وهم الذين مخاطبون من الله بكل سر وكل حقيقة من علوم الغيبية الأزلية.

قال سهل: فاسألوا أهل الفهوم عن الله والعلماء به وبأوامره ونواهيه.

قال الجنيد: أهل الذكر العالمون بحقائق العلوم ومجاري الأمور، والناظرون إلى الأحكام بأعين الغيب.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [1] أي: ذكر مناقبكم من حيث الأرواح القدسية والأشباح الإنسية والعقول الملكوتية والأسرار الجبروتية والنفوس الهوائية، وهذه المراتب الجامعة لا تحصل إلا لآدم وذريته، وفيه بيان خبر الأزل بكرامتكم وخيريتكم على البرية، أين أنتم من معرفة نفوسكم لا تعقلون شرف نسبتكم في معرفتي ووصولكم إلى بعنايتي الأزلية.

قال سهل: العمل بما فيه حياتكم.

قال الأستاذ: أي: شرفكم وفخركم؛ فمن استبصر بما فيه من النور سعد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كم قلب خرب عمران بنور ذكر الله بظلم الطبيعة ومباشرة الشهوة والدعاوي الباطلة، والنظر إلى الأغيار، وصار محجوبًا بها عن مشاهدة الأنوار وحقائق الأسرار.

وقال أبو بكر الوراق: في ظلم خراب العمران كما قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2].

إذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب، وعلامة خراب القلب عصيان الجوارح وتعديها وميلها إلى ما فيه هلاكها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ

---

(١) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. نظم الدرر (٥ / ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٨).

كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ أخبر سبحانه عن الطبيعة الإنسانية التي هي منابت مخاتيل الشيطانية، وحنظلات الهواجس النفسانية، فإذا صارت مجموعة بأباطيل شهواتها، وظلمت هواها أشرقت شموس مشاهدة الجلال والجمال من روازن الملكوت للقلب المستعد لشهود مشاهد القربة، فتدلت منه، وتجلت له حتى لا يبقى من ظلمات الطبيعة أثر، فإذا صار بدر الجمال مستقيمًا في سقف سماء القلوب، وأضاء بأنوار الغيوب اضمحلت سجود ليالي النفوس، وانهدمت قيام أباطيل الشياطين.

وقال الواسطي: الوعظ للأكابر، ومنهم من له مشار مقذوف كقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾.

قال الأستاذ: يدخل نهار التحقيق على ليالي الأوهام، فينقشع سحاب الغيبة، ويتجلى ضباب الأوهام، ويبرز شمس اليقين عن خفاء الظنون، ويصحو سماء الحقائق عن كل غبار الشبه ساطعًا.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فيه إشارة إلى إفراد القدم عن الحدوث وتنزيه الأزلية والأبدية عن العلة، كأنه دعا العارفين إلى رؤية الفردانية بنعت الانفراد عن الحدثان.

قال الساري: حثك في هذه الآية على الرجوع إليه والاعتماد عليه، وقطع العلائق والأسباب عن قلبك.

قوله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخبير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية.

سئل ابن حماد المصري عن قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لم لا يسأل؟ قال: لأن أفعاله من غير علة.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عزة سرمديته قطع لسان المسبحين من الكروبيين عن حقيقة الثناء ووقعت الاستحالة أن يحيط بجلال قدمه قول كل قائل، ووصف كل واصف ولا يطيقون أن يقولوا شيئًا من تلقاء نفوسهم أو يفعلوا شيئًا بإرادتهم، بل هم في قبضة عزته أذلاء تحت جلال جبروته يتبعون أمره كما أراد منهم.

قال القاسم: لا يسبقونه قصدًا ولا فعلاً؛ لأنهم مربوطون بما ذكرهم مقموعون بما عرفهم لئلا يفتري عليه أحد ثم وصف هؤلاء الكرام بالخشية منه والشفقة عنه بقوله تعالى: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: هم من معرفة جلال قهره خائفون من فرقته يعلمهم بأنه منزه عن وجودهم وعدمهم، وهذه الخشية حقيقة العلم بالله يتولد منها الخوف والحياء والتعظيم والإجلال.

قال الواسطي: الخوف للجهّال، والخشية للعلماء، والرهبة للأنبياء، وقد ذكر الله الملائكة وقال: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح؛ لأنها باقية يتجلى حياة الحق لها فإذا انسلخت الأرواح من الأشباح انهدمت جنابذ(١) الهياكل، ورجعت الأرواح على معادن الغيب لشهودها مشاهدة الرب.

قال الجنيد: من كان بين طرفي فناء فهو فانٍ.

وقال أيضًا: من كان حياته بنفسه يكون مماته بذهاب روحه، ومن كان حياته بربه فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل، وهي الحياة على حقيقة، وافهم أن الموت بالحقيقة موت الفراق وفوت الوصال، كما قيل: «الفوت أشد من الموت، والموت موت الجهل، والحياة حياة العلم»، والموت عبارة عن الفناء والحدثان، وإن كان موجودًا؛ فهو بالحقيقة فانٍ؛ لأن حقيقة البقاء لا تقع عليه؛ لأنه محدث والمحدث لا يستحق له حقيقة البقاء إذ بقاؤه بالحق لا بنفسه، والموت قهر غيرة الأزلي يطري بالحدثان يدمر وجودها حتى لا يبقى اسم المرسومات ونعت الموجودات في ظهور الذات والصفات، ثم ذكر ابتلاء الخلق بالخير والشر بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بالقهر والنطف والفراق والوصال والإقبال والإدبار والمحنة والعافية والجهل والعلم والنكرة والمعرفة.

قال سهل: نبلوكم بالشر، وهو متابعة النفس في الهوى بغير هدى، والخير العصمة من المعصية والمعونة على الطاعة.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ هذا والله أمر عجيب خلقهم من العجلة وزجرهم عن التعجيل إظهارًا لقاهريته على كل مخلوق وعجزهم عن الخروج من ملكه وسلطانه وحقيقة العجلة يتولد من الجهل برؤية المقاصد السابقة.

---

(١) الجُنْبُذَة: القُبَّة، عن ابن الأعرابي، وفي الحديث في صفة الجنة: «وسطها جنابذ من ذهب وفضة يسكنها قوم من أهل الجنة كالأعراب في البادية». حكى ذلك الهروي في الغريبين (بتحقيقنا).

قال الواسطي في قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ قال: لا يستعجلون إظهارًا لعجزهم وتعريفًا لقدره.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أظهر الحق سبحانه جلال عظمته يوم القيامة؛ فلما رأوا سطوات عظمته تلاشوا في جلال هيبته، وكيف يقوم الحدثان عند ظهور جلال الرحمن حيث يتجلى لها بوصف العزة والعظمة والكبرياء، وأهل شهود القدم على نعت السرمدية لا يفزعون من طريان أفعاله وجريان قهره ولطفه؛ لأنها امتحانات عارية لا يفزع عنها إلا كل مشغول عنه.

قال بعضهم: من يبهته شيء من الكون؛ فهو لمحله عنده وغفلته عن مكنونه، ومن كان في قبضة الحق وحضرته لا يبهته شيء؛ لأنه قد حصل في محل الهيبة من منازل القدس.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق وتنزيه عن العجلة بمؤاخذتهم أي: أنا بذاتي تعاليت أدفع بلطفي القديم عنكم قهر القديم، ولولا فضلي السابق، وعنايتي القديمة بالرحمة عليكم من يدفعه بالعلة الحدثانية، وهذا من كمال لطفي عليكم، وأنتم بعد معرضون عني يا أهل الجفاء، وذلك ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ

رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال الواسطي: أي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن، أي: يظهر عليكم ما سبق فيكم ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: ذكرهم إياه في الأزلية بالنجاة والهلاك.

قال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه.

قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين ومنها للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي هممهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيبقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفسًا من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منورًا بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ كلام الله سبحانه في نفسه مبارك وإن لم يسمعه الجاهل، ولكن مبارك على من يسمعه بأسماع المحبة والشوق إلى لقاء المتكلم القديم

ويعمل بمضمونه، ويعرف إشارته ويجد حلاوته في قلبه، فإذا كان كذلك يبلغه بركته إلى مشاهدة معدنه، وهو رؤية الذات القديم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:٨٥].

قال ابن عطاء: مبارك على من يسمعه، مبارك على من يتعظ به، مبارك على من ينزل بهمته وقلبه عليه، مبارك على من آمن به وصدق بما فيه ومن لم ير على سره وقلبه ونفسه آثار بركات القرآن؛ فليعلم ببعده عن مصدر الخواص ودخوله في ميادين العوام من الأشقياء.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ هذا خبر اصطفائية الخليل في الأزل بخلته ورسالته قبل إيجاده وإيجاد الكون وما فيه فإذا أوجد وجه من العدم كاشف لها جمال العدم وعرفها نفسه بنعت إعلامه أسماءه ونعوته وأسرار صفاته فعرفت الله بالله وعرفت سبل شهود الصفات ومشاهدة الذات، فلما التبست بصورته جاءت بعقل القدسي من الملكوت والعلم الإشاراتي من عالم الجبروت؛ فتعرف القلب طرق المحبة والخلة وتعرف النفس طرق الطاعة والخدمة، فلما أخرجه الحق من مجال أنسه ألبسه أنوار قدسه فنظر بالعين المكحولة بنور المعرفة إلى عالم الكون، ورأى عجائب الملك وغرائب المملكة فأرادت نفسه أن يسكن إلى الدليل عن المدلول من حيث لها منه لذة مشاهدة اصطناع المالك القديم فغلبت عليها روحه الملكوتية وأغارت ما دون الحق عن ساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: ٥٤].

سئل الجنيد: متى أتاه رشده؟ فقال: حين أتاه.

وقال أيضًا: آثار سوابق الأزل وإظهاره كما أظهر على الخليل في السخاء والبذل والأخلاق في بذل النفس والولد والمال في رضا الحق؛ فلا يشتغل إلا به ولا يفرح إلا عليه ولا يلتفت إلا إليه، فقال الله: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾، ويقال: ذلك ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبل ما حصل منه من النظر في المخلوق، ويقال: هو مكاشفة روحه قبل إيداعها قالبه من تجلي الحقيقة[1].

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ﴾ طلب الحاجة من المحتاج وهن في المعرفة وشين في الحقيقة والمحقق في المعرفة يعرف الأشياء بالله بأنها مجاري أقدار الأزل، ولا تقوم بذاتها بل تصاغرت في قبضة تصرف جلاله، ومن كان همته بهذه الصفة كيف يعتمد من الخالق إلى المخلوق.

قال حمدون القصار: استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون باستعانة المسجون.

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ

---

(١) أي صلاحه وإصابته وجه الأمر واهتداءه إلى عين الصواب وأدل الدلالة وأعرف العرف وأشرف القصد الذي جلبناه عليه؛ وقال الرازي في اللوامع: والرشد قوة بعد الهداية – انتهى.

سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ كان الخليل منورًا بنور الله وكان النار من فعل الله؛ فغلب نور الصفة على نار الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل الخليل صارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك فقال: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾ حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كراماته، وفي الإشارة لنا إشارة، وفي إشارتنا سر أن الخليل طالب خليله في مرآة مشاهدة الشمس والقمر والنجوم وأراه الله مطلوبه من وسط النار كما أرى موسى من وسط النار، والشجرة كأن نيران الكبرياء تكاد بصولة القدم أن تفنى وتحرق إبراهيم، فقال سبحانه بنفسه مع نفسه لنفسه: ﴿ وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ فأسلمه من قهر نفسه بلطف نفسه.

قال ابن عطاء: سلم إبراهيم من النار بسلامة صدره، ولما حكى الله عنه بقوله: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصفات:٨٤] خال من جميع الأسباب والعوارض ويرد عليه النار لصحة توكله ويقينه وثقته حيث ناداه جبريل ألك بي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ بين سبحانه أن الفضل معلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخية والاكتساب والتعلم، إنما الفهم تعريف الله تسيل أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية؛ فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم والعلوم، فهو سبحانه مَنَّ على سليمان بعلمه، ولم يمن عليه بشيء خارج من نفسه من الملك والحدثان، فإن العلم صفة من صفاته، فلما جعله متصفًا بصفاته مَنَّ عليه بجلال كبريائه.

قال الجنيد: أفهم الله سليمان مسألة من العلم فمنَّ عليه بذلك، وأعطاه الملك فلم يمن عليه، وقال: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ ﴾.

قال الواسطي: في قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ بسلامته عن شواهد اللذات في الطاعات.

قال أبو بكر: لبره بأبيه ثم بيَّن فضل أبيه داود بما أعطاه من الحكمة والعلم والشرف

والفضل، وإن شذَّ عنه فهم تلك المسألة فأراه الله ما مَنَّ على سليمان ليكون قرة عينه بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ معرفة بالربوبية وعلمًا بالعبودية.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

لما أخبر الله سبحانه أيوب ﷺ أنه حان وقت خروجه من البلاء عنم أيوب أن ما رأى من رؤية المبلي في بلائه يكون منقطعًا عنه إذا انقطع البلاء قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ إذ فات عني مشاهدتك في بلائي، وأيضًا إذا كان مبتلى كان في محل رؤية قهر القدم الذي شاهده الحق بوصف جلاله وجماله تربية بقهره لعرفانه، وجميع صفاته بطريق القهر واللطف؛ فلما انهزم عساكر قهر سلطانه من جنود ألطاف ألوهية خاف أن يفوت ما حصل له من رؤية القهر ومباشرته، قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، ولأنه ادعى الصبر فجربه الحق بالبلاء فإذا خرج من مكائده طوفان قهر القدم وجد نفسه خارجًا من مقابلة بلائه الذي هو دأب فتيان الحضرة؛ فقال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، وأيضًا مقام العافية حظ العاشق من المعشوق، والبلاء حظ المعشوق من العاشق، فلما انعزل من حظ معشوقه عنه وبقي مع حظه منه قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، وأيضًا البلاء مقام الفناء في القدم والعافية مقام البقاء والعارف الصادق يؤثر فناء نفسه على بقائه؛ لأن تنزيه القدم يقتضي فناء الغير فمن حجة كونه في مشاهدة الحق قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ كون وجودي في وجودك؛ لأن حق الغيرة في الوحدانية لا يقتضي كون الوجود في وجود الحق، وأيضًا كان روحه من مقام الأنس صدرت فطار صورته شبيه روحه باللطافة، وهو كان في هواء الأنس طيارًا، وفي ميادين الحسن والجمال سيارًا، فلما لحقه البلاء صار في البلاء وثقله ومرارته محجوبًا عن لذة الأنس به؛ فقال الله:

﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، ويا فهم العارف الصادق إذا كان متحققًا في معرفته فشكواه حقيقة الانبساط، ومناداته تحقيق المناجاة وأنينه في بلاء حبيبه حقيقة المباهاة، وفيما ذكرنا أنشدت يومًا في حق بلاء عشي في أيام امتحاني وشوقي إلى أيام وصالي ورؤية منابي فقلت:

هوائـــي يـــا مـــنابي فـــي لقـــاك   وعيـــشي يـــا رجائـــي في هـــواك
نـــزلت حظـــوظ نفـــسي مـــن حـــياتي   وآثـــرت المـــمات بـــأن أراكـــا

وجـــدت صـــفاء قلبـــي في همومـــي إذا كانـــت همومـــي في رضـــاكا
لقـــد طالـــت بلايـــا في بلائـــي بلائـــي يـــا بلائـــي مـــن بلاكـــا

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه جاء إليه رجل؛ فسأله عن قول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ فبكى النبي ﷺ ثم قال: «والذي بعثني بالحق نبيًّا ما شكا فقرًا نـزل من ربه، ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات؛ فلما كان في بعض الساعات، وثب ليصلي قائمًا، فلم يطق للنهوض، فجلس ثم قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ثم قال النبي ﷺ: «أكل الدود سائر جسده حتى بقي عظامًا نخرة، فكادت الشمس تطلع من قُبله وتخرج من دُبره»، ثم قال النبي ﷺ: «ما بقي إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلق من ذكر الله ولسانه لا يخلق من ثنائه على ربه؛ فلما أحب الله له الفرج بعث إليه الدودتين، إحداهما إلى لسانه، والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان قلبي ولساني أذكرك بهما، وقد أقبلت هاتان الدودتان أحدهما إلى قلبي والأخرى إلى لساني، وتشغلاني عنك، وتطلعان على سري ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[1].

وقال الحسين بن علي ﷺ: ذكر الله على الصفاء ينسي العبد مرارة البلاء.

وقال جعفر: خرج منه هذا القول على المناجاة مستدعيًا للجواب من الحق ليسكن إليه لا على حد الشكوى.

قال بعضهم: كان أيوب قائمًا مع الحق في حال الوجد؛ فلما أن كشف عنه البلاء وأظهره، وكشف ما به قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقال الجنيد: عمل الدود في جسده فصبر، فلما قصدوا قلبه غار عليه؛ لأنه موضع المعرفة ومعدن التوحيد ومأوى النبوة والولاية، وقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ افتقار إلى الله مع ملازمة آداب النبوة.

وقال ابن خفيف: كان أيوب مستترًا بحال الصبر عن البلاء، فلما أراد إظهاره للخلق ضج، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

قال أبو علي المغازلي: أوحى الله إلى أيوب في حال بلائه: يا أيوب إن هذا البلاء قد اختاره سبعون نبيًّا قبلك، فما اخترته إلا لك، فلما أراد الله كشفه عنه، قال: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

---

(١) ذكره ابن عجيبة في تفسيره (٤/ ١٠٦).

قال الحسين: تجلى الحق لسره وكشف له أنوار كرامته، فلم يجد للبلاء ألمًا، قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ لفقدان ثواب البلاء والضر إذا صار البلاء لي وطنًا وعليَّ نعمة.

وقال بعضهم: نال كل عضو منه البلاء إلا موضع النداء، فنادى الضر من الباقي منه على العافية لا عن مواضع البلاء؛ فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

أَدرك بَقِيةَ نَفسٍ فيكَ قَد تَلِفَت ... قَبلَ المَمات فَهذا آخر الرَّمَقِ
وَلَو مَضى الكُلُّ مِنها لَم يَكُن عَجَبًا ... وَإِنَّما عَجَبي لِلبَعضِ كَيفَ بَقي

سئل الجنيد عن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قال: عرفه فاقة السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

ثم أخبر الله سبحانه عن رفعه البلاء عن نبيِّه، وإجابة دعوته، وإخراجه من الضر بقوله: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ حقيقة هذه الآية أن الله عرف خوف أيوب من فوت مشاهدته ووصاله ووقوفه بأسراره في بلائه؛ فاستجاب دعوته، ورفع عنه مكائد قهره في ابتلائه، وغيرة ربوبيته على عبوديته، فكاشفه جماله وجلاله بعد أن ألبسه لباس العافية، فارتفع الضر من جميع الوجوه، وبقي في شهود جماله؛ فصار إليه البلاء والعافية واحدًا.

قال بعضهم: استجاب دعاءه، وفتح عليه أبواب الرضا لئلا يعارض بعد ذلك في حال لا مستكشفًا للبلاء ولا متلذذًا به؛ لأن كليهما موضع العلل، والرجوع إلى النفس وتربيتها.

قال الأستاذ: لم يقل: ارحمني بل حفظ آداب الخطاب؛ فقال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ تسلية للمحبين الصابرين وتذكرة للمتعبدين.

قال الواسطي: موعظة للمطيعين عند نـزول المحن بهم، وتعريضًا على الرضا، وحسن الدعاء من غير تصريح به بل إظهارًا للحال.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ كان يونس عليه السلام في منـزل الانبساط والعربدة؛ نغضب عليه إذا شغله بشريعته عنه، وعن مشاهدته وقربه

ووصاله، وظنّ أنه في غضبه وعربدته لم يكن مأخوذًا به، ولم يكن محتجبًا به، وكان محجوبًا بسر واحد، وهو أن الانبساط حظ العارف والهيبة حظ الله فاختار حظه على حظه، وصار محجوبًا عن محل الفناء فيه، ويمكن أنه كان مغاضبًا على وجوده إذا كان موجودًا عند مشاهدة وجود الأزل كأنه غار على وحدانيته، ولم يطق أن يرى وجوده في وحدة القدم، فلما ابتلعه الحوت، صار تحت قهر القدم فانيًا عن رؤية غيرة الحق في رؤية الحق تقاضى سر سره مقام بقائه وانبساطه فظن بسره أنه لا يخرج من درك الفناء، ولا يدرك في منازل الفناء درجة البقاء فكاشفه الحق نقاب السلطانية عن جمال القدم، وصار في معارج جمال أنس المشاهدة، فلما وجد البقاء في الفناء اعترف بعجزه، وقلة علمه بأسرار القدمية؛ فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ حين نازعت الربوبية بالربوبية علم أن الاتصال والاتحاد موضع المكر والخداع؛ فأسقط العلل، واعترف بالوحدانية الصرفة لأزلية الله تعالى.

قال الجنيد: مغاضبًا على نفسه في ذهابه، فظنّ أن لن يأخذه بغضبه وذهابه.

قال ذو النون: أخفى أيخدع به العبد الألطاف والمكرمات ورؤية الآيات؟[1]

قال الجنيد في قوله: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي: من الجاهلين إنك لا تقرب بطاعة، ولا تبعد بمعصية، وقد ظننت في زمان الصبا أن الله سبحانه أراد أن يهيئ ليونس ﷺ معراجًا، ومشاهدة في بطن الحوت فتعلل بالأمر والنهي، والمقصود منه القربة والمشاهدة فأراه الحق في أطباق الثرى في ظلمات بطن الحوت ما أرى محمدًا ﷺ فوق العرش، فلما رأى الحق تحير في جلاله، وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾، نزهت نفسك عما ظننًا فيك، فأنت بخلاف الظنون، وأوهام الحدثان، ﴿كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، في

---

(١) اعلم أن الآية هذه حكاية كلام يونس ﷺ؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلي في كل شيء بحسبه: أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلي فيه. والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذروة العرش حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثنيت على نفسك»، فإذًا كل من المقامات العُلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرّع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديسًا له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلّ من الخطاب، والغيبة، والتكلّم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

وصف جلالك إذ وصف لا يليق بعزة وحدانيتك فوقع لهذا القول منه موقع قول سيد المرسلين حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

ولذلك قال ﷺ: «لا تفضلوني على أخي يونس»(٢)؛ فلما رأى ما رأى استطاب الموضع، وظن أن لن يدرك ما أدرك في الدنيا بعد فغاب الحق عنه فاهتم ودعا بالنجاة فنجاه الله من وحشة بطن الحوت بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ يعني: من كان هذا حاله مع الله سبحانه ننجيه به منه.

قال الجنيد: من همومهم وكروبهم بالإخلاص والصدق والافتقار والالتجاء، وحقيقة حسن الاعتراف وإظهار الاستسلام.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيث اختلج سري أن أريد غير ما أردت.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ ما اختلج في سرِّ الإرادة من صميم سر سري أن شيخ الأنبياء ﷺ رأى ما ورد عليه من أنوار كبرياء الله وجلال عظمته وعز سلطانه في مشاهدة ذاته فخاف من محل الاتحاد والاتصاف الذي يقتضي حلاوة شربة التفريد في دعوى الأنانية والربوبية فاستعاذ بالله أن يكون محتجبًا به عنه، فقال: ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ حين أفردتني بفردانيتك، فإن ذلك عليَّ عارية تنصرف إلى القدم، والحدث ينصرف إلى الحدث.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ترث صفة بقائك بعد فنائي بغيرتك، وأيضًا ﴿لَا تَذَرْنِى﴾ في ﴿فَرْدًا﴾ عنك بك حتى لا أحتجب بك عن حقيقتك، وأيضًا كان سره يتحرك من جذب أسرار مقادير القدم التي تجذب سره إلى رؤية روح يحيى في مكمن الغيب فافتقر إلى الله بالسؤال إدخال روحه في هيكله ليكون سحرًا في إفشاء أسرار ربوبيته.

قال جعفر: لا تجعلني ممن لا سبيل له إلى مناجاتك، والتزين بزينة خدمتك.

وقال أيضًا: فردًا عنك لا سبيل لي إليك.

وقال ابن عطاء: خاليًا عن عصمتك، وقال الجنيد: خاليًا عنك مشتغلاً بشيء سواك.

---

(١) رواه مسلم (١١٩، ٧٥١، ٧٥٤)، وأبو داود (٣/ ٥٤)، والترمذي (١١/ ٣٩٨).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٣٣).

وقال الواسطي: الفرد المعرض عن ذكر الله الغافل عنه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ موضع النداء والدعاء في منازل العبودية مكان الخوف والرجاء، والرهبة من جلال عظمته، والرغبة في وصول جماله وقربه، وبهاتين الصفتين صار العارف خاشعًا لله في طاعته ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فانين تحت أذيال عظمتي ورداء كبريائي.

قال الواسطي: أمر الله الأنبياء بالخشوع، وهو الوقوف بين الرغبة والرهبة، وحقيقته سكون يشير إلى الرضا، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

وقال بعضهم: رغبة فينا ورهبة عما سوانا، وقيل: رغبة في لقائنا، ورهبة في الاحتجاب عنا.

قال أبو يزيد: الخشوع زمام الهيبة وخمود القلب عن الدعاوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ وصف الله أهل الولاية والنبوة والرسالة الذين اصطفاهم في الأزل بحسن عنايته ومعرفة جلاله وجماله مشاهدة كماله ووصاله ووقاهم من عذاب الفرقة والحرمان عن المشاهدة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ هي في جنان الوصلة لا يحسون شواهد أهل العلة من البرية فظاهر حسن العناية السابقة منهم أربعة أشياء الانفراد من الكونين والرضا بلقاء الله عن الدارين وإمضاء العيش مع الله بالحرمة والأدب نظهور أنوار قدرة الله منهم بالفِراسات الصادقة والكرامات الظاهرة وباطن حسن العناية السابقة من الله في الأزل لهم أربعة أشياء: المواجيد الساطعة، وانفتاح العلوم الغيبية، والمكاشفات القائمة، والمعارف الكاملة، وفي كل موضع ظهرت هذه الأشياء بالظاهر والباطن صار صاحبها مشهورًا في الآفاق بسمات الصديقين وعلامات المقربين وخلافه المرسلين.

قال الحسن بن الفضل: سبقت العناية، وظهرت الولاية.

وقال الجنيد: من سبق من الله إليه إحسان؛ فإنه لا يزال يتنقل في ميادين المحسنين إلى أن يبلغ إلى أعلى مراتب أهل الإحسان بقوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال الواسطي: أولئك توم هداهم الله فهداهم بذاته وقدسهم بصفاته فسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالعات الأعواض؛ فلا لهم إشارة في سرائرهم، ولا عبارة عن أماكنهم وحجبهم عن الاستقرار في المواطن؛ فلا لهم هم بأنفسهم، ولا هم حاضرون في حضورهم بحضورهم.

وقيل: الحسنى العناية السابقة، وهي خمسة أشياء: العناية، والاختيار، والهداية، والعطاء، والتوفيق، فبالعناية وقعت الكفاية وبالاختيار وقعت الرعاية، وبالهداية وقعت الولاية، وبالعطاء وقعت الخلة، وبالتوفيق وقعت الاستقامة والحسنى هذه السوابق.

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾: هم أهل الحقائق لا يحسون بضجيج أهل الدنيا؛ لأنهم مصدودون عنها بما ورد على سرائرهم من وهج الحقائق فهم مترددون في منازلهم لا يقطعهم عن ذلك قاطع لانغماسهم في بحور الحقيقة، ثم وصفهم الله بالأمن الدائم والحسن القائم بقوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ كيف يلحقهم الفزع، وهم في مشاهدة جلال الحق مدهوشين والهين واصلين إلى مناهم غير محجوبين عنه بشيء من الحدثان، والحق سبحانه يكون مرادهم يفعل كما يريدون.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ اشتهاؤهم في جمال الحق دوام المشاهدة بنعت الوصلة على السرمدية، وهذا اشتهاء قلوبهم واشتهاء عقولهم كشف العلوم من معدن الصفات، واشتهاء أرواحهم الاستغراق في بحار الذات، واشتهاء أسرارهم الفناء بنعت البقاء، والبقاء بنعت الفناء واشتهاء نفوسهم اللذة والحلاوة والخطاب والحسن والجمال والإدراك بنعت التحصيل من القدم في لباس الحسن.

قال ابن عطاء: للقلب شهوة، وللأرواح شهوة، وللنفوس شهوة، وقد يجمع الله لهم في الجنة جميع ذلك، فشهوة الأرواح القرب، وشهوة القلوب المشاهدة، والرؤية وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: اجتازوا عليها، ولم يحسوا بها وما عرفوها لصحة قصدهم إلى اللقاء، وللنـزول في دار البقاء.

وقال الصادق: كيف يسمعون حسيسها، والنار تخمد لمطالعتهم وتتلاشى برؤيتهم، قال النبي ﷺ: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهبي»[1].

قيل في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾: النفوس ثلاثة أشياء: أرواح وأشباح وقلوب، فشهوة الروح الوصلة وشهوة القلوب اللقاء، وشهوة النفوس الأكل والشرب والزينة، وكل مبذول له بقدر همته وحظه يوصل إلى مناه، وشهوته فيها خالدًا مخلدًا أبدًا.

ثم وصف الله سبحانه جلال أهل قربه بحيث يجنبهم الملائكة السفرة الكرام البررة يدخلونهم حجال الوصال، وشهودهم مشاهدة الجمال بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: هذا يوم الوصلة بلا فرقة، وهذا يوم المؤانسة بلا وحشة، وهذا يوم الراحة بلا محنة، وهذا يوم العافية بلا بلية، وهذا يوم كشف النقاب بلا حجاب، وهذا يوم الخطاب بلا عتاب، قيل: ميعاد أهل الجنة فيها الوصلة، وميعاد أهل النار فيها القطيعة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٤٠).

مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ كان في علم الأزلية أن أرض الجنان ميراث عباده الصالحين من الزهاد والعبَّاد والأبرار والأخيار؛ لأنهم أهل الأعراض والثواب والدرجات، وأن مشاهدة جلال أزليته ميراث أهل معرفته ومحبته وشوقه وعشقه؛ لأنهم في مشاهد الربوبية، وأهل الجنة في مشاهد العبودية.

قال سهل: أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح معناه: لا يصلح لي إلا ما كان لي خالصًا لا يكون لغيري فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله، وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه، ثم بيَّن سبحانه أن كلامه الأزلي يبلغ الصديقين إلى معادنه من رؤية الصفات والذات الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ مشاهدين جلالنا وجمالنا بهممهم العلية، وقلوبهم الحاضرة وعقولهم الصافية وأرواحهم العاشقة، وأسرارهم الطاهرة.

قال سهل: لم يجمع البلاغ لجميع عباده بل خصَّ القوم العابدين، وهم الذين عبدوا الله، وبذلوا له مهجتهم، لا من أجل عوض، ولا لأجل نار ولا جنة بل حُبًّا له وافتخارًا بما أهلهم من عبادتهم إياه.

ثم وصف الله سبحانه حبيبه محمدًا ﷺ بأنه أرسله رحمة إلى جميع خلقه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ إنما الفهم أن الله سبحانه أخبرنا أن نور محمد ﷺ أول ما خلقه في الأول من جميع خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره، فإرساله من العدم إلى مشاهدة القدم رحمة لجميع الخلائق إذ الجميع صدر منه فكونه كون الخلق ذكر أنه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق إذ هو سبب وجود الجميع، فهو رحمة كافية؛ وافهم أن جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة في فضاء القدرة بلا روح حقيقية منتظمة لقدوم محمد ﷺ؛ فإذا قدم في العالم صار العالم حيًّا بوجوده؛ لأنه روح جميع الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]، ويا عاقل إن من

---

(١) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم =

العرش إلى الثرى لم يخرج من العدم إلا ناقصًا من حيث الوقوف على أسرار قدمه بنعت كمال المعرفة والعلم فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شط بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية فجاء محمد ﷺ إكسير أجساد العالم وروح أشباح العالمين بحقائق علوم الأزلية، وأوضح سبل الحق لهم بحيث يجعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة؛ فإذا قدم من الحضرة إلى سفر الغربة بلغهم جميعًا بخطوة من خطوات صحارى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ حتى وصل إلى مقام «دنا» فغفر الحق لجميع الخلائق لمقدمه المبارك فالكافر والمؤمن والذئب والظبي والبازي والحمام والجنة والنار والدنيا والآخرة في حيز رحمته؛ لأنه كان رحمة أزلية أبدية قطرة من بحر رحمة الرحمن وغرفة غرفت من نهر الغفران.

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة ونظره إلى من نظر إليه رحمة، وسخطه ورضاه وتقريبه وتبعيده وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه من رحمته؛ فهو الناجي في الدارين عن كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى الله يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ فكانت حياته رحمة ومماته رحمة كما قال النبي ﷺ: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم»[1].

وقال ابن عطاء: رحمة الدارين لمن تبعك، وآمن بك، والرحمة العاجلة لمن لم يؤمن بك بتأخير العذاب عنه إلى العاقبة.

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يعلم شكاية العارفين منه إليه بألفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، فحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط.

قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتمونه أظهر عنده مما يبدونه وما يبدونه مثل ما

=

بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.

(١) رواه البزار في مسنده (٥/ ٣٠٨)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ١٧٤) بنحوه.

يكتمونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إن الله سبحانه نادى نداء الوعيد للناسين عهود الأزل، ومشاهدة الأبد أي: أين أنتم أيها الغافلون عن بروز جلال عظمتي من حجاب الغيب في صحاري القيمة اتقوا عن عذاب فرقتي لكي تصلوا إلى جلال وصلتي؛ فإن الأكوان والحدثان تزلزل عند ظهور أنوار كبريائي وسلطان بهائي فحقيقة التقوى الخروج مما دون الله بالله.

قال بعضهم: التقوى ألا يستغرقك شيء دون مولاك، وهو الحرية، وكل من طلب الجزاء لم يكن متقيًا، وإن كان وعد له عليه.

ثم وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيمان والسكر والهيجان بقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة.

قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي.

وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حِجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله

في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فانٍ في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس، وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بها منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العبأد والزهَّاد سكرهم من مشارب الكرم.

أَلَمَّ بِنا طَيفٌ يَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ ... وفي طَرفِهِ خمرٌ وخمرٌ على الكفِ

فأسكرَ أصحابي بخمرةِ كفهِ ... وأسكرني واللهِ مِنْ خَمرةِ الطرفِ

وقال الحسين: أسكرهم رؤية الجلال، ومشاهدة الجمال.

قال الحريري: ما أسكرهم إلا الهيبة والإجلال[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هؤلاء الناس أهل الخيال من المشبهة والمعتزلة وأمثالهم من الذين جادلوا في الله بالقياس والخيال المحال.

قال سهل: يخاصم في الدين بالهوى والقياس من دون الاقتداء، فعند ذلك يضل ويبتدع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا

---

(١) قد روي أن الشبلي قال: شربت بالكأس التي شرب بها الحلاج فصحوت وسكر الحلاج، فبلغ ذلك الحلاج فقال: لو شرب بالكأس التي شربت بها لسكر كما سكرت، فبلغ الجنيد أمرهما فقال: نقبل قول الصاحي على السكران، فرجع حال الشبلي على حال الحلاج.

ولذلك قالوا: أكثر الشطح يكون من سُكر الحال وغلبة سلطان الحقيقة، فمن ثم من تم صحوه وخلص عن بقية السكر ونزلت في قلبه السكينة ستر الحقيقة بالعلم، ووقف على حد العبودية، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه، إذ تنكشف به الالتباسات التي لم تزل خفية على أكثر أرباب القلوب.

نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أرذل العمر أيام المجاهدة بعد المشاهدة، وأيام الفترة بعد المواصلة لكيلا يعلم بعدُ علم بما جرى عليه من الأحوال الشريفة والمقامات الرفيعة، وهذا غيرة الحق على دعوى المتحققين حين أفشوا أسراره بالدعاوى الكثيرة، أستعيذ بالله من ذلك، وأستزيد منه فضله وكرمه ليخلصنا به من فتنة النفس وعثرتها، ويمكن أن ذلك يتعلق بالسير في عالم النكرات حين اختلطت بحار حقائق الربوبية في قلب العارف الصادق، فيستغرق في لجج نكرات امتناع الأحدية عن إدراك الخليقة، فيضمحل ما علم فيما لم يعلم من معرفة الذات والصفات فتحت نكراته معارف الألوهية، وتحت المعارف نكرات غيرة الأزل فإذا خرج من الفناء في النكرة عن النكرة إلى مقام الصحو في المعرفة فيطلع على أسرار النكرة بأسرار المعرفة، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يحييهم بالمعرفة بعد موتهم في النكرة، وبحياة المشاهدة بعد موت الفرقة، ولذلك ضرب الله مثلاً في هاتين الحالتين كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

وهذا ما وافق قول الواسطي في ذلك، قال: اندرج ما علم منه بما بسط له وفتح عليه وضرب له مثلاً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ساكنة عن النبات حافية عن الخضر ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ظهرت عليه وردت ورويت ونمت، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ [فصلت:٣٩] بالنعوت ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالعلوم في الدنيا وبالأرواح في الآخرة.

وقال الأستاذ: أرذل العمر زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجبة عقب المشاهدة،

ويقال: السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق، ويقال: العشرة مع الأضداد.

ويقال: يحيى النفوس بتوفيق العبادة، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على طمع وهوى ورؤية عرض وطمع كرامات ومحمدة الخلق، وقيل: الدنيا وإذا أصابته أمانيه سكر في العبادة وإذا لم يجد شيئًا منها ترك التحلي بحلية الأولياء، قال تعالى في وصفه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾.

ثم بيّن حاله في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ خسرانه في الدنيا فقدان القبول والجاه عند الخلق، وافتضاحه عندهم وسقوطه من طريق السنة والعبادة إلى الضلالة والبدعة، وخسرانه في الآخرة بقاؤه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنيران البعد.

قال الواسطي: ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على رهن التجنب واطمأن إليه.

قال بعضهم: على طمع أن يرى ثواب عمله أو يجازي على قدر أعماله.

وقال بعضهم: الخسران في الدنيا ترك الطاعات، ولزوم المخالفات، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات.

وقالت رابعة في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: كيف يكون ما منك إليه عوضًا لما منه إليك، وما عنك إليه لا يكون إلا بما منه إليك؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ من أهانه الله في الأزل بقهره لا يكون عزيزًا لعمله ولا بعزة غيره عزيز إذ العز كله لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩].

وقال: من قدَّر الله عليه الإهانة في السبق لا يقدر أحد على كرامته؛ لأن لباس الحق لا يزول ولا يحول، وهو على الدوام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ يدخل العارفين الذين لهم صلاحية مشاهدته واستعداد قبول معرفته إلى جنان قربه ووصاله، قيل: هم الذين صدقوا الله في السر، واتبعوا سنة محمد ﷺ فلم يبتدعوا بحال.

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وصف من دخل جنات المشاهدة، ورتعوا رياض المكاشفة عرفوا طيب الخطاب في مقام المداناة والمناجاة، وكوشف لهم أنوار سبل الذات والصفات طيب الله ألسنتهم وقلوبهم بطيب ذكره وهداهم إلى سبل معرفته.

قال ابن عطاء: الطيب من القول هو ذكر الله.

وقال جعفر: هو الأمر بالمعروف.

وقيل: هو نصيحة المسلمين، وقيل: هو قراءة القرآن.

قال الأستاذ: الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص وسر صافٍ مما رضي به

علوم التوحيد الذي لا اعتراض عليه للأصول، ويقال: الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ داره دار كرامته ومنـزل أضياف المعرفة إذا كشف من بيته ما فيه من آياته الكبرى يصل بركتها إلى المقيم والمسافر وحضرته القديمة منازل المقيمين فيها بالأرواح من العارفين والمشاهدين والطيارين من حمائم أسرار الواصلين، فالمقيم بقلبه هناك من أول عمره إلى آخر عمره والطارئ عليها لحظة من المكاشفين والمشاهدين ينكشف له ما ينكشف للمقيمين؛ لأنه وهاب كريم يعطي للتائب من المعاصي ما يعطي المطيع المقيم في طاعته طول عمره.

قال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك الطارئ والمقيم، وكذا يكون بيوت الفتيان من ترك فيها؛ فقد تحرم بأعظم حرمة وأجل ذريعة، ألا ترى الله تعالى ذكره كيف وصف بيته ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

قال الأستاذ: بمشهد الكرام يستوي فيه الأقدام؛ فمن وصل إلى تلك العَقْوَة[1] فلا ترتيب ولا رد، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد[2].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ هذا الخليله وجميع أحبائه بيّنه ودله إلى ما فيه من الآيات والكرامات، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ومرآة لأنوار آياته، وأمره ألا يطلب في طلبه شيئًا من غيره في طاعته من الجنة وما فيها وجعل بيته مثالاً لبيته الخاص الذي هو قلب العارف في هذا الظاهر الآيات وفي بيت الباطن أنوار الصفات ومشاهدة الذات؛ فأمره أن يطهر بيت الظاهر والباطن من خطرات

(١) أي: تلك الخيرية.

(٢) انظر: تفسير القشيري (٥/ ١٨٥).

النفسانية وخطرات الشيطانية بقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ الطائفون: عساكر أنوار تجلي الحق وزوار وارد الغيب، والقائمون: أنوار المعرفة والتوحيد، والركع السجود: أنوار الإيمان والإسلام، وأيضًا الطائفون: ملائكة الإلهام، والقائمون: الأرواح، والركع السجود: العقول أي: طهر قلبك عن ذكر ما سواي حتى لا يشوش هؤلاء في قرار أنوار صفاتي وذاتي.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ ﴾: وفقناه لبناء البيت، وأعناه عليه، وجعلناه منسكًا له، ولمن بعده من الأولياء والصديقين إلى يوم القيامة، وببناء فيه آثاره، وأمرنا الخليل عند بنائه ألا يرى فعله وبناءه، ولا يشرك بنا في ذلك شيئًا.

قال بعضهم: في قوله: ﴿ طَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾: وهو قلبك، ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾: وهي زوائد التوفيق، ﴿ٱلْقَآئِمِينَ ﴾: وهي أنوار الإيمان، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾: الخوف والرجاء.

قال جعفر بن محمد: ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾: طهر نفسك عن مخالفة المخالفين والاختلاط بغير الحق، ﴿ٱلْقَآئِمِينَ ﴾: هم فؤاد العارفين المقيمون معه على بساط الأنس والخدمة، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البدايات عن تناهي النهاية.

قال سهل: كما طهر البيت من الأصنام والأوثان وطهر القلب من الشرك والريب والغل والغش والقسوة والحسد، ولما استقام الخليل في تجريد التوحيد أمره الحق بأن يدعو بلسان الخلد زوار الحضرة من أماكن الغيبية ومكامن العدمية بقوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ دعاهم بلسان الحق لذلك أجابوه بالتلبية بقولهم: «لبيك اللهم لبيك»، وتلك الإجابة من الأرواح القدسية من معادنها من الغيب عشقًا ومحبة، وهذه المعاني تدل على كون الأرواح قبل الأشباح يأتون مقام خلتك المحبين المفردين من غيرنا المتجردين من أنفسهم في زيارتنا ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ نفوس مهزولة بالمجاهدات، ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ من كل طريق بعيد من الأوهام؛ لأنهم في طرف الأسرار ونوادر الأنوار يأتونك من مقام المشاهدة إلى مقام المتابعة إظهارًا للعبودية بعد كونهم في مشاهدة الربوبية.

قال ابن عطاء: رجالاً استصلحناهم للوفود إلينا، وليس كل أحد يصلح أن يكون وفدًا على سيده، والذي يصلح للوفادة هو اللبيب في أفعاله، والكيس في أخلاقه، والعارف بما يفديه، وبما يرد ويصدر.

ثم ذكر سبحانه علة الدعوة، وبناء الكعبة بقوله: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أي:

ليشهدوا بأرواحهم مشاهد قربنا ومشاهدتنا، وما أعددنا لهم من علو المقامات وسني الدرجات.

قال ابن عطاء: ما وعدوا من أنفسهم لربهم، وما وعده الله لهم من القربة.

قال جعفر: ليشهدوا الذي بيني وبينهم.

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ أمرهم بالتواضع في مؤاكلة الفقراء والمساكين أهل بؤس المجاهدات، والافتقار إلى المشاهدات أي: أطعموهم من أطيب ما تأكلون، ولا تؤثروا أنفسكم عليهم؛ فإنهم لا يأكلون طعام البخلاء والمؤثرين هواهم على مرادنا، وفيه إشارة إلى أهل روح وصال المشاهدة والمكاشفة أن يخبروا طلاب المعرفة والمحبة مما كوشف لهم من أحكام الملكوت، وغيب الجبروت.

قال أبو عثمان: أدب أدَّب الله به عباده ألا يطعموا الفقراء إلا بما كانوا يأكلون، ولا يجعلوا لله ما يكرهون هو أن تشاركوهم في مأكلهم وملابسهم ومشاربهم لقوله: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ﴾.

وقال ابن عطاء: البائس الذي تأنف من مجالسته ومؤاكلته، والفقير من تعلم حاجته إلى طعامك، وإن لم يسأل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ حرماته مقام الاتصاف والاتحاد؛ فمن اتصف بصفاته، وتوحد بتوحيد ذاته يقع في بحر الربوبية، ويستغرق في لجج الديمومية، وينكشف له أسرار السرمدية والأزلية، ويسكر بشربات وشراب المشاهدة، ويقتضي هذه أحوال له دعوى الأنانية من حلاوة مباشرة أنوار الأزلية بنعت التجلي والوصلة؛ فمن كان هناك محفوظًا بقي على نعت العبودية، ولا يخفى على حرمات الحقيقة؛ فهو خير له بأن يزيد حاله من الله سبحانه، ويكون إمامًا في الصحو والتمكين مثل الخلفاء والنجباء يقتدي به سُلاك الطريقة وملوك الحقيقة، ومن خرج برسوم أهل السكر، ويدع الأنانية يكون محترقًا بنيران الغيرة، مصلوبًا على باب الهيبة والكبرياء والسلطنة، وأيضًا من شاهد مشاهدة الحق بنعت الانفراد عن الحدثان خالصًا عن الجنان متبرئًا من حظوظه التي يطمع فيها عند مشاهدة الرحمن، فهو من أهل الحرمة في القربة، ومن كان حبه لحظه؛ فهو غير محترم في مقام الحرمة، يا غافل الحرمة في العبودية تقتضي قرب الربوبية والحرمة في الربوبية يسقط علل الحدوثية.

قال الواسطي: من تعظيم حرمة الله ألا تلاحظ شيئًا من كونه، ولا من طوارق محنته، ولا تلاحظ خليلاً ولا كليمًا ولا حبيبًا، مادام تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال فارس: حرمات الله صفاته، ومن تهاون بحرمات الأمر والنهي؛ فقد تهاون بالذات، وهو نفس النفاق.

قال ابن عطاء: الحرمة ثلاثة أوجه؛ أولها: القطع من الموافقة، ثم القطع من لذة المشاهدة، وقال بعضهم: رؤية الأفعال وطالب الأعواض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مقام حرماته، وبيَّن أن من عظم أمره؛ فقد عظم جلاله وعظمته بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ بيّن أن تعظيم الله تعظيم شعائره يصدر من قلوب المتقين الذين هم في مشاهدة عظمة الله وجلاله وكبريائه في احتشامه وهيبته، وتقوى القلوب هو الاجتناب عن سوء الأدب في العبودية والخجل والحياة في مشاهدة الربوبية.

قال سهل: تقوى القلوب هو ترك الذنوب، وكل شيء يقع عليه اسم الذم.

قال الجنيد: من تعظيم شعائر الله التوكل والتفويض والتسليم؛ فإنها من شعائر الحق في أسرار أوليائه، فإذا عظمته وعظمت حرمته زين الله ظاهره بفنون الآداب.

ثم وصفهم بالإخبات والتواضع والخنوع والخشوع في عظمته وجلاله وكبريائه وبشرهم بدوام وصاله بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾، ومن أوصاف المخبتين الفناء في العظمة والحياء في رؤية الكبرياء والخجل في مشاهدة الربوبية، والتواضع في العبودية، وكتمان الأسرار والبكاء في الخفية والسكون في الخلوة، ومراقبة الله بنعت الهيبة.

قال ابن عطاء المخبت هو الذي امتلأ قلبه من المحبة، وقصر طرفه عما دونه كما أن الفريق شغله نفسه عن كل شيء سوى نفسه كذلك المخبت لشغله مولاه عن كل شيء سواه.

وقال جعفر: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾: من أطاعني ثم خافني في طاعته، وتواضع لأجلي، وبشر من اضطرب قلبه شوقًا إلى لقائي، وبشر من ذكرني بالنـزول في جواري، وبشر من دمعت عيناه خوفًا فيحظوا بشراهم «إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

ثم زاد سبحانه في وصفهم بوجل القلوب من معاينة أنوار الغيوب، والصبر في المجاهدات، وتطهير أنفسهم من الذنوب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إذا سمعوا خطاب الله من الله، ولله من غير الله، وجلت قلوبهم من رؤية عظمة الله، والشوق إلى لقاء الله، وغلبان محبة مشاهدة الله وقع السماع لهم على آذان أرواحهم المطربة من روح أنس الله العاشقة جمال قدس الله؛ فتضطرب بين الأنس والقدس بنعت المحبة والشوق وتطير بجناح المعرفة إلى سرادق كبرياء المعروف؛ فيسكن هناك وجلها، واضطرابها فتسمع من الله خطابه، وتطمئن بجماله، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]؛ فإذا سمع الذكر من غيره اقتضى الوجل، وإذا سمع من الله اقتضى السكون والطمأنينة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ الذين وصفهم الوجل والإخبات صبروا تحت موارد أنوار مشاهدته إذا أتت عليهم طوارقها بأثقال الربوبية لا يجزعون ولا يتحركون حتى يفنوا في كبريائه ويبقوا في بقائه.

قال ابن عطاء: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع الذكر أو عند سماع كتابه أو خطابه أو هل أخرسك الذكر حتى لا تنطق إلا به، وأصمك حتى لم تسمع إلا منه هيهات هيهات.

قال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة ربما يريه مواضع السطوة وربما يريه مواضع المودة والمحبة.

وقال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾: التاركي الجزع عند حلول النوائب والمصائب.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٦٨)، ومسلم (٢٧٥١).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات وزمها بالرياضات عن المخالفات وفداء الوجود للمشاهدات حتى لا يبقى للعارف في طريقه حظ من حظوظه، ويبقى الله مفردًا من جميع الخلائق.

قال الوراق: الحكمة في «البدن»، وما ذكر الله من شعائره فيه وحصول الخيرية هو تطهير بدنك من جميع البدع والمخالفات وقتلها بسيوف الخوف والخشية، وأن تجعل التقوى شعارها، والرضا دثارها؛ فإذا فعلت ذلك كان لك فيه أوائل الخيرات، وهو أن يفتح لك السبيل إلى الله، وينور قلبك بنور اليقين، ويطهر سرك عن طلب شيء سوى الله.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الإشارة فيه أن جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى لا يلحق الحق نحو المراد منه، ولكن يصل إليه قلب، جريح من محبته ذبيح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه.

قال سهل في قوله: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾: هو التبري والإخلاص.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الجهال يرون الأشياء بأبصار الظاهر وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، أعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة.

قال سهل: اليسير من نور بصر القلوب يغلب الهوى والشهوة؛ فإذا عمى بصر القلب عما فيه غلبت الشهوة، وتواترت الغفلة، فعند ذلك يصير البدن متخبطًا في المعاصي غير منقاد للحق بحال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ إن الشيطان خلق لابتلاء الأنبياء والأولياء فيلقي كل وقت بين ذكرهم وتلاوتهم وساوسه تخايلة، نيحترق في نور أذكارهم، ويتخسأ من صولة أنوارهم وأسرارهم، وذلك من الحق إظهار كرامتهم ومعجزتهم، وحقيقة الحكمة فيه إلقاء الخجل عليهم في مقام المناجاة[1]؛

---

(١) قال المصنف: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئًا، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى بما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن علي -رضي الله عنهما-: «نُبئت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي». وقال أبو أمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئًا من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نورًا من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو،
=

ألا ترى كيف شكا عنه موسى حين عارضه الملعون بقوله ما سمعت؛ فهو كلامي فكاد موسى أن يذوب من هيبة الله وحيائه حتى أوصله الحق إلى أماكن ألطاف حنفظه، ورعايته وخلصه من كيد عدوه.

قال سهل: من قرأه، وهو يلاحظ الحق؛ فإنه يكون بريئًا مصونًا من إلقاء الشيطان، ومن قراه، وهو يلاحظ نفسه أو يشاهد الخلق؛ فإن ذلك محل إلقاء الشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن كلامه الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ المعرفة بالله تورث الفناء في الله؛ فصارت قلوب العارفين بالله مخبتين لأمر الله.

قال الواسطي: إن الربوبية إذا تجلت على السرائر محت آثارها، ومحت رسومها وتركتها خرابًا.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ملك الجمال والجلال وكشف اللقاء للعارفين والعاشقين لله يومئذٍ يواسي قلوبهم بإعطائه إياهم مأمولهم؛ فإذا برز أنوار سلطنة كبريائه اضمحل فيها الظنون والخواطر والرسوم والأعلام.

قال ابن عطاء: الملك على دوام الأوقات، وجميع الأحوال له، ولكن يكشف للعوام الملك يومئذٍ لإبداء القهارية والجبارية؛ فلا يقدر أن يجحد ما عاين.

=

فيحترز من شره. تقسيم الخواطر (ص٦٨) بتحقيقنا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الذين هاجروا مما دون الله، وقتلوا بسيوف محبة الله، وماتوا من غلبة شوق الله تحت أثقال رؤية عظمة الله ليرزقنهم الله رزق مشاهدته، ودوام وصلته على السرمدية، ويحييهم بروحه إلى أبد الآبدين، وملك الحياة والأرزاق غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قال الجريري: هو تصحيح التوجه بالفردانية، ومعانقة التجريد بالسمع والطاعة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ إذا ظهر الحق بنعت الحقيقة للعارفين اضمحلت في قلوبهم الحوادث، وسقط عنهم علل الأكوان.

قال ابن عطاء: هو الحق فحقق حقيقته في سرك ولا ترجع منه إلى غيره؛ فإن ما سواه باطل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أنـزل مياه تجلي الصفات من بحار الذات على صحارى قلوب الصديقين فتصبح أرضها بصبح صفات مشاهدته مخضرة بأنوار ورد المكاشفات ونور المحبة والشوق والعشق، ورياحين الزلفات وشقائق المودة، ونرجس المداناة، وتنبت فيها رياحين المعارف بزلال الكواشف.

قال بعضهم: أنـزل مياه الرحمة من سحائب القربة وفتح إلى قلوب عباده عيونًا من ماء الرحمة، فأنبت المعرفة فاخضرت القلوب بزينة المعرفة؛ فأثمرت الإيمان وأينعت التوحيد، وأضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها، وطارت بهمتها فأناخت بين يديه وعكفت عليه، وأقبلت عليه وانقطعت عن الأكوان أجمع إذ ذاك أواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها التنـزه في بساتين الأنس ورياض الشوق والقدس.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾، ﴿أَحۡيَاكُمۡ﴾ بمشاهدته، ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ يفنيكم في سطوات عظمته، ثم ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ بروح بقائه حتى تبقوا ببقاء مع بقائه أبدًا.

قال الجنيد: أحياكم بمعرفته، ثم يميتكم بأوقات الغفلة والفترة، ثم يحييكم بالجذب بعد الفترة، ثم يقطعكم عن الجملة فيوصلكم إليه، حقيقة إن الإنسان لكفور يعد ما له، وينسى ما عليه.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾ إن الله سبحانه بيّن أن شواهد الملك والملكوت كلها منتظر خطاب الأزل لتسمع بأسماع شائقة إلى معاني الصفات، وأهل الأرواح القدسية منتظرون بسماع الغيب ليستمعوه بأسماع غيبية ويعقلوه بعقول ملكوتية؛ فإذا خاطبهم الحق بلسان السفيرة؛ تنجذب أسرارهم وأسرار جميع الخليقة إلى منازل وقوع الخطاب فيقع نوره الرحماني عليها، فصارت موقع الخطاب منورة بنور الصفة، وذلك النور يظهر بنعت الاستبشار في وجوه العارفين لنظّار الملكوت، وينتشر نور الأكوان بجميع ذراتها من نور الخطاب.

وأهل الغباوة والجهل المبعدون من ساحة كبرياء الأزل بقوا في ظلمات الجهالة، وغبار القهريات تحت غشاء الضلالة فأسماعهم محجوبة بعوارض الامتحان عن سماع القرآن،

وشواهد أسرارهم من ظلمة الإنكار تظهر عن سواد وجوههم عند سماع الخطاب، يعرفها كل بصير بالله، ومن كمال شقاوتهم لا يعرفون أصلاً من أصل، ونورًا من نور، وجلالاً من جلال، وقدمًا من قدم، وأزلاً من أزل الذي مصادره أوجدتهم يا ليتهم يعرفون مصادر القهريات التي نقضتهم إلى ميادين الغفلة؛ فإنهم لو يبصرون معادن فطرتهم لا يخالفون ما يصدر من معادن اللطفيات، فإن جميع المصادر الأزلية واحدة من جميع الوجوه.

قال أبو بكر بن طاهر: يتبين في شواهد المعرضين عنا آثار الوحشة وظلمة المخالفة؛ لأن الظواهر إنها أشرقت بالسرائر، والسرائر أشرقت بأنوار الحق؛ فمن كان سره في ظلمة وإنكار كيف يلوح آثار الأنوار على شاهده، وكل شاهد، شاهد الأعراض والأكوان هو في ظلمة حتى شاهد الحق، ولا يشاهد معه غيره إذ ذاك يلوح عليه أنوار مشاهدة الحق، قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ بيَّن الله سبحانه ذل الخليقة تحت قهر سلطانه وعظمة كبرياء قدمه لئلا يقبل على معدن الضعف، وذل من يطلب العز السرمدي؛ فإن الخليقة ممنوعة عن قوة قادرية أحدية، وكيف يكون لها مشيئة وقدرة وجميعها في قبضة الجبروت عاجزة أسيرة لعزته، وجلاله، دعا الخلق بنعت الإقبال إليه بلسان الغيرة عن الإقبال على معادن الحدثية ليكونوا عارفين بعز الربوبية وذل الخليقة.

قال ابن عطاء: دلهم بهذا على مقاديرهم؛ فمن كان أشد هيبة، وأعظم ملكًا لا يمكنه الاحتراز من أهون الخلق وأضعفه؛ ليعلم بذلك عجزه وضعفه وعبوديته وذلته، ولا يفتخر على أبناء جنسه من بني آدم بما يملكه من الدنيا.

قال أبو بكر بن طاهر: «ضعف الطالب» أن يدركه، والمطلوب أن يفوته.

ثم بيَّن سبحانه بعد ذكره عجز الخلق والخليقة جلال قدرة الذي لا يعرفه غيره بقوله:

﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أزال المخائيل والأوهام والعقول عن إدراك جلاله وقدره، وهذا شكاية الله عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ذكر غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية، ألا ترى كيف قال الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قال الواسطي: لا يعرف قدر الحق إلا الحق، وكيف يقدر قدره أحد وقد عجز عن معرفة قدر الوسائط والرسل والأولياء والصديقين، ومعرفة قدرة ألا تلتفت عنه إلى غيره، ولا تغفل عن ذكره، ولا تفتر عن طاعته إذ ذاك عرفت ظاهر قدره، وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدرها إلا هو.

ثم بيَّن سبحانه أنه اصطفى من الملائكة، ومن الناس رسلاً يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، الملائكة وسائط الأنبياء والأنبياء وسائط العموم والأولياء للأولياء خالصة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ هذا خبر عن مقام المكاشفة في المراقبة أي: إذا شاهدتم مشاهدة الكبرياء اركعوا، وإذا شاهدتم مشاهدة العظمة اسجدوا، وإذا شاهدتم جمال ربوبيته افنوا في العبودية: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ تخبرون عن هذه المقامات طلاب معرفتي ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بي عني، وتظفرون بعد فنائكم في بقائكم مع بقائي.

قال ابن عطاء: اركعوا واسجدوا واخضعوا وانقادوا لأوامره وسلموا لقضائه وقدره تكونوا من خالص عباده، وافعلوا الخير ابتغاء الوسيلة لعلكم تفلحون أي: لعلكم تجدون الطريق إليه، ثم أمرهم بحق الجهاد لوجدان حقيقة المعاد، والرجوع إلى المراد؛ لأن ما أمرهم بالركوع والسجود على مقادير العبودية، وطلب حق الربوبية في العبودية منهم بقوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ لا تظن أن هذا الأمر أمر مستحيل من حيث عجز الخلق عن درك إدراك حقيقته، إنما أراد بهذا الأمر فناء الخليقة في الحقيقة، وهذا ممكن خاصة أنه

أخبر تعالى أنهم بذلك مصطفون بقوله: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أي: هو اجتباكم بالفناء في بقائه حين ينكشف أنوار شموس القدم لأهل العدم، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي: أفنوا في الله حق الفناء بحيث لا ترون فناءكم في بقائه بل ترون وجوده بوجوده لا بوجودكم؛ لأن هذه الاجتبائية الأزلية يقتضي لكم مشاهدته، ومشاهدته يقتضي لكم فناءكم فيه، ثم بيَّن أن في هذا الطريق المبارك، والدين الشريف لم يكن حرج، وتكليف ما لا يطاق بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي: إذا شاهدتم مشاهدة جمال سهل عليكم فناءكم في جلالي؛ لأن من عاينني عشقني، وطاب عيشه معي، وسهل عليه بذل مهجته إليَّ لأن هذا مقام العاشقين الرامقين المحبين مثل الخليل والحبيب والكليم[1].

ألا ترى كيف قال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ملة أبيكم العشق والمحبة والخلة والاستسلام والانقياد، وبذل الوجود بنعت السخاء والكرم يا أسباط خليلي رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم قبل وجودكم بنور النبوة بقوله: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ سماكم منقادين، وبين يدي عارفين بوحدانيتي، وفيما ذكرنا من أوصافكم حبيبي شاهد عليكم عندي، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلَّغكم ونشر فضائلي عليكم.

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بأنكم تعرفونهم فيما هم فيه وأن رسلهم قد بلغهم رسالاتي التي سبب نجاتهم، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكرًا لنعمته وحمدًا لأفضاله أي: اطلبوني في مقام مناجاتكم في الصلاة، وادخلوا بهمتكم فيها؛ فإنها

---

(١) تلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليَحْطُطْ رِجْلَه بساحات العبادة فإذا عَدِمَ اللطائف في سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقَّق بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة، وإن لم يتحرج عن تَرْكِه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة. تفسير القشيري (٢/ ٨٩).

حصتي، وكونوا بنعت التجريد عن الدنيا، وما فيها في بذل أنفسكم إليَّ، وفي هذه المعاملات الشريفة اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا بي لأقويكم في طاعتي ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ حبيبكم وناصركم في الأزل ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ حيث لا مولى غيره ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ حيث لا يخذل من نصره بأن نصره عزيز ممتنع من نقائص النفس.

قال جعفر: حق المجاهدة على القلب فإن النفس لا يقوم بحق المجاهدة، وحق المجاهدة ألا يختار عليه شيئًا كما لم يخير عليكم بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

قال بعضهم: المجاهدة على ضروب مجاهدة مع أعداء الله، ومجاهدة مع الشياطين، وأشدها المجاهدة مع النفس، وهو الجهاد في الله، وهو الذي روي عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]، وهو مجاهدة النفس، وحملها على اتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

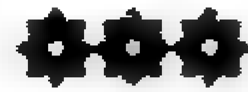
وقال ابن عطاء: الاجتبائية أورثت المجاهدة لا المجاهدة أورثت الاجتبائية.

وقال أيضًا: «ملة إبراهيم»: هو السخاء والبذل والأخلاق، والخروج من النفس والأهل والمال والولد.

وقال أيضًا: في قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: زينكم بزينة الخواص قبل أن أوجدكم؛ لأنكم في القدرة عند الإيجاد كما كنتم قبل الإيجاد سبق لكم من الله الخصوصية في أزله.

وقال النوري: الاعتصام بالله للخواص، والاعتصام بحبل الله للعوام، والاعتصام بحبل الله هو التمسك بالأوامر على السنن، والاعتصام بالله هو حفظ القلب، والسر عما يشغل عنه، والاشتغال بمراقبته، والإقبال عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أي: هو الذي يغنيكم به إن أقبلتم على الاعتصام.

وقال جعفر: نعم المعين لمن استعان به، ونعم النصير لمن استنصره.



(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٥١١) بنحوه.

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فاز بالله العارفون بمشاهدته عن حجبة الذين أجابوا الله من العدم بخطاب القدم، وشاهدوا القدم بالقدم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ هم الذين قاموا لله بالله بنعت الهيبة في مشاهدة عظمة الله في مقام المناجاة مع الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ عن لغو شياطين الإنس والجن وهو وهواجس النفوس، وكل ما سرى ذكر حبيبهم، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كان من طباع العارفين ألا يلتفتوا من حيث طبيعتهم إلى شيء يقتضي اللهو واللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ باذلون الأرواح والأشباح لله وفي الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ ساترون عورات أسرارهم عن الأغيار ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ الا على أهل القصة والنحلة ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ من أفشى سر الحق عنه غير أهله؛ فقد تجاوز حد الله؛ فيكون محجوبًا عن الله بالله، ومن لم يحافظ نفسه في حركات شهواتها، فيسقط في هاوية الغفلة بغلبة الشهوة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ الروح والقلب والعقل والسر، وما معهن من كشوف أحكام الغيب من الإيمان والبرهان والإيقان والعرفان أمانة الله الغيبة، ومراعاتي بدفع الخطرات عنها، ورياضة النفس عندها؛ فهو من شعار أهل الله الذين عاهدوا الله في سماع خطابه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم به يستقيمون في

طاعته ومرافقته وخدمته بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ﴾ محافظتهم عليها حفظ قلوبهم عن الوساوس عند جريان صفاء المواصلة وحلاوة المداناة والاستقامة في المناجاة.

ثم وصف هؤلاء الموصوفين بهذه الأحوال الشريفة، والدرجة الرفيعة، والمعاملات الزكية بأنهم ورثوا علم مشاهدة الله في بساتين غيبه، وحجال ملكوته، وورثوا قربة وصاله، ثم ورثوا منها مواليد حقائقها من هذه الأعمال والأحوال، وأمثالها من خواص العبودية في مشاهدة الربوبية بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ ورثوا من فيض الله معرفة الله حين عاينوا الله في عهد الأزل، ويرثون بها مشاهدة الله إلى الأبد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ﴾: وصلوا إلى المحل الأعلى والقربة والسعادة، وأفلح من كان مصدقًا لله بوعده.

قال أحمد بن عاصم: قال الأنطاكي: المؤمن من يكون بضاعته مولاه، بغيضته دنياه، وحبيبه عقباه، وزاده تقواه، ومجلسة ذكراه.

وقال القاسم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة.

وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم.

وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهممهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو هممهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر.

قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه.

قال يوسف بن الحسين: كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

قال جعفر في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾: عن الكون وما فيه متجردون، ولربهم منفردون.

وقال بعضهم: اللغو ما يشغلك عن الحق.

وقال أبو عثمان: كل شيء للنفس فيه حظ؛ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كل ما سوى ذكر الله؛ فهو لغو.

قال ابن عطاء: كل ما سوى الله؛ فهو لغو.

قال محمد بن الفضل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها بأمر؛ فأمانة العين الغض عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل المشي إلى الطاعات، والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم ألا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليدين ألا تمدها إلى حرام، ولا تمسكها عن الأمر بالمعروف، وأمانة القلب مراعاة الحق على دوام الأوقات حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حليف: الأمانة حفظ حدود الله، والوقوف على ما أجاب من لفظ «بلى».

وقال ابن عطاء: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾: المحافظة عليها هو حفظ السر فيها مع الله، وهو ألا يختلج فيها شيء سوى الله.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الذين يصلون إلى مواريث أعمالهم من رياضاتهم.

قال بعضهم: الفردوس ميراث الأعمال، ومجالسة الحق ميراث رؤية الفضل والنعماء.

قال الأستاذ في وصف الإيمان: ابتساط الحق في السريرة، ومخامرة التصديق خلاصة القلب، واستمكان التحقيق من تأمير الفؤاد.

وقال: الخشوع في الصلاة إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والامتحان عند غلبات التجلي[1].

وقال في قوله: ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ما يشغل عن الله؛ فهو سهو، وما ليس لله؛ فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله أو مقول مع الله؛ فهو لغو، وما فيه حظًّا للعبد؛ فهو لهو.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ

---

(١) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوْا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوَّتُوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (٤/ ١٧٠).

﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضًا، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحورًا؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضًا من هيبة عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فيبست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة مخاض الكون.

ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاقير أنوار

الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخمرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شموس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات.

فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»[1]، وكان ﷺ معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سباتًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

ثم تجلى لها في قرار رحم الفعل بالهيبة والعزة؛ فصارت ملونة بلون حسن الفعل الذي هو مرآة تجلي الجمال، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾؛ فلما أذابها في كبر العشق بنفخ المحبة، وصبغها بصبغ المودة صوغها في بوتقة الفطرة ذهبًا لنقش نقوش خاتم الملك، وألقاها في مشرق كشف شموس الربوبية حتى نضجت بنيران المحبة، وصارت سبيكة من لطف التجلي، وهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ثم صيرها سواقي بحار دماء الطبيعة، وجعل سواقيها عروق مشارب الفطرة، فتحركت من غلبتها؛ فغرس فيها الحق أشجار فعله حتى سكن بناؤها باستوائه قدرته بقوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾.

ثم خلعها خلعة مزيد فيض النظر في زمان التربية بقوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ ثم تركها في ضياء فعله ونور تجلي قدرته ليكمل استعدادها قبول نقش الملك فنقشها بنقش سر العلم بصورة آدم، ثم زين وجهها بزينة نور جماله، وصورها بصورة روح فعله وكلها برحمته،

---

(١) رواه البخاري (٥٨٤٣)، ومسلم (٢٦١١).

وجعل قلبها مجامع الأخلاق، وكيد وكبدها مجامع الطبائع ودماغها منورًا بنور عقل؛ فلما كساها نور خلقه وكملها بقدرته، وأدخلها روحه فصار آدم ثانيًا مواضع كنوز ربوبيته وحقائق قدرته وعلمه، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

ثم نـزه نفسه عن المشابهة بالحدثان والتغاير بتغاير الزمان والمكان بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ قدس جلاله عن الإبعاض والتجزؤ والتمثيل والتصوير ما أحسن صنعه وقدرته عين جاء أبناء آدم عالمًا، وجعل في آدم ما في جميع العالم.

وقال الحسين: الخلق متفاوتون في منازلهم، ومقامات خلقهم وصفاتهم، وقد كرم الله بني آدم بصورة الملك والملكوت وروح النور ونور المعرفة والعلم، وفضلهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

وقال أيضًا: خلق بني آدم بين الأمر والثواب وبين الظلمة والنور فعدل خلقهم وزاد المؤمنين بإيمانهم نورًا مبينًا وهدى وعلمًا، وفضلهم على سائر العالمين، كما نقلهم في بدء خلقهم من حال إلى حال؛ فأظهر فيهم الفطرة والإياب وتكامل فيهم الصنع والحكمة والبينات، وتظاهر عليهم الروح والنور والسبحات من كانوا ترابًا ونطفة وعلقة ومضغة ثم جعله خلقًا سويًا إلى أن كملت فيهم المعرفة الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ... ﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقال الحسين: خلق الخلق فاعتد بها على أربعة أصول الربع الأعلى الهيبة والربع الآخر آثار الربوبية والربع الآخر النورية بين فيها التدبير والمشيئة والعلم والمعرفة والفهم والفطنة والفراسة والإدراك والتمييز ولغات الكلام والربع الآخر الحركة والسكون كذلك خلقه فسواه.

وقال أيضًا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: فطر الأشياء بقدرته ودبرها بلطيف صنعه، فأبدى آدم كما شاء بها شاء، وأخرج منه ذرية على النعت الذي وصف من مضغة وعلقة، وبديع خلقه، وأوجب لنفسه عند خلقته اسم الخالق، وعند صنعته الصانع لم يحدثوا له اسمًا كان موصوفًا بالقدرة على إبداء الخلق؛ فلما أبداها أظهر اسمه الخالق للمخلوق، وأبرزه لهم، وكان هذا الاسم مكنونًا لديه مدعوًا به في أزله سمى بذلك نفسه، ودعا نفسه به، فالخلق جميعًا عن إدراك وصف قدرته عاجزون، وكل ما وصف الله به نفسه فهو له، وهو أعز وأجل أظهر للخلق من نعوته ما يطيقونه، ويليق بهم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

ثم إن الله سبحانه بعد وصف الخلق والخليقة وآدم والذرية أعلمنا محل فنائنا عن هذه الأوصاف الكاملة والصنائع الشريفة لتربية أخرى في التراب، وإظهار زيادة قدرة فينا بإدخال حياة ثانية في أشباحنا وتربية ثانية في أرواحنا بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الموت يتعلق بصعقة سطوات العزة، وظهور أنوار العظمة، وحياتنا تتعلق بكشف جمال الأزلي، هنالك تعيش الأرواح والأشباح بحياة وصالية لا يجري بعدها موت الفراق.

قال الحسين: ملك الموت هو موكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم، وموت العلماء هو بقاؤهم إلا أنه استتار عن الأبصار، وموت المطيعين المعصية إذا عرف من عصاه.

وقال بعضهم: من مات من الدنيا خرج إلى حياة الآخرة، ومن مات من الآخرة خرج منها إلى الحياة الأصلية، وهو البقاء مع الله.

ثم بيَّن سبحانه وصف أعلام قدرته، وعجائب صنوف صنعه في خلقه من سماواته وما فيها من طرقها إلى عالم ملكوته بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ وضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة، وتلك الطرائق: طريق الروح إلى معادن الربوبية وعرفانها بالحقيقة، فمنها طريق العقل، ومنها طريق العلم، ومنها طريق الحكمة، ومنها طريق المعاملة، ومنها طريق النفس، ومنها طريق القلب، ومنها طريق السر، وطريق العقل التفكر في الآلاء والنعماء، وطريق العلم معرفة الخطاب بطريق الحكمة المعرفة بحقيقة الأشياء، وطريق المعاملة تحصيل ذوقها وصفاتها باستعمال الآداب، وطريق النفس قطعها عن حظوظها والمعرفة بمكائدها وأخلاقها، وطريق القلب المعرفة بنازلات لطائف الغيب فيه، وطريق السر معرفة اتصالها بنور الحضرة.

فمن قطع هذه الطرق يصل إلى سبع الصفات، ورؤيتها والعلم بها حتى يصل إلى بحار الذات، واستغرق فيها بنعت الحيرة، فإذا استغاث من حيرته به أدركه بفيض المعرفة والوصلة، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ظاهر الآية تنبيه يوجب الإجلال والتعظيم في منازل المراقبات؛ فمن بقي في هذه الحجب السماوية والأرضية وارتهن بشيء منها، فقد انقطع عن مواصلة المشاهدة.

قال أبو يزيد في هذه الآية: إن لم تعرف؛ فقد عرفك، وإن لم تصل إليه؛ فقد وصل إليك، وإن غبت أو غفلت عنه؛ فليس عنك بغائب ولا غافل، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ

ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وقال بعضهم: سبع حجب متصلة تحجبه عن ربه، فالحجاب الأول: عقله، والحجاب الثاني: علمه، والحجاب الثالث: قلبه، والحجاب الرابع: حسه، والحجاب الخامس: نفسه، والحجاب السادس: إرادته، والحجاب السابع: مشيئته؛ فالعقل باشتغاله بتدبير الدنيا، والعلم لمباهاته مع الأقران، والقلب الغفلة والحواس لإغفالها عن موارد الأمور عليها والنفس؛ لأنها مأوى كل بلية، والإرادة وهي إرادة الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والمشيئة وهي ملازمة الذنوب.

وقال الأستاذ: فوقنا حجب ظاهرة وباطنة؛ نفي ظاهر السماوات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وغطاء كالمنية والشهوة والإرادة الشاغلة والغفلات المتراكمة، أما المريدون إذا أظلتهم سحائب الفترة سكن هيجان إرادتهم، فذلك من الطرائق التي علتهم، وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عروق الرغبة نفد قوة زهدهم وضعف دعائم صبرهم فيترخصون بالجنوح إلى بعض التأويلات فيعود رغباتهم قليلاً قليلاً، ويحيل رتبة عروقهم، وتنهد دعائم زهدهم، فبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون فربما تظلهم في بعض أحايينهم وقفة في تصاعد سرّهم إلى ساحات الحقائق؛ فيصيرون موقوفين ريثما ما يتفضل الحق سبحانه بكفاية ذلك، فيجدون نفاذًا ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق في جميع هذا الحق سبحانه غير تارك للعبد، ولا عن الحق غافل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنزل من سماوات القيومية مياه أنوار المعرفة بقدر قوى الأرواح القدسية، وأسكنها في أماكن قلوب العارفين فتجرى على عرضاتها، وتنبت أشجار الحقائق وأزهار الدقائق وياسمين المودة وورد المحبة ونرجس السعادة، وبنفسج الكفاية بقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وتنبت على سيناء العقل شجرة الإيمان التي تنبت ثمرة الإيقان التي دهنها وصبغها حقيقة التوحيد والعرفان، قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قال الأستاذ [1]: ماءٌ هو صوب الرحمة يزيل به درن العصاة وآثار زلتهم، وغبار

---

(١) انظر: تفسيره (٥/ ٢٤٧).

عشرتهم، وماء هو يسقي قلوبهم يزيل به عطش كيدهم، ويحيي به أموات أحوالهم، فينبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف أنوار الروح وماء هو شراب المحبة فيخضر به قلوب بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكر به قلوبًا فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر والخطر بذل الروح، فإذا شربوا طَرِبوا، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا [1].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أمر الله سبحانه نبيه نوحًا عليه السلام أن يصنع أعماله جميعًا على وصف المراقبة والمشاهدة حتى يكون محفوظًا بعصمته عن طريان القهر.

قال الجنيد: من عامل على المشاهدة أورثه الله عليه الرضا.

قال الله: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

(١) (وصِبغٍ للآكلين) أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً ودُهناً، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: أنـزلني منـزل مشاهدتك حتى أصل بركة وصالك، وأفوز برؤية جمالك وجلالك[1].

قال ابن عطاء: أكثر المنازل بركة منـزل تسلم فيه من هواجس النفس ووساوس الشيطان وموبقات الهوى، وتصل فيه إلى محل القربة منازل القدس، وسلامة القلب من الأهواء والبدع.

وقال الأستاذ: الإنـزال المبارك أن يكون بالله، والله على شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله[2].

---

(١) قوله: منـزلاً مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهي السفينة النوحية هاهنا؛ لأن الخطاب لنوح ﷺ، فكانت السفينة منـزلاً مباركًا له، ولمن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البرّ كان منـزلاً غير مبارك لمن عصاه من المشركين حيث أغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منـزلاً مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا محضًا، وهلاكًا صرفًا، فكما أن دخول السفينة كان خيرًا محضًا؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكانت الأرض أيضًا منـزلاً مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾ [هود: ٤٤]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها، ولما كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعوا نبينا ﷺ بهذا الدعاء لنزّله الله المنـزَل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكلّ منهم منـزَل مبارك لمن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

(٢) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النـزول إليها، وكذا البدن =

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝﴾ جعل الله عيسى وأمه مشكاتي أنوار قدسه، ومرآتي تجلي جلاله وجماله لبصراء الصديقين ونظَّار المقربين وآواهما إلى ربوة تلال مشاهد القدم ذات قرار لأسرار العارفين ومعين سواقي بحار الكرم التي شرباتها تحيي الأسرار من موت الفناء، وتبلغها إلى حياة البقاء.

ثم خاطب روحه وكلمته باسم الجمع؛ لأنه كان مجامع أخلاق جميع الأنبياء والرسل، ويمكن أن هذا خطاب مع سيد انرسل محمد المصطفى ﷺ، وهو أليق بذلك؛ لأنه بحر الله ينشق منها أنهار الأنبياء والرسل.

ثم أمره بأكل الحلال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الإشارة إلى خوان دنا فتدلى ومشاهدة الأعلى بين كان قاب قوسين أو أدنى جلال مشاهدته ووصال جماله جلال للعارفين، حيث لا يدخل فيه علة الحرمان، ولا فيه مخائيل الشيطان؛ فطلب منه بعد أكل موائد المشاهدة العمل الصالح، وهو التبري من الحدثان، وتلاشي النفس بنعت المعرفة في جمال الألوهية بقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فلما دنا من ترب القرب، ووصل إلى سر السر فرد القدم عن علة الحدث بقوله ﷺ:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] أكل عيسى من ربوة المشاهدة مائدة القربة، فلما رأى سطوات الديمومية شملت وجوده أفنى نفسه لثبوت العمل الصالح

=

الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلِّقًا به تعلُّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقَّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفَّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًّا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُّل والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العلية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفت الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر.

(١) سبق تخريجه.

عن إدراك عزته بشرط الحقيقة بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

قال سهل: الطيبات الحلال، والصالحات من الأعمال آداب الأمر بالفرض والسنة، واجتناب النهي باطنًا وظاهرًا.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملة المحبة والمعرفة المفردة عن شوائب الطبيعة مقرونة بنور الإسلام والإيمان لمن تابع المصطفى بنعت الأسوة والقدوة في جميع المعاملات والأحوال.

قال القاسم: أي: تفردت بشرف محمد ﷺ ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ مني شرف محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿فَٱتَّقُونِ ۝﴾ أي: لا تقطعوا عني بشيء سواي، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: شاهدني وبوصف إجلال جلالي وخوف عظمتي؛ فأنا ربكم أربيكم بحسن وصالي، ومعاشرة صحبتي.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝﴾ هذا إشارة تغيير لأهل المعاملات فشكا عنهم سبحانه أنهم يفرحون بمعاملاتهم، ورؤية أعواضها، وأضاف العلة إليهم؛ لأن أعمالهم التي لديهم صفات الحدثانية، ولا ينبغي للعارفين أن يفرحوا بها دون الله من العرش إلى الثرى، فالفرح الحقيقي ما صدر من شهود مشاهدة جلاله للأرواح القدسية الملكوتية فتفرح بوصاله، وروح جماله أبدًا في محل الأفراح.

ويا لبيب افهم كلامي؛ فإن العارف الصادق إذا استغرق في بحار المعرفة فهمومه أكثر من فرحه؛ لأن الفرح بما وجد من الله من قربة على قدر حاله، وما بقي عنه؛ فهو غير محدود، فإذا كان بما وجد محجوبًا عن الكل، فما معنى الفرح بمقام واحد، والوقوف علة يحجب بها الأكثرون، فبقي العارف من بحر الهموم أبدًا؛ لأن إدراكه قاصر عن البلوغ إلى عزة جلاله إذ جلاله منـزه عن درك المدركين، وإحاطة عرفان العارفين تعالى الله عن كل وهم وفهم.

قال بعضهم: ربط كل أحد بحظه في سعاياته وحركاته، والسعيد من جذب عن حظه،

ورد إلى حظ الحق فيه.

وقال الواسطي: الواقفون مع العارف على مقدار تأثير أنوار الحق فيهم لا على قدر حركتهم وسعيهم؛ لأنه ليس أحد يصل إلى معروفه بجهد ولا اجتهاد، ومن ظن أن شيئًا من أفعاله يوصله إلى مولاه؛ فقد ظن باطلاً فسبق العناية بصون الأشباح والأرواح وبوصل أهل معرفته إليه، فمن اعتمد غير ذلك؛ فقد سكن إلى غرور وفرح بالأماني وهو قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ كيف يفرح بما لديه، وليس يعلم ما سبق له في مختوم العلم[1].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا
يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١)
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ
قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ
(٦٥) قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ
سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨)
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

---

(١) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممّن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيا إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

إن الله سبحانه امتحن الممتحنين بزينة الدنيا ولذاتها وجاهها ومالها وخيراتها ليقطعوا طرق الامتحان، وحرموا إلى مشاهدة الرحمن فاستلذوها، واحتجبوا بها ظنوا أنها مآل جميع الراحات، وأنهم مقبولون حين أعطوا هذه المقامات، ولم يعلموا أنها استدراج لا منهاج، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال عبد العزيز المكي: من تزين بزينة فانية؛ فتلك الزينة تكون وبالاً عليه إلا من تزين بما يبقى من الطاعات والموافقات والمجاهدات، فإن الأنفس فانية والأموال عوار، والأولاد فتنة، فمن يسارع في جمعها وحفظها، وتعلق القلب بها قطعه عن الخيرات أجمع، وما عند الله بطاعة أفضل من مخالفة النفس، والتقلل من الدنيا، وقطع القلب عنها؛ لأن المسارعة في الخيرات هو اجتناب الشرور، وأول الشرور حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان فمن طلبها وعمرها؛ فهو حرانه وعبده وشر من الشيطان من يقين الشيطان على عمارة دار، وقال الله: ﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف الصادقين بالخشية والخوف والإيمان والتوحيد واليقين بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ الذين هم متعظمون عظمته وجلاله بعد كونهم معاينين رؤيته ومشاهدته خائفين من الهجران والاحتجاب بشيء من الحدثان، ثم قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوقنون أنها مشاهد مشاهدة قدسية وظهور صفاته وذاته.

ثم وصفهم بأنهم لا يؤثرون عليه شيئًا من الحوادث بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ لا يلتفتون في طاعته إلى غيره، ولا ينظرون منه إلى أنفسهم، وحظها من الكونين.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي: الذين سافروا سفر العبودية بحقائقها، وشاهدوا جمال الربوبية وأنوارها بنعت الخجل والوجل لعلمهم بأن ما أتوا من الطاعات وبذل المهج والموجودات في رؤية كبريائه وجلاله مع طاعات جميع المخلوقات أقل من ذرة، ووجل قلوبهم من صوله تجلى العظمة لها قلوبهم في الغيوب جوالة وأرواحهم في الملكوت والجبروت طيَّارة، وأسرارهم في ميادين تجلي الصفات والذات فانية.

ثم وصفهم بالتسارع إلى الخيرات بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ لطلب مرضاته ووصولهم إلى مشاهداته، وهم في ذلك سابقون في الأزل من الله بالسعادات الأولية والآخرية.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾: الإشفاق والخشية اسمان باطنان وهما عملان من أعمال القلب والخشية سر في القلب خفي والإشفاق من الخشية أخفى.

قيل: الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يديه، ومن بعد هذه المرتبة الإشفاق، والإشفاق أرق من الخشية وألطف، والخشية أرق من الخوف، والخوف أرق من الرهبة، ولكل منها صفة ومكان وأدب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾: مطالعة الكون بأبصار القلوب، فتعلم أنها في حدِّ الفناء، وما كان بين طرفي فناء؛ فهو فان فيؤمنون بالحق يفتح أبصار قلوبهم بالنظر إلى المغيبات.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾: من فتش سره فرأى فيه شيئًا أعظم من ربه أو أجل منه؛ فقد أشرك به، إذ جعل له مثلاً.

قال الواسطي: الخائف الرجل من لا يشهد حظه بحال.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب تصحيحها، والإخلاص والصدق فيها؛ لذلك قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ ...الآية﴾.

وقال أبو الحسن الوراق في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾: ذلك بما تقدم من الآيات بالمسارعة إلى الخيرات يبتغي درجة السابقين، ويطلب مكارم الواصلين لا بالدعاوى والإمهال، وتضييع الأوقات، من أراد الوصول على المقامات من غير آداب ورياضات ومجاهدات؛ فقد خاب وخسر وحرم الوصول إليها بحال.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾: الراغبون في رضا المولى.

حكي عن الشبلي أنه قال: وصفهم بالإشفاق والخشية، وذلك حين رفعهم مولاهم إلى منازل اليقين حتى وصلوا من علم اليقين إلى عين اليقين، وشربوا من عين اليقين بكأس

اليقين؛ فشاهدوا في مقام عين اليقين، وارتفع عن قلوبهم كل شكٍّ، وريب ثم نقلهم من تلك المقامات كلها إلى منازل الخوف، فنازلوا الإشفاق والحذر والخشية، فوجلت قلوبهم من تلوين الأحوال عليهم، وهم من خشية ربهم مشفقون.

وقال النهرجوري: هم القائمون مع الله من حيث قام لهم، ومن حيث يرون قيام الله لهم؛ فهم في أحوالهم مشفقون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أن الله سبحانه خلق النفوس الروحانية من عالم الملكوت، وهي صدرت من فيض لطف صفاته؛ فهي تحمل أمانات معرفة ربوبيته، وهي تطيق حمل ما رد تجلي الذات والصفات إذ هي محمولة بمطايا أنوار العناية والكفاية، وخلق النفوس الإنسانية من عالم أنوار الفعل، وهي صدرت من تواثير سلطان قهر القدم، وهي مجبولة لحمل أثقال العبودية إذ هي محمولة بمطية ذلك القهر؛ فكانت النفوس مطايا حمل الربوبية والعبودية، وهي تسعها به لا بها.

لذلك قال ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»[1]؛ فإذا جاءت بنعت الإشفاق إلى مشاهدة الذات والصفات، وبنعت العجز عن مقابلة الجبروت، وعجزها عن حمل عزة الملكوت، خرست عن الأعذار يعتذر صانعها بنطق أزلي بأنها صادرة من الحدثان غير مخلوقة لحمل أصل القدم، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ يشهد لها لا عليها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بأن القدم بوصف القدم يكون حملها بل يكون حملها على قدر وسعها.

قال الجريري: لم يكلف الله العباد بمعرفته على قدره، وإنما كلفهم على أقدارهم، فقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولو كلفهم على قدره ومقداره لجهلوه وما عرفوه؛ لأنه لا يعرف قدره أحد سواه، ولا يعرفه على الحقيقة سواه، وإنما ألقي إلى الخلق منها اسمًا ورسمًا إكرامًا منه لهم بذلك، وأما المعرفة؛ فإنها التحير والتَّيهوية.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٥٥).

ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا
بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ
لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ
مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ
ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾
قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا
هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ انهم أن الله سبحانه ألبس وصف قهره النفوس الأبية فاستكبرت عند مباشرتها القهر الجبروتي، وخرجت بنعت الكبرياء إلى ميادين الربوبية فألقى الحق سلطان عزمة قدمه عليها وكسر قرونها بطاعته، ولولا أنه تعالى حبسها في ملازمة قهره لخربت الأرض بفسادها وتكبرها، ولم يرتفع طاعة المطيعين إلى السماء، وكيف يكون الصانع القديم بمراد النفوس الحديثة إذ جلاله كان منزهًا عن محل إرادة كل مريد وحلول كل حادث، أعطاها شرف مباشرة ربوبيته فأبت بحظوظها عن رؤيتها، لذلك قال سبحانه: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ بذكره الأزلي ذكرهم بالعبودية وشرَّفهم بالطاعة، نهم عن شرف الطاعة معرضون، وأيضًا تجلى الحق في لباس القرآن لأهل العرفان، ولم تبصره أبصار أهل الطغيان.

قال الواسطي: أول ما كاشف الله خلقه كاشفهم بالمعارف ثم بالوسائل ثم بالسكينة ثم بالبصائر؛ فلما عاينوا الحق بالحق فنوا عن كل همة وإرادة.

قال بعضهم: لولا أن الله تعالى أمر بمخالفة النفوس ومباينتها لاتبع الخلق هواهم في شهوات النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا مخالفتها، ألا ترى الله يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن حبيبه صلوات الله عليه يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ الصراط المستقيم ما أوضحه أنوار جماله ومشاهدته، وهو طريق معرفته في قلوب الصديقين لأرواح القدسية، وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا لله مع الله، ولم يطلبوا منه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقامًا.

قال بعضهم: لي الإقبال على الله، والإعراض عمن سواه، ثم بيَّن سبحانه حال المحرومين عن هذه الطريقة المباركة والإيمان بالغيب والآخرة، ووصفهم بالضلالة عن طريق الصواب بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: الذين لا يشاهدون بقلوبهم أنوار الغيب لناكبون عن متابعتك يا محمد.

قال أبو بكر الوراق: من لم يهتم لأمر معاده ومنقلبه، وما يظهر عليه في الملأ الأعلى والمشهد الأعظم؛ فهو ضال عن طريقته غير متبع لرشده، وآخر منه حالاً من يهتم لما جرى له في السبق من ربه؛ لأن هذا المصدر فرع لتلك السابقة، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ الآية.

ثم بيَّن أن لو كشف لهم حجاب الهجران، ورأوا جمال الرحمن لادعوا من سكرهم في جمال الأنانية بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لو خلصهم عن درك الامتحان، وكشف عنهم ضر الحرمان للجوا في دعاويهم العظيمة التي تفسد الرسوم، وبقوا في طغيان دعاويهم.

قال ابن عطاء: الرحمة من الله على الأرواح المشاهدة، ورحمته على الأسرار المراقبة، ورحمته على القلوب المعرفة، ورحمته على الأبدان آثار الخدمة عليها على سبيل السنة.

وقال أبو بكر بن طاهر: كشف الضر هو الخلاص من أماني النفس، وطول الأمل،

وطلب الرياسة والعلو، وحب الدنيا؛ فإن هذا كله مما يضر بالمؤمن.

قال الواسطي: للعلم طغيان، وهو تفاخر به، وللمال طغيان، وهو البخل، وللعمل والعادة طغيان، وهو الرياء والسمعة، وللنفس طغيان، وهو اتباع شهواتها.

ثم بيّن أنه تعالى ابتلاهم بعذاب الفرقة، ولم يتحسروا بذلك، وما أرادوا الرجوع إليه بنعت التصريح بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

وافهم أن الله سبحانه وقع المريدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله.

قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ نزه نفسه سبحانه عن مخايل الزنادقة، وكان منزهًا عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنع بكمال أحديته عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذ القدم المنزه إذا تجلى بنعت القدم

للحدثان صار معدومًا كالعدم تعالى الله عن كل وهم وإشارة.

قال الحسين: الصمدية ممتنعة من قبول ما لا يليق بها؛ لأن الصمدية تنافي أضدادها على الأبد، وهي ممتنعة عن درك معانيها؛ فكيف تبقى مع أضدادها، وما لا يليق بها[1].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ دعا حبيبه إلى استعمال خلقه العظيم وظرفه الكريم الذي مستفاد من خلقه حين ألبسه إياه حين اصطفاه على العالمين أي: احتمل بحلمك جفاء الجافين، وراعهم بطيب الكلام، وحسن السلام، وإعراض الجميل.

قال القاسم: استعمل معهم ما جبلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة؛ فإنك أعظم خطرًا من أن يؤثر فيك ما يظهرونه من أنواع المخالفات.

قال بعضهم: ادفع عنك بأخلاقك جهلهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بيّن سبحانه أن من كان ساقطًا عن مركب الطاعات لم يصل إلى الدرجات، ومن كان محرومًا عن المراقبات في البدايات كان محجوبًا عن المشاهدات والمعاينات في النهايات، وإن أهل المزخرفات والدعاوى والترهات تمنوا في وقت النـزع إن لم يمض عليهم أوقاتهم بالغفلة عن الطاعات، ولم يتكلفوا بالدعاوى والمحالات.

قال أبو عثمان في كتاب له إلى أهل «جرجان»: لو عمل أهل النار عملاً أنجى لهم من طاعة الله وصلاح لما فرغوا في وقت العيان إلا إليه بقولهم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾؛ فأقبل على طاعة مولاك، واجتنب الدعاوي، وإطلاق القول في الأحوال فإن ذلك فتنة عظيمة، هلك في ذلك طائفة من المريدين، وما فرغ أحد إلى تصحيح المعاملات إلا أداه بركة ذلك إلى سني الرتب، ولا ترك أحد هذه الطريقة إلا تعطل.

---

(١) واعلم إن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأدّيته إلى التكثّر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأدّيته إلى الذلّة المنافية للألوهية.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ أخبر عن أوائل كشف جلاله وجماله؛ فإذا قاموا على بساط الهيبة، وسرادق الكبرياء والعزة، وعاينوا الذات القديم، ولهوا في مشاهدته مستغرقين في بحار أنوار جماله وجلاله، واشتغلوا بذوقهم في وصاله من وصاله عن مرافقة كل رفيق، ومصادقة كل صديق، وانتسابهم إلى الأخوة والمصاحبة، ولا يتساءلون عند سطوات عظمته حالهم بعضهم بعضًا لشغلهم بمعاينة وجوده وجوده ونشر جوده؛ فإنهم غائبون في شهودهم مشاهدة قربه ومعاينة قدمه وبقائه فنسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية واصطفائية القدمية، لا يفتخرون بشيء دونه من العرش إلى الثرى.

قال فارس: الأنساب رؤية الأعمال، ورجاء الخلاص بها، ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يتذاكرون مما جرى عليهم في الدنيا من نعيمها وبؤسها شغلاً بما هم فيه.

قال محمد بن علي الترمذي: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة في عبودية ربه؛ فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدًا، وتلك النسبة المفتخر بها لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد[1].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: غلبت علينا الدعاوى الباطلة، والخوض في الطّامات والترهات.

قال أبو تراب: الشقوة: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

---

(١) (فلا أنساب بينهم يومئذٍ) تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. البحر المديد - (٤/ ٢٠٦).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ جزيتهم بمشاهدتي بما صبروا في طاعتي، واحتمالهم جفاء أعدائي؛ فإنهم فائزون من فراقي أبدًا، خارجون من عناء الفرقة، وطعن الطاعنين في زمان المحبة.

قال أبو عثمان: ما صبروا حتى أكرموا بالصبر، والصبر حبس النفس عن الشهوات.

قال ابن عطاء: صبروا عن الخلق، وصبروا مع الله.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفائزون: الآمنون من أهوال القيامة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ غيرهم بما سكنوا إليه مما وجدوا منه حيث ظنوا أن ما وجدوا منه على حدِّ الكمال فوقفوا؛ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ للوقفة عني بشيء مما وجدتم مني ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بنعت الفناء عما وجدتم، وعما سكنتم به عني، ثم عظم جلاله وكبرياءه عن إدراكهم، وإن رجعوا إليه به بقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ تعالى جلاله عن أن يدركه المدركون، ويلحق بعزته اللاحقون، هو الحق بحقيقته، وحقيقته لا يطلع عليها إلا هو، تلاشت الحدثان في سطوات جلاله حتى أن العرش الكريم مع عظمه صغر في عين نملة من قهر عزته، ومن نظر إلى شيء سواه، وإن كان منه رتبة عظيمة في المعرفة؛ فهو محجوب به عنه بقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾.

ثم أمر صفي المملكة بعذر عجزه، وتحيره عن درك نعوته الأزلية، وصفاته الأبدية بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ ﴾ اغفر تقصيري في معرفتك، وارحمني بكشف زيادة المقام

في مشاهدتك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إذ كل رحمة في الكونين قطرة مستفادة من بحار رحمتك القديمة.

حكى يوسف بن الحسين عن أحمد بن أبي الحواري في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾: لا يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حق لم تؤده.

وقال الواسطي: أظهر الأكوان ليظهر آثار الولاية على الأولياء، وآثار الشقاء على الأعداء.

وقال في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة.

وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه.

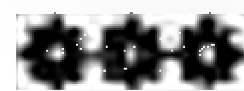
قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا.

وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

سورة النور



فهرس المحتويات

ʿARĀʾIS AL-BAYĀN FĪ ḤAQĀʾIQ AL-QURʾĀN

By

Rūzbahān al-Baqli

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

VOLUME II

